

سليم بركات



الأعمال الشعرية / شعر عربي معاصر
سليم بركات / مؤلف من سورية
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنایع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : 11-5460 ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفكس : 751438 / 752308

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عُمان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفكس : 5685501

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

موقع الغار الإلكتروني : www.airpbooks.com

خطوط الغلاف والإشراف الفني :

ستيف ميسيه®

لوحة الغلاف : مائل / فنان نمساوي من أصل كردي

الصفحة الضوئية : المؤسسة العربية للدراسات والنشر

التفصيل الطاعي : مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

ISBN 978-9953-36-177-0



الاعمال الشعرية

سليم بركات



المقدمة

سليم بركات، فتنة المعجم وإسار الدلالة

صبحي حديدي

I

القامشلي مدينة صغيرة تقع في أقصى الشمال الشرقي من سورية ، تأسست في عشرينيات هذا القرن لكي تكون محطة زراعية تخدم مواسم زراعة القمح والشعير وبعض القطن وحصادها ، وسرعان ما أصبحت أبرز مدن منطقة «الجزيرة» وبلداتها ، التي سُمّيت هكذا بسبب وقوع سهولها المنبسطة الخصبة بين نهري الفرات ودجلة . والموقع الجغرافي لهذه المنطقة يفسر تنوعها الإنساني والثقافي واللغوي والإثني : من الشمال تحدها جبال طوروس ، ومن الشرق العراق وكردستان الشمال ، ومن الجنوب بادية الشام وتدمر . وبالمعنى السوسولوجي والاقتصادي ، كان ارتباط حياة البشر بدورة المواسم الزراعية قد جعل منطقة «الجزيرة» ، وبالتالي مدينة القامشلي بوجه خاص ، تنفرد عن بقية المناطق السورية في أنّ معظم سكانها من الوافدين الذين قَدِمُوا من مناطق الداخل السوري (دمشق وحلب) بحثاً عن العمل الموسمي ثم استقرّوا ، أو من المهاجرين الذين توافدوا من تركيا والعراق

وأرمينيا ، هرباً من الاضطهاد العرقي أو السياسي .
 ذلك جعل القامشلي موطناً لأقوام من الأكراد واليزيديين والأرمن
 والسرمان والآشوريين والبدو الرّحل والعشائر المستوطنة الإقطاعية ، الأمر
 الذي استدعى تعددية أخرى على صعيد اللغات والأديان والمذاهب
 والتراثات والأساطير . وهذا الموقع الفريد لمنطقة «الجزيرة» يذكّر ، على نحو
 مدهش ، بالأبيات التالية من الشاعر اليوناني كوستيس بالاماس :
 ذلك المثلث القائم على هندسة مربعة ،
 والذي قطنه محاربون قدماء
 كان يتحكّم بالسهول ، مثل ذروة مجلّة بمشيب ثلجي معمر
 من بابل إلى سورية ، ومن جبال طوروس إلى لبنان ،
 من قلاع طرسوس إلى خلافات بغداد . (١)

في القامشلي ولد سليم بركات سنة ١٩٥١ ، وفيها ترعرع ودرس
 وحصل على الشهادة الثانوية وانتسب إلى جامعة دمشق - قسم اللغة
 العربية وأدبها في العام ١٩٧٠ ، ثم استقرّ نهائياً في العاصمة السورية بعد
 انتقال أفراد أسرته إليها . وفي عام ١٩٧١ ، وهنا أعتمد على الذاكرة
 الشخصية وحدها ، نشر بركات أولى قصائده في مجلة «الطلّيع» ،
 الأسبوعية السورية التي كانت تضمّ قسمًا ثقافيًا دسمًا وحدائيًا ، استقطب
 الأسماء الشابة بصفة خاصّة . آنذاك ، كان المشهد الشعري السوري يضمّ
 أمثال علي الجندي وممدوح عدوان وعلي كنعان ومحمود السيّد ومحمد
 عمران في صفوف الشعراء الأكبر سناً وتجربة وتناجاً ، «المكرّسين» لهذا

(1) Kostis Palamas, "The Twelve Lays of the Gipsy." Trans. George Thomson,

London 1969. P. 107

السبب الجمالي أو ذاك السياسي ؛ وكان يضم أمثال نزيه أبو عش وعادل محمود وبندر عبد الحميد وإبراهيم الجرادي ومحمد مصطفى درويش ومحمد منذر المصري في صفوف الشعراء الأصغر سنًا وتجربة ، والأقل اندماجًا في المؤسسة .

في خلفية هذا المشهد الأجيالي ، إذا صح القول ، كانت أشكال كتابة الشعر تخضع لضغوطات جمالية (صامتة ، بمعنى ما) من المعلم الكبير محمد الماغوط ، الذي أصدر مجموعته الشعرية الثالثة «الفجر ليس مهنتي» ثم انزوى في عمل وظيفي محض هو رئاسة تحرير مجلة مغمورة اسمها «الشرطة» ؛ وتخضع ، كذلك ، لضغوطات أخرى غير صامتة مارستها قصائد شعراء قصيدة النثر السورية ، من أمثال سليمان عواد ، سنية صالح ، حامد بدرخان ، وإسماعيل عامود . كان شكل التفعيلة هو السيد بصفة إجمالية ، ولكنّ التعايش مع أشكال الكتابة الشعرية الأخرى (وقصيدة النثر بصفة خاصة) كان سيد اللعبة في الآن ذاته ، بدليل الترحيب الواضح بنشر نصوص الشعراء الشباب في منابر رسمية مثل مجلة «الطليلة» وملحق «الثورة» الأدبي ، وشهرية «الموقف الأدبي» الصادرة عن اتحاد الكتاب . آنذاك ، أيضًا ، اخترق بركات هذا السطح الراكد ، الرتيب ، المتوافق على تعايش سلمى بين الأجيال والأشكال والموضوعات . وإذا لم تخنّي الذاكرة ، هنا أيضًا ، كانت قصيدة «نقابة الأنساب» هي الكتلة الثقيلة التي سقطت بغتة على السطح الراكد وأحدثت ارتجاجًا عنيفًا كان من المحتم أن يصفي إليه الجميع :

«هذا وجهي العصري»

أنا أت

فليرقب كلّ ملكٍ شحاذ في أرض الردّة من أين تجيء الطعنات .

عبر تخوم الغربة في أجفان صبايا الله وعبر الساقية

أختصرُ الزمنَ الخائفَ في عينِ النسوةِ ، أزجي الزمنَ القرشيَّ إليها
لا الدمعَ ونزفَ الفقراءَ ينيخُ الرَّحْلَ ، طوافي
خلفَ قوافلِ زغبٍ .. فليرقُبْ
كلَّ ملكٍ شحاذٍ في أرضِ الردّةِ من أين تجيءُ الطعناتُ .
«هذا وجهي المصري»
بلا نعلٍ أرحلُّ نحو بلادِ الفرسِ وأمصارِ الرومِ وأرفعُ وجهي
للظلماتِ أسائلها
وأسائلُ رجليَ الداميتينِ عن الأرضِ العمياءِ وهمسِ خفافيشِ
سمائي

وبكلِّ مثولي بين يدِ الغربةِ أصرخُ :
تسهلُ أفراسُ الحربِ على أبوابِ الكعبةِ يا أهلَ الشامِ ووحدني
أبسطُ للمتجثمينِ إلى ظلِّ الأحجارِ السوداءِ ردائي
أقطعُ حينَ ينوسُ الموتُ على وجهِ الحُجَّاجِ ،
وبين الصدرِ المُشرَّعِ للطعنةِ والرمحِ الظامي أتخثرُ ،
أزحمُ ملكوتَ الرهبةِ صدْعًا يفصلُ عرباتِ الزمنِ اللاهثَ قُدَّامي
وودائي

أنصاعدُ في أنفاسِ الكعبةِ جمرًا تتنفسه الصحراءُ فتحبو
حاملةً هزجَ قبائلها نحو قوافي الحربِ ؛ أزنُرُ نَسَبَ الراجلِ
بالفارسِ ، والهاربِ بالثابتِ في الحومةِ حتى يرخي النخلُ النادبِ
جنحَ الدمعِ عليَّ ..

أبايعُ في حممةِ الأرماعِ لوائي
أضربُ شرقًا ، غربًا ، ضربَ اليأسِ .. يسقطُ وجهي الأوَّلُ
أضربُ .. يسقطُ وجهي الثاني
أتراجعُ بالحُجَّاجِ إلى عرفاتٍ غبارًا يتكسرُ تحتِ حوافرِ ريحِ الوهنِ

القاصم

ثم غوت لتحلم

ثم نقوم لتحلم

ثم نفضد أوردة كي نلمح في الدم مجيء الأشجار مع اليوم التالي
عاقدة

فرح الأنهار على الهامات عمائم . (٢)

كان الجديد واضحًا وطاقيًا وأسراً ، وكان صارخاً أيضاً : في هذه
الفصحى الحارّة النزقة المصفّاة ، التي لا ترجع أصداء البيان العربي
التقليدي ولا المجاز البلاغي المعتاد ؛ وفي البنية الإيقاعية المتسارعة وفق
تخطيطات تفصيلية متقطّعة ومتّصلة في آن ؛ وفي المرجعية التاريخية
والتراثية الشفيفة بقدر امتزاجها الكثيف ؛ وفي التصاعد الدرامي لضمير
المتكلم المفرد ، الأشبه بـ «أنا» جمعية لا تكشف عن تعدديتها إلا في
الخاتمة المفاجئة ؛ وفي التقسيم البارع للسطور الشعرية ، والتغيب الذكي
للقافية ، والهندسة السلسة للعلاقات التركيبية بين الجملة الإسمية
والجملة الفعلية .

كان بركات في العشرين من عمره حين كتب هذه القصيدة ، وكان
الحضور الإنساني لهذا الفتى الكردي القادم من أقصى الشمال الشرقي
(بجسده النحيل ، وقسمات وجهه الطفولي ، والدهشة الذاهلة التي لا
تفارق محيّه ، والبراءة الطافحة التي لم تكن تطمس بريق الذكاء
والتوقّد) ، قد بدأ يمارس فتنة غير مأقوفة في الأوساط الأدبية السورية مطلع
السبعينيات ، سرعان ما انقلبت إلى افتتان بالقصائد اللاحقة التي

(٢) سليم بركات : «الديوان» ، دار التنوير ، بيروت ١٩٩٢ . ص ٣٥-٣٦ .

سينشرها بركات في الدوريات السورية : «مبعوث الفراشات» ، «قنصل الأطفال» ، «المطالبة بجسد فراشة غريبة» . . . ولن يطول الزمن حتى تضيق العاصمة السورية بقلق هذا الـ «رامبو» الكردي المتمرد الفاتن ، فيغادر إلى بيروت باحثاً عن الحرية الشخصية أولاً ، والهامش الأوسع الذي سيتيح له نشر قصائده ذات الموضوع الكردي الصريح : «دينوكا بريفا ، تعالي إلى طعنة هادئة» ، «الكواكب المهرولة صوب الجبل» ، «أنا الخليفة لا حاشية لي» ، وهي القصائد التي ستشكل العماد الأهم في مجموعته الشعرية الأولى ذات العنوان الطويل وغير المؤلف : «كلّ داخل سيهتف لأجلي وكلّ خارج أيضاً» (١٩٧٣) .

وكما أحدثت قصيدة «نقابة الأنساب» صدمة بهيجة في دمشق ، كذلك أحدثت نشر قصيدة «دينوكا بريفا . . .» صدمة ماثلة ، أكثر تعقيداً ودلالة في الواقع ، حين نُشرت للمرة الأولى في مجلة «مواقف» سنة ١٩٧٢ . كانت القصيدة تطرح اسم سليم بركات بقوة ، وتخترق موانع الكتابة الشعرية العربية في قلب بيروت ، عاصمة الحداثات العربية ، وتكرّس الشاعر ناطقاً بليغاً (بفصحى جبارة غير مألوقة!) باسم الموضوع الكردي ، في التاريخ والجغرافيا والحكاية والأسطورة . آنذاك ، لم يخف على أحد ، وفي طليعتهم أدونيس رئيس تحرير «مواقف» الذي سارع إلى احتضان القصيدة مثل مجموعة بركات الأولى ، أنّ هذا الصوت ليس جديداً فحسب ، بل هو مبالغت وإنشقاقي واختراقي .

وكانت القصيدة قد أحكمت شدّ الروابط بين الحكاية والفانتازيا ؛ بين الوقائع المادية ومحفوراتها السريّة في باطن الوعي ؛ بين التجسيدات البدئية لما يجري على سطح المحاكاة الطبيعية ، والتصوير البصري التشكيلي الأسر ؛ بين المكان بوصفه أكثر من مجرد كيان جغرافي معرّف أو قابل للتعريف ، وبين المكان ذاته بوصفه موقع التنقيب عن الاستعارة المفتوحة ،

عن الهاوية التي تتقلب فيها حكايات البشر (من الكرد والبداءة والآشوريين والشركس...)، وحكايات الحيوان (الذئاب والنعاج والكلاب السلوقية وبنات آوى...)، وحكايات الطير (الكركي، الزرزور، الحجل...)، وحكايات النبات (السرخس، الخزامى، العنّاب...)، هذه التي تأتلف مراراً لتشكّل حكاية واحدة حاشدة لأسطورة تنفجر بعنف، في اللغة وخارجها، وفي الصورة وأعلى منها، وفي الإيقاع المنتظم والإيقاع المتفتت. وهذه القصيدة تسجل، أيضاً، أول أمثلة استخدام سليم بركات للنثر في قصيدة تواصل الاعتماد على التفعيلة، وإن كانت تلجأ أيضاً إلى «تذويب» السطر الشعري المستقل عن طريق إدخاله في مقاطع تدويرية طويلة. ولعلّ بين أفضل ما أنتجته الكتابة الشعرية العربية المعاصرة التي تعتمد النثر، ذلك الاستهلال الأخاذ الذي يفتح القصيدة:

عندما تنحدر قطعان الذئاب من الشمال وهي تجرّ
مؤخراتها فوق الثلج وتموي فتشتعل الحظائر المقفلة،
وحناجر الكلاب، أسمع حشرة دينوكا .
في حقول البطيخ الأحمر، المحيطة بالقرية، كانت السماء
تتناثر كاشفة عن فراغ مسقوف بخيوط العناكب وقبعات
الدرك، حيث تخرج دينوكا عارية تسوق قطيعاً من بنات
آوى إلى جهة أخرى خالية من الشظايا .

II

في قصائد مجموعاته اللاحقة سرف يواصل سليم بركات بحسه المديد (الشاق والمدهش) عن توازن الأنواع، في المساحة الواسعة من حقول التنويع التي توفرها ديناميات الشكل الأدبي. في قصيدة «قنصل

الأطفال» (من المجموعة الأولى) جرّب اجترح نسق شعري تركيبي يعتمد إيقاعات الجاز والتتابع السيمفوني في أن معاً . وفي «أقتلوا روناشتا» (من مجموعة «هكذا أبعثر موسيسانا» ، ١٩٧٥) اعتمد المشهدة المسرحية ، والكورس ، والمرونة النغمية للإيحاء بالأجواء الاحتفالية والراثية والطقسية . وفي «الفصيلة المعدنية» (المجموعة ذاتها) قارب النثر من جديد ، وإن كان قد فصل المقطعين النثرين عن جسم القصيدة بوسيلة منحهما عنوانين مستقلّين : «سيناريو للشجر» ، و«سيناريو للثلج» . وفي «البراري» و«فراشات للعواصم» (مجموعة «للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك» ، ١٩٧٧) حاول تقديم الجملة الشعرية التي تكسر علامات الوقف والترتيب الطباعي للسطر الشعري ، وتنفذ التشكيل الهندسي للصفحة بتفصيلات ملحمية وتغريب لفظي ومقاطع متجاوزة محاطة بأشكال هندسية . كذلك تسجّل هذه القصيدة غنائية طافحة طارئة على أسلوبية بركات ، ومثلاً إلى تشديد القافية ، وإلى الإيجاز المقطعي والتكثيف اللفظي :

للشهداء

أنثر قلبني كفراشات

وأقود إلى أعشاش الماء

كبدني ،

وعصافير دمشق ، وسماحي

وأهروول بين الأعشاش لأمسك موجاً ،

أو عاصمة ،

وأهروول بين الأعشاش لأمحو

هذا الزيد العربي عن الأسماء .

كلّ شهيد يتقدّمني الآن ،

وللشهداء
أنثر قلبي كفراشات
وأقول : انكسري يا أعلامٌ وغيبني
يا قصبات النصر المترع
بالأظلاف وبالطيب
وليتطلق الأمراءُ إلى نصر أكثر مهزلةً ،
وليتطلق السفهاء ... سأعلو
نزقًا كالغزو على واجهة الصحراء (٣)

وفي مجموعته «الجمهرات» : في شؤون الدم المهرج والأعمدة وهبوب
الصلصال» (١٩٧٩) قدم بركات القصيدة الواحدة الطويلة التي اعتمدت
على شكل الكتابة النثرية ، وتنوع المقاطع بين الفقرة الطويلة المدوّرة
والسطر الشعري القصير ، وتنوع الحرف بين أبيض وأسود ، واستخدام
الهوامش التي تحيل إلى ملاحق القصيدة (البغل الأعمى ، الحداة ، بنات
أوى ، بقرات السماء ، العرائس ، الأدرج) ، كما اختتمت القصيدة بتسعة
أناشيد معتمدة على التفعيلة ، متفاوتة الحجم ، مشتركة في شحنتها
الغنائية العالية ونبرتها الرثائية وبنائها الإيقاعي الرهيف . وفي هذه
القصيدة الطويلة انضحت أكثر فأكثر طاقات بركات اللغوية والتصويرية ،
وبدا أنّ لا حدود لعدته التخيلية في توليد وشائج بالغة التعقيد بين
الصورة البصرية والصورة الذهنية ، وبين الدلالة القاموسية والدلالة المجازية ،
وبين مختلف طرائق حشد المعنى وتنظيم مستويات استقباله .
في «الكرائي» (١٩٨١) ، وهي أيضًا قصيدة واحدة طويلة من

(٣) المصدر السابق ، ص ٧ .

فصلين ، جرّب بركات كتابة نصّ شعري سردي الطابع ، روى فيه حكاية ديلانا وديرام (النموذج الكردي من فولكلور حكاية العشق الثنائي : قيس وليلى ، جميل وبثينة ، روميو وجولييت ...). وفي الفصل الثاني القصير قدّم عددًا من الـ «تعريفات» للكائن الأدبي (ديلانا وديرام) ، وللحيوان (التَيْتَل ، الوَشَق ، السلوقي) ، وللطير (الهدهد ، البشروش ، السنجاب) . بعد سنتين سوف يصدر مجموعته السادسة «بالشباك ذاتها ، بالثعلاب التي تقود الريح» ، وسوف يضمّنها قصيدته البديعة «فهرست الكائن» التي ستواصل تراث «تعريف» الكائنات الحيّة ، وتمنحنا تلك الفرصة البهيجة في استعادة أدب الحيوان العريق ، والإحساس بموضوعات الطبيعة كاشياء مشاهدة ومُعاشة من الداخل وليس كمُدركات ذهنية مفهومية . وفي العديد من الحوارات الصحفية اعتبر بركات أنّ الحيوان هو الحرية المتماهية على نحو مطلق مع الغريزة ، وأنّه هو «اللدنس» ، «المتلى» بعافية الدور الأعمى الأكثر جمالاً .

وفي «فهرست الكائن» نقع على وصف للفراشة ، والفقمة ، والحبّاحب ، والحجل ، والقطة ، والقلق ، والخنكليس ، والخُلْد ، والعنكبوت ، والحلزون ، والديك ، والزيز ، والطاووس ، والفهد ، والعصفور ، واليعسوب ، والخفاش ، والثعلب ، والحمار ، والغراب ، والنسر . وفي وصف هذا الطائر الأخير يقول بركات :

أهو وصيّ الأقاصي يدوّن مديح الأقاصي ، أم سَهَرُ الريش على حَجَرِ المكان؟ لا يا سهر الريش ، لا واسع أو مديد إن تراءى من جناح ؛ لا جناح لو لم يفق الواسع المديد . وأنت ، عاليًا ، على أيّ حال ، تغزل الخيالات ، وفي ظلك يتماوج الصلب . مُره ، واخفق كنبيضة في الغد العالي ، غد العاصفة وحدها أن تفرع الفراغ القديم .

مُرّ، لا :

فليمّر الفضاء الحيران في ظلك الحير ،
وليخلع المرثي مهاميز عصيانه .^(٤)

قصيدة «حديد» ، في المجموعة نفسها ، مؤرخة في «نيقوسيا ، شباط - آذار ١٩٨٣» ، وتدشّن خروج بركات من بيروت إثر الاجتياح الإسرائيلي لعام ١٩٨٢ وترحيل الفلسطينيين من لبنان . وكان بركات قد ارتبط بمؤسسات المقاومة الفلسطينية في وقت مبكر من إقامته في لبنان ، وكتب يوميات نثرية بعنوان «كنيسة المحارب» (١٩٨٦) يصف فيها حرب الجبل ، وتعاون على نحو وثيق مع محمود درويش في فصلية «الكرمل» ، ومع دار «العودة» للنشر ، ودار «النورس» التي اختصّت بأدب الأطفال . ولعلّ بين أجمل قصائد بركات تلك التي يرثي فيها صديقه طلال رحمة ، الذي استشهد في حرب الجبل .

«حديد» ، إذًا ، هي أولى قصائد بركات بعد استقراره في نيقوسيا ، سكرتيرًا لتحرير فصلية «الكرمل» . وهي ترتدي أهمية خاصة في تاريخه الأسلوبى ، لأنها أولاً تمثّل نوعًا من الارتداد الصريح (والعنيف ربما) إلى شكل التفعيلة الذي كان بركات قد أقلع عنه بصفة شبه تامة . ولأنها ، ثانيًا ، تمثّل مزيجًا ثلاثيًا يتوازن فيه الموضوع الغنائي والرثائي - الملحمي والسيّري - التاريخي ، على نحو طارىء لم يسبق لبركات أن قاربه في هذا المستوى الرفيع من التكافؤ والتشابك والمتانة . وهي ، ثالثًا ، كانت تنذر بما ستكون عليه موضوعات قصائده اللاحقة ، خصوصًا في التمثيل الميتافيزيقي لتفاصيل إقامته في المكان الجديد ، كما في قصائد «منزل

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

يعبث بالممرات» و«منعطفات . ظهيرة من ريش . دهاقنة يصفون الليل .
غبار مسحور ، وعَدَّ كالعداء يتهاى لأزقة الغيب» .

قصائد مجموعته السابعة «البازيار» (١٩٩١) سوف تعكس عودته إلى
نوع من السكينة الأسلوبية ، والتأمل الأكثر هدوءاً في التاريخ الشخصي
والذاكرة الجمعية والمحيط الجغرافي ، وسيكتب عن نفسه (في «أسرى
يتقاسمون الكنوز» و«تدابير عائلية») ، وعن قومه الأكراد (في «مهاباد») ،
وعن صديقه محمود درويش (في «محمود درويش : مجازفة تصويرية») .
وفي هذه القصيدة الأخيرة رسم بركات تفصيلات المكان في بورترية من
علامات ووحدات رقيقة ومتناهية الدقة ، تتناوب في التعيين والتجريد أثناء
صياغتها لترتيب جديد من العلامات ، سرعان ما ينفك عن الانطباعات
الملقوفة التي تسندها اللغة إلى العناصر ، فتتحول سيرورة الوصف إلى ما يشبه
الرسم التقني الشفيف لصاحب المكان (محمود درويش) . المحبرة حمى
ذات مكاييل يندلق منها الصعتر ، وقربها تتعارك التواريخ كزراعة تداخلت
قطعانهم ، والغرف تناظر ، والرفوف الثقيلة تسهل خلسة عبور الكلمات من
كتاب إلى كتاب ، إلى أن تسير خاتمة القصيدة هكذا :

ما المكانُ الأسيرُ

حين تأخذُ في يدكَ الريحَ صوبَ مفاتيحها؟

ما الصدى؟ ما الحكاية ، ما نرفها؟

ما الأنين الذي يتهدى بسلطانه في هوى الحبر؟ نهبٌ صغيرُ

يخبىء للورد رائحة البُن في سهرٍ قادَ هذي الحديقةُ

إلى حيث يشكو الصباحُ

أنه لم ينم في يدك اللتين اغتلى فيهما ذهبٌ لم ينم

فأعدتَ الحديقةُ

إلى وَرْدِها ، وسرقتَ من العتبات الرقيقة

شعاعاً له قسّات المكان ، وأزّخت للترف
 بالذي أسرتك البراعم في ظنّها ، أيّ ظنّ
 سيلقيك في شُبّهات من السعف
 كي يرى في أعاليه أنك أشققت أن تنثر الريح أكبادها في يديك
 فأويتها ، والتجأت إليك؟
 أيّ ظنّ سيأخذ وسعك؟ برق
 على زنبق أو عسل
 يتلمّس إنشاده ويغيرُ عليك
 بشقيقاته يتهتكّن مثل القبل
 فانتهب ما تشاء . المكائدُ من ألق ، والحرير الأمين
 يعيرك كتّانه ،
 والهبوب الذي أنت فيه هبوب السنونو . (٥)

III

في برهة شديدة الخصوصية من مساره الأدبي ، والشعري بصفة
 خاصة ، كتب الشاعر والناقد الإنكليزي صمويل تايلور كولريج
 : (١٨٣٤-١٧٧٢) :

ما من أحد يستطيع القفز فوق ظلّه
 ولكن الشعراء يقفزون فوق الموت .

كان ذاك عام ١٨٠٢ ، قبيل وقت قصير من اعتراف كولريج باحتباس

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

الشعر في داخله ، وما يعنيه ذلك من فقدان لواحد من أمضى الأسلحة اللازمة لمواجهة حالة حادة من تضخم الإحساس بالموت . ولقد قدم ، في عمله النثري الفاتن «دفتر هوامش» ، جملة تأملات ثمينة حول رغبة الشاعر في أن يموت مع موت الشعر ، وأن «يذهب إلى ما بعد الكلمات ، حيث الظلمة نورٌ والسكينة احتفال» .

سليم بركات في قصيدته «تصانيف النهب» ، والتي تفتتح مجموعته الشعرية الثامنة «طيش الياقوت» ، يباشر طوراً من تجربة الحياة مع الشعر ، هو عكس التجربة التي وصفها كولريديج : إنه يدشن العقد الثالث من تجربته الشعرية بأكثر من محور قطع واحد مع أعراف العقدين السابقين ، ثم يتأبط الموت بعد أن جاوره وجّده من أية رهبة ميتافيزيقية ، ويقفزان معاً فوق ظلّ مراوغ لا يليق إلا بالشاعر في لحظة شديدة الخصوصية من مساره الشعري .

في معنى آخر ، في هذه القصيدة (ثم في معظم قصائد مجموعاته الثلاث التالية : «المجابهاة» الموائيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها» ، ١٩٩٧ ؛ و«المشاقيل» ، ٢٠٠٠ ؛ و«المعجم» ، ٢٠٠٥) ، يبدو بركات وكأنه يدخل في جهاد مرير مزدوج مع النفس الشاعرة القديمة ومع الأعراف الشعرية السائدة ، سواء لجهة تطوير التجربة الفردية من حيث انتهت في آخر مجموعة شعرية ، أو لجهة مخالفة الأساليب والخيارات التعبيرية المحيطة التي استقرت نسبياً وحظيت بقدر كبير من الإجماع على صعيد الكتابة والذائقة والتغطية النقدية . إنه أشبه بمن يجاهد لكي يكتب شعراً لا يذكر بحصيلة سليم بركات الشعرية بقدر ما يحرض على معارضتها ، ولا يستدعي القراءة الآمنة بقدر ما يدفع إلى أخرى منفردة محفوفة بالمشاق والعسر ، ولا يستكمل مرحلة جديدة من النضج إلا إذا أُمات (عن سابق عمد وتخطيط فنين) قسطاً هاماً وغالباً من مراحل النضج السابقة .

وهذه ، في الواقع ، حالة نادرة من حالات تطوير التجربة الفنية الشخصية ، يعلمنا التاريخ الأدبي أنها تكاد تقتصر على الشعراء دون الروائيين والتشكيليين والموسيقين . وبغير جواز المرور الجبّار الذي ندعوه بـ «اللغة الشعرية» ، ليس للفنان كبير حظّ في تحدّي أنظمة المعنى والدلالة والتعبير ، ثم إعلان اليأس بما ترتبه وترسّبه في القرار الجمعي العميق للقراءة ، إذا لم يتحدث المرء عن إعلان التخوين والمقاطعة الشاملة . وكيف يحقّ لغير الشاعر أن يقول على سبيل المثال :

أتصغي إليّ؟ أراك سهوتَ ، أيها الموت ، وأنت تحصي
كتائب من أشباح تمهّد الوقت دفترًا دفترًا لانتصار
الخدائق ؛ - أشباح كلوعة تصعد المدرج إلى الحقيقة ،
ثقيلة في حديدها ، وخوّذها ، لتسلم الباشق إلى اليقين .
أتصغي إليّ أم إلى حياة تسهر ، أنت ، على كنوزها ، أيها
الموت؟ تعال ندخل أسواق الجزّارين الذين يستميلون
الحكمة إلى فكاهاتهم ، رافعين رؤوس الأغنام وأحشاءها إلى
الموازين ؛ وقد يقشرون أظلاف الماعز ، أو يهونون بالسواطير
على أضلاع الثيران . تعالْ ، إنهم يصنّفون العضل ، ويرققون
الشحم كالجذات ، كأننا يعرفون أن المضغ الذي يرقق إنما هو
من فم الأرض تمضغ القيامة قبل نومها .^(٦)

اللغة هنا تدخل في علائق دلالية ذات طابع غرائبي (أشباح كلوعة ، تصعد المدرج إلى الحقيقة ، تسلم الباشق إلى اليقين ، يرققون الشحم كالجذات) ، وفي تناظرات صوتية حادة أقرب إلى تنظيم النشاز من حول التألف . وهي تقصي القارئ عن خطوط استقباله الواعي (التقليدي)

(٦) سليم بركات : «طيش الياقوت» . دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٩٦ . ص ٢٠ .

لدلالات الأنفاظ ، وتدفعه إلى المستوى السحري الخام للمفردة ، حيث تدور عمليات الاستقبال في محاور استعارية - لاواعية (التفصيل الذي سوف أتوقف عنده لاحقاً) . وهذه خصائص لصيقة بتجربة بركات وأشبه ببصمة شخصية طبعت نتاجه ، ربما منذ قصيدته «دينوكا بريفا ، تعالي إلى طعنة هادئة» والتي تفتتح مجموعته الشعرية الأولى ، وانتهاء بقصيدته «تدابير عائلية» التي تختتم مجموعته السابعة . ولكن بركات هنا غيره في المجموعات السابقة ، والبصمة إياها تبدو وقد تجللت بغلاف يطمس الكثير من معالمها دون أن يقلح في حجبها تمامًا .

وهو غلاف غير رقيق في واقع الأمر ، لأن بركات يصنع مادته من عناصر متواشجة تضم الجملة الاستعارية ، والعمارة الإيقاعية العليا ، والتصميم الطباعي الذي يضرب صفحاً عن تقطيع النص إلى سطور شعرية لصالح توزيعه مقطعيًا ، ثم اعتماد جرعة جديدة مفاجئة من الغنائية الحفيضة ولكن الصلبة والإنشادية والبوحية ، تلتقي مع جرعة أخرى من التوسيع الملحمي للموضوع المركزي والموضوعات التفصيلية :

تشريح طويلاً أيها الموت فتنسى أنك موت ينسأه الموتى .
ومجازاتك من صوف أغبر أو من قطن مبلول ، أيها الموت .
مجرأتك منكوبة . اسمك منكوب . وحبرك الليلي ، الذي
تدوّن به فراديس الأكيد يفتح الممرات - في السطور -
لشموس الموتى .

يا لسريك الذي تمسّد الحروب بأيديها القطانية ، ملاءته
القصيرة ؛ يا للحروب تطرق عليك الباب في خجل ، أيها
الموت ، لتشغلك كأنثى بحديث الذكر ؛ يا لهباتك التي
لا تقدمها مرتين ؛ يا لدوي السطر المحمول على يدك وهو
يمزق الكتابة

ونحن ، في المثال أعلاه من القصيدة الأولى ذاتها ، نفتقد بعض أسلوبية بركات ، أو نفتقد تلك الأسلوبية بمقدار يتناسب مع «التمويه» المتعمد الذي خطط له في غمرة انشغاله بتحدي السيرورة السائدة وممارسة اللعب الحرّ على سطح الجملة مثلما في باطنها . هو ليس سليم بركات تماماً ، ولكنه الشاعر ذاته الذي يعطينا أكثر من برهان واحد قاطع يجعلنا لا نتردد طويلاً في وضع توقيعه أسفل المقطع ، بل واستذكّاره على ما نهوى ونرغب ، واسترجاع ما نشاء من مقاطع سابقة رسخت في ذاقتنا وليس في وسعه أن يحسن تمويهها إلى درجة التضييع أو الإماتة .

هذه القصيدة كُتبت في عام ١٩٩٢ ، وهي نموذج رفيع على الخناص الذي اعتمل في نفس بركات وهو يقسم طاقته التخيلية بين نص روائي يوظف المادة الأسطورية والتاريخية الكردية ، ونص شعري خاضع لضغوطات تلك العدة اللغوية الفصيحة التي هيمنت مرة وإلى الأبد ، وكان امتداد معجمها الثرّ في الأعمال السردية بعد تلك الشعرية مدعاة ألق وقلق تعبيريين ، في أن معاً . في القصيدتين التاليتين (والمجموعة تتألف من ثلاث قصائد فقط) يستريح المحارب بعض الشيء ، وتهذأ فورة عبور الظل إذ يميل الشاعر إلى التصالح مع ظلّه اللاهث خلفه ، وتنتقل صيغة ضمير المتكلم/ ضمير المخاطب ، التي تهيمن على المجموعة بأسرها ، من معادلة الصوت الذي ينتهك ذاته أثناء مساءلة الآخر (الموت ، العدم ، الشعر ، العزلة ، التاريخ ، المكان . . .) إلى معادلة الصوت الذي استردّ ذاته من جديد عبر القصيدة ، لأنه خالفها الذي انقلب إلى مخلوق لها على حد تعبير هايدغر :

هَبْ شَقَقْتَ المعاني من تلابيبها ، ودفعت الغد ، خلسة ،
بيديك ليتهاوى على الأدراج المنحدرة إلى كمائنها ؛
هَبْ جمعت إليك المذعورين ليقتسموا رثيتك اللتين من

حريق ، وطحنت الأزل في أجران المجرات ، مقتدرًا باقتدار الحمى
ذاتها ، المنزلة بدلافيتها الصلصالية إلى الخبر ؛ - هب هذا :
لن تظن رجاءك إلا نسخًا من رقيم الفراغ الجابي .
فاعد ، أيها المطوق ، مجازات الشكل لينجو اللون ،
وموّه خندق النور من ظلال القياطين .
ففي بأسك نجاة الأكيد ، وفي انشغالك عن الأقدار تشغل الأقدار
بوسائسها .

وبقدر ما تبدو بعض المفردات في معجم بركات أثيرة لديه ، فإنها
تظل أثيرة لدينا نحن القراء ، بدورنا . ولسنا نفتقدها في الواقع ، صانعة
لتراكيب لغوية فاتنة ، ومشاركة في الانتظام الحقيّ الدقيق لعمارات
الشاعر الإيقاعية ، ومفجرة في دخيلة القارئ تلك الفضاءات الغرابية
المتينة في فصاحتها والمرنة المنبسطة في انتهائها لشيفرات القول
التقليدية . وحين نقرأ : « يا المأت ذو الصحف المثلمة كأن عضها الأزل
فأدمى الأبدية . ويا الذي أملك ميزان وعدمك نريف الخوف يتحرى الطبائع
بحصافة المهرج الذي من نبات ؛ أيها الموت ؛ يا الحاذق كوحشة ، أيها
الإرث النوراني للنسيان النوراني . . . » ، فأنى لأي سليم بركات طارئ أن
يقصينا عن سليم بركات المعيار القياسي !

ألسنا ندرك أن قوله « كأن عضها الأزل » أو « ويا الذي » لا يمكن أن
يشبه البتة (احتمال) القول : « كأنما عضها الأزل » أو « ويا أيها الذي » ؟ ألا
نقف على خفايا ذلك النسيج اللغوي المتين الفريد الذي صنع على الدوام
عمارة إيقاعية متينة فريدة ، أشبه بالبصمة الشخصية ؟ وكيف لا نتذكر
تشكيلاته الإيقاعية التفعيلية الفاتنة في قصائده المبكرة ، إذ نعيد اليوم
استكشافها في المقطوعات القصيرة الأخيرة من مجموعته التاسعة ، كما

في قصيدته «الهدد» :

مَهْلٌ دَفَأَ الحَيَاةَ . أُرِشَ

عليك؟ ضُمَّ الصُروفَا

زَغْبًا وَانْشَدَ الرَحِيلَ بَطْنًا نَزِيفَا

نَسَقَ أَنْتَ ، أَحْضَرْتَ طَيْفَا

وَنَلْتَ صَوْعَا أَيْفَا (٧)

وعلى الغلاف الأخير لمجموعته العاشرة ، «المثاقيل» ، نقرأ هذا النصّ (بقلم بركات نفسه ، على الأرجح) الذي يسعى إلى ما يشبه الإعلان الذاتي عن طبيعة المعنى ، والتشديد بالتالي على طبائع اللغة الخام كما أشرنا إليها ، خصوصاً في انقلاتها من سقوف الدلالة ، في هذه القصيدة الطويلة : «لا تُخْتَزَلُ قصيدة هذا الكتاب إلى تعريف بها ، لأنها - بتمامها - تعريف مختزل بالضرورة التي تنشئها مأهولة بما لا يُعرَف . حسبها أن يعيدها القارئ على نفسه ترجمة بإشارات شراكته» (٨) وبالطبع ، ثمة هنا إحياء بامتزاج عنصرين : ما لا يُعرَف في متن القصيدة ذاتها ، وما لا يُعرَف إلا بترجمة القارئ المشارك في المتن الأصل والمتن المختلق في القراءة . وهذه ، في الواقع ، ليست سوى استراتيجية التعبير التي اعتمدها بركات طيلة عقود ، لكنه استقرّ عليها على نحو أشدّ انحيازاً وأوضح صيغة وأكثر وعياً في مجموعاته الأربع الأخيرة ، خصوصاً حين أخذ يميل إلى

(٧) سليم بركات : «المجابهات» : المواثيق الأجران : التصاريح ، وغيرها . دار النهار ، بيروت ١٩٩٧ . ص ٦٧ .

(٨) سليم بركات : «المثاقيل» . دار النهار ، بيروت ٢٠٠٠ . كلمة الغلاف الأخير .

اعتماد موضوعة مركزية (الموت ، العماء ، الشر...) تدور حولها المجموعة ،
المؤلفة غالباً من قصيدة واحدة طويلة ذات تقسيمات متباينة الأطوال
والتركيب .

المجموعة الأخيرة ، «المعجم» ، تشهد المزيد من اشتداد الارتطام ، عن
سابق قصد وتصميم ، بين نظامَين جَبَّارَين داخل القصيدة ، متوازيين تارة
ومتقاطعين طوراً : الإفراط في تغريب اللغة عن معانيها الشائعة وتوسيع
المسافة بين الدالّ والمدلول (كما في قول بركات : «أسمال من نسيج الأبد
تتهرأ» ، أو «الأقدار البهلوانات مختنقة في أزياء الأكيد المختنق» ، أو
«جروح تلوج أيها الشر . جروح هداية» ، أو «سموات تابل في الحساء
المسموم» ، أو «أفتقن الصواب بك في هُمرجان الممكنات المرتجلة على
باب الفناء» ، على سبيل الأمثلة) من جانب أول ؛ ونظام التوليد المجازي
الاستعارى والتصويرى الغنيّ الدافق الذي يخلق علائق جديدة للمعنى ،
وحقول دلالة تخيلية أو رمزية أو حسية غير مألوفة وغير متجانسة ومتنافرة
أو حتى صادمة ، تتوالد جراء اشتغال ديناميات النظام الأول ، من جانب
ثان :

زَيْنَ الرغيف المحترق بسكر رعاة الحقول في الجليلد ،
وجذَفَ في الرماد بمجاذيف الجمر حتى الخليج الرابع -
خليج العرّافين ، هنالك قبالة الخلاء اللون - شقيقي ، ابن
الأمهات الأربع يفر منّ العدم كرفساً وقنبيطاً لعشاء
الخلائق ، أيها الشر .

لا تخف . اصغ إلى قلبي - قلب المفقودين في المكان
المعرج سبعا في رُبّ الحصرم ؛ المبرغ ستا في السمن ؛
خمساً في ذرور حجر السبازج ؛ أربعا في النشاء ؛ ثلاثا
في الثوريات المعتصرة بين سطور اليقين ؛ المعتصرة مرتين

في ذرق الهدهد ؛ المرغ طويلاً في النسيان يهتدي به
المفقودون إلى خيالهم ، أيها الشر .

رتب المدن الخبز مقطعة إلى شرائح في سلال الخبز . رتب
العافية الدمية في قوارير الخل والزيت موبة بحروف
الملكات المنتهبة على الخوان الكبير : هاهم الذهبيون ،
المسكوكون بألة الكيد الذهب ، المكلفون بمذاهب البريق ،
الرحالة في الشغل الذهبي للخزائن كلها ؛ محترفو
مساررات المعدن ، المنقسمون بدعة بدعة في حروب
النفائس ؛ الذهبيون كصوّر ؛ منتحلو هواجس السبكة
الأولى ؛ المرقهون كشقاء - تراهم أنت ، أيها الشر : لا
يسألون لا يسألون . دحرج إليهم ما يليق بالمآدب الذهبية :
الحلوى المختمة في الصيف السكري - صيف الدم .^(٩)

ومن الجلي أن بركات يعتمد على المفردة المستقلة - خصوصاً حين
تكون ، في أن معاً ، مستلة من بطون معاجم الفصحى العتيقة ، ولافتة في
موضعها الدلالي ، جذابة في بنائها الصوتي ، بموسقة إيقاعية على نحو
ما . . . لإنبجاز مقدار إضافي من تغريب القارئ عن حقول الدلالة المألوفة
لديه أو الراسخة في القرار الأعرق من ذاكرته . ولعلّ المثال أعلاه يحتوي
من هذه المفردات عدداً أقل بكثير مما يحتويه عادة فقرات أخرى (بينها ،
مثلاً ، تلك الفقرة النباتية المذهلة ، حيث نقرأ أسماء نباتات ، مثل ورق
الناردين وقش الحمار والفصيفة والدارصيني والمرزنجوش والماميران
والجنطيان والزوس والقلقاص والراسن وشوكة القبط وشوكة يهودا والفوفل
والريباس والسذاب والداركيسة . . . داخله ، كلها ، في اقترانات دلالية

(٩) سليم بركات : «المعجم» . دار المدى ، دمشق ٢٠٠٥ . ص ٦٧ - ٦٨ .

ومجازية أخاذة) .

وهكذا فإنّ بركات في مجموعاته الأخيرة قد جاهد للقفز فوق ظلّه ،
وجاهد لاستفزاز القراءة التي تقتفي الظلّ ، فنجح مراراً وعلى نحو جدلي
يُسجّل في رصيده ، حتى حين كانت المشقة شرطاً محتوماً ، قبيل وأثناء
وفي أعقاب القراءة . والأرجح أن القارئ ، من جهته ، سيجاهد هنا وهناك
دون أن يضلّ طريقه إلى سليم بركات ، وسيسجّل ذلك في صالح دينامية
متبادلة تبلغ أوجها في تلك البرهة الكثيفة من التصالح الإنساني
والجمالي والتعبيري .

IV

الشكل المفتوح كان أحد أبرز الإستراتيجيات الأسلوبية التي استقرّ
عليها سليم بركات ، من أجل استفزاز القراءة والمجاهدة لتطوير شروطها في
أن معاً . ومنذ قصيدته الناضجة المبكرة «ينوكا بريفا» ، تعالي إلى طعنة
هادئة « أتيح لنا أن نقرأ ما يلي :

[1]

دينوكا

ماذا أقول للصيادين الذين يضعون سروجاً فوق ظهور
الكلاب السلوقية في سفح سنجار وجبال عبد العزيز؟
أنت محتبسة في مكان ما ، ربما في زريبة ، تسمين التراب
ومزاود النعاج . كبيرة أنت ، بليلة ، مسكونة بالحصاد
وبي .

أسمع والدك يصيح : دينوكا . . أسمع والدتك تصيح :

«دينوكا، احملي خبز الشعير هذا إلى المهاجرين وقولي
أن يستريحوا قليلاً» .

كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم . . من طشقند وخوزستان
وأرمينيا والجنوب الغربي لروسيا حملوا أشرعتهم وصُـرر
السرخص إلى الجزيرة بلا أحذية أو مناجل . وكنت
صغيرة لم تدركي أنهم يحتاجون إلى الماء وإلى امرأة
مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتتبت
في سنيّ الهجرات عدساً وجنادب . أنت تجهلين كيف
يمتليء الأخدود بين «عامودا» و«موسيسان» بجثث البغال
والأعضاء المبتورة . تجهلين من أين يحصل البدو على
بنادق فرنسية ، ولماذا ينتفخون على تخوم القرى حين
يهجمون عاصيين رؤوسهم بعباءاتهم .

قيل : خرجت من جهة العراء ، وخرجت «بريفاً» من جهة
العراء ، ومن جهة العراء خرج الله ، وجاءت الدهشة
والطلقات الفارغة التي جلبها الصبية من براميل قمامة
السراي . وقيل إنك عدت بقطيع من النعاج المبتهجات
وكبش واحد يختر كالحارب في كل موضع مبلل بالبول .
دينوكا . . دينوكا . .

أنا متعب ، ولا أسمع صوتك حيث أرى هضاب
«معيريك» وعربات الأكراد المحملة بالقش .

[2]

أنا خلفك يا ابنة أيّامي الزانية
أدعو ورق العنّاب إلى حيرة شعب : «خُفّ إلى ضاحيتي

يا ورق العنّاب بسورية» ، عَجَلُ بالله ، أنا مشغول بدخانٍ
يعصمني من حرية أجيال تقتنص الأجيالَ ، مداي سروج
وعجاج

أُتْرَجُ اسماً آخر فيه لمائي
وأصاحب ثدييات العصر إلى بهو سمندله وخزاماه ، إلى
ثدي فاجأه الله وراء السنبلة .

[3]

أخرجُ من أعرافي ودياري جندياً من جند الوثنيين ،
وأخرج مرتزقاً بالنحل إلى أزهار الغرباء
فليكن الموت إذن ملء تراباتي
وليكن النهرُ رسول الإعدام ، أواكبه حتى مسجد آبائي
بالأنباء

وأنا السابح في الياقوت المغلق والأيام المغلقة
أنهال على لغة الأحلام العامة بالطعمنات ، وأجعل وجه
الأطلنطي

شرفة مومسة تتهياً للقفلة الشبحية
وأخلّي جسدي السفلي يسوح بمزرعة تتشابك فيها الدمعة
والسوسنة

وأخلّي لنداماي مسارب حول ضفاف الأبدية . (١٠)

(١٠) سليم بركات : «الديوان» ، ص ٧ - ١٢ .

في النمط [١] تبدو الخصائص الموسيقية الكامنة على نحو موروث في اللغة الطبيعية وكأنها تتشكل وتُستنتق على أفضل وجوها إذا عملت جنباً إلى جنب مع بعض أنواع المعنى (ولا سيما المعنى الأسطوري) لتحقيق الاستقطاب الشعري . علاقة كهذه هي ، في حقيقتها ، خلخلة أو إعادة صناعة للشيفرة أو جملة الشيفرات التي تحملها المفردة المستقلة ، والتي تزيغ أو تفتني أو تنفجر عند تواصلها مع مفردة ثانية . وتلاحظ هذه الأوالية في أمثلة من نوع : «يحتاجون إلى الماء وإلى امرأة مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتنبت في سنيّ الهجرات عدساً وجنادب» ، أو : «أنت مختبئة في مكان ما ، ربما في زريبة ، تسمين التراب ومزود النعاج . كبيرة أنت ، بليلة ، مسكونة بالحصاد وبـي» ، أو : «حملوا أشرعتهم وصُزّر السرخس» .

من جهة ثانية يقوم تنظيم الفقرة في ثلاثة أنساق تكاملية (المشهد المكاني ، المشهد الاستعاري ، المشهد المكاني - الاستعاري) وشبه متساوية في تركيبها النحوي المضغوط ، يقوم باستنباط عمارته الإيقاعية الخاصة سواء في التلاوة أو في القراءة الصامتة . وشعر بركات زاهر بهذه العلاقة بين التراكيب الشكلية في اللغة ، خصوصاً وأنّ المفردات والعبارات تمتلك ميلاً طبيعياً للاصطفاف في أنساق إيقاعية - دلالية ذات شخصية تكاملية ، كما في نموذج الدور الإيقاعي والدلالي الذي تلعبه مفردة «قيل» في المثال التالي : «قيل : خرجت من جهة العراء ، وخرجت «بريفاً» من جهة العراء ، ومن جهة العراء خرج الله ، وجاءت الدهشة والطلقات الفارغة التي جلبها الصبية من براميل قمامة السراي . وقيل إنك عدت بقطيع من النعاج المبتهجات وكبش واحد يخرّ كالمحارب في كل موضع مبكّل بالبول» .

النمط [٢] يعتمد التفعيلة ، لكنه يكسر نظام التقطيع الشعري ، ويستكمل تفتيت حدود اللغة الشعرية/ النثرية بالنهوض على الدرجة صفر من المجاز (حتى تكاد الاستعارة تختفي نهائياً) ، فيبدو بركات أشبه بمن يثار لطغيان الإيقاع على النثر الطبيعي بتغيب أوالية التواشج بينهما ، كما تبدّت في النمط [١] . لعبته ، هنا ، محفوفة بالخطر ، إذ إنّ المجاز هو حقل لقاء شعرية اللغة الطبيعية بالخيّلة ، إلى درجة تجعل المجاز لا يأخذ شكل غطاء اللغة بل شكل تجسيدها وكشف مغاليقها . بعبارة أخرى ، الاستعارة فكر الشاعر الفعلي وليست مجرد تقنية إبدال تدعم الأسلوب ، وهي تمرّنه الخلاق الذي يلزمه بالغوص عميقاً في - وبعيداً عن - سطح الواقع الذي رسمت اللغة مفاصله وخرائطه عن طريق المصطلح والكليشيه .

ومنذ قصائده الأولى المبكّرة برهن بركات على مراس رفيع في استخدام الاستعارة ، وفي حججها تماماً حين يتقصّد تحقيق أغراض فنيّة خاصّة بينها تلك الدرجة صفر من الاعتماد على المجاز . ففي مثال النمط [٢] يكون التعويض الأوّل عن درجة الصفر المجازية لـ «حيرة شعب» و«حرية أجيال» أو حتى «مداي سروج وعجاج» هو التخطيط الإيقاعي المشدود للمقطع بصفة عامة ، والتخطيطات الثانوية المتلاحقة لأية عبارة تنتهي بعلامة وقف أو تشكيل إلزامي نافٍ للتسكين بصفة خاصة (الكسرة في «الزانية» و«السنبلة» بهدف التقفية والربط الموسيقي مع «صاحتي») . أمّا التعويض الثاني فهو العلائق التصويرية البصرية بين المدى والسروج والعجاج ، وتدييات العصر في بهو وسمندل وخزامي الماء ، والشدي الذي فاجأه الله وراء السنبلة .

النمط [٣] ينطلق من مسلّمة الشعر الكبرى : الموسيقي التي تتيح للشاعر أن يقوم بما هو أكثر وأشدّ تعقيداً من نقل الرسالة ، الأمر الذي قد يغريه بنسيان الرسالة ذاتها والانجرار خلف الإيقاع اللفظي من أجل الإيقاع

اللفظي ، كغاية قصوى بذاتها . ومن اللافت أنَّ بركات برهن على سيطرة مدهشة على شدة الإيقاع وخفوته في المقطع القصير مثلما في ذاك الطويل ، أو على امتداد القصيدة بأسرها . ولم تكن تلك السيطرة مبكرة بالقياس إلى سنه آنذاك (١٢ عاماً) ، بل كانت متفوقة تماماً بالقياس إلى مجاليه من الشعراء ، وبالقياس أيضاً إلى عدد لا بأس به من أولئك الذين يكبرونه سنّاً وتجربة .

فيما بعد سوف يقدم بركات مئات التنويعات على هذا النمط الثالث تحديداً ، وسوف يطوّر تقنيات بالغة التعقيد في مضممار التزويج الناجح للعلاقات الدلالية والعلاقات الموسيقية ، أو تلك الكيمياء الصوتية الساحرة التي حاول أبو حيان التوحيدي استكشاف قوانينها الغامضة . وفي المثال التالي من قصيدة «قلق في الذهب» ، مجموعة «بالشبك ذاتها . . .» ، يكشف بركات عن الكثير من مفاتيح واحدة من بصماته الأسلوبية الأثيرة :

أيّ قَنَصٍ ؛ هَوَتْ وَعَوْلَ فَبَدَّدْتُ بَعْضِي أَسَىٰ عَلَيَّ وَعَدْتُ
كَيِّ أَرَانِي ، هُنَا ، فِي ظَرِيفٍ مِنَ الْخَطَامِ ، أَوْ قِلِّ لَيْسَ
يُروى وإنَّ رَوَاهُ الرَّمَادُ ؛
كَيِّ أَرَانِي رَفِيفًا مِنَ الْمَرَاثِي إِذَا يَرْفُ مِنْهَا الْجَنَاحُ وَالْبُعْدُ
بِي يَنْقَادُ

أيّ قَنَصٍ؟ سيذرف الليل قلبي إلى الصبح ، ويخفي
الأليف عني الجمشتُ
فرهين المشاع إنِّي ، مطوقٌ باللهات الخفيف للماء ، والحي
حولِي حصادُ

والفضاء أسرٌ ، فعدّ بي ، يا قلب ، عدّ بي إلى مشاغل
الريح حيث المكيدة حبرٌ ، وروحي

الصوت هنا ينتقل بين القول والغناء ، وتدخل الكلمات في علائق دلالية ذات طابع غرائبي (ظريف من الحطام ، رفيف من المراثي) ، وفي تناظرات صوتية حادة تارة وطلية طوراً ، تندغم في التواتر الهندسي لحروف العين (في السطر الأول) والراء (في السطر الثاني) والحاء (في السطر الثلاثة الأخيرة) . والحال إنَّ ضمير المتكلم يلعب هنا دوراً شديداً الأهمية في استكمال ألعاب العلاقة بين الوقع الدلالي والوقع الموسيقي ، لأنَّ القارئ إنما ينج بنفسه في هذه الشبكات من «تشريد» المعنى ، ويمارس نوعاً ذاتياً من إقصاء خطوط الاستقبال الواعية - الاصطلاحية للألفاظ والمعاني والدلالات والإيقاعات . القارئ ، بالقدر ذاته ، يدفع بنفسه إلى ذلك المستوى السحري الخام للغة ، حيث تُصاغ العلاقة مع المعنى بعيداً تماماً عن الكليشيه ، وفي قلب تشكيلات استعارية غير مألوفة لضمير المتكلم وهو يلقى في قلب مواجهات غير مألوفة بين العناصر والأشياء الأزمنة : رماد يروي ، ليل يذرف القلب ، جمشت يخفي الأليف ، حبرٌ مكيدةٌ ، حيٌ حصادٌ ...

V

في مناسبة سابقة (١٢) ، أتيج لي أن أناقش مسألة التمييز بين

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(١٢) في ورقة قُدمت إلى «مؤتمر الشعر العربي الأول» ، فاس ، المغرب ، ٢٧ - ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩٩٩ .

الفضاء الطبيعي والفضاء التشكيلي في اللغة الشعرية ، معتبراً أنها واحدة من أبرز الإستراتيجيات الأسلوبية التي تكفل لقصيدة النثر العربية المعاصرة إمكانية واسعة لاكتساب أرض جديدة في العلاقة مع القارئ ، وفي سياق محدد هو منافسة القصيدة الموزونة ، سواء استخدمت عمود الخليل أم التفعيلة . وقد كان شعر سليم بركات أحد أمثلي التطبيقية .

وقد أوضحْتُ أنني أعني بالفضاء الطبيعي ذلك الحيز الذي يُدرك بدءاً من الجسد الإنساني وإلى الخارج المقابل ، سواء أكانت عناصر ذلك الحيز مشهداً متعدد الأجزاء (كما في الإطلالة على منظر طبيعي) أم مشهداً وحيد الجزء (كما في النظر إلى شجرة عزلاء) ، أم مشهداً مركباً قائماً على الفراغ المادّي والامتلاء الرمزي (كما في الوقوف أمام بيداء صحراوية أو بطحاء مغمورة بالثلج) . والشاعر في مواجهته لهذا الفضاء الطبيعي يقيم توازناً من نوع ما بين مخيلة ترشقه خارج نفسه ، وذاكرة بصرية تشده إلى داخل نفسه ، ومكان يغلف الخيلة والذاكرة فيُبقى الشاعر خارج نفسه وداخلها في آن معاً .

الفضاء التشكيلي ، في المقابل ، هو الفضاء الطبيعي وقد انقلب إلى رؤيا إبصارية خارقة لوسائل الإدراك المعتادة ، وانهارت فيه علاقات التراتب الوظيفي الثلاثي بين الخيلة والذاكرة البصرية والمكان ، وتكوّنت عناصره من مزيج تركيب لا يسمح بتبادل أو إعادة توزيع أو قلب الأدوار بين عناصر التوازن الثلاثة هذه فحسب ، بل يسمح بتحويل الالتقاط الشعري لذلك الفضاء الطبيعي إلى التقاط بصري تشكيلي على الصفحة المطبوعة ذاتها : اختيار شكل هندسي لتوزيع النص ، تدوير أو قطع السطور الشعرية وفق عمارة غير مألوفة ، إفساد القواعد المعتادة لعلامات الوقف ، استخدام قياسات أو ألوان مختلفة للحرف الطباعي ، وما إلى ذلك .

وعلى سبيل المثال ، يقول سليم بركات في القسم الأول من قصيدته

«ديلانا وديرام»، مجموعة «الكراكي»: :

هذا عالمٌ يُتلى . هذا حبرٌ يُتلى . وديرام ممسكٌ بريشة
الجذور يخطّ رسائل للضباب الوالي ، هادئاً ، لا يفكر في
نبذ ما ، أو في نهب ، بل في النهر المعلق فوق المدينة ؛
النهر الأعزل الجسور ، الذي يهيء أعشاشه للهاث
الأسلحة ، ويستطلع الحجر . وديرام يحصي من شرفته
ملوكاً يرمون ، وممالك تجتاز الطريق متوكئة على عصي
البازلت ، ناقرأ بأنامله على غشاء المشهد ، كأنما يستوقف
الغبار العابر ليحمله زهرة ما ، أو طبلأ ، إلى الأعياد التي
تنهراً نعالها من الرقص على المياه . ويرفع بصره ، ثانية ،
إلى الأعلى ، إلى النهر الجسور ذاته ، المعلق بكلايب
الآلهة ، صارخاً :

لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تنفخ في بوقك النجيلي فيصعد المنشدون إليك ،
حاملين أعضائي في برعم ، ويقظتي في أباريق الصلصال؟
لماذا تُريني القرى بين عُفْرَتِي إِبْطَيْكَ ،

وتحزم المدينة ، في جريانك ، بحبل من السيفير وزيزفون
الطمي كحزمة الشوفان؟

لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تحمل قنديلَكَ والأرضَ واضحةً كما ترى؟ أنقصُ
أنت ، بأشواك فضبةً ، أم مَرْمُوطٌ يقضم جذوع الحروف ؟
مهلاً إن كنتَ سهمَ الشمالِ ، أو نورج المغارب . مهلاً
مهلاً ،

لكَ أعيادَكَ ، ولي أعيادي ،

وكلانا عالقٌ في شبكة المساء الخلو ،
 المساء المنشور كالسكر على رغيـف المدينة .
 وكلانا جُرُنْ تطحن العاصفة فيه عدسها ،
 فلماذا تتبعني أيها النهر؟
 لماذا تكشفني لنخيل البحر المتشج بهزائم الساهرين ساهراً
 يؤججُ الحقولَ ، ويحرّضُ النبات على الأعمدة؟
 دعني أيها النهر ،
 دعني في مداي المغلق بثلاثين كبشاً ، وسرير واحدٍ
 تتخاطفُ النساءُ عليه مملكة لم تكتمل . (١٣)

ومن الواضح هنا أنّ الفضاء الطبيعي يتألف من أجزاء متعددة ،
 ولكنها أجزاء لا تصنع أيّ «مشهد طبيعي» متجانس في وسع الذاكرة
 البصرية أن تستعيده على الفور من مخزونها البصري . وفي هذا المستوى
 الأول تكون القراءة ملزمة بالانخراط في «تشكيل» مشهدية مركبة من نوع
 غير مألوف (إذ ليس في وسعها أن تشكل مشهداً أحاديّاً من نوع مألوف
 مسبقاً) ، وتكون قواعد التشكيل مرنة ومفتوحة وحرّة وخاصة بكلّ قارئ
 على حدة ، ولكنها في الآن ذاته تظلّ محكومة بقواسم مشتركة عليها هي
 أجزاء المشهد الطبيعي كما اندرجت في القصيدة . في المستوى الثاني
 تكون القراءة ملزمة باستحضار موقع الشاعر الإنسان في هذه المشهدية
 التشكيلية (وهو ، أيضاً ، استحضار القارئ لنفسه في المشهد) ، الأمر
 الذي يفضي إلى التماس زمنية الفضاء الطبيعي ، وهي زمنية تشكيلية
 بدورها لأنها تقوم على أفعال متغايرة الأزمنة ، وعلى صيغتي التصريح

(١٣) سليم بركات : «الديوان» ، ص ١٩١ .

والسؤال ، فضلاً عن العلاقة التبادلية بين ضمير المتكلم وضمير المخاطب .
في المستوى الثالث تكون القراءة مُلزمة بتكوين استجابة دلالية إزاء
الصياغات التشكيلية لعلاقات الخيِّلة والذاكرة البصرية والمكان ، كما في
«دعني في مداي المغلق بثلاثين كبشاً وسرير واحد ، تتخاطف النساء عليه
ملكة لم تكتمل» : أهذه استجابة مجازية بلاغية صرفة؟ أهى استجابة
بصرية؟ أهى استجابة ذهنية رؤيوية؟ أم هى مزيج من هذه أو تلك؟ وفي
مستوى رابع لا بدّ للقراءة من أن تتخذ موقفاً من هندسة توزيع السطور
والفقرات والمقطع بأسره . أيّ انطباعات تخلفها هذه الهندسة؟ هل تساهم
فى صناعة إيقاع متباطئ أم متسارع؟ هل تقوم بضبط الاستقبال ، أم
تُقلت زمامه؟ هل تتكامل أم تتنافر مع الفضاء التشكيلي الأعلى الذى
يغلّف القصيدة الطويلة الأم؟ وما الفارق؟

غير أن القراءة مُلزمة بتطوير مستوى خامس شاقّ بقدر ما هو محرّض
على توليد جماليات تشكيلية عالية ، مستوحاة من ذهول الكائن أمام
عبقريّة المكان ، أو بالأحرى أمام أعجوبة انكشاف خصائص بعينها من
عبقريّة المكان ، لم تكن وليست مرئية خارج برهة انقلاب الفضاء الطبيعي
إلى فضاء تشكيلي . والمرء يتذكّر قول شارل بودليير :

آه ، كم العالم كبير فى وضوح المصاييح
وكم العالم صغير فى أعين الذاكرة .

واستدعاء الذاكرة ، أو الذاكرة البصرية على وجه التحديد ، هو معضلة
المستوى الخامس من قراءة تجهد لكي تُصالح بين مخزون الصُّور الطبيعية
وبين الطارىء التشكيلي الذى يعيد استقلال تلك الصور دون أن
يطمسها ، أو يغلّفها بأغشية استعارية دون أن يحجب قوامها العضوي أو
مكافئاتها المعيارية . وديرام فى قصيدة سليم بركات هو الشاعر الواقف فى

قلب العالم ، ساعة انكشاف المكان ، أمام نهر يتبعه حاملاً قنديل إيضاح الواضح («لماذا تتبعني أيها النهر؟ لماذا تحمل قنديلَكَ والأرضُ واضحةٌ كما ترى؟»). وديرام هو الجسد الإنساني وقد انقلب إلى مركز لإسباغ الزمن على الفضاء الخارجي («ديرام يحصي من شرفته ملوكاً يمرون ، وممالك تجتاز الطريق متوكئة على عِصِيّ البازلت»)، ولكنه المركز الذي تتصارع فيه ذاكرة بصرية طبيعية وأخرى منبثقة من إِبصار المشاهد على نحو رؤيوي .

وفي النصّ السابق يمكن العثور على خمسة أنماط من هذا التصارع :
١ - بين الصُّور المتماثلة في كيفية الفعل والمتغايرة في مادّة الفعل : «هذا عالمٌ يُتلى . هذا حبرٌ يُتلى» ؛

٢ - بين الصُّور المتعارضة في كيفية الفعل والمتماثلة في مادّة الفعل : «لماذا تكشفني لنخيل البحر المتشع بهزائم الساهرين ساهراً يوجِّعُ الحقول» ؛
٣ - بين العنصر الملموس موصوفاً في صورة مجردة (النهر المعلق فوق المدينة) ، وبين الفعل المجرد والمادّة المجردة (النهر «الذي يهيء أعشاشه للهاث الأسلحة» ، والنهر الذي «يستطلع الحجر») ؛

٤ - بين الكائن الإنساني (ديرام) والعنصر الطبيعي (النهر ، العاصفة) والموضوع الماديّ (الجرن ، العدس) والفعل الطبيعي (الطحن) المرفوع إلى مستوى إستعاري : «كلانا جرن تطحن العاصفة فيه عدسها» ؛

٥ - بين الصورة الثابتة (سهم الشمال ، نورج المحارب ، رغيف المدينة) ، وبين الصورة المتحركة (ناقراً بأنامله على غشاء المشهد ، تنفخ في بوقك النجيلي ، تحزم المدينة في جريانك) .

وفي جميع الأمثلة السابقة لا تملك ذاكرة القارئ البصرية أي مخزون صُوري طبيعي يسمح بالتفكير في «عالم يُتلى» ، أو «نخيل متشع بهزائم الساهرين» ، أو «نهر يهيء الأعشاش للهاث الأسلحة» ، أو «جرن تطحن

فيه العاصفة العدس»... أكثر من ذلك ، يبدو النصّ السابق - وربما شعر بركات بأسره - وكأنّه لا يستمدُّ بُنيته الإجمالية إلا من هذا الاحتشاد الزاخر لأمثلة التصارع بين مادّة العالم الطبيعي وصوّر التقاط المادّة ذاتها على نحو رؤيوي تشكيلي . ورؤيا بركات تقوم تارة بإسباغ المحتوى السحري - الطفولي على المشهد المألوف ، أو تقوم طورًا بترقية عناصر الطبيعة الخام الواضحة إلى عناصر تشكيلية متسامية في مشهد رؤيوي خارق للمألوف ، إلى جانب أنها - في الحالتين - تنتهك أعراف الذاكرة البصرية وتحفّز على الرؤيا التشكيلية خارج تلك الأعراف .

غير أن قواعد القراءة الأولى لأي نصّ أدبي تظلّ شبيهة بقواعد عزف مقطوعة موسيقية للمرّة الأولى : لا مناص من الالتزام بما تقوله العلامات المدوّنة على السلالم الموسيقية . وفي النصّ الأدبي تبدأ هذه العلامات من القراءة «المنتظمة» ، أي تلك التي تبدأ من اليمين إلى اليسار ، وتمرّ على الكلمات كما ربّما المبدع في السطور . وهي تاليًا ملزمة باستقبال بُنية السطر النحوية والدلالية والمجازية كما شاء المبدع تقديمها ، وملزمة بالسير في السياق الرؤيوي الذي حاول الشاعر صياغته . بمعنى آخر ، ليس من حقّ القارئ أن يبدأ نصّ سليم بركات من منتصفه فألى الأعلى ، أو من ختامه فألى المنتصف . وليس من حقّه أن يبدّل عبارة «نخيل مَشَّح بهزائم الساهرين» بعبارة أخرى تقول «هزائم مَشَّحة بنخيل الساهرين» . وليس من حقّه (إذ ليس ذلك في وسعه عمليًا) أن يستنبط سياقًا مضادًا مستوحى من قلب عبارة بركات ذاتها ، إلى أخرى تقول «البلاب متجرّد من بقطة النائمين» على سبيل المثال .

هذه ، بالضبط ، هي كبرى نقاط الإرتكاز الدلالي لنصّ ينتهك الذاكرة البصرية المختزنة . فالقارئ ملزم هنا بتخيّل ما يريده الشاعر أن يتخيّله ، وفق القواعد التي يرسمها الشاعر وليس استنادًا إلى أيّة قواعد

«قياسية» أو «معيارية» متفق عليها . وما دامت كلّ الكلمات ، ما عدا أسماء العَلَم ربما ، قادرة على صناعة المعنى بالضرورة ، فإنّ مَلَكَات توليد المعنى هي وحدها التي تنشط وتتنبّه حين تقف وجهاً لوجه أمام معضلة انقلاب الفضاء الطبيعي إلى فضاء تشكيلي طارئ ، لم تتخيّله الذاكر البصرية من قبل ، وهو غير مدوّن في طبقاتها وتواريخها . وأمّا إذا احتوت النصوص على مقدار عالٍ من الموادّ المساعدة على إحياء الذاكرة البصرية ، فإنّ حظوظها في توليد المعنى سوف تكون محدودة لأنها ستتناسب عكساً مع مقدار تقاعس المَلَكَات عن الانخراط في التخيل الطارئ غير المدوّن في الذاكرة البصرية .

يعلّمنا تاريخ الإنجازات الإبداعية الفردية درساً كبيراً مفاده أنّ أعمال الأدب الاستثنائية قامت بواحد من إنجازين : إمّا أنها أسّست أسلوبية جديدة ، أو تسبّبت في مُحاق أسلوبية قديمة ، الأمر الذي يعني أنها – في النتيجة – حالات خاصّة للغاية . وأدب سليم بركات نموذج رفيع على تلك الحالات الخاصة : شعره ضخّ حياة جديدة في المشهد الشعري العربي المعاصر ، وروايته (١٤ عملاً ، حتى هذا التاريخ) أحييت عالماً سردياً يكون فيه العجائبي مادةً كبيرى جِبارة لالتماس إنشاء العالم الفعلي وإعادةه . الأهمّ من ذلك ، وهذه ليست مفارقة البتة ، أنّ بركات الكردي كتب بلغة عربية فصحي – حيّة ، دافقة ، بليغة ، إعجازية ، فاتنة ، طليقة ، بالغة الشراء والجساسة والجزالة – ولعب دوراً كبيراً كبيراً في تحديث قوامها التركيبي واستخداماتها البلاغية ووظائفها الخطابية ، الأمر الذي يغني عن القول إنه بات بؤرة استقطاب ومعيّار قياس وغوّج تأثير .

..الأمر الذي يغني ، أيضًا ، عن الجزم بأنّ سليم بركات - الآن إذ تصدر هذه الأعمال الشعرية وتضمّ ١١ مجموعة شعرية - وراء تأسيس أسلوبية جديدة في الشعر كما في الرواية ، وأنّ من الطبيعي أن ننتظر منه المزيد .

كلُّ داخلٍ سيهتف لأجلي،

وكلُّ خارجٍ أيضاً

دينوكا بريقاً تعالى إلى طعنة هادئة

عندما تنحدر قطعان الذئاب من الشمال وهي تحير مؤخراتها فوق الثلج
وتعوي فتشتعل الحظائر المقفلة ، وحناجر الكلاب ، أسمع حشرة دينوكا .
(شهادة)

في حقول البطيخ الأحمر ، المحيطة بالقرية ، كانت السماء تتناثر
كاشفة عن فراغ مسقوف بخيوط العناكب وقبعات الدُّرك ، حيث تخرج
دينوكا عارية تسوق قطيعاً من بنات أوى إلى جهة أخرى خالية من
الشظايا .
(شهادة)

دينوكا

ماذا أقول للصيادين الذين يضعون سروجاً فوق ظهور الكلاب
السلوقية في سفح سنجار وجبال عبد العزيز؟ أنت مختبئة في مكان ما ،
ربما في زريبة ، تسمين التراب ومذاود النعاج . كبيرة أنت . بليلة ، مسكونة
بالخصاد وبى .

أسمع والدك يصيح : دينوكا . . أسمع والدتك تصحيح : «دينوكا ،
احملي خبز الشعير هذا إلى المهاجرين وقولي أن يستريحوا قليلاً» .
كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم . . من طشقند وخوزستان وأرمينيا
والجنوب الغربي لروسيا حملوا أشرعتهم وصرر السرخس إلى الجزيرة بلا

أخذية أو مناجل . وكنت صغيرة لم تدركي أنهم يحتاجون إلى الماء وإلى امرأة مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتنبت في سنيّ الهجرات عُدساً وجنادب . أنت تجهلين كيف يمتلىء الأخدود بين «عامودا» و«موسيسانا» بجثث البغال والأعضاء المبتورة . تجهلين من أين يحصل البدو على بنادق فرنسية ، ولماذا ينتفخون على تخوم القرى حين يهجمون عاصبين رؤوسهم بعباءاتهم .

قيل : خرجت من جهة العراء ، وخرجت «بريشا» من جهة العراء ، ومن جهة العراء خرج الله ، وجاءت الدهشة والطلقات الفارغة التي جلبها الصبابة من براميل قماعة السراي . وقيل إنك عدت بقطيع من النعاج المبتهجات وكبش واحد ينخر كالحارب في كل موضع مبلل بالبول . دينوكا . . دينوكا . .

أنا متعب ، ولا أسمع صوتك حيث أرى هضاب «معيريك» وعربات الأكراد المحملة بالقش .

فرمان / المطاردة

يا ابنة أيامي الزانية
لا بغلّك ، لا البريّة ، لا الأسلاك ثواريك ، وطيفك - هذا المشطور -
يميلُ وأسندهُ لأطيلَ مطاردتي
فأنيخي طائرَكَ اليومَ بمنحدر خلف جنازة أغصاني
إني مُتّصلٌ بالفلكِ الدائر ، بالهمس ، وظلّ المقصلة .

خلف الشجرات
كان النساجون يديرون على النول خيوط الهدنة بين الوحشة والعالم ؛

خلفَ الشجراتِ كَبَتْ رُثْيِي
ثم اتكأْتُ فوق جذوعِ يابسةٍ واشتعلتُ ؛
أشعلتُ النساجينَ الفقراءَ فهزَّوا خاصرَتي وتهاووا
فوق جذوعِ يابسةٍ يعتصمونَ بأزهارِي ونباتي ،
يعتصمونَ بقفازاتِ امرأةٍ تتراجعُ قدامَ البدوِ المرتعبينَ على فوهةِ
أوردَتي .

خلفَ الشجراتِ قناديلُ الماءِ ، غبارٌ ، الملحُ فيه يديكَ تذوبانِ . .
أنيخي يا ابنةَ أيامي الزانيةِ
لا البريةُ ، لا الأسلاكُ تواريكِ . بجانبِ دغلٍ أو جبلٍ سوفَ ترينَ
معِي مطري ونهاري متكتأً تتجاذبُهُ الرَّافَةُ والريحُ وظلُّ المقصلةِ
وترينَ عصافيرَ دمي المتغافلِ
(ثمةٌ وعدُّ أن أتجاهلها كالشرفاءِ
فلا آتيها بين جوارِي الجمهوريةِ والحُرَّاسِ)
ترينَ دمي

محتشداً بملوكِ البحرِ وقرميدِ المدنِ .
وأنا أتجاهلُ أقواماً يقتربونَ ويمضونَ ، وأثقبُ نعليَّ لأعرفَ ما يعرفهُ
الصعلوكُ عن الشهداءِ المنبذينَ على طرقاتِ الأضرحةِ
ولأعرفَ كيفَ يهادنني زمَني
وسهوبٌ تكتظُّ بعشبٍ يحزنني
(يحزنني البرقُ إذا أومضَ في أطرافِ السيلِ ، ويحزنني السيلُ إذا
فاضَ على البرِّ ، ويحزنني البرُّ إذا أقصَّتهُ الدولةُ عن تاريخِ الدولةِ ؛ تحزنني
الدولةُ إن قاطعها الحزنُ ، ويحزنني الحزنُ)

أنا خلفكِ يا ابنةَ أيامي الزانيةِ
أدعو ورقَ العنَّابِ إلى حيرةِ شعبٍ : «خُفْ إلى صاحبتِي

يا ورق العنابِ بسوريةً ، عجِّلُ بالله ، أنا مشغولٌ بدخانِ يعصمني
من حرية أجيال تقتنصُ الأجيالَ ؛ مدائي سروجٌ وعجاجُ
أقترحُ اسماً آخر فيه لمائي
وأصاحبُ ثديّاتِ العصر إلى يهو سمندله وخزاماهُ ، إلى ثدي فاجأه
اللهُ وراء السنبلة .

يا ورق العنابِ ، الجغرافيون نيامٌ ، والطلقاتُ ملثَنٌ بأسرارِ العشبِ . .
«أنا الرُّبآنُ وباخرتي
صدأ الخطوات» . وراءك ، عن جنببك ترين دمي
يبعث هاويةً في هاويتي
ويهبُّ بسربٍ من أفراس الوحشة يتمطى وسط سياجات الروح ،
ويصهلُ في ثوب «بريغا» المقتولة بالغرباء وطقسِ الآلهة .
أجنحُ للعنفِ وأعقدُ أمعاء الأفراس إلى وتد يحسكُ به الشرَكسُ
والكرْدُ ويتصبون خفافاً .
أحتنمُ وأرقهم بالنرجسِ والإيمانِ الأبديِّ ونمضي شجراً وعصافير إلى
النهر ،

نقولُ : «تعال أيا نهرُ ،
تعال أيا جبلُ»
ونقولُ : «تعال أيا حجلُ»
وتعال أيا ورق العنابِ إلى باديةٍ تخرج من ثقبِ الجمجمة .
أجنحُ للعنفِ وأدعو اللحظات لتخفف من بلور القلب على عورة
قامات تأتي من زبد القطب وقرميد المدن
وأجاهدُ أن أفتح ما يتأكلُ من شفتي للإعدام ومن غصني
حينهُ يكتملُ الجسدُ الرطبُ ويقتادُ إلى أخذودِ الوقتِ وعولِ المعجزة .
وتسافرُ بي أطياف صديقات كُنُ يجرحنَ مداري . الآن وبعد الآن أفوزُ

بمقبرة ودم وأجيتك في يميني وفي يسراي سلاسلُ يساقطُ فيها غابُ
بخواتيم الخلق وتسقط أجنحة الخابور . أضمتُ مقتصداً في الضربة .

أمسكُ أولَ أمعائك وأخليك فتتحدريْن إلى مأدبة العالم .
(تجتازين المنحدرَ الآن فيصدمك الكركي ويستأجرُ تجويف
البطن إلى العام القادم ، بعد العام القادم

تستأجرُك الدباباتُ ، وبعد المائة ينتقلُ الكركي مع الدبابات
إلى تجويف الصدر ، وبعد الألف الأولى ينتقلُ فيك القلبُ بطابور
جراء يتبولُ فوق الكلية والقلب وفوب الكبدِ)
حليتُك ثم جعلتُ يدي

مغزلَ صوتك فوق رمال البادية
وتركتُ النفسَ لما يشغلُها من قرآن العفو وعدتُ إلى هاويتي .

أ/ لا فاصلَ في ذراتي غير حفيف سراويل المطر الوضاء .
- تجزأ -
- اتجزأ ،

فلتتجزأ من حشرجتي الساحاتُ لأفرح بالأعلام مع الثورة توصلد
عزلتها وتخاصمُ من يأتيها متحداً .

ب/ لا فاصلَ في ذراتي غير دلال الشعب .
- تجزأ ..
- اتجزأ ،

وأهددُ من يأتييني متحداً .

ج/ لا فاصلَ في ذراتي غير جرائم الحرب ،
تعالوا ،

محطيات وسرايِب وأقماراً بائسةً تتدلى من أعمدة الهاتف والجوع .

تعالوا ملتحمين بقصدير الضوضاء لأفصلكم وأسلمكم كل فريق فلك القنبلة .
إني وارثكم في النسوة ، أتى الأم على مضجع ابنتها ،
أو أجمع شمل الاختين على شفرة أنفاسي
وأقود شعائركم في ميناء الورد إلى زورق شحن الربات وأيام الباب
العالى مكتظاً بأنابيق الزندقة .
د/ لا فاصل في ذراتي غير جذور خراسان ،
- تحيّرًا . .

- لن أنجزاً في معتقل
أقدر أن أنفذ منه إلى الطاعون . تعالوا
دسائين ولوطيين ، تعالوا حشاشين نفاجىء أجراسي .

أصغيتُ إلى العالم
أصغيتُ إلى دينوكا بريفا
أصغيتُ إلى سيمتي ونعاسي
أصغيتُ إلى الحب يرندحني في خلخلة العصيان ويفتح السلم
الموقوت بأهداب نساء يتكاثفن ، ويهطلن على مدخنة الفقراء :
أبارك حنجرتي

وأمرُ على جمع الفقراء يقيمون متارياً في طرقات قراهم ويغيبون من
النشوة بالرعد الملكي يحيى على دكذله بمناديل دمقس ، وأغيب من النشوة
حين يطيحون بخصيتهم تحت فضاء مطاردتي
وأفقهه في سرداب متصل بينابيع الشعب ،
إذ الشعب يُسلمني للأمطار وللطير ، أناديه :
- تحيّرًا

أنت ومن يتسول في حاضرة العصر ثاكيل ثاكيل .

أباركُ حنجرتي
وأزاحمُ في خلواتِ الشمسِ نباحَ الأعلامِ بوادٍ يستوقفني :
«حجرٌ وجيادُ
حجرٌ وخيانات بيضاءُ
حجرٌ وصوارٍ بيضاءُ» .

أخرجُ من أعرافي ودياري جندياً من جنودِ الوثنيين ،
وأخرجُ مرتزقاً بالنحلِ إلى أزهارِ الغرباءِ
فليكنِ الموتُ إذنُ ملءِ تراباتي
وليكنِ النهارُ رسولَ الإعدامِ ، أوأكبهُ حتى مسجدِ آبائي بالآبناءُ
وأنا السابحُ في الياقوتِ المغلقِ والأيامِ المغلقةِ
أنهالُ على لغةِ الأحلامِ العامةِ بالطنيناتِ ، وأجعلُ وجهَ الأطلنطي
شرفةً مومسةً تنهياً للقافلةِ الشبكيةِ
وأخلّي جسدي السفلي يسوخُ بمزرعةٍ تتشابكُ فيها الدمعةُ والسوسنةُ
وأخلّي لنداماي مساربَ حولَ ضفافِ الأبديةِ .

تستوقفني الأعلامُ على الهضبات : «صحونا في شرقيّ الحلم
وناديناك تمتعُ بالصحراءِ وخذها حافيةً في الصيفِ إلى لينِ فراشك»
والأعلامِ اقتحمت رائحتي وانتظرتُ في صالونِ الماءِ
وانتظرتني الأبديةُ أن أتراققِ والوحيَ على حافاتِ براعمها
أو أضربُ بعصايَ على ليلكةِ الأرواحِ لتعقدَ حكمتها أطفالاً يرمحلون
إلى موعدِ قداسِ الظلماءِ
وغزالاتٍ ليس تُترجمُ ، وأترجمها ؛
«كلُّ غزالٍ فاتحةُ»

وَأُترجمُ في الهضباتِ الأعلامَ : «صَحونا ورأيناكَ شطيَّةً
تنقلُ عائلةَ الرملِ إلى الخوذةِ ، والعربيُّ إلى ذاكرةٍ في صوديومِ الكونِ ؛
دعوناكَ باسمِكَ ،

ودعوناكَ بِاسمِ الماسَةِ والمرجانةِ : كنتَ بلا مددٍ
وجِهاتِكَ تتراخى كالعضلاتِ وتُرخيكُ ،
وكان النملُ يجمعُ ما يتهاوى منك على الأرضِ خَلِيَّةً
فخَلِيَّةً
فخَلِيَّةً

وتقومُ على هيئةِ مخلوقٍ مرصوصٍ بحجارةٍ ما قبلَ الميلاَدِ وما بعدَ
الميلاَدِ ؛

رأيناكَ تصيحُ : «أنا براهمائيُّ النملِ أسيرُ به في ملكوتِ حِدادي .
فقتلناكَ» .

أباركُ حنجرتي

وأزاحمُ في خلواتِ الغيمِ نهاري عِلْماً عِلْماً نحو سنابلِ دينوكا :
«ماذا يفعلُ مثلي إلا أن يستفردَ مثلكَ للقتلِ ، وأن يتقصَّى أعضاءَكَ
بعدَ القتلِ ويخرجَ مجنوناً يطلبُ موتَ الإنسانِ وموتَ البحرِ وما سوف
يدبُّجُه المستقبلُ من فلزاتٍ وأكاسيدٍ لخلقِ أجنَّتِهِ؟
ماذا أفعلُ وأنا خلفُ الشجراتِ

أتنسَّمُكَ اللحظةَ ؛ أتنسَّمُ رائحةَ القشِ ، ومن صوبِ بغالِ الخطابينِ
غماماً ومواسيرَ يصادرها الدُّرُكُ الأجلافُ . وأجزمُ أنك راکضةٌ بالصندلِ
والبارودِ إليّ ، تخافينِ على أحلامي من أحلامي وتدورينِ على قنطرةِ بينِ
ضفافي وضفافي الجسدِ الملقى تحتِ فوانيسِ الجَمِيرِ . تخوضينِ من النهرِ
خوافيه ، يدانِكَ على مُشْتَمَلِ الثوبِ ، وخَشْيَةُ أن يبتلَّ ترقانُ أمامِ هياجِ الماءِ
وترتفعانِ ، ويجفلُ من تاريخِ الفخذينِ حَبَابُ يكتبُ للأجرامِ رسائلهُ

القمرية . أجزم أنك تختطفين من الحيات المشقوقة في أعراس الطمي
مفاتيح النهر وتقتحمين رماد أسافله وأعالیه إلى قاعة أشتاتي
عارية إلا من بعض نثار الطلح على الجبهة والأوراق ؛ أحاذيك وأرسم
شهوتنا في دائرة الخطابين ، الدرك ، الصوت ، اليابسة ، الخشخاش ؛
أحاذيك وأنقل شهوتنا في حوصلة الرزور إلى ميعاد الشجرات .

من أوقظ في خلوات الجغرافيا بعدُ ليشهد لي وعليّ ومجزرتي
تستسقي من أحواض في مفترق العالم والله ؟ توصلت إلى الوديان
لتسبق أصداء جناحي إلى أكواخ جائية ، وإلى تلميذات يهتفن لأجلي
من أسوار مدارسهن ؛ توصلت إلى حَدَثٍ يختص له الساخن والبارد
واليابس والرطب ليلبسن في حفلة تنويع الديمقراطيةين خلائف في
ممتلكات القلب .

أهتف : فليهدأ هذا القلب
الحلج كل شريد يربط ناعورته ويضمخني كزعيم من زعماء العذريين ،
وأسمع كيف يثرثر عني العصفور الوطني لجارته الوطنية ، والنحلة
تهباً لملاقاتي

وأنا خلف حصاة التاريخ وإدلاج الشجرات
أبعث هاوية في هاويتي
وأسد ثغوب كواكب أتباعي بالفلين وبالفرح المندوف وأمضي الجماهير
توافد من أقليم السحر إليّ معارضة وتحاكمني .

(كنت أقاتل واللوردات يقيسون على شرفات فنادقهم بالناظور
مساحة أشجاني
ونواميس الرهبة ، حيث يحوم على سرّ دينوكا ملكان من الثلج) .

وأَمْضِي لِحَمَاهِيرٍ تَمْلَأُ مُحْكَمَتِي
بِمَصَابِيحِ عُنَاصِرِهَا ؛ اكْتَشَفْتَنِي وَكَشَفْتُ لَهَا سَبَبَ النَّارِ وَعَدْتُ إِلَى
هَيْبَةِ رَعْدِي أَتَوَضَّأُ كَيْ أَقْتَلَ فِي الصَّيْفِ أَوَّانَ يَشَاكِهْنِي الْمَوْجُ وَيَخْطُبُ وَدِّي
السَّعْفُ

وَأَوَّانَ تَبَاغْتَنِي الْحُورِيَّاتُ عَلَى رَافِدِ دَجَلَةٍ
بَدَفَاتِرَهُنَّ فَأَمْلِي مِنْ كَلِمَاتِ الذَّهْرِ فَصَائِلَ كَالْأَلْعَابِ النَّارِيَّةِ وَالذَّاكِرَةِ
الْمُخْتَلَةِ . أَمْضِي ،

قُلْتُ غَدَا أَمْضِي لَعْدٍ يَتَرَجَّعُ أَوْ يَنْعَطِفُ
فِي زَاوِيَةٍ قَبْلَ حُدُودِ الْإِنْسَانِ :
سَمِعْتُ الْإِنْسَانَ يَرْتَقُ حَاضِرَهُ وَيَمُوتُ فَهَرُولَتْ إِلَى السَّنْبِلَةِ
لِتَبْلُغَ دِينُوكَا أَنِّي قَادِمٌ
وَمَعِيَ بَعْضُ الْأَعْذَارِ عَلَى وَرَقٍ خَشْيَةِ أَنْ أَتْلَعْتُمْ حِينَ الْأَقْيَهِ ،
وَمَعِيَ هَاوِيَتِي .

بيروت ١٩٧٢

الكواكب المهرولة صوب الجبل

لجاعات تنهدد أيلول يناهض أبعاده في الدولة والضوء وينساب زللاً
في أيام خلأته المدهشة

وبعارضني ، فأعارضه : لكم وافاني بنبيذ وغياهب كنت أضم يدي
وأهبطها بمواقع أهلي عديمياً أحسب أن الملك يجيء بملك ، والينبوع
يجيء بنبوع ، والأقطار حبالى بتوابع لا تستأخر طعناتها حين تُشرد في
الذين ؛ ووافاني في شرك العذرة بالأشئ حيث يطالعها الفجر تقول : اقعد
بي يا فجر لأعطيك قبائل لا تسأل أين تموت .

وأفتى للوحدات بأن تخرج من أبواب الصحراء إلى ساداتها المنتظرين
على الساحل ، ثم أناخ غوايته في هاجرة تلفت على الشجر المستنفر
والأعشاب ، يقول لافق يتقدم : عُد ، للأنهار : أعيدي .

وتغافل عن أحزان راسية حيث أناخ ولم يفصح عن غده لمراكبها .
وبجاهر أن ملائكة ناداته وراء قواقعها الخضراء فحاصرها وأبى إلا أن تُسقط
ما يشبه صوت الجنة في كل حصاة هائمة حتى يغشاها أزل آخر . كان
الموفد في تاريخ ١٩٧٠/١١/٢١ ليباشر آيته بين الخلفاء المغتربين ببعثات
اللغة اللاتينية والصمت وأشياء ترن إذا اجتمعت سحب داجنة كالعنقود
على مدخل غبظتهم . أذكر في تاريخ ١٩٧١/٥/٨ عاد إلي شقيقاً فرحاناً
بما يجعل عاصفة عاصفة ، والشریان أغاني تبعث بحقائقها الملائكية
وأناجيل إلى الأعداء ، وخصاصني ، وتحدث عن مجتمع فخل ، فمسحت
على راحتي يدي إلى مكمن ريف ملقى تحت جناحي :

ونكملُ نزهتنا في إزهاب الفرح الذَّاهِلِ بالشَّعرِ على شاطئِ أوروبا ،
لا نستأنسُ إلَّا ترفَ الإنسانِ بنا ، ونُشيعُ طبائعَ تصطادُ عرائسَ رائحةٍ أو
غاديةٍ في قُبَى رمادٍ يقبلُ في مِثْرِهِ الكُنْسي . وكان . وكنتُ أفتقُ جلدي
عن مملكة تلجأ - قبل بلوغِ الدهرِ منازلَهُ المعلومَةَ في الدمع - إلينا ، وكلانا
بادي القُدْحِ يرُدُّ عن الجبهة خصلته بعناد المتدلِّلِ :
«- ما أحلاك . .»

ونشرُدُ في الخضرة ؛ في تدفاق الأرض إلى أرض تنسلُّ من الوطنية
حتى يتهلَّهلُ ثوبُ ثوانينا فينكسُنَ لحاظاً أو يتورَّدنَ من الخجل الطاريء . .

في تاريخ ١٩٧١/٦/٢٩ دخل عامه الثالث عشر .
في تاريخ ١٩٧١/٩/٣ جمع حوله حشداً من الصبية
وتوجه إلى البحيرة القريبة ليتزوج بالماء .
في تاريخ ١٩٧١/١٠/١١ دخل السراي لينذر القائمقام بأن ابن خَلَوِ
قد خرج من نصيبين وأنه قادم لقتله ، وفي اللحظات التالية للأنذار كان
رأس القائمقام يتفتت تحت طلقتين من عيار ١٢/م . أطلقهما تابع ابن خَلَوِ
الذي أوصد باب مكتبه وراءه وسار يهدوء بين أفراد الشرطة المرتجفين إلى
حيث ينتظره سيده خارجاً ، وتابعا طريقهما عبر مخافر القرى المنتشرة لصق
الحدود التركية .

أنتَ ، إذن أنتَ معي ، وخواتمك الفضة والأسنان الذهبية
أنت معي

عشرات من أعوام القطر خلونَ وأعوام مقبلة ، أنت وعيناك وصدرك
والخصر وحوضك هيا نتأمر في الأحوال المحدثّة
بقوانين البحر على رُسلٍ يقتسمون ثرواتٍ مغيرةٍ يُحصي البجع الداخل
مخفياً بالانقراض وبالشهب . اجعلني حيال يدك وصدرك والخصر ، وروء
عن الليل المستسلم لي بحواشيه جسور الليل ، وهيا نتأمر في الأحوال
المحدثّة .

لكأني بالمستوحش من حيوان الوعر تجادله النار فيركضُ ناقوساً في
أقنية الملاء الرباني ليخلع حنجرة الهور على بكّة ، أو سربال الخلجان على
بلد يتمطى في خوذته . وكأني ببنات القصب ارتعن فأخفين سفائنهن عن
الجدول حيث نصبٌ ويجري حشد الأقمار إليه ويتبعنا لمصبٍ بين حقول
الجنس . . هلمّ وقلّ لبنات القصب : اجرحن أعالي البدعة ، قلّ : أو عزنّ
إلى الأيام فلا يصعدن مضاجعنا حين نكون عراة ننزح بالقتل العذب إلى
جسد يرقض ، ومتّ لأموت ، لأعرف أنك لست معي .
ها أنت وخصرك ، صدرك ، عيناك ، تكيدون لأحوالي المحدثّة .

وأكيد لأحوالي حين تعرج عن فسطاط دمي ، وأهبّ وحيداً في ذاكرة
الشیطان هنا وهناك ، وبني وهنّ يضرب خيمته بجوار الدمعة والبؤبؤ ثم آخر
وقد أوصدني الجذد عليه بكيدك . هنا أنت تُضاف إلى من غروني يوم اشتبه
الثلج على الطرف الغربي لطوروس عليّ فحييت أرابنه في الأوكار ،
وحييت ببيوت القرويين المرخية فوق سرير شريعتها ، وأنا أتوهم أن الثلج
أميرات ينثرن حبوب القمح لعصفور ظلّ يلازمي . وسمعت الثلج يلقن
كلّ صدى أن يكمن في أثناء خطاي وأن يتزوج في أثناء خطاي وأن
يحرثني في كانون بزوجين من الإنسان . . أسمعني؟

وسمعت فروق الغيم ترجّ كتابها فتعدو هاذية بأهالي الحلم
المهزول إلى كفني ، فيفرون به لجسوم حشرت بين ركام جهادي ، وتمتني لو

أَنْ شَقَوْنِي امْتَلَأْتُ بِشَعَالِبِ «مَارْدِينَ» وَ«عِنْتَابَةَ» . . تَسْمَعْنِي؟

أَمْسَ سَمِعْتِكَ ، أَمْسَ فَتَحْتُ جِرَاحِي لِلْمَجْنُونِ مِنَ الطَّيْرِ تَصِيحُ :
«لَأَنْتَ الْمُفْضَلَةُ»

وَلَأَنْتَ الْبَارِقُ . . « صَحْتُ : «اِخْتَطَفْنِي» .

أَمْسَ سَمِعْتِكَ ، أَمْسَ شَطَرْتُ عَلَى جَذَعِ الْوَقْتِ شُؤُونِي
وَتَقَدَّمْتُ تَحَفُّ بِكَ الْأَسْلَحَةُ

وَحَمَامَاتُ الرُّعْبِ . . أَتَسْمَعْنِي؟

أَنْتَ تَحْبِيءُ عَنِّي ذُرِّيَّتَكَ الْمَجْهُولَةَ ، أَنْتَ جَمِيلٌ وَأَنَا الْمَحْرُومُ أَخْبِيءُ
عَيْنِي مِنَ الْغَيْبَةِ إِذْ يَنْقَلْتُ النِّخْلُ الْأَفْرِيقِي مِنَ الطَّقْسِ وَيَأْتِيكَ وَيَأْتِي
الْعَيَّارُونَ . . أَتَسْمَعْنِي؟

فَإِذَا قُضِيَ الْأَمْرُ فَإِنِّي

أَتَحَوَّلُ عَنْ غَامِرٍ فَتَحِي نَحْوَ خَرَابِ أَحْزَمُهُ

وَأُطَوِّفُ بِهِ الصِّينَ وَرُوسِيَّاءَ الْبَلْقَانَ وَكَشْمِيرَ وَمَا لَيْسَ بِأَرْضِ بِلِ قُبْعَةً
يَنْفُضُهَا الْمَرْتَحِلُونَ مِنَ الْغُبَرَةِ . إِنِّي مَرْتَحِلٌ بِخَرَابٍ وَمَقَادِيرُ أَصِيبُ بِهَا مَجْزَرَةً
تَنْهِيًا لِلْجِيلِ ،

أَوْ امْرَأَةً تَنْهِيًا لِلْجِيلِ ،

أَوْ اللَّهِ ؛ أَصِيبُ بِهَا اللَّهَ وَبَشَرًا أَجْمَعُ فِيهَا النَّاسَ وَأُرْدمُهَا لِيَعُودُوا بَعْدَ
الْمَوْتِ كِلَابًا وَفَرَّاشَاتٍ تَتَمَسَّحُ بِي وَأَطَارِدُهَا بَيْنَ وَهَادِ جِرَوحِي
وَلَيْتَكُنِ الْإِعْدَامُ هُوَ الْحَكْمُ الثَّقَةُ

فِي إِخْلَاقِي لِنَسِيجِ الْكُونِ وَلِلرَّغَبَاتِ الْعَجْمِيَّةِ ، هَلْ تَسْمَعْنِي؟
وَسَارَتَاخُ لَا بَلُو كُلِّ جَحِيمٍ وَجَنِينٍ ، وَمَوَازِينِي الْمَهْزَلَةَ
وَسَارَتَاخُ لَا بَعَثَ فِي الشُّوَحِ

وَبَقِيَّةَ أَشْجَارٍ وَهَبَّتْكَ مَلَامَحُهَا ، خَدَمِي وَوَصِيفَاتِي

ليقولوا : عاد ثرياً ، وأعود سياسياً وثرياً أخطبُ في صالات النقرس
والتيفوس وأمراض المفصل عن فيتكونغ الجنة ، أو أجترحُ العفّة بين القومية
والأحشاء وموكبي الاقطارُ المقبلةُ
وأنا أعرفُ أنني المُشكِـلُ في صُحفِ المنتظرين قدومي ،
وأنا السائحُ في فقهِ العصبيةِ
تتناقلني الوردة والهدهدُ ، والأحفادُ يسنّون لتقويمِ رابيةٍ تأسرُها
الحشراتُ . . . أتسمعني؟
أنت تراني وتراني السابلةُ
في مضطربٍ وثنيٍّ وأحلُّ عُراي أمام البهجةِ واليأس ؛ أحلُّ فؤادي
فتطيرُ مشاغلهُ المهملَةُ
وأسمي من أحببت ومن أدخر الحبُّ لهنّ ، وأشهدُ بالغبرة والحرمات
لنفسي ثم أموتُ :
«إلى أين سيجري النهرُ؟» ، إلى أين ستجري الوردة والفتيات؟ إلى أين
ستجري النفسُ وبيروتُ وعزفُ العَمّةِ «أرواد» على وتر الليلِ؟
أتسمعني؟

أسمعك الآن ، وها نتحدث والفاصلةُ
صوتك أو صمتك ، فلنتأمّر كلُّ في موجته وضواحيه ، وهياً . .
في تاريخ ١٩٧٢/١٠/٨
كنتُ تتعتم ، كنتُ أتمتُ ، واسمي ما زال سليم بركات

بيروت ١٩٧٢

مبعوث الضراشات

/٨

باسم الجبل الواحد في أحزاني أتقدم ..
لن يسلم ماء ،
أتقدم ..

لن يسلم حلم يتواتر عن أول موت ختم البحر به أفاقه
واستنسر في يابسة الهجرات المبهورة بالشجر السري وبالأطفال
يسيرون فرادى فوق نسيج الصوت ويلتحمون أمام نشيد الشجر السري ،
وبى أتقدم منهوراً كشعاب يجرحها الفلاحون بأقدام الثيران . ضميري
«مايسترو» في جوفة أتراب أحملهم في السير إلى مشكاتي وأخاف الردة
حين أصرح بالبدء الموعود وبالغابات تفاتح خلجاني بحريق ذي أدب
عجري ، وأخاف .

(لماذا؟)

وحدي في آباري قد أخلق أتراباً
يحترمون جنوني المفتوح على زنانات الزعماء) .
وفي الجوفة إذ أتقدم أعصب خطواتي
وأحب على مفرق كل طريق قبرا أردفه خلقي وأتابع ..
(تسبقني أنطاكية الجهر وياقا وعمان وتسبقني غرف وعرائس
أودية وأقاح ومناورات . تسبقني أحذية القرويين لردة أيامي) .
في الردة حين تفاجئني الثورات أعلق أيامي

وأبأشُرُ بالأسئلة المعتادة عن عصفور أميُّ يتنقّلُ بين صناديق البارود
وبين الخوذات المسكونة بالأسماءِ ، وأسألُ عن صحفِ الثورة والأرقامِ
العلنيةِ في أسفلِ كلِّ ترابٍ يأتون به من جهةٍ نشرت حُلَّتُها فوق حبالِ
الفقراء ؛ وقد أسألُ أياماً ،
وأعلّقُ أيامي في الرُذْهَةِ حتى تنشقَّ :

(يا ثورات انتسبي)

ب/

ألواني مادبةً وفراقي
عن زحفِ الشرفاتِ إلى سَعَفِ الصرخةِ تابوتِ .
ونواعيرِ الموجِ السّاقِي
تنقلُ رُقْدَةَ أعشابِ الطعنِ لساقيهِ تتوزّعُ في ساقيتي ؛
أعرفُ ما يكتمني عن لهبِ الغصنِ وعن سفنٍ تتحرّكُ في ساقيتي
وأرى ساقيتي
تنهضُ خلفِ جنائزِ هذا الجسدِ الخلاقِ .

ج/

أتقدّمُ ..
عن كلِّ يدٍ في فلكي حُمِلْتُ النخلَ وسرْتُ أدحرجُ أجراماً وموائيقَ
شهدتُ لها في نزفِ الأفراسِ بما لا أعلمُ ؛
عن كلِّ حصاةٍ جادلتُ نزوحي وحميتُ ثغوراً كانتُ تتكاثرُ في هرمِ
الأعضاءِ ..
وقفتُ ووجهي يتقدّمُ ؛
(ماذا تجمعُ لي أنستي البدئيةَ من سفحِ فروحي؟)

أقراطاً؟

خرزاً؟

صوفاً لخيام ضاقت عن طوفان الغزل الغربي؟ ترى ماذا تجمع
أنستي البدوية من أنية البحر الكاريبي وبحار تشرب نخب زفافي
لفتاة عمياء ترى قلبي من ثقب العالم مبثوثاً في الوردة والعصفور
وفي الغواصات؟

وقفت ووجهي يتقدم:

لا باب لنهر يقطن قبلة في جغرافية المجد ولا باب لخيمة جندي
وأنا أتوسد خطواتي منبجساً من ورق يتساقط كالأنفاس .. أصلح
بين عقارب ساعات المسيسيبي والفلوفا ..

يوم

يومان

ثلاثة أيام

أربعة ..

سقطت أشهر هذي الدورة بين فتيلين ولا
خفق لكعب العالم في حاشية تستبطن أغنيتي ..
النهر يطيح ،
الجنذ يطيحون وأغفو :

(للسوح تهادن أنستي البدوية دمدمة العجلات وتبتعد
وتنبه في أسرار المجتمعين على بؤبؤ عيني نوارس مجزرة وكلاباً
أسأل أنستي عنها في الليل وأبتعد
محتجياً خشناً كالأفق المشكوف أعاند
مرساة ولاداتي الحجرية في معطف أمصاري)

من يتقدّم؟

حين يضيعون أراهم بين يديّ يفكّونَ خيوطَ حناجرهم ويطلونَ نهاري
وأرى أنستي البدويّة تتمايلُ في نبعٍ بشريّ يهتفُ للأعيادِ وللشبانِ
ذوي البشراتِ الشّركيّة :

(أسلمتُ لأنستي بالي
وكواكبَ تقصفُ بالي ،
أسلمتُ لأنستي قَبعةَ الأحراشِ وسنَجابِ خيالي)

/د

فلتهربُ عاصمتي في فوضى القُبُلاتِ وفي أبدِ الظلِّ الداخلِ ،
ولتقبلُ من حيثُ نشاءُ الأبراجُ المرفوعةُ فوقِ عواميدِ الحشرِ فإني
ألقي جهتي وأسلمُ تسليمَ الفاتحِ . حينَ أفيضُ - على اللوتسِ ،
والبرديّ ، وحينَ تصاحبني الأهوازُ ونرقصُ ملتقّينَ على فرقِ الغيشا غاباتِ
غاباتِ :

(أنستي اقتحميني
واقترحمي طابورَ العشبِ ، خذي
من كلّ هلاكٍ زوجينَ وعودي
لفُراتٍ خلفَ فُراتِ اللهبِ الضامِرِ واقتصدي
في غَزَلِ جنينٍ تحتَ الجذَرِ القوطيِّ وقودي
وانتظريني يومَ يجيئونَ إليكِ بثلجٍ وأساطيرِ) .

جذبتُ المُلُكَ وأرخيتُ
وعذتُ المُلُكَ وفارقتُ

وبين إشاراتي انتحرتُ قافلةً دثرتُ لها حُزَنٌ نهانند . وماذا؟
 أتقدّمُ وأنا أمسكُ عصفوراً وأشمُ جناحيه ،
 أشمُ المنقارَ ،
 أشمُ الريشةَ تلوَ الريشةِ
 وأكرّرُ شمَّ الرُّغْبِ المحفوفِ بعينيهِ ،
 أكرّرُ مَ قوادمه وخوافيه . . وآه
 (هل تسمحُ أنستي أن أعلنُ أن لها رائحةَ العصفور وأنَّ لإبطيها
 زمناً يتنفسُ مائي؟)

أتقدّمُ
 أتقدّمُ
 ها قلبي في الذرّوةِ حيثُ أمهدُ للسَّيلِ ،
 حنانكِ يا قبرةَ الماءِ اغتصبيني .

١٩٧٢/٢/١٢

تصريح ١

(هكذا الأرض) :

نعاسٌ سيدٌ ، جفنٌ كليلٌ :

(هكذا الأرض)

ملاقيكَ زمانٌ - حيثما خبأتَ في مقصورة الموت المناشير - عليمٌ :

(هكذا القتلُ)

زرافات يجيئونُ : الحواةُ ،

الخطباءُ ،

الحرسُ ،

الجنُّ .. سلاماً

أيها القتلُ خبائي ماجنُ الفيض .. سلاماً

كلما سابقتُ أرضاً

أنصبى عُذرةَ الماءِ تقيأتُ .. سلاماً

يا هوى آلهة الرملِ تخطتني الرمالُ ، ابتدأ النزفُ وفي حنجرةِ النزفِ

بقايا أم تدوي ، انفجارُ الحجر العذري والطيرِ ولغم الأزمنة .

أي نعلٍ يطرق الليلة صدغُ النهرِ النائمِ في عيني؟ والعيسُ - التي

عاجتُ على فارسَ ترعى مُؤزَّ إِمساء - أساطيرُ من الجمرِ حيونا فوقها ،
التمتُ علينا عُصمةُ الفرِّ وأبقتنا نواطيرُ على الصبرِ السديمي ؛

شعيرُ ،

مزودُ ،

ماءُ ؛

(هو الرمحُ الذي يرصدُ فتحاً؟؟)

كللوني

كللوني

برفيفِ الذُبُقِ العصريِّ والتبغِ وصمتِ الأحصنة .

من هنا - حيثُ الخلاخيلُ تساقِي حكمةَ الواعظِ جنساً تالِفَ الرُّغشِ

- أسوي

شجني غمداً على نصلِ الهتافاتِ ، أسوي

جسدي حلوى ، أسوي

خافياتِ الدمعِ عربوناً على عُرِي مجيء ..

(ربما أخطأتُ)

هذا ورقي أبيضُ كالفقيرِ إلهي

تصريح ٢

كيفَ أهرَّبُ عصفوراً يأتي من عاصمةِ الشحاذينَ على باخرةِ الشرقِ

الاًوسطِ ، كيفَ أغَيِّرُ منقارهُ والجنحينَ ؟ حرامٌ

يا باعةَ أنتيكاتِ فلسطينَ حرامٌ

هذا العصفورُ يغني للتعويمِ المكتوبِ على قمصانِ الشعراءِ ، ولوحاتِ

الرسامينِ المقلوبةِ في صالاتِ القامشلي ..

كيفَ أيا بلداً يتعلّقُ بالأغصانِ ويقفزُ نحوَ السطرِ التاسعِ والتسعينِ من
الترجمة المخلوطة Love Story أبدأ بالتدجيلِ على الأطفالِ وبومارشيه؟
أدعي هذا هواءً
أزعرُ يعتنقُ الدسَّ وأملّحُ الرُقاةَ
يعشقُ القرشَ ويزني
بالذي يزهرفُ في خاصرةِ الأرضِ من النبطِ ويزني بالحياةِ
(أرقصوا إذا شئتم ، أرفض الاحتجاج)

سأبدأ :

الجزراويُّ وعصفورُهُ ينطلقانِ من الشُّباكِ المغلقِ نحوَ الريفِ ،
يحطّانَ قليلاً ؛
يتبولُ خلفَ الأحجارِ العصفورُ ،
الجزراويُّ يدخنُ .
ينطلقان .

الجزراويُّ : هلالٌ خلفَ الغابةِ معصوبُ العينينِ؟
ترى كيفَ يقودُ خطاهُ؟
العصفورُ : الأوراقُ دليلٌ ..

- : هل يعشقُ جنّيةَ هذا الليلِ؟ أراهُ حزينا ..
- يعشقُ جنّياتِ؟؟ .. ها ها ها
- لوطني يقرأ أشعارَ أبي نواس ..

الجزراويُّ وعصفورُهُ ينطلقانِ من الزمنِ المحتلِّ المغلقِ نحوَ بروجِ النملِ
ويختبران ثقافاتِ الأفلاكِ ،
الأرضِ ،
الماءِ ،

الأبقار ،
 الجزراوي وعصفوره يصطحبان قواميس لغاتٍ عَصْرِيَّةٍ
 لغات تكبرُ في الأرحام ،
 تضيقُ على الأرحام ،
 وتصدُّ حتى وكِر الصَّقر مع الجزراوي وعصفور الجزراوي ؛
 الشوازُ يحبونهما ،
 ويحبهما الخطفُ ،
 الثورة ، والأغصانُ الموقوفةُ
 في زنانات البحرين : الأبيض والأحمر . .
 تهتفُ إن مرَّ أَرْصَفُ الشَّامِ هَلا .
 الجزراوي وعصفوره ينطلقان من الثلج الساحر نحو فصول الماء وأديرةِ
 العشبِ ، يحطان قليلاً بين رحاب الدمعة والأشجار ويتسبان :

الجزراوي :
 جَدِّي الماء ،
 أبي
 أمي
 أَرْضَان تَكْسَرُ بينهما التَّبْدُ وكَسَرَنِي الماء .

العصفور :
 صوصو
 صوصو .
 ها
 يتململ بين الجزراوي وبين العصفور شرارٌ مكتوبٌ بالأظفارِ

ومصطلحات الإصلاح ،

الجزراوي يغني : أه

العصفور يغني : أه

ديك : أه

ناس : عاش

عاش

عاش

يسقط

يسقط

يسقط .

عُصْن :

خبيء الليلة للعام الذي يأتي أناشيد عن الأعمار والدفن ، اسطوانات
مديح ليد تُقبل من حيث ترى القفر .

أحتفال ،

دبكة ،

عرس ،

مواويل ..

تصدعت من المذ الذي موه عزف البلد الراجع من مقصلة البحر بلا
جلد يواسي عظمه الضارب في الريح وأثأت الوفود القلقة .

عُزْتِي مقصوفة والشفقة

حجر يكسرنني ،

أكسره

ثم أحتال على وجهي بمقال من الضحك وأهدي :

كبريائي

كبريائي
أه يا زوادة الشرخ الحضاري ،
أحييك بتأبوت من العاج وقمل ونصال شبة .

تك . . تك . . تك . .
أجزراوي وعصفوره يتطلقان بلافتين^(١) وأوجاع مثل الفلفل ،
يخترقان الدم
الدم
الدم
الدم
الدم الدم الدم
ويحترقان .

(١) اللافتتان :

١- لافتة إلى مدوح عدوان : ٢- لافتة إلى شرفات المهاجرين :

عالمي واسع	أرصد الداخلين
عالمي كرة تتدحرج بين الظنون	أرصد الخارجين
عالمي بينكم	أرصد الوقع في لغة الخطوات ،
فانكروا ما أرى	أرحمي واقفاً
وانكروا راية أعشبت في عيني .	خلف أتعابه يا بدأ لا تبين .

أخفضُ الآن جنحي للصرخة
أضحكُ الآن كي أجرح الآخرين
وأطاردُ ما شئتُ من شجراتِ البتولا مدججةً بالملائكِ والحاصدينِ
أعاتبُ؛ عودي . .
أعاتبُ : ملقومةً شرفاتي ، عودي . .
فتفلقُ أغصانها وتطيرُ .
وأطاردُ ما شئتُ من حجلٍ تتقاذفه الجالياتُ .
أعاتبُ : عودي
لنسقطُ في شركِ السائحين ،
أو لنسقطُ في ثورةٍ مثلما يسقطُ الثائرونُ .
منذُ ودعتكم والسفارات تمتلئُ ،
البارُ يمتلئُ ،
الحربُ تمتلئُ ،
الحلمُ يعلو ونارُ السفيرِ
تتهجئُ مواقدَهم واحداً واحداً . .
(هل أكونُ السفارةُ كي تطمئنُ حقائبهم والطرودُ التي تحتوي رأسَ
طفلٍ؟ . .)
عرفتُ الجنادبَ غاديةً والغديرَ

يَتَخَبَّطُ كَالدِّيكِ فِي مَائِهِ .

٢

وأخيراً

أشهدُ مسرى الوردِ في حنجرة الحفلياتِ وأجرفُ ناري وجسوري .

أستبدلُ واجهة البحر بتابوتِ

وأقيمُ الحفلاتِ على شرف الموجِ المدحورِ

وأعلقُ نواساً بين الشجرِ

وأعلقُ نواساً بين الله وبين الناس : انتظروا

لأعالي الصينِ تغيبُ ،

وصاريةُ القفقاسِ وقزوينَ تغيبُ ، وأدخلُ ساعاتي

تحت لواءِ الثلجِ المحلولِ ومخلوقاتِ العنفِ على ملاٍ يحلجُ أغصاناً

داميةً ..

أعلنُ :

هذا مسرايَ ،

مزجتُ لكم لبني ببيارقِ بيزنطةَ ؛

هذا مسرايَ ومسرى القبرِ المركوزِ إلى جانبِ جذعي ،

هذي مقصلي الخضرَاءَ ،

وتلك جسوري

تدخلُ حاملةً قُبْعَةَ اللَّهِ إلى ملكاتِ المطرِ .

٣

وأخيراً

عولتُ على سنبلةٍ أنشُرُ فوق عوارضِ ثدييها جسدي وثيابي

وأنا م إذا لزم الأمر ، ولكن
 كشفوا الأيام معي حاشيةً وجنودا
 فأغاروا من شِقِّ اليقظةِ يَسْتَعْرِوْنَ وعادوا هاويةً وتُجودا
 تَسْتَرِخِصُهَا الطيرُ وتندُرُها بمضاربِ أعشاشٍ ؛
 كشفوا الأيام معي وتغاضوا عن بيرقِ سفحِ يبكي ،
 وجذوع تبكي ..
 وأنا أبكي ،
 أشتاقُ وأبكي ،
 أشتاقُ وأشتاقُ وأشتاقُ ،
 وأطلبُ من ورقِ الأجسادِ مراكبَ للسفرِ .
 فلتترجَّلُ آسيا عن صهوةِ أحجاري حين تعودُ الأسرُ الملكيةَ عبر مضيقِ
 الجرحِ وتشتاقُ وتبكي .
 حين أدبجُّها حاشيةً لرسائلِ ميعادي وأنا م على فخذي النهرِ فيسفحني
 النهرُ ،
 وعلاً بي دورقَ أسلافي ، وما خلفَ الأسلافِ :
 أنا النَّبْضُ ولا ثالثَ لي
 فلتترجَّلُ آسيا
 باسمِ الجرثومةِ ،
 باسمِ الصَّنْدَلِ والحجلِ اللاهثِ ، باسمِ الثمرِ ،
 أترجَّلُ ،
 فلتترجَّلُ آسيا عن هذا الحجرِ .

٤

اعِدْ . .

أنتِ ودُعْتنا ، ما سمعنا ،
وكانتُ يدَاكَ سَماوِيَّةً والضميرُ
مهرجَاناً : سمعناكَ في البحرِ ، قلنا اصطفَى جهةً .
ما سمعنا . .

سمعنا . .

- : جاءَ مرتعشاً واختبأنا ، بكينا معاً . .

- : جاءَ مرتعشاً جارحاً

أيقظَ العسكري وتابوته . .

- : جاءَ كالمستجيرُ

رافعاً وجههُ ، ماثلاً راحتيه

بالمياهِ وخوفِ المياهِ وريشِ الصقورِ .

٥

كلُّ دمٍ يهذي .

كلُّ خليجٍ يستدرجهُ الماءُ إلى الغبطةِ يهذي .

رثتي تستقبلُ أشجاراً وسواحلَ تهذي . .

لو ينهضُ واحدكم ويدلُّ عليّ مناهي

ويدلُّ الغابةُ ؛ لو يتعلّقُ بي ويعلّقُ في جفنيّ زماناً وبلاداً في دورقٍ

هذا السَّعْفِ القتالِ .

ولو يشهدُ واحدكم ،

نصفُ الواحدِ ،

ربعُ الواحدِ وامرأةً ، كي نركضَ في ثورةِ قومي من عاصمةٍ

للبحرِ

لعاصمةٍ

للبحر
لعاصمة ..

ها أنذا أركضُ ،
ها : تنشقُ مياهي ،
يترنحُ طابورُ الجندِ وينفصلُ الذكرُ المختومُ بأثناهُ عن الثورة ،
أركضُ في ثورةٍ قومي .

١٩٧٢/٧/١٥

«هذا وجهي العصري»

أنا أت

فليرقب كل ملك شحاذ في أرض الردة من أين تحيى الطعنات .

عبر تخوم الغربية في أجفان صبايا الله وعبر الساقية

أختصر الزمن الخائف في عين النسوة ، أزجي الزمن القرشي إليها

لا الدمع ونزف الفقراء ينبخ الرجل ، طوافي

خلف قوافل زغب . . فليرقب

كل ملك شحاذ في أرض الردة من أين تحيى الطعنات .

«هذا وجهي العصري»

بلا نعل أرحل نحو بلاد الفرس وأمصار الروم وأرفع وجهي للظلمات

أسائلها

وأسائل رجلي الداميتين عن الأرض العمياء وهمس خفافيش

سمائي

ويكل مثولي بين يد الغربية أصرخ :

تسهل أفراس الحرب على أبواب الكعبة يا أهل الشام ووحيدي

أبسط للملتجئين إلى ظل الأحجار السوداء ردائي

أقطع حين ينوس الموت على وجه الحجاج ،

وبين الصدر المشرع للطعنة والرمح الظامي أنخثر ،

أزحم ملكوت الرهبة صدعاً يفصل عريات الزمن اللاهث قدامي

أتصاعدُ في أنفاس الكعبةِ جمرًا تنفسُهُ الصحراءُ فتحبو
 حاملةً هزجَ قبائلها نحو قوافي الحربِ ؛ أزرْتُ نَسَبَ الرَّاجِلِ بالفارسِ ،
 والهاربِ بالثابتِ في الحوْمَةِ حتى يرخي النخلُ النادِبُ جناحَ الدمعِ عليّ . .
 أبايعُ في حممة الأرماعِ لوائي
 أضربُ شرقاً ، غرباً ، ضربَ اليائسِ . . يسقطُ وجهي الأولُ
 أضربُ . . يسقطُ وجهي الثاني
 أترجعُ بالحُجَّاجِ إلى عَرَقاتٍ غباراً يتكسَّرُ تحتِ حوافرِ ريحِ الوهنِ
 القاصمُ
 ثم نموتُ لنحلّم
 ثم نقومُ لنحلّم
 ثم نفصّدُ أوردةً كي نلمحَ في الدّمِ مجيءَ الأشجارِ مع اليومِ التالي
 عاقدة فرحِ الأنهارِ على الهاماتِ عمائمُ .

يا ربُّ

ها أنذا أتراجعُ كي تسندني الظلماتُ ويسندني الجحرفُ الأزليُّ، وها
أنذا أرمي حُفري في أطراف السنوات لكل سماء مرهقة .

ها أنذا أسدلُّ أطرافي فوقَ نهارٍ يخذله الوقتُ ويرميه المحظوظون إلى
كل نقيض محتفل بي أو بفلولي المذعورة ؛

ها أنذا أجمعُ أحشائي

لأريك سلامَ الأحشاءِ ممالكَ تعدو

وذكوراً يندلقون من الفجوات وينقضون ؛ أريك رتوقي

ومواكبَ حولَ رتوقي مستنفرة كهوام ؛

وأنا أدعوك لتزقلَ في أبادي المشبوكة بالقنْبِ والأقنعة الخزفية

ولتبتلَّ بجاهي بينَ سننوة أنثى وسننوة أنثى ، ومخارجِ أقدارٍ

محدودة يا رب ،

ويا ربُّ هنا أنقادَمُ والأنسامُ

عجلى تتأبطُ أرغفة الناموس ؛

هنا الغوطة توشكُ أن تهزَمَ في كاتدراثيتها ، والأكامُ

نازقة لا يسندها غيرُ خشوع الأشباح من المحنة .

أدعوك :

تقادمْتُ ، وشيخَ في مخدعي المجهولُ وحومتِ الأيامُ

حولَ غُضارٍ حنيني للأيامِ ومن يحرقني في ذروة بعثي .

لستُ بديداً
 لكن الصلصالَ القدوسَ طريدُ في سكرتهِ
 والأنهارَ مهلهلةٌ في سكرتها
 وغيابات القلبِ توزَّعَ لؤلؤها في تاريخ المدعوينَ إلى الهذيان ،
 و«أرواد» توسوسُ مشرقها وتغيرُ بالهةِ وبراعم شتى نحو الثلثِ الأوَّلِ
 من ظلماتِ ثلوجي .
 لستُ بديداً ،

ها أنذا أدخلُ خلجتي وأفاجئها بمقارع أورادي وضجيجي
 وأعيدُ الربَّ إلى سهر موصولٍ بمفاجأةِ الرّخويّاتِ تدبُّ إلى الليلِ
 وتُحييه بروقاً وذباحَ زاحفةٍ فوق كسائي السوريّ ، وتُحييه عوانسُ يغسلن
 فروجَ الساعاتِ من الطمثِ ، ويخزفنُ مساحبهنَّ الديباجَ على جبلٍ كهلٍ :
 «يا أعشابُ ويا أزمنةُ

كسرنَ رجوعَ النهرِ إلى مسجدهِ ،
 واقدفنَ إماراتِ الرأسِ إلى حَيضِ تتبعهُ الأشهرُ شامخةً بأكاليلِ
 الشهوةِ والوحدةِ . يا موتُ ، أيا حلزُونِ تراثنا وقواقعِ عاتتنا وأصولِ
 الفخزينِ ، استكن الآنَ ، فثمةَ عزٍّ يستغرقنا وتهبُّ الأشجانُ المؤمنةُ
 كطيورِ النبعِ ، يُقَطِّفنَ مشدّاتِ جواربهنَ وحملاتِ الروحِ . .
 أعيدُ الربَّ إلى أوقيانوسٍ من لقطاءِ الأحقابِ يُصَلُّونَ أمامَ الأفقِ
 المترجِّلِ عن دابّتهِ ، ويقومونَ إليه ليصطحبوهُ إلى ثقبٍ في فاجعةِ الأجرامِ
 الجوّالةِ والكهّانِ الجوّالينِ . أعيدُ ملائكةَ الموجةِ في أعطافي للأحجارِ
 وأجهشُ : «مَوْجِي

هي ذي «أرواد» ترافقُ أعمدةَ الأحشاءِ وأقوامِ ثلوجي
 فاردةً في الجنينِ مواسمها والأعشاشِ لكركيّ الدَّمِ» . .
 أعيدُ الربَّ إلى أسواقٍ في المفصلِ تستحكمها الضوضاءُ وثرثرةُ النسوةِ

حُبْلَى يَتَفَكَّهُنَ بِأَقْمَشَةِ الْإِيمَانِ وَيَكْتَبَنَ صِفَاتِ أَجْنَتِهِنَّ وَشُرْحاً يَحْشَدْنَ لَهُ
فِي الرَّحِمِ بَسَاتِينَ مَعْقَرَةً بِمَنَاخِ الْجَسَدِ الرَّهَاجِ ، وَيَقْرَعْنَ زَجَاجَ الْمَقْصَلِ :

«يَا أَعْشَابُ وَيَا أَزْمَنَةُ
عَرَّجْنَ عَلَيْنَا نَشْمَلُكُنَّ بِعَصْفِ شُعَابِ أَهْلَةٍ ،
بِالْأَجْنَاسِ ، بِخَرْنُوبِ الْأَلْفَةِ ، بِالنِّيْكَالِ ، بِالنَّمْلِ ، بِذَبْذَبَةِ الْأَعْيَادِ ؛ فَهِيَ
خَيْلَاءُ مَفَارِقَتِنَا ،

هَا دَالِيَةُ الذِّكْرِ الْمَجْهُولَةُ بَيْنَ دَوَالِي الْأَصْلَاعِ ، وَهِيَ نَحْنُ بِلَا مَوْتٍ نَتَنَاقَرُ
فِي الْمَوْتِ حَرِيصَاتٍ أَنْ تَنْفَتِّحَ كَالْأَعْرَافِ عَلَى الْعَبَثِ الْمَجْنُونِ . تَقْدَمْنَ
لِنَفْسِخٍ لَا نَامِلُكُنَّ مَكَاناً بَيْنَ ضَفَائِرِنَا وَالْأَغْشِيَةِ الْمَحْلُولَةِ فِي الرَّحِمِ ،
لِنَجْلُوكُنَّ عَنِ الْبَازِلَتِ الْمُنْتَزِعَةِ فِي الشَّرِيَانِ إِلَى شَرِيَانٍ بِغَالٍ تَهْدِي خَلْفَ
بَحِيرَاتٍ عَجِيزَتِنَا .

يَا أَعْشَابُ وَيَا أَزْمَنَةُ
نَحْنُ أَعْرَنَّاكُنَّ زَيْبَ النِّيْرُوزِ وَهُودَجَ مَائِمَتِنَا وَرَحْلَنَا مُنْتَحِبَاتٍ تَنْتَفُسُنَا
الْأَسْرَارَ الْأَقْلَةَ

وَرَأَيْنَا أَنْ نَحْبَلَ قَبْلَ الْجُوعِ فَأَسْنَدْنَا لِلْيَاسِ سَلَامَنَا وَشَطْبَنَا
آخِرَ جَمْعِمَةٍ لِلْأَرْضِ وَلِلدَّهْشَةِ .

أَيْنَ قَرَأْتُ صَلَاةً؟

أَيْنَ خَلَوْتُ بِنَارٍ؟

هِيَ ذِي «أَرْوَادٍ» ، أَعِيدُ الرَّبُّ إِلَيْهَا وَأَنَا خَجَلَانُ مِنَ التَّعَبِ الْخَوْذِيِّ
وَمِنْ إِطْرَاقِ مَسُوخِي الْمُرْتَمِطِينَ بِدَهْلِيزِ الْبَشَرِيَّةِ ؛ لَا يَسْتَعْجِلُنِي شَيْءٌ ، وَأَنَا
أَسْتَعْجِلُ سَرُوزِي وَمَحَارِثِي ، لِنَسِيرَ إِلَى مُبْتَدَأِ الْفَطْرَةِ نَشْفَلُهُ بِعَذَابِ
سُلَاطِينٍ يَلْتَجِثُونَ إِلَى نَرَجَسَةِ الطُّوفَانِ ؛ وَأَضْطَهْدُ الْأَرْوَاحَ وَمَا تَخْفِيهِ بَطُونُ
الْبَرْمَاتِيَّاتِ الْمَدْحُورَةِ فِي إِقْلِيمِي ؛ فِي إِقْلِيمٍ يَسْتَعْجِلُنِي ، وَأَقَالِيمٍ تَرَاغَعُ عَنِ

آيتها قدام مالك السبيل ..

ربي

أي دليل يقتاد خليفة ياسي وجنادبه؟

أي غبار يطلقني من أسر طفولته ليكون لأهدابي هذا الصف المترادف
من جثث الغرباء وآلات الصحوه والأقلام؟ اندثرت أطرافني وأنا أسدلها
فوق مشيمه نار يخذلها الوقت، ولا وقت لأوصد نعشي وأؤم نساء رمادي
مرحجفاً ووسيماً أفتن جمعاً منهن وأهبط بالجمع الآخر كل جميل في
الإنسان لنثره وتحكم إغلاق مواجعه .

موتاً موتاً أصطف وتصطف الأكوأ

والقنوات وأترعة القبر ثم بيعضي كصديقات وعثر الثيران
يقرون ذهب ونحاس، وقوائم من فخار الملكوت فازجرها
وأطير حيوانات ليس تطير، وأركض في قططي وكلابي بسحالي الغيم،
بعوض الرئة، الجعلان، الخنفسه، الإسنيتات، الفطر، القزاد، وأحياء متدنية
أخرى حول خيوط تمتد إلى حيث يغيب الحلم وينعدم الجيران .

أي دليل يقتاد خليفة ياسي وجنادبه؟

لا صوت ولا موت

لا أسماء ولا شجر

بعض خريز ومساكب واطئة ووجوه في خطواتي لا يجمعهن قرآن .

ها أنذا يا رب

أسحل دوراً ومنازل أو أتلفها بأسيد

وأفوت على الليل ومنحدر الصبح فلا يقفان علي، ولا تقف الذئمة
كالشحاذة؛ أطلب شيئاً آخر يا رب وأضرم إنسان المعقول كفيفاً كالبحر
على قارعة الغيب، أدوي؛

يا الصَّاعِقَةُ الرَّبَّانُ

يا أودية الملِّك احتبسي بين بكورية غيمي والأضواء
واختلقي الأعراس وما يشبه نذابات الأعماق لَقُورَةِ الماء
فانا طاع وحنونٌ في تأويل الوحشة بالوحشة ، والإنسان بجِبْ .
وأنا الأبدئي محوط بيتيمات ظلامي يتوسَّلُنَ إلى الجُدُّجِدِ أن تجتاح
ببعض أمومتها هَدَاتُهُنَّ ، فأقرعُ أوتني

أقرعُ أَوْنَةَ الشهداءِ

أقرعُ أَوْنَةَ القامشلي

أقرعُ أَوْنَةَ الأعضاء المحتلة في سوريا

وأضُمُ بيتيمات ظلامي مرتعشاً من فرطِ ضالكتهن من البؤس وأخطو
نحو خرابي :

«يا الصَّاعِقَةُ الرَّبَّانُ

هَلَّا أرخيت لنا صُرَّةَ موت

أو بعضَ أمومتكِ الآن؟» وأخطو نحو إناثٍ يسرخن مع الأمطار ويلوون
المُشْكِلِ :

«يا أخوات انثرن أمومتكن علينا الآن . . .»

ككهل أمضي وبيتيمات ظلامي والأبدانُ

من كلِّ صنوف عاقلة تحملُ منجلها في رثتي وتغني لحريق يرشدهُ
النورسُ ؛ موتاً موتاً أتلاحقُ إذ يفلتُ مني الموتُ ، وأحجبُ «أرواد» عن
الأطراف لتبقى مُسَدَّكةً فوق السَّاحِلِ والأبراج تحنُّ إلى
وقت يُغلِّقُها كالثلجِ ،

إلى الله ،

إلى كلِّ سماءٍ مرهقةٍ .

هكذا أبعثرُ موسيسانا

أقتلوا روناشتا

نامي أيتها الوردة نامي
نامي أيتها المهدورة مثلي في وقفنها نامي
مائة ميل ، مثنان هو القلب ، وطين بعد المنتين يدوره
الخزافون جراراً ويدورون بها حول نُجِيلَاتِ الروح ،
وروحى باطلة ، نامي ..

مشهد / مهرجان

ها هوذا ينهار
ها تنهار الأرياف على قامته
ها تخرجه الأرياف إلى الجبل
وتحاكمه الأشجار
ويحط به دوري ،
ويطير به دوري فوق «بهارنك» على مهل .

مشهد / كورس

ماذا يخبرك النسلُ القادم عنك ،
وماذا يخبرك الربُّ؟ تفضلُ

كإناث يجرحن طول العهن ، تفضل
لنمس خيوط يديك ونخيتك بلاداً أو جرساً .

- ستار -

روناشتا
مولئك هذي الوردة ساهرة ليس تمام ،
ومولاك النهار يزيج ستائر عورته لشعاع من تاريخ الأكراد ويطويك ،
فتنهض ،

ثم يعود ويطويك فتنهض ،
ثم يعود ويطويك فتستسلم للنهر صبيّاً
تنسجه الساعات بألياف القطن ؛ أراك فأعدو مستوياً
ثم ألين ، ويحدوب صوتي محتضناً كل فراغ ،
محتضناً ما يعترض الخطوة من حجر أو حيوان ،
محتضناً وحشته ملء ذراعيه ويطويك فتنهض ،
ثم يعود ويطويك فتنهض ،
ثم يعود ويطويك فتنهض محمواً أحرس كالأرض وتهوي بالأيام
على الأيام ، وبالسنوات على الروح ، وتملا بالرايوم نمار ثوانيك ،
تدحرجها ،

تدحرج بين وريدي وهتافات امرأة ؛

روناشتا

روناشتا

روناشتا

حددت لك الجهة الأولى في الإنسان ببوصلة وتركت الإنسان يتيه ،

فقاتلته ، وخذ أنثاء ليأتيك ذليلاً ،

خذته وخذ أنثاء ليأتيك الوقت ذليلاً ،

خذته وخذ أنثاء ، خذ الوقت ليأتيك الطير ذليلاً ،

خذته وخذ أنثاء ، خذ الوقت وأجسام الطير ليأتيك الله ،

خذ الله وقل أعراسي ابتدأت

وتقدم طاغية ، أعماقك بين يديك تجوفها للظربان وتخلد الماء ،

وللأرمن يقتلعون الخابور وفوداً إثر وفود ، ويغوصون إليك بأحصنة ونساء

تعرضهن على الريح مدى تسعة أعشار الليل ، وفي العشر الباقي تخذلهن

وتقطع سلك القلب ؛ تقدم طاغية نحو شمال القلب وحاصره بعدئك

الليلة ، أو حين تشاء ، فأبعادي مترفة ، وشيوخني يلتحقون بصاعقة المجهول

وينتظرون عبوري بعداراي حكيماً يلجئ آلهة الثلج إلى عربات الأعياد ،

ويذبح يخموراً فوق صدوع الأبدية كي تلتحم الأبدية كالقبر ، وينتظرون

فراري إسكافياً بجلود الجمهوريات إلى امرأة تغلسني وتسوق كرياتني

الحمراء وعولاً وجباحب بين مواسمها ، وتقول : أهدأ ...

هل أهدأ روناشتا؟

حجر تحت لساني ،

وعصافير خائفة في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

حددت لك الانقراض على زاويتي فتقدم لتوحدنا الانقراض ، لنفصل

كل حياة تتناسل عن زمرتها ، ونصيح أمام عراء ذكورتنا : انطلق يا

حيوات انطلقني بين فجاج الخوف ، انتظرنا يا حيوات انتظري

نحن نحاذي الأرض ونضربها بفراشات ميتة ،

ونهيئ للعصفور فضاء مجبولاً بزال البيض ورائحة المطر

ونرج البرعم مدفوعين بشوق الماء ،

ونقويه ،

ونجيو ،

ونحار

من عصيان وسائدنا ، ونحار

حين تصيرُ وسائدنا جرساً يقرعه المحتكمون إلى الصحراء ولاهوت الحجر ،
ونحاصرُ سنبلةً تحلم في قفطانٍ العاصي بنهارٍ تقضيه على سهل قرى
«سيحا» ،

ونحاصرُ خطَّ رجاء الصالح ممتلئين جباةً ينصرفون إلى جمع مكؤس
البحر ، وينعزلون بزنجياتٍ يخضضن الزبد المذعور ويستلقين على أرضه
الموج ثقيلات كعرائسه بنشجن : احترقي
يا حيواتُ احترقي .

ونصبحُ أمام عراء ذكورتنا ؛ احترقي يا حيواتُ احترقي
لا منجى للبحر ولا منجى للإنسان يحرضه الرب بدرع وحزام في
أسفله ويقول : انهض ،

أسرجتُ لك الأحناش ورقاص الساعة .. انهض .

ونصبحُ أمام عراء ذكورتنا ؛ لا منجى للرب ، سنشهدُ إنسانَ الرب
غريباً بين سلاميات يدينا يفتح قُوته في برميل المستقبل ثم يبول عليها ،
أو يدخل إصبعة في القُوته منتظراً أن تربطه المخلوقات بكتان الجنس ..
وماذا بعد؟ سيبقى بين سلاميات يدينا نوقظه في الليل ونلقي في قعر
مثانته الأجرام وحدوة بغل وعناكب ذات جموح ؛
لا منجى يا حيواتُ ، احترقي .

نحن ردمنا شهوتنا ، والأشجارُ

ردمتُ شهوتها ، وهبطنا من سفح الصرخة للمنحدر

نترشق بالكلس وبالأعلام ؛ هبطنا
من تلّ الوحشة ملء محاجرنا الزيزان وبطّ الساحل قفزاً وقذفنا في
الملكوت بما نحمله فتبعثر ، ثم جمعنا الملكوتَ وبعثناه ، وأمّعنا في بعثرة
العالي منه بأطراف غداثنا ونفشنا في الأحجارِ هواجسَ ليس تقالُ وعدنا
أسراباً يحزمهنّ فراؤ .

نحن ردمنّا شهوتنا ، والأشجارُ
ردمت شهوتنا ، وأفاحت نرجسة لتصافحنا وهي تنفيءُ إلى السقرِ
وأفاق طريقٌ ،
ثم أطاح بأجمعنا الشجنُ السيّار .

مشهد / احتفال

ها هو ذا ، فلكي
يرصدُ أنثاهُ على صفحة عينيه ويشملها بدمقسٍ وثلوج .
ها هوذا يتدافع خلف مُذَنَّبِها في إهليلجه الدُمويّ ويحصرُها بين
مباهج «بَوَان» سنونوةٍ من أسماءِ التعبِ المبتعدِ .
ها حيرها ومشى في حيرتها كالرّحالِ ولم يعدِ .

- ستار -

روناشتا

روناشتا

حجرٌ تحت لساني ،

وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

حدّدتُ لك الخلعجانَ وصاريتي ، فتقدّم لنضمّ كرادلة الشرّ إلى
سلطنتنا ، لنضمّ عشائر هذا الأخدود وذاك ، ففي سُخْنَتِنَا ما يُنبئُ أنا
نغتصبُ الليلَ وأوكارَ الأرواح ، ونغتصبُ الوردَ وأشباهَ الورد ، ونغتصب
المعدنَ والمرجانَ ، ونغتصبُ القشرياتَ وأشباحَ الفيزياء . . تقدّم روناشتا
لن نترك نبعا لا يشتا قُ إلينا ،
لن نترك خشخاشاً لا يشتا قُ إلينا ،

سنعيرُ أنوثة كل دم قيراطينٍ من السُّفلسِ ممزوجاً بالكافور ، ونخفي
آلات حاسبة وصفائح من المنيومِ الدولة في جسدنا المظليّينِ بيوتاسِ
الحبِّ . . تقدّم روناشتا

ولتتفّقِ الليلةَ كيف نزيّنُ تابوتَ العالم بالأسرطةِ الورديةِ ، والشوراتِ
وأظلالِ الأغنام . .

لأنت غريبٌ روناشتا
ومواليك على النهر ينامون ، ومولاتك هذي الوردة ساهرة تحت غطائي
البحريّ لقاحاً مشتعلًا . . روناشتا

إني منتظرُ أنثاي لأطويك ، وأبدأ غزواً آخرَ فوقَ عرائي
إني منتظرُ أخواتي يتسلّقنَ سلام الإنسانِ ويكشفنَ غطائي
إنّ دمي يتسابقُ حول معسكره ،
ويغافلُ نارَ معسكره ويموتُ

وتصلي في هدأته الأحراشُ صفوفاً إثر صفوفٍ ويصلي
في هدأته الحطّافُ ، ويرحل قومٌ ، وتحمو بيوتُ .

جرسُ عيناي ، وإني منتظرٌ ، وفصائي
يرخي جثته فوق سريري . فكلانا
يبعثُ هجرته ويميتُ .

أنتَ غريبٌ روناشتا
روناشتا
حجرٌ تحتَ لساني ،
وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

ها أنذا أطرقُ بابَ العالمِ مهتاجاً أطلبُ أنشايَ ، وأنشايَ وراءَ جنوني
جائيةً تربطُ ما يتقطعُ من أهوالِ العالمِ بي وتهيجُ ؛ أهيجُ وأفتحُ أعضائي
لسلالاتِ الذِّكرِ القادمِ في الأعراسِ خلاسياً ، وأرئُ :
هنا يا ذَكَرَ الماءِ ،

هنا يا ذَكَرَ الموتِ ،

هنا يا ذَكَرَ الظلماتِ طريقكُ

حيثَ أشدُّ اللبلاَبِ إليَّ وأطلبُ أنشايَ ، وأنشايَ وراءَ جنوني جائيةً
تعدُّ الأفراسَ مَنبَسَطَ أَجْرَدَ في مملكتي للركضِ إلى أن يقتلها الركضُ . .
أهيبُ : اقتربي يا أنشئ الماءِ ،

اقتربي يا أنشئ الظلماتِ ،

ويا أنشايَ اقتربي

فأنا موعودٌ بعدَ أواني ببلادٍ تخضرينَ لها ،

وسهوبٍ تنهضُ للهربِ .

وأنا مكدودٌ في إيواني ،

مكدودٌ في إيواني ملأَ النهرِ وعسكرُهُ المندورُ لبأسي وحنيني .

ألقي جامَ حنيني فوقَ حصصِ بيسروتِ وأنظرُ في البلورِ المتناثرِ

كالأرحامِ :

«مدوِّرةٌ أحزانُ الطفلِ ،

مدوِّرةٌ أحزانُ سواقيه ،

مدورة بيروت وقلبي سَنَكُ
أقطع سَنَك القلب وأطلب أنثاي من التعب :
يا أنثاي انحسري عن صنيَن وعن جهةٍ يُشغلها الوراقون بقَدَّاس
الأوراق ،

أنا قَنَاصُ

أرُخيتُ عَنانَ العالم يضربُ بسنابكه الوراقين وعمالَ الحلم ، ويصهلُ
حتى تَرُجَّ مسالكُ بَوَلِ الأحياء فينحلُّون ، وأصطادُ سرائرهم طيراً طيراً ،
أصطادُ الجوابين دمي فوق حمير تنهقُ طولَ الوقتِ .
أنا قَنَاصُ

أرُخيتُ عَنانَ الأرضِ ، وباشرتُ القتلَ على كل مضيقٍ يصلُ
الأجسادُ بالفتها ،

ودفعتُ بأنثاي إلى الريشِ المتطايرِ في الكونِ :
(سلاماً يا ريشُ) ، وفي الريشِ توسَّدتُ يدي لأنامَ وأدفعَ أنثايَ بلينٍ
أكثرَ في الريشِ . الريشُ حنونٌ يصعدُ أحزاني ويكلمني عن أنثاي :
(سلاماً يا ريشُ) ، ويا أنثاي سلاماً ، وسلاماً يا ريشُ .

خرابُ في الريشِ ،
حصادُ في الريشِ ،
دُمى وحديدٌ في الريشِ ، وغامضةٌ أنثاي ،
تمد يديها في الريشِ فأمسك معصمها وأسبَحُ للريشِ ،
وأدعو : روناشتا
روناشتا

ريشٌ تحت لساني ،
وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

بعد قليل يكتبُ هذا الإقليمُ مراثيه ،
ويلصقُ ذاك جنازات هادئةً فوق غياري
بعد قليل المسُّ أنثاي ، وأبكي ، وأكومُ أيامي حول النارِ
وأحيطُ الغدرانَ بأنفاسي ،
ونحيطُ بأنفاسي الصاعقةُ
أكثرَ حذباً من أنقاضِ القلب ومن صدى الأسرار .
بعد قليل يلهثُ قدامَ سياجك عجلُ العاشق روناشتا
وستفسرُ بين قوائمه الليل ، وأهدأبك ، أو تستلقي كي تمنحك
الفاجعةُ
سبباً لنزوح الحدادين إلى القحفِ بكورٍ يتوهجُ فيه العالمُ كالكرز
البري ، وبعد قليل تمنحك الفاجعةُ
فلزَ التوتياءِ وسوسةَ الأحجار .

بعد قليل نعدو روناشتا
مُتَهَمَتَيْنِ بقتلِ عشائرنَا ، نعدو مثل شعاعٍ يخفقُ إذ تخفقُ أنثاهُ ،
ويجتو ،
يلتم ،
يلين ،
يحررُ أنثاهُ من السنواتِ ويشردُ في الأقطار .

هاوية

مستسلمة حيوانات الشاطئ للشاطئ
مستسلمة كفاك لكفي، ومستسلمة أنهاري
لنواعير الحقل وغرفات الأحجار .
مستسلمة أبعاد للصرخات ، وهذا نفسي
يستسلم حول حفافيك ويشحد مارجة ويفاجي
خيطة الحب المتدلي من كوكبك الأبدى ، نهضنا ،
نهضت حيوانات الشاطئ بين ضباب الجسد المهراق وأنسجة
الأشجار

وتزاحمت الأمواج على برزخنا فاستسلمنا ،
واستسلمت الأمواج
فغرزلناها وغزلنا جسدنا بالغيم إذ الغيم سهيل وزجاج
وتلوّنا بالماء وبالقُبْل المائية والأمطار .

هاوية

سبع ليالٍ وخواصرنا مستسلمة لهتاف جماهير تعبر ساحلنا وتنبئ
عليه هوداجها ، وتحوم كبازي ، أو تنقض كبازي خاطفة منا الأنداء ورعد

تراثنا يا يأسُ ، وسبعُ ليالٍ وخواصرنا بركٌ وبحيراتٌ مقللةٌ بأنينِ الآلهةِ .
الوقتُ هو الوقتُ : ليالٍ ذائبةٌ ، سبعُ ليالٍ ذائبةٌ ، ويدانا تستجمع كل
أصابعها الخضراء على رَسَنِ الأفقِ وتجذبُهُ حتى يتداعى الأفقُ فنجتازُ
خنادقهُ محمولينِ على ومضٍ دمٍ وغوتٍ .

بهدوءٍ أرفعُ قبري منتظراً من يأخذهُ .
بهدوءٍ أجمعُ قلبي وجماهيري وموالي وأهلي ،
وأعطي كل نباتٍ مجنونٍ ، كل حياةٍ تستشرفني في اليأسِ ، وأهمسُ :
عودي يا بيروتُ إلى النسيانِ فأعماقي جاهزةٌ ومهيأةٌ كسريرٍ للأرضِ ،
ومنتصبٌ وقتي وسط فراغِ الموتِ متيناً ، لا يتقطعُ ، عودي
واقمي في أبيتهِ تحت ظلامٍ يتهادى ، وفصولٍ تنفضُ أنفسها
من آثار الرُعدِ وتسقطُ في أخذودي .
بهدوءٍ أهتفُ : جلُّ جلالِي

إني مُتدبٌّ في الأنثى أستقرئها وأجوسُ قفاري فيها هلعاً من أشجارٍ
تصلُ الظلماتُ بناقوسِ الظلماتِ ، ومن أقوامٍ يختبئون وراء حصاةٍ أو
سحليةٍ تقرضُ أطرافَ الله . ويضطهدون الغيمةَ والزوينةَ الحبلى بجلالي .
جلُّ جلالِي في ميعادٍ خصصتُ به المدحورينِ إذا نهضوا فوجاً فوجاً
بمناجلهم يطوون روابي الخلمِ ويفترعونَ أقاصي فاستقبلهم بهدوءٍ . . بهدوءٍ
أرشي الأبعادَ وأوقظُ آلهتي المتكثفينَ على أخشابٍ سياجي ، فيخفونَ إلى
تورجهم بين مُجدٍ ينفعُ في الثيرانِ ، وبين كسولٍ ينثر بالمدرةِ القشَ على
شَبَكِ الأرواحِ ، وأهتفُ : يا أشجاراً لصق لساني أندحري ،
لا عالمَ إلأَيّ ، وأسمع نبضاً قرب فراشي ، وشفاهاً تقتنصُ السنوات
على شفتي ؛ «حبيبي»

مستنفرةٌ حولك أصدافي ونجومُ يدي ، ومستنفرةٌ فيك أنا .

وأنادي من نادتي : أفتتحي أول موج وسلية عن الأشجار ، سليه عن
الطرف المُرخي لستار الروح على حنجرتي ، وتعالى مستجمة لهب الكافور
وصوت غد طاع في أضواء شكيمته . . أنت ،
وخوفك أنت ،
ودمعك أنت ،
وثلج أعاليك ،
أما تأتين؟

جريت مع الأعضاء على مسرحها ، وغسلت الليل وريش طيوري في
عالمها المغلق بي ، وفردت ملاء صوتك لي فلمحت طوائف منقرضات
وشباكاً تتقطع في برزخي المستور ، لمحت هوامي المتخبط في مصباح
المبتهلات إلى ثديي ، وأكفاناً قذام منازلنا ، وأناساً منكبين على عتبات
الماء يحوكون غبار الحلم لموجتهم ، ويصيخون إلى الخنزف المركوم علي .
أنتقلي في أعصائي ، في مسرحها الأعظم ، واقتحميني من أبوابي الخشورة
بالأجناس وقولي : «أبتعدوا عن حكمته ومدائه ، أبتعدوا عن أزمنة لا
يلكها» . قولي : «شرك نحن وصيادون ، نقوس أسماء ومواعيد ليمحوها
حت الروح ، وتتبع حيوانات متعبة في الأحشاء ، نلاطفها ، ثم غد لها
الاعلاف ونرقبها مغتبطات تتوازي ثم تخر من الغبطة وهي تحت قوائمها
لنقوم وليس تقوم ، وليس تقوم نباتات مبيته ، فنناديها منتفخين من
الكوبالت ومنثور الزنك السائل في عضلات خواصرنا والساقين : أنهضن ،
أنهضن فقد أوجعنا الحب وأقلام الإنسان ؛ أنهضن لندخل مدرسة ونجبر
مقاعدها وكراريس التشريح إلى الوديان ، أنهضن . . نريد معلمة وطباشير
لنختار فجيعتنا» .

قولي :

«سيكونُ لنا موتٌ بينَ أغانيكُ وبيتُ

وسريّ لا يصحبنا غيرُ الغيمِ إليه ،

وفراشاتٌ وخشاشٌ .

وإذا احتضنتك ذراعيّ انطلقتُ

نحو ذراعيك طيورٌ ، وتدافعت الأعشاشُ .

سيكونُ لنا أن نحيا بينَ أغانيكُ ونحيا ،

أن نتهادى كشراعٍ ونسافرُ ، أن ينسانا الوقتُ . .

سيكونُ لنا بيتٌ» .

قولي : «هذا طفلي» ، لا

سأقولُ : أنا توأمُها ونهايةُ ما يأتي

وأنا ميثاقُ البريّة

وأنا سربٌ قَطَا ينقرُ فيه الذكْرُ الذكْرُ ، الأنثى الأنثى ،

ويدورُ فراسخٌ ملتصقاً ما يهديه إلى فجواتٍ في أغشيةِ الأفقِ لينفذَ

منها أبعدَ من مرمى الصبحِ وموكبه الشيخِ ، وأبعدَ من صرخاتِ تيوسٍ

تتخبطُ في سردابِ الملوكوتِ ؛ أنا توأمُها : توأمُ أطفالٍ كسروها حين هممنا

أن نلتحفَ الأعماقَ ونُظهِرَ ما ادّخرته جوارحنا من بكراتٍ خيوطٍ ونبيذٍ

وأساوُرَ ، حين هممنا أن ننشدَ ما أنشدتِ السوسنةُ : (النَّهْرُ النَّهْرُ

خبأ عينيه وناما .

ماحدثنا ،

ما قصُّ لنا عن طفلكِ ،

ما وشوشنا . .

خبأ عينيه وناما .

ناديناهُ ، توسَّلنا ،

أعطيناهُ حذاءً وقلنسوةً ،

ما حدثنا ،

ما قصَّ لنا عن طفليته ،

ما وشوشنا ..

ناديناهُ وأعطيناهُ كلاما

فأفاقَ النهارُ وحدثنا ،

قصَّ لنا عن طفليته ،

وشوشنا حتى نمنا

ثم تغطَّى ،

أغمضَ عينيه وناما) .

ما كان نشيداً ،

كان عويلٌ يترقرق مثل الماءِ وينسابُ ، وأنسابُ إليكِ مغطىٌ بصفيحِ
صدىءٍ وغُضارٍ أنفخَ فيه فيهذي ويبوخُ ، وأهذي وأبوخُ ، وأنسى مجرايَ
فأخذُ مجراكِ مغيراً بالأرضِ وبالسُدُمِ المهجورةِ وغلالاتِ الكربونِ على
زبدي وعواصمه ، ومغيراً بغواشيكَ عليّ :

إلهي

كان نشيدٌ يترقرقُ مثل الماءِ ، ولكن إنائكَ فرَّقَنَ جداوله وتعرَّينَ ؛

إلهي انظرْ

ناموسي فوق فراشِ البحرِ تطرُّزُهُ الحورياتُ بأصدافِ خيانتِهِنَّ وتخرقهُ
سفنُ الصَّيْدِ بحيزومٍ أحمرٍ . كان عويلٌ في البدءِ ، وكنتُ أضمُّ إنائكُ
محتفلاً بنضارتِهِنَّ وبالمعدنِ يجري .

وإنائكُ كنْ يهكِّنُ المعدنَ والطقسَ ، ويستنبِثنَ الشيخوخةَ في الأمواجِ
وفي أجنحةِ الطيرِ ؛ قُتِلْتُ ،

أكان لزاماً أن أقتل؟

أين دمي؟

دمي الآن غزالٌ

يربضُ في نواصٍ الساعةِ ، تحت عقاربها ، ساهٍ
عن قطعانٍ ربضت قبل الوقت وماتت ،
بعد الوقت وماتت .

دمي الآن يشلُّ عقاربهُ ويميلُ

حيثُ تميلُ بقايا المرأة بعد الحب ،
ويجتازُ دوائره ويطولُ

ثملاً بالتوتياء ، وبالحبر ، وقاضٍ يقضي بين هزائمه .

هوذا بين هزائمه يتلألُ كالياقوت ، ويعينا فيميلُ

وأنا أقبضُ بالكفتين على ماسورة جرحي وأميلُ

صوب سديمٍ استغفرهُ ، ونهارٍ يقرعُ شهوتي العذراء بقرنيه :

إلهي

خذْ لإناثك قداسي واجعلهنَّ شريكات الخردلِ والطمي ، واسرجهنَّ
لاهلك مجدَ الذكر العاصفِ في غايته . اجمعني في الخوف واسرجهنَّ
لأقرأ ما أنت محوت . اجمعني في اللبّانِ ولبلابِ الرّجَمِ . اجمعني ..
أين دمي؟

دمي الآن طيورٌ ،

وثعالبٌ تمضي ، وتحومُ ،

وأنا اتحلّقُ حول دمي

وأسدُّ على الأطيَّار مواردها حتى تنهاوى خلفَ دمي فأقومُ
قُوْمَةً من يَسْتَهْدَفُ مَقْتَلُهُ ،

واجزُّ رمادي بين عساليح الأعراسِ وأكوأخ بغايا أشورَ إلى صوتِ
يخزقُ ميقاتِ العشبِ ، وأستفحلُ مثل شرارِ : عودوا
هربتُ سائمةَ الإشراقِ وودَّعني الموتُ القَيُّومُ .
وأنا أنقلبُ فوق مواجعكم وألمَ حصي أَجَلِي
وأردُّ برفشي الخلوقاتِ إلى حُفْرِ القلبِ وأسمعكم تحت الرُّقشِ : تُرى
من يُقلقنا يا رب سليم بركات؟

نحن هنا معتكفون على منبعنا براءء تنقاسمه في ساعات الموتِ ،
ومعتكفون على مَرَكِزِ ظَلَمَتنا ، نتحاشاهُ ، ونسقط في محرِّقهِ لنُدورَ مع
الشهوةِ ، إنْ مَسَّتْنا الأبديةُ متنا ، وجريتنا نحو الإنسانِ المُسدِّلِ مثل قماشٍ
فوق نوافذِ رغبتهِ وفَلَّلتاهُ ، وبدلَّناهُ خيوطاً ، وبرزناهُ بسحر الحيوانِ وقُضَّةَ ما
يبعثُ فينا الخوفَ ؛ ومختصرون على المنبعِ ، حين يوسِّعنا الكونُ نضيِّقهُ
ونضيِّقُ ، ونزحمُ كلَّ ترابٍ أو نلجمهُ ، ونعودُ فنلويه ونلوي أفراسِ انوثتهِ
صوابَ اليأسِ : «اجمعنا يا يأسُ وفَرِّقنا فيك» . قواطعُنا مطبقةٌ فوق ظهورِ
فرائسنا ، وفرائسنا لا تهربُ إذ نَفَجَّوْها : «يا يأسُ نريدُ فرائسَ أكثرَ عَذْواً يا
يأسُ ، وأكثرَ خوفاً حين نلامسُ مقتلهنَّ بقرنِ فحولتنا» . لا بأس ، هنا
معتكفون على منبعنا بهدوءِ الفيروسِ ، نجانسُ ما بين علوِّ العالمِ والمنخَفَضِ
الكلِّيِّ لبهجتنا ؛ لا بأس ، نسمي أنفسنا السَّيْلَ لكي لا يعرفنا السَّيْلُ إلى
أبد الأباد ؛

هدوءاً ..

نحن المعتكفين هذان كي نتهيَّا للبحرانِ ، وللربَّاتِ يقوِّسنَ أواسطهنَّ
ويضرعن إلى الجيرانِ يومَ وقضبانِ النومِ ، ونعلمُ أن الربَّاتِ سيستدركنَ
ضراعتهنَّ فينهضنَ ، ويقبضنَ بأيديهنَّ على عجلاتِ مراكزننا ، ويُخلعنَ

الأخشاب، وقوم مطارحنا الفولاذي المثبت حول الأخشاب، ونعلم أننا
للحال نلتجهمهم كما نلتجهم كل تراب، ونعود فنلويهم إلينا، أو نطلقهم
فيصدّمن زجاج طلائعنا حتى يسقطن ونسقط فيهن شظايا؛ المعتكفون على
المنبع نحن: هدوءاً يا ياس، هدوءاً يا أرض، فأيدينا مبسوطات فوق بخار
البُحُران، ومنبسطون على رُقع الغييب نحن، ومنشورون على حافات
الحرب، نرى ما يشبهنا ونرانا حول غريب يضبط كوكبه وعناكبه ويجزىء ناز
الحب؛ نرانا متكئين على دهشته وسنابله، مندلقين عليه وعالية أذرعنا،
مستعجلة، عالية، تهوي فوق كواكبه،

فوق الجغرافية والحلم ..

فضاء نحن، فضاء حول غريب

يتسلقنا درجاً درجاً، ويكسّر في خطوته الأدرج، ويدخلنا مجتازاً
أبهة الروح إلى قداس الآلة والأحشاء ليسندها بدعائمه، أو ليقيم حواجزه
بين النيلوفر والعظم - أفقنا؛

«يا ياس لنا أئداء ساهرة،

وجروح لا يدخلها الدّاخل إلا محتفلاً»

مشقوقين أفقنا

وضربناه بحاجزه وحزنا ما بين النيلوفر والعظم بنحيط وهتفنا :

لا غيب لنا ..

إن نساء يجلسن على صخرتنا كالغيب، ولا غيب لنا

إن نساء يركبن رواحلنا ويبذذن متاع قرى باركنها وخفقتنا تحت
منازلها بقلوب أنقل من شجر أو معتقل، وبكينا :

إن نساء يرحلن .. لماذا؟

نحن المعتكفين على المنبع نحضرهم وننشد في المنحدر الصّعب وفي
الفطر المتكوم تحت توازننا يا ياس، ونمسح أرجلهم بعشب وزنايق طافية في

جدول فسوتنا : انظرن . . انظرن ، حفافيكُنْ اشتعلتْ ، وجداولنا انسلتْ
 عنكُنْ كُثوب فغمزتنُ الماءَ وأقلقتُنْ حشائشه . انظرن ، أصابعكُنْ رشيقاتُ
 وهي تجسُّ مقابضَ موجتنا . انزعنْ الموجةَ ثم انزعنْ خواصرنا عن ياقوتِ
 ونواعير تدورُ على ساقية الحَوْضِ ، وأطفئنْ صواعقكُنْ ، فها نحن نفوصُ مع
 الطرفِ المسنونِ لهذي الأعراسِ إليكُنْ ونصعدُ حُرْدُبَةَ الليلِ ثقلاً مسنونينَ
 نشدُ بمغنطيسِ الوحشةِ قُطْبَ الله وقطب عناصرنا ؛ انزعنْ عناصرنا ،
 وتبعثرنْ على الجوري ، على الكينا والدردار لنجمعكُنْ مع النفسِ المتدفقي
 حين نفجرُ هالتنا بين الأرضِ وبين مخاوفها المعقودة عند نهايات الأغصان . .
 تبعثرن ، تبعثرن ، لنا عند تلاقي رعشتكُنْ مع الرملِ سلامٌ كالذرعِ وعائلةُ
 تترئضُ في مائهما ، ولنا في المائم كوبالتُ وزبرجدُ تاريخِ طاغِ يا ياسُ ؛
 عَشْنَا غاشية :

مختصرون على المنيع نحن ، ومأخوذون بمنبعنا
 مأخوذون بمركز منبعنا
 مأخوذون بنصف القطر ، ومأخوذون بقطر الدائرة
 مأخوذون بكل جماد
 مأخوذون بأنفسنا يا ياسُ ؛
 قَلَقْنَا :

إن بلاداً ترسمنا الآن ونرسمها .
 إن بلاداً تطلقنا من قفصِ الصحراء وتطلقها .
 إن بلاداً تتلمس مضجعنا لتنام ؛
 قَلَقْنَا :

محفوفون بأعضاء وصيادلة وجواسيس من الورد ، وملفوفون بأثواب
 النهار ، نوجه كوكبنا وكلابِ الريح جنوباً ونقوم فنتبعها متخططين البحر

العربي، وأوقيانوساً خلف البحر العربي، نصيح: «ابتعدي يا أعشاش
الماء، أمزنا ألا نرتاح،
ويا ماء أتبعنا . .» .

للأنثى هذي الصارية
للأنثى هذا الخوف
للأنثى كل حصاد،
ولها منبعنا . .

معتكفون على المنبع نحن . .
ومعتكف من ثالث موت لي فوق منابعكم : عودوا .
هربت سائمة اليقظة، وأستوحشني العصفور وغصنُ صلاتي الحجري
وتبدل فوق حجابي الحاجز حال النخل، وبذلتِ الأسماكُ حراشفها
حتى انشق حجابي .

وأنا بغدُ صدىٍ وحنينٍ يرضح من فخارٍ مجاهله،
وأنا دانٍ وقصيُّ

أحمي بيدي وجوهاً جفلت تحت قناعي
وأطمئنتها كالأم، وأحنو يا بأسُ عليك :

«أكان العدمُ المقضيُّ

سوطَ الخوذيين يُقلّون الأرضَ إلينا،

أم خطواتِ نساءِ بين جراحِ العنابِ؟» .

هربت سائمة اليقظة ثم انشق حجابي

فتلمستُ بقايا المرأة حول جداولها وقصفتُ . .

لماذا؟ . . /

تتوارى خلف ذؤابات العشب رويداً فرويداً
وتبينُ إذا التحمَّ العشبُ مع العشبِ وتعلو ،
تتداخل هازئةً بالضوء ،
وبين الضوء تقسمُ هيكلها وتغيبُ .

لقطة بعيدة لجبل

عار ،
تتقدمُ الأحراش المرفضُ من رائحة الحبِّ وقد خلعت كلَّ لباسٍ
وانتشرت قدامَ سنايكهِ ،
وهو يسلُّها بيدٍ ،
ويطوقها بيدٍ ،
ويرص حجارته كالخراس على مدخل مخدعه ويفيبُ . /

خَفَّتْ بيروتُ إليّ مزينةً بشريّات الأحجار وطلّعت إناث يتوسطن زلال
الخوف ، ويفرغن محاجرهنّ فتمتلئ الفسحة بين البحر و«بكفياً» بأساقفة
ووعول تحورن وهي تشم رمادي . خَفَّتْ بيروتُ إليّ مولولة : «كلُّ حصاة تلثمُ
أطرافك أو ترجوك لتبقي ، وتقيم مع الأشجار عمادة أنثى تتساقط من
غربال مراثيك ؛ هلمّ بنا لمراثيك . . » : إلهي إن إناثك يولدن ولا يولدن ،
ونصفي مبتهل في زنار الألوسن والعليق ، أرحني لأريح جبيني فوق
الصاعقة . العذبُ أنا ، وسُماني الأنثى تتحدّر من مخبئها صوب سفوح
عاماً عاماً فأضيّع ، وأعلمُ أني عذبٌ في لالاء ضياعي ، وخجولٌ كالأبراج ،

وَتَمَّةٌ أَنْشَى تَقْتُلُحُ الْأَرْضَ وَتَعْدُو فِي مَحَوْرِي الرُّطْبِ وَتَنْدُهْنِي :

هَآكْ جَنَاحِي

مُذْ خَلَقْتُكَ الْإِنْفَاسُ وَرَاحَتِي ، اضْطَرَبْتُ

وَحْدَةُ هَذَا الرَّبِّ ، وَقَسَمْتُ عَلَى التَّرَفِ الْمِجْتَاحِ

مَطْرِي وَخِلَاطِي وَرِيَاحِي

وَتَوَكَّلْتُ عَلَى كُلِّ شَعَاعٍ وَغُبَارٍ ،

وَتَوَكَّلْتُ عَلَى نَفْسِي حِينَ قَصَدْتُكَ بِي وَوَصَلْتُ . . .

إِلَهِي

ثَمَّةٌ لَيْلٍ ،

وَأَنَا تُكْ لَا يُولَدَنَّ . . . لِمَاذَا ؟ .

سيناريو للشجر

نهار ، لقطه قريبة لأرض مغطاة بالأوراق ، تتقدم الكاميرا ببطء ثم تتوقف عند جذع شجرة . يرافق اللقطات وقع حوافر هادىء . حركة تراجعية مع اشتداد صوت الحافر . لقطه كبيرة لجذوع عدة أشجار . الكاميرا تتحرك عمودياً ببطء مع قامة الأشجار ، ثم ترتفع بسرعة حاصرة رؤوس الأشجار مع مساحة من السماء في لقطه قريبة متوسطة بصاحبها صهيل قوي .

يا شجراً لسنا خاتمهُ

يا شجراً ليس مرآثي أو قَبَلًا ، نحن عصفتنا فكسرتناك ، وهذهذنا

هاجسنا فوق كسورك . يا شجراً كَانَ . ويا شجراً ليس حريقاً أو جسداً ،

ماذا بعدَ عراء دم تكسوه بريحان دعابتنا ، وتعريه فتكشفتنا مضطجعين

على شفرة موتك؟ . . خذنا يا شجراً ليس لنا .

سيناريو للثلوج

نهار . لقطة بعيدة لأفق ثلجي يرافقها صوت حيوان . انقضاض في لقطة تحصر الثلج مع اشتداد صوت الحيوان . حركة صوب اليسار تستقر على أثر في الثلج مع صوت خفيض . انهيار خارج الكادر تهتز معه الكاميرا دون أن تنتقل من اللقطة السابقة . صوت مرتفع لمجموعة حيوانات . صمت مع لقطة لهطول الثلج من الأسفل تستمر حتى تغطي الكادر . صوت خبطة ثم عويل حيوان .

واظنة كُرة المُلْك ، سقوفُ المُلْك . نزحنا عن مجد سنا بلنا مأسورين
بضوضاء جموع يستعرضها القرميدُ ويخذلها الموتُ إذا انسربتُ بين
سُرادقه ؛ ونزحنا عن غيمتنا مخصوفين بأكام الثلج ، نديرُ كُرَاتِ المُلْكِ
البلورية في قُرَحِ القتل :
تهياً يا مدحناجرنا
سنصاهر مدَّ الثلج ، ومدَّ أنوثته هذا الثلج ، ومدَّ دم ليس لنا .

ما كان نشيداً ،
كان غباراً ،
كان دم ،
كنت مع الربِّ تحومين على قنديلي
فتوسلتُ إليك ،
إلى نار توبيخ ،
وعُصين ،
وشعاعٍ محلولٍ

وتوسّلتُ إلى غيمٍ يتخبّطُ حولِ مساكِبِ ثديكِ ؛ وغيمٍ يتوازى في
موجهما ويكابذُ خوفَ الحَلَمَةِ ؛ غيمٍ يُرْجَفُ ثديكِ ؛ وغيمٍ يدفعُ لولبَهُ
الربانيّ إلى عِرْقهما ؛ غيمٍ يتراجعُ كالسيّافِ ليضربَ فوضى الثّدي ، وغيمٍ
يتجمهرُ تحتِ الثّدي ويشعلُ فوضاءً ؛ وغيمٍ يتبدّدُ عن ثديكِ ..

(أثدياك نحاس؟)

أنحاسٌ قنديلِي؟)

وحدي تنهبطُ فوقِ دمي الهالاتُ فأُسندُها ، وأشمُ الأفقَ : «تعالوا

مُدُّ كالحبِّ ، يدي فوقِ المدِّ ، تعالوا

وخذوا مقعدكم في النهرِ ، وفي فيءِ السنبلةِ ابتدعوا الغيمِ وأصغُوا

لغزالٍ يتلفّتُ بينِ أفاريزِ الوقتِ ويهدأ ، ثم يحكُّ قوائمهُ ويخرُ من الغبطةِ

مَيّتاً ..» وحدي ، لا فرق ، كلانا

يقفُ الآنَ ويضحكُ : يا داليةُ ،

يا كرزاً وزيبياً ، يا حبّ

ماذا أبقيتُ لنا؟

ماذا أبقيتُ لقبريّينِ نحرُهما نحوَ نهارٍ مجرّوفٍ؟

ماذا أبقيتُ لنا في الخوفِ من الخوفِ؟

حيواناتُ تنهضُ ،

حيواناتُ تستنهضُ نازِ قوائمها ،

حيواناتُ تتقدّمنا صوبك يا حبّ ،

أيا داليةُ ،

يا شجراً ليسَ لنا ،

خُذْنَا .

للغبار، لشمدين،

لأدوار الفريسة وأدوار الممالك

جَفَلْتُ عُجُولَ السَّهْلِ حِينَ أَحَاطَ بِي
نَبْعٌ ، وَهَرَوِلْتُ الزَّنَابِقُ وَالسَّهْلُ
فَغَسَلْتُهَا ، وَنَزَعْتُ عَنْ نَبْعِي غَلَاةَ مَائِهِ
لِيَضْمَنَا ثَوْبٌ يَهَيْئُهُ الْعَوِيلُ

وَانْتظَرْتُ الْأَرْضَ تَسْتَرْخِي ككَاهِنَةٍ أَمَامَ فَرَاشِي الْحَجَرِيِّ ، وَانْتظَرْتُ
زَرَافَاتُ الْغُبَارِ إِنَائَهَا ، وَتَدَافَعْتُ بَيْنَ الْحُمَائِمِ مِنْ حَمِيرِ الْوَحْشِ أَسْرَابَ تَمُوجٍ
خَطُوطُهَا كَمَصَابِرٍ ، وَجَذَبْتُ أَقْفَالَ الْيَنَابِيعِ الْخَفِيفَةِ كَيْ أَرَى جِبِلًّا يَجْمَعُهُ
يَأْسُهُ وَيَغْيِرُ مَخْفُورًا بِأَجْرَامٍ وَحْدَادِينَ : إِنِّي حَافِلٌ بِسَلَالَةٍ مَشْغُولَةٍ ، وَمَعِيَ
الْقَنَادِسُ وَالسَّهْلُ .

وَالْأَيْنُوسُ يَشْدُنِي شَدًّا ، وَيَنْثَرْنِي الصَّهِيلُ
لَوْلُؤًا ، فَتَرَى الْقَبَائِلَ عَادِيَاتٍ
بَيْنَ لَوْلُؤَةٍ وَلَوْلُؤَةٍ ، تَخْضُ سَمَاوَهَا
قَرِيبًا مِنَ الْأَحْشَاءِ يَنْهَضُ بَيْنَهَا الْفَتْحُ الْبَدِيلُ .

جُرْنِي يَا مَوْتُ ، جُرْ مَنَابِعِي وَسَطَ انْتِخَابِ الْقَتْلِ ، وَسَطَ التَّخْبَةِ : الْآنَ
اعْتِكَافِي مِثْلَ أَسْيَادِ يَجْسُونُ الْعَوَالِمَ جَسًّا فَحَلَّ حَازِقٌ لِإِنَائِهِ . الْآنَ
اعْتِكَافِي مِتْرَعٌ بِكَوَاكِبِ مَذْهُولَةٍ مِثْلِي ، فَمَنْ يَعْدُو بِقَلْبِي جَاهِرًا بِمَجِيءِ
حُلَا جَيْنَ ، أَوْ بِمَجِيءِ غُلْمَانِ يُوَاسُونَ الْمَمَالِكَ بَيْنَ هَاوِيَةٍ وَهَاوِيَةٍ ؟ دَعُونِي
عَاقِدًا عَدَمِي عَلَى أَشْيَائِهِ .

فَأَنَا انْتِخَابٌ غَامِرٌ ، وَأَنَا الْأَصُولُ

والمدى درعٌ ، وإنِّي مُحْكَمٌ كالدرع ، لا موجٌ يجاهر بي ،
 ولا يغتالني المجرى فيفضحني المسيلُ .
 عُدْنِي يا ربُّ . إنِّي مفردٌ أصغيت للنسلِ الذي التحمتُ مساكبهُ ،
 وإنِّي مفردٌ بطوي مباحجهُ لبدأ سيرةٍ معلومةٍ :
 «للمرءِ حقانٌ : الغبارُ ، ومجدهُ .
 للمرءِ حقٌ واحدٌ ،
 للمرءِ ميتتهُ .» اختياري مفردٌ يا ربُّ : «ثمةٌ نسوةٌ يفرشن ميعادَ
 الرياحِ لآمةٍ تحبو كطفلٍ ، ثم يغلقن النهارَ مقامراتٍ باشتعالٍ مُؤنسٍ» .

هذا اختياري

فلتمتِ أرضٌ بأرضٍ ، ولتَضِلْ يمامةٌ في الأفقِ من صخبِ المعادينِ ،
 حيثُ أُنْتُشِلُ الفضاءَ كقرصٍ قصديرٍ من النبعِ الذي يحنو المحاربُ فوقه
 بدروعه :

هذا اختياري

فلتمتِ أرضٌ بأرضٍ ، ولتَنَمَّ في خوذتي الأخلاطُ من كُرْدٍ وجوَالِينِ :
 إنِّي فسحةٌ منذورةٌ للكيمياءِ ، وفي يدي كبدٌ أدور به كنوأسٍ على
 الأعشاشِ :

مُرِّي يا حمامِمْ ،
 يا عصفيرَ الغضارِ ،
 ويا غرانقُ ،
 يا إوزُ ،
 ويا سُماني ،
 يا دجاجِ الماءِ ،

يا بارزِيْ ،

يا حدَّاتْ ،

يا جُهْلُولُ ،

يا دُرَّاجْ ،

يا بطريقْ ،

يا زرزورْ ،

يا خُطَّافْ ، مَرِيْ ، فابتهالي ليس إلا نزعَة من آدمي يحتمي بانائه إذ
هَنْ يفتحن الغصَّار كوردة للنيزك الملكي ، أو يخطفن محوّر بعلهنْ
مشاكسات رعدَه ؛ مَرِيْ وثيداً يا قرنفلَة مسوَّرة بأنفاس العناكب ؛ قد
تطاوعني البراري مرَّة في يأسها فأردُّ كلْ فصيلة رَدِّ الصواري نحو موجة
مأمْ ، وأفرق الأكباد بين مكيدة ومكيدة ، ولربما دحرجتْ أقمار البراري في
غشاء يابس وقذفتْ كل مدينة في يأسها ، وأنا أدبر الوقت كالخزافِ ،
مستنداً إلى كُرَّة تغيءُ إلى جوانبها الفلولُ .

ولربما سيَّرتْ أقماراً على إلهيلج الصرخاتِ ، أو

أحنيتْ جذعي فوق نجم محارب ،

وكشفتْ كيف يجيء موجٌ هازلٌ مستطلعاً موجي فيهدي الأرخبيلُ .

ولربما شيعتْ سوسنة إلى جرحٍ وعابشتْ الموالي حاشداً في خوخةٍ

مشقوقة شمساً يفاجئها الأصيلُ

بانقسام مُذهلٍ ؛ بالعشب يحشده دمٌ أم زغبيلُ

ولربما غيرتْ مسرى طعنتي نحو اعتدال الروح ، أهتف : ساعديني يا

لبونات العراءِ ، وبأصفيحاً قادماً في أسره الجسد الصقيلُ ،

ساعديني يا حُبَّاري القتل ، إنني حازمٌ أمري على شركٍ سأدفع نحوه

الأيامَ والريحَ النفيسةَ ، خائضاً في بركة من ثُرَّهات العالم المحلول مثل

كتابةٍ ، ولربما أمسكتْ قرميدَ البيوتِ مُقبلاً هذا الزجاجَ ، وذلك ، أو هذا

السياجَ ، وذلك ، أو متسائلاً : ماذا ستحمل لي بيوتُ حلوة؟ ماذا ستحمل لي حجارَتُها؟ وأين النحل؟ أين طنينه فوق الأزاهيرِ الجسورة؟ أين مَنْ أَلْقَتْ إلى لغتي زجاجاتٍ مكسرةً ، وأطلقتِ العنادلَ في خرابٍ حائمٍ كالصقرِ . مُرِّي يا لبوناتِ العراءِ بما نمي ، وأحطِ بنعشي يا عراءَ .

ها هي العرباتُ تأخذُ شعبها متحاذياتٍ تحت خنشارِ السفوحِ ، وها هي البلدانُ تركضُ ، والهواءُ

يستطيرُ كقلبٍ عاشقةٍ ؛ أحيطي يا لبوناتِ العراءِ بما نمي ، فدمي عَجُولُ
والمدى مثلي شريكُ قابضُ بيدٍ على ميزانه ،
والأرضُ تعقدُ عروةً في وسطها رثّةً وميزانُ ثَقِيلُ :

« كلُّ نفسٍ أحضرتُ يُحمورها ،

والموتُ أحضَرُ جُرَّةً وقرونَ كبشٍ . . يا عراءَ ،

يا لبوناتِ العراءِ ، ويا حضاراتٍ يخبئها السنونو في جناحٍ مُتَعَبٍ ،
وأقودها في طَيْلَسانِ الرملِ يشملُنِي ويشملُّها الرداءُ . .

ها هي العرباتُ تأخذُ أرضها ،

والجمهراتُ تموجُ بين فراغٍ أشكالٍ مهيأةٍ لها بدءٌ طويلُ .

« كلُّ نفسٍ أحضرتُ يُحمورها ،

والموتُ أحضَرُ جُرَّةً وقرونَ كبشٍ . . » ، والعويلُ

حائمٌ كالصقرِ . إني حاملُ غصنِ المشيعِ ، لابسُ ما يلبسُ المحزونُ ،
لكنني أحاذرُ أن تراني نسوةً أشعلنَ خرنوبَ البَراري في صفيحِ أجوفٍ ،
وجمعنَ أعشاشاً على اندائهنَّ كأنما دفعت بهنَّ ذكورةً للمَسرحِ :
أحتملُ ، أحتملُ يا قلبُ ، يا زريابَ غرّينِ وسَفَسَطَةَ فإني حاملُ غصنِ
المشيعِ ، لابسُ ما يلبسُ المحزونُ ، لكنني أمدُّ يديّ تلتقطانِ خيطَ طفولةٍ
منهوبةٍ ، وأديرُ وجهي عارفاً أنني سأقتلُ تحت سقفِ أمومةٍ أخرى ، وتحت

جناح امرأة تلامس زينتني بأناملٍ منهوبة ؛ ها الجمهراتُ تَوجُّجُ :

إني راحِلٌ ،

والأفقُ يَهْمزُه الرحيلُ

وانهدامُ سيّدٍ يلوي باعناق السهول إلى دروع أسدلت .

فوقَ النهارِ فلا تَرَى منه سوى شرخ يلامسه عواءُ أو هديلُ .

وانهدامُ سيّدٍ يرنجُ مثلَ الشدي مختصراً أنينَ فريسةٍ ، ودم يجانسه

الأقولُ .

كلُّ نفسٍ أحضرتُ يُحْمَوُزُها . وأنتِ بناتُ الوعرِ يملأن السلالَ

بأبجدياتٍ مرقطة ، ويخلعن البُصيلاتِ البقيةَ من فضاءٍ هاربٍ في سربه ؛

وأنتِ المشيخُ : «أيُّ قاماتٍ ستختارُ السلالةُ؟ أحضري يا نفسُ ما أحضرتِ

من حبقٍ حديديٍّ فإنَّ الجليلَ يطلقُ صقره في غابةٍ وبهيمٍ مغسولاً ببُلُورِ

الانوثة ، مائلاً أبواقه بلهاتٍ مأمُوثٍ وثيسٍ أشقرٍ خارتِ قوائمه . أركضي يا

نفسُ ، ثمتَ جمهراتُ ، ثمتَ ارتفعتُ قرونٌ مثلَ ليلابٍ نحيلٍ أخضر ،

وتزاحمتُ في منبعي الهالاتِ والهلعونَ : لستُ مدينةٌ ، لستُ انتظماً معناً

في حَصْنٍ مخلوقاتِهِ . هَيْيِ اركضي يا نفسُ ، فوضى صندلٍ جذعي ،

اركضي في جُلنارٍ ، في عقيقٍ باردٍ ، وسلِّي وبوحي

واجعلي من عارضٍ أرضاً ، ومذْيٍ عارضاً

للجمهراتِ نجيءٍ في خِزفِ المُسَوِّجِ .

فَرَمَحَ مُلكي ، وكمَ باعدتُ بين حدودِهِ يا نفسُ ، كم سورَتُ ينبوعي

بجلدٍ لبونةٍ ، ونهضتُ بين سناجب الأبنوسِ متبوعاً بجيلين استوائيين ، أو

بفصائلٍ ثديئةٍ . كم ضمتُ ، كم ضيغتُ في أثري شعباً صِرْفَةً ، ومسحتُ

ظهرَ أُناتِها بخلائقٍ كاللَّيْفِ . كم كنتُ الوحيدُ الفردُ يطلقُ كوكباً لصقوره ،

ويرى عراكَ معادنٍ مذعورةٍ . كمَ جاءني النسرينُ يدفعُ شمسَهُ كفريسةٍ ،

وكمَ الندامى غافلوا أيامَهُم ومشوا بأجراسِ السمندلِ في جروحي .

فَرَسُخٌ مُلْكِي ، وَأَزْعَمُ : فرسخان ؛ وعزعرُ جسدي ، وأزعمُ : ردهةٌ بين
الصفيح .

لِي خِلاَفُ أَسْرَ فِي كُلِّ جَوْفٍ ، وَارْتِبَاكِي
كَارْتِبَاكَ فَجِيعَةٌ صَعِدَتْ إِلَى مِيعَادِهَا
وَمَشَتْ كَمَا تَمْشِي الْكِرَاكِي
فِي ذَهُولٍ مُحْكَمٍ يَا نَفْسُ ؛ لِي مِيثَاقُ كُلِّ فَجِيعَةٍ ، لَكِنْنِي
مِيثَاقُ شَعْبٍ جَثَتْ أَضْرَمُهُ ، وَأَذْهَبُ فِي الضَّرِيمِ إِلَى الْمَدِيحِ
عَالِيًا ، لَكَائِمًا غَيَّرْتُ مَوْضِعَ نَجْمَةٍ وَشَرَدْتُ أَبْعَدَ فِي غَلَالَاتِ الْعَذُوبَةِ
سَاحِبًا ذَيْلَ الرِّدَاءِ عَنِ السَّفُوحِ .

أَيُّ نَفْسٍ أَقْلَقْتُ أَيْلَ الْمَدَانِحِ ،
أَيُّ عَشْبٍ مُسْكِرٍ يعلو ويرفع لِي مَدِيحِي
فِي إِيْنَاءِ مُسْكِرٍ مِنْ أَرْجَوَانِ النِّعْمَةِ ؟ أَنْطَلِقِي إِذْنِ يَا نَفْسُ ، أَبْعَدَ ، ثُمَّ
أَبْعَدَ ، عَالِيًا يَا نَفْسُ كَيْ أُرْمِيَ فَتُوحِي
مِثْلَ سَمَاقٍ وَقَلْبٍ ذَائِبٍ ؛ يَا نَفْسُ إِيْنِي جَثَتْ مِنْ يَأْسِ الْمَعَادِنِ قَاصِدًا
يَأْسِ السَّلَالَةِ فِي حَنَوٍ بِالْغِ ، وَأَحْدَثُ الْحَيَوَاتِ أَحْيَانًا حَدِيثًا مَفْرَطًا فِي
تُرْهَاتٍ وَمَوْزَةٍ :

«لَوْ أَنَّ عَمَالَ الْمَدِينَةِ حَطَمُوا مَاسُورَةَ ، وَاسْتَأْنَفُوا غَسَلَ الْغَيُومِ بِحُمُضٍ
كَبِيرَةٍ وَعَادُوا آخِرَ اللَّيْلِ انْطَوَائِينَ ، كُلٌّ يَسْتَرِدُّ وَشِيعَةً مِنْ حَلْمِهِ وَيَضْمَمُ
أَسْلَاكًا كَطِفْلِ ؛ لَوْ بَكَى الطَّلَابُ وَالْحُرُسُ الْحُكُومِيِّونَ تَحْتَ جِدَارِ مَدْرَسَةٍ ؛
لَوْ أَنَّ سِتَارَةَ سَقَطَ بِشَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ وَاسْتَعَادَ الْمَسْرُوحُ الْجَسَدَ الَّذِي سَحَلُوهُ مِنْ
حَيٍّ لَحْيٍ ، لَوْ تَرَكَضَتْ الْبُيُوتُ بِلَا لِحَامٍ أَوْ قِلَادَاتٍ تَضِيءُ شَكِيمَةَ
الْمَقْتُولِ ، لَوْ أَنَّ الْجَسُورَ تَبَاعَدَتْ لِرَأْيَتْمُونِي عَالِيًا أُرْمِيَ فَتُوحِي » .

أَيُّ نَفْسٍ أَقْلَقْتُ أَيْلَ الْمَدَانِحِ ،

أيُّ عشبٍ مُسَكَّرٍ يعلو ويرفع لي مديحي؟
 قد عقدتُ مساجباً من تُرْهاتِ حلوةٍ، ونفختُ في كوري : أنا الحدادُ
 أطلقُ أسْرَ أنثى المعدنِ ، الأثنى التي جذبت عَجولَ الزَّئكِ من حيزومها
 وتقدمتُ في غفوةِ الينبوعِ توقظُ وردةً من نيكَلٍ وغصونٍ قصديرٍ تراختُ ،
 ثم تفتتحُ المذكورة . إنني الحدادُ : مَنْ بعدو بجمري ، بالرقائق من حديد
 الجمر؟

عُشْبُ مُسَكَّرٍ يعلو ويرفع لي مديحي
 والقوامطُ الذين تبادلوا في دورقِ أعلامهم ،
 يَشْكُونُ ضَيْقَ الأرضِ ؛ والملكاتُ يَسْتَوْقِذْنَ في المدِّ الفسيحِ
 طمئنهن ؛ تدافعي يا نَفْسُ ،

عُشْبُ مُسَكَّرٍ يعلو ويرفع لي مديحي
 ويمسني درعُ السمندل حين أحني قامتي لسمندل ، ويمسني بأنْ فأرفع
 درعَهُ مستَوْفِزاً حيثُ الحياةُ هياكلٌ ورفيفٌ أجنحةُ تراحمٍ بعضها في قَبَةِ
 مكسورة . يا نَفْسُ عودي : لن تكون حرابتنا ريحانَ أنفاسٍ ، ولن تتوالتُ
 الأجرامُ في حجراتنا كأرانب ؛ سنعود نحو بلادنا ، نحو الحظوظِ ونحو
 ريحانٍ ساجشو تحت قامته أباعدُ بين أوراقٍ لها قُرْحِيَّةٌ من مخمل ،
 وستجشُّ الأبعادُ في عيني صارخةً : خذينا يا طفولة . . لا ، أركضي يا
 نَفْسُ إني مالىءٌ درعي بغسلين وفجرِ أرقطٍ كالنَمِرِ ، إني قاذفٌ قلبي
 وجيلي في قرنفةٍ ، وإني قادمٌ خالٍ من الأحشاءِ والرتين ، خالٍ من كُلِّ ،
 خالٍ من الكبدِ : أرفعي درعي ، أرفعيه لنخلةٍ أو وردة ، فلقد نهضتُ أمام
 نسلي طاعناً في نبعه ، مثلي كمرْكبةٍ لها مِثْتانٍ أو زِيدَتِ من الأفراسِ ،
 مثلي مثل مفعوجٍ يَدُقُّ على صفيحٍ لامعٍ بهباته وشموسه ، ويعود أكثرُ
 وحشةً فيمازجُ الأرحامِ بالأعشاشِ . مثلي مثل هذا الشعبِ . . فلترفع
 دروعي نخلةً أو وردةً ولينبثقَ هذا الحديدُ

بين نافوراتنا ، ولينبتق عَدَمَ مديد
كي نقيسَ رباحنا في ظله ،
ونطوفَ جمعاً حاشداً أقدارُهُ في قُبَّةِ مكسورة ،
أو جُرْنِ عُرَافٍ وأرديةٍ يعود بها الشهيد .

ليتها رفعتُ دروعي ، ليتني غُمُستُ جسمي عارياً في عُصْفُرٍ ، ورأيتُ
كوكبَهُ يدورُ به الصعودُ .

ليتني لَامَسْتُ لَمَسَ الظنِّ ما يخفيه قوسُ أمومةٍ طرفاءً في نبع ، وفي
النبع الهوادجُ والحارثُ ، التوازنُ ، واشتغالُ فصيلةٍ بفصيلة . ليت الحناجرُ
أَحْكَمَتْ إقفالها وتنَفَّستْ بحناجرِ القصدِ ، لَيْتَ تَكْسُرَتْ واستلَّ من
يَلُورها هذا الصعيدُ
حَرْبُهُ وزرودُهُ ،

واستهضَ الحذقَيْنِ حيثَ سنوئُهم بَوْصٌ وَقُنْبُ خيمةٍ مزحومةٍ بمالح
الإنسان ؛ لَيْتَ الآلهاتُ نزلنَ من يَلُورةٍ في مقتلِ الإنسانِ يستودعُهُ
خلخالهنَّ وجلدَ جاموسٍ ؛ ولَيْتَ تبادلتْ نخبي الحشودُ ،
حين قَلْبَتْ الغبارُ كدرهم ،

ورأيتُ أبائي ووقتي ماثلاً كالصارية

وهتفتُ : يقتلني البعيدُ

ثم تمحو الهاويةُ

خُوْدَ السنايلِ إذ تقوُمُ إلى صلاةِ الدُفَنِ في أعضائي المترامية .

من يدعيني الآن؟ أيُّ كواعبٍ أمسكنَ حيزوَمَ المدينةِ ، ثم أطلقنَ
الفحولةَ من قواريرِ الغبارِ؟ وأيُّ مقتولٍ توازنُ موْتُهُ شمسانٍ :

(٢)	(١)
شمسُ رَمَتْ أَقْداحَهَا	شمسُ كَسَرَتْ أَقْداحَهَا
وَرَمَتْ	وَتَكَسَّرَتْ
بالكبادِ	بين
الندامي	الندامي
فانحنوا	فانحنوا
(هذا اتجاه الصارية)	

أَوْ يَذَّعِينِي بَارِقُ يَجُو كَمَا تَجُو حَدُودِي الْهَائِيَّةُ ؟
 أَوْ تَذَّعِينِي خَوْذَةٌ ؟ إِنِّي جَمَعْتُ هَيْكَلًا بِهَيْكَلٍ ،
 وَضَحَكْتُ لِلشَّعْبِ الَّذِي اجْتَمَعَتْ بِهِ الْأَهْوَالُ فِي مَرَاتِهِ ،
 وَنَحَرْتُ سَاقِيَةَ لِنَارِ السَّاقِيَةِ
 وَلَثَمْتُ مَاءَ السَّاقِيَةِ

وَرَأَيْتُ فِي حَصْبَائِهِ أُمِّي ؛ رَأَيْتُ شَعُوبِي اخْتَلَطْتُ ، وَقُلْتُ : تَبَارَكِي يَا
 نَفْسُ ، إِنَّ التَّرْجَمَانَ مَاتَ ؛ وَتَبَارَكِي يَا نَفْسُ ، هَذَا صَاحِبِي قَدْ عَادَ مِنْ
 أَيَّامِهِ ، هَذَا طَلَالُ : أَتَذْكُرِينَ شَمْلَتَهُ بِالرَّوْدِ وَالنَّعْنَاعِ وَاسْتَنْفَرْتَهُ فَاسْتَنْفَرَ
 الْيَاقُوتَ ثُمَّ طَوَى جَوَانِحَهُ عَلَى بَلَدٍ ، وَأَطْلَقَ جَرْحَهُ ؟ أَوْ تَذْكُرِينَ صَرَخْتُ :
 يَا لِحِمَالِ مَا أَهْرَقْتَهُ مِنْ حَزْنِ هَذَا اللَّوْثَسِ الْعَرَبِيِّ ؟ ثُمَّ صَرَخْتُ : هَذَا
 صَاحِبِي يَا نَفْسُ ، هَذَا لَوْثَسٌ مُلْقَى عَلَى مَاءِ تَكَادَ شَفَاهُنَا أَنْ تَسْتَحِمَّ بِهِ ،
 وَهَذَا صَاحِبِي يَا نَفْسُ ، هَذِي زَوْجُهُ وَدُرُوعُهُ ، وَأَنَا تَكَافؤُ صَرَخَتَيْنِ تَنَاهَتَا
 مِنْ خَنْدَقٍ ، وَأَنَا الذَّهُولُ

قَاطِعُ كَالْوَقْتِ يَهْزُجُ بَيْنَهُ وَقْتُ بَتُولِ .

يَا نَفْسُ هَذَا صَاحِبِي ،

يَا نَفْسُ هَذِي نَجْمَةٌ مَوْصُولَةٌ بِخِيَانَةِ مُتَعَالِيَةٍ

وخياتان دمي : بلاد أهرقت ، والهاوية .

وخيانة هذي المدينة حيث تغمر ريحها ريحاً فلسطينية بحشالة من
أبجديات النخيل ورمليها ؛ يا نفسُ هذا صاحبي قد عاد من موتٍ دمشقيٍّ
إلى موتٍ أرى فقراءه مستوحشين يكسرون جراحهم في حجرة من
أبجديات النخيل ، ويرجعون إلى الينابيع الخفيفة عاصبين جباههم بمكيدةٍ
وأنينٍ سوسنة ، وأهتف : مرّ ، مرّ طلالُ ، إن العاصمة
رفعت إليك ؛ كتابها وقضاتها ،

وتشاءت مدنٌ كأنّ المحكمة

وهجٌ لمدفأةٍ تراخي نائمٌ من حولها ، أو نائمة .

والشاهدان دمي وزنبقة ؛ أتذكرُكم كتبنا عن جنونٍ كتابيةٍ ، كم قلتُ
إن الطالوة

ستكون آخر قاتليكَ ، وإن شمسَ السنبلة

ستنامُ في «الشياح» ، إن دفاتر الصحفيِّ سوف تمرُّ بين «المسلخ»
الباكي وبين العظم ، إن القنبلة

فرحٌ ، وإنك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدي والمهملة؟

ستنامُ؟ أعرف أن غصنك ذاهبٌ لينام ، أن ثمارَ هذا الغصن والأوراق
ذاهبةٌ وجذعك ذاهبٌ لينام ، أني ذاهبٌ والريح ذاهبةٌ ، وأرضك مثلنا
ستنامُ : فاملاً راحتك بخردلٍ وقطيفةٍ ، وأثر زيبك في ظلامٍ أخضرٍ تحتازهُ
الأجسادُ مثل القافلة

واذهب ، فإنك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدي والمهملة .

ستنام .. أعرفُ يا طلالُ ، وأعرفُ الطيرَ الذي سيحومُ حول يدِكَ إذ
تتقاسمان ظلامَ قبرِ صبيّ ، وتهوَّمان كشتلةٍ بين الظلامِ لطيفةٍ متناغمةٍ .

ستنام .. أعرفُ أن هذي العاصمة

نزلت إليك بقبعات حلوة ،
 وبسترة من مخمل الماء الفلسطيني ، والريحان ، والثفت عليك
 كزنبقات ناعمة
 فقطفتها وارتمت ، ثم تركتها للسابلة
 وذهبت ، أعرف أن جسمك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدي ،
 والمهملة .

وعرفتُ أنني ذاهبٌ ، والأرض ذاهبةٌ ، وناري
 محضٌ قضبانٍ وأخلاقٌ من البازلتِ والأحشاءِ تذهب بالنهارِ إلى النهارِ .

من يدعيني الآن؟ أي صديقة عادت بقلبي من حطام أخضر ، وبكتُ
 لأنني لم أجد موتاً يمهّدُ فلزه وعصوره ، ولأن عاصمةً بكتُ وبكيتُ : مرّي يا
 نباتات الغضار ، ويا صديقة خيزران مائل في ضفة الخابور ؛ مرّ طلالٌ ، مرّ
 كثرة مجروفة من سفح «سجّار» الخجول فإنني لامستُ موتك لمس من
 مرّت يداه على قرون الطّبي : تلك صديقتي ، تلك الغصون وقد ترامت في
 حنين الشعب ، تلك جنادب مسروجة ، ودمي يجيء مع الصنوج
 خائضاً ميراثه ، والبحر يلجأ من «مهاباد» الرياح إلى الخليج
 لكأنما سعت الملوك إلى انكسار ،
 وانكسار البحر نبض خالق ينحل في زبد وموج ،
 جانح قلبي : ترى من يدعيني الآن؟ لست مكيدة ؛ لكنني
 شرّك ، ودرعي كالثلوج
 أبيض غض تدور به المروج على المروج .

كل شيء هاديء ، وطلال أهدأ من وعول تستريح مع الظهيرة ،
 والسماء جنازة ، وأنا أواسي الزهر معتدلاً كقطقس ، حاكماً بين الدروع
 أخيطها بسيور معدنها ، وأقطع ما يؤصلني كشمس في فراغ الأبجديات

التي لم تأتِ : «يا للحلوة انتظرتُ ، ويا لجمال عينيها إذا ما رفُتُ بين جفونها
دمعٌ ، ويا لجبينها المتغصن الباكي ويا لشفاهاها» ؛ وأنا أواسي الأبعديات
التي لم تأتِ ، معتدلاً كميعادٍ ستُقْبِلُ فيه وحشياتُ هذا الروح : «يا
للحلوة ، يا للحلوة اقتربا . . . إلهي

يا إله الأبعديات التي لم تأتِ ، ماذا استنفرَ القلقاصُ ؟ ماذا استنفر
الجيل الذي ألقوه بين معادن مذهولة ؟ ماذا يُصيرني اعتدالاً جارحاً
فأصيحُ : «هاتوا حربكم وطيوركم ، هاتوا الطبيعة مثل كلب أعرج» ؟ يا
ربُّ ، يا متعالياً في رهبة الإنسان ، إني عارمٌ كهدهء هذا الجيل ، إني وأقفُ
حيث اللواتي اجترنَ مدرجهن يستنبتن رعب الموج واللغة : «الحبيبُ
يضمُّها ، والحلوة أتكات . . . إلهي

كل شيء هادئٌ ، وطلالُ أهدأ من وعولٍ تستريح مع الظهيرة ،
والدروع جنازة والأفق لي : «هذي رموزي
خلوة وأناثي الهلعات يستغفلنني
ويضنّ مسرحهن بين دم ولوز
واحتفالي قاتلٌ ، ومعاولي
كونيةٌ ، والماء مصباحي إلى بهو الكنوز
حيث أستقري الطبيعة في قناع مهرج ،
وأصيحُ الأرحام بين خسارة تأتي ، وفوزٍ .

والإشارات التي أودعتها في الورد تخرجُ كالمناشير الصغيرة كي تدلُّ
عليّ : إني تاركٌ قلبي على غصن وبوصلة ، فماذا يدفع المدن الجميلة أن
تجبيء إليّ ؟ ماذا يجعل الساعات أسلحةً ، ونفسي مثل بوتقة لها عنقٌ طويلٌ
من زجاج أخضر ، والبوتقة

عربيةٌ ، والكيمياء - الشعبُ ترشح من جوانبها فتعلو

مهماتُ الشعبِ بين دخانِ نارٍ فاسقة؟

يا ربُّ هذي أرضُك اقتلعتْ جذورَ نحاسها وحديدِها .

يا ربُّ هذي ريحك اغتسلتْ من الريح التي رفعتْ إليك نذورها .

يا ربُّ هذا قلبك اقتسمتهُ بلُورِأتنا ،

هذي رموزي سيدي ،

وفسيفسائي الأنظمةُ

وجداولي تمضي على مهل وقد لبست فراءَ الملحمة . .

وكسيدةٌ بدلتْ جيلَ الملحمةِ

بعشائرٍ حضريةٍ مستسلمةٍ

ونفضتْ عمري من نظامك خالعاً قبيري وإنسانيتي من فجوةِ

الإنسان : هذا مقتلِي يا ربُّ ، والهجراتُ آتيةٌ ، وحرُّ عنصرِ الماء الذي أكسوهُ

شكل القلب ثم أعيدهُ ماءً ، وأكسرُ في مرايا نبعه شكلي معيداً كل زاويةٍ

إلى قانونها في المهزلةِ .

وافجرُّ الأجسامَ حيثُ تفجرتْ أشكالُها ،

وأقول هذا مطلعُ حسنٍ ، وهذا

منفذٌ بين التواريخ المعادة كالصدى ، والمهملةُ .

لا بأس ، هادئةٌ هي الأجناسُ ، والحرب التي علّقَتْها كقلادةٍ ستظل

مثل قلادةٍ ، سأظلُّ أمتحنُ السناجبَ في السهول وأحتمي بفراشةٍ من

معدن حرٍّ ، وأستقصي العوالمَ صائحاً بين اللقائِ والوعول كما يصبح

الفاتحُ : أشتعلني أشتعال طريدةٍ يتّها اللقائُ والوعولُ ، ويا طباءُ استنفري ،

وخذي نهاري يا زواحف لا دروعُ لها ، ومرّي مسرعةً

هي تسعُ ساعات وأخلقُ ظبيةً من ثورةٍ متنازعةٍ :

(في الساعة الأولى أباشرُ جمع كل عظامها في زئبقٍ ، فإذا تلاصقتْ

العظام كسونها باللحم ، ثم تركتها للوقت يكسوها بجلدٍ لَينٍ ، وغسلتها في
التاسعة

بدم ، وقلت لها أركضي في خندق الله المقاتلِ مسرعةً .
هي تسع ساعات ولكنني سأختزلُ العناصرَ والعواصمَ حاضناً أشلائي
الأخرى ، مُغيّراً نحو بادية تركتُ شموستها ترمي على جسدي عباةَها
كأنني آخرُ اللغة التي سقطتُ ، كأنني جرحُ كل محاربٍ ، أو درعُ من لا درعُ
يحصنُ موتهُ ؛ هي تسع ساعاتٍ وأمنحُ مُقتلي سبباً ، وأرجعُ من حروبٍ لم
أكن في موجهها غيرَ انحدارِ الموج نحو عويلِ مخلوقاته : هذا اشتعالي في
غدٍ ليس انهداماً ، بل غدٌ متجانسٌ ، وترى لحدّاديه صرخةً مُترَفٍ إذ
ينحنون على معادنهم ، ويحتفلون بين شرارةٍ وشرارةٍ بنظامٍ خلقٍ مُترَفٍ . .
هذا اشتعالي

حين أجعل جذرَ كلِّ مقاتلٍ كبداً يجزُّ على الرمالِ
أُمَّةً ، وأهْيءُ الأشياءَ في أحزائها ،
وأصبح مرتجعاً : تعالي

إنني أمحو الهواءَ وأنتقي هذا الفراغَ الفحلَ كي أصطادَ جمهرةً من
الأشكالِ ، أو أصطادَ شعباً ذاهلاً عن شكله ، وأقوده نحو الفراغِ الفحلِ
منتحلاً صفات محاربٍ أو دولةٍ ، وأصبح مرتجعاً : تعالي
يا بغالَ الوقتِ ، ولتقفِ السنايلُ في قميصِ السهلِ ، تحت فراغها ،
وليمضِ شرقٌ مثقلٌ بدمِ العناكبِ والسحالي .

إنني أمحو الهواءَ ، وأستطيلُ مباركاً هذا الفراغَ الفحلَ حين أرى
القتيلَ يجسُّ كوكبَهُ كفحلٍ حاذقٍ ، وينام بين عذوبةِ الأفقِ الغريبِ
وموتهِ ، وأصبح مرتجعاً : تعالي

يا غزالةً كلَّ مآذبةٍ ، فإن وليمتي شرَكَ لأجناسٍ ستسقطُ في عذوبتها ،
وتنهضُ حيث لا جرحٌ سوايَ كأنني جمعتُ مِنكَ الشعبَ في قارورةٍ

وسكبته في مركز حيٍّ فكانت أبجدياتٌ ، وكان الله ؛ أو لوحَتٌ للأشئ
بمبدلٍ من القصدِير والأعشاب ، وانزلتْ يدي فتهاوتِ البلدان . . إنَّ
وليمتي شَرَك ، وأعلنُ : « لا مجالسَ ، والحكوماتُ انفصامٌ ضمنَ
منظوماتها ، ونقابةُ العمال غيرُ نقابةِ العمال ، والأحزابُ تستوفي شروط
حضورها في جدولِ الطبقات ، والمتوسطون لدى المدينة يحملون نساءهم
كدريشة ، والبرلمانُ دعايةٌ ، والحُكْمُ آخرُ لعبةٍ في الترهاتِ الخاسرةِ
ولتأتِ تلكَ الشَّارةُ المتناثرةُ

من طغمةٍ مهزومةٍ ومثقفينَ يجنّدون على الحبالِ
مجذّهم كمهرج . . وأصبحَ مرتجفاً : تعالي

يا سمنلكَ الحياةُ ، ويا نساءَ حقيقةٍ محسومة ، وتناثري يا أرض تحت
دروعنا إذ نحتمي بدم وصلصال ، ونكسرُ شكلنا فنعود محضَ زنايق .
وأصبحُ : عودي يا عُجُولُ إلى مدى سهلٍ هناك ، ويا فراشاتُ أركضي
محمومةً ، فأنا انبثاقُ الحربِ بين عواصم ، وأنا اختارُ البرقَ في فوضى دم
متهالك ، وأنا الفلسطينيُّ يحملُ شمسَ «عامودا» إلى «نابلس» في رفقٍ
كأنَّ بلادَهُ احتضنتْ بلاداً مثلها وتوزّعتْ في القلبِ ، أو جفلتْ وعولُ
عادها شوقُ الوعولِ إلى الوعولِ .

سأظلُّ أمتحنُ الحياةَ وأحتمي

بفراشةٍ تمحو الكتابةَ بين هاويتي وميعادِ السهولِ

وأظلُّ أدفعُ بالسهولِ

نحو ميعادِ الجنونِ ، ووردةِ الفتحِ البديلِ .

آذار ١٩٧٦

باسم الحلبات الكبرى ،
باسم دروع مترفة في نعمتها إذ ترفعها الأدرجُ
باسم التُرفِ المرفوعِ إلى عتبات الحربِ سألقي
هذا الصلصالَ الحيَّ كدرعٍ فوق مكائلكم ،
وستتبعني الأبراجُ ،
نحو صليلِ الأسلحةِ الكبرى لعذاباتِ الإنسانِ ،

وكالإنسانِ ساقطُ الأرضِ وأرفعها
فوق يدين من القصديرِ يمازجُهُ العاجُ :

نُخب عويلٍ ومدبح ،
ومداراتِ عائمةٍ في الإنشادِ .
نُخبِ الأقنعةِ المصقولةِ بين جيبيني والأعيادِ .
وسأقتحمُ الإنسانَ ، عنيداً ، بالأسلابِ ، ونفسي
مادبةً ، ودمي جُرئٌ وسياجُ
ولتتبعني الأرضُ إلى المأدبةِ الكبرى ،
ولتتبعني فاجعةٌ وهياجُ
فأنا الأيوبيُّ ، وقد أرخيت جيبيني
فوق حياةٍ صاعدةٍ مثل الصقرِ ،

وفوق نسج سيهته النّساجُ
من صلصالٍ وجلودٍ كجلودِ الشّديّاتِ ؛
سأخبركم عن حِلّباتِ عارمةٍ كالأقدارِ ، سأرفع للأقدارِ صليلَ
مدائحكم ، وسأدفعكم دفعَ حصانِ الطّاحونِ لتمتلثوا بقرايين المعدنِ يا
جمهوراً يرفعه الجمهور ذبائح في صلصالٍ مدائحهِ . .

يا جمهوراً يصعد في خطوات الماعزِ إني أشهد ما تشهده الصّدفةُ من
أقنعةٍ ونساءٍ في أقنعة الصّدفةِ ، مبهلاتٍ يرجعن من الحبِّ ، ومبهلاتٍ
يدخلن الحبَّ وهنٌ يعدلن نظاماً أفلتَ من ميعادِ الإنسانِ ؛ ويا جمهوراً يصعدُ
في خطوات الماعزِ نحو ينابيع المِصرحِ ، إني أتوافدُ جيلاً جيلاً في أسلحةِ
الصّدفةِ كي أشهد ما يشهده الحوذنيّ الحيّ على مركبةٍ خلف لبونات الحكمةِ ؛
«هيا يا ماعزُ ،

هيا كبشِ النعمة ،

هيا أيتها الأبعادُ .

هيا يا فرسَ الفلزِّ ،

وهيا يا دُكُلُ ،

هيا يا ميعادُ .

قلبٌ يهزمنا أو نهزمهُ ،

ويصالحنا الإنشادُ

والخذقاتُ اللائي يقنصنَ مدائحنا ،

سيعلّقنَ مدائحنا

فوق قرونٍ لامعةٍ من أخشابِ الصنّدلِ ،

أو يغسلنَ مدائحنا بنبّيدٍ ، ومدائحنا ستُعادُ

حين يضيقُ الوترُ الأكبرُ في دائرة الأنثى ،
وتكون الأرضُ بُزاةً عالقةً في شركِ الفحلِ ،
وأن الموجَ المنقادُ

يخرجُ من دورقه المائيّ ، ولا يبقى
غيرُ نيازكِ أجساد تستدرجُها الأجسادُ .

إني أشهدُ ما يشهده الخوذيُّ على مركبة خلف لبونات الحكمة ،
مُستبقاً ما يومضُ أو يتوالدُ من أقدارٍ يحلجها الحلاجون ، كأنَّ النُسجَ
الاعظمَ نسجٌ من أخلاطِ الأجر ، ومن سفسطة وحظوظٍ : هذا النُسجُ
الاعظمُ ، هذا ما أشهده حين أكون على مركبة خلف لبونات الحكمة ،
مستبقاً أمر الإنسان ، وأدوارَ المخلوقات على حلبات النعمة ؛ هذا النُسجُ
الاعظمُ نسجي بين الخلاجين ، سأرفعه فوق يدين من اللِّبلاّبِ إلى رغدٍ
يتسامقُ مثل مشاغلِكُم ، وسأرفعكُم فوق يدين من اللِّبلاّبِ ذبائحٍ للإشادِ
السلجوقيّ على المسرح :

«هيا يا ماعزُ ،

هيا يا كبشَ النعمة ، هيا أيتها الأبعادُ ،

هيا يا فرسَ الفلز ،

وهيا يا دلدلُ ،

هيا يا ميعادُ

سربٌ من أجنحةٍ يدخل بهو شعائنا ،

ويجيءُ مع الأجنحة الأسيادُ

محتضنين سروجاً وشكائهم كالفيروز ، وتأتي الأعيادُ

مثل جواميس مُنهكة ،

أو سيلورٍ محمولٍ بالأجرامِ ، بطيئاً يدخل بهو شعائنا ،

ونرانا في البهو قياماً دَهْشِينَ من الأكبادِ تكسّرُها الأكبادُ .

هذا النُشْجُ الأعظمُ نسجي بين الحلاجينَ ، وأشهد ما يشهده الخوذِيُّ
على مركبة خلف الشديّاتِ أوانَ تميلُ الأرضُ ، ويحتاجُ مدارجها المحظوظونَ
بأقنعة القوّسِ ، أو تحتاجُ مدارجها القديساتُ حبالِي ينثُرْنَ كواكبهنَّ على
النعمة متراً متراً ، وينادين الحيّ الموثيَّ : «تعالِ إلى ترفٍ لا تملكه ، وتعالِ
إلى الأقنعة الكبرى لحروبٍ لا تملكها» .

وأنا أشهد ما يشهدهُ الخوذِيُّ على مركبةٍ خلف الشديّاتِ اللاتِي
يخلعنَ أمومتَهُنَّ ويركضنَ إلى الوحشيِّ من العالمِ ، مثلي مثلُ جيوشٍ في
أسلحةِ الثَّرَفِ المصقولةِ ، أو محترِفٍ بين يديه فيخاخٌ لهزائمُ كلِّ غريبٍ
ينصبها للإنسانِ ، ويحكمُ قبضته الغضّةُ حولَ قرونٍ مهملةٍ ، وقوانينَ تنامُ
على دَرَجِ المسرحِ . مثلي مثلُ الخوذِيِّ ، وأشهد ما تشهدهُ الشديّاتُ وقد
جرّحنَ أمومتَهُنَّ على المنحدرِ الوحشيِّ لميعادِ الإنسانِ ؛ ومثلي لا تمسكهُ
الأرضُ ، ولكن يتجانسُ - إذا يتجانسُ - في مجهولٍ كالذرعِ ، ويسبقُ
جَهْلُوكَ الأعيادِ إلى كبريتٍ مشتعلٍ ليكونَ هو المشتعلُ المُتَرَفِّ في الخلباتِ .
ولي عرباتٌ ذاهبةٌ نحو نشيدٍ أكثرَ غمراً من إنشادِ امرأةٍ لشراعِ البعلِ
وصاريةِ النعمة ، مثلي مثلُ الأسلحةِ المغسولةِ بالتهليلِ ، وبالسَّمَاقِ العائمِ
فوق نشيدِ امرأةٍ ؛ هاتوا ما يشهدهُ الخوذِيُّ ، وهاتوا زَرْدَ الحربِ ، وهاتوا
الحربَ ، فقد هيأتُ كنائسَ قلبي للأخبارِ المجهولينَ ، وللخنشارِ المحلولِ على
أكتافِ القديساتِ كما تنحلُّ ذوابهنَّ مساءً للفحلِ الربانيِّ ، وهاتوا مائدةً
وسنَّعَ المولجِ ، فقد أحضرتُ العيارَيْنِ ، وأحضرتُ مواليقَ الفاتحِ تحت دروعي
لأفاجئكم بالإنسانِ . وهاتوا مسرحكم ،

وفوانيسِ المحظّياتِ ،

وجمهورِ اللعبةِ ؛

هاتوا فاجعةً ،
وطواحينَ ،
وسنبلةً ،
ومرايا للماء ؛
وهاتوا الماءَ ،
ودَوْرًا للأقنعةِ الكبرى ،
وجواميسَ ،
وشمساً ،
ومواسمَ ؛
هاتوا . .

سأفاجئكم بالإنسان ،
وأسدلُ فوق مكائده السَّعْفَ ،
سأفاجئكم حين تكونون دماً متحداً أو مختلفاً
وسأهزلكم كنبيذٍ عند العتباتِ ، وأرمي
حجرَ المخلوقاتِ إلى بركتكم لتعودوا شيعاً ،
وسأجمعها إذ أجمعُ هذا الترفاً .

سأفاجئكم بالإنسان .
بدرع ،
بعظاياتٍ ونحاسٍ ،
بالأجرِ ،
بقلبٍ مختمرٍ في الأجرِ ،
بَعِيدٍ ،

وهياكل .

سأفاجئكم بالإنسان ،

بجلد ليوعات ،

ومشاعل .

سأفاجئكم بالفاجع في الإنسان ،

بالكمة ،

وأفاجئكم بالزائل ،

حيث يسول الثئيس على أدرج المسرح ، والأدوار تعاد مع الأفتعة
الكبرى للحكمة ، والجمهور يسابقه الماعز بين مقاعده الحجرية نحو الدور ،
وأسبقهم معترفاً :

لا ميثاق لأسلحة تحت جناح المطعون ،

أنا المطعون سأهدر نخل ممالككم سعفاً سعفاً .

سأفاجئكم بالإنسان لأشهد ما يشهده الخودي على مركبة خلف
لبونات الروح ؛ سأضرم روجي لتناموا حول لهيب حي مغمورين بنعمة ما
تفتسل النعمة فيه ، وقد أوقظكم لتناموا ثانية حول ضريم الروح ، وقد
أوقظكم لأراكم فزعين من اليقظة تستترون بروحي من أسلحة الصدفة
والأقدار العجلى ، وسأدعوكم لعشاء الوثني وأكسر فوق المائدة الأرض
ككؤز الفخار للتقطوا الغامض والمتائر من فاكهة وعروش ؛ وسأدعوكم
للصدفة كي تفتنموا الحجر الأكبر في ميراث الله ، وكي تحتشدوا بحشود
الكوبالت وشئت البركان أمام الفوهة العذبة للمجهول تمحشون مكائدهم
بيد كالكيكيد ، وتشتعلون كمن خصته الفوهة العذبة للمجهول يجرح .
سأفاجئكم بالجرح لأجمعكم في حلبات النعمة عرافين يغالبيكم طيش
أباطرة وخيول ستمساق إلى بادية الإنسان . . . أنا الإنسان أفاجيء كل حياة

بالأسلاب ، لأجعل للحلبات الكبرى أبهةَ الحلبات ، وللأيام مقاديرَ
حروب كالترَف ،

وسأجعلُ كلَّ غبارٍ ترفي

وسأجعلُ كلَّ جناحٍ ترفي

وسأجعلُ كلَّ لهيبٍ ترفي

وسأجلسُ مثلَ جلوسِ المعتكفِ

بين حدودِ غامضة ، وقرابين . سأنسى

أن بلادي نازلةٌ بين الأدراجِ إلي . سأنسى

أن فرائسي انطلقتُ ثانيةً من أسرِ الروح ،

وأني منطلقٌ ثانيةً بدروع من قصديرٍ أو خَرْفٍ

لأفاجئكم بالأسلاب ، وبالحلبات الكبرى للأدوارِ المحبوكَةِ بين دروعِ
الإنسان . . أنا الإنسان ، وهذي مائدتي في ردهاتِ الحرب ، ولي ردهاتُ
أخرى ، وموائد من وحشةٍ ما يوحشني حين أكونُ القابضَ بالكفَّينِ على
نوَاسٍ مدائحكم ، أصغي لجيوشٍ عادلةٍ كالوقت ، وظالمةٍ كالوقت ، تعودُ من
الرَّغْدِ الفاجع نحو الأدوارِ المحبوكَةِ بين دروعِ الإنسان . . أنا الإنسان - بهيُ
كالدُّورِ المحبوكِ ، وقصدي قصصٌ مديحٍ لم تَعْلَنَ شفاءً بعدُ - أفاجئكم كي
تفتنموا وتضيعوا في رَغْدِ الدُّورِ ؛ وأعرفُ أني سأفاجئكم كي أغتمَّ
الإنسان ، وأرفعُ بين شكيمتهِ الهَرَجَ الأوحدَ للأجناسِ ، وأني سأداهم قلبي
لأشاركَ هذا القلبَ مهازلهُ الخلوةِ بين أميراتٍ يلبسنَ لفاجعتي مرجَ
الصقْرِ ، ويركضنَ خفيفاتٍ في أفنعةٍ من جلدٍ غزالٍ أو يُخْمَرُ ، يهمن :
تقدّم .

يا ابنَ غبارٍ يترككم فوقَ تجاويفِ الدرع ، تقدّم

يا ابنَ نساءٍ يرسمنَ فراشةَ حَظوتِهِنَّ على الأحشاءِ ، تقدّم

يا ابنَ صليلٍ وهتافٍ بين التعمى والتدي ، تقدّم

يا ابنَ القولِ الأكثرِ بما سيقالُ ، تقدّم
يا ابنَ الحقِ المسفوحِ ورائحةِ الخردلِ والسَّماقِ ، تقدّم
يا ابنَ حياةٍ تتجانسُ في ميزانِ الموتِ ، تقدّم
يا ابنَ نشيدٍ لا تنشدهُ المرأةُ إلا لَعقَابِ الفَحْلِ ، تقدّم
لنباهي بمكائلكَ الأعراسَ ، وهذا الذِّقِّ الخافتُ في مضجعنا
الوحشيِّ . ووحشياً ساداهمُ قلبَ الإنسانِ لاستبقيهِ مع الشَّرَفِ العارِمِ
للأدوارِ المحبوكَةِ بين دروعِ وعوايلِ . وسأستبقي الأدوارَ لأدوارِ غامضةٍ فوقِ
المسرحِ كي انتشلَ الأرضَ من القُدَّاسِ الرباني وأجعلها محضَ فروجٍ ، أو
أجعلها نسقاً من أرديةِ الحشَّاشينَ (وكلُّ رداءٍ عاصمةٌ) ، وسأستبقي التوبةَ
حين أتوبُ : «أتوبُ إلى الخوفِ ، أتوبُ إلى برقٍ يكشفني إذ لا كاشفٌ إلا
البرقُ . أتوبُ إلى العصرِ الحاملِ مثلي خوَذَتَهُ ومراياهُ . أتوبُ إلى المهزومِ إذا
شدَّ هزيمته مثل جوادٍ واجتاحَ هزائمنا . وأتوبُ إلى الحربِ ، أتوبُ إلى لغةٍ
كالهروبِ ، أتوبُ إلى التوبةِ حين أكونُ الأكثرَ فتكاً بين الأدوارِ» ..
عنيداً ساداهمُ قلبَ الإنسانِ ،

عنيداً

كالذَّوَرِ

الغامضِ

كي أستبقي القلبَ رهينَ مكانتهِ ومراثيهِ ، وكي أتواصلَ في الأدوارِ
لأضربُ ضَرْبَ بويهٍ هذي النعمةُ تحت جناحي .
وسأضربُ ضَرْبَ الخاذقِ كي أستوفي أثمةَ المحتاجِ لمحتاجِ
وسأستقدمُ ما يجعلني الأكثرَ نهباً في النهبِ ،
الأكثرَ فاجعةً ،
وسأقتادُ رياحي

نحو ذهولٍ مُنْذِلٍ فوقِ الأكتافِ . سامحو لاكونَ الأبعدَ حيثُ تكونُ

الريحُ هي الأبعدُ :

«كلُّ بعيدٍ سيكونُ الأثرُ الباقي للإنشادِ المرفوعِ إليَّ» .
أنا الإنشادُ ،

أنا الأدوارُ ومنْ يَخْتَلِقُ الأدوارَ ،

أنا المرفوعُ على هذيانِ الحاضرِ لا أخبركم إلاَّ الخيرَ الأبعدَ في الإنشادِ
المرفوعِ إليَّ ، وهذي مائدتي في ردهاتِ الحربِ . تعالوا لنجاهرَ بالفاكهةِ
الخلوةِ والختشارِ الخلوِ . تعالوا لنقودَ الأعراسِ وراءَ قناديسنا كالعرباتِ . تعالوا
يا أبناءَ نهارٍ يتراكم فوقِ الدرعِ ، فإني سأفاجئكم بالإنسانِ ، سأخذكم نحو
الشركِ العذبِ جسوراً كالليلِ ، جسوراً وإباحياً كالليلِ ، وحيث تكونُ
الجمهرةُ الأبهى ستكونونَ الجمهرةُ الأبهى ، لا واكبَ هذا الإنشادِ الوحشيُّ
إلى عتباتِ الروحِ جسوراً وإباحياً في نعمايَ ؛ أنا المرفوعُ على هذيانِ
الحاضرِ لا أخبركم إلاَّ الخيرَ الأبعدَ في الإنشادِ الوحشيِّ ، وقلبي في نَعْمَى
الحاضرِ قلبُ شهيدٍ ، فتعالوا يا أبناءَ دمٍ عذمي ، يا أبناءَ الياقوتِ تعالوا كي
أختارَ نشيدي .

كي أختارَ الصاريةَ الأعلى في مهزلةِ الإنشادِ ،

وأُفجِمَ في الحلباتِ شهودي .

هذي نَعْمَايَ ، تعالوا

هذا شركُ من نعمايَ ، وقد خبأتُ لكم فلزَ نحاسي وحديدي

وثرثيات من هذيانِ الفقراءِ . أنا الإنشادُ المركومُ على عتباتِ الفقراءِ ،

وقد خبأتُ لكم حجراً وعواصمَ . واستفحلتُ فتوديتُ تقدّمُ ، فتقدّمتُ

ككلداني جَهْمُ خلفِ قناعِ الله ، أشمُ الليلِ ، وأعرفُ أن لنسلي راحةً في

الليلِ ، وتهليلاً لا يسمعه المرنثي . ونوديتُ : تقدّمُ ، فتقدّمتُ كمجزرةٍ لا

تعرف كيف تفرّقُ بين بلادٍ وبلادٍ ، واستسلمتُ لنعمايَ . .

أنا المجزرةُ النورانيّةُ ،

والتوقيتُ النورانيُّ
وأنا الحيُّ وقد أشعلهُ الحيُّ
لا أملكُ إلاَّ الإنشادَ ، وأقطعُ قلبي
بلداً بلداً في الإنشادَ ، ويأسرني الأبدى
وأعودُ فأربط قلبي بلداً بلداً كحزين ، أو كجديرٍ بالحزن ، وأنظر خلفي
فأرى مدني وقرائي كحزمة قشٍ في عربات الأكراد ، وخلف العربات أرى
سهل «بريشا» والأغنام - الملكات على السهل ؛ أرى «شمدين» يجاهرُ في
نفر ضدَّ الأمر في الثكنات وضدَّ الدولة والميراث المزحوم يروث الحيوان .
أرى «شمدين» يغني أغنية الكردي ، ويرفع «موسيسانا» فوق يدين من
اللبلاب إلى آلات النساجين ؛ عنيداً يرفع «موسيسانا» بين عويل الدركِ
الأجلاف وذعر بنادقهم :

«شمدين» ، وأنت المَهملُ يا شمدين
تسحُ رصاصات تُقبلُ من عصر العربِ الإفرتسي ،
وسقطُ بغلِّك يا شمدين .
وتدور بعينيك الناعستين على شيء ما ،
وتقول : أنا بيتٌ ، والبابُ هو البابُ :
خشبٌ ، وتوارىخُ ينكرها الدركُ الأجلافُ ، وينكرها الأعرابُ .
وتقول : أنا شمدين ، أنا شمدين
لي أقتنعُ الدردارَ وأقتنعُ الزيتونَ
وأنا خبَرٌ يتسقطهُ البهلُولُ ، ويرويه المجنونُ .

وأرى «شمدين» على بغلته الشقراء يغني أغنية الكردي محاطاً بنساء
«بريشا» ، ونشاء «بريشا» يحزمنَ لشمدين جسارتهم مع البرسيم
الأخضر ،

أَوْ يَحْزَمْنَ الْعَصْرَ

مبتلاتٌ بحنيني وعنادي

مبتلاتٌ بأريجِ الشَّيْلَمِ والشَّوْفَانِ ،

وخمرٌ مُهْرَقَةٌ بينَ رمادي

ويقرَّبَنَ لشمدينَ جراراً طافحةً بالجهول ،

وينثرنَ لبغلتَه اللَّبَّانَ وأعوادَ المُرِّ

ويُتَمَتَمَنَ : «لِعَصْرِكَ يا شمدينُ سيبتديءُ العصرُ» .

وأرى «شمدين» : أرى خلفَ قوائمِ بغلته الشَّعْرَاءِ متاريساً وينادقُ

تعلو ، ولغاتٍ مستجعةً كصغارِ البُطِّ ، وحُلُمًا يتدحرجُ من أبوابِ

الشُّكُنَاتِ ، وفلاحينَ يجرُّونَ سلالاً مشقلةً بنجومٍ وأحذيةٍ ؛ وأراهنَ أنَّ

نشيداً كنشيدي يعلو خلفَ قوائمِ شمدين ، وأنَّ عويلاً كعويلي يعلو

وعوالمَ حيرى يستقرُّها الجدَلُ .

وأراهنَ أنَّ بويهياً سيقامرُ بالإنسانَ على مائدةِ الطبقاتِ

وأنَّ الإنسانَ سيبهِّرهُ الجَدُّ المبتذلُ .

لكنَّ ساكُونُ المجزرةِ الأكثرَ جذراً في الحلباتِ . سأدفعُ شمسي وبروقي

بعنادِ الحكمةِ نحوِ الحلباتِ وأغسلها بحنانِ المحرومِ من الجَدِّ الوحشيِّ :

أنا الوحشيُّ وقد أضغلهُ الوحشيُّ

لي أقنعتي ،

والمسرحُ هذا المذُّ الأبدِيُّ

من أبراجٍ وهياكلٍ

وسماءٍ تتهلَّجُ كالأصواتِ ، ويرفعها

فوقَ يدينِ من اللَّبْلَابِ إلى الأكبادِ مقاتلُ .

لي أقنعتي وجسوري

ومديحُ مثلِ جناحٍ ممتزجٍ بجناحِ البازيِّ أو العصفورِ

ومالك قلبي تتناثر في خطوات الإنسان؛ أنا الإنسان أفاجتكم بمديح
ليس مديحاً، وبهاوية كالحلم، لأغسلكم بعنان المحروم من الإنسان،
وأحزم قلبي لأغني خلف دروع مثقلة بينابيع الكبريت شمالاً: أحزم قلبي
وأغني ليناابيع الكبريت، للثلج تمتد من الهضبات شمالاً حتى «سنجارة»،
وأمشي في أسراب الحيوانات أليفاً تغمرني دعة الثلج الأبوّة، والأيام
تواكبن ككهول عرافين؛ وحيث تمر بي الأرض أقول: انتبهي يا أرض؛
وأهتف بالأعشاش: اقتسميني.

وأشدّ المعول من طيات ردائي،
وأهيل على الأكباد به دكاً دكاً
لا مأخوذاً بالفاجع، أو مرتبكاً.
وأعود فأقذف بالمعول نحو عويل المخلوقات،
وأمسح وجهي وعميوني

من تاريخ سيؤرخ للوحشي. أنا الوحشي، ولي أقنعة من سماء
السهل وأبهة الأعياد، وفي الحلبات الكبرى للروح أجيء ككلداني حذق
يتهادى في سربال من جلد فرائسه لأفاجتكم بأكيد من أخبار الإنسان،
وكالإنسان سأبتدع اللعبة، لا مأخوذاً أو مرتبكاً.

بل سأشدّ جيبني في الحلبات بطوق من مرجان وخزامى،
وسأحتاج مدارجها دكاً دكاً

وسيلزماني الأكثر رعباً لأقود حضور الحلبات إلى هاوية أخرى في
الروح، إلى أسلحة وعتاد حي، وموازين أزين بها الوحشي. أنا الوحشي،
ولكن تتجاذبني الأرض فأسقط في دائرة الإنسان، وكالإنسان أفاجتكم
بالأعياد الكبرى للروح، بالآلات تصقلها الشهوة، بالأراحام، بقلبي فوق
وشاح حجري. وأفاجتكم بهتاف لم أهتف لذاك الثلج الممتد من الهضبات
شمالاً حتى «سنجارة»؛ فهاتوا بكمائنكم، بالمجالات الخشبية للأقدار،

بحرب وأباريق من الفولاذ الحيّ لأقرب شمس هتافي بشموس مستعجلة :
نُخبَ لبونات يذرغن جنوني كالحكمة ، نخب حنين يتعالى كالوحشي .
أنا الوحشي - وروحي روح جياذ سُرخن - سأبكي للثلج الممتد من
الهضبات شمالاً حتى «سجّار» ، سأبكي لبلاد تندرج من «سجّار»
وأعرفها بلداً بلداً ، سأحيط بكلّ سياج كسياج ، وسأرفعكم بين يدين من
اللبلاب إلى الهضبات ندوراً ، وكروح سافاجتكم بالحبلى الكبرى للروح .
أنا الوحشي أفاجتكم في حلبات الروح بدرع من كُتان الماء ، وأصرخ :

يا «تلّ الزعتر»

يا إنشاداً يتعالى خلف غبار وحجر ،

الملح جمعاً يتقدّم منك ويلقي

تعب الإنسان كسنبلة فوق الإنشاد ،

والملح عاصمة تتشظى مثل مراياك . . وأكثر :

الملح طفلاً ، ومراويل ، وعسكر

ومدارات مقفلة للتاريخ المهذور كماء تحت نعال العسكر .

الملح ما يلمه المفجوع بأرضين . . انتظروا :

هذا إنشاد الوحشي ،

وفي الإنشاد ساحل في كُفين من الزعتر

حُلّمي ،

وهباتي ،

وسيتبعني المحرومون إلى الرّعد ، ويسبقني الحجر

لنجاهر بالميعاد الوحشي لأن غابوا

عن أبهة الانقراض ، ومن حضر .

وسنقتسم الله على صفين من الخוזات . . وأكثر :

سنباهي بالأحشاء الملتفة حول مواسير الوقت ، ستعدو

وسيعدو حولَ مصائرنا الشجرُ
خُلُواْ كدم ، وجريشاً كالأنقاضِ : «لماذا يتراءى الأفقُ من الأنقاضِ
إباحياً أكثرَ من شهوتنا للأفق؟» .
سأعدو - وأنا الوحشي العارمُ مثل خلافِ الأضدادِ - جريشاً في رعدِ
الفاجعة .. انتظروا .

هذا إنشادُ الحوذني ،
وهذا «تلُ الزعتر»
حجرٌ يتهاوى فوق نسيجِ السماءِ ،
ووقتٌ ينحلُّ على عتباتِ حجرٍ .

هذا إنشادُ الحوذني ،
وهذا «تلُ الزعتر»
لهبٌ وقناعٌ يفتسلانِ برائحةَ الخبزِ :
لنعمى الخبزِ ،
لنعمى حجرٍ في القلبِ ،
لنعمى حُلُمٍ كالخربةِ أعدو
فوقَ صفحِ الإنشادِ بأقدامٍ مثقلةٍ بينابيعِ السهلِ ، وأحضنِ «تلُ الزعتر»
بيتاً بيتاً ، وآلُمُ الأقمارَ المهْدورةَ بين التوتياءِ وبين الخشبِ المتكسّرِ
لأضيء كدرع ،
أولضيء الموتُ كدرع ،
أولنضيء - كلانا - الأرضَ على عتباتِ حجرٍ .

وبأقدامٍ مثقلةٍ ببروقِ الحلباتِ سأصعد هذا الدَّرَجَ الحجريُّ إلى مدنٍ
تتجانسُ كالأندامِ لأجرفُها فوق الدَّرَجِ الحجريِّ إلى مهزلةٍ ، وسأبتدىءُ

المهزلة الآن بإنشاد تتساوى فيه الحكمة والخودات؛ أنا ناديتُ، وكم ناديتُ: تعالي يا أسلحة أكثرَ حذبا من أسلحة، وتعالي يا ابنة حلم لم يحلمهُ شريدٌ، ليكون لهذا الإنشادِ صليلٌ فوق العتباتِ الحية .. كم ناديتُ: تعالي يا عتباتُ؛

وأغلقتُ ورائي الأرضَ على صخبٍ وصليلٍ؛ كم أشركتُ الليلَ معي في التهليلِ الهرطوقي، وأطلقتُ لبوناتِ القلبِ على مُنحدرٍ في «سنجار» وفي «سنجار» نزعْتُ عن الإنسانِ غلالتهُ القصديريةَ كي أمتزجَ المزجَ الحرُّ بأجرامٍ مسرعة تحت عباءاتِ الكونِ إلى ثورتها، وهتفتُ: «تعالي يا أسلحة أكثرَ حذبا من أسلحة،

لتهبني للميعاد مخادعها الدؤل
وسنأخذها أخذَ مُغيرٍ مبتهجين كما يبتهجُ الفحلُ ويشتملُ» .
وهتفتُ: «تعالي يا ابنة قلبي،
يا ابنة حلم لم أحلمهُ تعالي
غبراء من السهلِ يظللُك الحجلُ» .

يا ابنة حلم لم أحلمهُ تعالي
مُترقةً بخزامي السهلِ يظللُك الحجلُ
وخذي «ترشيش» قرنقلةً، وخذي
مثل «الدامور» قرنقلةً، ولتغتسلِ القبلُ
بشفاء مثل شفاه المحروم . تعالي
ولتنكسرِ الأذراعُ الحجريةُ
تحت خطيٍ مثقلة ببروقِ الحلباتِ ،
وتحت دروعٍ تتقاذفها الأبديةُ
وليبتهلِ السيلُ إلى السيلِ فياني

حرٌّ من لغتي .
 حرٌّ من أبراج تتعالى في الهاوية .
 حرٌّ من أيامي .
 حرٌّ من غضبي .
 حرٌّ من خودة كل دم .
 حرٌّ من تعبي .
 حرٌّ من حلفاء يقتسمون غباري .
 حرٌّ من أجراسي .
 حرٌّ من لهبي ونحاسي .
 حرٌّ من صلصال وغضار .
 حرٌّ من صرخات المهزومين ،
 وحرٌّ من أسلابي .
 حرٌّ من مائدتي ونداماي ،
 وحرٌّ من أنسابي .
 حرٌّ من عاصمتي ورياحي .
 حرٌّ من جوهرَي المكنون ،
 وحرٌّ من مرحي وجناحي .
 حرٌّ من أشكال تتجانس في الحرية .
 حرٌّ من أعضائي ورمالي .
 حرٌّ من رعد القتلى ،
 وحرٌّ من تأييد وزوال .
 حرٌّ من عبث الإنسان . . تعالى
 يا ابنة حلم لم أحلمه تعالى
 حاملة خوف الحلبات إلى الحلبات ، وشذي «تلّ الزعتر» كالمنديل

على حجر أعْبَرَ مثل بلادي ، واقتلعيني جذراً جذراً لا بارك هذا اليأس
 الطافح بالأشعة الأكثر لَجْماً للبحر ، وبالإشاد الوحشي لساعات
 السلب . ويا ابنة حلم لم أحلمه احتضني هذا المد العارم من هجرات
 وعويل ، واحتضيني بجماهير حاضنة لهب الخليات ، فقد هيأت الشهداء
 لجرح آخر ، واستعجلت طلائعهم فوق جُسُور الفوقس والنعناع المائي .
 وللشهداء تزينت بأقنعة السهل ، وأحضرت الأرض معي كدليل . .

محاكمة جانبية

أ/
 إن مروت الأرض ولم تلتفت
 إليك ، واستوحشك السُّبُلُ
 وغدت من ثورة
 مكتملاً كالبرق إذ يبتدي
 بخذه المقتل
 فما الذي تفعل؟

«لشهداء»

أنثر قلبي كفراشات ،
 وأقود إلى أعشاش الماء
 كيدي ،
 وعصافير دمشق ، وسمائي
 وأهرول بين الأعشاش لأمسك موجاً ،
 أو عاصمة ،

وأهرول بين الأعشاش لأمحو
 هذا الزبد العربي عن الأسماء .
 كل شهيد يتقدمني الآن ،
 وللشهداء

أنثر قلبي كفراشات
 وأقول : انكسري يا أعلام وغيبي
 يا قصبات النصر العربي المترع
 بالأظلاف وبالطَّيِّب
 ولينطلق الأمراء إلى نصر أكثر مهزلة ،

ب/

وإن أذاك الجبل
 في درع من أسلحتهم للجبل
 وفاجأتك الثورة الثانية
 وفاجأتك الدول
 بالطعنة الثانية
 إن صرت كالرفاقص مسترسلاً
 يجذبك «الأكيدة»
 إذ يجذبك «المختل»
 واكتنل المغضل
 فما الذي تفعل؟

ولينطلق السُّفهاءُ . . سأعلو
نَزَقًا كَالغَزْوِ عَلَى وَاجِهَةِ الصَّحْرَاءِ .

كلُّ شهيدٍ يتقدَّمُني الآنُ ،
وللشهداءِ
أنثر قلبي كَفَرِاشَاتِ وَزَيْبٍ ،
وأقول : تعالوا ،

هذي أعلامٌ تخرجُ من مَقَتَلنا
بيضاءَ ، وهذي عاصمةٌ تخرجُ من مَقَتَلنا
والأيامُ تحاذي هاويتي وعرائي
وأنا أَسْكُهَا وَأَهْرُولُ

بين القلبِ المنشورِ وبين الشهداءِ .
يا ابنة قلبي ،
يا حاملةً هذا الدرعَ الوحشيَّ إلى الحلباتِ
تعالِي ،

وتعالِي يا فتياتِ الظلمةِ محتشماتِ برداءِ الخُلجانِ ، وموْتُزراتِ
بالهولِ ، فهذا شَمَدِينٌ يَهْدُ ثَانِيَةً لِلْأَجْرَامِ مَوَاسِمَهَا ، وَيَمِيلُ عَلَى الْعَشْبِ
كَمَنْ يَسْمَعُ تَهْلِيلَ الْحَجَرِ الْغَارِقِ فِي الْعَشْبِ ، وَيَخْطُو - وَالْأَيَّامُ وَرَاءَ قَوَائِمِ
بَغْلَتِهِ الشَّقْرَاءِ تَقُومُ وَتَخْطُو - نَحْوَ جَحِيمِ الْإِنْشَادِ . وَفِي لَحْظَاتِ خَالِصَةٍ مِنْ
لَحْظَاتِ الْكَيْدِ يَجْسُ مِنْجَلُهُ الْقَوْسَ الْغَامِضَ مِنْ أَقْوَامِ الْإِنْسَانِ ، وَيَهْوِي
بِيَدٍ مَسْكَةٍ بِالنَّجْلِ فَوْقَ الْقَوْسِ فَمَتْلَى الْحَلْبَاتِ بِأَسْلُحَةٍ وَيَوَاقِيتِ وَجُلُودِ :
هذا شَمَدِينٌ ،

وهذا إِنْشَادُ الصَّلَاصَالِ الْحَيِّ لَشَمَدِينِ ،

ج/
ها أنتِ مستفحلٌ ،
مُحْتَمٌ ، وَخَطُوكَ الْجَوْهَرُ .
ها أنتِ كي لا ترى
انقاصهم ، تحضنُ انقاصهم
وينفضُ الدُّهْشَةُ عَنْكَ
العدمُ السَّاحِرُ .

وهذي بغلتهُ الشقراءُ تجاورُ نبعَ الإنسانِ وتُقفلُ راجعةً : «يا شمدينُ
يا أدراجاً عاليةً ،
تصلُ الطعنةَ بالطعنةَ ،
والأقمارَ بأقمارِ الطينِ
ماذا أخبرتِ الخابورُ؟
وماذا ألقيتَ إلى بردى
من أخبارِ يبعثها الفقراءُ إلى الفقراءُ؟
ماذا ستقولُ؟ أكانَ الماءُ
شبحاً من أشباحِ الشُّحاذينَ ، وكنتَ يدا
تحمِلُ خبزاً وجوازاتٍ للسُّفرِ الميمونُ؟

يا أدراجاً عاليةً يا شمدينُ
أعرفُ أنك تشهدُ ،
أنَّ الأرضَ مهرولةٌ تحتِ جناحي وجناحِ الجليلِ المطعونُ .

هذا شمدينُ ،

وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدينَ . . تعالى
يا فتياتِ الظلمةِ محتشماتِ برداءِ الشُّبَعِ ، ومُؤنِّزاتِ بالبحرِ ، فهذا شمدينُ
يجاهرُ ثانيةً ضدَّ الأمرِ في الثُّكناتِ ، ويتكرَّرُ الريحَ وأقواساً للريحِ مزركشةً مثلِ
الثوبِ التركيِّ ، ويُحني قامةَ الفرعاءِ لسنبلةٍ أو لقطاةٍ عابرةٍ : «يا شمدينُ .
ها أنتِ محاطٌ بنساءٍ «بريقا» يا شمدينُ ،

ونساءٍ «بريقا» مؤنِّزاتِ بجلودِ الماعزِ والمجهولِ يخيِّطنَ بلاداً ثانيةً بين
يديك ، ويرفعن رداءَ البحرِ إلى منكبكِ الأعلى بين مناكبنا ، أو يجعلنَ
الليلَ عناقيداً تتدلى من داليةٍ تحتِ الثديينِ ، ويهتفنَ : نساءُ نحنُ ، نساءُ يا

شمدين، وللعنات المغسولة بين ذراعيك سنبداً هذا العرس المغسول
بعافية الأنثى يا شمدين .

ها أنت محاط بنساء الأردن، وتبكي يا شمدين
ونساء الأردن يقطعن النهر كأرغفة الخبز، ويرفعن قناعاً من بوتاس
ومياه بين يديك، ويستذركن فيمسحن جفونك بالزيتون .
ها أنت محاط بالأقنعة الكبرى لفراغة
يقتلعون الأهرام وينتحرون .

ها أنت تهبي ثمانية للموت خلاخيل الحلبات، وتدنو
من مبتدأ يتوارثه الفقراء، ويرفعه
نحو يديك العيارون .

هذا شمدين،

وهذا إنشاد الصلصال الحي لشمدين . . تعالى

يا ابنة حلم لم أحلمه تعالى

فأنا الأبوي، وقد أرخيتُ جبيني فوق جهات الإنسان، ومثُ
فأحييت الموت . أنا الأبوي وبدني أحصنة، وعذباتي تتناسخ في أشكال
مُترفة؛ وأنا المُترَف ألقى بين يدي الإنسان مباحٍ لعبته الكبرى، وأقولُ:
تعالى يا ابنة حلم لم أحلمه فقد صعدت هذي الأدراج البحرية أرض
وعذاري مستلمة للعتبات الرطبة والفولاذ المسفوح على عتبات الشهداء؛
ومن أدراج البحر صعدنا مؤثرين بأحجار ساهرة، وبلبنان الصلصالي،
وكالمعاد الخلو غمرنا بعباءات الأحشاء مذار الأسلحة الكبرى للروح،
وقلنا: «لا فاجعة اليوم، بل الأكثرُ غمراً من عافية»؛ وسفحنا العافية
الأكثرُ غمراً من عافية فوق الأدراج، وفوق العتبات الحية للأيام الكبرى
كالروح . وها نحن الآن أمام نسيج غض للأعماق، وعالية كاللبلاب

مجالسنا بين البحر وبين سجاج الأقدار ؛ ولإنسان العارم كالصرخة تنزع
عن جبهتنا هذا الطوق المائي ونركض في أقنعة الحوذيين إلى لهب
سنصالحه الآن . الآن تعالي يا ابنة حلم لم أحلمه ، فقد أرخيت جيبني
فوق عويل الأسواق الممتدة من أبواب «كليمنصو» حتى «فتال» ، ومن
«فتال» إلى «الميناء» حملت إلى «شيبوب» الكردي بلاداً ثانية :

«يا شيبوب

أذكر كيف جلستُ إلى جانبنا يا شيبوب
ووضعت الصحن على حجرك يا شيبوب
وتناولت قليلاً من ذاك الرزّ الساخن .
كنا نتحدث عنك ، وعن متراسك يا شيبوب
بين عواء القناصين ،

وبين صحن الرزّ الساخن والأنقاض .
وإذا التفت الواحد منا صوبك يا شيبوب
كنت تميل بعينيك كطفل خجلان . .
وماذا أيضاً يا شيبوب؟

قيل ركضت إلى صاحبك المجروح وفاجأك القناص
برصاصات خرقت قنبلة
كنت تعلقها تحت حزامك يا شيبوب
قيل تناثرت تماماً . .
وتناثرت تماماً يا شيبوب» .

فليتجهل هذا الجمع الصاعد من أدراج البحر لأحمل بين يدي بلاداً
ثانية من «فتال» إلى «الميناء» ، لأجعل ملكي نهباً للإنسان العارم
كالتهليل البحري ، وكالإنشاد المرفوع إلى العتبات الكبرى . .

فليتَمَهَّلْ قلبي يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمهُ ، فإنني مكتسحٌ هذي العتبات
 بشيرانٍ وعصافيرٍ ومفاتيحٍ مزركشةٍ بالأكباد ، وكالميعادِ الحلوِ سألِيسُ ثوبَ
 الأسلحةِ الأكثرِ غمراً من عافية ، وسأنتظرُ الخوذياتِ يَجُثْنَ على مركبةٍ من
 أحناشِ الزَّيْدِ البحريِّ ، وقد غَطَّيْنَ سماءَ الإنسانِ بأشرعةٍ وملاءاتٍ
 كالصلصالِ ، ويهتفنَ : «تقدَّمْ يا ابنَ نَشِيدٍ لا تنشدهُ المرأةُ إلا لَعُقَابِ
 الفحلِ ، فنحنُ الخوذياتُ صعدنا درجَ البحرِ إلى موجتكِ المرفوعةِ بين دروعِ
 النسَّاجينَ ! صعدنا مبتهجاتِ برنينِ جناحيكِ ، وتهليلِ المعدنِ في أقواسِ
 حروبٍ لا تملكها الآنَ . ونحنُ الخوذياتُ سندعوكِ إلى زبدٍ ، وخيامٍ بين
 الزَّيْدِ البحريِّ لثملي تعبَ الإنسانِ على الحجرِ المغسولِ بعافيةِ الحربِ ،
 وكالحربِ سنمسحُ عن عينيكِ بروقاً مَيِّتَةً ، وسنأتيكِ على عِرْزالِ البحرِ
 بصقْرِ مياهجنا ، وبخرنوبِ القولِ » . تمهَّلْ يا قلبُ تمهَّلْ .

كلُّ شهيدٍ يتقدَّمُني الآنَ ، وقلبي
 عنبٌ يتدلى كثرِيَّاتِ البلُّورِ ، ورمَّانُ
 وأنا الدرعُ المغسولُ ، وأعضائي
 مخضٌ حروبٍ مُتَرْقَّةٍ ، والجيرانُ
 صُدْفُ ورياحٌ . . فتمهَّلْ
 يا رقاصَ القلبِ تمهَّلْ ، ولتلتحمِ الطُّرُقُ
 أنْ يذرحَ هذا الربُّ كواكبَهُ
 من «سِنجَارِهِ» إلى «تلِ الزعرَةِ» جَهْمًا
 في أفتنةِ الخلاجينَ ، ويحترقُ :
 ولتنتحدرِ الأرضُ قليلاً صوبَ يدي لينحدرَ الإنسانُ
 من وحشتهِ ومكائدهِ الأكثرِ نُهْبًا ، فأنا الحَذَقُ
 صلبًا ساداهمُ ما يرفعهُ الإنسانُ على أدراجِ مكائدهِ ،
 وسأقتلعُ العتباتِ ، ونفتقُ :

«كلٌ سيضيءُ هزائمهُ في الإنشادِ ،
وللإنشادِ الأبعدِ في ميعادِ هزائهم سيهتفي البركانُ
بخلأخيل ، وقلادات .. للإنشادِ سيُنشدني لهبٌ ،
وسيُنشدني الحجرُ المُتَرَفُّ والبركانُ » .
فلتنحدر الأرضُ قليلاً لأداهم هذا المجهولُ وأسلحتي البانُ
وفراشاتٌ من صَحْبِ الأنقاضِ .. تمهلُ
يا رُقاصَ القلبِ ، فهاهم يأتونُ ووجهتهمُ
هذي الأعشاشُ المرفوعةُ مثلي
فوق يدينِ من اللَّبابِ إلى تهليلِ الإنسانِ .. تمهلُ
ها هم يأتونُ وَمَقْتَلُكَ الرُّبانُ
ومالكُ العذراءِ تميلُ كبوصلةٍ نحو جهاتٍ أخرى ،
وتميلُ كبوصلةٍ : «لم يُلجئكَ دُمٌ ، فخرجتُ ، ولم يُلجئكَ مكانٌ » .

لا تتمهلُ يا قلبُ ، فقد أصغيتُ - ومثلي
يُصغي أحياناً - لعذاباتِ الموج ، وهرولتِ الأحزانُ
مثل فِراخِ الجُهلُولِ إلى أعشاشٍ أرفعها ،
وتوارى أرفعها كالأعشاشِ إلى مهزلةِ الإنشادِ .
لا تتمهلُ يا قلبُ ، فقد أحضرتُ عتادي
والأقنعةَ الكبرى للحلباتِ ..
أنا الحلباتُ ودعُ حروبٍ مُتَرَفَّةٍ ، والجيرانُ
صَدَفٌ ورياحٌ ؛ فليتقدّم من ميعادي الشهداءُ فقلبي
عنبٌ يتدلّى كثرَيَّاتِ البلُورِ ، ورمَانُ .

١- السيدة

صعدت مدارجها النباتاتُ الخجولةُ، وانحنى
غصنٌ لغصنٍ متعبٍ، والعاشقاتُ
من هنا يصعدن مدرجهنَّ، والأرضُ التي
جاءت بأقدارٍ من الأجرُ تصعدُ مدرجاً،
جاءت لتردها الحياةُ .

من هنا صعدت مدارجها الغيومُ، ومن هنا
صعدت مدارجها الدروعُ، وأقبلتُ
خوذةً يدرجها الحفاةُ :

هكذا هيأتُ مسرحيَ : انهضي يا أبجدياتُ، انهضي، أو هيئي
للشعب عمر فراشةٍ يا ربيعُ، يا غيبوبةٍ حفلتُ بكل مهذّمٍ من مجده ..
ها إنني هيأتُ موتاً ضارعاً، هيأتُ عرسَ معادنٍ للشعبِ، ثم
صرختُ : ما للأمهاتِ جثمنَ حول الشعبِ يربطن الكواكبَ بالغصونِ؟
إنني أثرتُ أن أستجمع الموتَ الذي أحياه في أيامه ،
وخلعتُ في أيامه مُلكي، وجئتُ من الحنين .
خلفي اجتياحَ عائقٍ بالغامضينَ، فإن رفعتُ إلى حياةٍ هرجها اندلعتُ
حياةً خلصةً كمهرجٍ تحت الخواصرِ والبطونِ .
والمحتكمُ،
ولمحتُ كيف بلادنا وقفتُ وراءَ شباكها ،

وهوت على سور الحصون
غيمة . وهذات مشدوهاً بطعنٍ عناصرٍ مشدوهة ، وصرختُ : سربُ ،
وانعكاساتٍ لصخر تحت أعمدتي ، وبني شعبُ يسوقُ عراءَ ؛ هيا امنحوني
ظلمةً مفسولةً في ظلٍ مدرجكم .. أقولُ : قبائلُ قلبي أقولُ : غدُ
يضيقُ على الجنون .

ودمي رنينُ ممالكٍ مذهولة تعلو ، ويعلو بينها
هَرَجٌ لاندلسٍ تفوحُ من الرُّنينِ .

وأقولُ : يا أمراءَ هذا السُّنْدُسِ البالي انهضوا ؛ سترونتني في ردهة ما
بين قرطبة وقافلةٍ بأحر مصرَ ، ثم ترونَ هذا الأطلس الباقي يهزُّ هريزاً أنشَى
الكلبُ :

«يا للسيدة

أخفتُ سراويلَ ابنتيها ، ثم ألوتُ عنقها لغلामها :

قُبُلُ قُبُلٍ جلوسهم للمائدة

قُبُلُ بُعَيْدٍ جلوسهم للمائدة

والسائسُ المحزون في إسطبله

حَذَرًا يَفْكُ لجامَ بغليهِ السماويين في أدبٍ جليلٍ تارةً ،

أو يشتمُ البغليين مُرَبِّدًا ويلغي القاعدة :

سرجٌ لهذي السيدة

سرجٌ لكلبِ السيدة

سرجٌ لزوجِ السيدة

سرجٌ لأمّتها ، وخادمها ، وسرجٌ

للسماوات التي هبطتُ كديكٍ وسطَ صحنِ المائدة

سرجٌ لطيرِ السيدة

سرجٌ لحقل زهورها .
سرجٌ لألّهة تخطيطُ القاعدة»
وأنا أدور كَهدهد لا يهتدي للماء ، بل لجفافِ بلدانٍ مغيرةٍ كسرب
الماعز : «الكلبُ الذي أَسرجتُهُ ، والسيدةُ
في غرفةٍ موصودة ، والزوجُ خلفَ المائدةِ
يهوي بقبضته على رَحْلِ ،
وينهضُ حاملاً أيامَهُ المستنفذة» .

قولوا للشعب تحت أعمدتي : اغسلوه ،
واربطوا أيامَهُ كالجليلِ حولَ الأعمدة .
قولوا : اقتلوه تحت قوسِ الأعمدةِ
وتقاسموا رثيته كي تتنفسَ الأمُ الحبيسةُ فيه . إنَّ تخومه مشغولة ،
وهو احتمالٌ : ربّما
أغواه نقشٌ فوق بواباتِ سيناءَ الفريسة ، ربّما
تاريخُهُ المنسابُ فوق الأعمدة .

قولوا للشعب تحت أعمدتي : اقتلوه تحت قوسِ الأعمدة .
قولوا لهذي النسوة المستعجلات : اجمعتهُ جمعُ الدّوابِ ، وانحدرنَ
به مدارجكن نحو القاسمِ الحجريِّ للشعب ؛ انحدرنَ إليه ، واستغفرتهُ
بزرّجدِ الظلمات :
«يا للسيدةُ

ترنو إلى ابنتها ، ومجزمٌ أنها مأخوذةٌ بجراحنا ،
وتميلُ في غضبٍ لتدفعَ كأسها متعمدةُ
فيضيقُ سطحُ المائدة» .

ويضيق قلبي مثل فوهةٍ فتسقطُ منه أعشاشٌ وطيرٌ ميّتٌ ويفيضُ حول
الفوهةِ

ذوّبُ من الفولاذِ ممزوجٍ بطينِ الآلهةِ
وبردُني أصلُ تنبّاتِ الحياةِ به :
شمساً مقسّعةً ، وأجراساً تدلّتْ تحت زهرِ الفاكهةِ .

قلبي السبائكُ ، من ترى يفتالني فَرِحاً بنصلٍ حاذقٍ يهوي به في
شَحْمَةِ الكُظُرَانِ؟ يا للقلبِ ، يا لسبائكِ في القلبِ ، يا لحراثةٍ ثيرانها في
القلبِ ترتطمُ العشيّةُ بالغُضارِ الحيّ والمدنِ . احمِلوا أَقْفاصَكُمْ وسروجَ آباءِ
يبارك موتهم ما تيدعون الآن من موت ؛ سأنتظرُ الحياةَ ، وربما أستعجلُ
الصُدْفَ اعترافاً بانشقاقِ جارفِ تعدو الحياةُ إليه . لكنني انتمرتُ بغامضِ
ملائنَ ، وانتمرتُ بنخلي كوكباتِ النخلِ ، وانشقّتْ جواهرُكم عن المرومِ
من خَرَفٍ وأصدافٍ : ألا انتظروا .

ستعرفُ موجةً موجاً ، وتعرفُ صارياتٍ
أنها مأخوذةٌ بفراغِ هذا البحرِ ، والحجرِ
سيغفو في فراغِ عادِلٍ ، وتضيءُ مأتمها
فراشاتٌ ، وينخلعُ جذرُه الشجرُ .

عودي إذن يا ساحراتُ ، ويا حروبَ الباطنِ : الأرضُ التي وقفتُ هناك
ولم تقفُ ،

خرجتُ إلى ميثاقها تعدو ، ويسبقها المدى والأدْمى .
وأنا أردُ عمالكي للكهفِ ، ثم أحيطها بغياهبِ ،
وأشقُ بين غياهي مجرىً لأجرٍ يسيلُ به الدويُّ .
وأقومُ معتكزاً حصارِي ، عارفاً

أني حصيلة غامض حملت لها الأعشاشُ ذعرَ طيورها ،
وأنت تحفُّ بها الحناجرُ ؛ عارفاً أنني الوريثُ الأدميُّ
للبحرِ ، أو لخلاتقِ تبكي ، ويحضنها غبارُ ساحرٍ ،
غَضٌّ ،
وَحْيٌ .

علّمتني يا شعبُ كيف أقودُ سربَ جنادبٍ في القلبِ ، كيف أقودُ هذا
القلبَ مثل نعامة ، وأموهُ الأثرَ الذي رسمتهُ أحزانُ الفرائسِ في حدودِ
القلبِ وهي تملُّ هاتفةً بكلِّ غزالةٍ للرعدِ : « قفزاً يا غزالَ الرعدِ ، ذا شَرَكُ
سماويٍّ ، وتلك مكيدةٌ للأرضِ » (هل علّمتني يا شعبُ أن فؤادي المذعورُ
غزلانٌ وصيادون) يا أرضُ انهضي . .

يا حفرةُ تمشي وثيداً مثل بغلٍ الأبديات ، انهضي . . .
إنني استجمعتُ أكباداً ، وقاسمني الحطامُ
مخدّعا ، وعرائساً حملتُ لها الأحزابُ رملَ دروعها ،
واستجمعتُ أكبادها كالعقد ؛

يا لعذوبة كالعقد ،
يا للشعبِ ما استجمعتُهُ نجماً فنجماً
خلفَ هذا الفاصلِ العدميِّ إلا شدّني موتٌ ، وعاودني الهيامُ :
« يا صباحَ الشعبِ ، يا امرأةً يقاسمُها الحطامُ
مخدّعي ، وأرى يديها
نيزكاً لطفولة ،

وأرى الطفولةَ هدهداً وقرى تنامُ
وهي تلتقطُ الحَبَّاحِبَ والسنينَ ؛ أرى الطفولةَ بيدراً
تخفيه سنبلةً ، ويسرقه الحمامُ .

وأنا وسنبلةُ تقوّدُ سماءنا مثل الثعالبِ نحو كَرَمِ الأجدديات : انتظر يا
شعبُ كيف غمرَ مصرُ غداً ، ونسهو عن جنازاتِ هنا ، ويقوّدُ مائتنا الكلامُ .

٢- السيد

لم أقلُ : موجي نبيّ ،
لم أقلُ : أحشائي التفتُ على وردٍ ،
وشقُ غشاءها البحريُّ وزدُ .
لم أقلُ : هذا غطائي
شفُ عن ثدي تناوبَ طعنه حرٌّ وبردُ .
لم أقلُ كيف التقيتُ الشعبَ مرفوعاً على هذيانِ سنبلة تقوّدُ سماءها
مثلي ، وكيف خلعتُ عن صدري دروعاً غضةً ، وركضتُ : «نصفي
صاعقُ ، نصفي من الأجر» واستحلفتُ كلَّ خليةٍ أن ترتدي أرضاً
لتهتفَ : من هنا يا شعبُ ،
من بهو يحاذي سقفةَ الدمويِّ رعدُ .
ولتكن أحزاننا زمراً من الفلزِّ الإلهي الذي يُحصى ولا يحصىه عدُّ .

إنني الطبقاتُ ترفعُ ختمها وتبيدُها
نخبُ اندلاعٍ ؛ إنني الطبقاتُ تحضنُ خوذةً أخرى ،
وروحي ماعزٌ ، ويداي وعدُّ .
من هنا يا شعبُ ،
من بهو يداعب سقفةَ الدمويِّ رعدُ .

من هنا : يا لاحتفالي ،
يا احتفالَ الشَّيبِ والباقوتِ ، يا لمدينةٍ

تعدو كثورٍ نحو ينبوعِ الخرافيينَ . يا لكواكبٍ مغسولةٍ

بعويلٍ عرافاتها . يا لاحتفالي :

ساهرٌ هذا الغبارُ الغَضُّ مثلُ أياثلٍ جفَلتُ ،

وقلبي الفاجعيُّ

خوذةٌ ومهْرُجونَ . . تعالَ يا شعبي ، تعالَ ، أنا الوريثُ الأدميُّ

لفرائسِ كَمَنْتَ لها أجناسُها ،

ومشى إلى ميعادِها مَيّتٌ وحيُّ .

أب - ١٩٧٥

الجمهرات

(في شؤون الدم المهرَج والأعمدة وهبوب الصلصال)

مَنْ قَالَ إِنَّ الْعَائِدِينَ إِلَيَّ لَمْ يَصْلُوا إِلَيَّ ، وَأَنَا
 لَمْ تُشْعِلِ النَّهْبَ الْجَدِيدَ مُبَارَكاً وَسَطَ الصَّلِيلِ وَسَطَ أَقْنَعَةِ الْمَسَاءِ
 أَنَا الْمَسَاءُ
 أَنَا الْمَسَاءُ

هَذَا خَطَايَ عَلَى مَدَى بَهْرِ مِنَ الصَّلَاحِ يَدْخُلُ كُلُّ مِيعَادٍ إِلَيْهِ
 مُضَرَّجاً بِعَوِيلِهِ ، وَأَنَا الْمَسَاءُ

مَنْ قَالَ مَا عَادَتْ جِيَادِي كَالْجِيَادِ ؟
 مَنْ قَالَ كَانَتْ طَعْنَةً وَأَفْقَتْ إِذْ هَتَفَتْ وَصَيْفَاتُ الرَّمَادِ
 فَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَائِدِينَ إِلَيَّ لَمْ يَصْلُوا إِلَيَّ ، وَأَنْنِي
 جَذْلَانُ ؟ ... فَلَيْذُنُ الْهَبَاءِ مَزِيناً بِأَزَاهِرِ الْيَقْطِينِ ، وَلَتَعْمَلِ الْجُسُورُ .
 نَحْوِي كَأَنَّنِي وَلَيْكُنْ نَهْبٌ أَخِيرُ .
 وَلَيْكُنْ ... سَتَرُونَ مَا رَأَتْ التَّخُومُ : خَطَى تَمَرٌ ، وَبَعْدَهَا يَرْفُو التَّرَابُ
 كُلُّ مَلْحَمَةٍ بِخَيْطِ أَغْبَرٍ ؛ وَتَرُونَ إِذْ يَأْتِي الْخَرَابُ
 أَنْ تَحْتَ دُرُوعِهِ دَرْعاً مِنَ الرِّيشِ . ابْتِهَالٌ فَلَيْكُنْ ،
 فَأَنَا الْمَسَاءُ

أَنَا الْمَسَاءُ
 أَطَبَقْتُ أَهْدَابِي عَلَى حُلْمٍ ،
 وَسَرَّحْتُ الْعَذُوبَةَ وَالرَّمَادَ
 وَفَتَحْتُ أَهْدَابِي عَلَى حُلْمٍ ،

وها كَفَايَ تَلْتَقِطَانِ مِنْ شَرِّرِ الْهَبَاءِ
 شَرّاً ، وَتُطَبِّقُ بِالْدمَاءِ عَلَى الدَّمَاءِ .
 وَأَحِيطُ بِالْأَنْفَاسِ هَذَا الْحَيِّ - وَسَطَ نَشِيجِهِ وَمَدِيحِهِ -
 وَأَقُولُ : «هَا أَبَوَاتُنَا ، خُذْهَا إِذْنُ
 وَلِيَسْتَدِيَءَ نَهَبٌ ، وَكُنْ عِنْدَ النَّفِيرِ
 يَقْظَانُ تَشْرَبُ مِنْ يَدَيْكَ
 هَذِي الْيَتَابِيعُ الْغَرِيبَةُ . خُذْ إِذْنُ أَبَوَاتُنَا ،
 وَافْرِدْ رِيَاخَكَ فِي مَهَبِّ دَمٍ ، وَمُرَّ مَعَ الصَّغِيرِ
 كَأَشَدِّ مَا تَطْوِي الرَّمَالَ لِقَائِكَ نَحْوَ الْغَدِيرِ
 وَانْهَضْ قَلِيلاً ، نَظَرًا مِنْ أُمْسِكَ - الصِّلَصَالِ صَوْبَ غَدِيرِ تَرِ الدِّمِّ (إِنَّهُ
 دَمُكَ - الْمَدَاخِلُ) ... إِنَّهُ
 جَهْمًا يَلُوحُ بِالْقَنَاعِ ، وَإِنَّهُ - قُرْبَ الْجَذْوِرِ ، وَقُرْبَ فَهْقَهَةِ الْبَرَاعِمِ
 يَسْتَدِيرُ إِلَيَّ مُصْطَدِمًا بِأَجْرَاسِ السُّدُجِ .

أنا المساء

أنا المساء

مِلْثِي رَنِينَ مُصَاتِرٍ تَتَفَتَّحُ الْأَنْقَاضُ تَحْتَ هَبُوبِهَا :
 وَمَعِيَ هَبُوبُ الْكَائِنِ الْمَهْدُورِ فِي أَعْرَاسِهِ ،
 فَلِمَ الَّذِينَ أَتَوْا أَتَوْا هَلْعَيْنَ مِنْ صَنْحِبِ الْمَكَانِ؟ أَنَا يَقِينًا قَادِمٌ مِنْ جَوْهَرِ
 حَيٍّ إِلَى حَيٍّ يُرِيقُ صَلِيلَ حَاضِرِهِ ، وَمِلءُ مَرَكَبِي مُدُنٌ ، أَقُولُ : تَقْدُمِي يَا
 أَبْجَدِيَّةُ ، وَانْحَدِرِي يَا صَقَرُ هَذَا الْمَأْتَمِ . انْحَدِرِي ، انْحَدِرِي يَا أَفْخَوَانُ ، لَأَسْتَرْحَنَ مَعَ
 الْحَدِيدِ مَزَاحِمًا هَذِي الرِّثَائِ .

أنا المساء

أنا المساء .

هل ترجعون إليّ إذ زيد يطوف
دافعاً بتيوسه البيضاء صوب دم يحار : «أتذكرون
مآلت على صنيّن بارقة من القصدير فالتأمت مواجهه، فأجفل
قاسيون

حرّان محتضناً قناع أنينه ،
وأساور الحجر القليل ، أتذكرون
كان المساء مكروراً كئيد ، وكان دم - وصيف
قادمًا في هيئة الحجر؟ انتظر ،
قلنا انتظر يا قاسيون
كم أنت من حجر ، وكم هذا الحجر
متهدّل . قلنا : اصعدي يتها الطيوف
من خراب رافل في إزته ، واسبقننا يتها اللواتي ضفن بين خناجر
النسرين يسبقهن في دمنا الخفيف .
فإذا التقينا كن تحت عرائش البازلت والحمى الحرون
أوقذن للنهب المساء . سترجعون
متأبطين طفولة اللهب . انثروني
فوق صرختكم أكن وقتاً لوقت مترف ، فانا المساء
أنا المساء

ضيّعت بين رثائكم رثتي فما تنفسون سوى رنين مُثقل بالطيش ؛
لا ، لا كئيل دماء كم بدم شريد ، طاعناً بالأقحوان منابع الأشكال حيث
حضوركم جرس ، وهذا الجوهر الخطاب مُتكى على فأس الهباء الباسل .
التقطوا الرنين ، أنا المساء
أنا المساء

حين تَوَجَّ الرماذُ الرماذَ ،
 وألقت الميأهُ بأقفاها في الميأه ؛
 حين سَفَحَت المناجلُ مدانَحَها للصِّلصالِ ،
 وتَدَلَّتْ صواعقُ النُّيلُوفِرِ من السَّيَّاجاتِ ؛
 حين مَحَتِ الاختامُ الاختامَ ،
 وتَقَطَّعَ عقدُ الأشكالِ ؛
 حين انْبَجَسَ الغامضُ في الدَّمِ ،
 ودخلَ الغبارُ المهرُجُ يَهُوُ المساءِ ؛
 حين انْحَسَرَ السُّدِيمُ عن السُّدِيمِ ،
 وهَذَاتِ الأَنوالُ الأَجريَّةُ ؛
 حين تَشَبَّهَتِ الجهاتُ بقناعِ البراعمِ ،
 وحشدَ الرنينُ أبواقَهُ بين الأبواقِ ؛
 حين صعدتِ الصُّرُخَةُ سَلالِمَ النِّباتِ ،
 وكسرتِ النِّباتُ أباريقَ الجذورِ فاندَلَقَتِ الأعماقُ والمدانِحُ ؛
 حين غَطَّى الحاضرُ المَلُولُ قَناعَهُ بوميضِ الخواتِمِ والفَهْقَةِ ،
 وحين جاءتِ الصَّارَةُ : نَصَفُها حُلُمُ الميأه ، ونَصَفُها حُلُمُ اليابسةِ ؛
 حين ضَمَّ المرثيُ فوانيسَه الضَّائِعةَ ، وسرَّخَ الصِّباحاتِ ؛
 حين تَفَتَّحَ العَرَّاءُ عن الخِطى التي لا تصل ؛
 وحين قَرَعَ البعيدُ صَنُوجَ البعيد ...
 أنشد ،

لم يَكُنْ يَبنِي وبين الكائنِ غيرُ فرسخٍ واحدٍ من اللُّهاثِ والصِّلِيلِ ،
 قلتُ : لا ، لن يصلَ الكائنُ إلى الكائنِ إلَّا نَهَباً . وَخَزَمَتُ الجهاتُ ، رافعاً
 للرَّحيلِ مراسي البطشِ والجدالِ ، كأني سَأَفْتَحُ لِلخاتمةِ مداخِلَ العذوبةِ ،
 وللمكانِ متاهَ المكانِ . غيرَ أنَّ الكواكبَ أتتْ - قبلَ هذا - وأنى الغامضون

شاهرينَ على الجمهراتِ خناجرِ الصباحِ الشريدِ . . . وقلتُ : لا ، لا كَشِفْنَ - قبل هذا - غطاءَ الجذور ، وَلَيَكْشِفَنَّ عَنِّي الدَّمُ غطاءَ الجذور ، كَأَنِّي سأفتحُ للخاتمةِ مداخلَ البهاءِ ، وللمكانِ جدالَ المكانِ . . لا ، قلتُ لا يصلُ الكائنُ إلى الكائنِ إلا تَهْباً ، وهذا حضوري أكثرُ ارتطاماً من الصباحِ الشريدِ بالأدوار :

فَلْيَكُنِ التَّهْبُ إِذَنْ ،

فَلْيَكُنِ التَّهْبُ

وَلْيَشِيعِ الصَّلِيلُ خَطَى الأدمي ؛ فما مِنْ حَزَبَةٍ إِلَّا وَتَرْتَفِعُ الآنَ وَسَطُ الأقفالِ والجِبَاهِ ، وما مِنْ صَخَبٍ إِلَّا وفيهِ اجْتِنِاحٌ باسِلٌ للرمادِ :

فَلْيَكُنِ التَّهْبُ إِذَنْ ،

فَلْيَكُنِ التَّهْبُ

وَلْيَهْبُ الحَاضِرُ المُلَوَّلُ إلى جِيادِهِ المُلَوَّلَةِ ، مُلْهَباً بسوطِهِ الرُّعْفرانيُّ مجدَ الانقراضِ ، فها أُولَيِ مَدِيحٍ نَحْنُ ، ندخلُ الحَلْبَةَ عاقدينَ أكبادنا على فاكهة ، ومصائرنا على براعمِ الغُضارِ . إِنْ كَشَفْنَا عَنْ كُنُوزِنا كَشَفْنَا عَنْ تَرْفِ أَدْمِي ، وأحاييلُ أَكْثَرُ قَتْصاً مِنْ شِبَاكِ العذوبةِ . وَإِنْ دَقَعْنَا خُطَانَا إلى الحَلْبَةِ دَقَعْنَا القَهْقَهَةَ إلى سراديبِ المساءِ الحيِّ . . فَمَنْ يَدْحِجُ الباطلَ الآنَ كَدْرَهُمْ معدنيُّ على رُحامِ الأشكالِ؟ وَمَنْ يُطَوِّقُ الأَنْبَنَ بِذِمَامَةِ المِهْرُجِ؟ ضَرْبَةٌ أَوْ ضَرْبَتَانِ مِنْ مِعْوَلٍ حَذَقٍ وَيَجْرُفُ الصِّلْصَالُ ، بعدها ، هَرْطَقَةٌ الصِّلْصَالِ فِي الفَرَسَخِ المَبَارَكِ بَيْنِي وَبَيْنَ الكائِنِ ، حيثُ اللُّهُاتُ لِهَاتُ ، والصَّلِيلُ قَنَاعُ الجِهَاتِ . بَيْدَ أَنِّي سَأَجْعَلُ الفَرَسَخَ المَبَارَكَ رَحْباً كَدَمَ ، خائضاً فِيهِ بالخناجرِ والأقحوانِ ، عارماً بهيماً ، تَسْتَطْلِعُنِي الجذورُ ، وأسْتَطْلِعُ الجذورُ والمناجِلُ الخبيثةُ فِي هَزَائِمِ الكائِنِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

حينَ تَوَجَّ الرَّمَادُ الرَّمَادَ ، وأَلْقَتِ المِياهُ بأَقْفَالِهَا فِي المِياهِ ، كُنْتُ فَارِداً
مِدايَ لَزْهَرَاتِ النِّحَاسِ وَالْحَمْحَمَةِ ، مُطَبِّقاً بِلَهَائِي عَلَى الحَنَاجِرِ ، أَكَادُ
أَحْتَجِزُ الصَّبَاحَاتِ عَلَى جِسْوَري ، أَوْ أَحْتَجِزُ الجِسْوَريَ بَيْنَ الصَّبَاحَاتِ وَبَيْنَ
الدمِ . لَكِنْ هَذَا النِّهَارَ الأَخِيرَ - نِهَارَ العَوِيلِ وَالْإِبَاطَةِ - انْحَنَى وَسَطَ
مُنْشِدِيهِ انْحِنَاءَ الأَسِيرِ ، فَقُلْنَا : « يَقِيناً لَنُثْقِلَنَّكِ أَيُّهَا الأَخِيرُ بِالْأَغْمَدَةِ
وَالْأَبْوَاقِ ! لَنُثْقِلَنَّكِ بِعِرَاكِ عَادِلٍ وَدَمِ عَادِلٍ ، سَانِقَيْنِ إِمَارَاتِكَ الأَخِيرَةَ تَحْتَ
بِيارِقِ الثَّهَبِ وَالْحَدِيدِ » . يَقِيناً كُنْتُ مُتَرْقِّفاً بِالثَّهَبِ وَالْحَدِيدِ حينَ تَوَجَّ الرَّمَادُ
الرَّمَادَ ، وَكَانَتْ الطُّيُورُ مَذْعُورَةً فِي مِدايِ وَالمَنَاجِلُ تَأْتِي وَتَمْضِي رَافِعَةً بَيْنَ
المَدَائِحِ البَرِيقِ الأَدْمِي لِلخُرَابِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءَ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

ها أَنَذَا مُسْتَرَسِلٌ فِي القَبْضِ عَلَى الصِّلَاصِ كَمَنْ أَشْرَكَتُهُ الطَّبِيعَةُ فِي
هَرَجِهَا الأَثْوِيٍّ مِنْ غَيْرِ قَنَاعٍ ، وَمَنْ دُونَ مَا يَجْعَلُ الْيَنَابِيعَ طُفُولَةً لِلْمَعْدِنِ .
وَهَا أَنَذَا أَتَلَمَّسُ الشَّهْوَةَ تَحْتَ دَرْعِي بِيَدٍ مِنَ الغِمَامَاتِ فَلَا أَتَثَقُّ غَيْرَ
الْأَعْشَاشِ وَالْفَاكِهِةِ ، شَاهِداً عَلَى انْحِلَالِ الأَفْقِ خَلْفَ الفُؤُوسِ وَسَيُوفِ
الزَّنَابِقِ ، شَاهِداً بِأَسْطَأِ يَدِيهِ لِلنُّعْمَةِ ، حَاضِناً مَا يَحْضُنُ الحَيَّ مِنْ أَسْلَابِهِ .
وَكَأَنِّي جِئْتُ مُتَرْقِّفاً لِدَمِ مُتَرْقِّفٍ أَصْعَدُ سِلَاحَ الحَزَامِي إِلَى الحَلْبَةِ ، حَيْثُ
النَّبِوءَةُ وَافَتْجَاءَاتُ المَوَاقِبِ الحَيَّةِ ، نَاسِجاً فِي صَعُودِي النِّسَاءِ (حينَ لَمْ
تَكُنْ نِسَاءً فِي الأَرْضِ) ، نَاسِجاً لَهْفَةَ الأَجْنَحَةِ وَحُرُوبِ الأَعَالِي ، فَلَا
تَتَبَدَّى لِي الأَرْضُ إِلَّا مَوْجَةً مِنَ النِّحَاسِ وَاسْمَ شَهِيدٍ : أَنَا المُغْيَرُ كَمَا

ينبغي ، والعارفُ المَلُولُ ، لا أسئلةَ لي ، ولكنني أشعلُ الخفيَّ كالْحَجَرِ ،
وللبهاء الذي ينثرُ السَّمِيمَ على الأرغفةِ أرفعُ الأسلحةَ ومقاديرَها ، عارفاً أنَّ
المكانَ يرفعُ مثلي لهذا البهاءِ أسلحتهُ ومقاديرَها ، وأنَّ الحشْدَ المُغَيَّرَ معي هو
الحشْدُ المُتَنَحِّبُ للأفتحةِ الأزليةِ . وحيثُ ينحدرُ المعدنُ إلى صليبه أنهبُ
الصليلَ تهبُ الجائع ، كأنِّي فلزٌ يذخرُ الفلزَ لفؤوسٍ ستعلو مع النشيدِ وتهوي
لتقتنصَ النشيدَ . وللَّذي سيطلقُ السهولَ كالماعزِ في هذا المُتَبَسِّطِ المُتَرَفِّعِ
بامتداده ؛ للَّذي يرتدي للأرضِ وَغَرَهَا ، وللبسيطِ مُشَكَّلِ البسيطِ . . له ،
لهذه الخَلْجَةِ في هَذِهِ الكائنِ ، آنحَرُ الينابيعِ والثواني ، مشيراً - كما تشيرُ
البوصلةُ - إلى الحدودِ الخفيةِ . غيرَ أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا

بطفولةٍ

الجنودِ ،

وسأجمعُ الجَمْعَ الأخيرَ تحتَ بيارقِ الصَفِيحِ . وتحتَ بيارقِ الصَفِيحِ
سأمهّدُ الحلبةَ كسريرِ العاشقةِ للبروقِ والعرباتِ ورَهْبَةِ العَصَلِ ؛ وللبهاءِ
العادلِ في الحَلْبَةِ سأحشُرُ الأضدادَ حَشَرَ الأحناسِ . ووحدِي - بحناني
وشكيمتي وبأسِ القُرْنَفَلِ - سأكونُ الخوذةَ على كُلِّ رأسٍ ، وسأكونُ الدَّلِيلَ
الدمويَّ في الأجسادِ المَهْيَأَةِ للعراكِ . غيرَ أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا

بطفولةٍ

الجنودِ ،

جريئاً كما ينبغي ، شارداً كحكمة النبات . وستأتون : أنا ملي بين
 أنا ملكم حين تُقبضون على الشارد في كل حي ؛ أنا الأبدية التي لا
 تُفصح ، لكنكم تعرفوني ، ومعني تُفصحون عن الاندفاعات الحذقة للدم .
 عادلون أنتم ، وللهنهار الباسل تنسجون الفلز الباسل . وحين تنحني الحياة
 انحنايتها الذهبية تنحنون انحناء البغل ، فاتحين للنعمة مسارها بين الدّم
 والرماد ؛ وها أنتم ترفعون جذوعكم وقد غمرتها طمانينة الينابيع والحرب ،
 وأرفع جذعي معكم مثقلاً بطمأنينة الينابيع والحرب ، مثقلاً بالأدوار ،
 مثقلاً بالخواتم والهبات ؛ ومعاً نضرم في الخلبة صليل المدائح ونلجم
 الأشكال . غير أنني سأرجم الأرض قبل هذا بالصباحات ، صاعداً من
 القرائن الوحشية إلى القرائن الوحشية بعناد الإنسان وبأسه ، كاشفاً عن
 النهار غلالة الكوكب ، وعن الليل نسجاً الأنثوي ، هاتفاً : فليكن يا امرأة
 العراء ، فليكن . سنجمع الآن مباحنا كصبرة المسافر ، وسنهق الأعياد في
 المادية التي لن يشهدا سوانا . ولكنني - في غمرة الهديان الأخير
 للكواكب وانكسارات النشيد ، حين يبقى الوحيد وحيداً ، وتنحل
 الجماهير - سادون مخثشماً بالإباحة والهنك كي ألمس الشفاء التي
 استوفدت الشفاء في غزوها . هاتفاً : فليكن يا امرأة العراء ، فليكن أيها
 العراء . ها أنا وسط موكبي ولي مريح القرون والأسلحة . وها أنا أترامي
 باسماً أحشائي حيث اللقائن الواقعة كالأبدية على ساق واحدة رافعة
 مناقيرها في الفراغ الأرجواني ، رافعة في الفراغ سطورة المباح وبطش
 الثبات :

ألا لا يرجعن أحد دون نهب ،

ألا لا يرجعن أحد .

غير أنني أذكر العائدين من دون نهب ، وأذكر الأعمدة الذهبية

لللباس على حدود السنابل . وأزعمُ زعمَ العارف أن المصائرَ محبوبةٌ
 بالنحاس والأقعة ، وأن الوافدين الآن من المدى الأملس المصقول بالحث
 والمبارد سيجمعون دوائهم أمام ساحتي ، وسيكون الميثاق الذي لا ميثاقَ
 بعده يا امرأة الغراء . . فلتكتميلِ الهرطقة العذبة إذن ، فلتكتميلِ العذوبةُ
 والصليلُ ، ولتتسلَّ اللبوءاتُ بخطواتها الجليلة إلى سكون العراء المثقلِ
 بهيبةِ الخلبة ، وليكن لهذه المرأة سراحَ الحناجر وخطو النساجات ، ولتكن
 خطاها جليلةً أيضاً في السكون المثقلِ بهيبةِ الخلبة ، وهي التوأم الوحشيُّ
 لروح الرجل . إني إذ يده ينها التوأم الوحشيُّ لروح الرجل ، كلُّ بُرْهَةٍ
 حاضرة الآن ، وأنا الحاضرُ أيضاً أقترِبُ وأبتعدُ في العراك ، حاضناً هباتي
 من الجلود والريش والصلصال ، مثلي مثلُ المكيدة ، وأنسجُ الخصومةَ نسجَ
 الحاذق كي أرى الحجرَ في ثيابِ الهواء ، وأرى الهواءَ في ثيابِ الحجر .
 وأقولُ : فلتضغ الحياة إلى هذه اليد الرهيفة حين تمتد إلى المقبضِ
 الزبرجدي لسيف الرمال ، وترتفع وتنخفض كحركة الثدي فلا يكون
 انقسامٌ تحت شفرته إلا ويكون انقساماً أخيراً ، ولا تكون ضربة إلا في
 المقتل . وأقولُ : فلتضغ الخطى إليّ ، رهيفاً كاستلال رهيفٍ للنعمة من
 الأغمدة ، مُحيطاً بالجمهرات أسالُ الجمهرات : أي عتقوان يرئ رنينَ
 الدَّهَمِ المعدني على درَجِ الخلبة ؟ وأي حضور هذا الحضورُ المغتسلُ بأهيةِ
 الصَّواري ؟ . . لكأني أرى الدَّوي ، وأسمعُ الجبَّاء ؛ وكأني المنحُ الجمهراتِ
 عاكفةً على اقتسامِ الوقيعَةِ ، جَهْمَةٌ ، تندلُّ أبواقها الصلصاليةُ على
 الخواصرِ ؛ حولها امتدادُها ، حولها امتدادُ سابحٍ في قزمِ الصباحاتِ
 العارية ، تهتف : فليكن . ستُملي وستُملي البهاء الغريبَ وصيللِ الزرد ،
 وسنيسطُ عباءاتنا للخطى الأكثر احتفالاً على درَجِ المذبحة . وإن رفعتَ
 يدك إلى وجهك حاجباً سطوعِ المواكب - إن رفعتها - سترانا في المواكبِ
 عذائين نجرفُ الجُرفَ بالعباءاتِ ونهتك الهتك . فليكن : ستُملي وستُملي

البهاء الغريب ، خاضعين سلطان الحجر بعجولنا ، خاضعين تَرَفَ الوحشي ،
 فلا أرض إلا وفيها إجمالة للغبار . فليكن : سننحر البهاء نحرًا للنساء تحت
 قميص الزنايق ، فاردئين خمار الليل لأقدامهن المهرولة ، ولراحتهن الناعمة
 كأذيال المناجب : هنينا للنهار بهن ، هنينا للنعمة ، هنينا للأدراج إذ ينزلن
 من حُجرات الأجر ، رافعات من الخرز ما يملأ القبضتين ، وفي التسيج
 المبارك للحلّة والعراك ينثرن ما امتلأت به قبضاتهن من الخرز والشهوة التي
 تجعل العضل عضلاً ، والأسلحة مدائح الكائن بين المدائح . ألا بأس
 يتها المضرجات بالأصيل وثغاء الماعز ، لا بأس في انحداركُن على الأدراج
 البوتاسية للحلّة ، حيث الصقور ، والحدآت ، والأعناق الطويلة لطيور الماء
 ومناقيرها . لا بأس فيها أنثُن تستنفرن العراء ثانية ، مغتسلات مع العراء
 باللهات القرمزي لصباحات النّهب ، وللنّهب وحده تجمعن المرايا
 والفجائن ، ضاربات ضرب الجذور على صنوج الرّحم حيث الأباطيل
 كلها ، والعذوبة المخملية للهرطقة كلها ، والمصائر الشّفيفة المتدلية كأبواقنا
 تحت الحُصور . ألا انهضن فالأرض لا تبدئي لنا إلا موجة من النّحاس
 واسم شهيد ، وذئ دروعنا لا تبدئي للأرض إلا موجة حية من الألوسن
 والحبّاح ، كأننا أول الحصار وآخر الحصار ، وكأننا اليد التي سترفع
 الريش والعصور نخب البطش وصباحات الدم العادل . ألا انهضن تحت
 الحمائل البوتاسية والمقابض ولهاث الجياد ، وانظرن إلى هذا الحي : ألم يرنا
 صاعدين مثله درج المساء ؟ ألم يرنا نافحين أبواقنا الصلصالية في المدى
 المزدحم برنين الشّيع وإجفالات الفرائس ؟ ألم يرنا مُصغين إصغاء الحداة
 إلى ابتهاج غامض . إني يذئبها الحي ، أيها الارتجال الدّمث ، لماذا تنشر
 خطأك أمام العتبة فتشرّد خطاك ؟ لقد رأيناك قبل هذا ، رأيناك قبل اشتعال
 الأرض بطفولة الجذور ، حائماً حول درع ، نابضاً كاليزال في المركز الحي ،
 تكاد الأجرام أن ترتديك ، أو تكاد أنت أن تنتشيل الجماد من وداعة

الجماد ، لتجعل الكَلُّ تَرَفًا في التَّهْلِيل للدمِ العادل . ورايناك مُشرفاً من
الجهالات على الجهالات وجراحتُك الكتابة . أَلَا قُلْ لَنَا أَيُّهَا الْارْتِجَالُ الَّذِي
لَا يُرْتَجَلُ ، أَيُّ سَمْتَدِلْ هَذَا الْمَمْتَرِجُ بِاللِّهَاتِ حِينَ لَا تَكُونُ طَعْنَةً إِلَّا فِي
الْمَقْتَلِ؟ وَإِيْ ذَهول مُثْقَلٌ بِعَنَاقِيدِ الْفَحْوَلَةِ يَشْحَذُ النُّصَالِ تَحْتَ أَثْدَانِنَا؟ . .
أَلَا وَحَقَّ الْفَحْوَلَةِ لُتْرَقَعْنَ يَدَيْكَ مَعَ الْأَيْدِي وَسَطَ الْمَنَاجِلِ وَأَعْنَاقِ الْبَجَعِ ،
وَلَتَجْمَعَنَّكَ رِثَةٌ تَنْبَسِطُ وَتَنْقَبِضُ لِلْهَاتِنَا ، وَفِي كُلِّ مَوْجَةٍ سَتُلْقِي مِنْكَ
مِثْقَالَ نَفْسٍ وَاحِدٍ ، لِيَشْهَدَ الْمَوْجُ كُلُّهُ - الْمَوْجُ الْأَخِيرُ مِنَ الصُّلْصَالِ
وَالسَّبَائِكِ وَالْأَعْمَدَةِ - أَنْ أَحْشَاءَكَ هِيَ الْمَسَافَةُ الْبَاقِيَةُ لِلخَطَى ، وَأَتْلُكَ اسْمُ
الْأَرْضِ الْأَخِيرِ . لَكُنَّا سَنَلْهُو قَبْلَ هَذَا بِبِسَالَاتِنَا ، كَاشِفَيْنِ النَّهَارَ لِرَمَاحِ
الْأَرْخَبِيَلَاتِ وَالْجُزُرِ ، مُلْصَقَيْنِ جِبَاهِنَا فِي خُتُوٍّ عَلَى الْأَعْمَدَةِ الْعُرْجُونِيَّةِ
لِمَسَاءِ الْعِرَاكِ : وَكَيْفَ لَا نَسْفَحُ الْأَقَالِيمَ سَفْحًا كَالْمَاءِ عَلَى الْمَقَابِضِ الْمَضْرُجَةِ
بِزَنْبِقِ الْحَرْبِ وَقَدْ رَأَيْنَا السُّعْفَ هَازِيًا ، وَرَأَيْنَا الطَّبُولَ؟ وَكَانَ تَخْمِينُنَا أَنَّ
الْمِبَارِدَ الْخَلِيفَةَ تَشْحَذُ الْأَبْجَدِيَّةَ تَحْتَ خَبَاءِ الدِّمِ الْعَادِلِ ؛ لَكِنْ الْبَيْدُ الَّتِي
عَلَّتْ عَلَتْ وَحْدَهَا بَيْنَ الْإِمَارَاتِ ؛ وَخَذَهَا عَلَتْ وَسَتَعْلُو ثَانِيَةً بَيْنَ الْإِمَارَاتِ
وَالْجُلُودِ . . هَكَذَا سَنَهْرُقُ النَّهَارَ ثَانِيَةً لِرُخَاءِ الدَّرُوعِ ، غَيْرَ أَنَّنَا سَنُسْخَعِلُ
الْأَرْضَ قَبْلَ هَذَا بِطَفُولَةِ الْجَنْدُورِ ؛ وَسَأَشْعَلُ

الأرضَ

قبل هذا ،

طَاطِعِيًّا فِي اجْتِيَاخِي أَفْتَتَحُ الْبَاسِلَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّنِي لَا أَلْمَحُ الْأَرْضَ إِلَّا
مَوْجَةً مِنَ النَّحَاسِ وَاسْمُ شَهِيدٍ؟ أَلَمْ أَقُلْ كَمْ غَسَلْتُ الْحَمَى بِالْعَصَافِيرِ فِي
اسْتَوَائِي عَلَى امْتِدَادِ الْحَلْبَةِ ، وَكَمْ نَثَرْتُ الْحُطُوطَ كِبْدُورَ الْقُتْبِ حِينَ لَمْ
تَكُنْ حُطُوطٌ فِي الْأَرْضِ ، بَلْ هِيَ حَقِيلٌ كَمَا قُوَّةُ الْخَوَافِ؟ . أَلَا لَدَقَعْنَ
عَجَلَاتِ الْوَقَيْعَةِ دَفْعًا ، وَلَا شَرَفْنَ مِنَ الْجَهَالَاتِ عَلَى الْجَهَالَاتِ ، نَافِخًا فِي
الْأَبْوَاكِ الصُّلْصَالِيَةِ لِلصُّدُوعِ وَالْحَتِّ : هَلُمَّ أَيُّهَا الْجَمَادُ ، فَقَدْ حَضَرَ الْغَرِيبُ ،

وَحَلَّتْ الانهداماتُ أعماقَها ، فأنَا الوسيطُ لا يَصِلُ الحيُّ إلى الحيِّ إلاَّ بي ؛
لكنني - تحت خبَاءِ الحَبِيرِ والأَقْفَالِ - أنحرُ القُرُونُ للمأدبة ، وأزَيِّنُ الرِّيحَ
بالسُّنُونِ . . أَوَلَمْ تروني أسدِلُ الواقعةَ ، وأضرمُ الحُصُومَةَ كُلَّما أزدَحَمَتْ
رُذَّةُ النهارِ بالخطي؟ أَوَلَمْ تروني مُدْجِجاً بانكساراتِ الحيِّ أرفعُ الذُّبائِحِ
الحيَّةِ للغُلَسِ الإخشيدِيِّ المُفْعَمِ بالسُّرُوجِ والحَمَمَحَمَةِ؟ أَوَلَمْ تروني طاعياً
في الحَذَبِ على كُلِّ جرحٍ تَفْتَحُهُ يداي ، ورؤفاً في الطَّعْنِ حينَ لا يكونُ
إلاَّ في المَقْتَلِ؟ . . أنا التَّوَامُ الجَسُورُ للجساراتِ لن يَصِلَ الحيُّ إلى الحيِّ إلاَّ
بي ، وبِي سَيَسْتَفْجِلُ التَّغْيِيرُ إلى اندلاعِ مَثَرَفٍ ؛ لكنني ، من هذا الانهدامِ ،
أَسْتَهْلُ الجهاتِ بالأَقْفَالِ ، مالتاً بالدُّسَيْسَةِ كُلِّ رَحِمٍ حتَّى يأخذَ الشُّكْلُ
شكْلَهُ في انحلالِ الجَوْهَرِ . . أَلَا لأَجْعَلَنَّ الجَوْهَرَ شَرِيداً كجِمارِ شَرِيدٍ ،
وَلَا أَهْتَفَنَّ :

ليبك أَيْتَهَا القَبْضَةُ المضمومةُ على حَفْنَةٍ من المراجيحِ والغنائمِ ،
ليبك أيها الذَّوِيُّ الحَنُونُ لا رِطامَ العَظْمَةِ بالخِرابِ ،
ليبك لبيكَ أيها الورِثُ الأعمى^(١) لهذا العَمَاءِ كُلِّهِ :

فَلتَتَمَهَّلْ ساعاتُ الدَّمِ ، فما بعدَ هذا غيرُ بسالةِ اليأسِ وانقلاباتِ
الْهَبَبِ . يَبْدَأُني - في انحساري كالماءِ عن الأعمدةِ العرجونيةِ للنهارِ -
قانعٌ بالذي معي ، قانعٌ بأمومةِ لا تُرَى ، وباندثارِ يتتابعُ تحتِ أسْماءِ
الجَوْهَرِ . وَمَنْ سِوَايَ قانعٌ أيضاً؟ مَنْ سِوَايَ يطعنُ الجُذُورَ بالجُذُورِ ، ويُلْهَمُ
الباطِلَ هذا التَّفَشُّعَ المُضِيَّ؟ . يا لَلْمَرْحِ ، يا لَلوداعةِ : وميضٌ واحدٌ
للعذاباتِ يكشفُ المهَبَّ الإلهيَّ ، وتلكَ هي الخاتمةُ في المهَبِّ كوسادةِ
الحُودِيِّ أَفَلَتِ من شَفَوقِها الرِيشَ والخرقَ ، وها هم المَثَكُوثُونَ عليها : جِبَاءُ
ونوثيونَ ، ووسطَهم التَّسَاءُ المذَجَّجَاتُ بحراشِفِ النُّبُوَّةِ ؛ كأنني أُلْعَجُ في

(١) انظر الملحق ، فصل «البغل الأعمى» .

أثكائهم جَزَعَ الغَيْبُ من بسالة الحاضِرِ المَلُولِ . تَرَيْتُ إِذْنُ أَيُّهَا الْوَرِثُ
الْأَعْمَى لِهَذَا الْعَمَاءِ كُلِّهِ ، تَرَيْتُ أَيُّهَا الدَّوِيُّ .

(قديمًا ، في القديم القريب - حين دحرجَ الشَّمَالُ أعمارنا على
امتداد سكة الحديد بين «تَرْسِنْبِي» و«مَارْدِين» ، وفاجأنا صوتُ
القطارِ الكهل ، أوَّلَ مرةٍ ، مُعْمُولًا تَحْتَ ثِقَلِ المَاشِيَةِ وانقراضِ
الحكوماتِ الكبيرة - كانت القرى تَجْرُ عَرَبَاتِهَا أمامَ سورِ المدينة ،
مذهولةً من الأباطرةِ الغامضينَ وأحاديثهم الغامضةِ عن شعبِ
غامض . وكُنَّا مَذْهُولِينَ أيضًا أمامَ سورِ المدينة ، حيث الرجالُ
الوسيمُونَ في قبعاتهم الدائرية يستأجرون البدوَ للهِتافات ، وتعلو
الخناجرُ ذاتُ المقابضِ العظيمةِ أمامَ بابِ السرايِ احتفالًا وسنطَ
أناشيدَ لا يَفْقَهُهَا المنشدون . وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنَّا يَلْتَفِتُ إِلَى قَرْنِهِ
هَاتِفًا :

«يا للدولة الجميلة ،
يا للجيش الجميل .
يا للأسلحة الجميلة ،
يا للرؤساء الجميلة ،
يا للمنتصات الجميلة ،
يا للحزب الجميل» .

قديمًا ، في القديم القريب ، دحرجَ الشَّمَالُ أعمارنا ، ودحرجَ
القرى والأغاني على سكة القطارِ الكهل ، المتاخمة لَغَضَبِ الرُّعَاةِ
الذين انتشلوا جُثثَ المَاشِيَةِ بين وقتٍ وآخر ، وغطَّوا وجوههم من
دخانِ القطارِ المُثْقَلِ بانقراضِ الحكوماتِ الكبيرة . غيرَ أَنَّا ، من

هنا ، من الخافة الباردة للمستقبل القديم ، ما نزال نلمح القطار
ذاته ، والخنجر ذات المقابض العظمية ، عالية ، تغتسل في التعاقب
المدھش للأباطرة أمام باب السراي ذاته ، المزدحم بحروب غامضة ،
وشعب غامض .

ومن سواي ، في القديم القريب ، قال تَرِثُ أَيُّهَا الْوَرِثُ الْأَعْمَى ؟ ...
سيدكر السّاهرون حول الأغاني أنني رفعت إلى المهبط الإلهي رياح المجد
للهرطقة ، وترنمت بالهلام ؛ وكانت لي شكوى الطعم الحي في فمخاخ
العوالم :

ألا لبيك يا مَنْ يذرف الحروف ،

لبيك ،

لبيك يا البقاء المضموم على حفنة من دموي القوي .

فَلْيَقُلِ الْمَسَاءُ شَيْئاً هَذَا الْمَسَاءُ ،

وَلْيَقُلِ السّاهرون إنني ، مَرِحاً ، أتلو في سريري من دغدغات
النّدى ، ومن أناجيل العظمة على امتداد جسدي البازلتي . لا ، حسبي أن
أرى حولي العرائس الصامتات يرتفن الفحولة ، وحسبي أن أظل قابضاً
بالأفافي على غصلة الخراب ، مُنصتاً إلى هذا الإسكافيّ الجالس أمام
الدائح بمطرقته ومساميره ، يشد المياه إلى المياه كالجلد ، ويخيطها بالنوارس .
غير أنني - في الساعات التي تصعد فيها الساعات سلالم الأوثنة - أتبع
الأثر الحيّ للحي ، لنستعرض معاً ذلك الحرس المدجج بالسهول يخطر
خطراته أمام قناعنا ؛ ولربما رقعنا معاً - بعد ذلك - صولجان المساء ،
مؤمنين للأسلحة أن أكتملي أيتها الأسلحة ببركة المنتصين إلى أيدي
تتخاطف عقد صباحاتهم ، لا ... سأهتف : علام هذا كله؟ علام لا

تنتخب الأرض نسلها في الويفس السكران للفؤوس؟ . أما لو أن لي ضراوة
 الماء لنشرت بمذرة الصواعق هذا الحصاة الجليدي على بيد القادمين ،
 ولكمنت هنا - تحت عريشة الطين - للنهار ، كمن كامن ليصطاد الحجل
 بحجل أسير ، والظباء بصقر أعمى . بيد أن المساء يجري وسط كميني
 كاليربوع ، مشيراً حولي زوايع صغيرة من البنفسج اليابس وعظام
 الحداث (٢) :

لبيك يا مساء الشمال الطويل ،

يا مساء متخماً بالنواخير والنوارج .

لبيك ، لبك أيها الخشوع المضموم على حفنة من هزائم القوي .

واهتف : علام هذا الشمال ، علام هذا الرابض بين الربيب والماعز ،
 وحده المهرج بين الجهات؟ ومآلها امتدادات الأرض المزدهوة بالريش واللبد
 تتأهب لبقرات الموت وعجولة؟ وما لي لا أرى - عبر السطح الفيروزي لمياه
 المستنقع ، وعبر قرون الجواميس الرابضة بين المياه - إلا النصل القديم ذاته ،
 عالياً ، يتلألأ في انعكاسه المجد والموتى؟ . يقيناً أنا مثقل بشؤون السهول ،
 ولي خيلاء الظلام إذ أحتضن المجالس الخافلة بشعب غامض يتفتح بين
 الحشوف وتلتقط القرى . ولهذا كله ، لهذا التماس الساحر بين لهبي وبين
 هبوب العواصف ، أسكب المساء لنداماي ، وأنهب المراثي :

لبيك أيها الهدير القفقاسي ،

لبيك أيتها الممرات المتفحة بالمدايح والنهب ؛

وليدم هبوبي هبوب صليل ،

(٢) انظر الملحق ، فصل «الحداث» .

وَلَاذُمْ مُشْرِفًا مِنَ التَّغْيِيرِ عَلَى الْحَاضِرِ الْمَلُولِ .

(لا تقولوا إنني انهضُ الآن من بينكم ، مُلبِّدًا بطعنات العذوبة ، قبل أن تكتملَ الحلقةُ ، وياخذَ المدعوونَ مجالسهم حولَ الرعدِ وأباريقه ؛ لا . كلُّ ما هناك أني سألقي نظرة الوارثِ الأخيرة ، من هذا البابِ الأناضوليِّ ، على حِرابِ الثلوجِ وهديرِ النباتِ ، قاذفًا كَمَاةَ الروحِ إلى الروحِ . وسأرجعُ ، بعدَ ذا ، حنونًا ، تحكونَ لي عن مساءِ حنونٍ ، وأحكي لَكُمْ عن مساءِ حنونٍ يسيلُ فوقَ قناعه حَبَابُ الحديدِ) .

وَلَتَذُمَّ سَكْرَةُ الحَبَرِ والمِيَاءِ أَيْضًا ، لِيَذُمَّ هَذَا الزَّوَالُ الْمُتَاهِبُ كَالثَّيْسِ ، فلي ، في القطيعِ الدائرِ حوله ، بضَعُ كِلَابٍ لَا يَرَى غَيْرَ أَذْيَالِهَا بَيْنَ الذُّبُوثِ وزَهْرَاتِ القَنْاءِ الْعَالِيَةِ . ولي عَالِيًا ، كَسَاجِ الهُدُودِ المصنُوعِ مِنَ الرِّيشِ وَالزَّعْبِ ، نِبَالٌ إِسْبِيدَجِيَّةٌ ، وَفَخَاخٌ فِي الْفِرَاغِ المَوْشَى بِأَرْضِ الْخِلَاحِيلِ وَاللَّهَاتِ . وَهِيَ حُمُرُ الشَّهْوَةِ الصَّاعِدَةِ مِنَ الْإِنْهَادَامَاتِ وَالْجُرُوفِ تَقْتَنِفِي أَثَرِي ، وَتَقِفُ الْأَرْضُ أَمَامَ سِيَاجِي حَبِيرِي ، تَتَسَاقَطُ مِنْ غَرْبِهَا الذَّرَّةُ وَالْأَشْكَالُ ... لِيَذُمَّ هَذَا كُلُّهُ ، لِيَذُمَّ . وَلِيَقْتَرِبْ هَذَا الزَّوَالُ الْمُتَاهِبُ كَالثَّيْسِ لَا حَيْطَ عَنَقَهُ بِجَرَسِ ثَقِيلٍ تَتَمَائِلُ عَلَى قَرَعِهِ الصَّبَاحَاتِ وَيَسْكُرُ الْعَرَاءُ . وَلَأَقْتَرِبْ ، أَنَا ، مِنْ هَذَا كُلِّهِ فِي زَوْجَةٍ مَدِيدَةٍ مِنَ الْأُمُومَةِ وَالْمَرْحِ ، تَتَوَائِبُ أَمَامِي الْأَزْمَنَةُ كَالْعَصَافِيرِ ، وَتَحْيِيَّ الْمَصِيبَاتِ هَدِيرَهَا فِي حَفِيفِ ثَوْبِي الْأَذْرِيجَانِي : أَلَا لَيْتَكُمْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ يَغْسِلُ الشَّمَالُ مَحَارِيشَهُ ، وَكَيْفَ تَنْدَلِقُ النُّجُومُ وَالْخَطِيُّ مِنْ قُرْبَةِ الْهَوَاءِ الْحَرُونَ . لَيْتَكُمْ شَمَعْتُمْ الصُّحَى مَعِي ، لَيْتَ أَمْصَغَتِ الرِّثَائُ لِنَقْرِ الْعَرَاءِ عَلَى دَفُوفِهِ السَّرْخَسِيَّةِ . إِيذِيذِيهِ ، لَا شَمَالَ إِلَّا فِيهِ حَصَادٌ لِكَائِنْ ؛ لَا شَمَالَ إِلَّا نَهَبٌ يَهِيءُ الْحُضُورَ فِيهِ لَطْفَةَ الْعَذُوبَةِ :

لبيك يا طفولة لم تكن لأحد ،
لبيك يا طفولة لم تكن ،
لبيك ، لبيك يا طفولة مضمومة على حفنة من مساء الشمال .

(أترون هذا الطفل الراكض من سطح إلى سطح وراء هزاز
الذئلي؟ بالله هل ترونه؟ هل ترون أثرابه الراكضين مثله . مُبْتَلِينَ
حتى الغُسر من رَشَاشِ الوحل المتطاير تحت أقدامهم؟ أترون
شجيرات القطن مائلة بجوزها الأخضر ، وغلالات من صخب
الطفولة تتماوج بين أوراقها وبين البيوت؟ بالله ، بالله لا تقولوا
إنني أهيمُ النهارَ لطفنة لا ترى) .

إِذْ يَدِيهِ ، فَلْتَدُمُ سَكْرَةُ الخبزِ والمياه .

غير أنني
سأشعلُ
الأرضَ
قبل هذا ،

راجعاً من الحلية بجواري السوسن ، والفؤوس الصقيلة لدهشة الحجر ،
حولِي الجياد والحوديون ، كُلُّمَا التفتُّ إلى سهلٍ أغصني ، وكلُّمَا خطوتُ
انحلتُ عُرْوَةً في قميص الرماد . وكَمَا يتغاضى العارف عن عشرات
العارف ، لا أسألُ الأرضَ أيَّ حلمٍ سترتني اليوم ، بل أرتمي لحلمها جذرَ
الثيلوفر ؛ ذاكرة - حين لم يكن في الأرض غير النساء - أن النساء انسلن
من الحماثر النباتية مَرِحَاتٍ في حُضُورهن الغريب . ذاكرة أنهن رُفَعْنَ
الينابيع كالمرايا ، وفَضَضْنَ الجدول ، ثم أرخين قاماتهن كورق الكرنب على

حَرَرَةِ الْغِيَارِ ، مُشْعَلَات - حَيْثُ يَسَاقُطُ الدَّمُ - ذَلِكَ الدَّقُّ الْمَعُولِي فِي
الْجَذُورِ وَالرِّثَاءِ . ذَاكِرًا أَنَّهُنَّ ارْتَمَيْنَ تَحْتَ الْمَنَاقِيرِ الْغَامِضَةِ لِلْعَرَاءِ الْغَامِضِ ،
وَكُنَّ يَعْرِفْنَ أَنَّ هَذَا الْوَقْتُ الْمُنْتَمِنُ الدَّائِرِي كَذِيلِ ذِكْرِ الطَّائُوسِ فِي هِيَاجِهِ ،
لَمْ يَكُنْ وَقْتًا إِلَّا فِي حُضُورِهِنَّ ؛ لِذَا جَذِبْنَ الْوَقْتَ جَذْبَ مَوْجَةٍ لِمَوْجَةٍ ،
وَأَفْرَغْنَ الْفَرَاغَ ، مُسْرِفَاتٍ فِي مَزْجِ قَامَاتِهِنَّ بِالرُّبَنِ الْإِخْشِيدِي لِسَطْوَعِ
الْأَرْضِ دَوْمًا فَرَاغٌ أَوْ وَقْتُ ، عَارِيَةً إِلَّا نَمَا يَحُوطُهَا مِنْ هَلَامِ الدُّورِ وَنِعْمَةِ
الذَّبَائِحِ . وَكُنَّ يَعْرِفْنَ أَيْضًا أَنَّهُنَّ اغْتَصَابٌ مُسْتَفْجِلٌ ، تَوَخَّذَ الصَّبَاحَاتُ
بِهِنَّ وَيُوَخَّذَ الْبَرْقُ وَالْجَذُورُ ؛ وَأَنَّهُنَّ الضُّحَى الْمَطْوِيُّ بِأَعْضَاءِ الْكَائِنِ
وَفَتْوحَاتِهِ الضَّائِعَةِ . لَكِنْ ، يَعْرِفُ الْحَضُورُ بِذَاتِهِ - الْقَائِمُ الَّذِي لَا دَلِيلَ
عَلَيْهِ - أَنَّهُنَّ سَمِعْنَ نَفِيرَ أَبْوَابِ صَلْصَالِيَّةٍ ، وَصَلِيلًا ، قَبْلَ انبِثَاقِ الْكَائِنِ
النَّقِيضِ الْحَامِلِ حُضُورَةَ الطُّعَيْنِ كَمَا يَحْمِلُ الْخَنَائِصُ الطُّعَيْنَةَ بَعْدَ
قَتْلِهَا ؛ وَأَنَّهُنَّ ارْتَعَدْنَ رَغْدَةً تَفْتَحُهَا الْعَذُوبَةُ وَتَخْتِمُهَا الْعَذُوبَةُ . وَكَيْفَ لَا
يَرْتَعِدْنَ وَهُنَّ الْمُؤْتَفَقَاتُ بِأَنْوَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَسْتَطِلْعْنَ فِي سَطْوَعِهِنَّ إِلَّا
الْأَنْثَوِيَّ وَحْدَهُ؟ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ارْتِعَادُ أَمَامَ فَجَاءَةِ الْكَائِنِ النَّقِيضِ الْمُخْتَلِجِ
بَزَرْدِهِ وَحِرَابِهِ سَطْوَعُهُنَّ الْمُهَيَّمْنَ؟ . إِنَّهُنَّ يَنْتَضِبْنَ الْآنَ وَسَطَ مَصَابِيحِ
الْبِنْفَسِ وَرِخَاءِ الْوَحْدَةِ ، مُسْتَعْرِصَاتِ الصَّلِيلِ ، قَارِعَاتِ صَنْوَجِ الْبِرَاعِمِ
وَفَصَائِلِ الْبَقُولِ الْآخِرَةِ . لَكِنْ ، يَعْرِفُ الْحَضُورُ بِذَاتِهِ - الْقَائِمُ الَّذِي لَا
دَلِيلَ عَلَيْهِ - أَنَّهُنَّ لَمُنَّ الصَّبَاحَاتِ كَالْحَصَى ، وَنَظَمَتْهَا كَالْعَقْدِ لِلْمُقْبِلِ
الْحَامِلِ حُضُورَةَ الطُّعَيْنِ ، وَأَنَّهُنَّ نَشَرْنَ قُلُوعَ الْيَابِسَةِ ، وَشَدَدْنَ حِبَالَ التُّرَابِ
إِلَى الصَّارِيَةِ الْخَرَّةِ وَسَطَ نَشِيدِ الْغِيَارِ الْمَهْرُجِ ، مَلُوحَاتٍ بِمَصَائِرِهِنَّ كَالْمَنَادِيلِ
بِيَدٍ ، ضَامَّاتِ الْآخَرَى تَحْتَ أَثْدَانِهِنَّ : «فَلْيَكُنْ أَيْهَا السَطْوَعُ الْعَظِيمُ ،
فَلْيَكُنْ غَمْدُكَ غَمْدَ الْحَضُورِ ، وَلْيَكُنْ حُضُورُنَا أَوَّلَ الْعَتَبَةِ . وَيَا أَيْهَا السَطْوَعُ
الْمُقْتَحِمُ بِمِبَارِدِهِ ، نَاشِرًا فِي مَهَبِّ أَعْضَانِنَا شِبَاكَ الشُّكْلِ ، مَا نَحْنُ إِلَّا رَتْةٌ ،
وَهَا هُوَ الْهَوَاءُ فِي اصْطِخَابِهِ الصَّلْصَالِي الْمُسْرِفِ عَلَى حُدُودِ نَبْضِنَا ، يَتَهَاوَى

عَصْلَةٌ عَصْلَةٌ، كَانَ اختلاجاتنا هي المصَبُّ الأعظمُ للمسبِلِ العظيمِ . ثم
شَدَدَنَ قَامَاتِهِنَّ أَكْثَرَ وقد انحسرَ التَّفِيرُ والصَّلِيلُ عن الكائِنِ المشتعلِ بالغَلْبَةِ
وَتَذَوَّرَ الهَزَائِمَ ، المُجْفَلِ العَارِفُ أَنَّ حُضُورَهُ أَخْرَجَ عَلَى امْتِدَادِ مَسِيلِهِ الْحَيِّ
سَيَكُونُ الشَّرِيكَ لاشتغاله وبأسه . وتقدَّمَنَ إِلَيْهِ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِنَّ مُقَدَّارَ زَوْجَةٍ
واحدة . وحينَ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَمْتَدَّ يَدُ إِلَى يَدِ ، وحينَ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَقْتَحِمَ
النَّفْسُ النَّفْسَ ، حَلَّ عَرَى شَكْلِهِ أَمَامَ التَّوَامِ فَحَلَّلْنَ عَرَى أَشْكَالِهِنَّ أَمَامَ
التَّوَامِ ، وَانْبَجَسَتِ الْأَرْضُ ،

فَأَشْعَلُوا

الأرضَ

بالجمهراتِ ،

سَادِيرُ الْعَجَلَةِ الخَشِيبَةِ للمصائرِ ثَانِيَةٌ وَسَطَ نِعْمَةِ الْأَنْثَوِيِّ وَهَرَجِ
الذَّكُورَةِ ، خَائِضًا بِالصَّبَاحَاتِ دَسِيسَةِ الْحَيِّ ، وَلَاشَقْنَ الْحَيِّ بِشَهْوَةِ الْعِرَاكِ
شَقًّا لَا يَلْتَنِمُ مَا دَامَتِ السَّمَاءُ أَبْعَدَ مِنْ شَفَرَةِ الْمَنَاجِلِ ، وَمَا دَامَ قَرَحُ لَا
يَسْتَنْهَضُهُ الْفَرَحُ . وَسَالَقِي فِي حَجَرِ النِّسَاءِ الْجَالِسَاتِ أَمَامَ الْبَغْلِ وَشَاحَا
شَفِيفًا مِنَ الطَّيْشِ حِينَ يُفَرِّدْنَهُ يُفَرِّدْنَ الْإِبَاحَةَ وَالذَّهْوَلَ ، فَيَرْفَعْنَ لِلنَّخْلِ
دِرْعَهُ وَالصَّخْبَ الْمُؤَنَسَ لَصُغُودِ الدَّمِ فِي حَرَكَةِ الْخَاصِرَةِ ؛ جَاذِبَاتِ إِلَيْهِنَّ
التَّخَوُّمَ وَالصَّلِيلَ جَذْبًا يَسْتَوْثِقْنَ فِيهِ أَنَّ الْحَيَّ هَزِيمَةُ الْحَيِّ : « هُبْ أَيُّهَا الْفَارِغُ
بِأَبَوَاكِ الصِّلَصَالِيَةِ هُبْ أَيُّهَا الْجَذَلُ ، يَا غَرِيمَ الْبِهَاءِ الْوَحِيدِ ؛ لِسَوْفَ تَحُلُّ
الْعَثَبَاتُ ثَانِيَةً لِقُدُومِكَ هَذِهِ الْمَغَالِيقُ ، وَوَحْدَكَ سَتُحْصِي أَدْرَاجَ الْخَلْبَةِ
الصَّاعِدَةِ مِنْ شَقُوقِ السِّنِّينِ حَتَّى يَدِيكَ الْمَضْمُومَتَيْنِ عَلَى مَقْبُضِ الْعُذُوبَةِ
الْغَامِضِ . وَلِسَوْفَ نَحَازِيكَ ، نَحْنُ الْوَاقِعَاتِ اللَّوَاتِي يَجْمَعُهُنَّ مَجْرَى وَاحِدٌ
لَا نَسْكَابُكَ الْوَاقِعِ ، هَاتِفَاتِ : هَذَا مَدِيحُ الْأَنْثَى ، وَهَذَا انتِدَابُنَا عَلَيْكَ
انتِدَابُ الرُّحِمِ الَّتِي لَا تُسَمَّى . . . وَهَذَا انتِدَابِي

إِذْ
أَشْعَلُ
الْأَرْضَ
بِالنَّهَبِ .

نازفاً من جراحِي الحديدِ والأغمدة ، مائثاً بالرياحِ الرياحَ : ومنْ سِوَايَ
يخلعُ الرُّخَاءَ البَهِيمَ عن حدودِ الكائنِ ، أو يخلجُ زواجِ السُّمُنْدَلِ بين
الحشاشاتِ ؟ أَلَا أَضْرِبُ أَيُّهَا الثُّونِيُّ بِقَصَبَاتِكَ الطويلةِ أحشاءَ الهُورِ ،
واخرجني يا رجومَ الظلامِ والهندسةِ كي تصحُو في جدالي الكراكي
والرُّنثُنْ ؛ كي أضربَ بِقَصَبَاتِي الطويلةِ سطحَ المأساة ، مُحِيطاً ابتهاجي
بذلكَ اللَّهَبِ البهيجِ في الأفتنة ، مانحاً للحلبةِ حدودَها ، وللهزيمةِ زخارفَ
المقبضِ الحيِّ في يدِ حَيَّةٍ ؛ كي أنثرَ الأرضَ دَرَهَمًا دَرَهَمًا على الفوهةِ
المزمررةِ لبسالةِ الدَّمِ . أَلَا أَنْتِي أَهْيَأُ اللَّيْلَ لِهُبُوبِ المُرَّانِ ، وأستقرضُ
الينابيعَ في عباةِها ، وأيضاً في المكانِ ، هنا ، في المكانِ السَّاحِرِ الشَّريدِ ،
وحينَ تَعْلُو النُّصَالُ في اعتدالِ الكائنِ الأخيرِ ، أَصِيحُ : «ابدأي يَتَهَا
الأرضُ من ظلامٍ وفَلَزٍ» . . . وَأَنَا التَّرَفُ والجِدَالُ أباركُ الأسلحةَ بِبِرْكَةِ
الجِدَالِ ، مُطْمَئِنّاً في تَبْضِي الصُّلْصَالِي تحتَ قَشْرَةِ الدَّمِ . أَلَا أَنْتِي - هذا
الباطلُ الأكِيدُ - سَأَصِلُ العِرَاكَ بالعِرَاكِ ، طَافِحاً وَسَطَ هذا الكفنِ
الكافوريِّ بالمواكبِ اللَّابِسةِ تَرَفَ الحلمِ وحده .

بعد هذا
سَأَشْعَلُ
الْأَرْضَ
بِالنَّهَبِ ،

وسيشعلونها معي ذالكُمُ الناهضونَ في ثيابهم الأجريةِ ، والمسفوكون
سَفَكَ الحِكْمَةِ في هذا الأيوانِ . . . ها هم يشعلونها معي ، مُمَسِّكِينَ

بالأرغفة والأبواق، لكنهم يَصْقُلُونَ - قبل هذا - سَطُوعَ القُرُونِ بمبارِدِ
أعيادهم، واثقين في الحركة، واثقين إذ يغمرون بالصفيح الأشكال.
ولربما رأيتهم في ثيابهم الأجرية استطلاات للنبات، أو رأيتهم شكيمة
تُسَيِّعُ الكائن إلى نديمه الأخير (النديم الصامت المتزين في قناعه على
المائدة)؛ ولربما تحتهم يربطون سيور الأحذية ويتركون وجوههم لمرايا
السوسن؛ إنما ها هم يشعلونها معي في مُجْجُونِ المساء الصاعد بغزالاته
وصقوره سلالمة المذبة: أَلَا لَنْ تبارك إلا المبارك، ولن تُشعل إلا المُشْتَعَلُ
بأقدارنا، وستلزم الحبي بانقسام تشرد الرئة فيه عن الرئة. وسندعوه بعد ذا
فيأتي جَهْمًا حاملاً اسطرلابه السماوي ومدائح الصاخبة كحناجر بنات
أوى^(٣)، وفي كل خطوة يشف عنه القناع حتى نراه مؤثقا بأليافه وشرائينه
الفارغة إلا من سَرَخَسِ يابس. وسندعوه فيأتي أكثر انشفاقاً من الورقة،
صاعداً مثلنا سلالمة المذبة بأباطيله الأبهية وهندسة الهزائم. وحين يجتو
أمام اشتعالنا ضارعا سنقول: اقترب أيها الهندسي، اقترب أيها المغزل
الدائر في عذوبة الخيوط الصلصالية. اقترب اقترب راسماً بشظاياك
الجدائل والخز، متكئاً بثقلك على القناع، سترك المذبة:

(حين جاء البناءون، وحدها كانت الأرض في سرير
الكواكب مخلولة كرداء العاشقة، لا بعل حولها. لا ندامى سوى
جذور النهار واندحاراته المتتباة تحت سيوف الفلز وبطش
البهاء... وحدها كانت الأرض تحت الدالية الأزلية من الصليل
ومناقير هزاز الذئلي، مُفَعِّمة بالبرق الأعزل وحدود الحدود، لا

(٣) انظر الملحق، فصل «بنات أوى».

تَسْعُ إِلَّا لِنَفْسِهَا، وتتمرأى في كَسَلِ الصَّوَاعِقِ حِينَ جَاءَ الْبِنَاوُونَ
بِمَعَاوِلِهِمْ وَحِبَالِهِمُ الْقَصِيرَةَ الَّتِي تَنْتَهِي بِفَادَنٍ نَحَاسِيٍّ لَضَبْطِ
الرُّوَايَا، يَنْظُرُونَ فِي جُلُودِ صَقِيلَةٍ ذَاتِ رُسُومٍ، ثُمَّ يَغْمِسُونَ الرُّيشَ
فِي مَزِيَجٍ مِنَ الْكَحْلِ السَّائِلِ وَالرَّمَادِ، لِيَجْعَلُوا اسْتَطَالَاتِ الرُّسُومِ
أَكْثَرَ اسْتَطَالَةً، والدَّوَائِرُ أَكْثَرَ اتِّسَاعاً عَلَى مَرَكَزِهَا الْمُبْهَمَةِ. بَعْدَ
هَذَا اسْتَبَسَّلَتِ الْفُؤُوسُ، وَاسْتَبَسَّلَتِ الْمَعَاوِلُ: تَلْدُ الْأَعْمَدَةُ
الْأَعْمَدَةَ، وَتَهْتِكُ الْقَبَابُ الْقَبَابَ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ الْجَنَاحَ الْغَرِيبَ مِنَ
الْبَيْهَةِ الْمُسْتَدِّ تَحْتَ الْأَعْمَدَةِ وَالْقَبَابِ، ذَلِكَ الْجَنَاحَ الْمُسَوَّرَ بِالْأَدْرَاجِ،
الْمُنْبَسِّطَ الَّذِي لَا رُخَامَ فِيهِ، وَلَا نِسَاءَ مِنَ الرُّخَامِ عَلَى مَدْخَلِهِ؛
ذَلِكَ الْجَنَاحَ الْهَادِيءَ الْآنَ، الَّذِي لَمْ يَقُلِ الْبِنَاوُونَ إِذْ انْتَهَوْا مِنْ
بَنَائِهِ: «مَبَارُكُ أَنْتَ»؛ ذَلِكَ الْجَنَاحَ الذَّاهِلَ بِخِيَاشِيمِهِ الْحَجَرِيَّةِ
وَدَوَّارِهِ الْحَجَرِيِّ، لَمْ يَكُنْ مَخْدَعاً: إِسْأَلُوا... إِنَّهَا الْحَلْبَةُ).

أَلَا انْهَضْ مِنْكَ بِثِقَلِكَ عَلَى الْقَنَاعِ، مُبَاحاً كَالصَّبَاحَاتِ لِلسَّيْلِ أَوْ
لِلْعَذْوَةِ، لَكُنَّا
قَبْلَ
هَذَا

سَتَرَمِيكَ بِالنَّدَى، وَبِالْبَيَارِقِ الْمُصْطَبِفَةِ بِزَهْرِ الْبِقُطَيْنِ وَالرُّعُفَرَانِ،
مُؤَصِّدِينَ عَلَى قَنَاعِكَ الْقَنَاعِ الْأَكْبَرَ لئَلَّا تَجْرَحَ انْحِنَاءُكَ الْبِرَاعِمُ أَوْ يَشْهَدَكَ
النِّسَاءُ ذُو الْجَنَاحِ الْقَدِيمِ حَيْرَانَ لَا تَسْتَمْهِلُ الْعَلْبَةَ وَلَا تَسْتَعْجِلُ الْعَلْبَةَ،
كَسَائِكَ إِنْ أَهْرَقْتَ أَهْرَقْتَ الرِّيَّاحَ وَالرِّسَالَ، وَكَسَائِكَ إِنْ أَهْرَقْتَ أَهْرَقْتَ
الصَّبَاحَاتِ وَالْحَدِيدِ... أَلَا قُلْ لَنَا أَيُّهَا الْهَنْدَسِيُّ، يَا ذَا الْمُحْكَمِ كَخَشَبِ
الْعَجَلَةِ تَحْتَ عَرِيَةِ الْقَائِدِ، قُلْ لَنَا أَيُّ مَرِحِ هَذَا الْمَرِحِ الصَّاعِدِ مِثْلَنَا سَلَامَ
الْمَذْبَحَةِ؟ وَأَيُّ شَهِيدٍ سَيَحْمِلُ الْجِهَاتِ كَالْعَلْفِ إِلَى مِرْزُودِ جِيَادِكَ، أَوْ

سيمسحُ عن الزُّردِ غبارَ اغتصابِكَ الأخير؟ ... ألا تَقُلْ بعد هذا إنَّ
لَفَيْفًا حَيًّا من الكائنات ذات الأبواق واللُّهات قد جَذَبَتْ الحلقة الصِّلصاليةَ
لأبواب المذبحة فرائِكَ حَيْرَانً في المذبحة ، إنَّ أَهْرَقْتَ أَهْرَقْتَ الجهات ، وإنَّ
أَهْرَقْتَ أَهْرَقْتَ الأغمدة والغيوم . ورائِكَ جاثياً ، مالئاً رداءك بالأكبادِ
وصواعقِ التِّلْوَفر . ألا لا تَقُلْ بعدَ هذا أنَّ السماءَ المضمومةَ كالقَنْفُذِ لم
تكنْ هنا ، وأنَّ الحوافِرَ التي ارتطمتْ برخامِ البَهْوِ - حيثُ الرمالُ والمرايا -
لم تكنْ حوافِرَ المساءِ المشغلِ بالمحارِبِ . فَلْتَكُنْ شريداً أيها الهندسيُّ ، يا
أُحْبُوْلَةُ الجَوْهرِ الشَّريدِ ؛ لكنَّنا سنَرمِيكَ بالفصولِ ، وسنَرمِيكَ بالأباطيلِ
والصُّندلِ ، جاذِبِينَ عَنكَ الفضاةَ والرياحَ حتى تَلْمَسَ بقرنِ خوذتكِ العِشاءَ
الأبعدَ للأباطيلِ ، حيثُ لا كوكبٌ ، ولا مساءٌ يضرِّجُ القناعَ ، وحيثُ أنتُ
- وحدُكَ - امتدادُ الأرضِ في الفراغِ المحاربِ ... لا ، لا تَقُلْ بعدَ هذا إننا
سنَضرِّمُ البطشَ في الحديدِ ، أو سنمحو عن الحديدِ مديحَ الجاهلِ . قُلْ :
فليكنِ المساءُ والبطشُ ، فليكنِ الحديدُ والمديحُ ؛ وأهدأ ، فإننا - هادئينَ -
نُلقي النِهارَ كالسَّرجِ جانباً عن ظَهرِ هذه الأتانِ (الأتانِ البَلقاءِ التي واكَبَتْ
الآدميَ بعنادِ قانِصٍ للهِزائمِ الفائِضةِ) ، وهادئينَ نرفعُ جرارَ المساءِ اختِفالاً
بهرطقاتِ المساءِ ؛ وأهدأ ، فإننا عاكفون على بُرعمِ خفيٍّ وجناحِ أَكثَرِ
انقِضاضاً من دمِ العاشقِ ، كيفَما لمَسْنَا البرعمَ لاؤَسَتْنَا لهفَةً المُعدِنِ
الغريبِ ، وكيفَما لَمَسْنَا الجناحَ لامَسْنَا الإيَّاحَةَ ... أيها الهندسيُّ ، أيها
الهندسيُّ ، هَلَّا سَكَبْتَ مثلنا الأقحوانَ في جِرارِ المساءِ ، هَلَّا كَسَرْتَ الجِرارَ
فاستَنهَضَكَ الأقحوانَ؟ وأما نهَضْتَ نهَضْتَ مُشْرِفاً من الجهالاتِ على دُرْعِ
ودمِ ، غيرِ مُحْكَمِ ، لكنَّكَ جِدالُ الجِدالِ وصليلُ الصِّلِيلِ . وماذا نَرومُ إنَّ لَمْ
تكنْ شريداً صاعداً مثلنا سلالِمِ المذبحةِ ، غيرِ مُحْكَمِ ، شاهراً نِصالَ
الغُصَّارِ ، تُرْبِكَ العذوبةَ ويستنفِرُكَ الرِّائِلُ؟ لا ، لا تَقُلْ بعدَ هذا إنَّكَ لم تَرِ
المذبحةَ ، ولم تَلْمَحِ الغُصونَ غارقاتِ في ملاءِها الأروانيَّةِ تنحني على

عقرب المغيب . لا ، لا تَقُلْ بعد هذا إننا سنورثك العذوبة ، أو سنحيط
مداك بالطيور ، وأباريق الأجر ؛ وإنك ستقوم متثاقلاً من رَعْدِكَ لتحصي
إماراتك الأخيرة . لا ، لا ، سنجذب المكان عن المكان فلا تفرق بين
اثنائك الجماد والحاجر ؛ فإن حاولت قنصاً بشباكك حاولنا قنصها بشباك
الحما ، فإن بطشت بطشنا ، وإيان حجبتك البعيد كسرنا البعيد شظايا حول
قرون المكان . لا ، لا ، سنختم المكان بختم المديح ، وسنخوضك خوضاً
بعداثي الخردل وثريات العشب ، رافعين المذاري ، باسطين السلال ، كأن
لا حصاد إلا حصاد دم عادل ، وكأنك البيدر الأخير . ألا لا تَقُلْ بعد هذا
إننا لم نخف عليك فهدرنا مساءك بين المساءات . يعلم الهتك الذي لا
هتك بعده ، أن كل طعنة لامستك لامست البُحْران ، لكنها الخسومة ،
واحتفال التقيض بالتقيض . فانهض لتبصر النهار أحن من بجعة تحت
هذا الجسر الذي لا يصل الضفاف ؛ لكن ، سيكون لكلينا أن يزعج بالآخر
في جداله المعدني : لا ميثاق ، كلانا هاجس ، وكلانا رنين الدرهم على
رخام المساء ، ونغير النغير ؛ أعزلان إلا من بوق صلصالي سيحشد ما لا
يحتشد أمام سلطان الدم . ولسوف ترتد خطوة فأرتد خطوة ؛ ولسوف تقف
من ورائك الجذر والرمال ، وتقف من ورائي الجذور والرمال ؛ ولسوف تمتد
يدك إلى المقبض الزبرجدي للصباحات ، وتمتد يدي إلى المقبض
الزبرجدي للصباحات ؛ ولسوف تنظر إلي ملياً ، وانظر إليك ملياً ؛ لا
ميثاق ، كلانا عارف أن الفاصل البارد من الحصى والظلال - بيني وبينك
- ليس رنة أو دعابة مهرج ، وأن هذا الفاصل البارد المدخر لصواعق الظلال
وكنز الباسل هو الحلبة . . . انظر كيف يدخل الساهرون قناعاً قناعاً ؛ انظر
الزرد المسدل على الجلود ، أو الريش الأنيس على جبين الحيات ؛ انظر
السطوع الأبكم للأسلحة والشعيع ؛ انظر الثافر من دم وطيش . . . كلهم
يدخلون . وكلانا يرى الداخلات أيضاً ذوات بأس ، يصيغن خباء الحلبة

المفتوح على الحيّ ببهاء الأنثى ، ويضرمّن المساء ، رابضات كبقايا سرب
من القوارض على حافة المهزلة ، يلتَمِسْنَ بأيديهنّ - كما تَلْتَمِسُ أَكْلَاتُ
النملِ بخراطيمها ذُوبَةَ الأرض - رِخْواً من المكانِ يَضْرِبُنِ فِيهِ الْوَتْدَ الْآخِيزَ
لاغتصابهنّ الأخير . يا لسلام الأعمدة : كِلَانَا يَرَى الْعِرَاكَ أَيْضاً ، يَرَى
ارتطامَ الجوهرِ وانسلاخات الكائنِ البديعةَ بين أجرامهِ وثمارهِ . وكِلَانَا يُوَدُّ
لو تَرَامَى ، لو اتَّسَعَتْ خطاهُ للخطى والجُرْزِ ، لو أَضَلُّ عَنْ جِهَاتِهِ الْجِهَاتِ
فَكَانَتْ كُلُّ حِصَاةٍ شِرَاعَهُ ، وَكُلُّ دَمٍ قِرَانِ جُذُورِهِ . . . لَكِنْ :

لَا دَفْعَتَكَ مَعِي

بين المعاول
حَادِباً عَلَيْكَ وَأَنْتَ الشَّرِيكَ الَّذِي

بِضِيءِ الْمَقْتَلِ تَحْتَ طَعْنَتِي

وَلَا بَارَكُنُ الْخَرَابَ الْخَرَابَ

عَابِثاً بِالْمَدِينِ عَابِثاً بِالْأَعْمَدَةِ

صَائِحاً :

فَلْيَكُنِ النَّهْبُ

فَلْيَكُنِ النَّهْبُ . . .

كُلُّ حِصَارٍ حِصَارِي أَيُّهَا الْهَنْدَسِيُّ ، فَاصْغَدْ مَعِي فِي مُجُونِ الْمَسَاءِ ، إِذْ
تَهْرَقُ الطَّبِيعَةُ الْأَلْهَةَ ، وَيَسْتَقِظُ الْبَاطِلُ الْحَكِيمُ ، فَلَيْسَ سَوَانَا مَنْ يَنْشُرُ
الْخَوَاتِيمَ وَالْخَوَاتِمَ عَلَى عَتَبَةِ الْكَائِنِ ، وَيَحْشُو جِرَاحَهُ بِالْمَسَاءَاتِ . . . لَا ، لَا ،
كُلُّ بَاطِلٍ سَيَشْهَدُ احْتِفَالِي عَلَى دَرَجِ الْمَذْبَحَةِ ، أَنْ تَلْتَفِ الْأَرْضُ عَلَى
الصَّارِيَةِ وَيَرْسُولَهُبُ الْحُضُورِ ؛ فَلَمَّاذَا تُغْطِي جَنَاحِي بِالْقَنَاقِ ، وَدَرْعِي
بِالْمَأْسَاءَةِ هُبْ ، وَأَنْتَ التَّقْيِضُ ، لَا دَفْعَتَكَ بَيْنَ الْمَعَاوِلِ ، وَلَا أَسْرَدُنَ الشَّرِيدِ .
لَكِنِّي

قبل هذا

سأشعلُ

البهاء

بالبهاء ،

مُمنَعاً في العذوبة يكادُ أنْ يبتكرني النباتُ ، أو يحلمَ الحلمُ بي . حيناً
يتربصُ بي الصباحُ العاشقُ ، وحيناً تنتهيني البكورةُ بخناجرِ انسكابها
الشمْل . وأقولُ : لئنْ نَفَضْتُ ردائي نَفَضْتُ الكافورَ وأجراسَ الكتانِ ، فلماذا
يُعْطِي المساءُ جناحيْ بقناعِ الغريمِ ، ودرعيْ بالمأساةِ ؟ غريباً

ناقضاً

صلح

هذا

الجوهر

سأبيعُ الإباحةَ

وأحلجُ المراثي ...

بعد هذا قد تُهَيِّئُ المسافةُ لي سَكْرَةَ القَطَا ، وقد تُضْرِمُ الينابيعُ بأسَ
المياه فأحتضنِ الخاتمةَ ببأسيْنِ من المياه والعُضَلِ . غير أنني - يقيناً - أهْيِيءُ
القَطَا لسَكْرَةِ المسافةِ ، وأسوِّرُ المياهَ بقنَافِدِ الموجِ ؛ ويقيناً أنْشُرُ الخُوْذَ للبراعمِ ،
وأزَيِّنُ الفصولَ بالزَّرْدِ . ويقيناً أحتُمُ الصِّباحاتِ بعافيةِ الأسلحةِ ، وأدحرجُ
الحياةَ قَرَسَخاً قَرَسَخاً وابتِهالي ابتِهالاً الوَمِيضُ في المقابضِ النحاسيةِ .
وأقولُ : لئنْ نَفَضْتُ ردائي نَفَضْتُ الزمرّدَ والصلصالَ ، ولئنْ استدارتِ
الجهاتُ لَنَ تَفْجَأَ إلّا بي ، واقفاً ، نصفُ قلبي في عقيقِ ذائبٍ ، ونصفُهُ في
الخيانة :

«كانتْ لي أعضاءُ اللهبِ ،

وانقلاباتُ الجذور .
كان لي اللُّهاتُ الطَّلِيْقُ ،
والرثَةُ الراكضةُ إِذْ
تهدأ الرثاتُ .
كان لي ابتكارُ المداخلِ .
وهضم المداخل .

كانَ لي الطَّيْشُ السَّاحِرُ ،
وسُلْطَانُ الجَنَاحِ :
أنا القائِمُ على خَنْدِقِ الفُوجِ ،
سَأَقْتَسِمُهُم ثَانِيَةً
بين الرمالِ والرمالِ ؛
ولن يصلوا - إِذْ
يلبسونَ الصَّفِيحَ -
إِلَّا إِلَيَّ .

غريباً
ناقضاً
صُلَحَ
هذا
الجوهر
سأبيعُ الإباحةَ
وأسرحُ الجسورَ ...
غير أن هؤلاء المُسْتَلَكِينَ كالسُّتَارَةِ على أَدْوَارِهِم سيحزُمُونَ معي

للمناجِلِ البروقَ والمساءَ ، وكانوا يحزمونَ البروقَ والمساءَ للمناجِلِ إذ تَحدُمُ
 المدائحُ ويسقطُ الطريدُ مُشَخَّنًا بعدوِيَةِ العراكِ : ألا كَمْ ركضتُ إليهم قارعاً
 الزبدَ والصَّهيلَ ، كلُّ يدٍ يدي ، ودرعي السنونو . وكَمْ ركضنا معاً ، نازلينَ
 درجَ المذبحه ، أو صاعدينَ درجَ المذبحه ، نكسو الخرابَ بالماس ، ونَسْتَلُ
 الكائنَ كالحريرةِ من حاضره الخفي . لكننا لم نباركْ إلا المباركَ باليأس ، وما
 فاتنا أن نستوطنَ الدُّويَّ ، غامرئينَ اللهبَ بأشكالٍ أكثرَ اشتعالاً . . . ألا ،
 يشهدُ الطَّيْشُ السَّاحِرُ ، أننا جئنا أمامَ المذبحه ، هاتفينَ : «أيتها المذبحه ،

أيتها النبوءةُ الباردةُ في

بُهو الحاضرِ الباردِ ؛

يا ضرورةَ اللهاثِ ،

وبوابةِ البواباتِ :

لن يكونَ قَتْنٌ لعاشقٍ إلا وأنتِ سَهْمُهُ يَتُّها المذبحه» .

ألا ، يشهدُ المكانُ ، أننا بسَطْنَا الصِّباحاتِ لخرابِ التُّرجسِ ، وقَضَضْنَا
 الاختامَ عن عذارى المياه . ولا شتعالَ واحدَ لَمَمْنَا البراعمَ كُلَّها ، والنحاسَ
 كُلَّهُ في سريرِ أعضائنا ، ثم كَشَفْنَا عن الخَضُورِ قناعَ المهرجِ ، لتبدأَ جِبَايَةُ
 الكائنِ في بلاطه الأخيرِ : إِيْدِيْهِ . . بلاطُ أخيرٍ ،
 واغتصابُ أخيرٍ ،

والأخيرُ الأخيرُ من كلِّ شيءٍ :

هنا فليُرَتِّطِمْ الحَيَزُومُ ،

ولتَتَحَنِّ الصَّارِيَةُ .

لكنك أيها الشُّكْلُ ، يا اغتصاباً حاملاً للمذبحه سريرَ أعضائنا ، قادرٌ
 أن تُظِلَّ اللعبةَ ، قادرٌ أن تفاجيءَ بأحبابِكَ ومراياكَ تَرَفَ الجواهرِ . وها

نحن ، بعدَ كُلِّ أخير ، مُرْدَهَيْنَ بِسُلْطَانِكَ نخطو في اتجاهٍ واحدٍ لِسهم
الجدَلِ الصَّافِرِ فوقَ أَقْدَارِنَا : لَيْتَ تَسْبِقُنَا العَجَلَاتُ الخَشْبِيَّةُ وَطَيُورُ
الهياكلِ ؛ لَيْتَ تَكْتَمِلُ حَلَقَةُ الاخْلَاطِ مِنَ العُضَا وَالشَّجَرِ وَالْمَوْتِ وَالْمَدَائِحِ
حينَ نُعْرِي المِساءَ وَسَطَ الأعمدةِ ، ونسندُ الرِّيحَ فلا تَسَاقُطُ أعشاشُها .

وها نحن

بعدَ كُلِّ أخير

مُرْدَهَيْنَ بِسُلْطَانِ المداخلِ نَنحُرُ النَّبَاتَ والأوردةَ ابتهاجاً لهذا الصباحِ
الإخشيديِّ على العتباتِ ؛ لهذا السطوعِ وأبواقِهِ ، للكائنِ راجعاً مِنَ الشَّهْبِ
أَغْبَرَ مِثْلَ صلاةٍ لم يرفعها أحدٌ لأحدٍ . وها نحن ، بعدَ كُلِّ أخير ، نسفكُ
الطُّرُقَ وَنُغْلِقُ الرِّيحَ ، عازمينَ على أن يَكُونَ الحِصَارُ حِصَارَ المَاجِنِ والسَّفَكِ
سَفَكِ طَعِينٍ :

(اغفري يا صباحاتُ ، فقد رأينا النساءَ يدلفنَ مِنَ اللَّيْلِ إلى
اللَّيْلِ ، والنهارُ ملقى بينَ خلاخيلهنَّ على المُنْعَطَفِ . رأينا النساءَ
هَادِثَاتٍ يَجْمَعْنَ أَرْحَامَهُنَّ - كَمَا يَجْمَعْنَ الكَمَأَ - فِي السَّلَالِ ،
وَسَمِعْنَا رَيْنَ الدَّمِ فِي الفِلْزِ ، وصعودَ الأرضِ دَوْنًا صَحْبٍ إِلَى
حَيْثُ يَنْسَى الهَوَاءُ الهَوَاءَ ، وَيَكْسِرُ المَوْجُ دَوَارِقَهُ تَحْتَ جُرْزَةِ
الذَّبِيحَةِ . اغفري يا صباحاتُ ، واختَصِرْ أَيْهَا التَّرْجَمَانُ :

كُلُّ آتٍ دَمٌ ،

كُلُّ آتٍ دَمٌ ،

وَدَمٌ هَذِهِ الدَّلَالَةُ المُنْحِنِيَّةُ تَحْتَ ثِقَلِ المِساءِ وَعِناقِيدِهِ .

دَمٌ ، دَمٌ ،

دَمٌ يَدْفَعُ الزَّنايِقَ بَيْنَ النِّحَاسِ ، دَمٌ

يُضَرِّمُ النِّحَاسَ فِي هَذِيانِ الزَّنايِقِ .

دَمٌ ، دَمٌ . . . عادلٌ ، وفيه ما فيه من
دَرْجٍ ومثايلٍ . عادلٌ وفيه ما فيه من
غزالات الليل وأبواق الخشخاش . عادلٌ ، وقد رأينا البيوتَ
تَحْمِلُ سُرُرَهَا وشبابيكها إليه ؛ رأينا الماءَ طافحاً بهالاتِهِ ينحني عليه
انحناءةً أنشَى ، فصرخنا :

أيها الترجمانُ الغارقُ في بلاغته ،
أيها الترجمانُ ،
لقد رأيتُكَ الأسلحةَ مترجلاً من عربتكِ ،
نافضاً عنكَ البَرْدَ أمامَ المدينة .
لقد رأيتُكَ داخلاً ، ورأتِ الجِوَادُ المنتظرُ
صامتاً ، يتراجعُ خطوةً ،
أو يتقدّمُ خطوةً ،
وحيداً ، تصعدُ من منخريه سَحَابَاتٌ صغيرةٌ من اللُّهَاتِ
الباردِ ؛ ووحيدةٌ انتظرتُكَ العَرِيَّةُ .

جِوَادٌ وحيدٌ ،
وعَرِيَّةٌ وحيدةٌ ،
وكنْتَ الثالثُ الوحيدُ
حينَ خَرَجْتَ غارقاً في بلاغتكِ .
لم تعرفِ الأسلحةَ ماذا فعلتَ في المدينةِ ،
ولم تعرفِ الزَّأْوِيَّةُ التي اخترقَها ،
وَلَا الجَلِيسَ الذي استمالَكَ إلى سَكُونِهِ وحركتهِ .
لقد رأيتُكَ الأسلحةَ خارجاً ،
وحينَ غرقتَ أنتَ والعَرِيَّةُ والجِوَادُ

في زحام اللُغة وأنقاضها ،
 رأْتُ من يهروُلْ إليكَ ملوْحاً ولم تلتفتْ .
 رأْتُ من يلوُحُ ، وخطواته ضَرَاةُ الأَنْثوي ،
 ولم تلتفتْ .
 آه ، قُلْ لها ،
 قُلْ لهذه الأسلحة
 ماذا فعلت في المدينة أيها التَّرجمانُ .
 أيها التَّرجمانُ اختَصِرْ .

وَلَيَخْتَصِرِ الصَّبَاحُ هذا السُّطُوعَ الفَارِغَ من ساعات الأسلحة ، فيها نحن
 أكثر انبثاقاً من كوكبٍ عابث ، لا نحاذي الأرض إلّا لترفعَ للهائنا ودائعَ
 المعدنِ وخيلاء الكراكي . وَكَيْفَما انحنى علينا الصَّبَاحُ شَقَقْنَا الدروعَ
 لينحنى على الصَّبَاحِ بَارِقٌ عَنِيدٌ من الصلصالِ والثَّرَفِ ، مُنَادِينَ : مَنْ مَرَّ
 أيها الصَّبَاحُ؟ مَنْ مَرَّ أيها التَّرجمانُ الجاهلُ حاضناً بيديه المِروِجَ
 والحمامات ، حافلاً بالعواصم؟ وَمَنْ ذا الذي أدارَ اليَنابيعَ على مغزَلِ المديحِ
 ودحرجَ الغيومَ تحتَ الزُّرْدِ؟ قُلْ لَنَا أيها التَّرجمانُ الجاهلُ ، يا صَبَاحَ اللعبة ،
 أيُّ خيارٍ للهَارِبِ من المذبحةِ إلى المذبحةِ؟ لا ، لا ، فَلَيَخْتَصِرِ الصَّبَاحُ هذا
 السُّطُوعَ الفَارِغَ من ساعات الأسلحة ، فقد حَضَرَتِ الأعمدة ، وطَوَّقَ
 الشَّكْلُ الشَّكْلَ الشَّكْلَ ؛ وَها أَنذا

أشعلُ

الأرضَ

بالنهب ،

جاثياً أمامَ التَّوَلِّ ، والنَّسَاجاتِ وَحدَهُنَّ يُضَرِّمْنَ معي النَّسْلَ والخِيوطَ :
 ويا طالما جَسُونُ مثلي أمامَ أنوالهن ، حيناً يُفْلَتِينَ المِهْزَلَةَ ، وحيناً يَخْبِكُنْ

المهزلة ، وأذ يلمخن الكائن بين الخيوط مُصغياً إلى دمه ، حيران ، لا يوقف
الرنين أو يضاعف الرنين ، ينسجّن له المساء ، وينسجّن للمساء الريش
والحناجر مثلي . أنا المحيط بالتؤل ، وها هنّ يُقسّمن الحضور دماً دماً ،
والمكان قَرَسْحاً فرسْحاً ؛ أنا المحيط بالتؤل ، سهواً أيقظني الأرض ، وها أنذا
أدفع الأرض عَنوةً في سراديب الأليفة ، وأرى كيف يُوصِد المكان المكان ،
وكيف تُنتهب الأبدية .

(أين هذا كله من ساعات انحساري عن الفراغ العريق ، حين
كانت الأرض توأماً للحناجر ، والجذور مَسْأَحَب من أذيال
الطفولة؟ أين هذا كله من ساعات انحساري عن الإمارات ورحم
الرحم ، حين كانت الشهب أكثر قَنَصاً لمجاذيف السرخس ، والنهار
أكثر امتلاء بزوابعه البيلسانية؟ . يا ما حسرت رداثي عن ثلوج ،
وشمنت الغصون ، مُرجشاً كل برهة في الحجر إلى ترف ، وكل
بزوغ إلى بزوغ عظيم . وفي هذا كله ؛ في ساعاتي البأسلة ،
وازدهائي بدم ساحر كزغب الحطّاف ، لم أختصر البعيد ، ولم
أستوثق الوحشي : قلت : لا ، فليكن البعيد بعيداً ، وليكن
الوحشي سيّاف الحاضر الملؤل . . أين هذا كله من توافري واتصالي
حلقه حلقه عبر صليل الأعماق وانحلالها ، حين كان الظلام تيساً
في القطيع الكوكبي ، والسابل خطى الصباح اللأهي؟ . . ألا يا
نجدة لن تصل ، ها قد وصلت النوافير بالأبواق ، وها متاهي حنون ،
والنِزاة شهقتي العالية . غير أنني يباغتني السوسن الكسول والزائر
الأقحوان فأنثر اشتعالي برعماً برعماً ، وردائي غمامة غمامة ،
ناسجاً للندى براقع الزعفران وللعرء الحليف قناع الهادي : أنا
الداخل إلى الصباحات بشيراني البهية ذات الخوار البهي ، مُحيطاً

برداثي الشعالب وبنات أوى ، وهذا انحساري عن الفراغ العريق
حين كان المساء قانعا بدَوْرِهِ الْمُرتَجِّلِ على دَرَجِ الملهاة ، والفَخَّاحِ غيرِ
مُحَكِّمَةِ لطرائد الأزمنة . غير أنني يباغتني هياجُ الكائن قبل أن
يرتدي جُهِالَةَ الدُّوْرِ ، وحُمَى شَكْلِهِ الأحمق بين الأشكالِ ،
فأهتفُ :

رويدا ،

سأكون الحاضر أيها الكائنُ

من أجل وقوفك الطويـ

يـ

يل ،

مصغياً إلى ثناء زوجة السيّد في المأدبة ،

وإلى رنين الزرّد على صدرك اللاهثِ

تحت ثقل انتصاراتك الصغيرة .

سأكون الحاضر أيها الكائنُ

من أجل يأسك

وبهائك الشريد .

سأكون الحاضر أيها الكائنُ

من أجل أن عملاً يدبك بالمويل ،

وشفاهك بالإشارات .

سأكون الحاضر أيها الكائنُ

من أجل أن تُعلمي البأسَ وسَطَ الأعيادِ ،

وتاجك تاجَ الهارب .

سأكون الحاضر أيها الكائنُ

من أجل أن أراك ، وسَطَ هذا كلِّه ، غريباً رافعاً معي الأبهة

الصلصالية حين تأتي المناجلُ ، ويأتي المخطورون وآلاتهم ، ضاربتين
على الصنّج الصّامت لأحلاف اللهب ..

هيا ،

إنّها

ساعة انحساري عن الرماد العريق
وكنزه البربري) .

وماذا؟

أنا الأمين على المراثي ، المحفوف بخواتم الانقراض ، فتحت لكم
مداخل المساء السيّد : ها رماحه وجوارئه ، والحلبة المنتظرة إشارة المهرج .
ولكم نهرت الأدرج بمهاميز الليلك ، وأوثقت باللبلاب حاضره المهزلة . هلاً
أزفتم إليّ ، هلاً أحطتم جبيني بالجباه والفيروز ، وكمتمتم فمي
بالجهات ؟ ... آه ، كم تغرورق عينايا بالمعدن وأوشك أن أفنع البروق أنها
ثرثرة العالم الكهل إذ أراكم تخرجون من الزبد حاضنين الأقفال ، كأنني لم
أهيب الباسل للباسل ، ولم يرتفع رنين العواصم الساقطة على رخام
العراء :

بهيجاً ،

بهيجاً فليكن خضوعي ليقظة الحي .

بهيجاً ،

بهيجاً ، فليكن حصاركم أيها الراحلون .

وماذا؟

أنا المباهي بدم عادل أفرغ المساء الآن - هذا المساء الصديق - بيد لا
تسار لمعدن عليها ، وأخطو داخلاً فتخطو معي الجذور وأبواق الصلصال

والصباحات؛ تخطو الرمالُ معي والهبالكُ ولهبُ الينابيع والطفولة؛ تخطو
 الرياحُ والثراتُ والقنادسُ؛ تخطو المداخلُ والأقحوانُ؛ يخطو الرماذُ والدروعُ
 وأعراسُها؛ ويخطو اللبلابُ وابنُ عُرْسٍ وجواري المياهِ والنساجونُ؛ تخطو
 الجهاتُ معي؛ وتخطو الأقفالُ والحجلُ واللبناتُ؛ تخطو المذبحةُ والعرفجُ
 والأقنعةُ وسننونا الأجرُ؛ يخطو المهرجُ والثيرانُ؛ تخطو الأسلحةُ معي.. أنا
 المتباهي بدمٍ عادلٍ،
 بهيجاً

بهيجاً فليكن خضوعي ليقظة الحي.
 لكنني،

حين يزدحمُ بهوُ الصلصالي لهذا المساءِ بالعاشقين، وتغفو أدرجُ
 الحلبةِ والحيادُ، أخطو خارجاً من المساءِ الصنديقِ كأني هُدنةٌ إنقصتُ،
 عارياً من جديدٍ، وجسدي الحبرُ والمياهُ.

(كيف أنسى أنني خرجتُ، قبل هذا، من المساءِ لايساً زُرودي
 وعذوبة المعدنِ النبي في الأسلحة، عازماً علي أن تكون جرازُ
 الكائن جرازُ نهبٍ عادلٍ، وصباحاته أكثر انشغالا بفحولة الثبات؟
 وكيف أنسى أنني تقرّيتُ الهُبوبَ الموائمَ لانتشاري على الدروعِ
 والبراعمِ، أو أنني التمسْتُ مسارِبَ الدمِ في كل حيٍّ لاصعدٍ في
 الدمِ خافئاً كالعويل؟.. لا، مُذْ خَرَجْتُ لم تُشِرِ البوصلةُ إلى
 الجهاتِ :

كلّها تتناسخُ في حصارٍ واحدٍ

واحدٍ

واحدٍ.

والذين جاءوا قبل هذا المساءِ كانوا مثلي يملأون قريتهم بالماء،

وخوذاتهم بالنجوم الزعفرانية ، مُصْفَيْنَ إلى اندفاع النَّهَارِ التَّيْسِ
 وقوائمه الرُّشِيْقَةِ عبر البهو الأخير ، حيث ترفو ألباءُ أسماؤها
 وتختزلُ الخيوط . أَلَا كَمْ هَتَفْنَا : «أيتها الجالسةُ أمامَ تَوَلِّ الأشكالِ ،
 يا حنينَ أبعادنا ، وبلادِ البلادِ» ، ولم نقصدُ أحداً بالهتاف ، لأننا
 مُدْ خرجنا من المساءِ لابسِينَ الزُّرُودَ وعذوبةَ المعدنِ النَبِيِّ في
 الأسلحة ، لم تُشْرِ البوصلةُ إلى الجهاتِ : كُلُّهَا تتناسخُ في حصارِ
 واحد

وأحد

وأحد

واحدٌ .

بهيجاً ،

بهيجاً فَلْيَكُنِ الحِصَارُ في يقظةِ الحي .

بهيجاً ،

بهيجاً فَلْيَكُنْ حينَ أشعلُ الأرضَ بعد هذا بالجمهراتِ ، طاعناً
 كالحاربِ بنصالي الأرجوانيةِ المرايا والأسماءَ ، ولي جَهَالَةُ الصَّبَاحِ
 وأنقاضه ، صاعداً درجَ المذبحةِ لأجرفَ البقايا التي أغفلتها الخوافِرُ
 والأسلحةُ ؛ صاعداً لا أربعَ الأتوالَ من تَسْجِها ، وأهيبُ بالتَسَاجَاتِ أَنْ
 اصْبِغْنَ بالنحاسِ الخيوطَ ، وأكثرنَ من النقوشِ على نسيجِ الخرابِ . وقد
 ينتابني ما ينتابُ الأنقاضَ من حنينٍ إلى اندثارِ بهي ، فأهتَفُ : لا ، يَتُّها
 التَسَاجَاتِ اكسِرْنَ أنوالَكُنَّ ، واتركنَ للغبارِ أَنْ ينسجَ النَسِجُ من صخبِ
 اليباسِ وباسِ الجذورِ ، وليكنْ بعدي مدى ضيقٍ ، ومفاتيحُ تذوبُ كُلُّما
 رفعتها البراعمُ نحوَ أقبالها ، وليكنْ مساءً كوحيدِ القرنِ ، ثقيلًا يطأُ الأبواقَ
 الصلصاليةَ والأعمدةَ ، ويجرفُ الغزالاتِ ؛ لا صحوً فيه إلا ليجعِ هائمٍ

وخلد أعمى . وليكن نهاراً وطياً بعدى ، ذو شروخ ، يجوسُ في المدى
الهندسي للخواب كإوزة المستنقع ، زحفه زحفُ فقمة تجرُ ذكراً مقتول ، أو
كأنما أطبقت الغيوم بأنيابها عليه ، وشققته مخالبُ النبات . ليس فيه
شرخ إلا وفيه كوكبٌ مهرجٌ وحدادون يطوفون بمطارقهم حولَ حلوةٍ لا
تُرى . وليس في تجاويقه غيرُ قرونِ الذبائح ونفيرِ الهباء . وأهتف : أكثر ،
أكثر احتداماً فليكن الحجرُ بعدى ، فليطلُ على العراء بأسلايه ودفوفه ؛
فليمس بطيلسانه وخزه التخوم . وأعلى فليكن هرجُ اليباس ، وأشدَّ مَرَحاً
فلتكن خيلياته الراكضاتُ بتيجانهن الصغيرة من الجذور ورؤوس الحدآت
الميتة : «أيها اليباس ، أيها اليباس ، لعلك لم تقفَ بيننا قبل هذا ، أو لعلك
كنتَ تنظرُ أبعدَ وأنت واقفٌ بيننا ، فأغفلت هذه البقية . . خذُها أيها
اليباس ، خذُها بوضّة بوضّة ، وقميصاً قميصاً ، ومُدّ في ايوان أعضائنا
المائدة لنملأ لك الصحافَ الخزفية بساعاتنا (ساعاتِ النهبِ وانحسارِ
الكائن عن برزخه ، حيث تنتشرُ قلوعُ الخفي ، وتتعريُ الصواري لفحولةِ
الجهات) ، واختمْ بختمك المصارع ، مهرولاً ، كلّما ختمتَ مكاناً إلى
آخر ، وحولك عَجولك^(٤) ومصابيحك ، مُطلأً من الأعلى كأنك عَرَفَ
دبك أو زرافة . أيها اليباس . . . » .

وأنت يثها الغيوم ذوات العكاكيز البحرية ، يا فضة الرّحم ، فليكن
مجيبك مجيءً إليه إلى ثيه . وأهتف : أجراً فليكن الرماذ ، طليقاً كشهيقِ
منفاخ الكور ، ورثته الخطي التي لا تعود : «أجراً ، أجراً كنُ أيها الرماذ ،
خاوياً دمثاً في الخواء ، وافتحْ صناديق حليكَ للنهب ، هاتفاً : ألا لا يرجعنُ
أحدٌ دون نهب ، ألا لا يرجعنُ أحدٌ » . وأهتف قُم أيها المعدن ، وليكن

(٤) انظر الملحق ، فصل «بقرات السماء» .

رَبْنِكَ أَنْبِجَاسَ الْهَزَائِمِ وَانْدَحَارَ الْبِذُورِ ؛ تَمَلَّأْ شُدَّ إِلَيْكَ الْبِنَابِيعَ عَضُوءاً
 عَضُوءاً ، وَالثَّمَّ الشَّفَاءَ الْحَبِيبَةَ فِي الْأَعْشَابِ ، كَأَنَّكَ سَقَفٌ لَنْ يُؤْوِي إِلَّا
 الَّذِي لَهُ رَبْنُكَ التَّحْمِيلُ . بِهِيَا فَلْتَكُنْ أَيْهَا الْمَعْدُنُ فِي أَشْكَالِكَ وَنَهَبِكَ ،
 حَاضِراً حُضُورَ الَّذِي لَا حُضُورَ إِلَّا بِهِ ، وَلْتَكُنْ مُبَاغِتاً تَحْتَمُ الدَّمُ بِخَتَمِ
 الصَّلِيلِ وَالْفَلَزِ . أَمَا أَنْتَ أَيْهَا النَّبَاتُ ، يَا مَرْكَبَةَ اللَّهَاتِ وَتَوَامَ الْحَرَكَةِ ،
 فَاخْلُغْ خِمَارَ الْمَدَائِحِ الَّتِي صَاغَهَا الْخَارِجُونَ مِنْ وَقْتِهِمْ ، وَلِيَكُنْ يُخَضُّووكَ
 شَتِيئاً ، وَأَلْيَافَكَ سَكْرَى بِأَنْبِنِ الثَّمَارِ فِي ذُبُولِهَا . وَلَمْ أَنْسِيَابَاتِكَ النَّاعِمَةَ
 أَيْهَا النَّبَاتُ ، لَمْ فَرَأَ الْأَكْصَامَ الْمَهْيَاةَ لِلنَّحْلِ وَالْفَرَاشَاتِ . وَاهْتَفْ : فَلْتَكُنْ
 حَذَاةَ هَذِهِ الْمَيَاةِ أَطْبَقَتْ عَلَيْهَا الْفَخَاخُ ، أَنَا تَنْقُرُ الْحَدِيدَ ، وَأَنَا تَنْقُرُ الْجَنَاحَ
 مِنْ هِيَاجٍ وَذُغَرٍ ؛ وَلَتَنْخَبِطُ وَسَطَ مَهَامِيزِ الْغَمَامَاتِ وَالظَّلَامِ ، غَبْرَاءَ فَضَّتْ
 عَنْ جَرَانِهَا الْمَوْجَ ، وَعَنْ يَرَانِيعِهَا غَشَاءَهَا الْقَصْدِيرِي : تَأَيَّتْهَا الْمَيَاةُ ، يَا
 الْحَاضِنَةَ تَحْتَ أَنْدَانِهَا الْجِرَاءِ وَالْيَرَابِيعِ ، فَلْتَكُونِي حَذَاةَ الْيَابَسَةِ وَأَسْمَالَ
 الْمُهْرَجِ ، وَلْتَكُنْ يَذُكُ الْبَيْدَ الْمُفْسِكَةَ بِالْخَنَاجِرِ وَأَعْلَامَ الْوَقْتِ . وَلِيَكُنْ بَعْدِي
 نَشِيجٌ بَطِيءٌ بَطِيءٌ

يُ
يُ
يُ

سَيءٌ

أَنَا الْقَهْقَهَةُ الْبَطِيبَةُ لَا فَوَلِ بَطِيءٌ .

وَلَكِنِّي ، فِي غَمْرَةِ أَنْسَكَابِي مِنْ مِيزَابِ هَذَا التَّشِيدِ الْفَاحِشِ ،
 أَسْتَدِيرُ ثَانِيَةً نَحْوَ الْخُبَارَى وَالْكَرَاكِي إِذْ تَعْبُرُ الْأَعْمَدَةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ حُصُونِ
 الْمَسَاءِ ، كَأَنِّي نَسِيتُ أَنْ أَصْرُجَ الْأَجْنَحَةَ بِابْتِهَالِ الْكَائِنِ ، وَأَنْ أَجْعَلَ
 الْهَوَاءَ رَحِيماً فِي الْمَنَاقِيرِ . وَأَسْتَذْكُرُ فَالَوْحَ لَهَا بِالْفُصُونِ ، مَغْمِضاً عَيْنِي عَلَى
 أَفْقٍ كُلِّ مَا فِيهِ طَيْرٌ ، وَأَعْضَائِي عَلَى سَطَوَعٍ رَاكِضٍ بِسَيْفٍ أَزَاهِيرِهِ .

وأقول: ريشما أشهدُ الينابيعَ خَوْذَةً تندحرجُ على عتبةِ الصباحِ ، والنَّباتِ
نَوَاساً لساعةِ النَّهَبِ ، ستكون هذه الحُبَّارى والكراكي سَلَامِي المَسْنَدَةَ على
لهبِ حنون . وفي غمرة انسكابي من ميازيبِ الليل حاملاً اختامَهُ
وفوانيسَ أرواحه الطَّعِينَةِ ، أَسْتَدْرِجُ النَّدَى إلى مديحي ، وأغوي السهول ،
مُهْرِقاً كنوزي البربريَّةَ للأعشابِ ريشما تنهضُ الأرضُ ثانيةً في عويلِ
الكائن ، ويزدهي الرمادُ بأحناشه ووعوله ، لا لَأَمْنَحَ الأرضَ حَظْوَةَ اللُّهَاتِ ،
أو الرَّمَادَ حَقْفَ دمِ عادل ، بل لَأَضْرِمَ النَّهَبَ ثانيةً ، قارعاً الرمادَ بالرمادِ ،
والأرضَ بأنقاضها ؛ وليكنْ نَهْبِي نَهْباً بطيِّ

يـ

يـ

يثأ

أنا القَهْقَهَةُ البطيئةُ لأقولِ بطيءٍ ،
وطبعتي طبعُ المساءِ .

(قبل هذا ؛ قبل دخول اللهبِ عارياً على نجمةِ الهواءِ البتول ؛
قبل أن يغمدَ الغبارُ نَصَلَ جداله في العراءِ ، وتَلْتَقِطَ البراعمُ خَرَزَ
الجدورِ الهاربةِ ، كُنْتُ مُتَكِنّاً على سياجِ الصباحاتِ وقناعي القُرَى
والمياهِ ، أُنْظِرُ الكائنَ داخلاً من الرياحِ على أعراسه ، قارعاً بأبواقه
الصصاليةِ حدودَ البروقِ ، شفيفاً ، تَخْطُرُ الفَرَاشَاتُ بين أليافه
وشرايينه ، وتَعْبُرُ اللُّقَالِقُ سَرِيّاً كأبجديةٍ لم تَكْتَمَلْ . وكان النباتُ
مثلي مُتَكِنّاً على سياجِ الصباحاتِ ، نشوانٌ من صليلِ الجدورِ في
جهاثها الخفيفةِ . مَرَحاً كان النباتُ في ثمرتهِ ثماره ، وانشغالَ الزَّهْرِ
بِدُعَايةِ المياهِ . وكانت الكواكبُ مُتَكِنَّةً مثلي على سياجِ
الصباحاتِ ، عاقدةٌ حولَ غُصُورِها مراوِيلَ الفراغِ العريقِ ، تنشُرُ

للجهات المهرولة كالجرأ غنائم الأعالي . غير أن الأرض وحدها
بين هذي الكواكب كانت تنشر الرنين الإخشيدى للفقر،
والأغمدة، والهوام، مُتَكَفئة على سياج الصباحات من دون قناع
في احتفال الكائن بالأقنعة : ألا أنني رفعت للأرض - قبل هذا -
اختام العذوبة، ورفعت للأرض أضُمومة من ورق البردي، هاتفاً :
« اختتمي أيتها الأرض هذا البردي باللهاث، اختميه بالخشاش
والرئات، اختميه بالحناجر، بالماء، بالخطى التي لا تصل؛ اختميه
بئها الأرض بالنقيض المبارك ». وللأرض وحدها - حين كانت
تنهدل على سياج الصباحات في انتظار الكائن - غسلت الكائن
بالصليل، تاركاً لخطاه أن تتوازي في مجده الغريب . غريباً - قلتُ
للكائن - ادخل العراء، ولتَنقُر الشعاعات نفس روحك
الذهبي ... إيه، قبل هذا، قبل أن يبارك المبارك ويقتنص المرئي
أشكالنا؛ قبل أن يعرف الظلام أنه صنو الباطن، ويعرف الضوء أنه
سليل المئاه، كنت لا أحتكم إلا إليّ، عادلاً كنت، شغوفاً باللهو
الغامض، حياً حياً، كأن كل حياة أوثقت إلى سياجي غزالاتها
خوف أن تشرد الغزالات، وارتمت قريبا لتنام . أنا المتلائيء وسط
العناقيد الزرقاء للمياه وفاكهة النحاس، شغوفاً كنت باللهو
الغامض، أدخل الصباح بسلام الغيوم، وأرجع في المساء مُثَقلاً
بإرث المساء : كل قناع قناعي، وعباءتي الأسراب الطويلة من
ثعالب السهول . وها أنذا، قبل أن تكتمل الأحاديث عن بساوتي
ويأسي، أرى أنجباساً رهيفاً وسط الصلصال، وأشم عبق الكائن
في خمائر العراء : إنها نزهة الأرض في طيشها . إنها نزهة
الأرض .

طَبْعِي طَبْعُ الْمَسَاءِ ، وَلَا مَنْ يُنْشِدُ الْمَسَاءَ .

يا حاملاً رنيني ، أيها المديد وسط المساء ، هات النشيد مُضِيْقاً
كَمَدْتَب مُرْجَانِي ، وانتِ اللهاة كَالسَّمُ عَلَى رَغِيْفَا ، فها نحن ثانية
أمامَ الحَلْبَةِ ، وأبوأنا الصِّلصَالِيَّةُ عَلَى أَهْبَةِ التَّفْصِيرِ رِيْشَمَا تَحُلُّ الْآبَاطِيلُ
عناقيدَها مثل ذَوَابَاتِ النِّسَاءِ ، وتلبسُ المِياهُ قناعها الباسلَ ، وها نحن ، في
اندفاع الدَّمِ هاذِياً إِلَى وَرِيدِ الْعُنُقِ ، نشدُ راحاتنا ثانيةً عَلَى مَقَابِضِ
النُّعْمَةِ ، وَعَيُونُنَا لَا تَفَارِقُ الْمَكْمَنَ الْأَكْثَرَ مُقْتَلًا لِهَذَا الْكُوكَبِ الْآخِرِ . .
لَا ، لَنْ يَكُونَ طَغْنُنَا فِي الْمَقْتَلِ : سَتَسْتَدْرِجُ الْكُوكَبَ إِلَى فِرَاغٍ آخَرَ غَيْرِ
الْفِرَاغِ الْوَصِيفِ حَوْلَ كُوكَبِ الْمَسَاءِ ؛ إِلَى فِرَاغٍ أَكْثَرَ غَمْرًا بِرُغْفَرَانِهِ
وَبِرَاعِمِهِ ، حَاقِ ، يَسْنُ النَّصَالُ بِمِبَارِدِ الشَّرَفِ ، وَيُصْغَعُ الْمَقَابِضُ بِالْجِدَالِ .
وَسَتُلْقِيهِ بَيْنَ الْخِلَاحِيلِ الْخَفِيَّةِ ، لَا يَسْتَرِدُّهُ الْكَائِنُ إِلَّا نَهْجًا : أَلَا أَيُّهَا
الْكُوكَبُ الْآخِرُ ، يَا الْآخِرُ كَأَبَوَانَا ، حِينَ لَمْ تَكُنْ خَرَجْتَ بَعْدُ مِنْ
صَوَاعِقِ الْفَلْزِ وَالْغِبَارِ ، كَانَتْ قَدَمُ الْكَائِنِ مُثَبَّتَةً عَلَى حَافَةِ الْفِرَاغِ ، وَيَدُهُ
تَتَقَرَّى أَعْمَدَةَ الْمَسَاءِ . تَرْقَا كَانَ ، يَخْلُطُ الصَّبَاحَاتِ بِنَحَاسِ زَرْدِهِ ، وَيَضْرِبُ
بِبُوقِهِ الصِّلصَالِيَّ كِرَاكِي الْبُرُوقِ . وَكَمْ تَعْرَى مِنْ صِلْصَالِهِ لِيُرِيَ الْبَعِيدَ
عَذُوبَةَ الْبَعِيدِ ، وَيَكْشِفُ الصَّبَاحَاتِ النَّائِمَةَ حَوْلَ زَمْرَدِ الدَّمِ . غَيْرَ أَنَّكَ أَيُّهَا
الْكُوكَبُ الْآخِرُ - خَارِجًا مِنْ صَوَاعِقِ الْفَلْزِ وَالْغِبَارِ - فَاجَأَتْهُ بَيَقَيْنِ
الْأَبْجَدِيَّةِ ، فَاجَأَتْهُ بِالْمَكَانِ ، فها هُوَذَا ، جَائِيًا أَمَامَ الْيَنَابِيعِ - لَا فَضُولَ فِي
قَنَاعِهِ - يَسْرُدُ لِلْمِيَاهِ حِلْمَ الْآخَرِينَ ، وَيَنْسَى كَيْفَ يُبْرِمُ الْخَفِيَّ وَيُنْقِضُ
الْخَفِيَّ ، وَهَا أَنْتَ فِي أَسْمَالِكَ الْمَائِيَّةِ تَكْسِرُ مَجْدَ الْمِيَاهِ مَوْجَةً مَوْجَةً عَلَى
بَابِ الْكَائِنِ ، وَتَتَقَصَّى الْبَيَقَيْنِ فِي الشَّرَاهَاتِ الْحَيَّةِ . آه ، أَيُّهَا الْفَاتِحُ
الْمُسْتَسْلِمُ ، يَا كُوكَبًا آخِرًا آخِرًا ، أَيُّ كُوكَبٍ آخَرُ يَعْبُرُ الْأَعْمَاقَ وَيَحَاقِذُكَ؟
أَيُّ كُوكَبٍ يُحِيطُكَ بِحَصَارِ الْحَيِّ وَيُلْقِي بَيْنَ أَسْمَالِكَ الْمَائِيَّةِ بُوقَ الْيَابِسَةِ

والحروف؟ وحيداً خَرَجْتَ من صواعقِ الفَلزِ والغبارِ ، وحيداً خَرَجَ الكائنُ
 من صليلِ الأسلحةِ ، وها أنتما تَقْتَسِمَانِ المَسَاءَ والنذورَ . . . لكنني - يقيناً
 - أشمُّ في هذا المغفلِ المباركِ لكائناتِ المَرَحِ طِيبَ كواكبٍ أخرى أيها
 الكوكبُ الأخيرُ :

(هناك ، في السديمِ العابقِ برائحةِ الكُتَّانِ والريشِ ؛ في السديمِ
 المُغْتَبِطِ بمراكبِ الهَيُولَى وتفتُّحاتِ اللأمِريّ ؛ هناك ، أعلى قليلاً
 من مُستوى الهديانِ ، نهَضتِ الكواكبُ من المراثيِ ، دافئةٌ كَسَلَى ،
 تَقْصِبُ جباهها بمَناديلِ البُكُورَةِ وتَتَعَلَّ الجِهاتِ . وفي السديمِ
 المُغْتَبِطِ بأساورِ النبوةِ ، هناك ، أعلى قليلاً من أفقِ الحصارِ العظيمِ ،
 تقدَّمتِ الكواكبُ في رُدْهاتِ حُلُمِها ، تحفُّ بها الرُّجُومُ الضَّريرةُ ،
 وتُرْجَمُها المَساءُ . تنتظرُ ، ولا تنتظرُ ، كأنها قادمةٌ إلى نفسها خارجِ
 السديمِ ، خارجِ مَخْدَعِ اللأمِريّ ، خارجِ العذوبةِ المسدُولةِ على
 مداخِلِ الأعالي . لا . . . كانت قادمةً من هناك في لَهْفَةٍ
 المُستَوْحِشِ إلى شريكِ غامضٍ ، تلتَمِسُ في عذاباتِ الكائنِ
 مداراتها الضائعةِ وكنوزَ الليلِ . لكنها لم تنحدرْ أكثرَ ؛ كانتْ
 حدودُ مُضِبَّةٍ بينها وبين الكائنِ الأخيرِ ؛ حدودٌ تفتُّحُ كأكماسِ
 الجُورِيِّ ، وتُصَفِّي في جلالٍ إلى جَدَلِ المياهِ والعيولِ . وها هي
 ذي ، أعلى قليلاً من مستوى فأسٍ في يدِ المحاربِ ، مختالةٌ بأقراطِها
 المرمريةِ وانعكاسِ خواتمِها على نَضَلٍ ، تُؤمىءُ إلى المَساءِ
 المُهْرَجِ . . . ويبدأ المَساءُ)

يقيناً أيها الكوكبُ الأخيرُ أنكَ توأمُ المَساءِ ، توأمُ البُرْهَةِ المُلْتَفَّةِ باللهاثِ
 وخيالاتِ المَعْدِنِ . يقيناً أنكَ تفتُّحُ الآن حدوداً ثانيةً للرُّعبِ ، وتُموِّهُ

الجدور، طاعناً حيث لا يكون طَعْنٌ إلا في المقتل، ناصباً مراياك لانهلال
 اليابسة والمناجل المقتحمة حصاة الينابيع. وأزعم - وهذا زعم الكائن
 أيضاً- أنك لا ترى من الدم إلا البرزخ الأكثر ازدحاماً بالأحباب، ولا ترى
 في خيمة الرماد إلا قيان الرماد. لا، لا، أيها الفاحش في الحضور، يا توأم
 المساء: هذي أسلبتنا وقربنا البقطينية، وهذي مدائحنا التي لم تكتمل،
 لسنّا غدها إليك، بل تُريكمها امتداداً لنهب عادل أيها الكوكب الأخير،
 وأما فتحت صناديقنا لمست فلادات الدم، والقرى، وأباريق الحاضر الملول.
 ألا انحسر قليلاً عن رثائنا أيها الأخير، يا فسيفساء النهار الأخير، لتتقرى
 بأناملك اللهاث الأبعد تحت الأغشية؛ اللهاث المبارك لبراعم الصلصال.
 واذفع أناملك أبعده، في رثائنا، أبعده، إلى حيث تشرذ المروج للأبدية
 ثرّهات البقول، إلى حيث الأسلحة وصحب الأفحوان. واغبط - إذا شئت
 - هذا الدرج من الأغشية والدم المشدود إلى دؤوبته الحية، ستصرخ: «هذا
 قناع في أسفل الدرج، وهذا غد أرامي»، ولربما صرخت: «علامة هذه
 الأرائك كلها في رذعة الرثاء؟ علامة هذه الفؤوس والأقفال؟»... لا، لا،
 أيها الفاحش في الحضور، يا صريراً أخيراً لباب المساء الصدى، أنت لا
 ترى من الدم إلا البرزخ الأكثر ازدحاماً بالأحباب. لكنني لن أضيق
 عليك الآن طوق المراثي، بل سأكثر البناء على الجالسين أمام ساعاتهم
 الرملية وهم يجوفون الجهات كجحر التبرّج، وحين ينهضون ستنهض أنت
 أيضاً أيها الكوكب الأخير، أجوف كجحر التبرّج، ولن تردّد الجهات بعد
 ذا إلا القهقهة البطيئة لأفول بطيء

ـ

ـ

حيث:

أنا القهقهة البطيئة لأفول بطيء.

عادلاً كطعنة عادلة فاجأت الأرض (تلك المستلقية تحت غشاء شفيف من الأحماض والتفوش) ، ولم يكن معي غير ترجمان الصلصال . قلت فلتجىء كائنات المرح ، فهذي فحاخ الأرض ، وهذي فحاخى (كلانا يهيمه مقاديره ويستميل النساء) ، فلتجىء كائنات المرح لتغسل بالدعابة هذا العراك المحتدم وهذا البطش . فلتجىء لتحتكم إلى المرح في اشتعال الدم . . . وجاءت كائنات المرح لفيقا لفيقا كطيور الوزور ، تتدلى أبوابها من الأحزمة النباتية ؛ قلت فلتأت النساء أيضاً . . . وجاءت النساء ، كان لهن رائحة الكرب ، ولما تزل في ذواباتهن بقايا زهر وطلع ؛ هادئات جفن ، لكنهن كن يتوجسن قلقاً من الأرض مثلي ، ومن ذلك الأقول المتعاقب للأفق بين خيام المياه . قلت فليأت الصخب أيضاً ، فليأت المبدد الباسل للسكون الباسل . . . وجاء الصخب بطراً يعايب من حوله عذارى النحاس :

(قبل هذا جاء البناؤون ، وتهللت الهندسة)

قلت : ماذا أيضاً؟ ها اكتمل الحضور . .

إِله

يُهِ

عادلاً فاجأت الأرض ، قلت فلتكن خصومة عادلة : هذي فحاخ الأرض ، وهذي فحاخى ، وكلانا سيلتصم في احتدامه أن يشد أزره النساء . قلت : من أجل أن يكون سلطان الكائن أكثر ترفاً بين أترابه من ملوك المياه والنبات أبداً هذا كله . . . لكن ، حين اكتمل الحضور فاجاني الكائن فالتبست علي الخصومة : فحاخ بيني وبين الكائن ، وفاصل يقتسم على جهتيه النساء والصخب ، وكائنات المرح . وها كلانا يلتصم في احتدامه أن يستميل النساء . وبيننا ، بين هذي المعاول ولهايها المعدني ،

وحدها الأرض ترفعُ القهقهة البطيئة نذراً للأفول البطيء.

حيء.

أنا القهقهة لن ترفع الأرض نذرها إلا معي . أما أنت أيها المساء ، يا
هذه أعماقنا ، فيك ستحل الأتعة وتكشف السرايب الحليفة لنخرج
من حصار النعمة أكثر نزقاً فنحكيم الحصار على النعمة ؛ وفيك سنقسم
أسلأتنا من النهارات الصغيرة كدروع السلاحف ، وعيوننا لا تفارق المكنن
الأكثر شرخاً في الأبجدية ، لأننا وهبنا الأبجدية خطانا فلم تصل الخطى
أيها المساء . وها نحن - إذ نقسم وسط مرجك النهارات والهوى - نصيح :
فلتسع الشرخ ، فليتسع الشرخ فلا يصل الكائن إلى الكائن إلا نهبا ؛
وسنغرل وسط مرجك أيها المساء مساءتنا ، لاجمين الألق الحي للأعمدة
لئلا يجفل الكوكب الأخير . وفرسخاً فرسخاً سنعري النبات والتخوم من
أقنعة النهار ؛ فرسخاً فرسخاً سنحيط بالظلام الأشكال ، ونفتح المرنى
وصليتنا صليل البعيد : هيهات أيها المساء ، هيهات . لن ترفع الأرض
نذرها إلا معي ، ومعني ستدخل الانقراض والأبجدية حصار الحي أيها
المساء . لكنني مزعج على أن أهرق النشيد ، وأسلم الحي للإباحة ، طاعياً
كالسديم ، يتواطأ في فتحاتي الرماد والمياه . وكأشد ما يكون رنين الحي في
اجتياح الأنثى سامرج رنيني بالسديم هاتفاً : «لَتَخَالُثَكَ الكواكب أيها
السديم فتفتحت كاللهات ثانية وقردت شراع المراكب لرياح الأشكال .
ولَتَخَالُثَكَ عاكفاً على أقفال الصباحات بمفتاحك الأرجوانية تطلق سراح
الحديد والسنابل» . . . أعرف أن السديم سديم ، والكواكب هناك ، أعلى
قليلاً من مستوى الهذيان . وأعرف أنني هنا - وسط النشيد المتهدج وفؤوس
المصالح - لا أزال راكضاً أمام جمهراتي ، مستنقراً بقايا البقايا ، وما تزال
الجمهرات مثلي تسبح بالخرف تخوم أيامها ، وتنصب السلالم على أعمدة

المساء ؛ ومعاً لا تزال أمام مداخل الخَلْبَةِ ، نرقبُ المِدارِجَ المكتظَّةَ بأقنعةِ
الحاضرين ، ونُصْغِي إلى القهقهةِ البطيِّ

يـ

يـ

يثةٍ للكوكبِ البطيءِ .

(ما هكذا يبدأ المهرجانُ في حضورِ الدمِ العادلِ أيها الكوكبُ
الأخيرُ ، ما هكذا يقتحمُ المنشدونُ نعمةَ النشيدِ^(٥) : يعرفُ الهباءُ
الذي لا هباءَ بعدهُ أننا - حينَ انشَقَّتْ عِنا الشرارةُ الأولى لمطارقِ
الحياة - نهضنا ، مَرَحِينُ نهضنا ، وكانتْ عَجُولُنَا أَكْثَرَ مَرَحاً أمامَ
المحاريثِ وهي تُصْغِي إلى الطُّقْطُقَةِ العذبةِ لانِشطارِ الترابِ
والشراراتِ ؛ تكاد نلمسُ السَّعَاةَ اللأمرئيينَ وهم يصعدونَ برسائلِ
الجدورِ الزعفرانيةِ إلى الهوائِ العاشقِ .

يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعدهُ أننا حينَ عُدْنَا أوَّلَ مرةٍ من
حصادِ البقولِ والفاكهةِ تنازعَتْنَا هِواجِسُ النُهْبِ ، فقلنا : لا . .
فليكنِ الترابُ ملكَ محاريثنا ، ولنكنْ ملكَ البذورِ . غيرَ أننا لم
نُترجمِ الخفيَّ الواقفَ في عِراءِ البطشِ هناك ، مُرسِلاً يديهِ إلى
مقابضِ أبوابنا . آآه ، يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعدهُ أننا اندلَقْنَا
إلى العِراءِ كما يندلقُ النَّبِيدُ على حِيةِ الفاعِجِ ، مَسْكِينُ بالمحارثِ
ينظرُ الكائنُ منا إلى الآخرِ ، جَهْمًا ، يَحْبِكُ بعَيْنِيهِ الأحابيلُ ، وفي
دمهِ المراثي . وكِى لا تُفْصَحَ الخِصومةُ عن مِغْزَلِ الخِصومةِ الحَلِيقِ ،
قلنا : فَلْتَكُنِ الأَقْنَعَةُ حَدودَ الكائنِ ، لا يعرفُ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا حينَ

(٥) أنظر الملحق فصل «الأناشيد» .

تَصْطَفُ الأَبَواقُ حَوْلَ رَمالِ الحَلْبَةِ ، ويصعدُ النَفِيرُ الأَرجوانيُّ إلى
الرَّثَةِ الحَيَّةِ : هاكَ أيُّها الكوكبُ الأخيرُ ، هاكَ ، اشهدَ الكائنَ دونَ
قَناعٍ في الحَلْبَةِ ، على أَهْبَةِ الخَوْضِ في بُحْرانِ الفَلزِ وفجاءةِ
الفجاءةِ ، تتخبطُ في شرايينه الطفولةُ ، وفي رثتيه الفاكهةُ
والينابيعُ ، فما هكذا يبدأ المهرجَانُ في حضورِ الدمِ العادلِ أيُّها
الكوكبُ الأخيرُ ، وما هكذا يقتحمُ المنشدونَ نعمةَ النشيدِ . لا ،
يعرفُ الهباءُ الذي تُغْطِي طَواويسُهُ بالعباءاتِ أَننا - حينَ أَنشَقَّ عَنَّا
الدويُّ الأوَّلُ لارتطامِ الحياةِ بالغبارِ - نهضنا شاهرينَ مناجِلَ السنينِ
الشريدةِ . أَنا نقرعُ بمدائحنا بابَ الحياةِ ، وَأنا نقرعُ بالأبجديةِ سِياجَ
السديمِ . ونذكرُ أيضاً أَننا رفعنا الأَبَواقَ خاشعينَ أمامَ الصَّخَبِ
البهيمِ في المعدنِ ؛ أمامَ حضورِهِ الدَّافئِ المباحِ ، نُوشِكُ أَن غَدًا
راحاتنا إلى ألقى المقاديرِ فيه ، فقلنا :

عَمَ مَساءُ أيُّها المعدنُ .

عَمَ مَساءُ أيُّها الشُّكْلُ الباسِلُ ،

عَمَ مَساءُ يا مَرَحَ المَرَحِ .

ثُمَّ خَلَعْنَا أَشْكالنا ، نازِلينَ درجَ الروحِ إلى العراءِ الأعظمِ ، ينظرُ
الكائنُ مِنَّا إلى قَناعِ الآخرِ ، عارِفًا أَن ذلكَ القَناعُ ألقى للعويلِ . ولربُّما
تَغافَلْ واحِدُنا عَنِ الآخرِ : عَيْنُ على القَناعِ ، وعَيْنُ على المعدنِ
الباسِلِ ، قارئًا بينهما الفجاءةَ وتفتُّحاتِ الوقتِ . وكيف لا يبقى
الكائنُ مُسْرِقًا في انحنائه أمامَ الكائنِ مُذْ خَلَعْنَا أَشْكالنا ، مُذْ خَلَعْنَا
مواثيقَ اغْتِباطنا بالسديمِ فَعَرَفْنَا حُدُودَ أَعْضاءنا؟ وكيف لا يبقى مُسْرِقًا
في التصاقه بالقَناعِ يُخْفِي عَنِ الكائنِ نوافيرَ امتداداته الذاهبةِ أَعلى
مِمَّا يَسَعُ الكائنُ؟ وكيف لا يمُوتُ هذا كُلُّهُ فيلْتَفِتُ هاتِفًا :

عَمَ مَساءُ أيُّها الوردُ .

عَمِّ مَسَاءٍ يَا دَلِيلَ الْمَسَاءِ

عَمِّ مَسَاءٍ أَيُّهَا الْحَجَرُ،

عَمِّ مَسَاءٍ يَا وَصِيفَاتِ الْوَحْشَةِ ... ؟

إِنَّهُ - يَقِينًا - سَيَجْمَعُ بَعْدَ هَذَا حَرَابَ الْجَوْهَرِ، مُغَيَّرًا حَيْثُ
الْحُدُودُ حُدُودٌ؛ فَمَا هَكَذَا يَبْدَأُ الْمَهْرَجَانُ، وَمَا هَكَذَا يَقْتَحِمُ
الْمُنْشِدُونَ نِعْمَةَ النَشِيدِ أَيُّهَا الْكُوكَبُ الْأَخِيرُ .

إِذَنْ،

بَطْنِ

يَدِ

يَتَأَنَّ فَلْيَقْتَحِمِ الْمَسَاءُ الْمَرَاتِيَّ، وَلْيَخْرِجِ الْمُنْشِدُونَ مِنْ كِهَوفِ الْمِيَاهِ رَافِعِينَ
بِيارِقِ الرُّيْدِ وَصَنُوجِ الْأَعْمَاقِ، فَقَدْ أَقْفَلَ الْكَائِنُ الْحَلَبَةَ مُؤَمِّمًا إِلَى الدَّمِ لِيَبْدَأَ
الرُّهَانَ الطَّوِيلُ. طَوِيلٌ يَدِ يَلَا إِذَنْ فَلْيَكُنْ حُلْمُنَا، طَوِيلًا فَلْيَكُنِ النَّفِيرُ الْمُعُولُ
لِبُوقِنَا الصَّلْصَالِيِّ، وَلْيَخْرِجِ الْمُنْشِدُونَ مِنْ مَتَاهِ الْعَذُوبَةِ، سَائِقِينَ الرَّمَادَ
وَالْجُذُورَ، فَلَنْ يَبَارَكَ إِلَّا الْمُبَارَكُ. غَيْرَ أَتَنَّا - فِي غَمْرَةِ الرُّهَانِ الطَّوِيلِ -
سَتَلْتَفِتُ إِلَى الْأَفْقِ التَّفَاتَةِ الْخَيْرَانِ: «خَيَالَاتٌ فِي بَالِنَا، أَمْ خَيَالَاتٌ فِي
بَالِ الْأَفْقِ هَذِهِ الْجُمُوعُ الْمُتَلَالَةُ كَالْعَنَاقِيدِ، لَا تَقْتَرِبُ وَلَا تَبْتَغِدُ، هُنَاكَ،
أَعْلَى قَلِيلًا مِنْ مَسْتَوَى خُوْذَةِ النُّخْبَةِ؟». وَسَنَقْتَرِبُ مِنَ الْأَفْقِ اقْتِرَابَ
الظُّنُونِ مِنَ الظُّنُونِ، هَاتِفَيْنِ: «لَا شَيْءَ فِي الْأَفْقِ عَدَانَا - نَحْنُ خَيَالُهُ
الْجُمُوعُ نَهْيُ الْخَيَالَاتِ لِلْمَرَايَا». وَفِي غَمْرَةِ الرُّهَانِ الطَّوِيلِ سَنَتَوَكَّأُ عَلَى
الْوَمِيزِ الْخَنُونِ لِحُلْمِنَا، صَاعِدِينَ هَابِطِينَ تِلْكَ الْأَدْرَاجَ الْمُشْتَعِلَةَ بِقَهْقَهَةِ
الْكَائِنِ وَصَرِيرِ الْأَبْوَابِ الَّتِي لَا تُرَى، لَا يَسِينُ تَيْجَانُنَا، لَا يَسِينُ الشَّمَاةُ
وَالْأَبْهَةُ ... أَنَا الْأَبْهِيُّ مَا أَزَالُ رَاكضًا أَمَامَ جَمْهَرَاتِي، وَلِيَحْذَرَ الْبَعِيدُ
الْبَعِيدَ.

وماذا أيضاً؟ يسأل المساء .

وماذا أيضاً؟ أسأل المساء .

(ما هكذا يتواطأ العاشقون على دمههم

ما هكذا يبدأ المهرجان والمنشدون) .

ألا لن ترفع الأرض نذرهما إلا معي ، وأنا الأبهى لن أرفع المديح
الأخير للصباح إلا مُنْخَنّاً بنعمة الشهب ..

إذن

بطي

يـ

يتأ فليمر الرماد بي . بطي

يـ

يتأ فليكن دخولي إلى المديح ،

عَبَقاً بانحلال الأبجدية والجهات ، ولتكن رוחي ظهيرة الظهيرة وهي
تتوسد الهَرْطَقَة جَنباً إلى جَنبٍ مع الظلام والحديد في قَبْلُولَةٍ واحدة ، فأننا
- يقيناً - قادم من الدم ، ذاهب إلى الدم ؛ ويقيناً لأختمن هذا الدَّورَ
العنيد بقرع عنيد على سندان الإباحة حتى أرى المعدن مُغْتَبِطاً بأذواره ،
والرمال مُنْخَنَّةٌ تلتقط في سلالها العواصم الهاربة . وفوجاً فوجاً سابع
للخواتيم أن تدخل المأذبة وراء خطي الغبار المهرج ، وسأدخل المأذبة (هذه
المأذبة الحافلة بوجوه كالأقفال ، وغيوم تندلق من كؤوس الوفود) ، مائساً
كورق الشجر العالي ، حاضناً في تجاويتي هبات اللهب وقوارير الظلام ..
فليكن ، فليكن دخولي عَبَقاً بانحلال الأبجدية والجهات ، فَمَا أنا وَسَيْطُ
الدليل إلى النهار كُرْمَى أن يخرج الكائن من كهفه إلى السطوع الأبكم
لشموس العراء ، لكنني الوسيط - العويل كُرْمَى ارتطام واحدٍ للشموس

والكهوف برنيني الإخشيدي : أنا هَلْبَةُ الكوكب الرّاسي على الأنين ، بطِيءٍ
يُنْأَى فَلَيتَحَدَّرِ الكوكبُ معي على دَرَجِ الأنينِ .

(لماذا يا القريبة أكثر ساعة انكسارنا ، لماذا يا حبيبة التّعَبِ لم
تلتقطي من أيدينا خواتم البَسَالَةِ في ساعاتنا الباسلة؟ لماذا لَمْ ترفعي
البَسَالَةَ إلينا حين دخلنا البهوَ مَرَحِينَ تَقَطَّرُ من أهدابنا بروقٌ صغيرةٌ
كالحُجَابِجِ ، ومن ثيابنا الغماماتُ والطيورُ؟ أَكُنْتُ حَلِيفَةُ الثَّعْبِ يا
حبيبة التّعَبِ؟ أَمْ كَانَ لِسُلْطَانِكَ المدى الأَرْحَبُ بِحَنَانِهِ عَلَيْنَا سَاعَةَ
انكسارنا؟ ... يا للحلم : كَأَنَّا نَرْفَعُ إِلَيْكَ وجوهنا ثانيةً ، مرتبكين ،
وكأنما تَنَحْنِئُ عَلَيْنَا الآنَ ، وديعةٌ مُتَرَفِّةٌ بِجَوْهَرٍ مُتَرَفٍّ ؛
أَتَذْكُرِينَ ،

مَرَّةً رَفَعْنَا أَطْبَاقَ الخُلُوى عن المائدةِ معاً ،
وتركنا على المائدةِ أَقْدَارَنَا؟
مَرَّةً وَدَعَتْ يَدُكَ يَدِي ،

وتركنا على العتبةِ وداعاً تَائِهَةً
لا يَمْضِي معك ولا يَمْضِي معي؟
مَرَّةً ... لا ، مُذْ أَقْفَلْتُ السِّيَاحَ كُلَّ سِيَاحٍ
مَدْخُلٍ إِلَيْكَ ، وكلُّ أَرْضٍ وراءَ السِّيَاحَاتِ
بَعْضٌ مِنْ لَهَائِنَا ؛ وَلِهَذَا اغْفِرِي اقْتِحَامَنَا
العَبَقَ بِانْحِلَالِ الجِهَاتِ يا حبيبة الثَّعْبِ) .

إِيذِي بِهِ ، لَسْتُ قَاصِداً أَنْ أَجْمَعَ الكَائِنَ تَحْتَ نَصْلِ العَذُوبَةِ ، بل
قَاصِداً أَنْ أَشْرُدَ الكَائِنَ فِي العَذُوبَةِ . وَسَأَسْتَفْجِلُ ، وَسَتَسْتَفْجِلُ الجُمُهراتُ

معني ، وستستفحلُ معنا الأبقاقُ الصلصاليةُ والأقنعةُ والصلليلُ ، ولا ديمومةُ
بعدَ ذا إلا ديمومةُ الدَّم . . . أجمعني أيها الكوكبُ الأخيرُ قناعاً قناعاً ،
وساجمعكُ حَلْبَةً حَلْبَةً ، وَلَتَكُونَنَّ بيننا أواصرُ الوميضِ الحكيمِ للدروع . .
إِذْ يَدِيهِ كَمُ أَقُولُ : لا ، لا تَخْتَمَنَّ هذا المساءُ بال مساء ، ولا تَذْفَعَنَّ الكوكبُ
الأخيرُ كالمهرجِ أمامَ الحاضرينَ في المأدبة . وأقولُ : أتركُ للكائن أن يُسْرِفَ
في صَقْلِ دُعَايَاتِهِ أمامَ أنشاء ، فهذا هي المصائرُ الصلصاليةُ ، وما هي
الانكساراتُ ملءُ الأباريقِ في يَدَيِ الثَّادِلِ . وما أنا لأختَزِلَ هذا الاختَزَالَ
كُلَّهُ؟ وَمَنْ ذا سَلَّ عليَّ سيفَ السديمِ فَاتَّقِيئُهُ شاهراً على السديمِ الأشكالِ
والمراثي ، كأنني وحدي امتداداتُ أَرْضِ الساهرةِ على المراثي والكوزي .
لا ، أقولُ لا تَتَأَيَّظَنَّ مِنْ زادِكَ غيرِ المساءِ والقَبْلِ ، ولا تُثَقِّقَنَّ في الحلبياتِ
قرونَ الطرائدِ وجلودها ، فلربُّما جاءتكِ الحلبياتُ وديعةً ، لا صَخَبَ لرمالها ،
ولربُّما أَبْصَرْتَ الجالسِينَ على مدارجِ الحلبياتِ بأقنعتهم يرفعونُ الأقنعةَ
هاثفينَ لِعِرَاكِ ليسَ إلا عِرَاكِ الْبِرَاعِمِ . . . أَتُرَاكَ رَأَيْتَ البراعمَ في عراكها؟
أرأيتَ كيفَ يَنْفُضُ الْبُرْعَمُ عن البرعمِ أَهدَابَ الثُّدَى ويصطادهُ بِشِبَاكِ
الظلالِ؟ لا غلبةُ في عراكِ البراعمِ ، يقينا ، لا غلبةُ في عراكها . قد تقول
إِنَّ البراعمَ أَعْضَاؤُكَ الشَّانِيَّةُ ، وَنَسْلُكَ التَّوَامِ الَّذِي يَرْتَدِي أَذْوَارَكَ هُنَاكَ إِذْ
تَنْتَهِي هُنَا . . لا ، لا تَأْسِرَنَّ بِكَ التَّخَوُّمُ الْحَيَّةُ ، ولا تَجْهَرَنَّ أَنَّ المِياهَ حُلْمُكَ
وَحُلْمُكَ الْيَابِسَةُ : المِياهُ حُلْمُ المِياهِ ، واليابسةُ حُلْمُ الْيَابِسَةِ . إِذْ يَدِيهِ كَمُ
أقولُ : انهضْ خفيفاً بجسدك وحدهُ ، فاتحاً مخابثك الحَفِيَّةَ بين الحلمِ والدَم
ليخرجَ النباتُ والماعزُ والصقورُ والمدارجُ والحليُّ والفاكهةُ والغيومُ والأعمدةُ
والمرايا والسُنُونُ والقِبابُ والمراكبُ والماسُ والحديدُ والمناجلُ والأعمدةُ
والأرجوانُ والأبجديةُ والحِياذُ والينابيعُ والطميُّ والظهيرَةُ ؛ ليخرجَ الكائنُ
واستعاراته البليغةُ ، فما أنت امتداداتُ السديمِ الساهرِ على القَهْقَهَةِ البطيئةِ
للالفولِ البطيءِ . وأقولُ لا تجفَلَنَّ إِذَا سمعتَ الأنينَ هُنَاكَ ، فانت هنا ؛ ولا

تَنْشَرَنَّ شِرَاعَكَ عَلَى صَارِيَةِ الْبُرُوقِ ، فَأَنْتَ الصَّلْصَالِيُّ إِنَّ أَضَاءَ تَكَ الْبُرُوقِ
 أَنْبَجَسَتْ مِنَ الصَّلْصَالِ الْنَوَافِيرَ وَالْخَمَائِرُ ، فَلَنْ تَشْهَدَ ، بَعْدَ ذَا ، رُفَّةً إِلَّا
 تَتَنَفَّسُ مِنْ رَتِيكَ ، وَلَا نَبْضاً إِلَّا فِيهِ تَبْضُكَ ، فَمَنْ أَنْتَ لُتَحِيْطَ هَذَا
 الْفَيْضُ كُلَّهُ بِطُمَأْنِينَةِ الْفَيْضِ ؟ . . هِيَهَاتَ ، هَا هُمْ النَّدَامَى بِأَبْوَاقِهِمْ ، وَهَا
 هُمْ السَّعَاءُ مَهْرُولَيْنِ فِي رُذَّةِ الصَّلْصَالِ وَعَلَى جِبَاهِهِمْ اخْتَامُ الْمَسَاءِ
 وَالرَّيْنِ : رَيْنِي هَذَا ، أَنَا الْهَلْبَةُ الْإِخْشِيدَةُ لِلْكُوكَبِ الرَّأْسِيِّ عَلَى الْمَرَايَا .
 فَلْيَجْمَعْنِي الْكُوكَبُ

قناعاً

قناعاً ،

وَلَا جَمْعَنَ الْكُوكَبُ قِنَاعاً قِنَاعاً وَمِنْ حَوْلِي الْجُمْهُرَاتُ مُزْدَانَةٌ بِحُلِيِّ
 الْأَجْرِ تَنْحَرُّ الْأَغَانِي وَتَحْشُدُ الْأَقْفَالُ . وَلَيْكُونَنَّ شَرِيكِي فِي هَذَا التَّرَفِ
 الْمَسَاءِ ؛ لَا كُوتُنُ شَرِيكَ الْمَسَاءِ ، صَاحِبِ الْجُمِّ الْإِنْقَاصِ ، وَأَغْمُرْ بَعْنَاقِيدِ
 الْبَاطِلِ قِنَاعَ النَّهَارِ الْآخِيرِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءُ .

يا إله المساء ؛

يا إله الظلام الذي تنخبِطُ مُرْضَعَاتُهُ فِي حَلِيبِهِنَّ ؛

يا إلهاً مُشْرِفاً مِنَ الْخَبْرِ عَلَى هِرَاطِقَةِ الْخَبْرِ : أَيُّ صَحْبٍ سِيرَفُ إِلَيْكَ
 بَعْدِي هَذَا الرِّيشُ كُلُّهُ ، وَهَذِهِ الْمَوَاقِيقُ وَالْهَزَائِمُ كُلُّهَا ؟ . أَمَا لَوْ مَضَيْتُ
 بِأَبْوَاقِي وَأَحَابِيلِي إِلَى حَيْثُ لَا غَلْبَةُ لِلْأَبْوَاقِ وَالْأَحَابِيلِ لِأَعْدَتَنِي إِلَيْكَ
 أَكْثَرَ طَيْشاً ، نَفِيزاً يُخَوِّلُ سُلْطَانَكَ أَنْ يَكُونَ سُلْطَاناً بِاسِلًا بِنِعْمَةِ الْخَضُورِ
 الْبَاسِلِ لِلنَّفِيزِ . غَيْرَ أَنَّنِي سَادِيرُ الْعَجَلَةِ الْخَشَبِيَّةِ لِلْأَقْدَارِ ، يَا إِلَهَ الْمَسَاءِ ،

في عذوبة الصلصال ، دونما احتكام إليك ، دونما احتكام إلى الجبر ، جارفاً
 هذه المواثيق كلها كي أراك ملقياً بين الصليل والرنين تتضرعُ بلهائك
 الفراشات ، وتتحل في راحتك الأختام . . . أنا الأختام ، من سيمهز الفلز
 يبي؟

وماذا أيضاً؟ يسأل المساء .

وماذا أيضاً؟ أسأل المساء .

عذم يغزل الأفتنة ، والصباحات تغسل أقدامها في الرثات : فليكن
 مَرَحِي مَرَحِ السديم - أيتها الانقاص - في المأدبة الأخيرة للكوكب
 الأخير . . . أنت ، أنت يا نديمي على هذه المأدبة الصلصالية ، لا تنشر
 الأسئلة كحجارة النرد ، ولا تتوسل بعينيك هاتين أن أسترسل الآن في
 انحلال حلقه حلقه كأنني سلسلة من حديد ، طرقها صخب ، والصخب
 قيد مُحكَم الوثاق على أيد مُحكَم الوثاق . أيها النديم الساهر حول ثرعات
 الصباح وديمومة الأنين ، لا تُفِعِضْ عَيْنِكَ هَاتِنِ عَلَيَّ - على المبارك
 المبارك بالهذيان :

(كان نديمي صامتاً في حُتُوهُ على ودائع الموت وأسمال
 الطبيعة ، يجمع بيديه فراسخ الحلم كما يجمع البستاني الزهورات
 القديمة من طريق البراعم ، غير أنه بمغزلي الدائر بين خيوط المدائح
 وكرات الحديد . قلت : أفق يا نديمي قبل أن يَخْتَلَسَنَا النفير الخفي
 للعذوبة ، أو تتخاطفنا الصباحات ، أفق . غير أن النديم الصامت
 مثلي على المائدة أغمض عينيه علي ، على المياه واليابسة ، على
 المصائر والعناقيد والأعمدة ، فلم أفق إلا ويدي بين الأيدي العالية

تَتَفَرَّى الومِيضَ الحَنُونَ لِلأَسْلَحَةِ ، وَتَلْتَقِطُ الأشْكَالَ .

ومن أين لي أيها النديمُ أن أحيطَكَ بالأساطير والكَرْفَسِ ، وأن أجعلَ
الفراسخَ الباقية من أعضائنا مغازلَ كمغازلِ العرَّافات؟ أنا المُحْدِقُ بالمساءِ
سائرٌ من صليلٍ إلى صليلٍ ، مُباحاً لمُجونِ النباتِ وخيلاءِ المعاولِ :
فليكنِ النهبُ ،

فليكنِ النهبُ ،

هذي هباتي هباتُ المُبْتَدِرِ بالأفئدة .

غير أني -

حين يتوجُّ الرمادُ الرمادَ ،

وتُلقي المِياهُ بأبقالها في المِياه -

أستردُّ الألقعةَ والوجوهَ ، تاركاً للسَّديمِ مفاتيحَ اللُّهاثِ ودروعَ الأباطيلِ .
ولربُّما التفتتُ التفاتةَ المُشْفِقِ على بقايايَ المسفوكَةِ بين الأبيدية وزَهَرِ
اليقطينِ ، أو اعتراني حنينُ الحاضرِ إلى الحاضرِ ، هاتفاً :

هلم نطلبْ شيئاً أيتها الأنسةُ ،

لم نطلبْ شيئاً سوى بضعِ حروبٍ صغيرةٍ ،

وحفنةٍ من زنايقِ الوميضِ .

لم نطلبْ أيتها الأنسةُ إلا حدوداً لراثتنا ،

وقُبلاً في هذباتِ الحروبِ الصغيرةِ .

لم نطلبْ غيرَ همسةٍ مُسْكِرةٍ ، غيرَ أنْ

ترتفعَ يذكُ الآنَ بهذهِ الكأسِ الترابيةِ

نُحْبَ انتحارَ جديدٍ للصباحاتِ .

... آه ، كم قلنا - وسطَ هذا السَّهرِ الغامضِ للمراثي -

إنَّكِ عربونُ المصائرِ لأعماقنا ،

وَأَنْتَ خَاتَمُ الْفَاتِحِ .
عَذَاباً فَلْيَكُنْ فَعَلِكِ فِي مَهَبِ الْقُبْلِ .
هاتفاً :

«عَلَامٌ تَنْهَضِينَ مِنَ الْبِرَاعِمِ ، وَلَمَّا تَنْهَضِ الْأَنْقَاضُ بَعْدُ مِنْ مَجْرُونِ
الْبِرَاعِمِ؟ . . كُلُّ سَائِرٍ سَائِرٍ إِلَيْكَ ، وَكُلُّ نَصْلٍ يَعْلُو الْآنَ يَعْلُو فِي مَهَبِكَ
أَنْتِ :

عَذَاباً عَذَاباً فَلْيَكُنْ صَحْبُكَ فِي مَهَبِ الْحَنِينِ » .

هاتفاً : أَنَا الْمُخْدِقُ بِالْأَحْتِمِ ، وَهَذَا حَبْرِي حَبْرُ السَّنَابِلِ أَيُّهَا النَّدِيمُ ،
فَلَا تَعْمَضَنَّ عَيْنِيكَ عَلَيَّ لَثْلًا تَرَانِي وَاقِفًا أَمَامَ السِّيَاجَاتِ ، مَلُوحًا بِأَوْرَاقِ
الْجُرْجِيرِ لِلطَّفُولَةِ ، رَاكضًا مِنْ هُنَا وَهَنَّاكَ ، يَتَدَلَّى مِنْ عُنْقِي السَّدِيمُ وَمِنْ
أَهْدَابِي الْمَدَائِحُ ؛ لَثْلًا تَرَانِي لَا جِئْتُ بِالْمُضَاتِقِ إِلَى الْمُضَاتِقِ ، وَبِالسَّهْوِ إِلَى
السَّهْوِ ، أَجْرَدٌ كَالْحَكْمَةِ ، لَا يَبْدَأُ مَقْتَلٌ إِلَّا بِأَيُّهَا النَّدِيمُ . . .
فَلْيَكُنِ النَّهْبُ ،
فَلْيَكُنِ النَّهْبُ ،
هَذِي هَبَاتِي هَبَاتِ الْمُبْتَدِرِ بِالْأَبَاطِيلِ .

غير أنني -
حِينَ نَفَضْتُ الرَّمَالَ عَنْ رُؤُودِهَا الرِّيَّاحَ ، وَحِينَ اخْتَضَنْتُ عَرَائِشَ (٦)
الصُّلَّصَالِ جِرَارَ الْبَعُولَةِ - عَرَّيْتُ الْمَسَاءَ مِنْ أَسْمَالِ الشُّفَقِ وَوَمِيزِ خَنَاجِرِهِ
الْبَازِلْتِيَّةِ ، كَأَنِّي مُزْمَعٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ الظَّلَامُ تَوَامِي الْبَاسِلِ فَوْقَ الْمَدَارِجِ ،
مُزْمَعٌ أَنْ تَنْفُضَ الْجُمُوعُ تَحْتَ خَبَاءِ أَشْكَالِهَا ، وَأَنْ يَنْقُضَ الدَّمُ انْقِضَاضَ
الْبَاشِقِ عَلَى الدَّمِ : أَنَا الْقَهْقَهَةُ الْبَطِيئَةُ لِأَقْوَلِ بَطِيءَ

(٦) انظر الملحق ، فصل «العرائش» .

ليس للمساء عليّ تَرْفُ المساءِ ، بل للرّنينِ وخذهُ عليّ ميثاقُ الخناجرِ
الزعرانيةِ والسهوبِ التي تندفعُ أمامَ القناعِ ؛ فهل عاد كائنٌ إليّ إلّا رافعاً
بوقهُ الأخيرِ ، وهل ساوَرْتَنِي عن خفِيها المياهُ إلّا قارعةً بالصواري انحلالِ
المياهِ . . لا جُثُونُ لَطَّعِ الوريدُ المُشْتَغِلُ بِأَقلامِهِ العَجُولَةُ ، وللخواتيمِ المطمئنةِ
كالنَّيجانِ على رؤوسِ الأعمدةِ ، صافراً كالسَّهمِ إلى مُسْتَقَرِّي الأزلِيّ بين
الأقحوانِ وأسلحةِ الصِّلصالِ . غيرَ أني -

حين تخلقُ الحدودُ أبعادها ،

وتنسجُ الفراشاتُ شباكَ الحقولِ -

أتركُ الكائنَ للنبَةِ ، وأصغي إليّ حميمةِ الينابيعِ وهي تعضُّ على
لِجَامِ الرِّمَادِ ، كأثما خَبَّاتٍ عنها السُّهولُ المسالكَ ، وضيقُ الحصى عليها
بالمهاميزِ ؛ وإذ يسألُ المساءُ : «ماذا تصنعُ الينابيعُ؟» أسألُ المساءَ : «ماذا
تصنعُ الينابيعُ؟» . . أمّا لو تداركني النِّباتُ ، وسَيَّجَتْ لهائمي المَحَابِرُ ،
لَلَمَسْتَ الينابيعَ بيديك أيتها المساء تحت قناعي ، بهيئةِ كندورِ العاشقِ ، ولها
انعكاسُ خَرَزٍ صَقِيلٍ على جبينِ الجيادِ في الظهيرةِ ، ولَلَامَسْتَكَ الينابيعُ
بذؤاباتها المحلولة على ندي الكائنِ المُتَرَجِّلِ عن هذيانه بعدَ العِراكِ ، المُتَخَنِّ
بي في انتصاراتِهِ وهزائمِهِ : إِيذِيهِ يَدِيهِ لو تداركني الكائنُ . يَبْدَأُ نبي - إذ
تَسْتَسِخِنِي الصَّبَاحاتُ - أَظَلُّ صافراً كالسَّهمِ إلى مُسْتَقَرِّي الأزلِيّ بين
الأحابلِ والأقحوانِ ، ونصليّ نصلُ الحقولِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءُ .

بطيئاً ، بطيئاً
 يثاً فلتتساقط على المائدة أعضاء النديم ،
 فلتتساقط المساء والحقول ،
 فلتتساقط الينابيع والأسلحة
 والمكان
 والأبجدية
 والصليل
 والمدائح . . ألا لا يبقين غير الباطل الحي - هذا الباسل في اختزالاته
 الحية وسط هبوبي ؛ أنا القهقهة البطيئة لهبوب الدم البطيئ
 يد
 يد
 يبيء ،
 فعن سيرف معي أبواقه ابتهالاً لهذا المساء .

أيا الكوكب الأخير ،
 أيها الملتجئ إلى دروعنا بعد مخنة الكواكب ،
 ها نحن معاً مرة أخيرة تحت خميمة الحبر ، والوصيفات - المراثي
 يحملن إلينا أباريقهن الطافحة بنفير الأبواق والبسالات ؛ معاً تحت غلالة
 التشيد الذي لا يقال ، لكننا بنعمة البطش والظلام نسدل الكائن كالستارة
 على مصائره الشريفة . وكما تأسر البوصلة الجهات نأسر الجهات بشباك
 الرئين ، رافعين مجاهيلنا للصلصال ، صاعدين هذه السلالم الخبيثة وسط
 دهشة الدم إلى الثيلوفر . . يد يد يه أيها الكوكب الأخير ، يا الملتجئ
 إلى مصابيحنا الأجرية بعد مخنة الكواكب ، قل لنا كيف أحاط بك
 البجع ساعة دخلت إلينا من بوابة السديم ؛ ساعة لم يكن عراك بعد ، ولم

تَكُنْ لِلْكَائِنِ نِعْمَةُ الْغَيْبِ . قُلْ لَنَا كَيْفَ رَمَيْتَ أَمَامَ أَقْدَامِنَا قِنَاعَكَ
 الْعَرَجُونِي ، وَأَشْرَكَتَ الْغَبَارَ الْمَهْرَجَ فِي انْحِنَاكَ لَنَا . قُلْ كُنْتَ تَأْتِيهَا هُنَاكَ ،
 فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ ، وَسَطَ لَهْوِ الْآلِهَةِ وَصَوْلَجَانَاتِ الشَّهْوَةِ ، وَسَطَ رَتَابَةِ
 الْبَطْشِ الْمُنْسَكِبِ مِنْ أَبَارِيقِ الْغَيْبِ . قُلْ التَّجَنَّاتُ إِلَيْنَا لِتَعْرِفَ التَّعَبَ أَيُّهَا
 الْكُوكِبُ الْآخِرُ ، لِتَبْسُطَ مَسَافَاتِكَ الْآخِرَةَ لِلْأَسْلَحَةِ ، رَافِلاً بَيْنَهَا فِي
 الْأَهَاكِ الْمُخْمَلِيَّ وَعَوِيلِ الْعَوِيلِ ..

(فَلْتَكُنْ شَرِيكَ الْكَائِنِ الْمُبَارَكِ أَيُّهَا الْكُوكِبُ الْآخِرُ؛ فَلْتَكُنْ
 امْتِدَادَاتِنَا فِي الظَّلَامِ الْمُبَارَكِ؛ فَلْتَكُنِ الْأَعْلَى حِينَ يَكُونُ الْأَعْلَى
 سَهْمُ الْبِهَاءِ الذَّاهِبِ إِلَى الْمَقْتُلِ . فَلْتَكُنِ الْآخِرُ أَيُّهَا الْآخِرُ ،
 نَشْوَانٌ ، مَلَأَ غَمْدَكَ سَيْفٌ وَاحِدٌ لِلْغِمَامِ وَالْخِيَانَةِ ، ثَقِيلًا بِخَطَاكَ
 الثَّقِيلَةَ تَنْزُلُ الدَّرَجُ (٧) الْأَرْجَوَانِي وَهَوَاؤُكَ الطَّبَوُّ . أَمَا سَمِعْتَ
 تَبْصُرَ أَيَّامَنَا تَحْتَ قَشْرَةِ الصَّوَاعِقِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ أَيُّهَا الْآخِرُ؟ أَمَا
 سَمِعْتَ انْقِضَاضَ الْفَرَاغِ بِمَنَاقِيرِهِ الذَّهَبِيَّةِ عَلَى قِنَاعِ الْكَائِنِ؟ ..
 وَخَذَهُ الدَّمُ - وَخَذَهُ الدَّمُ بِفُصُولِهِ وَسَلَالِمِهِ - كَانَ أَوَّلَ الْخَارِجِينَ
 إِلَيْكَ ، وَدَيْعًا ، وَلَأَبْوَاقِهِ صَخَبُ الْقُرْنَفَلِ .. أَهْ ، امْتِدَادًا كُنْ لَنَا فِي
 الْمُبَارَكِ يَا قَطِيعًا آخِرًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْجُزُرِ) .

معاً ،

معاً ،

لِمَرْءٍ آخِرٍ ، تَحْتَ خِيَمَةِ الْخَبِيرِ ، سَنَقْتَنَصُ الْمَرَاثِي ، وَنَلْجِمُ الْأَشْكَالَ .
 معاً ، معاً .

(٧) انظر الملحق ، فصل «الأدراج» .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءُ .

أخيراً ،

ها أنذا أَسْتَشِيرُ النَّطْشَ فِي الجُذُورِ ، وَأَحْتُو بِأَعْضَائِي الْوَحْشِيَّةَ عَلَى أَلْقِ
المِاءِ ، كَانَ انْحِلَالِي كَانَ قَوْمٌ قُرَحَ تَتَمَلَّمُ فِيهِ خَنَاجِرُ الْأَعَالِي الْمُسْغَشَعَةُ
قَبْلَ أَنْ تَهْوِي عَلَى الْحَيَاةِ ؛ كَأَنِّي كُنْتُ ضَرْبَةً سَدِيدَةً لِلصُّبْحَاتِ
فَاسْتَحَمْتُ بِي الْأَبَاطِيلُ . . أخيراً ، ها أنا ، وَحَوْلِي الْأَخْتَامُ وَالْهَيْكَلُ ،
أَعَزَلُ إِلَّا مِنْ بَوقِ لِنْفِيرِي الْأَخِيرِ . غيرَ أَنِّي إِنْ أَسْقَطْتُ خَاتَمِي الصِّلصَالِي
عَلَى الرُّخَامِ سَمِعْتُ تَبْضَ التَّوَامِ الْحَيِّ - تَوَامِ اللَّهَاتِ وَالرُّنِينِ - أَتِيًّا غَبَرَ
شَبَاكَ النَّدَى وَمِزَاجِ الْعَرَاءِ ؛ وَلَسَمِعْتُ ، ثَانِيَةً ، نَقْرَ الْأَسْلِحَةِ عَلَى قَنَاقِ
الْبَطُولَةِ : هِيَ أَيُّهَا الْمُسْتَفْجِلُ الْأَعَزَلُ إِلَّا مِنْ بَوقِ لِنْفِيرِكَ الْأَخِيرِ ، هِيَ أَيْقِظُ
الظَّلَامَ ، وَقُلْ :

عَمِ مَسَاءُ أَيُّهَا الْكَائِنُ .

عَمِ مَسَاءُ أَيُّهَا الْكُوكَبُ الْأَخِيرُ .

عَمِي مَسَاءُ أَيُّهَا الْبَطُولَةُ .

ملحق

البغل الأعمى

حينَ تَكْسُرَتِ الْمَوْجَةُ ذَاتُهَا ، مَوْجَةُ الدَّلْبُوثِ وَالْقَنْبِ ، وَتَبْدَأُ خَرَجَ
البُغْلُ الْأَعْمَى بِقَطِيعِهِ الْأَشَقَرِ مِنَ الْبُغَالِ الْعَمِيَاءِ . وَكَانَ أَنْ تَجْمَعَتْ حَوْلَهُ
الْعَجُولُ الشَّرِيدَةُ ، وَهَرُولَتْ إِلَيْهِ التِّيَابِلُ فَوْجًا فَوْجًا كَأَنَّهُمَا تَنْسَمَتُ غِبْطَةً
الْعَرَاءِ بِالْقَوَائِمِ الْأَقْوَى ، وَلَامَسَتْ خَطْمَهَا شُعَاعَاتُ الصُّحْبِ النُّحِيلَةِ فِي
زَحَامِ الْخَوَافِرِ . . . وَكَيْفَ لَا تَهْرُولُ التِّيَابِلُ وَالْعَجُولُ ، إِذْ يَرْتَدِي الْغِبَارُ قَنَاعَهُ

المحبوبك من الجلود الحية ، وتهزّ العذوبة قرّبتها الملتفتين كقرّني ذكر الكود
اختفّالاً بالورث الأعمى لأرض العماء ؟ .

يقيناً أيها البغل أنك تصل أنيثاق غامض في السكون المجمع الصلد
كبلورة الخوام .

الحدأة

كفاك ارتظاماً بهذه القبور المعلقة كالقناديل في بهونا ، كفاك أيتها
الحدأة ، يا مسيل الظهيرة في صباحات الطيور . لقد رأيناك قبل هذا ، قبل
أن تستحم الرياح بالأجنحة ، ماضية من رماد إلى رماد ، كأنك نبوءة
الاعالي ، ويد الشهوة المسككة بصولجان المدائح .

كفاك انقصاصاً على ديكّة الصباح الأعمى ،
كفاك كفاك يا ابنة الریش .

بنات آوى

في التفسير الأول لأبواق الظلام ، كانت بنات آوى الأميرات يذلّفن ،
خلّسة ، إلى عواصمهن الضائعة في زحام اليقطين ومراكب البقول ، كأنهن
شهاب مغمم ؛ شهاب طويل من الوبر والحناجر ، دحرجته روح البقطة
الأخيرة إلى حلم النبات ، وكأنهن تقفح السهول الخفي بعد ما أطبقت
زهرات الأقاليم أوراقتها على الحديد والهَرطقة .

إيه يا بنات آوى ، يا حبّيسات نعمة لم تكن للكلاب أو للشعالب ،
فلتكن صوتكن المتلاهي مقبضاً في يد الرّهبة ؛ مقبض منجل أو باب .

مُشْرِفٍ عَلَى النَّهَارِ الْمُتَهَدِّلِ فِي سَرِيرِهِ الدَّمَوِيِّ .

بقرات السماء

بقراتٌ مضِيئةٌ ، بقراتٌ غامضةٌ ذاتُ جلودٍ غامضةٍ تدخلُ الرُّقَاقَ السماويَّ ، واحدةٌ تلوَ الأُخرى ، رَشِيقَةٌ ، يُجَلْجَلُ حَجَرُ الخَوَارِ مِنْ خَلْفِهَا فِي الْفَرَاغِ الْمَدِيدِ . وَمِنْ كَوْكَبٍ إِلَى كَوْكَبٍ ، مِنْ نَيْزِكٍ إِلَى نَيْزِكٍ ، مِنْ فَرَاغٍ إِلَى فَرَاغٍ تَتَحَرَّكُ أَذْيَالُهَا كَيْدَ تَهَشُّ عَنْ عَسَلِ الْآلِهَةِ تَحُلُّ الْآبَاطِيلُ .
بقراتٌ تدخلُ الرُّقَاقَ السَّماويَّ ،
وَمِنْ خَلْفِ قُرُونِهَا يَتَقَلَّدُ الْمَسَاءُ مَراسِيمَ الرُّعْدِ وَالْفُحُولَةِ .

العرائس

حِينَ انْحَنَتِ الْأَسْلِحَةُ ، وَمَرُّ الْمَشْيَعُونَ ثِقَالاً فِي أَكْفَانِهِمِ الْأَزْلِيَّةِ ،
أَغْلَقَتِ الْعَرَائِسُ بَابَ الْمَسَاءِ الْكَبِيرِ ، رَاجِعَاتٍ إِلَى مَخَادِعِهِنَّ تَحْتَ نَوَاعِيرِ
الرُّبْدِ وَمَطَرِ الْغَابَاتِ .

بَيِّدَ أَنَّهُنَّ تَرْكُنَ لِلْعَابِرِينَ أَمَامَ الْمَسَاءِ رَغِيْفاً أَخْضَرَ مِنَ الْعَمَامِ الْأَخْضَرِ ،
وَبُرُوقاً مَرَصَّعةً بِالطُّفُولَةِ وَالْجَنُونِ .

الأدراج

لَعَيْنِيكَ أَيُّهَا الْكَائِنُ الصَّقِيلُ كَالْجُمَانَةِ . . لَعَيْنِيكَ تَقِفُ هَذِهِ الْأَدْرَاجُ
سَنَةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَحَجَرًا بَعْدَ أُخْرٍ ، فِي الْمَكَانِ ذَاتِهِ ، مُسْتَسْلِمَةً لِلطُّغْنَاتِ
الرُّطْبَةِ وَفَهْفَهَةِ الدُّوْرِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي .

لَعَيْنِيكَ أَيُّهَا الْكَائِنُ الصَّقِيلُ كَعَيْنِ الْغَاضِبِ .

إِنَّا كُنَّا يَقِينًا تَحْتَ نَارِ الْأَقْحَوَانِ
 نَتَقَرَّى خَنْجَرَ الرِّيحِ الْبَتُولِ
 وَنَسْمِي الْمَهْرَجَانَ .
 فَلَمَّاذَا لَا يَرُدُّ الثَّرْجُمَانُ
 عِنْدَمَا نَسْأَلُهُ
 أَنْ يُهَيِّجِي مَوْتَنَا ؟ .
 وَلَمَّاذَا كَانَ مَوْتُ ،
 كَانَ مَا يَجْعَلُ هَذَا الْمَوْتَ غَمْدًا لِلصَّبَاحَاتِ الَّتِي تُشْهَرُ خَلْفَ الذَّاكِرَةِ
 الْآنَ اللُّغَةُ الْمُنْكَسِرَةُ
 فَهَقَّهَاتٍ وَمَرَايَا ؟ .
 أَهْ ، مَنْ يَذْكُرُكُمْ كَانَ الشَّمَالُ
 طَبِّبًا ، كَانَتْ سَهُولٌ تَتَوَازَى
 وَأَبَارِيقُ الظَّلَالِ
 تَنْحَنِي لِلْعَابِرِينَ ؟ .
 كَانَتْ الْأَرْضُ الَّتِي تَعْرِفُنَا تَعْرِفُنَا
 وَتُلُوجُ السَّهْلِ مِنْ عَامٍ لِعَامٍ
 تَرْتَدِي مِثْلَ الزَّرَازِيرِ مَسَافَاتِ الْحَنِينِ
 وَتُغَطِّي الذَّاكِرَةَ .

كَانَ سَهْمٌ أَخْضَرٌ بَيْنَ التَّلَالِ
 ذَاهِبًا مِنْ أَوَّلِ الْعُمْرِ ، وَلَا نَعْرِفُ مِنْ أَطْلَقُهُ ،

غَيْرَ أَنَّ الذَّاكِرَةَ
لَوَتْ الْوَقْتَ كَعَمُودِ الْخِيزَرَانِ
فَرَأَيْنَا عُمَرَانَا أَشْبَهَ بِالْقَوْسِ ، وَمِنْ ثَمَّةٍ أَضْحَى دَائِرَةً
وَرَأَيْنَا فِي الْخَطَامِ
ثَلَجَنَا الْهَارِبَ مِنْ عَامٍ لِعَامٍ .

ولماذا كَانَ ثَلَجٌ ،
كَانَ مَا يَجْعَلُ هَذَا الثَّلَجَ مِيرَاثَ الْمَسَافَاتِ الَّتِي تَفْتَحُ بَابَ الذَّاكِرَةِ؟
ولماذا يَا إِلَهَ الْحُلُوءِ الْمُنْتَحِرَةِ
ولماذا يَا إِلَهَ امْرَأَةٍ تُشْهِرُ سَيْفَ الْأَقْحَوَانِ
لَا يَغْطِي الثَّلَجُ هَذِي الْجِزْرَةَ
أَوْ يَرُدُّ التَّرْجُمَانَ؟ .

٢

إِن هَذِي الصَّغِيرَةَ
طِفْلَةً لَا تَزَالُ ، وَلَكِنَّهَا
سَنَةٌ سَنَةٌ تَعْبُرُ الْأَرْبَعِينَ .
سَنَةٌ سَنَةٌ يَا مَسَاءَ السَّنِينَ .

٣

إِنْتِي إِلَهِي
فِي قِنَاعِ السُّنْبُلِ
وَقِنَاعِ الْبَرْعَمِ الطَّيِّعِ فِي أَذْوَارِهِ
فَوْقَ هَذَا الْمَسْرَحِ الْمَشْتَعِلِ .
إِنْتِي إِلَهِي

صاعداً ، يحملُ من أقداره
خاتمَ الصِّلصالِ ، والبوقَ ، وخمى الجدَل .

إنتي ألحها ،
إنتي ألحهُ :
هي في إعصارها
تتهادى ، وهو في إعصاره .

٤

من أعلن المهرجانُ
وزينَ الجرحَ بأسمائنا؟
لا ، لم تزلْ في غمدِ أنقاضنا
سيوفُ هذا المكانِ .

يا سيّد المهرجانِ
لا تنصبِ الآنَ مراجيحنا .

٥

أنتَ لم تعترفْ بعدُ أنَّ الغريبَ
لم يزلْ راکضاً حولَ ساعاتِه
مُجفلاً وغريباً .

أنتَ لم تعترفْ .

لا العنب البري، لا السَّمُ
يعرفُ كيفَ أنسلَّ قلبي إلى
عرائه، واقتاده البرعمُ .
وكيفَ دارَتْ شفتي حوله
هاذيةً: باللهِ يا بُرعمُ
هل عَبَّرَتْ تلكَ التي مرَّتْ على بالنّا
هل عَبَّرَتْ وحدها،
أمْ كانَ في موكبها العالمُ؟

تُراني ارميتُ عند بابها
أم ارمي عند خطاي البيت؟
تُراني التفتتُ نحو بيتها
أم أن أرض البيت
التفتتُ، والتفتتُ حجارُ ذاك البيت؟

عَلَامَ يا كوكبَ ذاك البيت
تركضُ حولَ بيتي؟
عَلَامَ لا تدخلُ؟ هل نسيْتُ؟
هيهاتَ يا غيايبي
أعرفُ أنْ بابها يسكنُ حلمَ بابي .

أنا طفلها
 أم طفولتها وهي ترنو إلي
 نائماً قُربها ،
 وتُغَطِّي بأهدابها جبهتي
 وتغطي يدي؟ .

أنا طفلها؟ .

قِيلَ : هذا قَبْرُهُ .
 قِيلَ : هذي الشَّاهِدَةُ .
 قِيلَ : تلكَ الزَّهْرَاتُ الْمُجْهَدَةُ -
 والعصافيرُ التي حَامَتِ عَلَى الْقَبْرِ قَلِيلاً - عُمْرُهُ .

غَيْرَ أَنَّ الْعَارِفِينَ ،
 وَالْأَزَاهِيرَ الَّتِي شَيَّعَتِ النَّعْشَ ، وَأَسْرَابَ السَّنُونُو
 وَالْغَيُومَ الصَّاعِدَةَ
 هَمَّهَمَتْ : لَا . . . كُلُّ قَبْرِ قَبْرُهُ .

حزيران ١٩٧٧ - أيلول ١٩٧٨

الكراكي

الفصل الأول / ديلانا وديرام

تَيْتَلُ على الهضبة ،
وسكونٌ يرفع قرنيه عالياً كالتَيْتَلِ .
فلا تقتربنْ أكثرَ أيها الدليلُ ،
ولا تبتعدنْ أكثرَ ،
مكانك هو المكانُ الذي ترى منه الجذورُ الجذورَ ،
والأرضُ ميراثها .

تَيْتَلُ على الهضبة ،
وسكونٌ صلدٌ يرفع قرنيه عالياً كالتَيْتَلِ .

١

انظر إليها ، إنها جمعُ سلالٍ شقراءَ تحت ومضٍ دمك يا ديرام . انظرْ
إليها كيف تغفلو لصق ساعدك ، وأنفاسها تنهاوى شهاباً شهاباً في شِسْعٍ
فحولتكِ النبيلة . . . أتذكرُ يا ديرام ساعةَ جثتها ودبعاً تتسرَّبلُ بالسهولِ ،
خطاكِ خطى نهار ، وصخبُكِ ضخبُ السَّنبِلِ؟ أتذكرُ المساءَ الذي تفرَّق
في عينيكِ ، المساءَ الأول ، حيثُ سطوئتما بالقبَلِ على كنوزِ الكاشنِ ،
وكشفئتما عن مسيلٍ غريبٍ تحت حجرِ الروحِ؟ . تمهلْ ديرام ، تمهلْ في
عَبْثِكَ الساحِرِ بأعشاشِ قلبها - قلبِ ديلانا المعلقِ كقطعنةٍ ملأى بالحياة .

انظري إليه ، إنه سهمٌ أشقرُ تحت ومض دمك يا ديلانا . انظري إليه
يزينُ المساءَ بصليلِ فحولته ، ويرقي إلى صلبك سُلَمَ اللهاث ، كأن كلَّ
ترف ترفه ، وكأن أنت كلماته التي يُنشدُ بها نشيدَ الرجل . فهلاً سردت
عليه ما يسردُ الغمامَ على بناته ، وهلاً نزلت إليه من العذوبة العالية ،
شاهرةً مرخٍ الأعالي ، لتغمري سهلَ قلبه بقمحِ النشيدِ؟ هيا ديلانا ، إنه
متكىءٌ قرب يدك ويسردُ الفاكهة .

انظر إليها ، لَكَمْ تداعبُ صدركَ بشعاعٍ من الشفاهِ والأناملِ . انظر
إليها يا ديرامُ ترَ عشرين قلباً تحت قلبها ، وكلَّ قلبٍ يهذي فينسجُ في
هذيانه عشرين قلباً : إنها مصبُّ الرجلِ المضْمَخِ بهديرِ الجذور ؛ إنها مصبُّ
من الساعاتِ والجُدُلِ ؛ مصبُّ أخيرٍ لكلِّ بسالةٍ أو خوفٍ . فلا تَقْتَرَبِينَ أكثرَ
يا ديرام ، ولا تَبْتَعِدِينَ أكثرَ . مكانك هو المكانُ الذي ترى منه العذوبةَ ذاتها
نائمةً في سلالٍ شقراءَ ودمٍ أشقرٍ .

انهضي قليلاً ديلانا ، وأحكِمي حصارَكِ الطري ، فلأنتِ الغابةُ التي
تزدهرُ فيها سلالتهُ ، وتنتزعُ الأحشاءَ بالطيور . ولأنتِ صليلاً بين الصليل ،
ومديحهُ الذي يرى فيه كلُّ ملكٍ ملكهُ ، وكلُّ شريدٍ درياً إلى الملك . فإذا
انحنى عليك ارفعي إلى فمه إناءَ الأنثى ، وإلى صدره المرتعشِ درعَ صدركِ
المضْمَخِ بالغماماتِ والعصور .

انهض قليلاً يا ديرام ، انهض واقفاً لترى من أعالي المرح سفح الأنثى
المتبسّط بين وميض الأفقعة والأغاني ، فلأنت سيفُ يتابعها ، تضربُ بكِ
الصباحات فتشقُّ عن الحنين والأياثل . ولأنت أنفاسُها بين الأنفاس ،
ومديحُها الذي يغمسُ فيه الهواءُ نبأَ ألّهته الشريفة . فإذا انحنت عليكِ
ارفعِ إلى فمها فَمَعَكَ المرصعُ بنشيد الرّجلِ ، وإلى صدرها المرتعشِ درعُ
صدركِ المرصعِ بالمياه والمدائح .

٦

انظري إليه ديلانا ، انظري كيف يضمُّ يديه على الصواعق وينثرُ على
سريركِ الرياحَ . انظري كيف يتدلّى من لهاثكِ كشمسٍ ، وينصبُ الفخاخَ
للنباتِ ، كأنما يُبَاهِي بكِ سيوف المياه . انظري كيف يحيطُ بالمياهِ
كالإباسة ، ليحصرَ نبضَ قلبكِ الطالعَ من المياه زبدًا ومراكبَ . . . لكنْ ،
حين يفتحُ شِباكَه ، آخرَ النهار ، فتتطأُرُ من الشُّبَّاكِ الكواكبُ والكراكيُّ ،
دعيه غافياً في نبوءاته ، دعيه ديلانا ، فهو لا يَمْسِكُ من الأرضِ إلا قبضةً
من الأجسُرْ ، ولا يرى إلا جناحَ ثديكِ فارداً على الأرضِ ظلَّ المساءِ
والذكورة .

٧

انظرُ إليها يا ديرام ، انظرُ كيف تجمعُ أمامَ قلبكِ أسرابَ الإوزِ ، وتغزلُ
الغيومَ . انظرُ إليها تنهادي قطيعاً قطيعاً من آخر السفوح ، يدها في يدِ
الأفق الراعي ، وثوبُها ينحسرُ - حين تعبرُ الجداولَ قفراً - عن جذورِ لا
تلمسُ الأرضَ ، بل تلمسُ المديح الذي تتغطى به الجذورُ كلها . فإذا رأيتِ
أن تأخذَ يدها في يديكِ فخذِ الأفقَ أيضاً ، وإذا رأيتِ أن تضمَّها فلتضمِّمكِ

الجدور ليرشقُ الشمرُ بأنفاسك الشمرَ ، أو لتهرعَ إليك الأرضُ مُمْتَشِقَةً
سِيلَهَا العَرَمَ من اللَّبَنِ والأشْكَالِ .

٨

أيقظيه ديلانا ، أيقظيه من سُباته الموشى بعذوبة ألف قلبٍ سكرانٍ ،
وأيقظي معه الصبايحَ ليمضيا إليك معاً ، مُعَفَّرَيْنَ بالشهوةِ وبالغضارِ والمرحِ ،
فهو الأخيرُ الذي سترينهُ هاذباً ينفخُ في أبواقِ هاذيةٍ ، ويملاً ، كالتأدلِ ،
بالبطولةِ كزوسَ العرقى ، واقفناً في المهبطِ ذاته ، في المهبطِ العريقِ للجدورِ
واغبتابِ الوحشيِّ بالوحشيِّ . وهو الأخيرُ الذي سترينه مُقبلاً إليك كإشارةٍ
أطلقتهَا العاصفةُ قبل أن ترتدي خوذتها الدموية ، وتشُدَّ ملاءةَ المائدةِ فتتشرَّ
الأواني على رخامِ الأرواحِ . أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

٩

أيقظها يا ديرام ، أيقظ فراشةَ الغيبِ ويُعَسِّوْبُهُ الذهبيُّ . . . أيقظُ
ديلانا ، وأيقظُ معها البيتَ حجراً حجراً ، ثم أيقظُ الساحةَ المحيطةَ بالبيتِ ،
وأيقظُ السياجَ . وإذ تنتهي من ذلك كُلِّهِ أيقظُ الصبايحَ النائمَ قربَ السياجِ ،
وقُلْ تعالي ديلانا ، تعالي لنشهدَ السطوعَ الحيرانَ للأرضِ وهي تَذُرُقُ
الحديدَ والبهاءَ علي درعنا الأدمي ، ولتُكشَفْ ، بعد ذلك ، ثديينا لنصل
الحقولَ ، مرغفينَ من عذوبة النُصَلِ إذ يغوصُ إلى حيث يجري السمسَمُ
والزعفرانُ ، كأنما نحاولُ ، معاً ، أن نكونَ الجراحَ التي لا جراحَ بعدها . . .

هيا أيقظها يا ديرام .

أيقظيه ديلانا ، أيقظي الفتى الذي يتملأ تحت الشعاع المنساب على صدره العاري . أيقظيه وأيقظي النهار والأرغفة ، ثم املائي دلوك - الدلو الذي تسقين به حيوانات الصباح التي لا ترى - املثيه شرانق قز وتوتاما يتساقط من المدايح ، لتخيطي بالحرير والتوت هذه العذوبة المسدلة حول ديرام . أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

أيقظها يا ديرام ، وأيقظ الحلم من حلمه تحت أهدابها ، ثم اتي على ديلانا حصاة من الوقت لتموج كسطح النبع ، وتتسع دائرة دائرة ، كل دائرة عربة ، وفي العربات البقول والطرق . هيا بالله عليك ، فما هو رسول الأودية يقطف لكما عناقيد الضباب ، وينثر على سياج البيت طفولة الخزامى . أيقظها أيقظها يا ديرام .

أيقظيه ديلانا ، أيقظي قناع الملهاة - هذا الفتى المطوق بمناجل الآلهة . أيقظيه لئلا يفوتكما ندى الصباح العجول وغواياته المضحكة ، فلربما عرفتما أن للندى سهيلاً في العشب ، وأبواقاً تؤذن بالهرطقة المرحّة للتراب المرح . أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

أيقظها يا ديرام ، أيقظ هذا البذخ السماوي - ديلانا ، وانثر عليها حباً من الضحى وأشياءه الباذخة . فإذا ترامت أمامك يقظي استطلعها كما

يَسْتَطِيعُ النَّبَاتُ النَّبَاتَ . واجلسا معاً تستظلكما القَبْلُ ، وتُغوي بِكُما
الأغاني الأغاني . أيقظها ، أيقظها يا ديرام .

١٤

أيقظيه ديلانا ، أيقظي الشعاعَ الأدمي - ديرام إذ يَتَحَدَّرُ سكراناً من
بهاء الذِّكْرِ ، ولا تجعلِي حجاباً عليه يدُوك أو اللُّهاتُ ، مديداً فليكنْ ،
واضحاً مشوّفاً تترأى في شفافته العناقيدُ والبراعمُ ، فتملكينْ كُلَّهُ ، وكلُّ
ما يترأى فيه ، معاً . وتملكينْ أن تكوني المَخْدَعُ الأدمي للنَّباتِ وأحلافِهِ
من غمامٍ وأجنحةٍ . أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

١٥

أيقظها يا ديرام ، أيقظ الدَّمَ الحيَّ وأشكالَهُ الصديقةَ ، وتكَلَّلُ ليَقْظَةً
ديلانا بنفِيرِ رقيقٍ ، فهي يقْظَةُ عرشٍ تَتَدَانِي في سُلْطانه الينابيعُ وتستحمُّ
الجداولُ . وهي قوسُكُ ترمي به - حين ترمي - ذاتكُ كُلَّها في نشيدٍ
أخيرٍ . أيقظها ، أيقظها يا ديرام .

١٦

أيقظيه ديلانا ، أيقظي التَّرَفَ وأشكالَهُ الصديقةَ ، واشهديه إذ تفتَحُ
أهدابه عن طيورٍ ، فهو يقْظَةُ لَيْسَ يشهدها إلا صباحُ مَسْكِ بصليلِ المياهِ ،
وهو قوسُكُ ترمينْ به - حين ترمينْ - رَحِمَكِ كُلَّهُ في نشيدٍ أخيرٍ .
أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

١٧

أيقظها يا ديرام ، أيقظُ غُدُافَ الزبدِ ديلانا ، وانشرْ قلوبَكَ حين

تتملّمْ من دغدغاتِ دَمِكَ الصّباحي ، فأنتَ مُقْبِلٌ على دَمِها بسحابٍ
عُريانٍ . أبقظها ، أبقظها يا ديرام .

أبقظيه . . .

أبقظها . . .

لم أَشأْ أن أوقظَ الأرضَ في ذلك الصّباح .
لم تَشأْ أن تُوقظني الأرضُ .

كلُّ شيءٍ يمضي حين تكتملُ الإشاراتُ ، والذي يتشبّثُ بالآنينِ
يمضي معهُ الآنينُ : هكذا مضى - ديلانا وديرام - فلم أَشأْ ، ذلك الصّباح ،
أن أوقظَ الأرضَ ، ولم تَشأْ أن تُوقظني .

كانا ملءَ بصري ، فتى وامرأةً ، وكنتُ دليّلهما الأبكمَ ، أفتحُ
لسهيمهما ممراتٍ من الندى ، وإذ يشردان بين صنوج البراعمِ أجعلُ البراعمِ
احتفالَ الشاردِ بالشاردِ . بيدَ أن الجهاتِ التي ضلّتها عنهما - ليهدرا معاً
ما يشاءان من فتوح - سوّرتهما بالخطى والفضولِ ، فإذا المكانُ دَرَجَ بين
أدراج عالية يصعدُ الحجرُ عليها الحجرَ ، والقناعُ القناعَ ، وإذا ديلانا وديرامُ
مُتخَنّانَ تتداعى خلفَ درعيهما بروجٌ من عسلٍ ، وترطمُ بأهدابهما السُّمُنُ
والغرائقُ .

لا ، لم أَشأْ أن أوقظَ الأرضَ في ذلك الصّباح ،
ولم تَشأْ أن توقظني الأرضُ .

لكنني ، كدليلٍ لم يَقْدُ عاشقينِ إلّا إلى وميضٍ مرٍّ ، قلتُ أروي الذي

جری ، وقلتُ أبداً الفاجعَ علّ لي مَسْرَباً إلى العذبِ ، فها تروي معي -
حين أروي - جذورُ شَتَى من بُصْبِلٍ وليفٍ ودمٍ أشقرٍ ، تَصَامَتُ ، معاً ،
جدائلٌ في مهبِ المديحِ .

قلتُ أبداً من حيث طُوقَ الغبارُ سلالَ ديلانا وديرام ، وكانا راجعَيْنِ
من حصادِ الكَمَا ، يعلو ذؤابتيهما نثارٌ من طَلَعِ البَقُولِ ، كَأَن استَحْمَا
بالأزاهر فأودعتُهما الأزاهرُ براكينَ لهوها ، وكانَ نَسِياً قُبْلاً في العشبِ
فهرون العشبُ إليهما بالذي نَسِيا .

كانا راجعَيْنِ ، وكانت الأرضُ راجعةً من حصادها النهاريِّ بألفِ
سنبلة ، وألفِ لهبٍ ، وألفِ اقتحام تركِ الباسِلُونِ فيها أقدارهم يَقْطِي تحت
موجةٍ لا تَرى ، وألفِ درجٍ مشقوقٍ ، وألفِ صاعقةٍ مبنلةٍ بالقَبْلِ ، وعشرين
رجلاً رموا ديلانا وديرامَ بَسْهم من الرمادِ فانحنيا للسكونِ الذي يبعثرُ في
طريقه الينابيعَ ، ويعصفُ بالقرنفلِ .

هكذا مضياً : فتى وامرأة .

وأنا ، كدليلٍ لم يَقْذُ عاشقَيْنِ إلا إلى باطلٍ عذبٍ ، كنتُ عارفاً أن ما
يجعلُ القلبَ وريثَ المصِيباتِ يُهْرِقُ القلبَ كَسِرٍ يذْرِقُهُ الهادي . لكنني
مضيتُ بهما - ملتفتَيْنِ بيروقٍ تَتَفَتَّحُ عن هالاتِ المرِّ - صوبَ بهاءٍ لم يرثُهُ
أحدٌ ، وهناك قلتُ انثرا القلوعُ كطالعٍ تَسْتَشْرِفُ فيه اليابسةُ قرعَ المياهِ على
درجِ المياهِ ، فأنتما ، كعاشقين ، نَذَرُ الأَبْهَةَ لِلْأَبْهَى . ورأيتُ أن أستطلعَ
الطالعَ ، كدليلٍ لم يَقْذُ عاشقَيْنِ إلا إلى رثاءِ جَسُورٍ ، فلمحتُ ديرام يروي
لديلانا ضحىً لا يَروى ، ضحىً تخاطفتُهُ القرونُ ففي كلِّ حافةٍ منه ضربةُ
قلبٍ أو فأسٍ من فؤوسِ الحنين . ورأيتُ ديرامَ جاثياً يهتَفُ بالخيولِ الخَفِيَّةِ :

انهضي ؛ ويستصرخُ المذائحُ فتلتقطُ المذائحُ رُشيمَ العويلِ من يديه بمناقيرها .
 بالله ، بالله لا تدعوني ، بعد هذا ، أسرد الأرضَ جهةً جهةً ، والسماءَ
 برقاً برقاً ، فأنا استطالة الحكاية ، إن رويتُ رويتُ قلبي طالعاً في العاصفة
 بقبُرات النحاس . لا ، لا تدعوني ، بعد هذا ، أروي الموتَ بالموتِ ، وأطأ
 العذوبةَ بفراغِ كحافر البغلِ ، بل انظروا ، أنتم الجالسون على سُورِ المغيبِ ،
 تَرَوْنَ عشرينَ رجلاً يُعْطُونَ ديراً وديلاًنا بعباءاتهم ، قبل أن يسيلَ خيطُ
 واحدٍ من الدم ، مُتَعَرِّجاً ، بين الحصى والقش ، ويغيبُ في آخرِ العراءِ .

هكذا مَضِيًا : فتى وامرأة

هكذا مضيا . لم يقل أحدٌ شيئاً ، ولم تنبسْ شفةً بالكلامِ الذي صُرجَ
 شجرة المذائح .

(في الزوبعة الأخيرة التي ختمت المدنَ بختمِ الجاهلِ ، غطى
 الشيوخُ أرواحهم بصنوج من طين ، وارتدوا زَرَدَ الدَّمِ فبقوا بعدما
 جَرَدَتِ الزوبعةُ الأشياءَ من صباها . بقوا واقفين ، كقرن علي
 جمجمة ثور ميت ، حيثُ تهدلتُ من حولهم غصونُ بيضاءَ
 ومنازلُ بيضاءَ . ولأنهم إرثُ أخيرٍ ، وربانةٌ من زيد يديرون دقةً لا
 تُرى ، أسلموا ديلانا وديرامَ إلى عشرين قبضةً ذُيِّلَتْ صحائفُ
 اللهبِ العذبِ بختمِ الجاهلِ .)

هكذا مضيا ، في الزوبعة الأخيرة التي أفتتَحَ الجاهلون مجدهم بها ،
 وأنا استعسيتُ ذا المَضَى لا لِيُروى ، بلُ لادفعَ عني هذا المديح الذي
 امتدحتني به الأرضُ كليل لعاشقين أفرطتُ في نهبِ قلبيهما بسيوفٍ
 من عسل . وأسردُ ما أسردُ لا لِيُروى ، بل لأرجعَ إلى المكانِ الجاهلِ ، حيثُ

يجلس الجاهلون ، تحت الأعمدة ، شيوخاً تساوت أمامهم سطورُ الأقي
بسطورِ الرماد .

أه ديرام ، كنت فتى هارباً من السهول مُلتقاً بصواعقِ السهول .
أه ديلانا ، كنت امرأة هاربة من بعلها إلى خيارٍ لا خيارٍ لصيبِ هاربٍ
فيه .

فتى وامرأة أبرمّا معاً عقدَ طعنة واحدة ، فأضرمّا هذيانَ المكانِ الجاهل .
إيه يا المكانُ الجاهلُ ، يا رقعةَ العقدِ المُبرّمِ بسلطانِ القويِّ وحكمةِ
الموتى ؛ يا أنينَ الهزائمِ كلّها أنْ تُخفى الهزائمِ بالمرائي ، وتعلنُ بالمرائي ،
كيف أتبعُ البداية؟ كيف أتبعُ امرأةَ وفتى في المكانِ ، وكانا شاردَيْنِ عنه
إلى ضحى لا يطلع على الأشكال ، بل على القُبل ؛ ضحى خفيفٍ كسوطِ
الحدوي ، يهيبُ بصقورِ العذوبة فتتقض ، وبالجذور فتعدو إلى الجنونِ
العظيم . لا ، لم يكن مكاناً ، ولم تكن ترى الكراكي ، بُعدٌ ، مهازلُ
البنائين من الأعالي . كان أفقٌ إذا ، وهوى يتدلى بعناقيده من عرائش
خفية . وكانا راكضين ، فتى وامرأة ، يحملُ أحدهما إلى الآخرِ عرشهُ ،
وقربةَ الماء ، والأرغفة التي رَقَّتْها أناملُ العناصر .

هكذا التقيا .

هكذا أطعمَ الغمَ الغمَ زبيبَ الهديانِ ، وأهدى القلبُ إلى القلبِ ممراتٍ
من الريشِ مسقوفةً بالخوام .

إنها الأرضُ الآنَ (هكذا أروي) . إنها المصباتُ وطعمُ الكائنِ لقنصِ
الكائنِ : كلُّ شيءٍ في سيرةِ ذاهلة ، والفاكهة تحلجُ من دهلِ الجذورِ أوّلِ
صليلٍ ، وأنا دليلُ ديلانا وديرام ، دليلُ يخيبطُ الجهاتِ بالمرح ، ويُلقِي

بمفاتحه إلى الغمام الأسير ، فلا يريان إلا قلبيهما مُحَكَّمَيْنِ كالقيد على العذوبة ، ولا يشهدان ، أنا التفتنا ، غير العاشق يتقرى بلهائه ختم العاشق .

(أذكرُ خَتمَكَ ديرامُ؟ أتذكرُ الختمَ ذا المقبضِ الصلصالي؟
أتذكرني مائساً من حولك في الهواء المتدحرج كالنرد وقد بسطتُ
عليك سلطانَ الماءِ ودغدغةَ الحقول؟ أه كم كنت صغيراً حين رفعتُ
يديك ، أوّل مرة ، ملؤهما البيادرُ والوشاشاتُ . أه ، كم تقاربتُ
خلفَ ظلكَ الصغيرِ جيوشُ حنونةٍ وعسكرُ الأقحوانِ . وكنت تنثرُ ،
آنذاك ، قطانَكَ للقرى لتتبعك ، كمن ينثرُ للزرّازيرِ فُتاتَ الحبزِ قرب
فخاخه . لكنها أثكأتُ على خوذة القادِمينَ من غيبِ زينتهِ المدينةِ
بشرياتِ الكتابةِ ، وبقيت أنت ، شارداً شروذٍ يقظة وسط ظلام هازل .
أديرامُ لا تنتفضُ حين تسمعُ صليلَ الينابيعِ الراكضةِ
بسلاسلها ، وقرعِ السنابلِ على فحولةِ العراءِ ، فأنت تغشى ، الآن ،
بهزائلكِ بطولةِ المدينةِ ، وتقدمُ الخنجرَ الأخيرَ ، خنجرِ النباتِ
والنهبِ . أديرامُ لا ختمَ إلا ختمك يسعَى به المصبُّ إلى المصبِّ ،
أزميه أزميه ، ولتضعِ الجداولُ) .

هكذا أروي ، هكذا يطعمُ الفمُ الفمَ زبيبَ الهذيانِ . أيقول لي أحدٌ ،
بعد هذا ، تمهلُ أيها الدليلُ؟

لا ، سأروي المُدْخَرَ من عوالم ، وأفتحُ القربَ على مداها ، وليكوننِ
حديثي حديثَ نيزكٍ ، وإشاراتي نزعة موج جميل ، فلا يرى ديرامُ وديلانا
غيرَ قلبيهما - حين أروي - مُحَكَّمَيْنِ على العذوبةِ ، ولا يشهدان ، أنا
التفتنا ، غيرَ الدم يتقرى بلهائه ختمَ الدم .

(أَتَذْكُرِينَ خَشَمَكَ دِيلَانَا؟ أَتَذْكُرِينَ خَشَمَكَ ذَا الْمَقْبُضِ
الشُّفْقِيِّ؟ أَتَذْكُرِينَ رَقِيفَ يَدَيِ وَقَدْ أَمْسَكْنَا بِرَسَائِلِ الْبِرَاعِمِ ،
وَكَاثَتْ يَدَاكَ تَسْفَحَانِ لِي ، عَلَى مَهَلٍ ، أَحَابِيلَ الشَّمْرِ؟ . أَتَذْكُرِينَ ،
كَتُّ الدَّلِيلِ الْخَزِينِ لِلْفَرَحِ ، أَتَعْجَلُ أَنْ يَنْحَدِرَ دِيرَامٌ مِنْ أَقْصَايِ
الْهَضْبَاتِ ، وَيَأْتِي لِيُقْفِلَ بَابَ الْبَحْرِ بِرَتَاجِ الْبِرَارِيِّ .
كَتْتُ فِي الْأَرْبَعِينَ ، كُنْتُ مَلَأَى بِالَّذِي يُبَيِّحُ الْحَرْبَ وَيَجْعَلُ
الْخِيَانَةَ لِهَوِّ طِفْلِ . وَكُنْتُ مُهَمَّلَةً أَيْضاً ، مُحْضَةً امْرَأَةً ، كَكُلِّ امْرَأَةٍ
أَعْطَتْ لِبَعْلِهَا مَا لِبَعْلِهَا ؛ وَأَخَفْتُ بَعْضَ قَنَادِيلِهَا ، كَكُلِّ امْرَأَةٍ ،
قَرَابِينَ لِلْمَوْحَشِ الظَّمَانِ إِلَى يَدِ تَهْرُقِ الْإِبَاحَةِ ، وَتَمْرُجِ الْهَيْئَمَاتِ
بِالْخَلَاخِيلِ .

وَقَتَذَا جَاءَ دِيرَامٌ ، وَقَدْ فَرَعْتُ مِنْ نَسَجٍ مَا لِلْبَعْلِ ، وَتَشَاغَلْتُ
عَنْ نَفِيرِ الْأَنْثَى بِنَفِيرِ السُّلْطَانِ الَّذِي يُمَلِّكُ الْكَائِنَ مُشَاغِلَ الْكَائِنِ ،
فِيْمَضِيَانِ ضَرِيرَيْنِ إِلَى الْمَهْرَجَانِ .

وَقَتَذَا جَاءَ دِيرَامٌ ، وَقَدْ لَمْ يَكُنْ لَكَ سِرٌّ أَوْ غَضَبٌ ، فَرَفَعُ
إِلَيْكَ ، فِي آتِيَةِ نَهَبِهِ ، سِرُّكَ وَالْغَضَبَ . آه دِيلَانَا ، لَيْسَ بِمَبَارَكٍ مِنْ لَا
سِرُّ لَهُ ، مَنْ لَا يُغْلَقُ عَلَى فَلَذَةٍ مِنْهُ بَابَهَا فَيَسْتَمْلِكُ ، وَهُوَ الْمَمْلُوكُ
أَبَدًا ، بِشَاغِلٍ أَنْ يُرَى يَقْظَانٌ أَمَامَ خِيْمَةِ الْقَوِيِّ .

وَصَارَ لَكَ سِرُّكَ دِيلَانَا ، صَارَ لَكَ مَا تَقْفَلِينَ عَلَيْهِ بِقِفْلِ
الْأَنَاشِيدِ ، وَتَفْتَحِينَهِ فَتَعْبَثِينَ عِبَثًا حُلُومًا بِالْأَنَاشِيدِ ، فَلَا تَنْتَفِضِي
حِينَ تَدْخُلُ السَّنَابِلُ عَلَيْكَ الْآنَ ، فِي مَلَأَاتٍ مِنَ الشَّهْوَةِ ، سَاحِبَةٍ
خَلَقَهَا ظِلُّ سَيْفٍ مِنْ سَيُوفِ الْغِبَارِ الْخَارِبِ ، فَهِيَ تَجْهَدُ أَنْ تَرَى
خَشَمَكَ الَّذِي تَسْمَعُ بِهِ الْمَصْبَاتِ إِلَى الْمَصْبَاتِ . أَرَمِي خَشَمَكَ ،
أَرَمِيهِ أَرَمِيهِ ، وَلَتَضَعِ الْجَدَاوِلُ .)

على رسلِك أيها النبعُ ،
على رسلِك أيها الهباءُ .
على رسلِك أيتها الصواري ،
على رسلِك أيتها الأرخيبلاتُ ، فهذا قَوامُ نشيدي .

بَيِّدْ أُنْثَى ، كدليل ، لن أبرِمَ النشيدَ بمطالعِ مُرْسَلَةٍ كَتَيْلَةِ القُطَنِ ، بل
سأدعو الشهودَ نباتاً نباتاً ، وسنعتصرُ ، معاً ، لهائنا في نَسْجِ الورقةِ الوحيدةِ
العاليةِ ، ورقةِ الملهاةِ التي بسطتْ ظلّها على قُبْلَةِ العاشقينِ ، حين أسدلتْ
عشرونَ يداً ستارَ الكهولةِ على الضّحَى .

* ديلانا ، زوجة الكتابة ، وأم ابنتين ، يعنُ لها أن تذكّر بين
الحين والحين هروبها من المدينة إلى المدينة . وإذا جلست لترفو ما
تمزق من ثياب ابنتيها ، في الظهيرة ، ترفو الحاضر أيضاً بعينين
دامعتين .

* ديرام ، فتى الهضبة ، يعنُ له أن يجلس قبال ديلانا ، ناسياً
أنه الغريب . فإذا نظرت إليه بعينين دامعتين أرخى قناعه الصارمُ ،
وأجهش بالرعد .

كلاهما طفلٌ . فتى وامرأة طفلان ، وأنا الدليلُ الأبكمُ أقودهما عبر
شجر الدراق ومنابر الغمامات السُكْرَى .

بالله يثها الغماماتُ السُكْرَى ، يثها الغماماتُ السابحةُ في نبع من
العظام وقرون الثياتِ ، انهضي ثُكُلِي في قناع كلب ، واكسري تاجك
الشّفيفَ . وأنتن يا شجرات الدراق ألا لا يَسْتَظِلُّكُنَّ شَيْخٌ أو شريدٌ . أما
أنا ، ذاكُم الدليلُ الذي سَلَّ الهَرَجَ كمدية ، وشقَّ الأغاني ، فحسبي أنني
جالسٌ هنا ، قرب ثور ترتطم بعينيهِ الرِّيزَانُ ، ويُقْلِي جِلْدُهُ القَرَاذُ الطائشُ ،

وكلانا ينظرُ - إذ ينظرُ - إلى سَرَوَةِ البحرِ أَنْ تَمِلَ بأعشاشِها .

مرحى ديرامُ

مرحى ديلانا :

لَمْ أَكُنْ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ . لَمْ أَتَطْلُعْ قَطُّ إِلَّا إِلَيْكُمَا ، غَيْرَ أَبِي
بِالْقِيَافَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْأَثَرَيْنِ صَنْجٍ يَفْتَتَحُ الْمَوْتَ .

مرحى أَيْهَا الْفَتَى

مرحى يَتَهَا الْمَرْأَةُ :

لَمْ أَكُنْ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ . كُنْتُ سَارِحاً بَيْنَ أَهْدَابِكُمَا ،
أَرَى مَا تَرِيَانِ ، وَأَمْتَدِحُ ، مِثْلَكُمَا ، بِهَاءِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ أَطْلَقُوا الْمُدُنَ كَكَلَابٍ
سَلُوقِيَّةٍ ، وَخَرَجُوا يَبْحَثُونَ عَنْ شُعُوبِهِمْ . وَأَمْتَدِحُ الطِّيُورَ أَيْضاً ، وَالْمَشَاعَاتِ
وَالْمِيَاءَ ، وَأَحْفَرُ رُوحِي بِمَعُولٍ نَدِيٍّ لِأَلْمَسِ فِي فُجُواتِهِ الْخِيَامَ وَالْأَسْلِحَةَ .

دَعْنِي دِيرَامُ ، سَأَلْقِي عَلَيْكَ عِبَادَةَ الْأَمِيرِ .

دَعْنِي دِيلَانَا ، سَأَلْقِي عَلَيْكَ عِبَادَةَ الْأَمِيرَةِ .

وَسَأَجْشُو

مَانِحاً لَصُرْبَةِ النَهْرِ الْكَاهِنِ صَدْرِي كُلَّهُ ، عَلَّ يَهْتَدِيَ بِالدُّوَى دَلِيلٌ
غَيْرِي فَلَا يَمْتَحِنُ الْكِتَابَةَ بِعَاشِقَيْنِ يَخْتَتِمَانِ النَشِيدَ بِالْغَضَبِ .

إِيهِ أَيُّهَا الْغَضَبُ ، أَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ أَقُودَ فَتَى هَارِباً ، وَامْرَأَةً هَارِبَةً ؟

(حِينَ جَاءَ دِيرَامُ بِأَشْيَائِهِ الصَّغِيرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، كَانَ عَاقِباً
بِلِهَاطِ الْبِقَاطِينَ ، وَفِي جَيْبِهِ بَقَايَا دُرَّةٍ . لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا . نَظَرَ فِي وَرَقَةٍ

وتتبع الإشارات إلى بيت صاحبه الأرمني.)

إنه أيها الغضب...

(كان لا بُدَّ من يقظة . كان لا بُدَّ من شراع حجر . وصاحب ديرام صديق صبا . يعرف أن يستيقظ مع الحجر ويقود اليقظة . وقد روى لديرام عن نساء المدينة ، عن رياح المدينة ، وعن رطوبة تَبَلُّلُ الكلام والنوم . وبما اُمتَقَمَا وهما ينظران إلى العاربات يتدقَّان قرب لهب البحر .)

إنه أيها الغضب...

(مدوِّرة كانت المدينة ، مدوِّرة مثل إلية الكباش . وكان ديرام يحتفي بأعوامه العشرين ، صامتا كصاحبه الأرمني الصامت . غير أن الخبطة المائة للحقول على بابهِ أيقظت العتالين الغرباء ، الذين يجاورون مَسْكَنَهُ جَمْعًا جَمْعًا في الغُرفِ ، فأوقدوا لأعوامه بَسَّالَةَ الغريب ، وغنوا للهذيان .)

إنه أيها الغضب...

(يقول ديرام : أي فضاء هذا ، أي صفيح يغطي اليقظة؟ ويقول الأرمني : دَعَكَ مِنَ الْأَقْفَالِ فَأَنْتَ ابْنُ الْمَدَائِحِ . يقول ديرام : أي غزو للحجر هذا ، أي نهب بسيف العويل؟ ويقول الأرمني : دَعَكَ مِنَ حَصَادِ الْحَدِيدِ .)

يقول ديرام: أي خوزة هذه ، أي سرورة تتدلى منها حصيتا
سِلَوْر؟

ويقول الأرمني: دَعَكَ من الأغاني ، فهي لا تهبُّ على
شراعك أنت .

يقول ديرام: أي مصبٌ للفيجاءاتِ هذا ، أي ملكٍ مقنعٍ بقناع
المهْج؟

ويقول الأرمني: دَعَكَ من مشاغلِ البُكُورَةِ ، فقد أشرفَ المغيبُ
على سُلْطانه .

إيه أيها الغضبُ ، كنتُ جاثياً أَمْنَحُ النهرَ الكاهنَ زَرَدِي ، وأُحَوِّكُ
العطشَ للجداولِ ، لكنني إِمَّا التفتتُ رأيتُ ديرامَ فتى يهدمُ المدينةَ وبني
المدينةَ .

(ببأسِ كباسِ الخُلْدِ بدأ ديرامُ ، وبأجرٍ كأجرِ فتى . كان يرفعُ
الكتبَ من الخابيءِ إلى ذَاكِرَةِ الموتى ، ويحزِمُ لباعةَ الكتابةِ الجَدَلِ
والرمالَ ، ثم يرجعُ آخرَ النهارِ ليجلسَ على سطحِ المبنى ، مرتشفاً
مع الشاي المسائي راتحةً أنشَى لم تطلعْ من الصلصالِ بعدُ . غير أنه
التقى ديلانا ، بعدَ مِثْنَيْنِ من شمسٍ تالتَ على فراغٍ مُتَرَفٍ
بصحبِ الحديدِ ، فبكى .)

إِيَّه أيها الغضبُ . . .

(كانت ديلانا تنتظرُ أيضاً ، بعدَ أربعينِ دورةً من دوراتِ
السنايلِ . وكانت تسمى إلى أن تجعلَ من ابنتيها سبباً ما لرُضوخِ
الدمِ للدمِ .

وديلانا مائدةً . وديلانا نَسَاجَةً من نَسَاجَاتِ المدينة ، غزلتُ ،
ذات يوم ، على مغزَلِ الماء أقدارَها ، وهي مُذْ ذَاكَ حَيْرَى بين أن
تأسرَ السُّنُونُو أو تطلقَ السُّنُونُو ، لكنها استغفلت القاعدةَ وحَيْرَةَ
القاعدةِ ، فشَقَّتِ المدينةَ بَعَمْدٍ ترفعُ السُّهُوبَ كَظِلٍّ فوق الأرواحِ .

إني أيتها الغضبُ ...

(حينَ دخلَ ديرامُ بيتَ ديلانا ، قالتُ : خلقتُكَ من شُبُهَاتِ
الأنهارِ .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ مِنِّي .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ من النُهْبِ فانتَهَبُ .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ من مساكِبِ وبقولٍ .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ من مطالعِ العويلِ .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ من برقيٍّ موحشٍ يتلألُ على مقابضِ

البواباتِ .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ من دُهولي .

قال : وأشياءَ أخرى .

قالت : خلقتُكَ من نذورِ الظلامِ إلى الظلامِ ، ومن بكوريةِ

غائصة بنصلها في الجذور .

قَالَ : تعالي إذا .

فاحتضنته وبكيا .

إني أيتها الغضبُ ، سأمهّلُ الأرضَ حتى تأتي الأرضُ بشفاعةِ
الأسلحةِ ، وسأندُرُ الحفيّ حتى يكشفَ عن موقدهِ ، لاني أستجمعُ الآنَ
سيرةَ القبلِ وحبري الحبابِ ، مستعيناً بما لا يرى ، بالسُّماني ، بإوزِ
يختزنُ في الحواصلِ كلامَ الضفافِ ، وليسرُدُنْ معي الشجرُ - حينَ أسرُدُ -
هذه المطلاعِ المُدبّجةِ بريشِ الغوابِ وعُصافَةِ الشعيرِ :

مطلع أول

كانا يركضان معاً حولَ صاريةِ المدينةِ ، مُلتَفِعَتَيْنِ برسائلِ الشتاءِ ،
مرحُهما مرحُ النورسِ ، ولهاثُهما لهاثُ الغُذافِ .

كانت ديلانا تجهدُ أن تمسكَ ببرقه الغضبِ ، ويجهدُ ديرام أن يمسكَ
بغمامتها الغضبةِ . وحين تعبنا ، جلسنا معاً قرب صاريةِ المدينةِ ، هي تنحسرُ
انحسارَ موجةٍ قليلاً ، وهو ينحسرُ انحسارَ موجةٍ قليلاً ، تاركَيْنِ على حبالِ
المطرِ قميصَهما الزبديّ ووشاحَ مملكةٍ لم تكتمِلُ .

مطلع ثانٍ

كانا قادمين من ناحيةِ الغُربِ ، من الناحيةِ المتصلةِ بأبنينِ الملوكِ ،
وبأخِرِ التمتعِ للبرقِ على سِنانِ البطولةِ .

كانا قادمين ، وقد خرجا ، توأ ، من خلوة الكائن ، حيث يترك الذكر وراءه مجداً أعزل ، وتترك الأنثى وراءها أقاليم عزلاء . وحين التقيا المدينة نشرا للمدينة حفنة من الموج ومن خيام خضراء ، وعلقا على سياجها مديح المياه وشاح ملكة لم تكتمل .

مطلع ثالث

كانا شفيقين ، وكانت تُرى من خلال صدرئهما رفوف صغيرة من زُمج الماء ؛ ويُرى الشاطئ أيضاً ، ومراكب الموت ، ونوثيوها الصاخبون سُكّارى يقبضون على البحر ويطوونه كالثوب ، فينفّر من الأعماق تيسر يقود تيسر الباطل المرميّة .

وماذا يفعل ديرام ، وماذا تفعل ديلانا؟ لقد شققا كثافة الحيرة فما رُوي غير الحيرة ، وشققا الجسد فما رُوي غير الباطل .

كانا شفيقين ، غير أنهما أوصدا ، الآن ، باب الهواء الشفيف ، وارتديا للكثافة الكثافة ، فها هما يستعرضان جمهرات الظلام بسُلطان ملكة لم تكتمل .

إليه أيها الغضب ، يا صديق الخيول ، وسطنتي ، فكنت نفيرك إلى الأبواب ، استميل الغضببان وأغضب المرح . وقد شققت المدينة ، وشققت في المدينة بطانة السيد : نساء وحوذيتيه ورماحه وبغاله ؛ وأسرفت فشقت الورد والمياه ، فكان انبجاس عظيم لصاعقة مرغت شفاها على خوذة الغيب . وكوسيط لك أيها الغضب ، كساحل يُملئ خصومة البحر على

اليابسة ، فتحت قُربتي لظماً المحارب ، وهتفت : ظلُّ كما أنت ، وليظلُّ عليك الزُّدُّ ، وفي يدك مقبضُ الحذور والحديد ، فإن طعنت بالجدور فَصُصْتَ عن المدينة خُتمُ الأعمى ، وإن طعنت بالحديد طعنت المهيمن الأعمى وحده ، وتركت المدينة للعاصف السُكران . وهتفت : ظلُّ كما أنت ، ظلُّ مُنعناً في أمثالِكَ لكاهنات البراعم الجائيات قرب كوكب صغير من ورق الهندباء ، وانفخ معهن في بوقك العالي ، كأنك الوصيُّ على قنص يخرج الأقوياء إليه فيضلُّون المسالك ، وتنتحر كلابهم السلوقيَّة من ركضها وراء ابن عرسِ الألهة . وابتهج ، أنت النذيرُ اليُخضُوريُّ للحِجَم ، بذبولِ البراكين والحليات ، فهو ميعادُكَ لتنسج للبراكين مداراتٍ أخرى ، وللحليات مواطئ لم تكن حليات . وتقمُّمُ البهو المديد ، بهو العويل ، فخلفك كاهنات البراعم بمكانسهن يكنسن الأعمدة والأباريق والأدوار التي اهترأت تحت درع الملقن . بالله ظلُّ كما أنت أيها المحارب . ظلُّ باسطاً صليلك على العضلة البيضاء للثلوج ، وعلى الثُروف البارد لعروش الموتى .

إيه أيها الغضب ، وسطنتي ، فشغلت بك كتبة الليل . غير أنني لم يشغلني غير ريح واحدة ، هبَّت قبل أن أسلم المدينة لطواحينها ؛ ريح حنونة أمالت دبرام وديلاتا كعُشْبَتَيْن فوق سفح تُشرف منه المصبات على المصبات .

(أتدري دبرام كم اشتاقتك شجرات الدلب السَّبع؟ الشجرات المسكة بفوانيسها قرب مجرى السيل؟ أتدري كم هرمت المداخن ، وتهذلت البيوت؟ أتدري ، لمت السهول مسافاتها وانظوت كطفل ، وبِعشر النهر أباريقه تحت أقدام القرى؟ وأنت لما تزل حائراً بين أن تقود ديلاًنا إلى لهبٍ آخر ، وبين أن ترجع إلى

... ولماذا أشتغلُ بحنينٍ لم يَدْعُ للحاضر مجلساً حولَ مائدةِ الحاضر؟
أنا الدليلُ الأَبَكُم لا انقراض مُزهر سأسوي النشيدَ عاشقين ، وسأهدمُ
العاشقين ، جاعلاً للمطالع أذرعاً مائة ، وللخواتيم أقدماء مائة ، بعد ذالِ
يكونُ لعاشق فرازٌ ، ولا لِقُبلة أن تكتملَ إلا بالهذيان . فالذي أغمدَ عشرين
نصلاً في الأغاني (حيث كان لديرام وديلانا زاد يغذيان به الصباحات)
سيغمدها ، ثانية ، في الأغاني ، ليبقى هذا الحصارُ الكهلُ مستيقظاً
بشيوخه .

يَبْدُ أني سأبقى مستيقظاً ، أيضاً ، كدليلٍ أخير يقود النهارَ إلى
المراثي . وَعَلَامَ لا أباحتُ الحاضرَ هكذا ، مستيقظاً كالمراثي؟ عَلَامَ لا أجمعُ
التناقضَ أضاميمَ أضاميمَ تقدماتٍ إلى هذا المهرجانِ النحيلِ كالقَصبةِ ،
ذي العُقدِ كالقَصبةِ؟ . هَاكُم أرى الباطلَ السيّدَ حائماً ومن حوله فراخه
الزبديةُ ، وأرى الشّهقةَ العاليةَ ، والفضاء الزاحف تحت بطون اللبونات ، فإن
مَدَدْتُ يدي ضَمَمْتُهما ، يقيناً ، على رعدة أو أنين ... للأبين إذا ،
لا يتهاى سَرَتْ بهِ الجذورُ إليّ ، سَأَهَبُ هذه الطعنةَ هبةَ النشوانِ للأبجديةِ
النشوى ، وسأصغي حينها إلى رنينِ الحروفِ الساقطةِ من مواتيقي القوي ،
الذي أوثقُ الكائنَ بعقدٍ لا خيارَ فيه . وسأصغي حينها إلى القوي أيضاً ،
يتقرئ بطولةً لا تُرى .

(ذاكرٌ كيف فاجأت الخوذة الخوذة بعدما انطوت صفحتان من
مدايح ديرام وديلانا . ذاكرٌ أنهما انتهيا فبدأت المدينة . ذاكرٌ أن
عشرين طعنة هوت ، وأن عاشقين انفضّا عن مجلسِ الينابيع .
ذاكرٌ : لم يُقتل ديرام ، ولم تُقتل ديلانا ، بل رجعا ، كلٌّ إلى مسائه .

ذاكرُ: حطّمَ دِرامَ جرارٍ أنشَى خذلتُ قلبَها بعدَ الحصارِ . ذاكرُ:
أغلقتُ ديلانا على صورةِ الفتى أفقها ، وانحنتُ لجرارِ الكهولةِ بعد
الحصارِ . لذا تَجَرَّعتُ آخرَ برقٍ ، وتَحَيَّنتُ الخرابَ .

أي ذاكرة للبرق؟ مَدٌّ من السطوعِ المُرِّ، مَدٌّ من تعاقباتِ الدم والنبيذِ .
وأنا الدليلُ مُوثَّقٌ بِأثرِ صاحبٍ في الفراغِ الصاخبِ . غيرَ أنني أغضُّ قلبي
عن مراراتِ الأرضِ الصديقةِ ، وأهمسُ : «يَتَهَا الأرضُ» ، يا موكبَ الحصى
والحروفِ ، انظري كيف ساوتِ المحارِثَ باللهوِ . انظري كيف تعبرُ السنايلُ
بأسماها ، كسيرةٍ كدمٍ كسيرِ . انظري ، أما كان لهؤلاءِ الواقفينَ تحت
ثرياتِ السيدِ أن يقذفوا السيدَ بأحشاءِ كلبٍ . وإذا أفيضُ بهباتِ العويلِ
أرفعُ قلبي بمراراتِ الأرضِ صوبها ، صارخاً : «تُؤَخِّدِينَ بالمحارِثِ نارةً ، وبمن
يُشَرِّدُ المحارِثِ نارةً . أه ، لَتَضَيِّقَنَّ بِكَ جِهَاتُكَ حَتَّى لَيَضَيِّعَ الهَوَاءُ عَنْ
الهَوَاءِ» .

فليزدهرُ بالبولِ هذا كُلُّهُ ، فليَبرِثِ البولُ هذا كُلُّهُ .
ولتكنْ ضريبةُ أشدُّ من الخيانةِ .

لا ، بي حنينٌ بَعْدُ إلى زلزلةِ حلوةٍ ونهبِ حنونٍ . ودليلاً لم أزلُ ، دليلاً
أفضى بعاشقينَ إلى سَوْرَةٍ من خرابٍ ، ولكنني - يقيناً - حينَ سَقَطَتْهَا
بسوطِ الغمامِ وبوصلةِ التُسُغِ كنتُ مُتَبَيِّناً هذه الأقاليمَ بسلطانِ الروحِ ،
بسلطانِ لا سطوةَ فيه غيرُ سطوةِ المَرَجِ . فماذا عليّ بَعْدُ؟ ماذا أرفعُ نخبَ
سديمِ صُلْدٍ ، وانتصارِ حزينٍ؟ .

هَبْنِي أَيُّهَا الْمَاءُ خَتَمَ الْمَاءُ ،

هَبْنِي يَتَهَا الْقُلُوعُ مَكْرَةَ الْقُلُوعِ .

فأنا الحريفُ كطعمِ حريفٍ ، نسجتُ تَوّاً شَبَاكِي ، وهالندأ أندافعُ حَقْبَةً
حَقْبَةً بعجولي وماعزي ، ممسكاً بلجامِ الهضبات ، وعربتي الحقولُ . وكَمَنْ
يحشدُ الدولَ أحشدُ الكراكي . وكَمَنْ يحلجُ الصَّوْفَ أحلجُ الفلزَّ واللَّدائنُ ،
وأنصبُ السَّلامَ للبرقِ فيصعدُ إلى شُعْبِهِ الدُّبُونِي .
(وماذا عن دِيْرَامٍ أيها الدليلُ؟ ماذا بعدَ عشرين طعنةً مَحَتَ
عَقْدَ العذوبةِ بين دمهٍ ودمِ ديلانا؟ .)

هَبْنِي أيها المديحُ مطالعَ المديحِ ،
هَبْنِي يَتَهَا البِوَاشِقُ هِدَاةَ البِوَاشِقِ .

(وماذا عن ديلانا أيها الدليلُ؟ ماذا عن رنينِ أعادها وماداً إلى
بَغْلِهَا الرُّمَادِ؟ .)

هَبْنِي أيها النشيدُ ما يرفعُ المزاريقَ عالياً ، لتطعنَ بها الأيدي المائتةُ
للسهورِ فهذهِ الكتابةُ ، فقد عييتُ من أن تراني المدينةَ لصقَ درعها ،
جالساً ، تتعرّى في موقدي الغصونُ ، وتبعثرُ الطيورُ أعشاشها اللُّهْبِيَّةُ .
وعييتُ من ندماي يسردونَ الصليلَ ذاتهُ ، صليلَ الحداثقِ ، وحمحمةُ
الفسورِ الهاربةِ ، في حين أني أجمعُ الهادئينَ لنهبِ هاديءٍ ، وأندرعُ
بالمياهِ ، صائراً من مصبٍ إلى مصبٍ ، ومن غدٍ محاربٍ إلى غدٍ محاربٍ ،
لأجعلَ الغضبَ تحفةً للعالمِ للعالمِ .

هيا أيها النشيدُ ،

هيا
شدني
قليلاً

بألفاك الكوكبية ،

فما أنا إلا دليل سوز المساء الأجرى بحراب الملهة ، وتتبع الأثر
الأكبر ، أثر البذور وهي تشق الجلود عن أحناشها الترابية وتستقبل الأبد
الشريد .

(كشريد غص ديرام حين حدثته الطرق عن أيامه الراكضة
تحت أقواس الحنشار ، وعن قلبه العاري في مهب المدينة .
بكى ، بعد ذلك ، قليلاً
وخبياً تحت أسماله النباتية مملكة لم تكتمل .)

هيا أيها النشيد ، هيا نفق معاً خلف قناع أخير لتتحن الأرض حين
تعبز أقدارنا بسرب من الآلهة . هيا ، لأجعلنك أيها النشيد قناعي ،
ولأمتدحن الظلام اليقظان ، ففيه تغزل الأحابيل خيوطها الحلوة ، ويتوسد
المرحون الكلام الذي سيقال في الحروب المرحية .
وكحرب مرحة
سادخل

البلاط المفتوح على الجهات ،

وعجولاً ساعدتم الكواكب الصغيرة ومركبات المياه ، لأخوض بقايا
الممالك ، حيث تغفل الكائنات حلمها بغفل الدم ، وتركض الديكة من
ضحى الهزائم إلى ضحى الهزائم . وكأي مضى سامضي ، تاركاً للربع
أساور وقلادات يرتديها في الفتوح الجميلة .

أنا الرعبُ الحكيمُ ،

ولا فجعةٌ بعدي .

لكنني مُسْتَضَعَفٌ بديرامَ ، مُسْتَضَعَفٌ بفتى قاذني - أنا الدليل - إلى
صارية ضللت حولها المياه ، وأخفت عن اليابسة أجراسها ، وكم تعتريني
حُمى الفاكهة فأود لو لِقَطَافٌ تَذَرْتُ مُلْكِي ، لا لترابٍ يذبلُ بي . وأود لو
نسيتُ ديرامَ فأعفيتُ قلبي من سطوة الحكاية ، فأنا ، حين أبقى لسردٍ أبقي
طيئاً كالكلام ، فأما نَقَذٌ اسْتَمَلْتُ كُلَّ عَصِيٍّ ليطحنَ بي .

آخ ديرامَ ،

أخطت بي ، فحنيني أنتَ ، وإذ أجنُّ لا استعجلُ الأسلحة .

أروي بَعْدُ؟

أروي كيف مساءً عاد ديرامُ عارياً من رائحة ديلانا ، ومن شقائق
أسرارها؟ . كلُّ شيءٍ تهدلُ آنذاك : البرقُ والعذوبةُ وأسرارُ الصلصال . عادَ
واحتمى بي ، ضائعاً يلُمُّ القرى ويشمُّ الأودية ، كأنما ضيغُ السنابلِ التي
سَلَمَتْهُ مفاتيحها .

أروي كيف عاد وقد تكوَّمت تحت أنفاسه العُجُولُ الخائفةُ ، وتقرَّحَ
الهواءُ؟ عادَ مُدَثِّراً بمعطف أجري ، وفي يده بقايا درع . كان عارفاً أن حَرَبَهُ
انتهت ، وأن للعاشقين ألا يرجعا ، بعد ذلك ، إلى غزوٍ يسبي فيه الآخرُ
الآخرَ القُبُلَ ، ويأسرُ مدائحَ الجسدِ .

أروي؟ ... عاد راكضاً تنهالكُ من حوله شُرُفاتٌ ، وتشقُّ الحدائقُ
أثوابها . وكشتلةٌ مسممٌ طوقَ بأوراقه بقايا الظلالِ والشعاعاتِ التي نَسَبَتْها

الشموسُ الأخيرةُ . وحين انْتَرَدَ قليلاً قرب جراري ، صاح : «أيها الدليلُ ،
أفلَتَبِ الصاعقةُ وتَبَلَّلَ المديحُ أيها الدليلُ » .

يا لديرامُ ،

بعد نزهة في العنب ، بعد أن مَلَكْتُهُ الأرغفةُ نصفَ شَذَاها ، وتَمَلَّحُ
الملحُ بحلمه ، طوى القَبْلَ ، ثانيةً ، كالتدليل ، وغطَّى الملكةَ التي لم
تَكْتَمِلْ ، ريثما تُفْسَحُ الملوكُ للملوكِ آخرَ ، والأعمدةُ لأعمدةٍ أخرى ؛ وريثما
ييسُرُ الحديدُ بأعراسه في المكانِ الذَّاهِلِ .

هكذا سَلَّ يرامُ أنقاضه كمدية ، وقال : تَبَرَّجْ أيها الحجر .
فبأي شيء أوقفُ الآن انقسامَ العناصرِ؟ وبأي يدٍ أَرُدُّ سلاطاتٍ مُجفلةً
أيقظتها قرونُ الأياثلِ؟ ... آه ، كان صريرُ أولِ الأمرِ ، صريرُ بابٍ ، ومن
البابِ تدافعتِ الاقتعةُ والحداثُ فغطَّتِ الأرخبيلَ المَلْمُومَ قُربَ روحِ
الكائنِ .

أكنتُ أهذي؟

لا ، كلُّ بابٍ يُفْتَحُ الآن يُفْتَحُ على صلصالٍ يَلْدُ ، وعلى غضبٍ جالسٍ
أمامَ المائدةِ يُحصي المراثي .

وديرامُ يُحصي المراثي أيضاً . يُحصي نبوءاتِ المهْرَجِ ، ويرجُلُ الملحمة .
وديرامُ يدنو كأنما انتهتِ الملحمةُ ، مُستبدلاً قَنَاجَ العاشقِ بالبحرِ ،
والحنينَ بهرطقةِ العاصفةِ : هكذا يبدأ نشيدُ آخرَ ،
وتَتَخَنَّقُ الأرضُ في مجلسها .

أنا الدليلُ أخبركم هذا ، وأخبرُ المياهَ بحديثِ الحديدِ .

يا لديرامُ ،

بعد نزهة بين أباريق السهول ومكائد الورد ، لم يجد سواي منتظراً ،
وفي يدي رسن خمسين نيزكاً من نيازك العذوبة تضرب بحوافرها النشيد
العاري .

فَلَيْشَقْ جُوجُو الغامضِ هذي الموجة الجذلى ، ولتعم طباغ الغبار ، فانا
الدليل لم أزل دليلاً ،
ولم يزل ديرام متكتأ قُرْبِي ،
يخلط الحكاية بالأساطير ،
ويهرق الجهات .

ولم يزل المكان هو المكان : دروع ومدائح ، وشغب يحتضن القناع
الأكبر ؛ شغب واقف قُرب مرسة الأدوار ، حيث تلهث الأرض ، ويطرد
الربابنة بقبعاتهم ذباب الزيد . وللمكان نشيج . للمكان جلد وشق .
والذاهلون ذاهلون من بوق يتدلى فوق لوتس الأسلحة .

هاتها إذا ،
هاتها أيها المكان ،
هات قطاتك ، فانا الدليل دليلي قطاة الصرخة .

(يقول ديرام : لا بأس يا صاحبي ، كلها خطوطان وتضييع
المدينة غزالاتها التي دخلت بهوتا . وستنسل ديلانا فتمتلىء
الغرفة بجنس آخر . ويضيف : كانت مخض امرأة هاربة ، توسلت
إلي فتى - بعد عشرين عاماً من استباحات بعلا - أن تعود عذراء
منهورة لحصاد جديد ، فأغضى حيران . ويغضي ديرام فأعرف أن ما
انتهى انتهى ، وأن لقلبه ابتهالات تضيخ النساء ، كلهن ، من

هَاتِهِ إِذَا ،

هَاتِهِ أَيْهَا الْمَكَانُ ،

هَاتِ تَزْدَكْ وَلِيَاتَمَرْ ، كَلَانَا ، بِأَمْرَةِ الْهَآوِيَةِ .

غَيْرَ أَنِّي ، وَأَنَا دَلِيلُ الْهَآوِيَةِ أَيْضاً ، أَفْتَحُ بَوَابَ الضَّحَى لِقُضَاتِي
فَيَدْخُلُونَ حَامِلِينَ مَحَابِرَ الْغَضَبِ وَأَقْلَامَ الْبَازِلَتِ . وَأَدْخَلَ بَعْدَهُمْ بِسْرَبٍ
مِنْ بَقَرَاتِ الْمُلُوكِ وَتَنَافَذَهَا ، لِنَبْدَأِ الْمِرَافَعَةَ - مِرَافَعَةُ الْقَوْلِ الَّذِي يُقَرَّدُ ذَيْلُهُ
كَدَبِكَ رُومِي ، وَيَلْتَقِطُ بِمَنَاقِرِهِ عَدَسَ الْقُرُونِ . وَإِذْ ذَاكَ نَدَعُو شَهُودَنَا ؛ نَدَعُو
الْحَقُولَ وَزِيَارَانَ الْحَقُولِ وَمِزَامِيرَهَا الْخَرْفِيَّةَ ، قَارَعَيْنِ خُودَاتِنَا بِأَعْوَادِ السُّمَاقِ ؛
هَكَذَا يُتْلَى الْحُكْمُ فَيَجْرُجُ الْحُجَابُ الْمِيَاءَ مِنْ قُرْنَيْهَا خَارِجاً ، وَيَقْلِقُونَ
الْبَابَ فَيُغْلِقُ صَرِيرُهُ الْحَاقِذُ سَبَاجَ الْأَرْوَاحِ . بَعْدَ هَذَا يَنْفِرُ الْجُفَافُ
بَطَوَائِيسِهِ ، رَائِحاً غَادِيّاً وَظُلَّهُ ظِلٌّ خَنْفَسَاءٌ . بَعْدَ هَذَا يَجْفُ الْكَائِنُ حَتَّى
لَتَتَكَسَّرَ تَحْتَ أَلْيَافِهِ الْعَوَالِمُ الَّتِي خَبَأَتْهَا الصَّوَاعِقُ ، فَيَنْفِرُ ، بِدَوْرِهِ ، رَائِحاً
غَادِيّاً وَظُلَّهُ ظِلٌّ جُدْجُدٍ . وَكَلَّمَا اسْتَنْجَدَ بِالْآلِهَةِ أَنْجَدَتْهُ بَعْظَايَاتٍ تَنْفُخُ فِي
دَمِهِ رِثَاءَ حَامِضٍ .

هَكَذَا يُتْلَى الْحُكْمُ ،

فَيَغْدُو الْكَائِنُ مَلْهَأَةً حَامِضَةً تَحْتَ جِلْدِهِ الْخَرْشَفِيُّ ، وَتَتَخَيَّبُ فِي عُرُوقِهِ
الطَّرْبَانَ . وَأَنَا الدَّلِيلُ أَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ ، نَشْوَانٌ ، كَأَنَّمَا أَنْجَزْتَ خَطَوَاتِي
أَحَابِيلَهَا ؛ كَأَنَّمَا أَفْتَصَّصْتُ لِدِيرَامٍ مِنْ رُمَاةِ الْجَهَالَةِ ، وَكَسَرْتَ الْأَقْفَالَ
الْصَدِئَةَ الْعَسْرَةَ لِأَبْوَابِ الْقَوِي : أَلَا فَلْتَجَرَّ الْبَطُولَةُ فَنَزَعَتْهَا ، وَلْيَغْطِ الْيَقِطِينَ
بِأَوْرَاقِهِ طَبُولُ الْجَدَالِ ، فَالْحُكْمُ يُتْلَى ، وَتُتْلَى عَلَى الْعَاصِفَةِ مَوَاقِيقُ
الْمَعْدِنِ . . . آهَ ، نَكْهَةُ الْعَمَاءِ وَخَذَهَا هِيَ نَكْهَةُ الْخُرُوفِ أَيْهَا الْمَكَانُ .

(... وديرامٌ مسترسلٌ في اعتكافه خارجَ الحبِّ، خارجَ
المدائح التي نسجتها ديلانا في فورةِ الأنثى، وحيداً كما دخلَ
المدينةَ، يقطعُ أيامَهُ بحدوِّهِ النهارِ العاديِّ، النهارِ الذي لا فجاءةَ
فيه ولا خرقَ لميثاقٍ .

ينهضُ مبكراً إلى عمله .

ينهضُ مبكراً إلى تعبٍ مبكرٍ .

ينهضُ مبكراً إلى قناعةٍ فيرتديه ،

والى لُهاثِهِ فيعلِّقُهُ على صدرِهِ كَحَرَزَةِ السُّعْدِ ويمضي .

ولديرامٌ أتلو هذا ،

ولقلبه الباذخ كشجيرةِ الغفلِ أبسطُ حكمةِ الدُّليلِ .

وأودُّ لو تنفضُ الجهاتُ كُلُّها مثلما ينفضُ الساهرونُ عن مجلسٍ . وأودُّ
لو يبقى الغبارُ وحده ، مُتصِلاً حلقاتٍ حلقاتٍ في وسطِ فراغٍ عابثٍ يضلُّ
الشمسُ عن المغيبِ ، وعزجُ الكواكبِ ينبئذِ الظلامِ ، فلا تغيبُ شمسٌ ،
ولا يغيبُ ظلامٌ . يبقيان ، هكذا ، واقفين ، درعاً إلى درعٍ ، وأيديهما على
مقابضِ الفؤوسِ ، وأودُّ لو يحتكمانِ إليَّ فأقصيهما ، فاردأُ سريري لحدائقِ
الفراغِ وسراطينهِ الحاملةِ . أه ، ليتَ لا يبقى مكانٌ لظلٍّ حينَ يلتهمُ الهباءُ
تفاحاته ، ويركضُ ظبيُّ السديمِ الأعمى بين الأشكالِ . ليتَ تحتفي
الوحشةُ بسلاياتِها ، ليتَ ... ليتَ ...

أه أيها الهيلوليُّ ،

أيها الشريكُ النبيلُ ،

انثرْ أَرْزُكَ علينا ؛

انثرْ شعيرَكَ وفِرْكَكَ ، واهبطْ إلينا من مقاصيرِ الفاكهةِ العاليةِ . اهبطْ

إلينا ، أنا وأميراتِ العماءِ المسكاتِ برسنِ السيلِ الأعظمِ ، وهُنَّ يَأْمُرْنَ
القنادسَ أن تَسُدَّ مَهَبَ الأَلهةِ بالجنوحِ والطينِ . فَإِنَّ هِبَطَتَ هُرْعَنَا إِلَيْكَ
بأَكاليلِ القُرَاصِ ، بسلالٍ من كستناءٍ وصُخْبٍ ، وَلِتَغْمِذُنَّ ، حيثَ تغمِذُ
خنجرَكَ القُرْحِيَّ ، مصائرَ مَسْنُونَةٍ كالمناجلِ . . . هيا أَيها الشريكُ الهَيُولِيُّ ،
يا ظِلَّ كُلِّ شَيْءٍ ، لَتَكُنْ بقِرائِكَ هي الأَكْثَرُ خَوَارًا . لَتَكُنْ أَنْتَ أُنَامِلُ
الأرضِ التي تُطَبِّقُ على أجاصاتها اليابسةِ ، وتهزِ ريحانةَ الظلامِ . أووه ،
قبلكَ كانتِ الأرضُ مسقوفةً بأنقاضها ، وبعذكِ تَأْوِي إلى سَقَفِ أنقاضها ،
هكذا هي ، هكذا تَأْبَى إِلَّا أَنْ يَجْرُهَا فَاتِحٌ أَوْ يَأْتِسُ . وأنا الدليلُ أَنْذَرُ لِلْيَاسِ
الباسِلِ حِكْمَةَ الدليلِ ، وأَتِيكَ يا نَقِيضَ الأشكالِ ، لِنَتَابَطَ ، معاً ، للعرَاءِ
الخاويِ مَفَاتِيحَ أسمائنا ، وسلالاتٍ تُشَبِّهُ الأبواقَ على جدارِ ملكي .

ولماذا تُبقي الأرضَ ، لماذا تُبقي الأرضَ ؟

لماذا ، حين نهدمُ الكائنَ ، ونعبثُ بأدوارهِ الهندسيَّةِ ، تُبقي الأرضَ ؟

(. . . ويقول ديرامُ : لا يا دليلي ، لَتَبْقَ الأرضُ ، لَتَبْقَ مَرْمِيَّةُ
قُرْبِ خَصِيَّتِي القوي . لَتَبْقَ هكذا ، يَجْرُهَا فَاتِحٌ أَوْ يَأْتِسُ .)

ولديرامُ أتلُو هذا ،

لديرامُ أَغْزَلِ اليأسَ كُلَّهُ ، عسى يهوي فلا أَسْتَرْسِلُ . ولكنه يمعنُ في
اقتفاءِ المدينةِ بعنادِ اليأسِ ، ويتركُ لي أن أقتفي كَلْبَةَ النشيدِ .

كُنْ مُؤَاتِيًا يا هبوبُ ، كُنْ مُؤَاتِيًا . فديرامُ يُصغي الآن لريحِ جديدةٍ ،
ولريحِ جديدةٍ أتلُو هذا ، داخلاً من بَوَابَةِ الغبارِ الكبيرةِ ، ومَلَأُ يَأْسِي
الزعرَفَرانِ والسفَرَجَلِ ، مُزْمَعاً على أن أُمِدَّ دِيرامُ بِأسبابٍ مُتَرَفِّةٍ يَغْصَلُ بها

أَنِينَهُ الْمُتَرَفِّ؛ وَأَنْ نَلْقَى، مَعاً، فِي الْغَامِضِ شَبَاكَنَا ذَاتَ النَّسِيجِ الْمَلْمَرِ
مِنَ الصَّغْتَرِ وَالْهَلْبُونِ .

أَتَلُو بَعْدُ؟ أَتَلُو النَّبَاتَ أَمْ الْأَجْنَحَةَ؟

لا، لَدِيرَامٍ أَتَلُو مُوَاجِعَ السَّهُولِ . أَتَلُو كَيْفَ يَلْتَقِطُ الْبَجَعُ الْغَيُومَ مِنْ
النَّهْرِ، وَكَيْفَ تَمْتَلِئُ دُرُوعُ الْيَنَابِيعِ بِبَهَاتِ الْحَجَرِ . لَكِنْ دِيرَامُ فَتَى غَضٍ .
وَدِيرَامُ يَنْسَى فِي الْمَدِينَةِ أَنْ يَنْثُرَ الْبُنْدُقَ لِسَنَاجِبِ الْغُبَارِ، وَيُقْسِمَ بِالْحُبَارَى .

(بَاتَ دِيرَامُ يَرْفَعُ وَجْهَهُ عَالِياً كَيْ يَرَى الشَّرَفَاتِ . وَبَاتَ
مُجْثَلاً، يَغَادِرُ مِنْ حَيٍّ إِلَى حَيٍّ، وَمِنْ عِمَارَةٍ إِلَى عِمَارَةٍ، ضَيِّقاً
كَالْغُرْفِ . لَا تَتَسَّعُ أَقْدَارُهُ لِحَرَكَاتِ الْمَهْرَجِ ذِي الْمَفَاصِلِ الْمَعْدِنِيَّةِ،
الشَّارِدِ شُرُودَ الْقَنَاصِلِ بَعْدَ حَدِيثِ مُقْتَضِبٍ عَنِ الثُّورَاتِ . وَبَاتَ
طَعِيناً أَيْضاً، مُضْطَرِّجاً بِالْأَحَابِيلِ وَوَسَاوِسِ الْحَدِيدِ الْمَصْقُولِ جَيْداً
عَلَى مَدَاخِلِ الْعِمَارَاتِ وَحَوْلِ النُّوَافِذِ . وَهُوَ غَرِيبٌ أَيْضاً، غَرِيبٌ
حَتَّى مَصَبَّاتِ دِمِهِ الْمَطْوُوقَةِ بِالْحَشَشِخَاشِ .

يَقُولُ صَاحِبُهُ الْأَرْمَنِي : مَاذَا تَبَقَّى لَكَ؟

يَقُولُ : الْمَدِينَةُ .

يَقُولُ صَاحِبُهُ الْأَرْمَنِي : إِنَّهَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ .

يَقُولُ : لا، إِنَّهَا لِلنَّقِیْضِ الَّذِي يَهْدِمُ الْكَلَامَ .

يَقُولُ صَاحِبُهُ الْأَرْمَنِي : وَمَاذَا تَنْتَظِرُ؟

يَقُولُ : أَنْتَظِرُ الْيَاسِقَ .

يَقُولُ صَاحِبُهُ الْأَرْمَنِي : لَا عَصَافِيرَ فِي الْمَدِينَةِ .

يَقُولُ : لَا لِأَقْتَنَصَ الْعَصَافِيرَ، بَلْ لِأَقْتَنَصَ الْفَاجِعَةَ .

وَيَصْمَتَانِ، مَعاً، حِينَ تَمُرُّ أُولُ أَنْثَى، مَضْمُوحَةً بِالْبَيْلَسَانِ

كُنْ مَوَاتِيَاً أَيُّهَا الْوَمِيضُ لَأَتْلُو لَدِيْرَامَ هَذِهِ الصَّرِيْخَةَ . وَأَتُنْثَنُ يَا أُمَهَاتِ
النَّهْرِ ، يَا الْوَاتِي تَرْفَعُنْ مَظْلَأَتَكُنْ الطَّحْلِبِيَّةَ وَتَدْخُلُنَ الْمَدِيْنَةَ مِنْ وَرَاءِ
دِيْرَامٍ ؛ يَا الْوَاتِي لَظْلَالِكُنْ أَصْدَاعُ مَطْوَقَةٍ بِفَقَاقِيْعِ الْكَلْسِ ، لَا تَبَارِخُنْ هَذَا
الْفَتَى . فَلْيَسْمَعْ حَفِيْفُ أَنْوَابِكُنْ ، دَائِماً ، قَرَبَ سَرِيْرِهِ ، وَلْتَمَسْ جَبِيْنَتَهُ ،
أَبْداً ، وَشَوْشَاتُكُنْ الْخَفِيْضَةُ وَأَتْنُ تَتَجَادَلُنْ مَسْرَعَاتِ بَيْنِ الْعُرْفِ .
وَلْتَحْفَظْنَهُ حَفْظَ ذَبَّةٍ جَرَاءَهَا ، نَاصِبَاتِ مِنْ حَوْلِهِ فَخَاخِ الْحَقُولِ فَلَا تَصِلُ
إِلَيْهِ الْمَدِيْنَةَ إِلَّا أَسِيْرَةً . وَلِقَلْبِهِ الْبَاذِخُ كَشَجِيْرَةِ الْقَلْقَلِ ادْفَعْنِ سَمَكَاتِ
الْتَرَابِ تَتَوَاقَبُ سَكْرَى فَوْقَ سَرِيْرِهِ ، فَهُوَ فَتَى هَارِبٌ ، يَحِبُّ أَنْ تَدْعُدْ
الْمَسَافَاتِ قَلْبَهُ بِرِيْشَةِ الشَّمَالِ ، وَأَنْ يَضُمَّ سَرِيْرُهُ حَفْنَةً مِنْ تَرَابٍ تَوْقَدُ
الْطُفُولَةَ . هِيَ يَا أُمَهَاتِ النَّهْرِ ؛ هِيَ يَا الْوَاتِي يَحْبُبُنْ تَحْتَ صَدَارِيْهِنَّ الْإِنْشِيَّةَ
مِفْتَاحِ الْيَنَابِيْعِ وَنَكْهَةِ اللَّيْنِ ؛ هِيَ أَدْرُنْ مَعِيَ رَحَى الصَّلْصَالِ لِنَطْخِنَ
الْبَطُولَةَ ، وَلِيَكُنْ مَوَاتِيَاً وَمِيْضُ الدَّمِ فَتَنْجِيْلُ الطَّحِيْنِ وَالْوَمِيْضُ رَغِيْفاً مِمَّا
يَأْكُلُهُ النَّهَارُ الْأَعْمَى . وَلِيْ أَيْضاً يَتَهَا الْأُمَهَاتُ ، لِقَلْبِي الْبَاذِخُ كَقَنْزَعَةٍ
الْهَدْهَدِ ، أَطْلَقْنِ دِيْكَ الْأُمُوْمَةَ ذَا الْعُرْفِ الْيَاقُوْتِي ، وَافْتَحْنِ السِّيَاحَ
لِدَجَاجَاتِ الْمَرَحِ ، فَأَنَا دَلِيْلُ دِيْرَامٍ مُزْمَعٌ أَنْ أَقُوْدَ دِيْرَامَ بِيْغْلَيْنِ مِنَ الْأُمُوْمَةِ
وَالْمَرَحِ إِلَى حَيْثُ تَنْتَهِيَاً الْأَسْلَحَةُ لِعُرْسِ آخِيْرٍ .

(بَاتَ دِيْرَامٌ عَجْزُلاً ، بَاتَ يَنْظُرُ إِلَى بُرَاكِيْنِ الْمَدِيْنَةِ وَأَسَاسَاتِ
جُسُورِهَا بِعَيْنِيْ رَاكُوْنٌ ، وَيَجْفَلُ إِجْفَالُ الْبَشْرُوْشِ مِنْ قَهْقَهَاتِ الْحَجَرِ
الْخَفِيَّةِ . بَاتَ جَسُوراً أَكْثَرَ فِيْ إِغْوَاءَاتِهِ ، يَقُوْلُ لِلنِّسَاءِ مَا يَتَمَنَّى أَنْ
يَقْلَنَهُ لَأَنْفُسَهُنَّ أَمَامَ الْمَرَايَا ، وَيُضْحِكُ مِنْ إِسْرَافِ قَلْبِهِ فِيْ امْتِدَاحِ
دِيلَانَا ذَاتِ يَوْمٍ ، وَهِيَ أَنْشَى ، كَكَلٍّ أَنْشَى ، تَهَبُّ أَدْرَاجَهَا - إِذْ تَهَبُّ -
لَا لَذِكْرٍ بِتَعْيِيْنٍ ، بَلْ لِمَنْ يَفْجُوْ أَنْقَاضَهَا فَيَسْنُدُ الْأَعْمَدَةَ .)

لكنني أرى ديلانا أيضاً ، من خلال ورق الدُّبِّ الذهلي ، جالسةً قرب
كوكبها المهرج ، ومن حولها ابتهاها تنصيدان ذباب الرماد ، وتقضمان تفاعاً
لا تُرى .

إني ديلانا ، لا تاج لك الآن ، وليس لقلبك غير نفيره العادي ، نفير
دَوْرَةِ الدم الرئيبية . وكنت أكثر حرصاً على أن تشتغل أقدارك اشتغالَ
الحداذين ، يجعلون الحديد مقبض باب أو سلاسل ترفع الأراجيح . وها
عُدت ديلانا من ذهول حُلُو إلى ذهول مُر ، ترفعين عينيك قليلاً عن مغزل
المغيّب لتدمعاً ، كائناً ترين ديرام الفتى نازلاً درج الشتاء الذي أحببتهما
معاً ؛ نازلاً درج المطر ، تتدلى من جيوبه البروق وسُبُحات الغيوم . وكنت
تفرحين ، ديلانا ، فرح طفلة في الأربعين إذ يداعب ديرام طفلك
الصغيرة ، مُتخذاً شكل سلور ، أو مُقلداً صوت جدي أناضولي .

(قبل أن ينصهر العقيق ويصعد صعود الفتوة إلى ثمرة ديرام ،
وقبلما تنعقد روحه حجراً من عقيق تضمه ديلانا إلى عقد روحها ،
كان يحتفي ، خلسةً ، بأنثى في الرابعة عشرة ، ملأى بنزق العذوبة
وطيش الزُّرْجَد . وكانت تحتفي ، هذه الطفلة ، خلسةً ، بفتى في
الثامنة عشرة ، ذي أنين صامت ، خجول كبيوت القرى . كانت
تعرف أنها جميلة كما ينبغي ، وأنها ، وهي المصب الربيعي لأباريق
الجبلي ، تجرف ابن السهول - ديرام من الضفتين .

وكان يعرف أنها جميلة كما ينبغي ، وأنه ، وهو المقلع الأكبر
بين مقالع الكوبالت ، يُحصي من مكانه البراكين ، عارفاً أي سفح
من سفوح الأنثى الصغيرة ستفمره خمرة المعدن ، وأياً ستفمره
رقائق من بازلت الأدمي .

غير أنهما لم يكشفوا الأبعد في مخابىء جسدَيْهما ؛ لم يكشفوا
نبوءة العَصَلِ وهذيانَ الدم ، ولم يَغْزُ أحدهما الآخرَ بسيفِ النعناعِ
التي يملكانها .

لقد أدركت الأنثى الصغيرة ، وهي ابنة ديلانا ، أن للفتى
ديرامَ مهبطاً على شراع أمها . وأدرك ديرامُ أن هذي الأنثى الصغيرة
لم تكن غيرَ بوصلة تشقُ لحيزومِ لهائِه مضيئاً إلى أمومة البحرِ ، إلى
اللاألةِ المديدةِ لكهرمانِ الأعماقِ - ديلانا .

إيه ... كنتَ تعرفينَ ديلانا ما الذي يحبكهُ الوردُ للوردِ ، والصنحِبُ
للصنحِبِ . وكنتَ تريينَ إضغَاءَ الفتى والفتاةِ إلى التفتُّحِ الصلصاليِّ
لروحَيْهما ، غيرَ أنكِ اقتحمتِ غابةَ الفتى بسربٍ من الشَّقْراقِ لم يتركْ
شجرةً إلا أضاعها بقناديلِ الأعشاشِ ، فأعطتْكِ الغابةُ صولجانَ الدليلِ . أما
الفتاةُ ، وهي مديحُ أحشائكِ أنتِ لثورِ العذوبةِ ، فقد خبأتِ كواكبها المنشرةَ
في فضاءِ ديرامَ لعيدٍ آخرٍ ؛ لعيدٍ لا تتقاسمُ فيه أنثى وأمها صريراً بابٍ واحدٍ
في مَعَرِّ الفحولةِ .

وأنا ديلانا ،

أنا الدليلُ الذي وسَّطَ السهولَ بينكما ،

وَدَلَّ الأَيْنِ على الأَيْنِ ،

أُمْلِي على الوحشيِّ ، الآن ، إملاءً دُكْدُلَ ، وأغمسُ الهواءَ ، مثل ريشةِ
المؤنخِ ، في طبائعِ اللبوناتِ ، لِيَتَفَتَحَ أكثرَ ، رقةً رقةً ، لَنَاشِيدِ النَّضْبَانِ .
ولكِ أنحنِي ديلانا ، لزهرةِ الوحشةِ التي تضربُ بجذورها ، عميقاً ، تحتَ
ثديِّكِ العَنْدَمِيِّينِ ، لكن ، حَبُّكِ أَنْكِ احتضنتِ ، ذاتِ يومٍ ، توأمَ المياهِ ،
ومَرَّغْتَ لهباً عارياً على لهبِ عارٍ ، أما ديرامَ ، فمن أجله أُمْلِي الوحشيِّ ،
ليبقى رافعاً سراجَ الهباءِ ، حيثَ تستطيلُ الظلالُ والأقنعةُ ، وتَمَضُّعُ

الأرضُ ، في هدوءٍ وريب ، بُبَّانَ الأشكالِ . ولي ،
لنَفْسِي المستديرة كقُبْعةِ القرعِيزي ،
ليقيني الممتلئ بهارجٍ وريشاً ،
وللبسالة التي تتبرَّجُ لفحلِ الصُّجر ،
أُمْلِي على الأغاني شهوةِ المياه ؛

المياهُ المياهُ .

فَلْتَكُنِ المياهُ عربتي وجيادي .

فَلْتَكُنِ المياهُ عصاي إذ أجتازُ ، كالأعمى ، سراديبَ البطولة .

المياهُ المياهُ .

درعي المياهُ .

والمياهُ جذالي حين يحتدمُ الهواءُ الهروطوقي .

المياهُ المياهُ .

تنزلُ المياهُ في الصباحِ عن سريرها ، وليسَ عليها من زينةِ الأرضِ غيرُ
عقدٍ من الأشرعةِ . وتصدُّ إلى سريرها ، في المساء ، مُحَضَّبةٌ بقلبي
المناراتِ ، والصواري التي لم تصل . والمياهُ فأسُ العذوبةِ التي تُهيئُ للآلهةِ
حَطَبَ الكونِ . والمياهُ كلبٌ يجرُّ زحافتي على جليدِ الأبديةِ .
وهي تابعي الحاملِ محبَّرتي وأختامي حين أدخلُ على أسيادِ المساءِ
لِنَبْرَمِ عقدنا ، عقدِ كوكبٍ أو نشيدٍ .

فَلْتَحْجُلْ نَفْسِي ، إذا ، في اقتسامِ الهرطقةِ بينها وبين الوردِ ، ولتُهيئِ
المياهُ سريرَ حُودِثنا . أما أنتِ أيها العَمَاءُ الشديي ؛ يا عماءَ يشحدُ سيفُ
الحاتمةِ ويُعوي المكانُ ، فَلْيَتَرَيْتُ جُنْدَكَ المدجَّجَ بالزَّنَكِ والحَبَقِ وخمائرِ

العاصفة المُرَّة، إلى حين تُسْرَجُ الأرضُ جِياذَها الكبريتية، وتستلقي رخوةً كالْيَرَقَةِ في ظِلِّ نِسْرِها الكهل - نِسْرِ كهولةٍ تَزْمُقُ الفرائسَ بعينين من غبار. يقينا ستلمحُ أيها العماءُ. يقينا ستلمحُ الأرضُ صارعةً إلى غبارٍ يَكْحَتُ صدرهَ بأظافرِ المغيَّبِ. وستعدو أيها العماءُ، في هذه السَّانِحةِ، مُمَسِّكاً فأسك الذهبيةَ، فأسك الأولى التي انعكستُ على شفرتيها التماعاتُ الفراغِ قَوْلَدَتِ الأرضُ وَمَضاً، وستضربُها فترجعُ وَمَضاً تتمرأى فيه خنايصُ الظَّلامِ.

(تعرفُ ديلانا هذا؛ تعرفُ المساءَ ذا الهيكلِ الماموئي الذي ينتظرُ حرمةَ العماءِ. وهي ترفعُ إليه، إلى المساءِ ذاته، حُلْمَ ابنتيها المقبلتينِ بأثدائهما الصغيرةِ على شراعِ الجَسَدِ. وتودُ لو عَجَلَتِ الضُّربةُ، وانفطرَ الجمادُ حاسراً أشلاءً عن جَرَّةٍ واحدةٍ للفحولةِ تشربُ منها امرأةٌ وابنتاها.)

فَلْتَعَجِّلْ نَفْسِي

(يعرفُ ديرامُ هذا؛ يعرفُ انتظاري لإباحةَ العماءِ، أَنَّ ينصبُ الحرابُ مِيزانَه البركاني: فيراطُ من الغَضَبِ في كَفَّةٍ، وفي الأخرى النهارُ والبسالةُ . . . وديرامُ مثلي، يحملُ المتاعَ الأخيرَ من طيشٍ وخبزٍ وأبوَّةٍ تحنو على الأسلحةِ، كأنما يتهيأُ لجلالِ الموجِ، أو لِنَيْهِ ساحرٍ.)

فَلْتَعَجِّلْ نَفْسِي في اقتسامِ المديحِ بينها وبين الباطلِ .
فَلْتَعَجِّلْ المِاءَ في اقتسامي،

فأنا العَجَلَةُ الدائِرَةُ ، تدورُ في مداريَ المداراتُ ،
ويتكىءُ عليَّ الظلامُ المحارب .

لا ، لا تَدْعُونِي أَسْتَرْسِلُ فِي الْحِكَايَةِ . لا تَدْعُونِي أَحْمِلُ إِلَى الْغُبَارِ
أَمْشَاطَةَ الْأَزَلِيَّةِ . بَيِّدَ أَنْكُمْ مَسْتَرْسِلُونَ مِثْلِي فِي سَرْدِ أَحْزَانِكُمْ ، وَكُلَّمَا
انتهتِ الْحِكَايَةُ أَعْدَتْ مُوْهًا ، مُضْطَجِعِينَ تَحْتَ جِسْرِ لا تَسْمَعُونَ مِنْ عَابِرِيهِ
إِلَّا التَّعْتَمَةَ وَدَبِيبَ الْفَرَاغِ الْمَلْجُومِ ، فَأَكَاذُ أَنْفُسِ الْجِسْرِ عَلَيْكُمْ ، كَالشُّوبِ ،
حَجَرًا حَجَرًا ، وَعَمُودًا عَمُودًا ؛ لَكِنِّي أَنْدَارُكَ ابْتِهَالِي ، فَأَقُولُ : لا ، دَعَهُمْ
حَاضِنِينَ مَاسَةَ الْوَقْتِ الْغُبْرَاءَ ، دَعَهُمْ . . . فَهُمْ الْحَاضِرُ الطَّالِعُ كَالْفُطْرِ مِنْ
الْحُرَافَةِ ، وَهُمْ الْهَائِيَّةُ الَّتِي أَتَيْتَ مِنْ عِمَائِهَا الشَّيْخُ ، فَهَبُوا بِمَسْكِنِ
بِخْطَامِ الْأَرْضِ يُلُوحُونَ بِهِ ، وَيَأْتَمِرُونَ بِطَيْشِ الْأَلْهَةِ فِيهِوُونَ بِعِشْرِينَ طَعْنَةً
عَلَى وَعِلِّ الْعَاشِقِ .

(أه أيها الشيخُ ، سُنْجَارِي ضَجَرَكَمَ ذَاتَ يَوْمٍ ، لَكِنَّا لَنْ
نُوصِدَ حُبًّا كَحُبِّ دِيرَامٍ بَرْتَاكِ جَفَافَنَا .)

حَجَرٌ يَهُوِي ،

حَجَرٌ مِنْ جَمَشْتِ :

هَذَا مَا يَرَاهُ دِيرَامٌ فِيهِتَفُ : انْظُرْ يَا صَاحِبِي .

وَيُضْحِكُ صَاحِبُهُ الْأَرْمَنِيُّ ، فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ يَهُوِي حَجَرٌ مِنْ جَمَشْتِ

عَلَى رُوحِهِ السَّائِلَةِ ، فَتَجْفَلُ فِيهَا السَّرَاطِينُ وَالزُّمُجُ وَالنَّدَامَى الْغُرْفَى .

حَجَرٌ يَهُوِي . . .

مَنْ لَمْ يَرَ حَجَرًا يَهُوِي؟ مَنْ لَمْ تَمَسَّ زَعَانِفُ حَجَرٍ يَهُوِي؟

لَيْسَ قَصْدِي أَنْ أَدْلُكُمْ عَلَى حَجَرٍ ، لَكِنَّهُ يَهُوِي ،

هو ذاته ،
ذلك الحجر ، حجر الرُّحِم الذي تتعثرُ به المدينة فتندحرجُ حروبها الخفية .

أنا الدليلُ أخبركم بهذا ؛
أنا الدليلُ أتلو هذا للغايةِ النائية .
وأقول : فلا تُكنْ بسيطاً مثل بذرة السمسم ؛ فليَتقدَّم البسطاءُ حفاةً
على رِداثي المبسوط ، حاملينَ إلى دِيَرامَ غنائمِ الرمادِ وذبائحِ اللهبية .
فليزدحم البهؤُ بالبسطاء .
فليمتحنوني البسيطَ لِيَسُوِّدَ النشيدُ البسيطُ :
لحُبِّ بسيطٍ أتلو هذا ،
لحُبِّ مستوحِد كَتِيسِ الجبلِ ،
لحُبِّ لا تُمسكهُ الأغاني ، ولا يتسلَّقهُ اللُّبابُ .

(كانتُ ديلانا ساهمةً ، ذات يوم ، تُقَطِّعُ البَصَلَ والبنجارَ ،
وتقشرُ الثوم . كانتُ جالسةً قرب نافذةٍ تُطلُّ على حلمها ؛ جالسةً
قرب حلم النافذةِ المطلَّةِ على حديقةِ الشتاء ، حيث الحركةُ
الدَّوْبِيَّةُ للعرائسِ وهُنَّ يَزِينَنَّ الشجرَ العاري بسيفِ البَرَدِ .

كانتُ ساهمةً لا تسمعُ من المطر إلا أخطواته ، ومن حاشيته إلا
ضحكةً باردةً تتحدَّرُ على الزجاجِ البارد .
حينذاك دخلتُ ابنتها الصغيرةُ صائحةً : «أمَّاه ، كيف يرسمون
بطةً ضاحكةً؟» .

قالت ديلانا : «لا تضحكُ البطةُ يا ابنتي» .
صاحت الطفلةُ : «كان دِيَرامُ يرسم لي بطةً ضاحكةً» .

لم تحب ديلانا . بل أغرورقت عينها .

قالت الطفلة : «هل تبكين؟» .

«إنه البصل» أجابت ديلانا ، وأطلت من النافذة ، ثانية ، على حديقة الشتاء ، حيث صخب العرائس وهنَّ يُقَطَّنَ البصلَ الباردة فتغورقُ عيونُ الشجر .

من سيتلو ، بقدي ، خَبَر العرائسِ ولهو الشتاء؟

قلتُ : لا بُدَّ من دليل ، لا بد من خطيُّ يقودُها الدليلُ . قلتُ : لا بُدَّ من صخبٍ بعدَ هذا ، لا بُدَّ من عاشقينَ آخرَ يحرقونَ الأشعة ليتهاوا . . . قلتُ : لا بُدَّ من هذا كله لتكون لي غبطةُ الذهابِ إلى المهرجانِ بقطيع من الخنازير ، أو بقناع قصديري يرى الحاضرونَ عليه انعكاسَ حراهم . قلتُ هذا ، وقلتُ أشياء أخرى ، لكنني استرقتُ السَّمْعَ إلى المدينة ، إلى أعمدة العمارات وهي تفرعُ في صمتٍ طولها الاسمنتية ، مؤذنةٌ بمجيءِ الرعاة الحاضنينَ حِمْلانَ الصواعقِ . وكانَ البسطاءُ يسترقونَ معي السَّمْعَ ، خافضينَ أبصارهم ، وهم يرسمون ، جلوساً تحت الجسور الهاذية ، أبوابَ البنابيع ، ثم يخلعونُ الثَّعالَ ويُرِيحُونَ أقدامهم الخافية في بركةِ النهارِ الخافي .

بُسطاءٌ كثيرون يفعلون هذا . بُسطاءٌ يُعرَّوْنَ في الحروبِ البسطاءَ ، وآخرون يجفلون من البؤس فيبتلهونَ إلى البؤس . وأنا الدليلُ أجعلُ الأمر أكثرَ لهواً ، فأقودُ إليهم الغابةَ . بيدَ أنني حنونٌ أيضاً ، أُنقِصُ نفسي بأنَّ للهبِّ أعذاراً ليبقى بارداً ، وبأنَّ للكائنِ الشريدِ أعذاره ليبقى هكذا ، جاثياً تحت الخوذة الكبيرة ينظرُ من شقوقها إلى الهزائم التي تستعرضُ ، كالأميرات ، سبائاً الحاضرِ ومصائرهُ الشَّغَاءَ . وأزاحمُ الوردَ إذ يتهادى بأقدام الجذورِ إلى حروبهِ النَّاعمةِ ، حروبِ الطَّلَعِ التي تَتَغَاوَى فيها المدقاتُ كالعذارى ،

وتكشفُ الحقولُ عن فَرْجِها الوثنيِّ . . . أَلَا لَيْتَكَ زاحمتَ معي ، ديرامُ ،
 هذا كُلُّهُ ؛ لَيْتَكَ أبقيتَ من لَهائِكَ ما يملأُ الرئاتِ ابتهالاً لحضور الأُنثى ، أو
 زفيراً يتركُ على بلوَرَةِ الحقولِ بُعَارَ الذَّكَرِ . غيرَ أَنَّكَ هادىءُ الآنَ ، تُطلُّ من
 شُبَّاكَ العَالِي على فوهة المدينة ، حيثَ تتشَبَّثُ سَحَابَاتٌ صَغِيرَةٌ
 بِالْأَسلاكِ قَبْلَ أَنْ يبلُدَّها ضحكُ الخادِماتِ من عَبَثِ الكهلِ السَّيِّدِ .
 هادىءُ أَنْتَ الآنَ ، لا تَفَكَّرُ في نبيذٍ ما ، أو في تَهَبٍ ، بل في الحساء الذي
 تُعَدُّهُ الصديقةُ الجديدة .

ولأنَّكَ هكذا ؛ لأنَّكَ اسْتَلَّتَ من غيرِ أَنْ تَعْلُقَ بشيابكِ أقواسُ قُرَحَ ، أو
 تَسِيلَ على جبينِكَ مدائحَ العُنَابِ ، راکناً إلى مساءِ حُلُوِّ - مساءِ منشورٍ
 كالسُّكَّرِ المنشورِ على رغيْفِ الروحِ . . . لهذا ، لذلك ، للرخاءِ الأَبَكَمِ على
 وجهِ المُهْرَجِ ، أرحيتَ قبضتي عن الدُّرْعِ وَحَلَلْتَ الغَضَبَ كما أحلَّ سَيُورُ
 الحذاءِ ، مُقْبِلاً على الأرضِ بقناعٍ آخرَ ، بقناعِ النديمِ لا بقناعِ المُغِيرِ .

(تعالَ ديرامُ ، تعالَ انْظُرِ الملوكَ على الصهواتِ يُظَلَّلُونَ أعينهم
 بأيديهم من الشمس ، ويتبعون الفرائسَ . تعالَ انْظُرْهُمْ منتظمينَ
 صَفًّا صَفًّا خلفَ كلابِ مُنْتَظِمَةٍ صَفًّا صَفًّا ، خلفَ طِبَّالينَ منتظمينَ
 صَفًّا صَفًّا يستثيرونَ بطبولهم دَجَاجاتِ الأرضِ وخنازيرَها . أَبْهِيُونَ
 ديرامُ ، أَبْهِيُونَ على شطرنجِ أبْهِي . ملوكُ أبا عن جدِّ ، وصاعقةُ عن
 صاعقة . تعالَ ، تعالَ نتوسَّطُ الملوكَ . تعالَ ندلُّها على رعيَّةٍ حَسْبِها
 أَنْ تَرى الملوكَ ، تعالَ ندلُ الملوكَ على مُلكِها . ولنكنَ نديمينَ ، فلمْ
 تُهَيِّءِ الممالكُ مغازلَها بَعْدُ ، والنساجونَ لم ينهضوا . أَلَسْتُ تريدُ
 هذا ديرامُ؟ يقولُ صاحبه الأَرمنيُّ .

لكن ديرامُ ساهمَ ، يتفكَّرُ في العماراتِ المغلقةِ ، والزهرِ المتدليِّ
 على شرفاتها مثلَ خَصِيَّةٍ مقطوعةِ .)

هذا عالمٌ يُتلى . هذا حَبْرٌ يُتلى . وديرامٌ ممسكٌ بريشةِ الجذورِ يخطُ رسائلَ للضبَابِ الوالي ، هادئاً ، لا يفكرُ في نبذِ ما ، أو في تَهَبٍ ، بل في النهرِ المعلقِ فوق المدينة ؛ النهرِ الأغزلِ الجسورِ ، الذي يهيمُ أعشاشُهُ للهِاتِ الأسلحةَ ، ويستطلعُ الحجرَ . وديرامٌ يُحصي من شرفته مَلوكاً يَمُرُّونَ ، وعالمٌ تجتازُ الطريقَ متوكِّفَةً على عصيِ البازلتِ ، ناقرأً بأنامله على غشاءِ المشهدِ ، كأنما يستوقفُ الغبارَ العابرَ ليَحْمِلَهُ زهرةً ما ، أو طيلاً ، إلى الأعيادِ التي تَتَهَرَّأُ نعالها من الرقصِ على المياهِ . ويرفعُ بصرَهُ ، ثانيةً ، إلى الأعلى ، إلى النهرِ الجسورِ ذاته ، المعلقِ بكلايبِ الآلهةِ ، صارخاً :

«لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تنفخُ في بوقك التَّجِيلِيَّ فيصعدُ المنشدونَ إليك ، حاملينَ أعضائي في بُرعم ، ويقتلني في أباريقِ الصَّلصالِ ؟ .

لماذا تُريني القرى بين عُفْرَتِي إِبْطِيكَ ،

وتحزُمُ المدينةَ ، في جَرَيَانِكَ ، بحبلٍ من السِّيفيرِ وزيرفونِ الطميِ كحزْمَةِ الشُّوفانِ ؟

لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تحملِ قنديلَكَ ، والأرضُ واضحةٌ كما تَرَى ؟ أنيَّصَ أنتَ ، بأشواكِ فضيَّةٍ ، أم مَرْمُوطٌ يقضمُ جذوعَ الحروفِ ؟

مَهْلًا إِنَّ كُنْتَ سَهْمَ الشَّمَالِ ، أو تَوَرَّجَ المحاربِ ، مَهْلًا مَهْلًا ، لكِ أعيادُكَ ، ولي أعيادي ،

وكلانا عالِقَانِ في شَبَكَةِ المساءِ الحُلُوِّ ،

المساءِ المنشورِ كالسُّكَّرِ على رَغيفِ المدينةِ .

وكلانا جُرْنٌ تطحنُ العاصفةُ فيه عَدَسَهَا ،

فلماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تكشفني لنخيلِ البحرِ المُتَشَحِّحِ بهزائمِ الساهرينِ ساهراً يُوَجِّعُ

الحقول، ويُحَرِّضُ النَّبَاتَ عَلَى الْأَعْمَدَةِ؟

دَعْنِي أَيُّهَا النَّهْرُ ،

دَعْنِي فِي مَدَايِ الْمُغْلَقِ بِثَلَاثِينَ كِبْشاً ، وَسَرِيرٍ وَاحِدٍ تَتَخَاطَفُ النَّسَاءُ
عَلَيْهِ مَمْلَكَةٌ لَمْ تَكْتَمِلْ .

... وديراً يُتَبَّعُ بِعَيْنَيْهِ ، مِنْ الشَّرْفَةِ ، حَجَلَ الْمَدِينَةِ يَخْتَالُ قُرْبَ
الْغَامِضِ الْمُتَمَدِّدِ كَالنَّمَسِ فِي الظَّهِيرَةِ ؛ بَلْ يَتَبَّعُ بِعَيْنَيْهِ السَّحَابَةَ الْمُذْتَرَّةَ
بِالْكَسَلِ وَرَائِحَةَ الْحَارِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى غَرْفَتِهِ هَادِئاً ، يَتَفَكَّرُ فِي مَا مَضَى ، فِي
يَدٍ مَرَّتْ عَلَى شَعْرِهِ فَأَفَاقَتِ الْمِيَاهُ .

(الصديقةُ الْجَدِيدَةُ تُعَدُّ الْحَسَاءَ .

الصديقةُ الْجَدِيدَةُ الْغَبِيَّةُ تُعَدُّ الْحَسَاءَ .

الْجَمِيلَةُ الْغَبِيَّةُ تُعَدُّ الْحَسَاءَ .

الْجَمِيلَةُ الْغَبِيَّةُ الْجَدِيدَةُ تَرْقِي عَلَى السَّرِيرِ ذَاتَهُ ، الْعَابِقِ
بَدِيلَانَا .

لَكِنْ الذَّكَرَ ذَكَرًا ، لَا يَخْذُلُ أَنْشَى حِينَ تَرَاهُنْ بِشَدَائِبِهَا عَلَى
يُنَابِيِّهِ .)

لَوْ تَرَيْنَهُ دِيلَانَا ، لَوْ تَرَيْنَ دِيرَامَ ، لَأَقْفَلْتَ النَّافِذَةَ الَّتِي تُطْلِقُ مِنْهَا عَلَى
عُرَائِسِ الشَّتَاءِ ، لَهَرَعْتَ نَازِلَةً إِلَى سَرَادِيبِ الْأَرْضِ تُلْعَتِينَ جَذُورًا نَسَبَتْهَا ،
وَرِيحاً نَشَرَتْ دِيرَامَ عَلَى شَرَاعِكَ الْعَالِي . فَلَشَدَّ مَا تَخْجَلِينَ مِنْ سَرِيرِهِ
الْمَدْعُوكِ بِأَنْشَى أُخْرَى ، وَمِنْ يَدَيْكَ اللَّتَيْنِ سَوَّيْتَا مَلَاءَةَ السَّرِيرِ ، ذَاتَ يَوْمَ ،
لِيَنْقَرَّ لَهَاثُكُمَا ، كَالْعَصَافِيرِ ، خُبِرَ الْوَسَادَةُ . لَكِنَّكَ لَا تَرَيْنَ شَيْئاً دِيلَانَا ،
إِنَّمَا يَشُقُّ عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعِي رَفِيفَ قُبَلٍ هُنَاكَ ؛ قُبَلٍ كَانَ حَرِيّاً بِهَا أَنْ

تُسْتَنْفَذَ فِي الْحِصَارِ الضَّارِي لِأَعْضَائِكُمَا الضَّارِيَةِ .

لو تَرَيْنَهُ دِيلَانَا ، لو تَرَيْنَهُ الْآنَ ، لَوَدَدْتَ أَنْ تَعُودَ ابْنَتَاكَ إِلَى الْهَيْسَةِ
الْأُولَى ، مَخْضُ بُونِصَتَيْنِ لَا يَدْفَعُهُمَا الْمَنِيُّ إِلَى مَقَاصِيرِهِ ، وَلَوَدَدْتَ أَنْ لَمْ
يُبْخِكَ عَقْدٌ لِأَحَدٍ . لِرَكْضَتِ خُرَّةٍ كَخَرِيفِ خُرٍّ يَنْفُضُ الْفُصُولَ عَنْ جَسَدِهِ
الْفُخْلِ وَيَسْتَوِطُنُ الْعَارِي . لَقَلَّبْتَ صَحْنَ الْحِسَاءِ ، وَأَعْدَدْتَ حِسَاءَ آخَرَ ،
وَقَلْتَ لِصَدِيقَتِهِ الْجَدِيدَةِ : « هَذَا لِي » ، ثُمَّ حَضَنْتِ دِيرَامَ حَتَّى امْتَدَّتْ
جَذُورُهَا ، عَمِيقًا ، فِي أَعْمَدَةِ الْعِمَارَاتِ وَأَسَاسَاتِهَا . غَيْرَ أَنَّكَ جَالِسَةٌ
قَرَبَ النَّافِذَةِ الْمُطْلَعَةِ عَلَى رِقَّةِ الشِّتَاءِ ، لَا تَفَكِّرِينَ فِي الْعُرَائِصِ الرَّائِضَاتِ مِنْ
شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ بِعُقُودِ الْبَرْدِ ، أَوْ فِي الْأَرْضِ الْمُتَنَفِّعَةِ بِفَرَاثِهَا السَّنْجَابِيِّ ،
بَلْ فِي خَيْطٍ مِنَ الدَّمْعِ لَا تَعْرِفِينَ أَلْسَالَهُ الْبَصَلِ ، عَلَى الْمَانِدَةِ ، أَمْ حَنِينُ
الْأُنْثَى إِلَى مَدِيحٍ بَحْرِيٍّ .

هَكَذَا يَتَفَكَّرُ دِيرَامُ .

هَكَذَا تَتَفَكَّرُ دِيلَانَا .

وَالْمَكَانُ مُدِينَةٌ تَتَقَدَّمُ صَوْبَ خَصِيَةِ الْبَحْرِ الزَّرْقَاءِ .

لَيْسَ هَذَا شَأْنِي ، أَقُولُ : لَيْسَ شَأْنِي أَنْ أُجِرَّ أَيَّامَهُمَا إِلَى الْكِتَابَةِ
بِرِسْنٍ مِنَ الْفَوْقَسِ أَوْ الْأَقْحَوَانِ . وَأَقُولُ : دَعُهُمَا هَادِثَيْنِ ، فَهُمَا يَجْفَلَانِ إِنْ
نَشَرْتَ عَلَيْهِمَا رِذَاذَ الذَّاكِرَةِ الْحَامِضِ . . . لَكِنْ ، لِمَنْ أَتَلُو هَذَا إِذَا لَمْ أَوْفِظِ
الْمَوْجَةَ الْحَامِضَةَ - مَوْجَةَ الْغُرُوبِ الْمَضْمُومَةِ عَلَى صَلِيلٍ ، وَارِثِ ضَائِعٍ ؟ وَإِذَا
لَمْ أَهْبِءِ الْمَسَاءَ لِعَصَّةٍ يَخْتَرِقُ نَابُهُ فِيهَا الْأَرْضَ مِنَ الشَّدْيِ إِلَى الشَّدْيِ ؟

فَلَنَاتِ الْأَبْجَدِيَّةَ وَسَلَالِمُهَا ؛

فَلْيَأْتِ الْقَلْقُونُ وَكَابُوسُهُمُ الْمَلَكِيُّ ؛

فَلْيَأْتِ شَبِيهِ ذُو الْخُوْدَةِ الْخَرْفِيَّةِ ، فَأَنَا الدَّلِيلُ لَنْ أَزِينَ الظَّلَامَ ، بَعْدَ

هذا، إلا بالحمى؛ لتبسطن الحمى أعماقها كورقة العرعر فتن من حولها
بعوض الحياة، ولا بسطن أعماقي المرحاة كورقة العرعر فيتدحرج عنها ندى
الحمى والأبجدية والقلقون، أما شبيهي فسيتلو الغبار كلمة كلمة، جالسا
كالملقن وراء الشعاع الأخير الذي يضيء الطعنة.

... أه، لم يكن دأبي الغضب. لم أزد إلا أظلم دليلاً يقود عاشقين
إلى سمس ومديح، غير أن الكهول ذاتهم - الكهول الذين يهددون
الأرض كلما أفاقت، ويمهون الوقت - يكسرون بوصلة دليل مثلي يفتح
لبناهم، ونسائهم اللواتي لم يقفلن فضاءهن بعد، متمر الأنثى إلى
مصبتها.

لهذا ينث الغضب خمائره الأدمية،
ولهذا أنفخ في بوق المغيب، داعياً شبيهي السديمي إلى الوليمة؛
داعياً الأشكال إلى مسيل آخر يدحرج نرد الجوهر من حليب إلى حليب،
فيرضع النقيض النقيض، والهباء الهباء.

... وماذا أتلو لهذا الهباء، رب، ماذا أتلو؟
لا كتبة الجذور يملئون علي، لا الفجيعة تملني، بل أرحل، ولا نرجالي
فخاخ تنخبط فيها الطيور والبطولة.

(كان ديرام يرتجل مثلي مهاراته السهلية خالطاً بين البرق
والنرجس، فتضحك ديلانا لعذوبته التي تختال بذيل كذيل
السجاب. وكان يكتني طرق المدينة بأسماء الينابيع والهوام،
فتبتسم ديلانا لبداهته التي تختال بذيل كذيل الهدد. لكنه
حين يريها يديه المبتلئين بظلال الكينا وعويل السنايل، تجشش
بالسين فتجشش السنون برنين يوقظ الأسلحة.)

ربُّ ، لماذا جعلتُ دليلاً مثلي يقود المكانَ الثقيلَ بأعراسه وراءَ الخطيئةِ
الثقيلة؟ لماذا مكنتني من مساءٍ لا يستسلمُ فاختزلتُ الظلامَ كُلَّهُ في ياقوتةٍ
تسدُّ على صدري؟ لماذا جمعتني هكذا : رُبْعَ مياهٍ ، رُبْعَ صليلٍ ، رُبْعَ
هاويةٍ ، رُبْعَ مديحٍ لا يُمتدِّحُ به إلا الغامضُ ؟ . لقد تَبِعْتُ الزوبعةَ الأعلى ،
والغبارَ الأكثرَ بهجةً على قناعِ الحارِبِ ، حنوناً كالقوضى ، وطيعاً كأنما
اتَّعَمَرْتُ جُسُورِي بالعويلِ فَوَصَلْتُ الخرابَ بالخرابِ . وتبعْتُ الحباحبَ
الذهبيَّ تصعدُ من أنينِ السهولِ ، كأني وصيفُ السهولِ أشاركها أرقَّ
العشبِ ، أو أغزو بفأسِ كُلِّ مُلْكٍ لا يُسْرَجُ لأعياده جيادُ الخُزامى . وها
وصلتُ المدينةَ ، ففي كُلِّ مُنْعَطَفٍ مِنِّي شَبَحٌ ، وفي كُلِّ نَهَبٍ مُشْجَبٍ لي ،
يُعلِّقُ الغامضونَ عليه رياحهم كقميصٍ .

(لم تعرف ديلانا ما الذي أَرَقَّها : كانَ فتىٌ كالآخرين ، نحيلاً
جداً ، وحزيناً جداً .

لم تعرف ديلانا ما الذي أَرَقَّها : كانَ جالساً قُبَالِها ، تلك
الليلة ، لم ينظرَ إليها ، بل تَمَتَّمَ قليلاً عن بلادِ الشَّمالِ .

لم تعرف ديلانا ما الذي أَرَقَّها : كانتُ يداها الخجولتان تمسكان
كأسَ الماءِ في ارتعاشة ظاهرة ، وكانَ مُطْرِقاً ، كانَ مُمَعِناً في
الإطِّراقِ ، كأنما يختبئُ في أمومةٍ لم تتفتَحْ بعدُ .

لم تعرف ديلانا ما الذي أَرَقَّها ،
لم تعرف ما الذي أَرَقَّ أعوامها الأربعين .
غير أنَّ الليلةَ تلكَ - الليلةَ المقطومةَ عن أُنْداءِ الظلامِ التي لا

تُحصى ، وذاتَ القنَاقِ الرُّطْبِ ككُلِّ قنَاقٍ يصطحبُهُ البحرُ إلى
المهرجَانِ - لم تجمَعْ نكْهَتَها وقواريرُها عن سُريرِ ديلانا ، ولم تغادرِ
الغُرْفَ .

تلكَ الليلةُ ضُرْجَتِ النهارَ التالي ، والليالي التالية ، ولم تَقُمْ
عن كُرْسِيِّها في الغُرْفِ .

ليلةٌ مديدةٌ ،

وأرقٌ مديدٌ ،

وديلانا تكسرُ صورةَ الفتى ، وتجمَعُ صورةَ الفتى .

وأنا أجمَعُ العاشقينِ ،

أجمَعُ لوزَ حنِينِهما ،

راكضاً بأشجارِ البَطمِ والبتولا من سهلٍ إلى سهلٍ ، لتستظِلَّني
الكمائنُ الحيةُ إذ تنتظرُ يرابيعَ الملوكِ ، أو بجعَ الأرضِ الهاربةِ . راكضاً
بالفجعيةِ ؛ راكضاً بالكؤودِ والغزالاتِ والشعالبِ والظُربانِ وأكباشِ الجبلِ ؛
راكضاً بالغاباتِ ؛ راكضاً بالمياهِ ، بالمعادنِ وملائِكِها ؛ راكضاً بالغيومِ ؛ راكضاً
بالجهاتِ ، بالأختامِ كُلِّها ، بالبراكينِ والفاكِهةِ ، بتوائمِ الثلوجِ ؛ بالأبجديةِ
والأنقاضِ والينابيعِ ، حتى بابِ البحرِ ، وهناك أُرَتِدِي قُلُوسَ الزيدِ الوالي
ريشما تهروكُ المدينةَ اليَ بجزَيتِها ، أو يُنتَهَكُ الهواءُ ، من جديدٍ ، بأنفاسِ
عاشقينِ .

لماذا ، ربُّ ، أُسَبِّحُ المكانَ بهذا الغضبِ كُلِّهِ ، من أجلِ عاشقينِ نَسِيًا ،
الآن ، ما كان يُصَيِّرُ دَمَهما حَجَلاً في العروقِ ؟ ألا نبي كنتُ الدليلَ

فاسْلَمْتُهُمَا إِلَى خَاتِمَةِ كَالْبِلَابِ تَسْلُقُ زَرَدَ الْمَدِينَةِ ، أَمْ لَا بِي أَرَى كُلَّ
دَلِيلٍ يَنْتَهِي ، مِثْلِي ، إِلَى بَابِ الْبَحْرِ ، يَرْتَدِي قُلُوسُ الزُّبْدِ الْوَالِي وَيَحْلُجُ
الْيَابِسَةُ ؟ ... أَهْ أَيْهَا الْغَضْبُ ، كَمْ يَدُ لَكَ ، كَمْ مِخْبَرَةٍ تَغْمَسُ فِيهَا رِشَةُ
الْجَحِيمِ النَّبِيلَةِ !!

(فَلَا دَعْ دِيلَانَا ، قَلِيلًا ، لَشَانَهَا ،
فَلَا دَعْ دِيرَامَ ، قَلِيلًا ، لَشَانَهُ ،
وَلَا ذَكْرُهَا ، ابْنَةُ دِيلَانَا ، ذَاتَ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ عَامًا ، الَّتِي رَأَتْ كُلَّ
شَيْءٍ ، فَوَدَّتْ أَلَّا يَعُودَ أَبٌ إِلَى بَيْتِهِ قَطُّ .
كَانَتْ يَكْرَهُ بَيْتَهَا ، وَسُلْطَانَةَ الْبَيْتِ . حُلُوةٌ بَيْنَ أَتْرَابِهَا لَا تَتَمَنَّى
عَلَى مَدِيحٍ ، وَيُسْكِرُهَا أَنْ تَرَى الْأَرْضَ رَاسِيَةً فِي بُرْعَمَيْنِ عَلَى
صَدْرِهَا .

كَانَتْ الْأَكْثَرُ اخْتِيَالًا ؛ مَحْبُوكَةً كَشْرَاحٍ صَغِيرٍ .
لَمْ تُحِبَّ أَحَدًا قَطُّ ؛ لَمْ تَبْلُغْ بَعْدَ أَنْ تُحِبَّ ، وَكَانَتْ تَتَفَاوَى ،
حُلُوةٌ تَتَفَاوَى ، مَفْزُولَةٌ بِغَمَامِ الطُّفُولَةِ الَّتِي تَتَلَقَّتْ فِي مَرْحٍ وَهِيَ
تَخْرُجُ مِنَ الْبَابِ .

لَمْ تَكَلِّمْ دِيرَامَ كَثِيرًا ، لَكِنَّا تَرَاهُ ، وَتَمْنَى - إِذْ تَرَاهُ - فِي لَمَسِ
رُوحِهِ الْجَالِسَةِ مِثْلَهُ قِبَالَةَ أُمِّهَا : رُوحٌ خَجُولَةٌ وَجَسَدٌ خَجُولٌ .
تَعُودَتْ تَرَاهُ هَكَذَا ، وَتَعُودُ يَرَاهَا هَكَذَا ، حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِهِ -
ذَاتَ مَسَاءٍ - مَرُورًا سَاخِرًا ، هَبَّ وَأَلْوَى يَدَهَا .

لَمْ تَنْظُرْ - وَهِيَ الطَّافِحَةُ بِإِطْرَاءِ الْآخَرِينَ - أَنْ يَهَبَّ خَجُولٌ
خَشِنٌ فِيلُوي يَدَهَا .

وَمِثْلَ طِفْلَيْنِ تَنَاهَا اللَّعِبَ الطَّائِشَ : تَسَخَّرَ مِنْهُ ، مَرَارًا ، فِيلُوي
يَدَهَا مَرَارًا . تَشْدُّ شَعْرَهُ فَيَشْدُّ شَعْرَهَا . تَشْتَمُ فَيَشْتَمُهَا . حَتَّى كَانَا

وحدهما . ذات يوم ، وكانت منحنية ، قريبة إليه بفمها ، بعد ما
لواها ، فشدّها أكثر ، شدّها فتناثر عقدُ القبل ، فتدحرجت من فمها
إلى العنق وغطّت أرض البيت .

ظلاً صامتتين بعد ذا .

يوم ، يومان . صمت وقبل بعد الصمت وقبله .

أه ، كانت سنبلة موّعت طريقه إلى حقل السنابل قليلاً .

غير أنها رأتهما ، رأت رعداً ناعماً من سُمّاق وزنبق يتأرجح بين
صدره وصدر أمها ، فودّت ألا يعود أب إلى بيته قط .

ودّت ألا يعود أبوها . ألا يعود الذي لم يُسَيِّج قلب أنثى أزاح
قلبها عن مسيل ديرام) .

حنائك يتها الأبدية ، يتها المحفورة مثلي على خوزة ، سأصلح من
هباتي قليلاً ، سأصلح من هياة اليابسة ، وأنسق المياه إناء إناء على
مسطبة الروح قبل تدخل العدميات بنبالهن الأجرية يقتصن الكواكب
وتوابعها ؛ قبل أن يخترقن مطالع الأغاني بحروف ملوّنة ، أو يطعن الغزالة
الحائمة حول أبجدية لا تُرى . وسأصلح من هياة الليل فيدخل الحلم
طائشاً في عيائه الطائشة ، فأنا الدليل لن أدل أرضاً ، بعد هذا ، إلا على
رُعبها . سأزبن الرعب بقنزعة البغاء ، وسأمدح حداديه المعقرين بهباب
الأقدار . بل أنا الرعب الدليل ستتعني الانقاص ، ويستهدي بي هدهد
الهباء الأخير :

هكذا أعزو إلى نفسي ما تعزوه المناجل إلى نفسها .

وأشرد ، إذ أقول هذا ، شروذ ديرام على الشرفة الغبية ، ناظراً إلى البوق
الأبعد ، بوق النهار الملتمع تحت وميض مرّ . ناظراً إلى الأفق يتهادى بجلده
الصنّباني بين الخوذات ، ثم أغمض عيني فاستعرض ولاة النهار ، الولاة

الأكثرَ بطشاً في النهار ، الأكثرَ مَرَحاً في الليل ، وأستعرضُ نساءَهم
اللواتي يعرّينُ الخادِماتِ لَكَلابهنَّ ، هناك ، في الأرضِ التي تتدلى كعنقودٍ
من داليةِ الغروبِ الأبديّ : ولاءٌ ، ونساءٌ ولاءٌ ، ودورٌ واحدٌ يصعدُ الممثلون
فيه إلى المسرحِ ويتتَحرون .

شاردٌ أنا ، شاردٌ ديارمٌ على الشُرْفَةِ الشاردة ،
وأماننا تتمطى جُسُورٌ وعِمَارَاتٌ ،
بيوتٌ ومياهٌ تتمطى ،
وتتمطى ديلانا التي تُعدُّ العشاءَ لابنتيها فيسقطُ الصُحْنُ من يدها ،
يسقطُ الصُحْنُ من يدِ كلِّ امرأةٍ ،
فيتناثرُ على مساءِ المدينة .

(ضجيجٌ في الغُرفِ ،
ضجيجٌ صُحُونٍ تتناثرُ ، وأطفالٌ يتشاجرون .
ضجيجٌ أسرةٌ في الغُرفِ ،
ضجيجٌ نزوحٍ وشبقٍ وعظامٍ كهولٍ يتشاجرون ،
ضجيجٌ ألعابٍ في الغُرفِ ،
ضجيجٌ ورقٍ للكتابةِ وكتبةٍ يتشاجرون .
ضجيجٌ نشيدٍ في الغُرفِ ،
ضجيجٌ محارِثٍ وثيرانٍ وموتى يتشاجرون .
ضجيجٌ نبوةٍ في الغُرفِ ،
ضجيجٌ غيومٍ وخطىٍ وألْهةٍ يتشاجرون .

أوصدي النافذةَ ديلانا ،
أوصدِ النافذةَ ديارمُ ،

قبل تسمّاهُ قَرَعَ الحاضِر الغضبانِ على البابِ ،
طالباً معطفهُ ،
وَقَفَّازِيهِ ،
وحذاءهُ العالِي ليمضيَ خارجاً .)

كلُّ شيءٍ شارِدٌ ،
والأفقُ يتمطى ،
فلماذا حزنكَ ، هذا ، دبرامُ ؟
غير أن دبرامُ ، الذي تُعدُّ صديقتهُ الجديدةُ الحساءُ ، يكومُ تحت معطفهِ
الغيومِ ، والجُسورِ ، والعماراتِ ، والخابِرِ ، ويبكي .

لطالما تمنيتُ أن أذرفَ نشيداً غير هذا ، وأن أمجّدَ الفراشاتِ لا
الحديدَ . لطالما حنّنتُ إلى شبيهي الذي يعابثُ الينابيعَ فيخبئُها تحت
أسماله النباتية ، أو يختبئُ في الينابيعَ فترشدُ الحقولُ إليه الحقولُ ،
والجذورُ الجذورُ . لطالما صرختُ من شُرْفَتِي : «تقدّمُ أيها الشَّبيهُ» ، فينفرُ
راكضاً ، تُجَلْجَلُ في قدميه خلاخيلُ النهرِ ، فلا يقفُ إلا خارجَ المدينةِ ،
حيث يرفعُ يديه عالياً فتتقاطرُ الكائناتُ المَرَحَةُ والبروقُ والعرباتُ التي
تحملُ إلى القرونِ دروعَ القرونِ . لطالما لحتُ بعبرِ نافذتي في قناعِ السنابلِ ،
صقيلاً كعامة ، تتلألُ في عينيه مَجَرَّاتُ من الدمعِ والأشكالِ . لطالما نظرتُ
إليّ نظرةَ الشقائقِ فاهتزَّ قلبي ، لكنّما البعدُ يُعْمِنُ في ركضِهِ ، والقريبُ
يجتاحُ ، فلا أراني إلا في نشيدي هذا ، في كَمِينِ النشيدِ ، رابضاً للوقتِ
بغاسِ فُخَّارِيَّةٍ وحفنةٍ من أنينِ ثرثته ديلانا حول بيتها .
يا للأنينِ إذا ،
يا لهبوبِ الأنينِ :

لم يبقَ عاشقٌ . كلُّهم مضوا . كلُّهم دحرجوا جُمانَةَ الروح الكبيرة إلى المنحدرِ
ومضوا . كلُّهم أفاقَ ، ذات صباحٍ ، فألقى قلبُهُ نائماً بَعْدُ ، فأنحنى ومضى .
يا لِّلأَينِ إذا :

يخلقونَ أمواجَهُم ويكسرونَ الصَّواري .
فلتَنتمْ يا قلبُ فلتَنتمْ قليلاً . فما أنتَ إلَّا دُرٌّ يتعاقبُ الضائعونَ عليه ،
أو الغزاةُ الذينَ يعبثونَ بالفتوحِ وينسونها .

فلتَنتمْ

فلتَنتمْ

(لم تَنتمْ ديلانا بَعْدُ .
نامَ يَعلُها ولم تَنمَ هي بَعْدُ .
نصفُها لديرِامَ ، ونصفُها لابنتيها .
نصفُها لبيتٍ ، ونصفُها للعرءِ .

إنها حَيَرَةُ العصورِ والمكانِ
إنها حَيَرَةُ النشيدِ الأيكمِ إذ يُنشدُهُ الجَسَدُ بين حبيبٍ وبَعلٍ .
إنها حيرةُ الخيَّارِ كُلِّهِ ، حَيَرَةُ الحَبِطَةِ التي تُفَجِّرُ ما يَأْتِي ، أو
تمحو ما مضى .

آه . . . نصفها ساهرٌ هناك . ونصفها ساهرٌ هنا .
فلتَنتمْ ،
فلتَنتمْ أيُّها الهادي .

(لم يَنمَ دِيرِامَ بَعْدُ .
نامتْ صديقَتُهُ الجديدةُ ، ولم يَنمَ هو بَعْدُ .

نامت المدينة والأنقاض ، ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامت الجسور ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامت المياه والغيوم والأرواح ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامَ الشجرُ ،
والسهلُ ،
والحكاياتُ ،

ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامَ الغاصبونَ ، ونامَ المساءُ ، ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
كلُّهُ لَدَيْلَانَا ،
كلُّهُ خَيْرَةٌ لَا تَصِلُ أَحَدًا بِأَحَدٍ .
أه ، لم يُخَيِّرْ فِي الأمرِ :
جاءَ الكهولُ وقضوا أَنْ تَقْطَلَ دَيْلَانَا لِبَعْلِهَا) .

فَلْتَنَمْ ،
فَلْتَنَمْ أَيُّهَا الهاذي ،
فَمَا قَاتُوكَ إِلَّا قَلْبَ ، وما أنتَ إِلَّا دَلِيلُ عاشقينِ لم يُكْمِلَا نَهْبَ
روحَيْهِمَا .

ديرام

هو ما أخبرتكم ، هو ما أخبرت الصلصال والهواء : فتى رهيف
 كأمسية هياتها النساء المديحهن . فتى خجول ، ساق الجداول طمي
 أعماقه إلى البحر ، فتصيدته مصبات الحجر . كان يجفل ، أول الأمر ، من
 الحجر الصاخب ، الحجر المديد ذي النوافذ ، المتبرج أبدا ككاهنة الحرب ،
 غير أنه تقلد دهاء الوالي فاستنسخ طباع الجسور ، وبارك الجموع التي لا
 تبسّم . لم تكن سلاماً تلك الهدنة ، فالحقول التي واكبته بأجرامها
 الخنشارية ظلت تنفخ في بوقها ، حيناً بعد آخر ، وظلت صباحات الشمال
 تشحذ ، قرب المدينة ، مناجل الخنن . . . إليه ديرام ، كنت تقول : « بقيلة
 تبدأ الملهاة ،

بقيلة تبدأ الحرب كلها .

بقيلة خفيفة تتمجد رويداً رويداً ،

وتكتنز كما يكتنز الخنوص .

بقيلة يبدأ هذا كله ،

بقيلة خفيفة تمتلئ بصخب رجل وامرأة ، بصخب جسدين يجوفان

موجة العضل ليخبئا أعضاهما ، كل في مقبرة الآخر الحية .

هكذا يكتمل جدال رجل وامرأة ، جدال أحشائهما ، حيث يستيقظ

ورث القيلة الخفيفة ليرث الغضب كله ، والملهاة كلها .

كُنْتَ تَقُولُ هَذَا دِيرَامٌ ، وَتَنْفُخُ بوقَ الْحَقُولِ ، رَهيفاً كَأَمْسِيَةِ هَيَّاتِهَا
النِّسَاءُ لِمَدِيحِهِنَّ . لَكِنَّكَ أُنْسَلْتَ إِلَى الْوَحْشَةِ ، أَخِيراً ، لِتَسْمَعَ النَّفِيرَ
الْأَبْعَدَ ، النَّفِيرَ الَّذِي لَا يَوْقُظُ إِلَّا الْأَنْقَاضَ .

ديلانا

كُلُّ يَوْمٍ تَفْتَحُ الْبَابَ ذَاتَهُ لَا بِنْتِهَا .
كُلُّ يَوْمٍ تُعَدُّ الْمَائِدَةَ ذَاتَهَا لَا بِنْتِهَا .
كُلُّ يَوْمٍ تَتَفَرَّسُ الْبِغْلَ ذَاتَهُ .

وهي
منذ

عشرين
عاماً .

تَتَفَرَّسُ الْبِغْلَ ذَاتَهُ .
وَعَنْدَهَا هُوَ الْعَدُوُّ الَّذِي مَضَى ، عَدُوُّ الْحَرَكَةِ ذَاتَهَا وَالشُّرُودِ ذَاتَهُ .
هِيَ مَا أَخْبَرَتْكُمْ . هِيَ مَا أَخْبَرْتُ الصَّلَاصَالَ وَالْهَوَاءَ ، وَقَدْ أُنْسَلْتُ إِلَى
الْوَحْشَةِ ، ثَانِيَةً ، لِتَسْمَعَ النَّفِيرَ الْأَبْعَدَ ، نَفِيرَ أَعْوَامِهَا الْوَاقِفَةِ ، كَالْوَشْقِ ،
عَلَى هَضْبَةٍ لَا فَرَائِسَ حَوْلَهَا .

الْتِيَل

حَكِيمُ الْفَصِيلَةِ ، بُلَّةُ الْحَكِيمِ الْأَبْهَى ، يَرْفَعُ شَارَةَ الْخَيَوَانِ وَنَذْوَرَهُ إِلَى
مُلُوكِ الْعَرَاءِ ، صَاعِداً هَابِطاً ذَلِكَ السَّفْحَ الصَّخْرِيَّ الْمُشْرِفَ عَلَى خِيَامِ
الْمَغْيِبِ ، حَيْثُ أَوْتَ الصَّوَاعِقُ إِلَى السَّرِيرِ ، وَتَرَكَتْ نَارَهَا ، خَارِجاً ، تَوْقُظُ

في الظلال مُجَوَّنَ الظلال ، وفي الهواء طيشة الملوكي .
حكيمُ الفصيلة الصامتُ يرفعُ قَرْنَيْهِ ، عالياً ، فوق غمامِ الجبلِ ، كَمَنْ
يُرْشِدُ الحجرَ الشارد .

الوَشَق

السليْلُ الحائرُ بين شَكْلِ القطَّةِ وشَكْلِ النمرِ ، سليلُ الهِرَّةِ وروحها
الباكِيَّة ، يقتربُ ، في حذر ، من طريدته الأخيرة ، زاحفاً تارةً ، مهرولاً تارةً
أخرى ، مُلَطَّحُ الشاربين بدم فريسة لم يجفُّ بَعْدُ ،
إنها الطريدةُ الأخيرةُ للسليْلِ الحائرِ ، فهو لا يسمعُ ، في بُرْهَاتِ
انشغاله المثيرِ الآن ، الرُّخْفَ الصامتَ لشبيهه الأقوى - كَوَجَرِ الصَّخُورِ .
لكنه سينقصُ ، بعد قليل ، على الطريدة ، وسينقصُ عليه الكَوَجَرُ .
أوه ، أيها السليْلُ ، إنها الطريدةُ الأخيرةُ .

السُّلُوقِي

إنك الرُّهَانُ ،
وليس عليك ، أنتَ الرُّشِيقُ ، أن تهدأَ قطُ .
ستركضُ طويلاً .
ستظلُّ راکضاً من دغلٍ إلى دغلٍ ،
ومن هَوْرٍ إلى هَوْرٍ ،
تنقلُ الطَّرَائِدَ القَتِيلَةَ ، بضمك ، عبر المياه ،
أو تستنفرُ البَطَّ ودجاجاتِ الحقولِ على مرمى سهامِ الصيادين .
مُدلِّلُ أَنْتَ ، ولكَ الحَظُّوةُ في الطعامِ الأنقى ،
لكنهم سيسدُّون إليك ، ذات يوم ، رَمِيَّةَ المُشْفِقَيْنِ ، أن تحفلَكَ

قوائمُكَ النحيلةُ ، ورثاكُ اللتان تشممتا مخابىءِ الفرائسِ المذعورةِ ،
وستحيا ، من بُعدِكَ ، طويلاً طويلاً ، طيورَ شتى ، وحقولَ لم يطأها أسياذُ
يتبعونَ كلابهم .

الهدد

كأنما عَزَلْتَكَ الطيورُ ،
كأنما أَفَقَّتْ ذاتُ صباحٍ فاستوحشتِ المملكةُ فاعتزلتها ، هارباً من
الينابيعِ إلى الينابيعِ ، وليسَ لكُ من سيماءِ الملكِ غيرُ قَنَزَةٍ وطَبَعِ كَطِيعِ
الكهولِ .
غيرَ أنَّكَ مَرَصَّدٌ حيٌّ ،
يسمَعُ اليباسُ تحتَ جناحيكُ طيولَ المياهِ .

البشروش

الرُّزْنُ الأَبْكُمُ يُفَرِّدُ جناحيه فوقَ البحيرةِ ،
منقارهُ إلى أسفلَ ، وعيناهُ تستطلعانِ الحركةَ المَرِحَةَ لشعابينِ المياهِ
وذباباتها الخضراءِ .

لشدُّ ما يريدُ الطرائدَ حزينةً حينَ ينقضُّ من الأعلى ،
لكنَّها مَرِحَةٌ بكماءٍ ،
مَرِحَةٌ في المياهِ المَرِحَةِ ،
وذلك ما يحزنهُ ،
ذلك ما يحزنُ البَشْرُوشَ الأَبْكُمَ فيظلُّ منقضّاً ، سُلالةً إثرَ سُلالةٍ ،
على المَرَجِ الأَبْكُمِ للمياهِ .

تندحرجُ حَبَّةُ البندقِ الأولى من الأعلى .
تندحرجُ الحَبَّةُ الثانيةُ ، والثالثةُ ، والرابعةُ ، والخامسةُ ، والسادسةُ من
الأعلى .
حَبَّةُ حَبَّةٍ يتدحرجُ البندقُ تحت الشجرةِ البلهاءِ ، الشجرةِ التي يجمعُ
السَّنَجَابُ ذَاكِرَتَهَا حَبَّةُ حَبَّةٍ ، ويدحرجها إلى وَكْرِهِ .
ذَاكِرَةٌ من البندقِ تندحرجُ ، كُلُّ عامٍ ، حَبَّةُ حَبَّةٍ ، إلى وَكْرِِ الأميرِ ذي
الذَّيْلِ المَرِحِ ، والشجرةِ تَنْسَى .

بالشُّبَّاءِ ذَاتَهَا،

بالشَّعَالِ التي تَقُودُ الرِّيحَ

الحيوان الأخير

هذا هو أنت ،
أيها المنتفض تحت بروق الحبر . هذا هو أنت ،
وقربك ظل سكران ،
ظل مما تلقيه الأرض ، في غروبها ، على رغيغ الكائن .

هذا هو أنت ،
صلب كروح صلبة يرث على حوافها قرع عكاكيز الظلام المائة ،
وخلفك مائة من النساء يطحن ، في جرن واحد ، يقطة البطولة .

هذا هو أنت ،
دأبك دأب المؤرخ ، لكن تؤرخ المياه وحدها .
بسيطاً تؤرخ المياه . بسيطاً تغوي الحبر ليتها الحبر لسبات الكلام ،
لتبقى وحدك يقظان في حلم الحروف ؛ يقظان حتى آخر انتحار
للأرض قرب مرآتها .
تهياً ، إذا ،
تهياً للذي ينثر الحديد في روحه ،

ويحرثُ المساءَ بحارثِ البحرِ .

تهياً أيتها المبدّرُ شمسهُ ،

سيأتي المهرجونَ ، وحاملاتُ اليقطينِ اللواتي يمضغنَ الفحمَ بأسنانهنَّ
النهرية . سيمتدحونكَ ، جميعاً ، بيقٍ واحدٍ ، كما يمتدحُ الموتى موتهم
ببيقِ الظلامِ ، فأنتَ أنتَ ، مُمتدحٌ أبداً بشعبٍ سهرانٍ على ودائعِ الأنينِ .

تهياً أيها المتكئُ على الشتاءِ ،

فقيمُ لا يستلكُ لا يستلُّ الرعدُ ،

وريحُ لا تهتدي إليك لا تهتدي إلى الهبوبِ ،

كانك الحانةُ ، تغرفُ الأرضُ من يديكَ النبيذَ ، وتُفشي أسرارَ طينها .

ومحبوكُ أنتَ ،

محبوكُ كالمضلةِ ، أو كالجناحِ ؛

مشاعُ ، ووقتُ وقتِ رفوفٍ من اللقائِ تعبرُ الهديانُ .

تُسَمَّى ،

ومن يُسمِّكُ يسمُّ قلبه ،

تسَمَّى ، ومن يُسمِّكُ يُسمُّ الرئةَ الخفيةَ لأقداره .

هيا ،

أحكِمِ الأرضَ عليكِ ؛

أحكِمِ رتاجاتِ الغضبِ الألفَ ،

وافتحِ البابَ لتختطفَكَ الصرخةُ .

رفرفي ؛ يا مسافةَ القبل ، فلكَ ينهضُ الحدادونَ بمطارقِ الضوء ، وتغرلُ
النساجاتُ بمغازلهنَّ خيوطَ الفصولِ ، رفرفي على مدايِ المطوقِ بحماماتِ
الصلصالِ ، فأنتِ شاغلةُ الدم الذي يتلقتُ من مناراتنا مستطلعاً هزائمه
الدم ، وجناحاك صفحةُ الكاتبِ المدونِ قهقهةَ الحديدِ . رفرفي ، رفرفي .
كنت ، من قبلُ ، خائمي إذ يرفعُ العارفونَ خواتمهم ، وكنتِ التماعة
الأرض على مهمازي إذ تنجزُ الجذورُ مهارها بمهاميزِ النعمة ، لكن لا مديحَ
في شفتي الآن ، وقلبي طريقةَ الحاضرِ على صفيحِ الحاضر . رفرفي .

رفرفي يا ابنتي ، رفرفي
فالبروقُ تلمسُ الدربَ إلى جيبيني بعكاكيزها .

رفرفي ، رفرفي .

الفقمة

أنشدَ نشيدك على صخرةٍ عاليةٍ ، واجمعَ الريحَ كلها قربَ ثدييك ،
فأنتِ تفطمُ البحرَ الآن ، وتهيبُ بالمرضعاتِ أن «هذهدنَ وليدي على سريره
الرملي» ، فما منَ عويلٍ سيعلو عويلك أن يأخذَ القطيعَ ذكرُ آخرٍ ، وما منَ
أنينٍ سيواسي الأنينَ أن ترى إنائكَ يتوسلنَ فحولةَ الغريبِ .
ولينشدَ قطيعكُ الأنثويُّ ، أيضاً ، نشيدهُ : قطيعُك الذي يتبعُ
الغالبين ، وليبقَ الرملُ في زَرَدِهِ ويذُءُ على مقبضِ المياهِ ، فبابُك إليه ، بابُك
المفضي إلى جهةِ أمينةٍ ككلبِ الضيريرِ .

رذاذٌ يبللُ الجلدَ البهيّ قبل أن ينحدرَ الجسدُ إلى سلامِهِ ؛
رذاذٌ يبللُ الأبديةَ .

الحُبابُ

العائدون من أعماقنا يضيئون فوانيسهم الصغيرة . نعرفهم ، أو نكاد .
عابثون في حَنُوٍّ ، قلقون كالكلام ، فعلامٌ نجمعهم ، ثانيةً ، في المدى ذاته ؟
علامٌ نهدهدُ في الأسرّة المعلقة شبح الأرض ؟
إنهم عائدون ، انجزوا الضربة بخناجر النبيذ ، ونضدوا الأباريق المملأى
بعافية النسيان ، هاتفين بنا : اجلسوا . هذه أعماقكم ؛ هذه صباحاتٌ
تتفاقرُ كالقردة فوق غصونِ المتاه .

حُبابٌ هُم ؛
حُبابٌ أومضتُ في الظلام فكسرنا سريرنا .

الحجل

كانَ ما كانَ : مرحٌ سلُ السفوح كسيف ؛ مرحٌ سلُ الفضاء وأهوى على
الأعشاش فتطايرت الأرض سُمانى ، ونُحاماً ، وكراكي ، حتى امتدَّ برقُ
من الطير بين غد ضائع ، ومديح ضائع ، فقلنا تطايري ، تطايري أكثر يتها
الأرض ؛ تطايري بجعاً ، ونغمياً ، وغرائق ، ولتتطاير حول ردائك الغضاري
سلالاتٌ وحبابٌ من فضة اليأس ، قلنا في النشيد أرضٌ أخرى ، رخيعة
كفَبَقَبَةٍ حجلٍ يستدرجُ الأنثى .

حجلٌ ؛

تذهب الأرض ويبقى حجلٌ في المدى .

حجلٌ ؛

يذهب المدى ويبقى حجلٌ في النشيد .

حجلٌ ؛

حجلٌ أفقنا . حجلٌ ظلنا ، حجلٌ بداية الكلام . حجلٌ كلامنا .

حجلٌ ، حجلٌ ، إشهدي ما مدارج تهوي إذ تهوي الأرض ،

واكتب أيها اليأس بالريشة الباقية .

القطاة

البراري تُلقي خاتمها المضفور من نشيد وريش على المائدة ، وتنهضُ

غضبي فينهضُ الغبارُ الوصيفُ ، وتنهضُ الحاشيةُ .

البراري تهرولُ في البلاط المغلق بأقفال الصباحات ؛ والبراري تخلعُ

قفازها المائي وحفيها المائيين ، صاعدةً إلى شقيقاتها اللواتي يستعرضن ،

من المشارفِ ، قوسَ قزحٍ سكرانٍ ، وأعراساً تنسجُ السنايلُ فيها سراويلَ

للأرض .

البراري تركضُ شعشاءَ ، حاضنةً ، ملءَ رئاتها ، أسرةَ الجذور ، والخيامَ

التي نسيتها الصواعقُ في الحجر ، غير أنها تتعثرُ بجناح صغير ؛ جناح

مرسل كظلٍ يغطي الظلالَ بشباكِ النشيدِ ، فتلوي على ذاتها . وتوطئُ

المكان .

لا فرارَ الآن ؛ لا فرارَ في كلِّ آن :

البراري تنكئُ على عمودها الأزرقِ ، وقطاةٌ تسردُ المدى .

القلق

مَنْ لِلأبيض الحزين؟ مَنْ لعشب يعري بناتِ النهر؟ مَنْ لصفاف
تسرق شمعدانات المياه؟ مَنْ للريح تتشبث بساقين نحلتين ، ومنقار يلتقط
الريح من بركة النهار؟ مَنْ لآنين يرتدي قلنسوة العرس؟ مَنْ للربيع ، شرطي
الفصول ، الأمر باسمِ عذوبة لم تكن؟

مشعشعاً كالصرخة يرتفع الأبيض الحزين في فضاء حناجرنا ؛
مشعشعاً كالصرخة يرتفع الأبيض الحزين .

الحنكليس

أتذكر المياه : ذيلُ عس الغد ، وأعضاء لينة تحوِّف الحدود القريبة؟
أتذكر المياه : أيدٌ رشيقة في حراشفه الكهربائية ، والأعماق الأكثر
وقاراً تنثر عقود سُبحاتها؟
أتذكر المياه : حركة وزيد . ضربات خفيفة للعصل الجسور ، والزعانف
تومض في انسيابها فينشغل الضوء بإرثه من الظلال على الصفحة
الساحرة؟

... وأنتى تذكر المياه ؛ أنتى يشغلها بهلوان الشعاعات مُرسلاً سهامه
المضحكة؟ . وامياهاه ؛ واعريناً من الزرقة يضمخ أشباله برعود الملح ؛ واقرعاً
يقرعه الصدى على خودة الأغاني ، استحمي بنشوة الزعانف الأقوى ،
وليني تحت عريكة الديك الزبدي ، فمياه أنت ، بل نشيدُ الرثة الهاذية
لهذا المتمايل الطري ، الرقص كظلام يسله الظلام في نشوته المتلاثة .

ذيل ، وأعضاء متصلة لينة ،
والحراشف تغمض على الماء جفونها فيبتل بالحنين .

الأعمى ، سبي العماء المنمق كالأخيلة ، ينتنحُ قرب الوكر ، كأنما
ينتشق عظةً الينابيع ، أو يلهو بمغزل لا يراه . لكن السنابل ترى ، والجحور
تفرّد لعينيهِ المغمضتين شراع العراء .

هادئاً يستطلع الغامض .

هادئاً يستطلع المدى الموحش كأعماقه الموحشة .

والهواء ريشته ؛ الهواء صولجان ، وخيال حسبة تترنح تحت مهاميزهم
الأرقام الحامضة ، فبأي هواء يكمل الناقص ؟ بأي هواء يحسب صدى
الضربة التي تزوق العماء ؟

الأعمى يستطلع من جحر ذاته المديدة كشرخ مديد ،
مستأنساً بدبيب الأفق الحفيد ، وصرخة الأرض - أم الظلام الخافية .

العنكبوت

بحلم واحد ، وأذرع كثيرة ، تخطيط الأعماق فضاءها ؛
وبأذرع كثيرة يشعل المساء قناديل أشباحه .
لكن ،

هذه الشباك ، التي تتخطيط فيها فراشات الأبد الثقيلة ، ليست نسج
حكيم ، بل نسج طاه يتذوق الغيب كما يتذوق الحساء .

(الطهارة لا ينسجون الشباك .

الطهارة ينثرون توابلهم على الذي في الشباك)

ما هم ، كلٌ ينسجُ خطابَهُ بالأذرعِ الكثيرةِ الهادئة ،
والسطورُ تتقاطعُ بالرفيفِ الهادئِ لأجنحةِ الموتِ .

الحلزون

حَسْبُهُ أن يكون قريباً من وحشته القريبة . حَسْبُهُ أن يهرُزَ قرنيه اللينين
ستلمساً غمامةَ ذاته التي تبلُّلُ غُرَّةَ الظلامِ . حَسْبُهُ أن يموجَ في ضفافِ
الصدفةِ ، مُصعداً في القشرةِ القاسيةِ زفيرَ الحالمِ ، حَسْبُهُ البسيطُ البسيطُ ،
الهيئنُ الهيئنُ ؛ حَسْبُهُ المغلُقُ المشدوهُ بالبعيدِ المشدوهُ .

بيئتهُ معه .

يمضي فيمضي بيئتهُ معه .

مُفكَّرٌ يجرُّ فكرتهُ الصدفيةَ ، ويدخلها لثلاً يراها .

الديك

الهرطوقيُّ ، ذو الريشِ ، يدلُّقُ محبرةَ الضُّحى فوق أوراقنا ؛ يدلُّقُ
الضُّحى بنقرٍ خفيفٍ ، كأنَّ هو جنينُ الشعاعاتِ الأولى ، التي تدلفُ
ببغالها إلى الكثيفِ فتديرُ الرُّحى .

الزئير

رعاعُ الضهيرةِ ، الملتفعون بمجدهم القاسي ، يوقظون بواقهم .
(انفخْ ، انفخْ في بوقك أيها الزئير) .

والنفيرُ لا يوقظُ أحداً .

(انفخ ، انفخ في بوقك أيها الرزين) .

طواويسُ غاضبةٌ تشقُّ بريشها الظلالَ ،

والشجرُ الكهلُ يبددُ الحمى بمراوحه .

(انفخ ، انفخ في بوقك أيها الرزين) .

لا للجيش ، بل لكسل هذا النفيرُ .

وبواقِ المأساةِ الشرثارُ يحبكُ الغبارُ أدوارهُ ، وتضحكُ من بوقهِ الظهيرةُ .

الطاووس

من هنا ، من حدائقِ معلقة في الريش ، تنفضُ زوبعةُ اللونِ عنها
غطاءها ، وتتناثرُ الريحُ تاجاً تاجاً ، فما يرى ليس إلا مهرجَانِ الغدِ الحوذيَّ
في ظلِّ أمسه الحوذيَّ .

فليبكِ هذا الطائر .

فليبكِ ريشهُ .

وابكِ ، أنت أيضاً ، يا مدللُ الحاضرِ المتلصصِ من ثقبِ في قفلِ الموتِ .

الفهد

خفيضاً فليكن صوتُ الرمادِ في الموقدِ الذهبيِّ لأعمارنا ، فبعدَ قليلٍ
يمرُّ الهباءُ المُجَنِّحُ سائقاً بناته ومريديه ؛ وبعدَ قليلٍ يمرُّ الجليلُ الذي يوازن بين
الخطى كما يوازنُ الأفقُ بين ذاته ومرآتها .

بنخطى خفيفة يمرُّ الليلُ، متشماً سحابةَ الفرائس، كأنه رنةُ
الترابِ، أو المدوّنُ العارفُ بالذي ينسجهُ الهواءُ من أقاصيصِهِ .

أيها الموقدُ الذهبيُّ .

بنخطى خفيفةً، قربَ أعمارنا الخفيفةِ، يمرُّ الفهدُ .

العصفور

هَبْنِي خَفَةَ المهرجِ، هَبْنِي طَعْمَ خطوةٍ في الجحيمِ الأنيسةِ، لأهَبَ
الهواءَ سحرَ خواتمه الخفيفةِ، ولينبُرجَ الفضاءُ حجراً حجراً، فبي طيشُ الماءِ
وخفقةُ الشكلِ الذي يقامرُ بيواقينه . وأنتَ، أنتَ، ذاكُ، يا خفيفاً كمرساةِ
الشعاعِ، تقدّمْ لآلايكَ بهبةٍ لا تُعطى، وامتنحِ ريشي بلهبك ذي العُرفِ
اللازورديّ، فأنا فكاهةُ الطيرِ، وثرثرةُ الريحِ التي تجرّعتُ نبيذَ أباريقها .

إلى أينَ تحملني جناحي؟؟

إلى أينَ أحملُ جناحي؟

ضيقٌ كلُّ شيءٍ،

ضيقٌ كلُّ شيءٍ .

اليعسوب

كغيمةٍ ملحٍ وبودٍ؛ كصيفٍ صائغٍ يتملّئُ أفراطَ الظهيرةِ، والحجارةُ
الأكثرُ بهاءً في الخواتمِ؛ كبابٍ؛ كرتاجٍ في البابِ؛ كفراغٍ تهبُّ الروحُ إلى

وصيفها ؛ كنقر صامت ؛ كمناقير تتخاطفُ الجذور . . ككلى ذاك ، كشقة
تُعوي ، طينُ هذا اليعسوب في مضجع الملكة .
. . . والملكة تستسلم للسيد .

والملكة تنثر إماراتها كرزاذ الوميض على زغبه وجناحيه ، في التحاميه
الأقصى بسلطانه الذكوري .

واذ يهدأ رفيفُ الأجنحة ؛ الرفيفُ المضمخُ بنعمى الهبات ، وبألهمس
الذي يبتكره الجسدُ همساً في انقلاباته الدافئة . . . إذ يهدأ اليعسوب ،
تدخلُ عاملات النحل ، فتتناثرُ الذكورةُ وسمسُمها الخفيفُ :
يتناثرُ الجسدُ حولَ ثقبِ القفير .
ولمَّا تَرَكَ بينَ زغبه فتافيتُ شهوةٍ وعسل .

الحفّاش

ليس لي جراح ، فالحفيّ توأمي ، وأنتم بقاياي على حافة الصباح
الآخر ، وإن حرّتم في فأنا ظمأ الرحيل ، ورنينُ الخطوة الفارغة في ملك
يتشبّه بأشباح الندامى . أسألكم : أيُّ شاهد قال عني ما تعرفون؟ أيُّ
شاهد اختلطت عليه تفاحة الغيب فألقى عليّ ظنونا بما ينسجه ظلهُ
المسكور قربَ قمر مكسور؟ هنيئاً لي بغبطة تتعالى من فوانيس ذعركم ؛
هنيئاً لجناحيّ بالخففة الساحرة في فراغٍ تملجونُ قربهُ لهاثكم كالقطن ،
يالي ، يالي .

طعمُ زبيبٍ ويندق فوقَ لسانِ السهول ،
طعمُ فلزٍ فوقَ شفةِ المساء ،
وهبوبُ نشوانٍ للغامضِ يداعبُ الأجنحة كلّها ؛

وأنا ،
خفقةً ،
خفقةً ، أنسلُّ إلى المَطْمَينِ لأبعثَ كؤوسَ نشيدهِ .

يالي... يالي .
ليس لي جراحٌ ، والنهارُ أيقونةٌ تتدلى على صدرِ توأمي المقتولِ .

الثعلب

مجرةُ الأغاني تبسطُ فراءَها للمجراتِ ، فاقتربوا ، أيها المختالون ،
بفخاخكم الزرقاء ، لتتصيدوا يمامةَ الحيلِ .
لكن ، بأيُّ أحبولةٍ ستأسرون هذا المهروق كالفقههة؟ بأيُّ ستأسرون
الرخيمَ مثلَ الانشاد للمياه؟ ليكنْ . خذوه ، خذوا الطائشَ الجميل ، فهو
قرعُ الحكاية على بابكم ... إيه ، أكانتْ لكم حكايةٌ قبلَ أن يمَسَّ بذيله
الحكاية؟

تبدؤونه فبقي .
تبدؤونه فتبقى يمامةُ الحيلِ .

الحمار

أن يتخذُ سيَّاف الغيبِ كمالاً ككمالِ الظلام ، وترجعُ الرياحُ الأسيرةُ ،
تغرورقُ عيناك ، يا هادئاً ترى الذي ترى ، وتكفيك من الأبدِ قسمةً
واحدةً ، فلماذا تأسى للوقتِ ، ولماذا تضربُ بحافركِ على رخامِ بطشنا؟

يا حمارُ ،

يا جدالَ الكسلِ المُربِكِ ، تَلَقَّتْ بعينيكِ الناعستينِ إلينا ، وأطبقهُما ،
فإنك لن تغفرَ برؤيَ مثلنا قط ؛ رُؤيُ تمضي على زحافةٍ تحبُّها ديكَةُ الثلجِ .
يا حمارُ ، يا شظايا كأسٍ ارتختَ يدُ الندِيمِ عليها فهوتَ في الفراغِ مائةَ عامٍ
قبلَ أن تتشظى ، أضربْ بحافركَ ، أضربْ بأذنيكَ ، أضربْ بالكسلِ المُربِكِ
هذه البقطةَ السارحةَ تحتِ خوذاتنا ، واغفُ ، فقد أغفى الوقتُ - ترجمأناكُ
الغاصبُ .

وديعُ أنت ، وتغروزقُ عيناكُ .

الغراب

أنا صفيركُم ، أنا الخرفُ المتناثرُ من فوهةِ الأغاني ، شقيقُ الهزائمِ
كلُّها ، شقيقُكم ، أضعُ بيضيَ في أعشاشِ الرناتِ ، وأعطِي الجساراتِ
بالريشِ . أنا . . . آه ، كمَ مَلَكَ مَرُوبي ، كمَ أساطيرَ ، كمَ نهايةَ . لا غدُ
لأحدٍ ، غدي ضربةُ الراعي بعصاهُ على تيسِ الجهاتِ ، فإمَّا شردتُ جهةَ
عادتُ إلى أحابيلها .

ذروني إذا . ذروني وهدأةَ الروحِ المشقوقةِ كلحاءِ الشجرِ ، وابتعثوا
المكانَ يجيءُ إليَّ بحوصلةٍ مُرَّةٍ ، فعلى المائدةِ مُتسِعُ للهباءِ كلُّهُ .
أنا ،

أنا ،

لا انهدامَ إلآي . شققتُ مسافاتكم فتهدلتم من الشقوقِ سلاطات
ترفو الغمامِ والثلوجِ ، وأمعنتُ فراراً بجناحي فتطايروا ساعاتكم في ظلي
كالريشِ . خرابٌ إذا . هدأةٌ للخرابِ . وأنا الصنْحُبُ المهرولُ في الحروفِ

كلها .

عُزَّابُ ... أهدأوا .

النسر

أهو وصيُّ الأقاصي يدوُّن مديحِ الأقاصي ، أم سَهَرُ الريشِ على حَجَرِ
المكان؟ لا يا سَهَرَ الريشِ ، لا واسعُ أو مديدٌ إن تراءى من جناح ؛ لا جناحُ
لو لم يَفِقِ الواسعُ المديدُ . وأنتَ ، عالياً ، على أيِّ حالٍ ، تغزُلُ الخيالاتِ ،
وفي ظِلِّكَ يتماوجُ الصلبُ . مرُّ ، واخفِقْ كنبضةٍ في الغدِ العالِي ، غدِ
العاصفةِ وَخِذْهَا أَنْ تَقْرُعَ الفراغَ القديمَ .

مرُّ ، لا :

فلَيَمُرَّ الفضاءُ الحيرانُ في ظِلِّكَ المُحِيرِ ،
وَلْيَخْلَعْ المِثْليُّ مهاميزَ عصيانِهِ .

بيروت - ١٩٨٢

ربما ذكّرني الوردُ بنفسي ،
ربما ذكّر بي الوردُ رمالاً حَزِمْتَ كالنفسِ
قبل أن يُطلقها البحرُ مناريسَ ، ويأتي بسدودِ .

ربما ذكّرني البحرُ بإطراقة
حين أطرقتُ ، وأفضى بي إلى ماءٍ طريدٍ :
كلُّ منفى صحوةٌ ، فاكتملي
يا جهاتي بكمالِ نزعٍ ،
واكتملي يا رعبٌ ؛ هل بَارَكْتَ أنقاضِي برعبٍ مُعِلِّ؟
ربّما . لا . يا حديداً
مُتَرْفِئاً كاللّهو ، لاهٍ بالحديدِ
باركِ الفلزَّ الذي يصحو على فلزٍّ نشيدي .
يا حديداً مرّاً بالبالِ فأصغى البرعمُ الصلْدُ لتاريخي إليه
وتدانى ظلِّي اللّاهي لكي يُلقني عليه
حفنةَ الريحِ التي ألهمتِ الحيَّ بلاغاتٍ . كأنَّ منْ ثمري هذا : رنينٌ
صاعدٌ في الجذَرِ ، أقدارٌ ، وحمى حجرٍ . لا بأس ، ماذا يا حديدٌ؟
مَرَحٌ ينسجُ ميعادي ، ويُفلي ، ويُعيدُ
فكأنني هربٌ . قُمْ يا ظلامُ . اجتهدِي يا شجراتُ

واقترني يا ضربة السهل سفوحني :
طائرٌ هَذَّبَ ينبوعي ، وأوتني مهاةً
فغدني يصحو وقد طوقه شرقان : هَذَّر ، ووعيدُ .

أه كَمْ كان يعيدُ البرقُ ما أنسى ، وينسى فأعيدُ .

يا حديداً مُشْرِفاً مثلي على الحيّ تُراكَ انبجست أيامك الدُفلى
فغَطَّيتَ مَدَى الحيّ ، وألهمتَ مديحي
أن يكونَ الساهرُ الممسكُ بالانقاضِ؟ أن يُمهِّلَ ما لا تُمهِّلُ الأرضُ؟
كريحٍ سَيَقَادُ الماءُ في نهبٍ ، وعلو غامضٍ في كل عيدٍ .
يا حديداً كالحديدِ
يا مدى بُوْحٍ يُسمِّي كلُّ بوحٍ
فلتكنْ في غَمْرِكَ الحلو صنوجٌ ، ولأكنْ باباً إلى الصلْدِ الذي يُعطيكِ
مجدَ المعدنِ الحيّ : سَنَارُ قَصْ كَلَمْعٍ ، وسيأتي الأزلُ
هازلاً بعدي ، وبعدي
ككتابٍ سوف يُستقرأ الغدُ المُرتحلُ .

يا حديداً كأني .
يا حديداً يقرعُ الحاضرُ شُبَاكَ النَّبِيِّينَ بهِ .
يا حديداً بَعْدَ لم يُمتَهَن
لَمَدِيحٍ ليس يستنفدُ ما يجعلك الآن إلهياً . جبينني لك ، أو عذريّةُ
الماءِ الحصينِ .

يا حديداً . . . إيه ، كم جذرٍ سيستوقدُ من جذرك أعتابَ رفاهٍ ،
وكمِ الصاحبُ قد يستلُّ من وهجك أقمارَ السكونِ .

لُعْبِي كَوْنٌ ، فَإِنْ مَرَّتْ بِي الرِّيحُ اقْتَصِدْ بِي فِي هَيَوِي
قَلَمَنْ أَمْحُو ثَرِيًّا لِهَبِي الهَاذِي ، وَمِلْكِي ، وَشَعُوبِي ؟
لِي يَقِينَ الْمُهْلَةُ الْأَكْثَرُ فَضْلًا ،
وَلِيَّ الْأَبْقَى مِنَ الْفَجْرِ الْأَمِينِ .
وحديدي أنت . هل يكبرُ بي إلا حديدٌ ؟

غير أني معنُ في شأن ما لا شأن يُغويه : شظايا حملتُ حلمي إلى
تلك الشظايا ، وتفجرتُ فأغلقتُ كتاباً كان . ما مثلي سوى الضربة إن رُنتُ
ترامى ضيقٌ ، إن رنَّ قبري في القبور اتسعت . صنعُ هواي . ابتعدي يا
ريح . أنقاضُ تحت البحر أن يجثو ، ومهدُّ يركضُ
بوليد الماء ، فالأيامُ تسُلُ عَرَضُ .
ولاني ... أين من أن أحاذي جمهراتِ الرعبِ كي يشتغلَ الرعبُ
بأقداري .

أرعبُ بعدُ؟ أمهلتُ الشظايا
ساعةً ، قلتُ : استعيدي
جسدي عرساً ، وفيضي بالهدايا .
ولاني ... ليت يا الآن أغنيك كحبرٍ غمستُ أقلامها الأسماءُ فيه .
ليت ... ما هذا بتيه
بل نبوءاتٌ تقلبنَّ على مخدعي المائي فاستشرفتُ في الموت هوايا
وتزيّنتُ بأسراري التي تغسلني
كشهيد ، وحملتُ الجسدا
غافلاً عما تهاوى منه ، مشاء به ، مُتَّدا .
ولئن أسرفتُ الأجرامُ في نهبي ، فالأشياءُ تعدو
بي ، وترفو الريحُ ذاك البَدَدَا

يا حديدي ، أنتَ ، يا الهذا بشديكَ على أفواهنا
سنرويك ، التقطْ أئداءنا :
كلُّ موت سَلَّةٌ مثقوبةٌ ،
كلُّ غيبٍ درجٌ ينزلهُ الغيبُ إذا ما ابتعدا
فكأنْ دورةً هذي الروح لا تعرفُ إلا موجنا
وكأنني - يا الهباءُ الثَّمَلُ ،
يا ثُمالاني التي تُهرقني
مثلَ حَبْرٍ غُمِستْ أَقلامُها الأسماءُ فيه ،
وارتداهُ الأزلُ .

موشكُ أن أبعثَ الانقاصَ في هيئة ما ليس بأنقاصٍ ، واسترسلَ في
نجواي : طينٌ مدني . طينٌ أساطيري . بحرٌ قال ما لم يَقُلْ الشعبُ . «ألا
تعترفينَ الآن؟ ماتت - يا فتاتي - أمهاتُ النبع ، ماتَ الثَّيْتَلُ الأخضرُ .
شمدينُ تهاوى مرةً أخرى على باب الحكايات . عروشٌ وملوكٌ بقيت .
تعترفين؟ اعترفي مثلي بتاريخِ غشّتي سُورَةَ منه فلمَ الملحِ سواي .
كان تاريخاً هنا ،

واقفاً كالكلبِ قدَّامَ السرايِ
كان تاريخاً ، وقد زينتُهُ .

أو توهمتُ - بشعبٍ ، فإذا البحرُ سلاحِي ويدي
وإذا المنفى الذي يُشهرني يُشهرني
مِرْقاً في رمحه العالي . فتاتي اعترفي . لا . موشكُ أن أغرقَ البحرَ
بمدح . موشكُ أن يقنفي الماءُ رغيقي كعصافيرَ ، وأبناي يشدُّون الصَّواري
بقلوع ، أو يرجئون المجاذيفَ التي ضَمَّحَها
عَبَقٌ من غدي الفاتح . عودي كحصارٍ
يا غواياتِ رميتُ القلبَ في خوذاها ،

وتغاويتُ . ألا يجمعني
غيرُ منفاي؟ ككَلْبٍ يَقِفُ التاريخُ إذ يُشهرني المنفى الذي يُشهرني
وأنا العَندَمُ ، بل رِيحَانٌ ما يَنْبُضُ في هذا الغبار
فالمواعيدُ مواعيدي ، وما من خبرٍ إلا تنأى خيطُهُ من كفني .

... والحديدُ العذبُ ينسابُ . أَعْمَرُ يا حديدُ؟
هَرْنِي السُرُوءُ قليلاً ، هَرْنِي الشُّوْحُ ، وألوى
حلّمي الصّفصافُ فانداحَ النّشيدُ :
كَمْ رَعَتِي القُنْبَلَةُ
كَيْتِيمُ ؛

كَمْ بَكَتْ حَوْلِي العِمَارَاتُ بكاءَ السنبلةِ
واستظَلَّتْ بي متاريسُ ، وأواني البعيدِ .
أَبُ ، ابنُ أنا

للمسافاتُ؟ أم الحاضرُ غمدُ الزُّرْكَلَةِ؟
صعترُ بابي . رأيتُ الماءَ في هيئةِ سيفٍ
كُلُّما أهوتُ به كفٌ عليّ
عُدْتُ ، في النشأةِ ، ميراثاً من الزُّهرِ الحَيِّ .
غيرَ أني حينَ أهوي بسيفِ الماءِ تنهارُ بلادِي :
ضربةٌ تُحيي بلادِي ،
ضربةٌ أخرى تُمَيِّتُ
شَرَكاً كانتْ كمثلِ الله ، تنهدُ فتنهّدُ جيادي .

وكبابٌ مغلقٌ كانتْ أمامي وورائي
يفتحُ المنفى لِي الأفقَ فارمي درعي الأخضرَ للمنفى ، واستصرخْ ماءً
فَيُجِنِّي بماءٍ

فإذا ما التفتت عيناى للباب غشائى الظلموتُ :
ضربةٌ تُحييى إذا ،
ضربةٌ أخرى تُميتُ .

يا بلادَ الرعبِ كم كنتُ وحيدا .
يا بلادَ الرعبِ كم أسرفتِ في قتلى فأمسى قلبك الأيكم كالجرح
وحيدا .
آبُ ، أين أنا
للمسافات ، فلا أعرفُ إلا خشبَ المنفى حديدا ؟

فليكن . أغلقتُ تاريخي كما يُغلقُ حوذي على الاسطبل ،
واستوصلتُ في نجوأي : بيتي كان في الحى كبيت ، يردُّ المتعبُ ظلاً في
كراسيه . ويلقي رأسه للشرقة البكماء كي تمزج بالأهداب غيماً ، وعمارات
يلوح الأفقُ في أهدابها نهباً لفأس المعدن العاري . وبيتى كان بيتاً في
حصار الروح ، وأانى من العزلة ، أوى الليل من فجر جحيمي . وكانت
قبرأتُ الطين ترميه بأعشاش من الدمع ، ويصطادُ الفراغُ العابتُ الأشياء
من إسمنته .

وأنا في سمنته
أية كالنرد ، ألقي بي إلى الأعماق حيث العنقُ صوتي .
كان بيتي رحلة كالظمأ الخلو ، وكان . . .

أين بيتي ؟
كسر الكأس على هذا المكان
واغتلى حتى تشطى
فالندامى حجز من حوله ، الآن ، أساسات تهتكن فعرين البيان .

سوف أستوفيك يا بيت من الأقدار كالفتاح يستوفي الجبايات .
سأستوفيك باباً أزرقاً ، سقفاً من القصدير ، أدراجاً جُماناً :
(ستكون المكتبة

قربَ هذا البهو ، والمدفأةُ
في جدارٍ ربما يعلوه رَسْمٌ قَدْرِي ،
أو تصاورٍ حديد . وهنا الزاويةُ
سوف تَزِينُ بالثُبَّتِ . وقربَ العتبة
بعضُ سجاد ، وفوق النافذة
تتدلى سِتْرٌ ملتهبه . . .) .

سوف أستوفيك يا بيت . أما من حجرٍ
يهتدي بي ، ويهديني إلى تأويله الصاحب للبحر . أما من حجرٍ
حَمَلَ البحرُ مرايايَ إلى أقداره ،

ورمي بالسُفَرِ
مثل عنقودٍ إلى دالية الرملِ . أَرَمَلْ سوف يُهديني إلى تأويله الصامتِ
للبحر؟

اشتعل يا رب ، هذي «خلدة» الدُّرْعِ . نَبِيُونُ يجسُّونُ خراف الموج في
«خلدة» ، أنقاضُ تعيدُ السيرةَ الكبرى لِخَلْقِ ذاهلٍ . يُوَحِّ نحاسي . مرايا .
حَمَلَ البحرُ مرايايَ إلى أقداره ،

فجثا كالطفلٍ يستلُّ من الرملِ رُؤَايا :
(خُفْ . ذا تيسُ حديدي . تعمَّدُ ببريقِ القاذِفِ
واعبرِ الشاطئَ كالبهوِ إلى ضوءِ بلاط ،
حيث يقتادُ الملوِّكُ الأرضَ تحت السَّعْفِ) .

مثلَ عنقودِ رمى البحرُ بأيامِي ، فالتقيتُ إلى البحرِ بجمعٍ مُتَرَفٍ :
 أَبْهِيُونَ ، حِرَابٌ نَمَ ، أَشْكَالٌ كَمَا نُحِبُّ سَمَاوِيَّ تَهَامَسْنَ بِهِ
 أمهاتٌ لم يُرَدَّنَ البحرُ إلَّا خاتماً
 وتوشحنَ وشاحَ الوقتِ ، فاستدتينَ وقتاً عَدَمًا
 فإذا سألتَ : هل من جهة؟
 قلنَ : آتتنا جهاتُ الروحِ خبزاً عَندَما .

يا فراغاً غنمتهُ الروحُ كُنْ
 هندسيّاً يا فراغُ .
 خرجتُ أنقاضنا من سرِّها ،
 وتعلّى الأبدُ الثرثارُ قِوطاً هَوَّهَ في الغيمِ زاعُ .
 يا فراغاً جفلتُ منه عذاراهُ ، استبقنا يا فراغُ :
 إِنَّهُ طاووسنا الرمليُّ في «خلدة» . أرضُ الأرضِ . ميثاقُ مياهٍ . تَبِيجُ
 كالجوهرِ الغاصِبِ . غَمَرٌ مَرَحُ
 فتشَبَّهْتُ يا مدى الله بأكفانٍ وميضُ :
 كلُّ دَعْرِ يَرْتَدِي الآنُ دروعَ الفجرِ ، والبحرُ الذي يلهثُ بِحَرِّ شَبَحٍ .

(كان في «خلدة» متراسٌ من الأفق ،
 وفي الأفقِ سرايا من مداراتِ تَوَزَعَنَ القُبُلُ :
 شَفَّةٌ تَنْقُضُ كالليلِ على حُلْمَةٍ هذا البرقِ ،
 أيدٍ تخطفُ الصخرَ كأقراصٍ عسلٍ .

كان في «خلدة» ما كان : امنحيني سُنَّتِي ،
 وحذائي ،

وسلاح التوأم الأكبر ؛
هاتي بالجسارات كرمّان ، ودّلي -
كي تمسّ الذكّر البحريّ في المكمن - عذراء الأزل) .

يا فراغاً . . .

منجنيقات تدلّ الفجر بالترجس ، والخلم حديديّ : هنا رأس كبيروت
على صحن ترابيّ ، مدار ، وسلال أحمل الشرق على ظهري بها :
(هل تلصّصت عليّ)
يا إلهي ، من كوى الطين ، وأرخيت الغبار المرمريّ
فوق ثديي (الذكورين؟) . أطفال هنا ،
أجمع الأشلاء حتى أتخطّأها إليّ
فأرى جسمي ينبوعاً ، يكاد البحر أن يلمس من دُغر بقايا شفتي .

خبثيني يَتُّها الأقمار في سنّديس هذا الغضب الموصد . خبّيء أيها
الرمْلُ لهائي في متاهاتك ، فالوجّ مضيء ، وعلى «خلدة» أهداب كأهدابي
إذا ما انغلقتْ

رفع الماء خياماً لجيوشي فوق ثدييه : (إلهي
غُصّ طرفاً عن أحابلي ، فإنّي كالمتاه
أغسلّ الفجر كما الخوذة حتى أتغاي
قرب هذا الموت) . . . أه يا محاربت غمام ورفاه
شفقي الأبعد ، فالأبعد أعضائي التي أسلمتُها
للأساطير ، وفي «خلدة» أسلمتُ الأساطير إلى لهو ، وحبّكت الحيل :
(كان في «خلدة» ثبّة وتَمَلّ
ومرايا يتخطّى البحر أمادّه فيها

موشِكَا أَنْ يُفْسِكَ الشَّكْلَ ، ويصطاد الجبل) .

خبيثيني يتها الرُّوعَةُ في رملٍ ، حديدٌ نَفْسِي

ولنبضي زَبْدُ

ساحَ في قلب من الأجرُ مَكْتُوبٌ عليه الزُّرْدُ

فإذا كاشفتُ حرباً بمغاليقي استجارتُ

بحروبٍ ، وانبرى كلُّ شُرُوقٍ يَرِدُ .

هكذا عينايَ ، واخلولي غدي .

عجلي وابتردي

شُهْبُ الماءِ بذوبٍ من حديدٍ عسلٍ ،

وخرابٍ عَسَلٍ ؛

عجلي وابتردي .

لخصاري سرُّه ،

ولنهبي من جساراتٍ تطاولنَ كسروِ سرُّه ،

ولأبعادي حفيفُ الأبد .

فليكنَ ما كانَ . شَقَّتْ عن مراياها الثواني ظلُّ هذا العدم الضاحك ،

شَقَّتْ موجةُ أثوابها ، وانحسرتْ ظمأى . (على «خلدة» رفٌ من قِطَا ضلُّ

سهول الأرض . هل «خلدة» أرضٌ خسرتْ هذا الفضاء الرُحْبَ كي تريحَ

من شوقِ قِطَاها كفضاء؟) .

لا تكنَ يا موتُ مثلي عاكفاً في قلمٍ ينظرُ ، والخبرُ حديدٌ .

لا تكنَ يا موتُ مثلي عاكفاً في ذهبٍ ينشرُه الموتى على النبع

الجحيميِّ . هنا «خلدة» . (رفٌ من ذباب الأزل أَرْقَضَ عن الجرحِ

السمائيِّ) . هنا «خلدة» قُمْ يا غضبُ ؛

قُمْ بِكَهَانِكَ ، أَعْلَى مِنْ حَنِينٍ ،
 مَالِئًا كَفَيْكَ بِالْعَنْبِرِ وَالْمَاسِ ، تَرَائِبًا ، تَعْصُ الشُّهُبِ
 نَارَهَا الْخُرْسَاءَ مِنْ حَوْلِكَ . قُمْ يَا بَحْرُ ، قُمْ
 صَنَمًا بَعْدَ صَنَمٍ
 وَشُعوبًا أَيْقَظُهَا زُرْقَةُ الْمَدْحِ الَّذِي نَمَّ بِهِ الْمُرْتَقِبُ .

... وحديد . رُبَّ سَرَبٍ مِنْ غَزَالَاتِي نَقَرْنَ عَلَى الْمَوْجِ الْحَدِيدِيِّ
 بِأُظْلَافِ حَدِيدٍ ، فَتَفَاجَّ الْبَحْرُ : دُغِرَ بَعْدَ ذَعْرِ . آيَكُةٌ مِنْ زَبَدِ الْخَلْقِ . رَمَادٌ
 خَرَرُ

كُلُّ ذَا فِي صَرْخَةٍ وَاحِدَةٍ ،
 وَنَفِيرٍ يَتَشَطَّى الْبُوقُ مِنْ أَعْوَالِهِ .
 كُلُّ ذَا رِمَانَةٌ فَتَقَعُ الْغَامِضُ ؛ لَا ، ذَا كَرَرُ
 نَشْرَتُهُ الْقَبْضَةُ الْأَشْهَى عَلَى ثَدْيِي . . . حَدِيدٌ ، أَيْنَ مِنْ أَحْوَالِهِ
 هَذِهِ الرِّعْشَةُ فِي كَفْيِي ؟ . (وَ « خُلْدَةٌ » شُدِّي رَسَنِ الرَّمْلِ قَلِيلًا يَخْفُنِ
 الرَّمْلُ مَنَارَاتٍ تَنَائِرُنَ ، وَأَشْكَالًا كَسَتْ أَقْدَارَهَا بِالْبَحْرِ) . عَيْنَايَ عَلَى
 الْبَحْرِ ، وَأَعْضَائِي مُضِيقٌ :
 (سَقَطَتْ شُرْفَتُنَا)

مِنْ عَلِيَّيْنِ ، وَطَارَتْ جَارَتِي
 كَدْحَانِ . حَمَلُ الشَّارِعِ عَكَازَتَهُ لِلْمَلْجَأِ فَاجْتَنَحَ الْحَرِيقُ
 مَلْجَأَ الشَّارِعِ . طِفْلٌ مَرَّ بِالْبَابِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ مَرَّتْ أُمُّهُ
 فَكَسَّتْ أَشْلَاءَهَا أَشْلَاءُوهُ .

سَقَطَتْ شُرْفَتُنَا
 مِنْ لُغَاتٍ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُهَا

سقطَ العالمُ من شرفتنا
في لغاتٍ لم نكن نعرفها ،
فاستعانتْ جارتِي
بُتْقَابٍ وهي تُؤوي موطئَ في موتها)

إنها أَسَماؤُهُ ؛
ذا حديدٍ ، وهي ذي أَسَماؤُهُ :
من رمالٍ تَصْهَرُ الأعماقُ كالوقتِ فَمَا
فيلاقيها بأنداءٍ تجلّتْ حولها أُنْدَاؤُهُ .

يا لآسَماءِ . أعيني ضميرتي يا أمُّ في «خلدة» . بأسٌ مثل بأسِي يصعدُ
الأدراجَ من مَكْمَنِهِ البحريِّ . بأسٌ يعقِدُ الشاطئَ كالسُّرَّةِ من أزواره
البيضاءِ . في «خلدة» يا أمُّ أعيني حجري الأبيضَ كي يهوي ثقيلاً ،
وأعيني لأمضي نحو ريحانةِ هذا الماءِ أنَّ الرملُ يَشْبُثُ كالآتشي بُخْفِي ،
ويغدو النَّفْسُ

ضيقاً من حَبِيرةِ الروحِ . غداً تنجسُ
ملءَ نافوراتي الأشكالِ حتى
يغدو الرملُ ظلاماً بجناحين ؛ فمن يلتمسُ -
في رمالٍ لم تكنْ - سقوطَهُ ؟ . الآنَ أنا والبحرُ . لا شاطئَ ، لا برٌّ ،
غَدَاًفَ يَصُلُ المَوْجُ بموجٍ ، وسنونو
يحملُ الأفقَ إلى أعشاشنا
فاعينيني على الضَّرْبَةِ يا أمُّ بموتٍ لا يخونُ .

(مضتِ الطائفةُ الأولى ، وعادتْ أختها

حين طارت شرفتي
 فنزلت الدرج الأبكم محمولاً على الذعر ، فسدت جارتني
 ببقاياها عليّ الدرج الأبكم : هاكُم ثديها
 لصق باب المصعد ، الفخذ هناك
 في زوايا لم تعد إلّا زوايا ،
 وعلى السقف بقايا
 من حذاء شدة كالصمغ لحم . وإذا . . .
 ما هم إن كان «إذا» أو كان «ذاك» :
 مِرْقَى من كبِد الحاضر تحبو ،
 وملاك أحمر يلهو بأحشاء ملاك) ..

كم تشبّنت بأعضائي التي سالت كماء ،
 فإذا تجرف أعضائي يدي
 وإذا بالهاوية -

حيث عمر من فراشات - تقوّد الأُبهي
 صوب رعب حاصر الحاضر بي .

أنا الرعب؟ مديحاً هات يا رعب ، بغالاً ومحاريت ، فإني دافع
 «خلدة» كالتاويوس في غابة هذا الزيد الشمسي ، ما الغابة؟ أقواس قزح
 تقرق الباب ، ولكنني أسير الخدر الآتي من البأس ، وقلبي ذهب ،
 عمري بئح ذهبي .

أغتنق الحاضر بي .
 أغتنق الحاضر بي ،
 يا تشيدي ، واعبر الماء إلى هذا المَرخ .

كم تشبَّهْتُ بأعضائي التي سالتُ كماء ،
فإذا يجرفني الماءُ إلى «خلدة» : وارملاهْ حُثَّ الضربةَ الأبهى لتبقى
الآن أبهى ، واختم الرعبَ بختم أشقر ، فالأفقُ سَيَّافٌ ، وهذا الظلموتُ
الحيُّ يعدو كسلوقي على الشاطئ . وارملاهْ أَحْكِمِ رَمِيَّةَ الراكضِ من
نرجسة الأرضِ إلى حُلُمِ المياهِ .

(مَضَّتِ البارجةُ الأولى ، وعادتْ أَخْتُها
فتلقَّاهَا العُراةُ

بحديد لئس كالروح) هل كان الإله
أزرقاً يا ماء كمي يحضّرُ هذا الهَرُجُ محمولاً على ثيرانهِ الزرقاء؟ كم
هرطقة توجَّت البحرَ فأجفلنَ مرايايَ . يرايُحُ استطارتُ من ضباب البحر .
عهدي ... أيُّ عهدٍ لك يا ماء؟ مديحي أشقرُ كالصاعق . الشاطئُ جَرَسُ
الهمسة الأولى لحربٍ هرولتْ ثيرانُها بالرمْلِ ، بالأرضِ التي تُشهرُ من رملٍ
سيوفَ الترفِ .

أيُّ عهد ، وأنا ابنُ الحَزَفِ

أنقرُ الروحَ في تأويلها

فأراني كالجبالِ مُضَاءٌ بغدٍ مُرَجَفٍ؟

وأراني ... من يرى الحاضرَ مُرَخًى فوق ثديهِ كَشَعْرُ ثَم لا يستلُّ
مِسْطَ الأفقِ؟ بطءُ زبدٍ حولي ؛ ديكٌ وإوزاتٌ من الماء ، دجَاجٌ حجريُّ
الريشِ ، سُورٌ ومسيجاتٌ : أنا مزرعةُ الله ، سترعى عشبي الأرحامُ كالماعِزِ ،
غيمٌ وخنايِصُ دمِ زرقاءٍ ترعى جسدي الأزرق . واليومُ الرُّعَاةُ

سوف يقتادونَ ماضيَّ ككَبِشٍ

بأَتانِ الحاضرِ المُجْفَلِ . لُئِي يا حياةُ

زَرَدِي المنشورَ ، لُئِي خَوَذَ الموجِ التي بَعَثَتْها

بجناحيّ، فريشي ورق يغسله ماء أجاج ثم يستدركه الماء الفرات .
وأنا .. أين أنا؟

أغمض المنفى جفوني فتفتحت متاهاً ليس يخفى :
كل منفى يسلس الغيب الذي يقتاده
نحو حيري ، وإذا الحير تشكى
رست الريح ببطش ، أضحك الماء وأبكى .

(في حزامي قبلة

تتلى ،

وعلى سطح العمارات سماء تتلّى
مثل إحليل من الضوء ، فيا هذا المدى
لا تلمني إن توسّطت عذاراي بومضٍ وشظايا
ضمختها غدرة كالأي تتلى .

في حزامي قبلة

جعلت زمزمة القبلة أعلى) .

واحديده ...

(تهاوى جاري الأعرج قرب الدّرج

فتراكضت إلى أطفاله

علّني أوصد باب البيت كي لا يلمحوه

غير أنني لم أجذ من ذلك الباب سوى أقفاله

وسكون يتمرأى في حطام لزج) .

من أنا؟ أمسكتُ أنقاضِي كفانوسٍ ، فدارتْ حولِي الأيامُ في أسماها
تقرأ ما يسقطُ من خوخٍ وتين . حاضرٌ بي حاضرُ الفلز . حديدٌ يتعرى . من
أنا؟ فانوسِي الرملِ أضاءتُهُ مِياهٌ . وامِياهُ انحسري عن خصيتي
هذه الأرضُ فروجٌ ،

وأنا السهمُ النُبي .
لِي منفاي ، فَمِنْ أينِ بلادي سوفَ تستحضرُ منفاها؟ . عويلٌ يضربُ
الشرقَ بغُصنٍ مرمرٍ .

والمسافاتُ التي أغلقتها
بغباري ، تفتحُ الماءَ علي
فإذا بي هجرةٌ يودِعُها البرقُ بيوتاً وعذارى .
وإذا بي . . واحديدهُ أرفعُ العاصمةَ ، الآن ، إليك
بخطاطيفٍ من الشُعَرِ ، وبَعَثَرِ هذه الأقدارِ كالقمحِ عليك .

واحديداً من دُعاباتٍ وهمسٍ ،
واحديداً يُؤكَلُ ، الآن ، على مائدةِ البحرِ ؛ حديداً غافلاً عن شهوةِ
الغيبِ ؛ حديداً كابتهالِ الشجرِ الأعمى إلى الكاهنةِ العمياءِ في خُضْرَتِهِ ؛
واحديداً ثرثرَ التاريخِ في حضرتهِ
بكلامِ صَدَيٍّ ،

رافعاً تجوى من الملحِ ومن قهقهةِ الرملِ إليه ؛
واحديداً ضَمَّ في شهوتهِ
جُنْدَبَ الفجرِ ، اختطفنا بيدُ زرقاءَ ، كُنْ عيدَ نباتٍ ، وادفعِ الحاضرَ
كاليقطينِ يَدُخْرِجُ حَبِثاً من غدٍ لاهٍ إلى لاهٍ سواه .

(كنتُ في ذاكَ المتأه

كابن أوى .
كنتُ ما تقتله اليابسة الجذلى ، وتُحييه المياه
لم يكن لي غيرُ منفايَ صدى يُرجعني
صوبَ أعضائي ، وكانت تنهاوى
شرفات شرفات ،
وزقاقاً فزقاقاً ، حَجراً بعدَ حجر .

إيه ، مثلي كم تنأوى
مطلعاً في غضب ،
أو عُصارات بها يهذي الثمر .

وغواياتي غواياتُ مديح .

مرّ بي الشاطئ ، مرّت موجتان ،
مرّ بي البحر ، ومرّ الأفق الصلْدُ على بغلِ جُمان .
مرّ بي مدّ فراغ ، والورائي الفراغ ،
مرّت الأرواح ، والآلهة ، الأعْمَقُ من أعماقنا .
مرّت النفسُ التي تُوهِمنا
أنّ للرعبِ فروجاً كالمكان .
مرّ درعُ فتَهَيَّأتُ وحيداً كحضور يُغلقُ الأعماق ، والقرَجَ السديميّ على
صوت مني ، وتهياتُ أباريقَ من الأجَرِ دارَ الخزفيّ البرق في البهو بها
فالسكاري مُدُنُ أسرى تفرّ .
وأنا أُرْجِعُ ما فرّ إلى خندقه :
خندقِ الرعبِ ، وأمحو فيجاريني الممرّ .

ليس بعدي من يَكِيلُ البُعْدَ في ميزانه .

كنتُ هذا ،

كنتُ حقلاً ، وشذى زهر نحاسي ، نحاساً ، وحساسين من الزئبق .
كنتُ البرهة الكبرى لظل ، وغداً يخرقُ الغُدرَةَ كنتُ ...

كيف مزقتُ الموائيقَ ، وجثتُ

بموائيق من الصُّعْتَرِ؟ يا «خلدة» يا أحشاءَ أحشاء ، ويا بوقَ غدي

أمهلي عاصمتي ، واقطفيني

كَيْدًا عن كَيْدٍ .

واجمعي ، بعدذا ، كي تجمعي الألالةَ الزرقاءَ للحاضر ، كي تكتملَ
الدورةُ في هذا الحديد الحي . يا للحي ، أهرقتُ هباتي تحت ثدييه
المسائين ؛ أهرقتُ المساء

فوق ثدييه ؛ التمسْتُ العَبَقَ الضوئي من غيبٍ لكي يمنحه

عَبَقَ الهَرَجِ المُضَاءِ :

(أيها الهَرَجُ الذي يخلقُ من لحمٍ سحاباً ،

وشموساً من لهاتِ الذُّكْرِ ؛

أيها الهَرَجُ الذي يجري على أفلاكه

من مكانٍ لمكانٍ حَجَرٍ

لا تلامسُ شهوتي بين شَبَاكِ الشُّهُواتِ .

قلتُ للحاضرِ أغلقني على «خلدة» فاستوقفني قربَ النَّباتِ

فجذوري في علاءِ عبقٍ

ولأوراقِي ائتلافُ الجُزُرِ) .

كنتُ هذا ،

كنتُ ما يجمع من ماء نسيج السَّهَرِ
ويسوي الرُّمْلَ في قيدي ماءً .

كنتُ . . . يا للحيِّ ، أوثقتُ إلى أعضائه
قهقهات الأزل . استذنيته حتى يراني في غوى أشيائه
وتهتكتُ ، فجاءا

لاعقاً تاريخه الأغر كالخصية ! كوّرتُ على خصيته
ناره الحنثى ، وأجريتُ الخيانات مذبذباً في مطاويه ، فأرغى خيلاً .
. . . لا تسلّمهُ ، إلهي ، لسوائي
وأنا أزعجه لهواً غيباً ، وهباءً .

قلتُ : « لا تغضب » ، إلهي .
قلتُ : « هذا خلقي الأصفى » ، فقُفرتُ مدائي
تحت ما يسقط من زيتونه
غير أنني حين حاصرتُ حصاري ،
وتتبعتُ إلى «خلدة» أجراسِ هواي
رجعَ الحيُّ إلى ملهاته ،
والمكان الصلْدُ أفضى بي إلى ملهاته ،
فإذا البحرُ سلاحي ويدي .

(أطلق القاذفَ ، أطلقهُ ، وفجّر هذه الأُمَّة في مضجعها ؛
فجّر البابَ الذي أوصدتِ الأُمَّةُ دوني .
أطلق القاذفَ يا طفلُ على الماءِ الكَمِينِ .
أطلقِ الأرضَ كَتيسٍ ، وتجمّع في هبائي

غاضباً من أزلِ الله ، ومن شعبٍ تسامى بالفكاهاتِ ، ومَنِي
فأنا ألفتُ ما كانَ أمامي وورائي
بخيوطٍ ، وصدى رث على التَّوَلِّ المَسِينُ .

أطلقِ القاذفَ ، يا طفلُ ، وعُدْ بي لكَميني
حيثُ تستشرفني الريحُ ، وتُلقي
دِرْهمَ الحيِّ إلى الريحِ وشحاذِ السكونِ) .

يا حديداً مُتَرَفّاً كاللَّهُوِ ، يلهو بحديدي
صَدَىءَ الليلِ من الهولِ ، وما زلتَ شهياً كَنَشِيدِ .

نيقوسيا - شباط ، آذار ، ١٩٨٣

١

إنها المشيئة التي تضرب الأرض بقناعها ، وأنت رنين الضربة . فتموج
إذا . عموج متزلزلاً من ورقة إلى ورقة ، ومن لهاث إلى لهاث ، وأقصم الأبدية
بأسنان الخنشار .

لا تقل إن الصاعقة المتدثرة بمعطفها القرائي هي لك .
لا تقل إن العذوبة سوطك الذي تقود به جياذ النبات ،
والنهار إوزة مسرودت من حقلك الحديدي ، بل التمس ذاكرة التفاح
بكلمات العُصن ، وأطلق يدك كذهب مطحون .
غزالتك هناك ؛ غزالتك البللورية تحت الشجرة البللورية ، وقلبك هنا ،
يهز قرنيه ليرد الفجر ذا الفراء عن سريرك الذي يهوي عميقاً ، إلى حيث لا
نعاس يرعى بقراته البيضاء .

إنها المشيئة التي تضرب الأرض بقناعها ، وأنت رنين الضربة .

٢

فلتتفاوَضْ كسيداتين .
أجلس هنا ، أمامي ، فأنا جالسٌ ومعني ما تريد ،
وحقق في كما ينبغي الخصم أن يحدث ، ثم ضع على المنضدة ما

تحتوي جيوبك :
الحديقة أولاً . إنني أرى الجذور تحترق السُترة ، والتراب يُعْفَرُ
قَميصك . هنا ، على المنضدة . . الحديقة أولاً .
ثم هاتِ السحابة تلك ، التي تبللُ حوافِ القبة ، وتتدلى خِصَلُ
باردة منها بين خصلات شعرك . وهاتِ القوسَ قُزَح ، ذاك ، المائل على
صدارتك المذهبة ، هاتِهِ . . هنا ، على المنضدة .

لا ، لا تكنِ شاحباً ، ولنتفاوضَ كسيدين ، فمعني ما تريد .

اجلس أمامي ، وضعِ على المنضدة ذلك البهاء الذي آتعبَ مديحي ؛
والمسافة أيضاً ، مسافة الغضبِ المؤطرة كصورةٍ جدِّ . . هاتِها ، وهاتِ المساءَ
المتدلي على صدرك كربطة عُثْق .
وافتحِ أزرارَ سترتك لأرى ما تبقى . نعم نعم : نجمةٌ مختبئة ، وبقايا
معركة ؛ مسرحٌ وبلايلُ نائمةٌ فوقَ سيفٍ . . ضعها كلها هنا ، كلها ،
وكذلك الحريقَ الذي لم يبدأ بعدُ .

لا تَكُنْ شاحباً ، فمعني ما تريد .

٣

مُتَخَنّاً بالحدائق ، مائلاً كقوسِ عتدٍ من الذهب إلى المديح :
هكذا يتمددُ ظلكَ على أضيائي ؛
وبعونِ صوتك ، وسَمْعِكَ ، ياخذُ الوقتُ طريقَهُ إلى الكلامِ الأخيرِ .

أصارحك بالسُنُونُوةِ المِئْتَةِ على سلكِ الشارع ،

وأصَارْحُكَ بِالْجُبْلِ ذَاكَ ، الَّذِي يُرَى مِنْ شُبَاكِي رَافِعاً مِطْرَقَةَ ضَبَابِهِ
فَوْقَ حُطَامِ الشَّقَقِ .
أَصَارْحُكَ بِأَيْنِ الْبَابِ . . أَنَا الْجَالِسُ هُنَا ، أَمَامَ صَخْرِ الرَّجُلِ الَّذِي
قُتِلَ فِي الْبَابِ فَلَمْ يَلْمَسْ وَجْبَتَهُ .

أميري ، يا عَافِيَةَ الظَّلَامِ ، تَسْلُلُ مِنَ الْفُضِيحَةِ إِلَيَّ .

٤

«الضَّبَابُ الْمُتَرَنُّنُ كَسَيِّدِ يَطَأُ الْعَتَبَةَ النَّبَاتِيَّةَ» : ذَلِكَ مَا تَقُولُهُ الْخَادِمُ
لِسَيِّدَتِهَا . لَكُنْكَ ، أَنْتَ الْوَاقِفُ بِزَهْوٍ مِنْ كَسَرَ أَصْحَى الْوَرْدِ ، وَبِعِشْرَ
الْلَّبْلَابِ ؛ أَنْتَ الْوَاقِفُ طَوِيلًا أَمَامَ الْحَدِيقَةِ بِمَقْصَصَاتِكَ وَمِعْرَاقِكَ ، وَعَلَى
يَدَيْكَ أَثَرٌ مِنْ سَمَادٍ طَرِيٍّ ، لَا تَرَى ذَلِكَ .

تَطَأُ الْعَتَبَةَ ذَاتَهَا ، حَيْثُ يَطَأُ الضَّبَابُ ، نَاضِرًا أَبْعَدَ مَا تَنْظُرُ الْخَادِمُ ،
وَتَرْجِعُ صَارِخَةً : «أَسْكُنِي . إِنَّهُ يَنْذِرُ الثُّبَاتَ ، وَيَقْتَحِمُ بِبَهْلَوَانَاتِهِ
الْمُضْحَكِينَ» .

أَحْذِيَّةٌ مِنْ ضَبَابٍ ،
وَعُكَّازَاتٌ مِنْ ضَبَابٍ ،
وَأَجْدَادٌ نَسُوا الْمَدْخَلَ إِلَى حَدِيقَةِ بَيْتِكَ :
ذَلِكَ مَا لَنْ تَقُولَهُ أَنْتَ :
ذَلِكَ مَا لَنْ تَقُولَهُ الْخَادِمُ لِسَيِّدَتِهَا .

الطيوف التي من سُفْسُفِ الفجرِ كالستارة ،
وأنا ، أيها الشهيءُ المُرْتَبِكُ كجناحِ الزَّيْرِ ، أشقُ طريقي إليك بشبكةِ
المصارعِ وحُرَّتِهِ .

لُهاثي كَرَفَسُ ، وعَرَقِي صواعقُ من فراءِ ناعمٍ .
قد تُفَلِّتُ مِنِّي أيها الشهيءُ المُرْتَبِكُ هنا ، وقد تُفَلِّتُ هناك ، لكنني
الحيرةُ التي تُدْرِكُ اليقينَ ، والظلُّ السلطانُ الذي ينحسرُ وينتشرُ ، حتى
لكأنَّ قبضتي ، وخذها ، هي الأكيدُ الذي يتحصَّنُ به الشُّكُّ المُتَعَبُ ،
والغامضُ الهاربُ من قَدَرِهِ المُفْتَضَحِ .

أين غمضي سليلي؟ أين تمضي يا شهيئاً شُغِلَتْ به الأنوالُ ، وحاكُهُ
الظُّلامُ؟
كلُّ شيءٍ مُطَوَّقٌ بي ، فالينابيعُ جُفَّةٌ سهامي ، والنهارُ كَلْبِي .

بسيوفِ الجليدِ ، ومنجنيقاتِهِ ، تفتحُ الأرضُ طريقها إليَّ .
بزيزانها العدميةِ ، وشعوبها التي أتنسَّمُها كطَهورٍ مُرٍّ ؛ بسعاةٍ يحملون
أحشاءهم كالبريدِ ، تفتحُ الأرضُ طريقها إليَّ .
وأنا ، كَجَسُورٍ ، عاكفٌ على لهويٍّ لأبْدُرُ إرثَ الغريبِ وأقدارَهُ .

من سيصلُ ، أيتها الأرضُ ، من سيصلُ؟
ذباثعُ من رخامٍ . مغيبٌ صقيلٌ ، ولهوٌ مخضَّبٌ بانينٍ . صقالاتُ تحمل
المدينةَ ، وفجرٌ كالسترةٍ . غداً ، غداً . دغٌ كلابك أمامَ البابِ ، دغُ المغيبِ

وانزل عن المرساة ، فالأعماقُ أعماقُك . غداً ، غداً ، كصاعد ، لا ، كحكمة
تحت ورقة اللبلاب ، يلمحك الغبارُ العابثُ . والأثك؟ لا . شفافة ترفعُ
الآلة الصَّقيلة . مياءً تلتفتُ ، والصارية بين يديك . مَنْ سيصلُ ، من
سيصلُ؟ . غنيمةُ الثدى الأسيرة وعويلها ، غنيمةُ النباتِ أنتِ . آصرخُ :
أفق؟ لا .

صباحك البؤاف يطلقُ التفيرَ ، والجيلُ يعدو .

من سيصلُ ، أيتها الأرضُ ، من سيصلُ؟
صدى كأت سكران . صدى كدمية في الواجهة ينادي العابرَ ، والروحُ
تحرقُ أرباءها . أتبعني يا بيت نُثقي نظرةً من شباكك على المزهرة ، ويا
زجاج النافذة تفتحُ بي كقهقهة غشط شغرها . لا . عابثٌ مثلي مرٌّ بالشفق .
عابثٌ مثلي مرٌّ فأطلقتِ الملهةَ إوزها . عميقٌ هذا . عميقٌ هذا . صرخةُ
ترطمُ كالزئير بشجرة الأغاني ، والمكيدة تستسلمُ لمرأتها .

من سيصلُ؟

من سيصلُ

أيتها الأرضُ؟

شبحي يضيءُ سراجَ الأشباح ،
والقيامةُ تنثرُ التوتَ على الكفنِ الذهبي .

٨

للبحيرة ، خلفَ الباب ، طرقاتها ،
وللعراء ، خلفَ درعي الأملس كرداء الأمير ، طرقاته ،
وخلف المياه طبالون ، وعرائسُ من صرخات الحمقى .

أماه ، ضمعي سلالك هنا ،
ضمعي المكان كَخَفَيْنُ أمام الفراغ لضيفك السكران ،
ويا أبي أجعلُ سهرَكَ مديداً ، وتوسَّدُ - كما مِن قبلُ - أبارك
العميقة ، حيثُ الفضاءُ دَلُو ، والغبارُ حَبْلُكَ الشُّكْرِي .

طَرَقَاتٌ على كلِّ باب .
طَرَقَاتٌ على الحطام الأكبر ، والسيلُ يزخرفُ الدروع .

نيقوسيا ١٩٨٣

منزل يعيث بالممرات

السور :

هكذا ، قُربَ حجارته ، قُربَهُ ، قُربَ النباتِ المندلِقِ من قُربةِ الحجر .
هكذا ، بسطوعِ ما يتراكمُ بهذيانِهِ المُجلِجِ فوق الحافةِ الشمالية ،
وبصوتِ في الشجرِ المنبثقِ أعلى من الحافةِ الشمالية ، حيث تتقاربُ
ضفافُ وتنفصلُ متكئةً على مجاذيفِ العظامِ وصرخةِ الشمرِ المتساقِطِ مثل
أجاصاتي إلى المجزرة ؛ هكذا ، نَعَمْ ، لا يَرْمِمْ يدُونُهُ الفجرُ على الباب ، لا
بخريفِ خافتِ كَوَسْوَسَةٍ إناءِ يختطفهُ الشاربُ ، أو بحبورِ بعضٍ على
سهمِهِ المرجاني ، بل بنقرِ شفيفٍ على البوصلةِ الشفيفةِ يرفعُ المُشهدُ قبوذهُ
إلى اليدِ التي تهزُّ مفاتيحها في الظلامِ .

حجارةُ الباب ، بابٌ في حجرٍ شهبيٍّ كإغماضةٍ . وأنا أرفعُ الترقوةَ
الصُّلبةَ للظلامِ إلى غماماته الصُّلبةِ .

.. وسور ، نعم .

محضُ درجٍ وطِيءٍ ، وحجرٌ مهروءٌ .

بابٌ ، وبابٌ في البابِ وغدٌ في قفله . ورخاءٌ تقنعتُ محظيَّاتهُ
باللُّبابِ : شُبُهَةٌ تُعبرُ ككَمْشَرى ، وصريرُ البوابةِ يرمي مخدَّتهِ إلى الشفيفِ
العالي .

الحديقة :

بالات الزهر الرُهيبة ، وسلاالم الشجرات ، يُبدعُ الصَّخبُ نقشَه
الأكملُ على خَرْفِ نشيدي . والورقةُ تهمسُ الورقة ، العشبُ يشتغلُ على
لهبه ومُجونه ؛ السماءُ التي تحاكي الظلَّ ، من فوق ، تَرِنُ بِمَآدِينِ الغيبِ
المائلِ كحائطٍ ؛ وحروبٌ في نسغِ كُلِّ شيءٍ .

غفوةٌ كنهارٍ مقذوفٍ من شرفةِ الجبلِ تستبدُّ بي .

غفوةٌ تصلني بالأرضِ وتحجبُ جهاتها .. والحديقةُ لي :

بضربةٍ ؛ بسنةٍ أيدُ تُخني عليّ بالضربةِ تتشظى الحديقةُ معي ، أو
تنفلتُ كسُنْجَابٍ ، وأنا أمدُّ يديّ بالبنْدَقِ واللُّوزِ : صديقتي ، يا شرارةَ
الحداثي كُلِّها ؛ يا حديقةَ المساءِ المطحونِ الذي ينتثرُ على خودتي ، بالغبي
قليلاً في مديحك لي ، وارفعي المكانَ إلى بركانه ، والدُّبَابَاتِ البيضاءِ إلى
الروحِ ، فما مِنْ ماءٍ سيخبرني بالذي يُغَيِّرُهُ الماءُ ؛ ما مِنْ رسولٍ سيُقلِّي
عليّ رسالةَ البرعمِ الأسيرِ وعرباته الناجية .

خيامي كُلِّها ، أيتها الحديقةُ ، خيامي كُلِّها ؛ نبعمي المتكسِّءُ على
عصاي ، وجَبَلِي الذائبُ كفضةٍ يصبُّ الغمامُ عليها صورةَ الغابةِ ؛ هالتي ،
ووترِي المقطوعُ الذي يسقطُ منه سَهْمِي إلى مَقْتَلِي ؛ رسولي ، وثورِي الذي
يطحنُ الشجرةَ بعظامه الخضراءِ ؛ مكاني ، ومصابيحي ، ومائدتي التي ترفعُ
الصُّحُوفَ إلى ضلالةِ البهاءِ ... كُلِّها تتكسِّءُ على البابِ ، وروحِي تقرأُ
الورقةَ المستظلةَ بأنينِ الشجراتِ .

بالات الزَّهرِ ، بك أيتها الحديقةُ الضائعةُ في جهاتِ يدي ، سأمسكُ
الرُّسْنَ الأقوى ، ناظراً إلى ما يندحدِرُ من الصُّرْخَةِ العالِيَةِ ، فلي موعِدُ
الجذورِ ، واحتدامُ البعيدِ . وإنْ نسيتُ شيئاً من مباحِجِ الوداعِ وهسهساتِ

مهاميزه ، فسيدركني الظلُ الرسولُ ، أو النبضُ الرطبُ لشمرة سقطت في
المياه ؛ إن نسيْتُ ؛ إن نسيَ الوداعُ شيئاً من مجوتي الذي قَسَمَ الشجرةُ بين
جهاثها .

هكذا كُلُّ سِيدْرِكَ الذي لم يفتُهُ . كُلُّ سِيدْرِكَ المَذْرُوكِ ، وينسى بطشَ
الذي فات .
بالآلاتِ الزهرِ تتواطأ الأرضُ على نفسها .

الدرَج :

خبزٌ مرمرٌ كَشْرَكَ ، وبهاءٌ مدورٌ كحدوة البغل ، يقضمان الخطى ،
والمغني يشدُّ العتبةَ إلى صدره كطنبورٍ ، هامساً : تفضّل .

درجٌ ككلِّ درج : ظلٌ مذعورٌ ، وفطرٌ أخضرٌ ، وقواقعٌ انكبتْ بمجساتِها
على الحجر تستقرئُ النسيانَ المتهوّرَ كرُعاته الصامتين . هكذا ، ككلِّ ما
تعرفه وما لا تعرفه ، ككلِّ درج هذا الدرجُ ، فلا تتأملنْ شبحَكَ الذي
يرتقيه مسكاً برؤدكَ كطفلٍ رمى جهلُهُ إليك فأيقظكَ من حكمة نهيبتكَ
نهباً ؛ ولا تتأملِ الحجرَ الصَّقِيلَ المُتَفَقِّ على ثقله بك ، بل تقدّمْ ناظراً إلى
العتبة وحدها ؛ ناظراً إلى عظامِ العاصفةِ المملحة ، والهديرِ المُتَدَحِّحِ لشعبِ
مُتَدَحِّحٍ .

بعد هذا فليمتدِّحْكَ الدرجُ المُفضي إلى ظلك الشريد .

العتبة :

انتبه ، قربك حقٌّ تخبئُ الظلالُ فيه يواقيتها . انتبه ، انتبه .

فاكهة تتزيّن لنداءِ الفاكهة قربَ خطاك ، قُرْبَكَ ، قُرْبَ الرفيف المتفتح
 بما شرب الخنيز من يديك . انتبه .
 أسيرٌ يدرجُ الذنُّ أمامَ العتبة ، وأنتَ القريبُ من دورتكِ الذهبيةِ
 ترسلُ خطاك وتبقى حيث ترى الرُّسلَ ينفخون في القصبة التي ينفخ فيها
 النهر أجسادهم ، ويدورُ الخفيف ذو الأيدي العشر عليهم بحُسْنِه المحيرِ
 كمنارٍ نائم .

إنتبه .

إنتبه .

العتبة تلهذه الحاضر ، وخطاك تُجفلُ الغزالات .

الردهة :

الريشة التي عبرتِ الردهة في الهبوب الخفيف لي ، ستتمايلُ في
 الهواء قليلاً ، ثم تستقرُّ على المروحة الرخامية ؛ وقربها ، قرب ظلِّها المتماوجِ
 من خَفَفة تحرُّرُ الرخام كله ، ساقفُ خالعا معطفي بعد تلك التزهة في
 القبل .

الحجرات المقفلة :

بابٌ هنا ، وبابٌ هناك .

بضع درجات تنحدرُ إلى أسفل ، حيث البساطُ المطرُزُ بالخطى العجولةِ
 وبالشرائط .

بساطٌ مديد يدُ وراءَ بساطٍ مديد يدُ ، وهمسٌ يتقرى بيديه
 السيوف المرمية في إهمالٍ إلى الزوايا .

غدٌ كقرعٍ على صنجٍ ، وحاضرٌ يكسرُ المفاتيحَ في أقفالها .

يا مُضيفي ،
يا مُضيفي ، لا تتقدّم بي كثيراً إلى السحابةِ الجالسةِ أمامَ نَولِها .

خروج على عَجَلٍ :
الريشةُ التي عبرتِ الرَدْمَةَ ، في هبوبي ، رجعتْ ، ثانيةً ، في هبوبي .

وصفٌ أخيرٌ يُلْزَمُ كلُّ وصفٍ بعدَ الزيارةِ التي . . .
سأتلو ما تَلَّتِ الورقةُ المتناثرةُ على الممراتِ . سأتلو الممراتِ وأدراجِها .
سأتلو تلاوةَ الظلِّ وساكنيه الذين يشرفون على لهائي بصباحاتهم المعلقةِ
من أئدائها . سأتلو الثُمرَ قفزةً قفزةً . سأتلو المَراوِجَ التي يمسُ فراءُ الثُمرِ
تحت حركتها الصلبةِ كزفيرِ اليانيسِ ، فتقدّمُنَ بأقلامِكُنَ أيتها المخطّياتُ ،
تقدّمُنَ كظرافةٍ تتبرّجُ للضبابِ الطريفِ ، ودَوْنُ ما ترينَ مني : شهقتي ،
ونوافيري المتهتكةِ . دَوْنُ الممرِ ذاكُ ؛ الممرُ الصاعدُ بتاجه الرّخو إلى الرابطةِ
حيث سأرمي ، في منتهاهُ ، غدي إلى البركةِ الملكيةِ ، وأمضي رقيقاً إلى
فجيرةِ الملوكِ .

. . . وسأتلو الرملَ المتهيبَ لي هناك : سأتلو العابرَ والمقيمَ . سأتلو
الأعمدةَ كلمةً كلمةً تحت إطلالةِ التماثيلِ المتفكّكةِ من قعمِ الأعمدةِ ،
فتقدّمُنَ أيتها المخطّياتُ بأقلامِكُنَ كي لا يفوتني ما يُحاكُ وما لا يحاكُ .
تقدّمُنَ واتقَاتِ قبلَ أن تزلزَلَ الظلالُ الظلالَ ، ويُفَلَّتِ المرثيُ من شباكِ
أشكالهِ ، ثم دَوْنُ ما ترينَ من الممرِ الذي ينتهي إليّ متباطئاً في أغلالهِ
البيضاءِ ؛ دَوْنُ حركتي وقناعي ، دَوْنُ الذهولِ المسكِّ بقُدَالِ كلبهِ أمامَ
المدخلِ .

(تشهد التماثيلُ كلها .

تشهدُ الأعمدةُ ، والبركةُ الفارغةُ قربَ الأعمدةِ ، أنني
تنزهتُ قليلاً هناك) .

... وسأتلو الغوايةَ ، أيضاً ، بصوتي الذي لا صدى له ، متكثراً على
سور الجسر فوق الرابية ، هناك ، حيثُ تميلُ الطُّرُقُ بعيداً عن يدك القويتين
- يدي المدينةِ المتدثرةِ بالأبراجِ ويظنونها ، فتقدمُ من يا خليلات الظهيرةِ
الباردةِ لتسندنني في عبوري إلى الفناء المنتظر بعربته هبوطَ التماثيلِ عن
أعمدتها بعد انتهاء العُرسِ ؛ تقدمُ من حافيات على الندى المتجلِّدِ ،
واجتمعنُ بالأناملِ أذيالَ أثوابكنُ حتى لا يُشَبَّتَ الحُشيشُ رهبةَ الدمِ الذي
يبني الهياكلَ حولَ سريري .

كنتُ هناك .

كنتُ أتلو البسيطَ من كتابي عبر الردهةِ الأخيرةِ ، ملتفتاً حيناً بعد
آخرٍ إلى القوسِ الحجريِّ .
كنتُ هناك .

كان أطفالُ صديقي هناك أيضاً .
كان صديقي هناك ، وكانت زوجتهُ ، وكان الجليدُ الخجولُ متناثراً
كنظراتِ الصُّقْرِ في الفناء الذي تأسره التماثيلُ برقاهِ الحجرِ .

(هكذا ، إذًا ، رؤسُ المشهدِ جاراتي ،

ورؤسُ الرابيةِ السفحُ المنكوم كجريحٍ) .

إيه يتها الأدراجُ الواهنةُ التي لن أطاها . إيه أيها المكانُ الذي يتسَلَّقُ

الظهيرة كغبار مفجوع . إيه نفسي نفسي نفسي : بعصيان واحد ، وضربة واحدة ، ستأسر الهرطقة هذه الممرات ، وسأبقى حيث يبقى الحاضر الخجول ، هنا ، تحت القوس المشتعل بفكاهة مرصعة ، جاذباً وترى لأرمي سهم الفضيحة ، فإن أصبت ترامي المكان ودُبعاً يسطر الموارث كطُفُس ، وإن نبا الرمي عدت إلي بعصيان الشجر كله ، والظلال كلها ، ناظراً ، ثانية ، إلى الأفق الذي يجمع السهام لسطوتي الثبيلة .

كنبيل ، إذا ، ينبغي أن أروضَ المشهد الذي روضَ الجسارة .
كنبيل سألنقُ صحاف الفاكهة من الأعلى ، هاتفاً بخيلاتي : دُونْ هذا ؛ دُونْ ذهبي المذرور على قرون الجليد ، وارفعن خُمالات الريش لأتقي وهج الأجنحة ، فأنا شبكة المديح التي يتخبط فيها عقاب المديح .

نذوري ، هذه ، إليها .

نذوري ، وهباتي ، شكيمتي وطبعي المتدحرج كتين إلى هاوية الفاكهة .

تَبْدُ أني أشمُ الفخاخَ بين جسور المدينة وَزَرَدِ البحيرات ، إلهي ؛ وأتقرئ بيدي عناقيد الذهب الراكض من قوس إلى قوس ، كأن بي تواطؤ الحجر على خلود الهباء ، وشُرُودَ الجسور عن نفير الجسور .

بنفير واحد ، أو بشرود واحد ، إذا ، سأطوق الشتاء المتمدّد على الرابية ، هناك ، حيث الأعمدة التي يدور من حولها أطفالُ صديقي بمعاطفهم السمكية ؛ سأطوق المغيب المتقلّد صولجانات ضبابه ومراثيه ، وسألجئ الهارب من نعيم الحجر ؛ سألجئ الحجر هيئةً وسديماً ، قارعاً بالأنامل قرعاً خفيفاً على زجاج المساء المُعْسكر بيهلواناته وراء البركة الفارغة . لا ، سأدفع البركة ميماً ، والأعمدة شمالاً ، فاتحاً لهواي مَمرّة

العدمي :

دَوْنُ هذا ، دَوْنُ هذا يتها الخليلات :

عاصفاً يبدأ الشُّكْلُ ، عاصفاً ينتهي .

عاصفاً يبدأ المكانُ ، عاصفاً ينتهي .

وأنا أحرّضُ التماثيلَ ، على قممِ الأعمدة ، أن تطلقَ قُمْرَيْهَا الجريحَ

من شِبَاكِ الحجر .

غير أنني سأتلو الحجرَ جناحاً جناحاً ، وسأتلو البحيرةَ خلفِ الرابيةِ
طعنةً طعنةً ، موشكاً - وأمسكُ نفسي - أن أضْرَجَ الغدَ كله بهبوبِ يشوبهُ
الرُّعْفَرَانُ . موشكاً أن أقتحمَ الهياكلَ بالهياكلِ ، والأدراجَ بالأدراجِ ،
وحسبي الغوايةُ التي تُدَحْرَجُ قُفْفَ العُتَابِ بِرَكْلَةٍ من قَدَمِهَا .
دَوْنُ هذا ،

دَوْنُ هذا يتها الخليلاتُ ، وأحِطَنَ بي ليكونَ للخطواتِ ثِقْلُهَا الأكثرُ
جهامةً في العصيانِ العظيمِ .

هكذا ،

خفيف

يد ،

يفاً

سامضي إلى فجيرةِ الملوك ،

هكذا سأنشُرُ بهاري على كلِّ مائدةٍ ، وأرفعُ الأرضَ بكَلَابَاتِ النحاسِ
إلى هَيَاتِي . وسأتلو ، بعد هذا ، النوافيرِ الصامتةِ في فناءِ القصرِ على
الرابيةِ ؛ سأتلو الشَّعَاعَاتِ الخفيفةِ التي تدفعُ عُجُولَهَا إلى النشيدِ ، كأنني
الظلالُ تشقُّ عن دورِهَا الظلالَ ، عجلِي ، تتداني ، أو تتداني نفسي ممراً

مراً ، وزينة زينة . سأتلو نفسي أمام الحفيف المفتّص للحجر ، إلهي ؛ فليأذن
الجليد لي بأنين تتأرجح أنداؤه بين التماثيل وبين المياه .
وليأذن الغيب لي بسهم أفوقه ولا أرميه ، ليأذن لي بذهول من
المشارف هذه ، ساهر كجبعة تضرب الفراغ بمنقارها الذهبي .

(لم يكن علي أن أستسلم هكذا في بوتسدام .
لم يكن علي أن أخلع معطفي في تلك الحانة . بل أن أقف في بابها الذي يعلّق
الضباب عليه مقاتيحه وحدواته الثلاثة ، متسكراً ، كغريب ، بهذيان القرات .
لم يكن علي أن أستسلم ، هكذا ، يا صديقي ، لجمال يُزيّد كل بُرّة في رهايه ، لم
يكن علي أن احتمل البلاغة الأكثر انشغالاً بما لا يُقال .

في بوتسدام ، في حانة يعرفها صديقي ، خلعتُ معاطفي المائة التي من كُرّات ،
وتوت ، وحرشوف ، وبقلاّم ولغّاج ، وعدس ، وكرفس ؛ خلعتُ السحّال المؤمن على كنوز
الحصى ، داخلاً بفخاخني المكسورة عليّ ، داخلاً على الحاضر بكؤوسه الفارغة .

أي بطش هذا ، صديقي ؟
أي بطش لا يعلّق معطفه ، مثلي ، على مشجب في بوتسدام ؟

خفيفاً
خفيفاً ساهبط الدرج كما جئتُ ،
وستهبط الأعمدة ، من ورائي ، ماسحةً بفرجونها مجرّة النبات .
خفيفاً سيرفع الغيب محبرته إليّ ، والرياح أقلامها ،
ويلهقه الخفي إلى نزهة ، باحتدام ، بكيد الوقت للوقت والدعابة
للدعابة ، ستهرع السهول المعتمة ، هنا ، إلى أنوالها ، والجليد إلى نقوشه .

التي لم تكتمل، كأنني سأنابطُ القماشَ والخِزَفَ ، معاً ، في عبوري من
خيالاتِ الضبابِ إلى أزقةِ بوندام .

(خيالاتُ كُلِّها ، صديقي .

خيالاتُ كالذراقِ بين يديْنِ نقشنا الغيبَ على درعي .

خيالاتُ كأطفالِكَ وهم يلقون على المائدة حلوى ذائبة . حلوى خيالاتٍ ، سُغنُ ،
طيشُ حجرٍ يضربُ بجناحيه جدارَ الحانةِ كغرنوقٍ مدعورٍ . والضبابُ يجزُّ ، خلفَ النافذةِ ،
بمقصاته الكبيرة فراءَ اللهاةِ .

أيُّ بطشٍ هذا ، صديقي؟

أيُّ تشيدٍ ينتهبُ النساءَ ، ويسوقُ أمامه الحانةَ ورصيفَ الحانةِ؟)

والغيبُ أيضاً سيهبطُ الدرجَ ، مثلي ، إلى حيثَ تمضي المدينةُ
برُحافاتها صوبَ أبوابِ الخبرِ . وإذا سأسندُ كتفي ، ثانيةً ، إلى عمودٍ ، في
انتظارِ إشارةِ المرورِ من رصيفٍ إلى آخرٍ ، لن أعبأ بالهتافِ الشملِ الذي
يطلقه مصيري من جهةٍ أخذتُ كلُّ شيءٍ ، وأبقتُ عليّ ، هنا ، هابطاً درجٍ
قلبي ونهبةً ؛ هابطاً درجٍ كلُّ شيءٍ ، كأنني سأعيدُ إلى الملوكِ خواتمهم ،
والى السُحْرِ ثَموره الهاربة .

وأنتنْ ، بتها الخليلات اللواتي تتأقفن من شرودي ، أبقيْنِ حيثَ أنتنْ ،
تحت الظلِّ الذكوريِّ وعرائشه المتكئة على تماثيل الساحة ، هناك ، وسطَ
المدينةِ ، وسطَ اللوعةِ التي تكتمها الجسورُ الممسحةُ كالقطط بشديي
المصارع الأعمى . ولا تقلنْ وداعاً إذ أنتهي إلى الضفة الأخرى من جداول
الرَّخامِ هذه ، لا . انظرنْ ملياً في الذي دوَّنتُنْ على اللهاثِ العاليِ ،
وتراجعنْ قليلاً قليلاً ، بمراوحنْ ، بالقلاداتِ التي نسيَ الغيبُ على

جُمانها عويله المترجرج كالنُدى .
فلألمح ظلالَكنَّ ، وحدها ، في مكيدتي ،
فلألمح الدُّعابة التي تُدخِرُجنها إلى هواي .

كم عليّ أن أبقى هنا بعدَ كلِّ ذاك؟
كم عليّ أن أشدَّ المدينةَ كسهم إلى وترِ الملهاة؟
كم عليّ أن أرمي الرُّمَّةَ ذاتها ، بالهياجِ ذاته ، لتتفجَّرَ المحبرةُ في لهائي
هذا؟

تقدَّم .
تقدَّم وحيداً بجمالِ شُرودك أيها الغريب .

نيقوسيا ١٩٨٤

قلق في الذهب

إبتدع أيها اليأسُ في مهبطك يأسِي
وليكن قرآنٌ يعجلُ الخواتيمَ ، والعرسُ نفسي
وليكن سَهَرُ الغبارِ من عَلَيْنِ يرمي عليّ الحليّ حتى أبدأَ بعضي
في امتداحِ الغبارِ ؛ أو أَسْتَدِقْ كالسهمِ حتى
تمهدَ الريحُ بي غدرَها وهي ترمي منازلَ الماءِ شَتَى .
ومن ختام ،

من غدٍ أو رنين ،
من مجاهلٍ تعلو كهندباء ، ومن لهات كأرضٍ
يجرّد القلبُ سيفهُ الرمادَ : هاكم شهودي ما بين إبرامِ شكلٍ ونقضٍ
يدججون البعيد بي أو ببعضي
لكأنني فرغتُ من عبثٍ يرسلُ الخرابُ في جرّميّ البهيّ بجرسٍ
وكان قرآنٌ يعجلُ الخواتيمَ ، والعرسُ نفسي .
وأنا . . إيه يا المرّجى من ظلامِ نديم ، ومن دويّ نديم .
مُشْكِلٌ يغمسُ المكانُ فيه رغيّهُ ، ولومُضي
نمورُهُ ؛ فاصعدي من يقينِ الهباءِ ، أو من كثيفهِ المهدومِ
إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي
فالغدُ المقامرُ سكرانُ ، والوقتُ مؤلّى
بتعثرٍ من خجلِ بثيابِ الندامى ، وينحني فيؤلّى
ولهذا أضيقُ مثلما يضيقُ الغبارُ بالريحِ ، أو أنقصُ الجسومَ في هرجها

بالجسوم ، عاكفاً عليّ من ورق السرو ، والتين ، والبتولا ،
مُطْبِقاً ظِلِّي البسوّن على البرق : يا صاح ، يا برقُ خَفَّفْ رِفيفَكَ ،
فالغييمُ يَقْطَانُ في سريرِ العناقيد ، والأَمْسُ يركضُ في درْعِه الثَّبات ، سيَّانَ
أن يسرقَ النَبِيذَ من يديه الكؤوسَ ، أو ينقُصَ الهواءَ مواثيقَهُ الأخيرة . يا
برقُ ، يا مغزلاً دار بين يدينِ لا ترفعانِ إلّا العويلَ ، رَقُقْ رَغِيفَكَ ، رَقُقْ هوى
نسائكِ يرفعنَ طَرْفاً مَلُولاً
إلى الهباءِ إذ يَحْلُولِي ،
وتَهْتِكُ ، فالسماواتُ شُبُهَةٌ ، والنفوسُ في زَرَدٍ من هَزَنِمِ .

إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي .

وأنتَ ؛ أي حديدِ موجٍ تحتَ يدِكَ ؛ أي جَمَشْتَ
يطحنُ النهارُ في ظِلِّكَ المُجَرَّحِ ؟ أي ابتهاجُ يَفْجُرُ العُنَابَ ؟ أي سديمٍ
يرميكَ كالندى بمرأيا يسرقُ الفجرُ منها إِرْزَةً ؟ أنتَ ؛ ما لكِ تدنو
بحبرٍ من الصُّدى والرُّجُومِ ؟
كنتِ ذا المَغْيَبِ ، حلوا ، وقد
تَتَقَرَّى الظنونُ لهوَكِ مُرَحَىً على وقارِ الظنونِ .
كنتِ ذا ، أو ذاكا

تغسلُ المعاني قواريرها عن هوى فيك حتى يخوضُ فيها هواكا
بدروعٍ من الشقائق . مَرَحَى مُتَهَتِّهاً في دلالٍ مُتَهَتِّه . بَعْدَ لَم يَشِ
جذراً بما رفعتُ صوبَ الغصونِ

من مكائدِ الريحِ إذ هي تُرْخِي على انتحارِ الغصونِ
ستارها المرمي . لا ، أنتَ مالكِ ؟ رَوْغُ مجلسِ الليل ، رَوْغُ مَدَاكِ ،
واكسرْ على الندى سيفَ قلبك . بلْ مُرْ مُتَرْفِئاً برمادٍ يقنصُ الفجرُ فيه

المرايا ، وأمعن مع المجاهل دكاً

في المجاهل حتى يغلب الرعب من رعب الحياة ، أو استردك سقكاً
حين يرفع البطش مثلي محاربه إليك . لا ، أنت مالك؟ هذا خلاف
عليك حلو ، وهذا وجع يعرف الحقائق . هذا هبوب ، وهذي مكيدة من
متاه كنعمي ، وإني فتون
نسج الموت غزلاني الصغيرة فيه ، وروى عبث كل ناري ، فالأرض
ليس تبين .

سكّر يطعم المجاهل قلبي ، وسكّر يطويني
على فخاخ من الزبيب ، وقتك يصوغه التكوين
أن أرمي بما يجعل الأفق سياف نعمي ، وأن أرمي بماجن مسنون
من بهاء يشق القلب . يا قلب أوقف إوزك يخبطن صدري ، وردني كالترين
يمرح في كل بهو . تعال ،
يا عشب ؛

هيا تعال ،

وأوثق غوزك ؛ أوثق رمة يخضورك الجياح ؛ أوثق كأسي
غدي الجفيل ، فالوقت نفسي :
قرآن يجعل الخواتيم ، أو عضل من جماد أمير
يحزم الأرض . أمس من الجماد الأمير
يحزم الهواء . أوقف إوزك يا قلب يخبطن صدري ، ويعثر على المديح
ذُروري .

ثم ، أنت ، يا شريك ، هذا خلاف عليك حلو ، وهذا
مداك نهب لكل طيش ، وإني فتون
ذهب الهدري ، فالكان نهب كمين .
أهكذا ، أيها المعافى كطين ، تدور بالأرض حولي ؟ أهكذا تنتاهي

فكاهة الروح؟ قُلْ للمياهِ مرحى ، ولَمْ ما قَدْ تَها
من شَموسِ المياهِ إذ تَنَدَلَى عَلَيْكَ فِي رَعْدٍ مُسْتَطَارٍ ، وَقُلْ كُلُّ هَذَا
عَبُونُ

تَتَقَرَّى الَّذِي كُنْتَ مِنْ قَبْلُ . (هل كنت ما يترأى مُشْعَشَعاً كنداء
من المياه؟) حَطَمَ جَمَشَتَكَ يَا قَلْبُ . حَطَمَ يَواقيتَ قَلْبِكَ يَا قَلْبُ . حَطَمَ
مَساءَكَ . حَطَمَ تَماثيلَ هَذَا البَهاءِ الَّذِي نَسِيَ المَكانَ ثَدييهِ قُرْبَهُ . حَطَمَ
فَخاخَكَ فِي سِجَرٍ صَرَختي الأبدية . حَطَمَ قُرُونُ زَهوِكَ ، وارْفَعْ مَنارَ الرَمادِ
حَتَّى يَدُلَّ قَلْبِي قَلْبِي

قَدْ أَنْ أَسْتَرِجِ ، وَحَسْبِي
ذَهَبٌ وَجِوَادٌ مِنَ التُّدَى يَبْكِيَانِي .

قَدْ دَقَّ مِنْ كُلِّ أَنْ
وَصِيفُهُ عَظَمَ عَظَمِي ، وَدَكَّ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ
غَدِي حُضُوري عَلِيَّ
أَلْهَذَا يَا عَمْرُ تَكْسُو الأَغَانِي
بِدُرُوعٍ يَرْتَدُّ عَنْهَا إِلَيَّ

ظِلَامٌ عَمْرُكَ يَا عَمْرُ ، وَالوَحْشَتَانِ : النِّهَارُ وَالرُّوحُ ؟ : فَلْيَتَقَاصِرْ مَدَايِ .
وَلَيْكَ فَتَنٌ ، فَتَمَّ فِي هَبَاءٍ مَزَيْنٍ بِالطَّوَاوِيسِ نَقْشَهُنَّ الهَبَاءُ فَوْقَ مَلَأَتِهِ ،
وَتَحْيُنُ هَيُونِكَ فِي قَصَبٍ يَابَسٍ ، فَالرَّمَادُ ، هَذَا الأَمِيرُ
يُحْصِي خَنَانِيصَهُ فِي خِيَامِكَ ؛ يُحْصِي مَقْصَاتِهِ ، وَيَدُورُ
بِالأَبَارِيقِ يَسْقِي البَدِيدَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَمْحُو
مَا حَوَّكُ القُلُوبِ فِي الرِّيحِ . يَا قَلْبُ ضَيِّقُ يُفْتَحُ اللُّكْلَى فِي صَدَفَاتِ
الْحَنِينِ ، أَمْ هُوَ بَوْحُ
يُسْرُ قَبْرِ بِهِ لَقْبَرٍ ؛ أُنُورُ
يَرْفَعُ القِنَاعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؟ يَا للرَّمَادِ ، حَشْدُ أَمِيرُ

فَكَهْ الْبَيَانِ ، يُغَوِي ، فِيرْتَدُّ قَلْبِي عَلَي
بَشْطَايَا مِنْ النَّهَارِ إِذْ فَجَّرْتُهُ الظَّلَالُ شَطَّتْ عَنَاقِيدَهَا ؛ بِشْطَايَا
مِنْ الْحَيَاةِ رَقُّ هَوَاهَا فَيَانْ مِنْهَا هَوَايَا .
أَلْهَذَا يَا عَمْرُ تَكْسُو الْأَغَانِي

بَدْرُوعُ يَرْتَدُّ عَنْهَا إِلَي
سَهْمُ كُلِّ ظَلَامٍ ؟ عَيَّيْتُ ، يَا قَلْبُ ، ثُمَّ عَيَّيْتُ :
سَرَقْتَنِي الزَّنَابِقُ فَاشْتَأَقَ جِسْمِي إِلَيَّ ، فَعَدْتُ
مَرَحًا ، تَتَهَادَى الْمَرَايَا
خَلْفَ خَطْوِي . لَكُنْتَنِي سَهْوَتُ
عَنْ جَسُورِ الزَّنَابِقِ فَاخْتَصَمْتُ ضَفَّتَايَ حَتَّى رَأَيْتُ نَفْسِي تُرْخَى بِهِذَرٍ
عَلَى فَرَاغٍ كَتَفْسِي

وَرَأَيْتُ الْمَكَانَ يَسْدُلُ أَمْسِي
عَلَى الْمَكَانِ كَأَنِّي قَرَعْتُ مِنْ عِبْثٍ يُشْرِكُ الْهَبَاءَ فِي شِرَاكِهِ وَقْتُ .
أَلْهَذَا يَا قَلْبُ تَطْوِي جَسُورِي

كَمَثَلِ هَذَا اللَّهَاتِ يَطْوِي اللَّهَاتِ ؟ أَمْ هُوَ بِأَسِي
يَشْفُ عَنْ رَحْمَةِ الْوَرْدِ ؟ يَا قَلْبُ مَتُ
وَاخْتَصَمْتُ فِي رَحَابِ ظَلَامِي أَرْضُ ؛ وَمَتُ
وَتَهَيَّأْتُ ثَانِيَةً لِلْهَيُوبِ فَمَتُ
وَتَهَيَّأْتُ ثَالِثَةً لِلْهَيُوبِ فَمَتُ
وَتَهَيَّأْتُ لِلْحَيَاةِ فَشَقَّتْ ثِيَابَهَا عَنْ صَلِيلٍ ، نَمَتُ .

كُلُّ قَلْبٍ مَعِي ،
كُلُّ قَلْبٍ عَلَيَّ .
كُلُّ قَلْبٍ هَيُوبٌ ، وَإِنِّي فِي هَيُوبٍ يَشُقُّ بَعْضِي إِلَيَّ

ولهذا شُهِبَ من نعيم الجمادِ تهوي على عُبابي ، ويصطادُ عمقي
صوتُ

وأنا مقبلٌ كي يبشّرُ الرّبُّ الحيُّ بي ، ولكي تتداني
في رُفاتي ملائكةُ اللهو والصدى . كيف يا قلبُ شقُّ هوانا
صدقات من الأنين عن خيلاء الرماذ؟ . يا قلبُ هذا هوانا
ليس إلا ضربةُ الماءِ في حلّباتٍ من الماء . والحاضرانِ مديحٌ وموتٌ .

كيف يا قلبُ عدتُ
نشأةً من عويلٍ مُرّيشٍ بأنينٍ ؟
كيف؟ هذا كميني
مُحكّمٌ كالغُضارِ ، لكنني لم أصبِ إذ رُميتُ فمتُ .
وككلٍ ؛ كنعمةٍ دُورَتها يدانٍ من غسلِ النُهبِ أرقى إلى غبارٍ مكينٍ ،
مُشرّفاً من مساكبِ اليأسِ ، أو من هديرِ كيّاسي
عليّ . بالله ، يا قلبُ هشَمَ سبّالَكَ ، ولتلكُ نفسي
سناجبُ ربيعٍ هُرْعنَ في السروِ فانكشفَ السروُ عن قنصهِ المجنونِ ،
ولأذرقنِ المكائنَ من قهقهاتي ، ومن مساميّ حتى
يعودُ من حولي الوقتُ محضُ شروءٍ ، ويسردُ العُصفُ شاني
فليس يُدركُ شكلُ بغيرِ دُعرٍ ، وليس تُغوى المعاني
بغيرِ هذا الشهيق . يا لي ، شتّى

يدحرجُ الرعدُ أعضائيَ الذهبيةَ ، شتّى يخوضُ الطينُ بي حيواتٍ ،
وشتّى يميلُ بي شفقٌ خلفَ تلكِ المناجلِ - تلكِ الأخيرة - تلكِ التي
تتلاّلا في شهوةٍ من جُمان .

أي قنصٍ ، إذا ، في الشّعابِ أو في الثواني؟

أَيُّ قَنْصٍ ؛ هَوَتْ وَعَوَّلُ فَبَدَّدْتُ بَعْضِي أَسَى عَلَيَّ وَعَدْتُ
كَيَّ أَرَانِي ، هُنَا ، فِي ظَرِيفٍ مِنَ الْخَطَامِ ، أَوْ ثِقَلٍ لَيْسَ يُرَوَّى وَإِنْ رَوَاهُ
الرَّمَادُ ؛

كَيَّ أَرَانِي رَفِيفاً مِنَ الْمَرَاثِي إِذَا يَرَفُ مِنْهَا الْجَنَاحُ ، وَالْبُعْدُ بِي يَنْقَادُ .

أَيُّ قَنْصٍ ؟ سَيَذَرُ اللَّيْلُ قَلْبِي إِلَى الصَّبَاحِ ، وَيُخْفِي الْأَلِيفَ عَنِّي
الْجَمَشْتُ

فَرَقْنِ الْمَشَاعِ إِنِّي ، مَطْوُوقٌ بِاللِّهَاطِ الْخَفِيفِ لِلْمَاءِ ، وَالْحَيُّ حَوْلِي
حَصَادُ

وَالْفَضَاءُ أَسْرٌ ، فَعَذَّبِي ، يَا قَلْبُ ، عَذَّبِي إِلَى مَشَاغِلِ الرِّيحِ حَيْثُ
الْمَكِيدَةُ حَيْرٌ ، وَرُوحِي

نِسَاءُ يَدَاهُمْنَ مِنْ حَوَارِي الْمَغِيبِ هَذَا الْعَرَاءُ .

سَأَمْضِي ، وَمَنْ كُلُّ سَمْعٍ
مَعِيَ خَرَزٌ وَشَنَاشِيلٌ ؛ أَمْضِي كَثِيفٌ قَصْدٌ يَشْفُ إِذْ يَتَنَاءَى
وَمِثْلِي السَّهْوُ تَمْضِي فَتَنْشَقُّ عَنْ كُنْهَ الْأَعْيَادِ ؛
زَلْزَلٌ أَنِيسٌ ، وَغَيْبٌ يُدْرِدُ الْجَمَادَ فِيهِ الْجَمَادُ .
وَكُلُّهُوَ سِيرْفُ الشُّكْلِ أَقْدَارُهُ ؛ أَوْ كَمَلُحٍ

سَيَعَصِفُ الْخُلُوفُ مِنْ كُلِّ مَقْتَلٍ ، وَيَبْتُ الْغَبَارُ فِي فَتْكِهِ الْإِطْرَاءُ .

أَيُّ قَنْصٍ ؟ تَفَرُّ مِنْ سَرِبِهَا الْأَعْيَادُ
وَالْخَفِيُّ يَلْقِي الْمَرَاسِي ، فَلْخَفِي بَذْءَ ظِلَالُهُ الْأَصْفَادُ .

والنعيم؟ حدثْ هوايَ . حدثْ هريزَ هذا الصباح . حدثْ مقاماً يضيقُ
بالحي . ما من صدى . ضرباتٍ على الخبر . والآن؟ . مرحى زحامٌ ما لا
يزاحم . مرحى . الملاكُ يعبثُ بالقفل ، والبابُ نزهتنا ؛ البابُ همسٌ من
الظلام سارت به الشفاه . لا . أبذُ فكهُ ؛ أبذُ من مشاغلِ الماء . خيرٌ هنا . لا
تقلْ لي . فكاهةٌ ، والقيامةُ أنشئ . تقولُ؟ لا . للنعيم دمدمةٌ من غضار ،
وللمرائي النبوغ . لا . حدثِ العمرَ : كانتِ يدك ؛ كَانَ النشيدُ ؛ كانتِ
أباريقُ هذا الأليف تسكبُ همسي . نسيتُ؟ حدثْ : مكانٌ غداً . هَرَبٌ .
والفضاءُ؟ مرحى . غداً للمكان . بأسٌ تظايطُ الرِّيحُ من حياءٍ إذا يهْبُ ،
وأنسُ

يدلقُ الغيبَ فوقَ الدروعِ ويرسو
بطيشاً ، توجُّ أندازةُ الألف . آنسُ كثرثرةٍ من نحاسٍ . وقلبي؟ أوقف
إوزكُ يا قلبُ يخيطُنْ صدري
وأوقفْ أبا مساءَ المساء :

تعبُ جهاتي ، وللبعيد إذ يتناءى
لألاً من أمومةِ النَهَبِ يُغوي جسوري .
وأنا ، إيه يا المُرتجى من فضاء يضيقُ بالتدبير
تسهرُ الحياةُ من وحشةِ علي ، وتَهْرِيقُني الأقدارُ لما رجعتُ مثلي ماء .

لكَ يا قلبُ رُجعى إلى الخفي ، أولي رُجعى
إلى الكثيفِ بانَتْ مخالِبُ الطينِ فيه .
لي يا قلبُ رُجعى إلي الشَّتِيتِ النَّبِيهِ
حيث ترقى السهولُ نديي ، والأفقُ يشكو إلى العماءِ العماء ؛
لهذا تسهرُ الحياةُ من وحشةِ علي ، أم أنْ ماء
يفرُقُ البرقَ من حبرِ هذا الهبوبِ أو من يدي؟ يا للتيه ؛

يذهبُ الحيُّ والمَواجعُ تَبقى
ويبقى الأَينُ يَعدو بِأَخْتامِهِ التَّذْيِيلُ .

أَيُّ قَنَصٍ إِذَا؟ طَنَعُ هَذَا الْمَكَانِ رَطْبٌ ، وَطِيرُهُ التَّأْوِيلُ
فَاعْتَذِرْ أَيُّهَا الْقَلْبُ مِنْ سَكُونِ يَحْطُمُ الْغَدُ فِيهِ
رِخَامَ قَبْرِي ، وَدُلُّ قَلْبِي عَلَيَّ
فَأَنَا ذَلِكَ الشَّرِيكَ هُمْ أَنْ يُرَى الْأَرْضَ مَلِكُهَا ، وَهَمَّتْ
تَلْكُمُ الْأَرْضُ الْأُتْرِيهَ .

كُلُّ هَذَا كَمِينَ يَلِيهِ مَا قَدْ يَلِيهِ .

نيقوسيا ١٩٨٤

منعطفات. ظهيرة من ريش.
دهاقنة يصفون الليل.
غبار مسحور،
وعُد كالعداء يتهياً لأزقة الغيب.

المنطف الثاني في «أفردويتي ستريت»

عَلَى الليلِ ،
عَلَى الليلِ كَقُبْعَتِكَ ،
ونادِ حوذَيْكَ النهارَ ، الواقفَ ، في انكسارٍ ، لصقَ عربتكِ الفارغة .

تسعونَ درجةً تحت النعناعِ ،
وثلاثونَ فوقَ القُرْنُفُلِ .

تسعونَ درجةً تحت رحمة العضلِ الذي يتهدّلُ ، رويداً رويداً ، من
فضيحة الخليّة ، ومداهمات الأمس بأطفال يشبهون النداءَ الكهلَ لغدِ
كَهْلٍ ، فأقترِبُ ، أنتَ الذي تُعَلِّقُ الليلَ كقُبْعَتِكَ ، وتحذِّقُ طويلاً في النهارِ ،
حوذَيْكَ ، الواقفَ لصقَ عربتكِ الفارغة ، ولا تناديه .

إقترِبْ أيها المَبْشُرُ بقيامة العنب ، ودينونة الريح ؛ اقترِبْ بدهاقنةٍ
يصفونُ المساءَ المحتبىءَ في كلامِ الحديقة ، ويتبادلونَ لِفَافَاتِ السَّيْفِ المشتعلةَ
تحت الغبارِ الأليفِ الذي غَطَّتْهُ بهبوبك الأليفِ ، وأنس مسافاتك
المرتبكة . ومساءك الذي انزلقَ فأَسْنَدْتَهُ ، فهو يتما ، معاً ، في بلاغةٍ تتخطَرُ
بمسائِها الأثوي .

تسعونَ درجةً ، أنت ، في الندى ، أيها الدليلُ إلى دَسَاكِره .

المنعطف الأول في «مكاريسوس ستريت» ، ميمينا ، قرب «وينبي»

دراجاتُ نارئةٌ ، وشبانٌ في ستراتٍ دون أكام . وأنا فرحانٌ ، هكذا ،
دون أكام في قميصي ، كأنما أمضي إلى ما فاتني من لعبة كنت أتقنها ؛
كأنما أمضي إليّ ، دون شعرٍ ، أو بلاغةٍ بما ينسجُ الألمُ الخلوَ ؛ هكذا ، إلى
ما فاتني فأغضى لأتّه فاتني .

وأنا شاعرٌ هذا كله : شاعرُ السماءِ الثانيةِ التي تنهبُها العجلاتُ ؛
شاعرُ الدراجةِ الناريةِ ، والقمصانِ التي لا أكامَ لها ؛ شاعرُ الصفيحِ
المذهبِ ، والمقابضِ التي تشبّتُ بها الأيدي الأكثرُ غضباً .
وللعضلِ ، أيضاً ، مُتَوَلِّهُ في الذي سادونُ بأقلامي المعدنية . وسأفسحُ
قليلاً للسَّبابِ ذاتِ الطَّعمِ المراهقِ ؛ سأفسحُ - في الذي أدوُّهُ - مساءً لي ،
معافى كالأفِ مصباحِ أمامي في الدراجاتِ الناريةِ . أما هؤلاء المحدودون
كمُطلِّقِ عُقْلٍ ، بقفازاتهم ، وأزرارهم الكبيرة كالنقدِ المسكوكِ ، فسيكونُ لهم
رُفعةُ الفَراغِ في كلِّ حَبِيرٍ ، وحنوُ الفوضى على الأبدِ المُنتَهَكِ .

دراجاتُ نارئةٌ . قلبٌ نارٍ . وأنا ذاهبٌ إلى ما فاتني .

المنعطف الألف بعد الصاعقة التي تشبثت بي

سأدخلُ هذا البيتَ وأنا أُلقي بعظامي إلى المدفأة .
سأدخلُ هذا البيتَ متشبثاً بالمكانِ الهاربِ ، وبالقبرِ الذي يؤازرني
بكمائنِ البياقوتِ ، وبالنمورِ الخضراءِ ، الصَّاعِدَةِ قوسَ الظلامِ المُبارَكِ إلى
شهوأتي .

سأدخلُ هذا البيت من بابهِ العاشر ، وفراغِهِ الأملسِ كدرجاتِ العتبة
الثلاث ، مقسماً حلوى الأملسِ شطائر كالأيدي ، رافعاً يديّ بمراوحِ الموتِ
إلى الأزلِ المحرورِ في قيوده . إليّ ، إلى شركائي وهو يقذفون بأسرةَ النهارِ من
شرفاتهمِ العاليةِ ، صاحكينَ تحتِ الأفنعةِ الرحيمةِ ، ولألّةِ الأعماقِ التي
ينفخُ فيها القياصرةُ الحمقى .

سأدخلُ هذا البيت .

سأدخلُ هذا البيتِ بي .

سأدخلُ هذا البيتِ برهائي الألف .

سأدخلُ هذا البيتِ بالأعاصيرِ التي لم تُنْهَها الكتابةُ .

سأدخلُ هذا البيتِ بشروءِ الترابِ ، وجهامةِ النُظفِ .

سأدخلُ هذا البيتِ يدَ يدٍ ، مُطَرِّقاً كجَدِّ يُخفي عنه أحفادهُ حذاءهُ
الأخيرَ .

سأدخلُ هذا البيت ، دونَ سلامٍ ، متجهاً إلى المدفأةِ كي أَلْمَ عظامي .

المنعطف الأول ، جنوباً ، حيث يتصل شارع «سباق الخيل» بـ«نافارينو ستريت»

لزفافي يحتشدُ العُتابُ . لزفافي تحتشدُ النُمورُ ، ولسلطاني صَنَاجاتُ
يتمايلنَ في الحنينِ الذي يُقَلِّبُ المشهدَ ورقةَ ورقةً ، فاستريحني قليلاً أيتها
القَيِّنةُ السارحةُ عن غنائها في حضوري ، واسترخِ أيها الحاضرُ المُطَرِّقُ أمامَ
نَبَالِهِ الذهبيةِ ، وقوسِهِ المكسورِ .

سيظلُّ مفتوحاً بابي للمشهدِ الذي يقَلِّبني ورقةَ ورقةً ، وللغيبِ
الباحثِ عن خواتمه الضائعةِ ؛ عن ألهةِ في اللعبة العذبةِ التي نسجتها

شجرةُ الورد في حديقتي ، وشجرةُ الصَّبَّارِ في حديقةِ جاري . وكذا سيظلُّ قلبي أيضاً : مفتوحاً كصندوقِ أمي ، حيثُ يختلطُ دقيقُ الحناءِ بالموسلين ؛ بالكحل ؛ بالأحزمةِ المُقَصِّبةِ ؛ بالخلاخيلِ ؛ ببقايا فضاء ؛ بنباحِ بعيد ؛ ببابسةِ خَلْفَ النباحِ ؛ بمياهِ خَلْفَ المعسكراتِ الشفيفةِ للأقدارِ ؛ بطواحينِ من نرجسٍ ؛ بلصوصٍ يشكرون البيوتَ التي لم يدخلوها ؛ بشاقولٍ ؛ برفعةٍ لم يشهدها الغبارُ .

سيظلُّ مفتوحاً بابي . سيظلُّ الغبارُ مفتوحاً لدخولكم ، بالأحذيةِ ذاتها . وبالسيفِ التي تقاسمتمُ بها خلافةَ الليلِ .

سيظلُّ الكلُّ مفتوحاً ؛ الكلُّ الذي يمسخُ الغبارَ ، بربشٍ من وخشيتهِ ، عن خوذةِ البارحةِ .

المنعطف الخامس ، شمالاً ، إلى مساكن لا أراها

هياكلُ أبنيةٍ جديدةٍ . بناؤونَ . طواويسُ شهوةٍ ، وعواصفُ من شجرٍ يتحرى مُقْتَلَةَ الرِّيحِ ، و

بناؤ

وو

ووون ،

لا يتقنونَ من هندسةِ الظهيرةِ غيرَ عَرَقٍ يتحدَّرُ إلى الأحزمةِ الضيقةِ ، والسرَّابيلِ . هياكلُ زبدٍ تتوازي في بَطْرِ المشابِكِ الحديديةِ ، وطواويسُ في الأبعدِ ، الأبعدِ ، المتناظرِ بكمائنه الياقوتِ ، وعواصفُ من شجرٍ - من

فداحة شجر - تنحري المقتلة الأكثر ثبوتاً في الذي دوتته الجهات بحبرها
الذيق : ريح . كذا يرشح الخبر . ريح ، ومقتلة في الريح ، و
بتاً

وورن ،
تساقط من لهائهم أدوات قياس ، وورق مسطر ،
وسطور من حساب وذهب .

إنه المنعطف الخامس ، شمالاً
حيث الهدهد الكوكبي بين برائن النعمة وأنيابها .

المنعطف الثاني ، شمالاً ، إلى مساكن النازحين
في «أيوس بافلوس»

ليديك مَلَمَسُ فكاها ، فاقترَبُ بشفتيك من الحناجر الرقيقة هذه ،
التي تنهاشها القُبْلُ . وَكُنْ جميلاً كعمهد الفراغ بك ، دانياً تحت الأكيد
المُرْسَل كسُغَرِ امرأة ، كأنما سَيَلَقُفُكَ النهارُ كُلُّهُ ، والليل كُلُّهُ ؛ كأنما
سَيَلَقُفُكَ الغدُ بِيَدَيْنِ لا تتقربان غيرَ الفكاها ؛ كأنما تُحَيِّرُ الذي تُحَيِّرَتْ
فيه ؛ كأنما أنت والقُبْلُ ، معاً ، تنهاشان القجرَ المُعْكَرَ بِعَيَّارِهِ فِي الدَّرَاقِ .

ولا تنس ؛ كُنْ جميلاً ، نقولُ ثانية .
لا تنس ثيابك تلك ، وعطرك ،
وحُفْيُكَ الورقيين ،
وابتسامتك ذاتها ،
وحركتك التي تَوَرِّعُ الحديقةَ شفةً شفةً ، والفاكهةَ أنياً أنياً ، وتجعلُ

الحكمة أكثرَ جراءةً لتدخلَ على الأقوياء .
ولا تنسَ ، بعد هذا ، محيرتكِ الفارغة ،
وبيانَ مُحاحجِكَ الصامت ،
فأنتَ كفيلاً بأعتناقِ الصاعقةِ وأطوارها .

المنعطف الذي يلي العمارة العالية ، شرقاً ، في «أفروديتي ستريت»

أشغالٌ كثيرةٌ ، وصفائحٌ من إسمنتٍ على الأكتاف .
غبارٌ شاغرٌ ، ومُلصقٌ مُهمَلٌ لذكرى مُهمَلة .
وأنا ، في المدى الذي لا عطفَ فيه ، من الشارع المرتطم بالعمارة
العالية ، أقصمُ تفاحتي ، في انكسار أملس كالنهار المعتمر قُبعةً السائح .
لكنني أدخر للهواءَ اليقظانَ شِراكاً من الخرز والفاكهة ، مُعَوِّلاً على الألق
ليقطفَ لي مسافةً ثانية . وباحتكامٍ إلى الغبار أسندُ الشبية بالشبية ، وألوحُ
بالعاصفة للأيدي المحتبىء في مواجِعِ أزلهِ المحتبىء ، فإن تذكّرتني الهياكلُ
هناك ؛ الهياكلُ القانعةُ بغدّها الساهرِ على الأساسات وإسمنتها ، تذكّرتُ
- أنا المتداولُ شفاهاً كمناسك الحياة - الأساسات الأخرى ، الظاهرة في
الوميض المترجّج كأنداء تُرَضَعُ البحر الذي يتسلّقُ الصَجَرِ إلى دفتري .
أشغالٌ كثيرةٌ من مياهٍ ؛ أشغالٌ كأصواتِ الباعة ، وبروقٌ تتسوّلُ أسرارَ
الصيف .

أشغالٌ ،
وإسمنتٌ ،
ومراجيحُ شفيفةٌ في الطعنة الشفيفة .
أشغالاتُ ،

والكمالُ المرآئي يستعرضُ الملهاةَ بشقيقاته .

المنعطف الثالث بعد جحيم «أيوس ديميتيوس»

كلامك جارح . جسدك جارح . العاصفةُ تسنقي على سريرك ، وأنت مشغولُ بزهرةِ القُشاءِ التي ترتفعُ كُلُّهاثك إلى عَسَلِ سِفَادِها . أينبغي إيقاظك؟ ابقَ على الحال تلكَ ، تنهامسان أنتَ والعراءُ ، يدك في يده كخَلِيلَيْن ، ونَفْسُكَ تَهَيَّءُ الأباريقَ الصلبةَ للندماءِ الغرقى . ابقَ على حال الشفق ، تأخذُ البعيدَ في جبايتك ، وتأخذُكُ البعيدُ في جبايته ، كأنما يُحاكي أحذكما الآخرَ بثرثرةٍ لا أثرَ للملحمةِ فيها . ومجدك جارحُ أيضاً ، وسطَ هذا المكانِ المضرَّجِ بأُمومةِ التعبِ ؛ جارحةُ هَيَاتُكَ ، وللمكانِ بينَ يديك تصاريهُهُ الدُمُويَّةُ . فابقِ على الحال تلكَ ؛ ابقَ كشيئاً يتسَرَّبُ بكَ الليلُ في افتضاحِ يقينهِ ، ويُملِكُك على عَدِيدِهِ الهَوَاءُ الواحدُ .

واصعدُ ،

قليلاً ،

قليلاً ،

هذه السنايلُ المظَلَّةُ بأثرٍ من جهالةِ الصُّبَا ، وتوسطُ الظهيرةَ بجهالةِ الآنَ ، إذا الاثِيرُ أنتَ كَجَلْبَةٍ تَتَقَدَّمُ غُلَمَانُ الموتِ في عبورهم المُخْتَشِمِ .

غير أنك في المنعطف الثالثِ ، بعد جحيم «أيوس ديميتيوس» :

تحاولُ فتألفُ ،

وتنسى فتألفُ ،

وتُحَكِّمُ الدَّسِيسَةَ فيعبثُ بكَ العِنْبُ .

المنعطف الذي يلي المنعطف ذاك

بكثير من ضراعة اليأس إلى شبهه أضرعُ إليّ . أنا المتماثلُ النُظيرُ . أنا
اللهاتُ الآخرُ ، المزاحمُ بشبّحه الأشباح . أنا الخسارةُ المُجَنّحةُ ، والمساءلةُ
التي تكتبونها على أقداركم . أنا . ولايُ أشغلُكم بي ، أو أشغلُ نفسي
بكم ؟ ستمضون من هنا ، وأمضي من هناك : فراغان في الكلمة المقسّمة
ملاكاً ملاكاً . وإن نظرتُ إليّ بعين إله كَمَمْتُ الحياةَ بمصادقات كالناديل ،
ونصبتُ العَرَضَ على أقاليم الجوهر ، مُباركاً تلك الشفّة التي تلمسُ الجنونَ
عن شهوة ، لا عن رياء . وبعضي ، لا بالكثير الذي يستهوي المجدَ
الحيوان ، أقبضُ البرقَ على فتنة كالمغيّب ؛ ببعضي أجعلُ المساءَ فخاخاً ،
لا بالكثير مني الذي تصيّدُ الحجرَ الأدمي . ببعضي أنا . . يا لبُعْضٍ يطيبُ
في هلاك بعضه ؛ يا للبقية التي تتساقطُ أجاصاتها على دروع الموتى .

بكثير من ضراعة الموت إلى ضجره ، إذأ ، أضرعُ إليّ
بكثير من جمال كثير أعاهدُ الخفي ، والنوحَ للبطولة بانهيار الأسرى .

بكثير ما ، يا شقيقي ، بكثير ما . .

المنعطف الثاني ، شمالاً ، بعد «بنك أوف سايبرس»
في «نافارينو ستريت»

لمسة تتقدم إلى ذاتها ، عاصية جبينها الذهبي بدلال الذكّر ، وقيناف
يؤاخذُ المساءَ بجزيرة الفجر . فراملُ الكيات ، ونبالُ صاحكة : مالكُ لك ،
وما للصخب للصخب .

وشقيقاتُ ، أيضاً ، يتكلّفن ، في مرورهن بالمنعطف الثاني ، فتنّة
ليست لهن . شقيقاتُ كإطناّب لا بيان فيه : مالك لك ، وما للصّخب
للصّخب .

كنتُ أمضي ، أبداً ، إلى بيتي الأول ، من هنا ، ناظراً إلى السّياح
الصدى ، وإلى الواجّهة الزّجاجية للمحلّ الفارغ ؛ ناظراً إليّ في دهاءِ
المُسَيطِر على لعبة لا خسارة فيها ؛ ناظراً إلى ما بدكني خطوات في الألق ؛
في مساريه ، كأنّي ذاهبٌ نحو لمسة تتقدّم إلى ذاتها ، عاصبةً جبينها
السّكري بدلال الذّكر .

كنتُ أمضي ، عشرة شهور ، إلى بيتي الأول من هنا ، دون أن أصرخ :
أحمني أيها الوقتُ من رطانة الجسد ؛ أحمني من ظلال تسرق الثروة
الخلوة في الفاكهة . والشقيقاتُ الأربع ، أيضاً ، كن يميناً إلى بيتهن من
هنا ، كمصادفات ترتدي مراويل الحَدَم . وكنّ يحينني بقدّ لعلّ ، فأحيهنّ
بقدّ يقظان ، يتهياً كالعداء لأزقة الغيب .

من هنا كنتُ أمضي إلى بيتي الذي توارى خلف لمسة ترصد ذاتها .

المنعطف الثالث ، جنوباً ، في «أيوس بافلوس»

لا لأكونَ طفلك بعد الآن ، بل لتكوني طفلي .
لا لأكونَ نباهةَ الجسد ، وتأويله ، بل لتكوني رهانَ الجسور .
لا ليكونَ المكانُ مساءً ،
لا ليكونَ الأكيدُ .

رَفْعَةً رَفْعَةً يَتَحَلَّقُ الْجَمَادُ ، وَالنَّعِيمُ الْوَاحِدُ ، الْمُتَهَتِّكُ تَحْتَ مَسَاكِبِ
لَيْلِنَا ، يَنْسَى خُفْيِهِ هُنَاكَ ، وَيَنْسَى الرَّمَادُ أَفْلَامَهُ . وَأَنْتَ ، كَعَضَلَةٍ فِي
الْجَنَاحِ الْأَكْثَرِ خَفَقًا ، تَتَجَمَّعِينَ مِنْ أَلْقٍ وَرِذَاذٍ تَحْتَ ثَنَدِيٍّ . فَلَا يُقْسَمَنَّ
الْمَكَانُ بِكَ ؛ لَا يُقْسَمَنَّ النَّبِيدُ ؛ لَا .

لَا لِيَكُونَ عَرَضٌ ، بَلْ كَثِيفٌ ، حُمَى ،
لَا .

لَتَكُنْ قَطِيعَةُ الْأَقْوَى . لَتَكُنْ ، لَتَكُنْ أَنْتَ ،
فَالْقَصِيَّ يَتَشَاغَلُ بِكَ عَنْ مَجْرَاهُ السَّاخِرِ ، وَتَتَشَاغَلُ هِيَ - الَّتِي
أَوَّلَتْكَ تَأْوِيلُهَا الْأَنْشَوِي - عَنْ مَرَاتِبِ اللَّيْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ بِأَقْوَاسِ الصَّبَاحِ
الْعَارِي .

وَالْمَنْعُطُ؟ لِيَكُنْ ، لِيَكُنْ .
هِيَ طِفْلةٌ فَصَلَّتْ أَبْوَةَ الْمَاءِ ، وَأَنْتَ رَجِمُهَا الْمَشْتَعِلُ .

المنعطف ، ما بعد بائع المثُلجات

مَا الْمُلُوكُ؟ مَا الْأَفَقُ الدَّائِرُ كَالْمَغْزَلِ فِي ثَبَوْتِهِ الْأَعْمَى؟ مَا الرِّهَانُ؟ مَا
الْمُهْرُجُ الْحَلِيفُ؟ مَا الرِّكَائِبُ الَّتِي تَتَقَطَّعُ أَحْزَمُتُهَا تَحْتَ الْوِطَاءِ الثَّانِيَةِ؟ مَا
الْفَضِيحَةُ الَّتِي لَا تَوَرَّقُ الْحَاضِرُ؟ مَا الْمَسَاءَلَةُ فِي شَأْنِ يَتَرَيْنُ لِلْمُسَاءَلَةِ؟ مَا
الْمُجَادَلَةُ؟ مَا الشَّجَارُ الصَّاحِبُ؟ مَا التَّوَاتُرُ؟ مَا الْحُمَى فَوْ. هَذَا كُلُّهُ؟
أَلَيْفَ مَا يَغْزَلُ الصَّبِيَّةُ الصَّاحِكُونَ؟

أَلَيْفَ مَنْ تَرَفُّ بِتَلَمُّسِ الْمَنْعُطِ بِمَرَاوِحِهِ . هُنَا مِثْلَمَا رَثَّةٌ تَنْفُثُ
الْجِدَالَ؟ أَلَيْفَ يَتَحَلَّقُ حَوْلَ أَطْفَالٍ يَسْأَلُونَ الْبَائِعَ ، بِنَقُودِهِمِ الذَّائِبَةِ ، فَتَوَى
الْجَلِيدِ ، فِي الْمَنْعُطِ الْأَوَّلِ ، شِمَالًا ، إِلَى سَوْرِ الْمَدْرَسَةِ؟

أَلَيْفَ أَحْمَقُ ، تَشْتَعُّ لِهَيْبَةِ الظَّهيرةِ والنَّوافذِ ؛
أَلَيْفَ كَالرَّهَانِ عَلَى غَامِضٍ ؛
أَلَيْفَ كَحَدِيدِ مُدَوَّرٍ ؛ كَسِيَّاجَاتٍ ؛ كَصِرَخَةٍ ؛
أَلَيْفَ فِي احْتِكَامِي إِلَيْهِ ، فِي اقْتِصَاصِي مِنْهُ ، وَشَكْوَايَ عَلَيْهِ .

بيني وبين الأليف ظلالٌ تشحذُ الحناجرَ للظلال .
بيني وبين الأليف بائعٌ مثلجاتٍ ، وياقوتٌ يتساقطُ حَبَّةً حَبَّةً من الخاتمِ
الأكبر لخليلتي التي بعثرتِ المكانَ .

في المنعطف الآخر أيضاً ، حيث يصل «أفروديتي ستريت»
بـ«أيوس بافلوس ستريت»

المدرسةُ ، هناك ، قاعةٌ بالذي لها : بالسياج ، وبالأطفال الذين فتحوا
ثغرةً في السياج ؛ ببائع الحلوى النعسان قرب الثغرة في السياج ؛ بطبعي
الخفي كَأَجَاصَةٍ مِنْ رَمَادٍ تَتَذَرَّدُ فتلتمُ في الثقلِ الأكبرِ لشجرةٍ مُتَهَتِّكَةٍ .
قاعةٌ

هي ،
وهي ، كمدرسةٍ ، لها سياجُها ، وأطفالُها ، وثغراتُ في السياجِ يعبرها
الغدُ الشرطيُّ بحقيقته الملائِ سياجاتٍ ، وأطفالاً ، ومدارسَ من رَمَادٍ
تَتَذَرَّدُ فتلتمُ في الثقلِ الشَّتيتِ لِأَيَّامِنَا .

هكذا ، إذاً ، في المنعطف ذاك ، نأخذُك الحكمةَ من مسائكٍ ، لنُدْخَلَ
شريداً إلى مسائها . هكذا ، إذاً ، غريقاً حتى رعبك في الوردِ ؛ غريقاً في
الهمهمةِ المدوِّيةِ لشجرةِ التينِ ، يسرقُك السياجُ بفخاخِ حُرِّيَّتِهِ .

وفي المنعطف ذاته ، الذي يصل شارع بيتك بآخر (أفروديتي - أيوس بافلوس) لا تُلْقِ بنظرتك على ابنة الجيران الواقعة تحت غمغمات روحها ، بل على المدرسة ، كأنما يستيقظ الغيبُ كُلُّه في يدك ، بدفاتره وحبره ؛ كأنما قدَّرَ يلقي بحقيقته عالياً فيتناثر الورق ، والأقلام الرصاص ، والمبراة ، والشتاء الذي تشمُّ في قدمه مشارب الألهة المكتوبة على قميص كهولتك ، المفتوح حتى آخر أزرار حماقتِه .

المنعطف الأول ، إلى جهتي

حين نحن ، طويلاً ، إلى المكان ، لا نَعُدُّ إليه .
حين نحن إليّ ، طويلاً ، اقتلني .

ماذا ينبغي عليّ لأشرح المسألة ؟

الملوكُ ذاهبونَ إلى نيسان ؛ الشعوبُ ذاهبةٌ إلى نيسان ، والأبد ، الذي انحسرت عن كتفيه عباءةٌ جدِّي ، ذاهبٌ ، معي ، إلى نيسان . نيسانُ ذاهبٌ معي . نيسانُ ذاهبٌ إلى أبوتِه ، وهو ينشرُ الودعَ على ما تبقى من جُشُور وهزائم تتلفعُ بالبطولة الماكرة .

وأنت ، الذي نحنُ إليّ طويلاً ، لا تقلْ لنيسانَ عنيّ ما يقوله الانينُ ، ولا تكشفني بحبي هذا ؛ بجسارتي المتناثرة هذه ، على البهو الذي تَرى في آخره سريري ، وتَرى الوَرْتَةَ يشقُّون الوسائدَ بحثاً عن مالمكي . ولا تحمّني بصرخة ، أو بحراب كالتي شحذت نصالها أراملُ الفجر ، بل أوصد الباب عليّ وعلى نعشي المرصع بفروج متلاثلة ، وأنصتْ من خلف الستارة تلك - ستارة المشيئة وعُمّالها المتشاجرين - إلى قناعي الذي أتركه على سريري ، وأصعدُ الأصيصَ النحاسَ ، الذي يتدلَّى من السقف ، مُلتجئاً

إلى حَرَمِ المَعْدِنِ وَأَزْرٍ نَقُوشِهِ .

ماذا ينبغي عليّ؟

ماذا ينبغي على المكان الذي لن تعود إليه؟

المنعطف الذي يصل سور «سباق الخليل» بآخر «أفروديتي ستريت»

الخوذة ذاتها تسقط ، من الشفق ذاته ، على حلبة «سباق الخيل» ،
قرب بيتك في «أيوس ديميتريوس» ، وأنت تهمسُ إلى الخوذة ذاتها ، وإلى
الشفق ذاته : إلهي ، بكيتُ كثيراً من أجلِ هذا العالم .

وستبكي كثيراً أيضاً ، على الجبهة ذاتها ، المهيأة منذ أزل عال كحذاء
فتاتك . وستبكي معك حجارة لم تحملها ، وبيوت استسلمت لقضاء
غضبان يضربُ بقفازهِ الأسمنتيّ غَدَكَ الغضبان . ستبكي نوافذ لم تنظر
منها إلى الحيرة المرتدية فُلُنْسُوءَ الطاهي ، وكذلك الأبوابُ وهي تَصْطَفِقُ
بذَنَعٍ من الأيدي المغسولة بظهيرِ سَكْرَى .

الخوذة ذاتها ، والبكاء ذاته .

الخوذة الخوذة ذاتها ، في حلبة «سباق الخيل» ،
يوماً بعد آخر ،

وغضباً في عقبِ غضبٍ .

معدنٌ سلكسبيلٌ ، ودفعٌ رَقَشَتُهُ أزاميلُ صغيرةٌ ، هنا ، حيث استطلع من

شرفتني أكمّامُ الوردِ في الحديقة ، وطيشَ الحكمةِ وراءَ السياجِ الأبعد ، في
انخفافِ أبعدَ مُدوّ ، يصلُ صرخاتِ المراهقينِ في حلبةِ «سباق الخيل»
بالأفقِ الخسران .

إلهي ، يَكَيْتُ كثيراً من أجل هذا العالم .

المنعطف ، في ما وراء المنعطفات المذكورة

بخيّالة من مذاهب الوردِ اقتحمُ هذه النظائرَ المكنونة ، وبأسرى ، ثمّ
تسلّوا إلى مرحي ، اتسلّل إلى سَكينةِ المرثي ، حصيناً بأقداريّ الخفيفة
وخطابي الخفيف ، فإن استعادني غدي مني فَلَيْسَتْ عِذْني حيران ، مطوّقاً
أُمسيّ الأنثى بحصافةِ الثّبات ، ولِيُطَبِّقَ على يديّ بقيدِ شفيف ، لرنين
خلاخيله قُرْج ، وأقواسُ قُرْج ، ومراتبُ في الصوتِ خفوتها تسبيح ،
واغتلاؤها مشارفُ يلقي أسراي منها عليّ فكاهة الغيب كلّهُ . فَلِيُطَبِّقَ على
يديّ بريش ، أو بصريّ من أفعالِ المديح ؛ وليكن ، كأيّ غدٍ ، مُغْلَقاً على
قناعهِ المضيء ، وصخبِ تجارته .

جليّ الغد ، كلّها ، هنا .

إصطرباًه ، أيضاً ، ومِسْحَاجُهُ .

وهو ، بأسلايه ، مشافهةً ، يتقاطِعُ والريحَ ، كأيّ لهُ جسارةٍ من رمالٍ ،
كأيّ بَذْخٍ ؛ كإطراءٍ يَكْاشِفُ الهوَاءُ به الهوَاءُ .

غدٌ يَكَلِّمُ الأشباحَ كما تَكَلِّمُ الملوكُ الملوكَ ، ليرجعني إلى غدي .

المنعطف الحادي عشر ، جنوباً ، إلى حاجز الجيش اليوناني ، في «أيوس بافلوس»

بشقة الحقيقة ، ولسانها ، يثرثر هذا السائر الترابي ، على مسمع من
الشاحنات المسرعة ، والنبات المسرع .

إحدى عشرة سنة ، بخودها ؛ بفتور خوذها ؛ بالفتور الأكمل لهياكل
عمارات مؤجلة ، يثرثر هذا السائر الترابي ، الذي لم ترتفع بناقض من
حولها ، بل نبات أسس الفتور الأكمل بحاسباته الرطبة ، متسلقاً الحذبات
إلى نظام الغيب المتعكر هناك .

سائر ترابي ،

وهذنة تقتفي الأثر الضائع لأرض ضائعة .

فإن مررت ، أيها الحليم كجزيرة تنفياً العابرين ، بالسائر الترابي ، في
المنعطف الحادي عشر ، جنوباً ، في «أيوس بافلوس» ، تذكر هدنة الورد ،
وحشود العنب ، ثم مل على العسكري المدجج بخفر ثيابه ، وقل : أسعدت
وقوفاً أيها المحارب ؛ أسعدت خوزة .

شفة الحقيقة ، ولسانها ، يحرّضانك على البعيد العاري خلف السائر
الترابي .

المنعطف المنسي ، هناك ، بعد العمارة الثالثة

ما ليقظة الحب هذه ، ما لانقاص تترافض طفلاً طفلاً في مراياي؟

فَلَامَتْ لِأَجْلِكَ . فَلَامَتْ . فَلَمِمتَ النهارُ لِأَجْلِكَ . فَلَمِمتَ الحيَّ بيتاً بيتاً لِأَجْلِكَ . فَلَمِمتَ الحديقةَ ، والمدرسةَ ، هناكَ . فَلَمِمتُ حَلِبةَ «سباق الخيل» ، والشارعَ المجاورَ ، ودكانَ مصفِّفةِ الشَّعْر ، والميكانيكيِّ الذي جمعَ في الساحةِ هياكلَ المركباتِ ، كأنَّما يهَيِّئُ للقيامَةِ عجالاتٍ من مطاطٍ ، ومصابيحَ مَكسورةٍ ، ومقاوِدَ لَا تديرُها الأيدي . فَلَمِمتُ لِأَجْلِكَ العراءَ الَّذي يجاورُ بيتَ العجوزينَ ، هناكَ ، إذ لَا يُشغِلانِ أحداً بلعينتهما في الموتِ السكرانِ لضجرجِ سكرانٍ . فَلَمِمتُ هَيْكَلُ العِمارةِ الجديدةِ ، ودراجةَ شرطيِّ المرورِ الناريةِ ، وسَلالمَ بيتهِ . فَلَمِمتُ شَجيرةَ الحبقِ ، والأصصَ الأخرى ، المترصَّةَ على السورِ الاسمنتيِّ الواطيءِ . فَلَمِمتُ الخيلَ التي تُرى أَذْيالُها القصيرةُ من خَلَلِ الشجرِ المقامرِ بأشكاله . فَلَمِمتُ الهرةَ الشريفةَ ، والشَّقَقُ التي افتتحتها «الإخوةُ الماسونيون» لَصَقَ سورنا الغربيِّ . فَلَمِمتُ محلَّ بائعِ الثلجياتِ لِأَجْلِكَ ؛ فَلَمِمتُ صَحْفَهَ المعروضةَ في الواجهةِ . فَلَمِمتُ أحذيةَ الفتياتِ ، بنقرها المتدرِّجِ تحتِ ثِقَلِ الأفخاذِ المليئةِ العاريةِ ؛ فَلَمِمتُ شفاههنَّ التي تتلألأُ عليها بقيةُ البقيةِ . فَلَمِمتُ لِأَجْلِكَ ما نسيَتْ من مشاغلِ الحَمَامِ في أَقفاصِهـِ . فَلَمِمتُ شَجيرةَ الفلفلِ التي أَحَبَّها .

فَلَمِمتُ لِأَجْلِكَ ما تريدُ أَنْ يموتَ ،
ولتعموتي ، أيضاً ، لَا كَتَبَ ما تَبَقَى .

المنعطف الذي يصل «تشرشل ستريت»
بـ«نافارينو ستريت»

الصناديق في كل مكان . رافعاتُ من مكائدِ الحقولِ ترفعُ التُّخمةَ كغمامةٍ فوقِ الصناديقِ المتناثرةِ في كلِّ مكانٍ ، حيثُ تغزو «التعاونية

الاستهلاكية» رصيف الشارع ببطيخها ، وقُنيبطها ، وخسها ، وبازلاتها ،
وكرّفسها ، وقثائها ، وقوارير الغاز ، أيضاً ، المقيدة بسلاسل ، إحداها إلى
الأخرى ، كأسرى حرب في الجهة الثانية من ظلالنا .
... والنساء يحتشدن ؛

الفاكهة تحتشد ،

والفضول الأبيكم لغبار الرصيف .

خُذ ما تشاء

رخص هذا ، ورخص ما يجاوره .

وتذكر رصيدك في البنك الذي يكاد يتصل بناؤه به التعاونية
الإستهلاكية ، ففي ذلك ما يشغلك عن صباح مهزوم أمام ظهيرة
مهزومة . ولا تنس الليل الذي سينزل ثقبلاً ، كأنما يهبط من شجرة
الكستناء ، بصيارفته الغامضين ، وجرائه المغسولة ثوباء فاتر ؛ ثقبلاً
سينزل على سطح بيتك ، وسطح المبنى الذي يجاور بيتك ، وسطح ما
تبقى من عالم مسقوف بمأتم مغرورة كعينيك .

الصناديق في كل مكان : عنب ورعب . غد ويقطين . هزعة وجرجير .
والنعمه ، التي تتوسل إلى المارة ، بطاستها التوتياء ، تغمر بعينيها ، كأنما
تمتحن المكان بعث كالأذهب .

المنعطف الأول ، شرقاً ، إلى المدرسة

في «ايوس ديميتيوس»

إن سألت يا بيتي ، الذي ليس لي ، عن سكنى كشيخف اللهب
بنسله ، فلا تُقسمن جوابي بينك وبين الحاضر المتسول تحت النافذة

الجنوبية ، حيثُ العداؤون بقرون عظيمة لحيوانات الفجر . بل امتحنُ
أبوابك ، ووجدراك المتأبّطة حجارَتها الرحيمة ، وتخلُغ قليلاً لتتذكركُ
أرضكُ المنسية في جمالِها المنسيّ .

وبإذن منك ، وباعتذار خجول ، يا بيتي الذي ليس لي ، سأدلقُ الحَيَّ
من قارورتِي ، شجراً ، وسياجاً ، وحمماً في الأقفاس ، وأطفالاً
صاخبين ، وورداً ، وقبيلات لا تصلُ ، وهريرَ آلاتٍ لم تُفطِمْ جِراءَ حديدِها
بعدُ ، وضُحىَ خيولٍ في مرانٍ عذوها بُكُوراً لسبتٍ آخر ، في حلبةٍ «سباقِ
الخيول» ذاتِها ، لصقِ السياجِ غير البعيد ذاتِه ، الذي أراه من حديقتي .

آه يا بيتي الذي ليس لي ،
أنتَ لست لي .

كذا عليكُ أن تهمسَ صراخكُ ، فالمكانُ ليسَ لكُ . السياجُ ،
والشارعُ ، والزهرُ البريُّ اليابسُ ، في العراء المنظور ، ليسَ لكُ . المديحُ
وأنقاضُه كذا ، والمتبَارِكُ من غُثم . رديفكُ المُسمَى . لجلجَلَةُ الحطامِ بين
يديكُ كذا ، وكذا غَلَمَةُ الشفقِ العريسِ وخطافاتُ ذكُورَتِه .

هيىءُ لي ، إذأ ، يا بيتُ ، نعمةَ عبوري بكِ إلى ما ليسَ لي .

المنعطف الذي يحجبه الشجر ،
في الجهة الغربية من حديقة جاري

رخيمٌ هذا البرقُ كقُبُعَاتٍ تُرمى من شُرُفاتِ الفراغ . وبِي ، أنا الذي

يرى ثِقَلَ صباحهِ المُتَشَدِّ ، هيامُ نباتٍ ، وأزيرُ الطَّلَقَةِ التي تُضَرِّمُ الحروبَ .

وبي ،

أيضاً ،

تَرْفُ غنيٌّ عن تعريفهِ كُلِّبَةِ طفلة ؛

بي حذاقةُ الشارع الذي يجاورُ البَيْتَ ،

ووضوحُ الصُّخْبِ في قُبلة خفية .

لكنني ، بهجمة كالصباح ، وشؤون منسوجة كشجرة اللوباء ، أحيطُ

بنفسي ، وأحيطُ بالذهب الذي يسمِّي لسانِي لساناً ، وكلامي رنيناً من

رنين المعدن ، حتى إذا تساوت الشبهَةُ والقَدَرُ كسوتُ الغدَ باطناً من

جماد ، مُرجئاً ثِقَلَ الورد إلى فراغٍ آخر .

وأرجىءُ شؤني أيضاً ، ناظراً إلى ذلك العجوز الذي لا يشغلُ أحداً

بلعبته . هو ، وزوجهُ ، أبدأ ، في الحديقة الميتة ؛ في الموتِ السكرانِ لصجيرِ

سكران . ولربما هتفتُ : قليلُ سيمضي معي إلى مثواي ، قليلُ سيمضي

معهما إلى مثاهما .

... والحديقةُ ستمضي ، السياجُ ، وأعمدةُ الكهرباء ، وزجاجُ الواجهةِ

في مَشْغَلِ النجارةِ قربَ البيتِ ، وحلبةُ «سباق الخيل» ، والخيلُ ،

والمنتظرون ، بأوراقهم ، ظهيرة السبت ، ليهتفوا هتافهم الرتيبَ في رهانٍ

رتيب ؛ كلُّهم سيمضون إلى الغامرِ المُدَقِّقِ ، كشرطي ، في أرواحهم

المُرْتَجَلَةُ .

سأرجىءُ شؤني ،

سأرجىءُ ثِقَلَ الوردِ إلى فراغٍ آخر .

كمائث في المنعطفات كلّها / ختاماً ما - سهم

اللبوة الذهبية تصعدُ بجرائنها الملهاة هضبةً هضبةً ، والشهودُ المتكثرون ،
بمعاطفهم الترابية ، على سور أقدارنا ، يُقْلَمُونَ أظافرهم في إهمالٍ ، غير
عابئين بالجسارات الكبرى ، والعظام التي تتنادى إلى بيعةٍ تحت القمرِ
الأدمي .

والمكانُ يصعدُ الملهاة بحقيقة الغبار ، درجةً درجةً ، وسط تيجانٍ
مُهْمَلَةٍ ، وشموسٍ يلغها الهاربون . أمّا الخيالةُ المقبلون من فراغٍ آخر ،
حاضنين جماجمهم ، فيحارون قليلاً في تصنيف المشهد . غير أنهم ،
بإيحاء واحدة ، يصعدون الملهاة ، أيضاً ، تتقدمهم كلبةُ الفتنةِ بأداءٍ لم يزل
على حلماتها أثرٌ من لعاب الملوك .

هكذا يترصدُ المشهدُ ذاته من مشارف الحقيقة ؛
هكذا يكتملُ المنذورُ .

وأنتم ، إخوتي الجالسون في نفق البلاغة ، هناك ، ناسين أن تسردوا
لي غمرةَ الحكاية ، وانقسامَ الرّواة ، لا تنتظروا أكثر ، لا تنتظروا أن ينسى
المشهدُ فضولكم فيختزل القتلى ، وأن تتبادلَ السماواتُ المهشمةُ مفاتيحها
المهشمة . وباليد اللدنة كَشَفَافَةٌ تسرقُ القُمَرَات ، تلمسُ عذابَ الماءِ ،
واتخذوني شفيعاً لدى المغيبِ يُغويهِ الأكيدُ فيتبعثرُ خطابهُ .

ليس لي غير هذا ،

ليس لإخوتي غير هذا ،

فإنَّ بَصْمَنَ الحجرِ كثيفهُ المَهْرَقَ ضَمَنَّا الأقفالَ الرقيقة كنداءٍ ، مُقدِّمينَ

على شُكْرٍ تنسربُ من خُرُومِهِ المَآذِنُ والسُروجُ . وبطشاً إثرَ بطشٍ سَتَلَهُمُ
الروحُ نَشْرَهَا الأَجْمَلَ ، دونَ أنْ نُعلنَ في الشهودِ - المتأبطين محاورات
الهياكل ، وظلالها ، والمغيّب الذي يصعدُ الهياكلَ وظلالها إلى ملهاته
المُعَادَةِ - سِحْرَ الكلامِ في انكساره كُلِّما استَلَهُمُ المُعَادَةُ الفَرَحَان .

ليس لنا غير هذا الذهبي*

ليس لنا غير هذا المشهد

والأكيدُ لبوةٌ تتقدّمُ ، بجرائها ، عربةَ الغبار .

نيقوسيا - ١٩٨٥

لِيَكُنْ لِي اقْتِدَارٌ بِبِغَاءٍ حَتَّى أَرُدَّ الْأَرْضَ . لِيَكُنْ لِي وَعْدُ الْوَرْدِ لِلْوَرْدِ .
لِيَكُنْ لِي الْأَلْقُ هَذَا ، الْمَقْوُذُ بِكَلْبٍ وَاحِدٍ وَنِعَامَةٍ وَاحِدَةٍ . لِيَكُنْ لِي مَا نَسِبُهُ
الْمُتَحَنُّونَ عَلَى الْأَفْقِ - الْفَقِيدِ . وَلَا كُنْ هُنَاكَ ، فِي اللَّعْبَةِ الَّتِي يَعْتَرِفُ فِيهَا
الدَّمُ عَلَى حَوَاتِهِ ، فَأَنَا فِي مَسْتَطَاعِي أَنْ ادْلُكُمُ عَلَى عَرِينٍ ذَهَبِي يُغْوِي
الْبِرَاعِمَ ، فَابْدَأُوا بِي ؛ اِبْدَأُوا الْغَمَرَ الَّذِي نَرَفَعُ فِي طِينِهِ الْحَيَّ رِيحاً تَلْمَسُ
الشَّفَقَ بِأَيْدَائِهَا ، وَابْتَسِمُوا ، قَلِيلاً ، إِذْ يَدْخُلُ الْكَمَالُ ، كَالْبِسْتَانِي ، إِلَى
نَشِيدِنَا ؛ ابْتَسِمُوا إِذْ أَكْمَلُ انْكَسَارِي بِالْمَشْيَةِ الَّتِي تَنْكِيءُ عَلَى الْعِظَامِ .
وَبِي يَتَوَعَّدُ الْوَرْدُ الْوَرْدَ .

بِي يَنْذِرُ الْمَكَانَ الْمَكَانَ ،
كَأَنَّ أَبَاطِرَهُ سَيَمْتَحِنُونَ مَا هَيُّتُوا لَهُ .

وَالَّذِي حَوْلِي هُوَ حَوْلِي : أَسْلَافٌ يَهْيِثُونَ مَشْبِئَةً أُخْرَى بِأَلَانِهِمْ
الصِّلْدَةِ ، إِذْ أَرَاهُمْ ، مِنْ هُنَا ، تَحْتَ الظِّلِّ الْأَكْبَرَ لِحَنَاحِي الْبَازِ الْأَكْبَرَ ،
يَتَخَاطَرُونَ كَهَرَانِيسِ الذَّرَّةِ ، وَالْغَدُّ الْمُخْتَلَسُ يُرِيهِمْ مَا أَرِيهِمْ أَنَا مِنْ مَطَالَعِ
خَالَتِ حَوَاشِيهَا يَنْفُخُ يُوْرْثُ الرُّوحَ اخْتِلَافَهَا .
. . وَالْوَرْدُ يَتَوَعَّدُ الْوَرْدَ ،

كَأَنَّ الْمَوْتَ ضَالَعٌ فِي اخْتِلَاقِ الْحَيِّ أَشْبَاهَهُ الْحَيَّةِ ؛
كَأَنَّ سَهْرَ بَلِيغٍ يُعْمَلِي عَلَى النَّوْمِ ، بِشَفَاءِ أَلْفِ ، رَنِينِ النَّجَّاحِ الَّذِي هُوَ .
فَمَا الَّذِي يَدُونُ الْمَدُونُ أَنَّ يَخْتَلِقُ الْيَأْسَ ، كَالْحَيِّ ، أَشْبَاهَهُ الْمَرْحُحِينَ ؟

بي ينذرُ المكانَ المكانَ ،
والمرابيُّ الورْدُ يتوَعَّدُ الورْدَ ،
فاحذروني

لا بسيوفِ نِواخي النِّعمة ؛ لا بالصدى ذاكَ ، المُفسِّرِ كِراوِ ضجران ؛
احذروني بالأبقى ،

احذروني بالمصادفةِ الثقيلةِ كردفِ الحمار ؛
ولتَأْسِ الحيلةُ إلى الحيلةِ أَنْ يَسْكُنَ العَرَضُ إلى شمولهِ ، فالذي
يُبقيني هكذا ، مرمى تسدُّ الحقيقةُ سهامها المكسورةَ إليه ، هو ذاته الذي
يُبقي الفاجعَ المتألقَ في الدَّمِ المتألقِ ، لا بِحِيْطَةٍ تذكركم بالصدى المُفسِّرِ ،
أو بالقطيعةِ المشغولةِ من كثيفِ يُروى ، بل من تهافتِ الفاني على سِخْرِهِ .
كلُّ هذا مدخلي إليكم بالبرمِ المُتَدَحِّجِ ، لا كَتَبَ الورقةَ الأولى ،
المسطرةَ بحشدِ مُدَاهِنٍ ؛ لا عبثَ بالورقةِ الأولى عبثَ المؤرخِ يُخيي بهلولةَ
الأعمى ؛ لا ريكَمَ ما تروئهُ ، بسيطاً حَيّاً ، يُروى بكلامِ محبوسَةٍ من مَرَاتِبِ
المُشْكِـلِ ، لكنه نذيرُ الخِزَنَةِ الضالعينِ في تدبيرِ الرُّهَانِ الذَّهَبِيِّ
الذهبيِّ

الذهبيِّ

الذهبيِّ ،

في أن يرققُ الأَرغفةَ ،

متلماً حطامَ الجهاتِ بلسانهِ السَّمْأَقِ .

والحقيقةُ ترققُ أرغفتها ، أيضاً ،
وفي تحفرُ ، عميقاً ، ذلكَ الأخدودَ المعدنيَّ لُخْتَفْسَانِها .
لكن البقاءَ الذي يمشي الحيدى ، وسطَ فلولهِ المضرجةِ بِأكِيدِ

كالْحُمَاضِ ، يلجُمُ الصَّرْخَةُ الْآتِيَةُ مِنْ هُنَاكَ ؛ مِنْ الْمَشْكِْلِ الْمَثْرَنِ إِذِ الْهَبَاءُ
يَقْايِضُ الرُّسُلَ بِالْجُبَاةِ ، وَتَرَوْضُ الْكِتَابَةُ الْكُتْبَةَ بِالْفِرَوقِ ذَاتِهَا ، الْمَجْلُوءِ
كَمَا يَأِي يَكْلُمُ الْغَدَّ فِيهَا وَسَيْطَهُ الْمُفْتَضَحَ .

وَالذَّهْبِيُّ ذَهَبِيٌّ :
رَضْفَةُ ذَهَبِيَّةٌ . غَضَارِيفُ ذَهَبِيَّةٌ .
فَجَاءَةُ ذَهَبِيَّةٌ . تَرْقُوءَةُ ذَهَبِيَّةٌ .
وَجَنَّةُ ذَهَبِيَّةٌ . صُدْعُ ذَهَبِيَّةٌ .
حَرْقَدَةُ ذَهَبِيَّةٌ . عَضْدُ ذَهَبِيٌّ .
قُدَّالُ ذَهَبِيٌّ . حَقْوُ ذَهَبِيٌّ .
صَفَنُ ذَهَبِيٌّ .
عَقَبُ وَفَكُّ ذَهَبِيَّانِ .
مَشَارِفُ ذَهَبِيَّةٌ ،
وَنَسْلُ يَكْمُنُ لِلْمَعْجَزَةِ بِسَهَامِ الذَّهَبِ .

هَكَذَا الذَّهَبِيُّ الْمُفْتَضَحُ كَقِيَامَةِ تَتَاطَوُلُ عَلَى التَّدْبِيرِ .
هَكَذَا الْمَلَّلُ الْحَرْدُ وَهُوَ يَجْرُ الْكَمَالُ إِلَى سَعَاتِهِ .

فَلْيَبْقَ مَعِيَ الْبَاقِي .
لِيَبْقَ الْمُنْخَنُ بِالْبِدَاهَةِ النَّحِيلَةَ كَصَدِيقِ نَحِيلِ .
وَلْيَبْقَ الطَّرْفَاتُ الْكَثِيرَةُ عَلَى الْبَابِ ، فَحَسْبُكَ ، وَأَنْتَ تَفْتَحُ ، تَفْتَحُ
لِبُرَاقِ الْكَدِيدَةِ الْعَذِيَّةِ ، بِأَعْضَانِكَ الَّتِي تَتَهَاوَى شَفَقًا شَفَقًا ، كَأَنَّمَا أَنْذَرْنَاكَ
الْأَرْضَ لِلْبَسَالَةِ ، وَأَغْضَى عَنْكَ الْمَوْتَ فَأَنْتَ تَسْتَوْفِي حَيْطَتَكَ بِحَرَسِ
مَذْهُولِينَ . لِيَبْقَ الْبَاقِي . لِيَبْقَ الَّذِي تَنْتَظِرِيهِ ، أَنْتِ ، يَتُّهَا الْمَتْرَسَلَةُ مِثْلُ

الدُّلْبَ إِلَى الْأَعَالِي الشَّعْشَاءِ . لِيَبْقَ الَّذِي تَنْتَظِرُهُ يَدَاكَ ، لِيَتَبَقَ الْأَقْدَارُ
بِحُرُوفٍ لَمْ يُعَمَّقْ حَقَرُهَا عَلَى الصَّفِيحِ الْمُهِبِّ لِأَزَامِيلِ الْعَبَثِ الشَّقَرَاءِ .

أَتَمْنَحُ الْبَقِيَّةَ بِكَ؟

أَتَمْنَحُ بِكَ الصَّخْبَ الْحَشَنَ كَذَهُولِ أَبٍ يُقَادُ إِلَى مَقْتَلِهِ؟

هِيَ فِدَاةٌ تَحْزَمُ الْغِيَاهِبَ ، وَالْعَنْبُ يَتَحَرَّى اللَّمَسَةَ الَّتِي نَسِيَتْهَا فَوْقَ

يَدِي .

غَيْرَ أَنِّي إِنْ ذَكَرْتُكَ ذَكَرْتُ الْجَدَالَ بَيْنَ الْمِيَاهِ وَالْأَلْقِ ،

وَتَحَيَّنْتُ الَّذِي أَنَا فِيهِ ، بَعْدَ أَنْ يَكَادُ يَمْضِي بِخَطَاطِيفِ الَّذِي مَضَى ؛

وَتَحَيَّنْتُ الْأَلِيفَ فِي قَدُومِهِ الثَّقِيلِ بِأَثْدَانِهِ الثَّقِيلَةِ ، مَوْسُأً كَرَمَادٍ سَاحِرٍ

إِلَيْكُمْ ؛ إِلَى الْفِرَاقِ الْمُعْلَقِ مِنْ رَتْنِيهِ إِلَى شَجَرَةِ الثَّيْنِ ، هُنَاكَ ، حَيْثُ الرَّمَاةُ

الْمُتَالِفُونَ ، وَالشَّعَالِبُ النَّائِمَةُ فِي الْيَوَاقِيَتِ ، وَالْعِدَاوُونَ مِنْ نَزَعٍ إِلَى نَزَعٍ ؛

حَيْثُ الْأَسْرَى الْمُوثَقُونَ بِسُيُورِ الْمَرْحِ ؛ حَيْثُ الْحِكَايَةُ كُلُّهَا ، الْمُتَقَيِّئَةُ ، فِي

فَرْعٍ ، إِلَى سَاقِ الدُّلْبُوثِ .

لِيَبْقَ مَعِيَ الْبَاقِي ، إِذَا ،

حَتَّى أَرِيكُمْ تُبَوِّسَ الرِّسَالَةَ الَّتِي يَبْلُغُهَا الْأَكِيدُ إِلَى الْأَكِيدِ ؛

لَأَرِيكُمْ النُّبُوَّةَ الْمُسَلَّقَةَ ، كَاللَّبْلَابِ ، أَبْهَاءَ الْإِسْمَنْتِ ، ضَاحِكاً مِنْ

الْمَوْعِدِ الْمُغْلَنِ لِلْقَادِمِينَ بِأَسْرَارِهِمْ إِلَى الْمَلْهَةِ .

وَبِي ، أَوْ بِكَ (لَا فَرْقَ) سَامَتْحُنُ السَّكِينَةَ الْمُتَكَبِّةَ ، هُنَا ، بِأَمْشَاطِهَا

عَلَى تَسْرِيحِ الْفَاجِعِ ذِي الذُّوَابَاتِ ، مَتَمَتِّمَةً مَا يَتَمَتَّمُهُ الْمَأْمُولُ الْمَطْوُوقُ

بِالْفَضِيحَةِ أَمَامَ بَوَايَةِ اللَّهِ ، سَكَرَاناً مَا يُشْغَلُنِي بِهِ الْقَدِيمُ الْقَدِيمُ ، كَأَنَّنِي

بِكَ ، أَوْ بِي ، سَامَهُدُ الْفَجَاءَةَ لِأَسْتَرْسَالِهَا حَتَّى يُلْهَجَ الزَّرْعُفَرَانُ بِأَسْمَاءِ

الرَّيْحِ ، وَيَهْدِي النُّحَامَ جَنَاحِيهِ إِلَى الْخَزَامَى . مُتَفَكِّراً بِالتَّفَكُّرِ فِي ، يَصْلُنِي

الْخَشْخَاشُ بِبَقِيَّتِهِ ، وَيَزَاحِمُ الْحَزْدُلُ بِأَعْضَائِي مَا يَزَاحِمُهُ . وَالْبَقِيَّةُ؟ بِكَ ، أَوْ

بي ، لا فرق : يُنْبِئُنَا الْعَدَمَ عنه إذا يَمِيلُ إلى عُزْلَةٍ ، وتَلَكَّا الدَّرَّةَ في سَرْدِنَا على الظلال . بَلَّهَ يَقُومُ الْبِنْفَسُجُ بتوضيح ما خفي مِنَّا ، وَيَوْمُ بِنَا الْعُلَيْقُ الْبَطْرَانِ أَلْفَهُ الدَّقِين . والبسقية؟ للقرنفل شَكُهُ . للتوت شَكُهُ . للْقَنْبِ ، لِلْحَبُوبِ ، لِلدَّقِرَانِ ، لِلتَّنُوبِ وَالْجُرَيْسِ ، لَنَا ، لِلْيَحْمُورِ النَّازِفِ على حجارة النبع ، لِلْقِيَامَةِ التي تنهتْ بِأَفْنَعْتِهَا الْقَطَانِيَّةِ ، لِلدَّعَامِصِ الطَافِيَةِ على الماء ، لِلتَّبُولَا ، لِلطَّائِرِ السَّاهِرِ على الكلمة ، الْقَوِي الْحَجُولِ ، لِلْبَوَاقِ ذِي التَّفْنِخِ الْمَالِحِ ، لِلْبَقْسِ ، لِلتَّنُوبِ ، لِلْجَاوِزِ ، لِلْحَنْدَقِ الْهَازِي ، لِلْفَجْرِ الَّذِي يَتَلَوَّى كَالصَّلَاةِ قَرِبَ النِّعْمَةِ ، لِلْبَلَاذِرِ ، لِلْكَتَانِ ، لِلْيَقِينِ الرَّكَضِ بِجَلَا جَلِ الْفَرَاغِ ، لِلْغَدِ شُكُوكُهُ .

هَكَذَا : شُكُوكُ عَلَى مَرْمَى الْفَهْقَةِ ؛

شُكُوكُ عَلَى مَرْمَى الذَّهَبِ .

وَنَحْنُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ : أَسْرَانِ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَتَوَسَّدُنَا عَاصِفَةٌ عَاصِفَةٌ ، وَإِذْ نُدْعَى نَكْنُ الْإِطَالَةِ فِي انْقِلَابِ الْمَشْكِلِ إِلَى انْتِصَاحِهِ الْمَشْكِلِ .
وَالْبَقِيَّةُ؟ هَكَذَا : تَشْمُ الْأَرْضُ ظُلْمًا ، مَتَعَرِّفَةٌ إِلَى أَثَارِنَا فِيهِ . فَأَيُّ احْتِدَامٍ لِلْمِيَاهِ يَشْغَلُ الْبَقِيَّةُ؟ أَيْ بُرْدِي يُغْوِي الْخُلُودَ الْأَحْمَقَ؟ فِي حُبِّ صَاعِدٍ أَدْرَاجَةً سَنَهْمُسُ إِلَيْكُمْ بِالْكَلامِ الْبَاقِي لِشَفِيعِنَا ؛ سَنَهْمُسُ الْمَدِينَةِ ، رَاكِنِينَ إِلَى التَّكْوِيرِ الَّذِي يَجْعَلُ الْأَبْعَدَ نُزُلًا ، وَالنَّهَاجَةَ حِيلَةً مِنْ حَيْلِ الْعِيَارِينَ . وَكَمَا يَتَقَنَّ الْمَعْلُومُ نَسْجَ فَتَنَتِهِ تَتَقَنَّ التَّرْوِيجَ عَنِ الْأَزَلِ الْقِرَانِ بِالْأَقَاصِيصِ الَّتِي تَتَبَرَّجُ بِطَحْنِهَا . وَبِي ، أَوْ بِكَ (لَا فَرْقَ) سَنُؤَخِّرُ - بِمَا فِي صَلَاسَاتِنَا مِنْ حَوَاةٍ - دُخُولَ الرَّمَادِ ، الْمَتَبَرِّمِ مِنْ مُنْشِدِهِ ، إِلَى مَهَبَّتِنَا . سَنَتَغَامَرُ ، مَتَمَتِّمِينَ : « كَشِيفٌ يَسْتَدْرَجُ الْكَثِيفَ . حَبِيرٌ يَهْرِقُ الْفَضَاءَ » . وَإِذْ نَسْتَفِيزُ فِي تَدْوِيرِ الْأَمْرِ ، كَمَا يُدَوِّرُ الْمُحْكَنُ فَعَالِيَّاتِهِ ، نَجْعَلُ الْبَقْسَ كَنَايَةً

النهار المتأنيء ، والعصيفَ رطانة الشكل . لا . ثم دفران يدور المشكل
 النباتي أيضا . ثمت بغام حول البيان ، وحيوت يتقدم الأحناس الرقيقة ،
 كعذر رقيق ، إلى كمين المبتدأ . ثمت إطناب من السحر في التذكير
 بشعاعاته التي تُفايض الريح بالريح . ونحن على ما نحن فيه : فتوى من
 النخل تُقسّم الرغيف المحترق بين الأسرى .

برتقال ، إذا ،

برتقال هناك .

ترنج وعرعر .

حُمحم رقيق ،

بن وتفاح ،

عرين من المرجان ،

همس يبهرم الأنامل المظلة ،

فجاءة كالقنب ،

فجاءة كالقينة ،

فجاءة مفرّاح ،

فجاءة كبصل الفأر ،

كالموقد ،

كالبهرامان ،

كالذهلية ،

كخفير ؛

فجاءة هناك ،

ونقل ،

وخبازي ،

وَجُلَيْتَانِ ،
 وَأَكَاسِرَةٌ يَضْرِبُونَ الْخِيَامَ قَرَبَ الْحَقِيقَةِ ،
 وَقَسَمَ مَرْفُوعٌ مِنَ الْأُمَمَةِ كُلِّهَا لَتُبْعَثِرَنَّ الْخَفِيُّ .
 إِذَنْ ، هُنَاكَ الَّذِي هُنَاكَ :
 هَبَّارٌ يَقْفِرُ مِنْ أَثَرِ اللَّهِ إِلَى أَثَرِ اللَّهِ .
 وَنَحْنُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ : أَسْرَانُ بِالشُّبَاكِ الْمَقْطَعَةِ مِنْ تَرْقِ جَمَالِهَا ،
 فَلَا يَنْتَظِرُنَا أَحَدٌ ؛
 لَا يَنْتَظِرُنَا أَحَدٌ .
 وَلَا يَنْشَغَلُنُ الْهَوَاءُ بِوَسِيطِهِ التَّائِهِ فِي الْجَمَادِ ،
 فَالْمَكَانُ وَاحِدٌ ،
 وَالْأَنِينُ وَاحِدٌ ،
 وَالرُّثَّةُ الَّتِي تَنْفُخُ زَفِيرَهَا الْمُتَعَدِّ رُثَّةً وَاحِدَةً .
 لَكِنَّا نَرْنُو إِلَيْكُمْ بِالشَّهِيْقِ الْأَعْلَى فِي الرِّثَاتِ ؛
 إِلَيْكُمْ ،
 أَنْتُمْ الْمُتَّصِلِينَ بِالْمُغْضَلِ الْمُوَحَّدِ ،
 كَأَنَّمَا نَوْسُطُ الْجَمَادَ فِي قَرْيُظٍ سَيِّئَتَلَى ،
 أَوْ نَرُدُّ الْبَيَانَ ذَاكَ ، الْمَشْغُولَ بِقَلَمٍ ذِي صَرِيرِ .

أَهْنَاكَ ، إِذَا ، غَيْرُ الَّذِي هُنَاكَ ؟
 يُعَادُ الْبِرْقُ إِلَيْكَ ؛
 تُعَادُ الْهَيْبَةُ الْمُتَمَلِّمَةُ ، كَالْتَّمْرِ ، إِلَيْكَ ؛
 تَعَادُ ، أَنْتَ ، إِلَيْكَ ، مُمَهَّدًا كَتَاكِيفَ يَنْجِزُهَا خَلْقُ أَعْمَى .
 وَأَنْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ .
 تَحْلُجُ الْبِرَاهِمِينَ ، مَدَاهِمًا مَا يَلِيكَ ، وَمَا يَسْبِقُكَ ، بِمَطَرٍ مَغْسُولٍ وَشَهْوَةٍ

مغسولة ، فارجل قليلاً ، بك أو بها ، قصد المكان ، وحُذ متاعك المُبَغْتَر بين
الأقفال .

وامسح ، بأنامل من غَلَبَةٍ ، ذلك الغبار الرقيق عن عانة النهاية ، ثم
اهدأ :

بك ، أو بها (لا فرق) ستعظم العجلة حُمى مَرَحها ، وستختلفان ،
ببطش الحقيقة التي جعلتكما اثنين ، فيميل أحدكما إلى عَرَض والآخر
إلى عَرَضٍ ، متوازنين في مدى الألم ذاته ، الذي يَعِدُّ الجواهر بخزائن
منهوبة .

وكذا أنت ،
يُعَادُ البرق إليك ؛
تُعَادُ الهبة المتململة ، كالسُنْجَاب ، إليك ؛
تُعَادِين ، أنت ، إليك ، مرتعدة من رَحَى النعمة التي تطحن
الأعراس .

وأنت على ما أنت عليه :
تضربين الخافعة بمراوح الأنثوي ، مُنْسَلَةً كَوَسْوَسَةِ الحلي إلى المُشْتَهَى ،
فارجلتي قليلاً ، بك أو به ، ما يُسْطَرُّ الموت على العظام الكبيرة ؛ ارتجلتيه ،
هو ، نخاعاً نخاعاً ؛ وارجلتهم جَمَهَرَةً جَمَهَرَةً ، إذ يبائعون غَدَهم بالأساير
المُتَقَنَّة لِقَتْلِ مُتَقَنٍ .

أهناك ، إذاً ، غير ما هناك ؟
أفرق أكثر مما تنسج الفروق الكسولة ؟

يا أنتما ، أيها العابشان كَعْلِم ، اتركنا وشأن الفراغ هذا ، الأسير

كالفكاهة ؛ اتركوا الوحدة تتأمل الخرزة الثقيلة في العقد الثقيل ، وأنحدراً
 يخالب الفجاءة وزينتها إلى السطر الأشد ملأ في اللوح الذي تغمضان
 عيونكم عليه ، هناك ، في الفروق الذهبية للظلام .
 واشهدا أننا نقضم الثمرة الأخيرة ، قبل انحدارنا - مثلكم - إلى أزل
 النور الأعمى .

أثمنت وجد آخر يدل المكان على أباريقنا؟

ذهبي ،

ذ

هـ

بـ

ي هذا الرهان ،

والخرزة يتدبرون خصومة الروح .

انتقام

أ

المعاطفُ كُلُّها هناك .

الرياحُ كُلُّها هناك .

الخطى الغائصةُ في الثلج ، والثلجُ كُلُّه هناك .

القناديلُ ، والبيوتُ ، والأشباحُ الأخيرةُ ، كُلُّها هناك .

فاجمعُ يديك الأليفتين ما تتسعان من كمالٍ ،

واجتهدُ أن يكونَ المشهدُ صدكُ الأليف .

ب

بَرَمَ كطبائع الصَّبَاحات يُشغِلُ القادمينَ إلى نهايتي ، وأنا ، في نَزْعِي

تحت الشِّبَاك الكبيرة ، أعلّقُ المكان - كسراويلٍ سجينٍ - على الحبلِ ذاكُ ،

الرفيقِ ، الممتدُّ من أوّلِ الملهاةِ إلى أنينكم .

ج

وَفَرَّةُ الهباءِ أنا ، والمشيئةُ ظني .

د

الغضبُ إشارةُ الليل ، والماءُ فكرةٌ تتقدّمُ كمالها .

كحذاء يلتصع صباغهُ ،
كمقبض باب من نيكُلٍ :
هكذا صرختك .

مفردات

النهار : غضبٌ يتخفى في قناع الهواء .
الرييح : خطوة الكلمة في اتجاه سرها .
الصوت : خراب الشكل .
الحثين : ذهب منشور على مخمل النهاية .
الفضاء : مشكل الضوء .
العدم : فكاكة الظلال في مجلسها المضجر .
الكتابة : بطش يمتحن المنسي .
الرقم : حصيلة العبث .
الشمر : برهان الشجرة على ماضٍ يضل كل برهان .
القناع : أنين الظاهر .
المسافة : لهات معاد .
الأکید : قمتة في الجهة الأخرى .
القيامة : طفولة تؤكد العقل .
الذهب : عراقٌ في خان .
الحياة : طلقة من ذهب ،
أما أنت ، أيها المقيم في الحفافة ، فلا تسرحن طويلاً لنلا يبرد العشاء .

البازيار

أسرى يتقاسمون الكنوز

شامته تفتح الحياة بخزافيها المشهد ،
فلأنهض ، لا ليؤنسني الذي أراه ، بل لأخفي عن الحياة حنيني
المكسور .

ولا كتمن أنيني ، فالكل على حاله :
الجلب الفارق خلف البيت ذي القرميد ، والأطفال الصاخبون ،
كبراعم مينة ، أمام سياج الجيران ، والمنزل الذي هجره نزلؤه ، عابسين ،
شمال حديقتي ، والزيان المتباهية بجذالها الملكي ، والفناء العشبي الذي
ينقض السنونو على نوافيره ، وفسائل الجيرانيسوم المروضة ، وأعمدة
الإسمنت التي تعلو ، يوماً بعد يوم ، في فراغ مقتطف من ثراء الفراغات .
هكذا ، المشهد على حاله ،
والحقيقة على حالها ؛

عراك مراهقين في طبقة ما من المبنى ، وصراخ أبوينهما .
عراك ملائكة منذ أزل ، وصراخ جذور في الظلام .
فلأنهض ، إذاً ، من الرقاد النساخ ، لا ليؤنسني الذي أراه ، بل لأونس
الذي أراه من المشهد ، وأحمل الحنين بغوايات تروى . وبالقُبَل ذاتها ، التي
اقتنصت الشفاة طويلاً ، فلأمتدح الخسارة المكتنزة كجارية مكتنزة ، مردداً
بقم الغبار ما يتمتمه الغيب :
إنها القطيعة بين الأرض والريح .

لأنكُنُّنُ بوعدِي إذا ،
فالشفاءُ التي تردَّدَ الكمالُ الصَّاحِبَ تردَّدَ الموتُ ، والموفدون إلى هذا
الليلِ ليبنوا أدرَاجَهُ اللولبيَّةَ يبعثرونَ الرخامَ الذي حملوه .
أما المشهَدُ المقامُ على أنقاضِ حالِهِ فهو على حالِهِ ،
والحيلةُ على حالِها ،
والموتُ ، وَخَدَهُ ، الأكثرُ وَخْدَةً بينَ الأسرى .

لكنْ ، ما الذي يفعلُهُ الموتُ هنا؟
ما الذي يفعلُهُ الموتُ السكرانُ ، ذو الدُّوارِ الأشدِّ ، وهو يرمي بشيابه إلى
الأرواح؟
ما الذي يفعلُهُ الموتُ المُسَطَّرُ بأقلامِهِ على الفكاهةِ النائمةِ كورقةٍ
مدبَّدةٍ بينَ شِعْرِ نائمٍ وأنينٍ يقظان؟
ما الذي يفعلُهُ الموتُ ، شريكِي ، في هذه البرهةِ التي تتأصَّلُ بجذورِ
كجذورِ التينِ ، وبراعمٍ من شعاعٍ ينثرُ المغيَّبَ على أنداءٍ شقيقاته؟
ما الذي يفعلُهُ الموتُ ، القادمُ بي إلى هَذِرَةٍ؟
ما الذي يفعلُهُ الموتُ الذي أضجَرَ الشهودَ بهَرَجِهِ ، وخرجَ مع الخارجين
من البابِ ذاته الذي يُفْضِي إلى الحياة؟
ما الذي أفعله بالموتِ ، أسيري ، وأنا الحائرُ في تدبيرِ زنازينٍ مضيئةٍ
تليقُ بأسراي وبِي؟

فلتتمهَلِ الحقيقةُ في اقترابها من القيدِ الذي أشدُّ به رُسْغِي إلى رُسْغِ
الريحِ .

أما المشهَدُ فليبقَ على فراغِهِ ،

لأنني سأستجعلُ في إبرامِ العَقْدِ ذاكَ ، الذي يقدِّمُ الهواءَ غريقاً إلى زَبَدِي ، وسأعلِّمُ نفسي مشافهاتها الكبيرةً بلسانٍ مقطوعٍ ، فالأمرُ كُلُّهُ برهةً في يقينٍ مُنْكَبٍّ على الرُّتوقِ كإسكافيٍّ .

وسأبوحُ بي للأرقِ الذي يبوحُ بقدره للمياه ،
وستبوحُ المياهُ للسكونِ الجالسِ ، حافياً ، أمامَ مريدِهِ .
وسأقسمُ الهباتِ ، التي رفعها الحريقُ إليَّ ، بينَ اليقينِ والفكاهةِ ،
سأقاسمُ والبرْدَ الضاحكَ شتاءنا اللُّهبيَّ .

(«شقيقي أيها اللُّهْبُ ؛

شقيقي أيها الخداعُ ؛

أيها الموتُ الذي من مياه ؛

يا شقيقتي اللَّائِي يوقدُن في الجذورِ صَخْباً رشيْقاً كالسَّناجِبِ ، ما
حيلتي في هذا ؟ :

العبثُ يُرَاهِنُ بالله حينَ نحجُبُ عنه هِباتنا» .

والمشهدُ؟ أيُّ حالٍ للمشهدِ ، أيُّ كوى يطلُّ منها الخالدُ على خلوده؟

يقولُ جاري : «تمهَّلْ» . تقولُ الخديقةُ : «تمهَّلْ» .

يقولُ المكانُ إسرافهُ ، ويضلُّ الرِّزْقُ الورْدَ ، كأنما العبثُ يغزلُ بِتَوَلٍّ

من الماسِ مَغْيِياً حياً كعضلةٍ في فخذِ الكلبِ .

وآخرون يقولون ، أيضاً ، قولهم المُمْتَنَنَ ، فأضغِ :

إنها مُهْلَةٌ القويِّ يندُرُ الأرحامُ ؛

إنها مُهْلَةٌ الجاهلِ كي تسوِّيَ الحروفُ إشكالها .

فليعذرني المشهدُ ، إذأ ، لأنني سأنجو مِنِّي قبلَ اكتمالِ الطبائعِ التي

تنسجُ الأَلَمَ بخيوطٍ من ثرثرةِ العنَبِ ، عائداً بنموري إلى القيامةِ ، من الرِّواقِ

ذاته الذي ترتطم فيه موازينُ باعةِ البُندقِ بالملائكةِ المتثاقلةِ في عبورها .
ولربما عذرتُ المشهدَ ، بدوري ، على ثباته الأخرقِ ببيوته ؛ بشجراته ؛
برياحه الهيئَةِ ؛ بخزاناتِ المياهِ المنصوبةِ على الأسطحةِ كفروجِ تقنصِ
الشمسِ ؛ بصياحِ الذبِكةِ المحتبئةِ خلفِ سياجاتِ من اللُوياءِ ؛ بمصايحه
المضيفةِ ؛ بالقَدَرِ المراهِنِ على فكاهاته الباردةِ .

ربما ،

ربما ،

- «تصبحونَ على خير» .

- «تصبحونَ على ألن» .

- «تصبحونَ على عَدَمِ مُذَرِّجِ في قائمةِ الطعامِ» .

«يا لِرُوحِي المغلوبةِ على أُمومتها» :

هذا ما أقوله ، وأنا أغادرُكم من البابِ الخلفيِّ المُفضي إلى الحياةِ .
لكن أسراي يبقونَ هناك ، في انتظار أن أحرّرَ الأزلَ من الحُمى .
وأسراي ملِكٌ مشاغلهُم ، يُدبرون لي عذوبةَ المضيِّ بالخسارةِ إلى ألقتها .
مباهينَ بسُفنٍ ليست لهم يسيطونَ على الأرضِ أسرعَ من خيالِ الماءِ ،
متموّجةً ، كأنما تَلِدُ الظلالَ نَسْلاً من الجبالِ المشدودةِ إلى كَوْنِ الفجيجةِ .

هكذا إلى ألقتها ؛

هكذا الخسارةِ إلى ألقتها ،

بأسرى يتقاذفونَ الفجرَ كالوسائدِ ،

ويتأملونَ الفردوسَ المذعورَ متشبّهينَ بستارةِ المسرحِ .

- «فلنكنَّ فكّهينَ . فلنكنَّ جراءةَ القطيعةِ تولبُ النعمةَ على بناتها» .

- «فلاكنَّ وسيطاً» .

- «فليكن المنتصرون حيلة تُشغلُ الرُّحِمَ بسباقٍ آخرَ» :
 هذا ما أقوله ، وأنا أغادركم من الباب الخلفي المفضي إلى الحياة ،
 لكن أسراي ينتظرون أن أحرزَ الياقوتَ . وأختبئ في أمومة المراثي .
 وأنا خَجِلٌ من أسراي كيف لا أقودهم بي إلى كَيْدِ الشُّكْلِ وكنوزِهِ .
 وأنا خَجِلٌ من الموتِ كيف لا أعيذُ إليه أقدامَ الهربِ القويّةِ ، ولا أحسبُ
 في ثرواته الموتى ،
 لأنهم يقودون بي كَيْدَ الشُّكْلِ ، ويأتمرون على غدِهِم !
 وأنا خَجِلٌ من العَدَمِ يقلدني المكانَ فأنسى .

يا لنسياني ، إذا :
 أسراي يدفعون عَجَلَةَ الحُطُوظِ الكبيرةَ صوبَ السورِ الكبيرِ .
 لا لهاثَ . لا أختامَ على الثَّرَقَاتِ ، لا تُسورَ تحوُّمَ مشتمةٍ طقطقاتِ
 العظامِ . مؤتلقين بالذي فيهم من صيحةِ الرمادِ الحيّ يدفعون العَجَلَةَ
 فتندفعُ حذراً إلى الصميمِ المفتوحِ للنهايةِ التي لا تكون .

يا لنسياني ، إذا :
 عَجَلَةٌ وأسرى .
 عَجَلَةٌ وأسرى كُثُرَ - أسرايَ ، تلكَ النظائرُ التي تمتحنُ الفروقَ بشهوةِ
 النهايةِ التي لا تكون .

يا لنسياني ، إذا :
 حرّةٌ من ريعٍ ، وقُلُوبٌ من العافيةِ :
 ذكرى شهورٍ تحمتُ الحمايرُ ،
 وأزيرُ طلاقاتٍ تفتحُ الحكمةَ على مصراعِها .

.. ونسيانٌ . تَهْتَكُ في النسيانِ . نسيانٌ كبناتِ عَرَسٍ . نسيانٌ يسُرُّ
بيديَّ الله رُعاةَه القويُّ . نسيانٌ محَرَّضٌ يذلقُ الزيتَ على الأدرجِ ، ويكَلِّمُ
الشهودَ بلسانِ الفلكيِّ الذي يحصرُ المتأهِّ بفرجاريه .

ذلكم أسراي ، وذلك نسيانهم ،
فلأثْفَقُ ، إذاً ، عليّ ، لأخطوَ خطواتي على هيشة تحيِّرُ الريحَ ، ولتتفقَ
القيودُ على عَرَضِ طبائعها ، حتى لا أدرجَ النهارَ في صُنُوفي ، ولا أُنْخِذَ
البهيَّ قريناً ، مُمتحناً أسراي في أشكالهم ذاتها ، التي تحتاج بكشيفها
المُشْكِـل ذلك النشيدَ الذي ينسبُه الأقوياءُ إلى الآلهة .

فليتفقَ أسراي على زنازينٍ مضيئة تليقُ بي .
وفي اتجاهي - اتجاه المشيئة المتعثرة بشياها الطويلة - فلينفخ القادرونُ
أبواقهم من السور الأعلى بين الأسوار ، حتى يختلطَ القَدْرُ بِقُرْاصِه
وحرادتيه . وفي غريالٍ واحدٍ فلتتجاوزِ الحماقة والغد ، مُنتَثِرِينَ من الثقوبِ
الكبيرة على الفراغِ كالطحين .

في اتجاهي .

في اتجاهي ||||| هي أيها الخفيُّ ،

في اتجاهي أيتها الجهاتُ ،

عميقاً ،

قربَ الفضيحة الناعسة في فرائها ،

هنا ،

حيثُ يخمُنُ الطبلُ لونَ مراتبِ الصوت ،

وتتناحرُ الأمومةُ بسكاكينَ من دُعابة الذكر .

في اتجاهي ؛

في اتجاه ذلك كله يدحرج أسراي مكاييلهم .

والشهد على حاله :

فتور يمدّ الحبال لبهلواناته . قنّاصة من الورد على الشرفات . أنبياء
قرب سور «سباق الخيل» يحذرون الشجر العالي . سنونو يروض أسلاك
الكهرباء العالية . صوت المغسلة ذاتها من وراء نافذة البيت الغربي ،
ونحنحات المقامرین وهم يسدلون الستارة ، ليلاً ، بين ربيع وآخر ، والمساء
الذي يدلّ عليّ جياده ، كأنني السهرُ يفتح الحان الأوسع للمورقين بحمى
يقينهم .

هكذا ، الكل على حاله :

المجدّ المتبهل إلى قيّافه الكسول ؛ والقهقهة ؛ والصيف ؛ والجص
المتجمّد على مدخنة بيت الجارة العانس ؛ وزهرات الميموزا ؛ والغبار المحرّض
إذ يلقن الظهيرة أنينها ؛ والتعب ؛ والظلال ؛ والمجادلة المحبوكّة كعظم
والهمس ؛ والدغدغات ؛ والبدعة التي تُطقطق كمقص الحلاق ؛ والسخر ؛
وانشداه الحادثة بوقوعها ؛ والقيامة ؛ والتفير الأبعد الذي يلي كل شيء ؛
والفتنة الدائرة بخواتمها على أنامل الموني .

فليتفق أسراي ، إذا ، على سلام ما .

فلاتفق مع المكان على زنازين تليق بأشباحتنا .

وفي اتجاهي - اتجاه الثغور التي ينفذ منها الحاضر إلى شهبواته -
فلتتسلق الأبوّة سور النعمة بلبلابها ، مؤمنة للأشدّ دهاء ؛ للدهاء ذاته ؛

للأسلحة التي ستوقظ الأرض من رقادنا بعد حين .

في اتجاهي :

أبوّة في اتجاهي .

عطارون يذلقون قَفَفَ الحشائشِ ،

ودُغَرٌ ينخرُ الأبدَ فيهوي ؛

هكذا : الكلُّ يهوي في اتجاهي ، مظلةٌ من هُلامٍ كقناديلِ البحرِ ، وأنا
أتلُقُّ من أتلُقُّه بأيدي السُعاةِ أو شباكِ الحمقى .

وأَتَقْدِمُ بي أسيراً أسيراً أَمَهُلُهُمْ ، فيتمهلونني - كمثلي - بنداءٍ
شفيفٍ ، وهم يَعُدُّونَ القُضبانَ التي يحملونها إلى بواباتِ سجونهم
الرحيمةِ ، هناك ، واثقينَ من الألمِ الذي سيدخلُ الرّدهةَ بقطيعه ، خفيفاً ،
يتمتمُ بكلامٍ ككلامِ المملوكِ .

والألمُ ، بعد هذا ، على حاله :

مُذَاهَنُ يرسمُ الحديدَ على صورتهِ ، ويكمّمُ الأرضَ فلا تطلقُ الصيحةَ
التي ينتظرها العارفون .

والألمُ رثّةٌ ، بعد هذا ، أيضاً ،

وأتفاقُ شهودٍ ،

وقرائنُ بها يحسّمُ المراقعونَ عن اليقينِ جدالَهُمْ .

والألمُ . . . أه أسراي :

سينكتُ الغدُ بوعدِهِ ،

ستنكثُ البيوتُ بوعدها .
ستنكثُ الطرقُ ، والحدائقُ ، بوعودها .
ستنكثُ المداخلُ ، والمتاهاتُ ، بوعودها .
ستنكثُ الروحُ بوعدها .
ستنكثُ الريحُ بوعدها .
ستنكثُ القيامةُ بوعدها .
ستنكثُ الثمرةُ ، التي لم تلتئم ، بوعدها .
ستنكثُ الجسارةُ بوعدها .
ستنكثُ الخيلةُ بوعدها .
ستنكثُ الحياةُ بوعدها ،
وسأنكثُ بوعدي ، متقدماً أسراي إلى الفضيحة .

بئسَ سبقي الحظوظُ على حالها ، معتكفةً بالمناكيرِ الذهبيةِ على
الغبارِ ،

وسيبقى الغيبُ مُسترسلاً ، كصنيدلي ، في دَخْضِ عقاقيره .
فمن سيرتأي ، مثلي ، مشيئةً تأخذُ الحيَّ على محمَلِ الحيِّ ،
والفكاهةَ على محمَلِ الأبدِ ؟
من سينقذُ اليقينَ من جماله ؟

إنها القطيعةُ ؛
إنها القطيعةُ ،
وأسراي يستكملونَ الفروقَ التي تعمَّمُ مُجونها .

فليأسرُنِي من يريدُ ، إذا ؛

فليأسرني بشباك أو بغد يمؤه الشباك ؛
بأنين عال ، وسكينة كالخبر ؛
برجفة في اليدين تذلقُ الخبرَ على الهواء .

فليمتحنني أسراي بأنيني العالي ؛
فليمتحنني قلبي كأسير لامتحن قلبي بفكاهاته الشاردة . وليتواطأ
أسراي معي على قول فكه ، فلربما قهقهة الجمال مثلنا من الأرض عزق
قمصانها ، خارج الزنازين هذه ، وهي تبعثُ برسلها إلى الحريق فيرجعون
ضاحكين .

ما هم :
بأقلام كبيرة ، أو بياه ،
بذهب أو بقضاة ،
بشهود مذعورين ، أو بنرجس مذعور ، ستمتحنُ الريحُ أيضاً شكوكها :
والحياة ستمتحنُ شكوكها وهي تدخلُ ، مُحْتَشِمَةً ، من الباب الخلفي
الذي يُقضي إلى شكوكي .

هكذا : الكلُّ على حاله :
القطيعة وامتحنائها ،
المشهدُ والله .

هكذا ،
عميقاً ،
حيث المغضلة المفتونة بأبدٍ يسلقُ بوابتنا المغلقة .

والبيت؟

بيتنا ، يا للبيت ، يا للأفق الغربي ؛ يا للغد الضجران ؛ يا للسهل
المفتوح بالسهارى ؛ يا للمشيمة ؛ يا للرمان المعلق أربعة شهور على
الشجرات ذاتها ؛ يا لديكة الظهيرة ؛ يا للزائرين بأبواقهم يقبضون على
النحاس المنثور في الهواء ؛ يا لنهب يبيحه العادلون .

عادلون ؛

كلهم عادلون :

اسألوا أسراي وهم يتصيدون الليل بشصوص الألم الكبيرة .

... وكبيرة فلتكن المحنة بريشها وزبيبتها ، متدلّية من الخاتمة كأجاصٍ
تتناهيه العصفير .

كبيرة لتكن المعاتبات بعد العناق ،
فالكل على حاله :

البطولة التي تنتظر من يحدثها حديث اليقظان ، والدقائق الأربعون
بين المدينة ومطارها الهارب ، والخبر الكبير إذ يوسع القلق لخبر كبير ،
والصيف الذي يتسول الشتاء المتسول ، والزيارة المحتملة لملاك ما ، والمائدة
بقوائمها الأربع ، خلف ستارة القش الفاصلة بين هواء الرصيف وهواء
الرصيف ، حيث ندحرج شهواتنا ككهنه ينعمون بحرج الله من أعماق لا
تسع لامتحانه ، وقد أسلمنا أهدابنا للمشهد ، وأسلمنا مواعيدنا كفستقٍ
تتذرّق قشوره على المائدة .

هكذا :

لا يقين ،

لا جسارة ،
لا خِزافين ،
لا قلبٌ يُلقي بظلاله على الفكاهة ،
لا هبوب ، بل نَفخٌ من فمِ الظلام .

هكذا :
هذرٌ خافتٌ ،
وقبضةٌ تتكور لتُهوي .

هكذا||| :
خيانةٌ تلمسُ - كورقةِ الدُّلبِ - عُصنها المائل .

ووسطَ هذا كلِّه حَزَنٌ بِل ، وعرائسُ ذرة ، وفقرٌ كَقَفَرِ الكُنُفِ ، وطُهاةٌ
أيضاً ، ونعيمٌ منهوبٌ ، وحُلِيٌّ ، وقِياثُ ، وفناديلُ بحرٍ بهِلامٍ أنقى ،
ومجذفونٌ بمجاذيفٍ من عظامٍ ، ولواحِمٌ ، وقِرافاتٌ ، وحجارةٌ للجلخِ ،
وسروجٌ ، وموائِدُ موهبةٍ بشرابِ موهٍ ، وأكبَادُ ، وزيزانٌ ضليعةٌ كالظهيرِ في
اقتسامِ الجهاتِ ، وبنادقٌ ، ووراقونٌ ، وعدمٌ قِيافٌ ؛
وسطَ هذا أنينٌ يحنو على القَهْقَهةِ .

والغدُّ على حاله :

فناراتٌ غارقةٌ ، وملوكٌ موعودونٌ بشعوبٍ أقلَّ ضجراً .
فليحذرني أسراي : ما مِنْ رَأْيٍ يُبْعِدُ الحِكايةَ عن زنازينهم ، لينعموا
بالأكيد المفتوح على قرائنه العمياء .

ما مِنْ رَأَاااa

ما مِنْ فضيحةَ وسطَ هذا الموتِ تُلْهِمُ الموتَ فكاهاته ؛
ما مِنْ أحشاءَ تُتَنَقَّطُ ؛

ما مِنْ كبد ؛

إنها الأنفاسُ الكبيرةُ في رثةٍ لم تشهق قطُ ، ووساوسُ من ريشٍ
يُتَكَيءُ عليها المنفيون .

فليعذرني أسرايَ عُدْرَ المُقتدرِ كي أهَيِّءَ الزنازينَ العادلةَ والهواءَ
العادلَ ، بشفاعَةِ المديحِ الذي يتوكأ عليه الموتُ . وليهدأ الهائمونَ
حولَ مسائي ، فَمَعِيَ الفديةُ الكبيرةُ التي من شباكٍ ومزاليجٍ . ولا
يتبَعْنَنِي الغدُ ، فالرهائنُ الخارجةُ بي - من البابِ الخلفيِّ الذي يفضي
إلى الحياة - خجولةٌ ، والحياةُ خجولةٌ وراءَ البابِ الخلفيِّ الغارقِ في لَغَطِ
المنفيين .

هكذا ،

بمِوْها كَقَسَمٍ يَكتَمِلُ العاديُّ .

هكذا ،

تسهرُ المعجزةُ قربَ الحريقِ الذي يُضرمُهُ العاديون .

هكذا ،

إلهي ،

أدُلْ عليَّ مغاليلَكَ التي لا تنتهي ،

وأنا أوهمُ أسرايَ أنَّ لي شَكِمةَ النرجسِ وسطوةَ العبيثانِ ،

وأَتَدْرِغُ بِكَ كي أَقُولَ النعمةَ ما لن يقولهُ الموتُ .

وأسرائي؟

ما الذي يُشغلُ الكنوزَ بأسرائي؟

سأقولُ لنفسي اختَرِ المشهَدَ الذي على حاله .

فالذين يوقظونني في الأحد الميِّتِ ، في الخميس الميِّتِ ، في السبت الميِّتِ ، في الثلاثاء ، في البداية الميِّتة والنهاية الميِّتة ، يستسمون محبِّينَ من شرفة البناء الذي لم يكتملُ سَقْفُهُ القرميدُ ؛ البناء الفاجرُ ، المحتجزُ الهواءَ بخصيَّته الغبرائين .

هكذا ، يوقظونني بأنفَةِ كأنني سأشهدُ القطيعةَ التي يوجِّجونها .

هكذا ، كأن الذي يمزقُ قلبي يمزقُ الحداثقَ أيضاً .

لكنني يقظانُ في المدى الذي توقظُ الآلهةُ فيه ما يُغيظُها ؛

يقظانُ ، مُمتنٌّ للفتنة الأتوى ؛

يقظانُ كدهاءِ المشهَدِ المحمولِ على جناسٍ كبير .

وتمتَ ، هناك ، كمائنُ في الألقِ ، كمائنُ كمثلي ، حيث أرتجلُ الغدَ ذا العربة الصلصالية ، مغامراً بالنشرِ المسكون الذي لا يُؤاتي ، وبالبلاغةِ اليقظى من ارتجاجِ العجلاتِ على الحبرِ ، صارخاً بي : لا تفتحِ المساءَ على مصراعيه ، ولا تقدِّمِ الليلَ بتعريفٍ إلى أشقائك الضاحكين ، فالنهارُ لن يؤكِّدَكَ بثرائته ؛ لن يؤكِّدَكَ ضوءُ ، والمصابيحُ الكبيرةُ ناعسٌ يقظان .

فلا تمتحنوا اليأسَ :

خدعةُ هذا الهواءِ الذي يُصرفُ بأسنانه ،

والنحيبُ المتصاعدُ ، فراغاً بعد آخر ، نحيبٌ يضلُّ المشيعين .

ولا تمتحنوني ؛

لا تمتحنوا أسرائي بمشافهاتٍ كبيرة ؛

لا تمتحنوا الموتَ الذي يسرقُ الريحَ من فخاخنا .

إنها القطيعةُ .

إنها القطيعةُ .

١٩٨٧

مهايا

(إلى أولياد الله)

للعظام رنينها ،

وللقبور رنينها ،

والفجر ، الأكثر اندلاعاً من حريق ، يدلُّ الموتَ على قاطنيه .

فلا تكتبني ، الآن ، أيها الملاك ، بالحروف ذاتها التي توتِّعُ الحياةَ على
جرائرها العذبة ، وتستحي من الحبرِ فترتدي يقينها . ولا تكتبِ المنفى
المفتوحَ كبابِ رَكْلَةِ العابثون بمفاتيح الأشكال .

أما الأرقُ ، الذي يبعثه الأطفالُ الهائمون في الحديقة ، فهو الأرقُ
المُسَطَّرُ طولاً وعَرْضاً ، والمحوُّ بالأعقاب الغادية في أعماقنا ، حيث
الطُرقاتُ القويَّةُ لأقدام قويَّةٍ ، وحيثُ تنحدرُ اللَّفافاتُ ، التي يرميها البناؤون
- في إهمالٍ - إلى غُدِّهم .

والأحافيرُ بيني وبينك أيُّها الملاك : جرَّافاتُ ، ورملٌ ، وسَحَرَةٌ يسرقون
أخشابَ النوافذ ومقابضَ الأبواب التي من نحاسٍ ، وعرائسُ من شفقٍ
ذائب بين الأيدي . أما اللاعبون - هؤلاء - الذين من شُبُهاتِ تبعثُرُ
التاريخ على أنقاضه ، فهمُ أمانةُ الفجر بيننا ، حتى نعثرَ لهم على مساكنَ
تليقُ بالعظام .

واللاعبون يمتحنون الفجرَ الآن ، بعصيتهم الطويلة وكُرَّاتهم ؛ بقفزاتهم ،
وحديدهم الخفيفِ مثل شفقٍ محمولٍ على حمارٍ . أما الأرضُ فهي لهاثُ
المُشاهدِ المختنق ، حين يركضُ إلى السياج صارخاً : «أوقفوا هذه الحقيقة» .
وما السُّرْدُ إن سرَدْتُ؟ إنهم هناك : المهجورون ، والعداؤون ؛ رافعو

الأثقال ، ورُماةُ المطارق ؛ عابرو الحواجز ركضاً ، والماشون باتكاءٍ على
حقواتهم ؛ والقافزونُ عالياً بقصباتهم الطويلة ، والجامعون على مدارجِ الحلبةِ
يمتحنون الثقلَ الذي يشدُّهم إلى الحريق .

وعليّ ، كلاعبٍ مُمتَحَنٍ ، أن أتقدّم - بدوري - لأرفع الحديدَ الذي
يرفعه الآخرون ، بيقينٍ مستترٍ لا يتوخى الغلبة ، بل الوقوفُ أمامَ الحشدِ
الهائمِ في ذكرى انتصاره الناقصِ على مجد ناقص ، صارخاً : يا ثَقْلِي !
كيف أترهلُ هكذا ، عضلة عضلة ، وعظماً عظماً ؟ كيف أتجنبُ الموعدَ
الميتَ الذي عقدتهُ للقاءِ الموتى ؟

لكنني خائفٌ من الحشدِ هناك ، الذائبِ على المدارجِ كدِهَانٍ في
الظهيرة ، لذلك أجمع أضلاعي في صفٍّ واحد ، وأرفع رثتي على فجرٍ
مهزوم ، وأنا أقذفُ بالرَّمحِ في الحلبة ، أمامَ الحكمِ السَّاهرِ على سَهْرِهِ ،
ليقول إنني رميتُ أبعدَ ما يُرمى رُمحٌ في حلبةٍ ساهرةٍ على حَكَمِها .
أقفزُ قفزتي ، الآن ، أم أقطعُ الشوطَ القصيرَ الذي ينتظرُهُ أتْرابي ، وأنا
أنحني حتى تلامسَ رُكبتاي أرضَ السباق ، وعينايَ على الشفقِ المرتدي
قناعه الأيوبي ؟

أقسّم الحلبةَ بيني وبين الشاردين ؟
سأقذفُ الكُرَاتِ كُلَّها ، التي لن تُصيب مرمى ، وسأترلجُ بحكمةِ
الثلجِ المقطومِ عن رضاعته ؛
سأقدمُ هباتي ؛

فالريحُ ، وحدها ، تسرقُ التينَ من راکضٍ لم يقتطف التين .
وكتاب لم يبلغْ أبوتَهُ بَعْدُ ، سأفحصُ السَّاءَ المتوقِّبَ للركضِ ، وإزناً ،
في أعماقي ، بين قفزاتي وقفزاتي ، وأنا لا أريدُ غَلَبَةً ، بل أن تكتملَ المِباراةُ
بحاضريها ، كي لا يتقولَ الخاسرون على حَكَمٍ لا يُهدي إلى أحدٍ شقاء
انتصارِهِ ، ولا بحسبِ الضرباتِ التي تُميت .

وأنا هنا ، على أية حال . أنا ، والحضور هناك ، والجهاتُ المأخوذةُ
بِخَفَقَةِ الدَّمِ الذي يخرج عن طَوْرِهِ كَلَّاعِبِ مطرودٍ ، حين تتقشَّرُ النهايةُ ألقاً
ألقاً ، ويُعْمَى على الألم ؛

وأنا هناك ، محفوفٌ بجيرانٍ من التعب ، وأفوضُ النهارَ أن يؤكِّدني
بسطوته العمياء ؛

وأنا هناك ، موزَّعٌ بين العدائين ، في الفجر الذي لن يربحه أحدٌ ؛ في
الفجر السَّيَّافِ الذي يجزُّ صباحاً مُثْقَلًا بنميمة الريح ؛

وأنا هناك ، تتقدَّمُني شاحناتٌ عجولةٌ تنزلُ عن مقاورِها أيدي
السائقين ، ريشاً يتأَمَّنُ للموتى مصادفةً موتَ آخرٍ يختلقُ الحياةَ بأكاذيبه .

أبوحُ لكم كم خدعني الجيرانُ لأدخلَ هذا السِّباقَ ؟ :

أوهمني أن لي رشاقة السِّلَكِ ، وفُجُورَ السياج . وأوهما حديقتي أنها
الطيرانُ الباحثُ عن ريشٍ ، ثم استلقوا على حُصْرِهِمْ ، تحت النَّدَى الفاجرِ
لصباحٍ مسكوبٍ من ابريقٍ حجريٍّ ، وتأملوا خروجي من الباب بعدما
وضعوا أمام العتبةِ خُفَّيْنِ رياضيَّيْنِ ، وقميصاً غريقاً . وأنا اتَّخَذْتُ ذلك
سبباً لاستسلمَ بقيودٍ من الأرقامِ إلى انتصاري .

لقد فَتَنَتْهُمْ ؛ فَتَنْتُ الجيرانَ ، والحَكَمَ الذَّابِلَ ، والضوءَ المُمسَكَ بزائنه
الطويلة ، والحلبة ، معاً ، راكضاً من مشيئةٍ إلى مشيئةٍ ، ومن حبرٍ إلى حبرٍ ،
ملتقطاً حَزْرَةَ الأدميِّ المكسورة تحت أقدامٍ سبقتني ولم تنتصر .

حديثي فظٌ . أعرفُ ذلك .

مشافهاتي الصغيرةُ فظَّةٌ . أعرفُ ذلك .

خطواتي فظَّةٌ لأنني هيأتها للسباق .

وأنا فظٌ ، لأنكم تدركون المعنى في اشتغاله على يقينٍ مهشَّمٍ في مرآةٍ

مهشمة يتطلع إليها المهجورون .
والأرض فظة ، أيضاً . هذه الزانات الطويلة للقفز ، والمطارق التي تنثُر
في قذفها ، والأفخاذ المقروءة على عجل - حين تنتهذه عضلاتها بالشهوة
التي فيها إلى خسارة لا تُحتسب - كلها فظة .
والحلبة فظة ، لأنها تروي الثقل الأكبر للموت بصوت خفيض .

(أيها الموت ،
يا أسماًلاً على كتفين قويتين ؛
يا عمارة ترهف ، وياقوتة غير مثبتة في الخاتم على تحوٍ مُحكم ؛
يا مُبدداً نفسه بين الألقاب ،
كأنما سلوقي يجرُّك لاهثاً .
وكانما ذاكرتك تراءى قططاً مقدوفة من الشرفات .
أيها الموت ،
يا غريقاً تمتد إليه الأيدي كلها ،
خفف مساءً لآتِكَ قليلاً) .

لكنني راكضُ بزانتِي الطويلة ، وسط الهتاف الذي يجعلني شريكاً
لأول راكض آدمي وسط الهتاف . وحين أتكيء عليها باندفاعي الأقصى ،
متخذاً لجسدي رميته القوسية ، يشهد الهواء لحذاقتي ، ويتفنن الضوء في
سردِي شعاعاً شعاعاً على طفولته التائهة ، لأنني استباقُ المراهنين وصف
يقينهم الذي لا يُوصف .

وفي عبوري ، قافزاً ، يذرج الجالسون على المدارج أشكالهم ، قابضين
ملء الأيدي على قفزات مُختزلة بين الجنون والجنون ، وهم يصرخون بي :
«خذِ النهاية» ، فأخذُ النهاية برمليها ، ودهانها ، وورقها ، وأسفلتها ،

وحرصها ، وحلاقيها ، وسواترها ، ونعاسها ، وشهقاتها ، وكراسيها ،
ومتاثليها ، واعتذارها الذي يُلْقُ الدَّم في مصفاته .

والعدمُ يندفع ، أيضاً ، إلى المنصة التي يرفع حاملو الأثقال عليها الفَناءَ
المسيوكَ كحديد من عسل ، فأخذُ مكاني بين المندورين ، لأصعدُ - بدوري
- إلى المنصة ، وقد مَسَسْتُ براحتي الرملَ الذي يجفُّفهما لثلاً ينزلُ
فيهما الحديد . وأرفعُ المساءَ ، خَطُفًا ، ثلاثين حجراً ، وأقْتِنُ بما تركت الحياةَ
على المساء من سِهرِها ، وقراريطَ أخرى من شحوب المقامرِ الذي يوزَعُ الريحَ
على أخواته .

أُسمِّي لكم الأعلامَ التي هناك ، فوق الشُّرفات العاليةِ المستندة على
البنادق؟ أُسمِّي لكم البنادقَ الكثيرةَ هناك ، حيث البطولةُ التي تتقَعُ في
الدخول على الكردي من حيائها؟ أُسمِّي الكرديَ ليتدفأَ الليلَ بقميصه
الْمُنْتَهَب؟

قفزتان ، في الشوطِ الأول ، بزانةٍ مكسورةٍ ؛
قفزتانِ باحتكامٍ إلى إلهٍ مكسور .

أأخذُ المساءَ أسيراً ليكتملَ لي الوصفُ ، أم أتركُ المساءَ لاجتهادهِ
الرياضي؟ أأجمعُ المطارقَ المَقْذُوفَةَ ، في نهايةِ المديح ، أم أكتفي بالذي معي
من عويلٍ محسوبٍ بامتارٍ محسوبة ، في الدُّوراتِ الْمُتَقَنَةِ لضجرِ الإنسان؟
سأرفعُ هذا الحديدَ ، إذًا ، على الخشبةِ القويةِ التي تهترأُ تحت قدمي
القيوتين . سأشهدُ امتحانَ الْعَصَلِ و امتحانَ الهواة ، حينَ تُنْخَذُ الشرايينُ
النافرةُ أَهْبَتُها وهي تمهِّدُ للدمِ عُذْرَتَهُ وفجوره .
سأرفعُ هذا الحديدَ بحكمةِ الحديد .
سأقسِمُ أن الحديدَ المرفوعَ على يدي هو الغدُ مغسولاً في رثةٍ كرديةٍ .

هكذا ألقى بي في اللعبة .
هكذا ألقى بالعبة إلى ما يُشغلني ، لا اعتكف كالنجار على تقدير
الزوايا في الملهة ، عادياً بالصرير الذي يُعهد للأقفال كي ترى ، وبالفتنة
التي توحد الانقاض .

فليحضر الرُّسل كلهم ، بالألم المُتقن كبرشة ، كي يحدثوا الحياة
حديث المراهن ، ولينقسموا حين يزوون ، لأن النعمة تُصغي بأذان طائشة ،
ويدون الحاضر الآن بشرة مُطلقاته ، لا بكلام الشهود .
ولتكن القفزة عالية ،
والركض في مُنخفض عال ؛
ولتكن الملائكة تحت القوس ،
في المدخل الشمالي للحقيقة ،
مرتدة معاطفها التي لها ، وهي تقضم البندق ، ريشما تُبلغ المرئي -
شفاهاً - أن الفكاهة ستخيرُ غلمانها ، وسيخرج الحاضرون من الحلبة
بالأباريق التي لم يترك عليها الموت شيئاً من نقوشه الحيّة .

يا لـ«سُجارة» الراكض إلى طوروس ؛ يا لـ«جزيرة بوطان» :
معاقل شقيقة ، وأسوار كالأيدي تلتقف اللؤلؤ ،
وهياكل تكمم الريح .
أما الصاعدون ، مثلي ، إلى الظلام ، على سلاله البازلتية ، فهم
امتحان الیقظة الحاملة بعراك النجارين .
وأنا . .
أعلي ، أنا ، أن أحتكم إلى أحد؟ :
دون مدعورة ، وقد يرتدحج وراء كُرانه الطينية .

والوحدة تسرح شعرها صباحاً، لتتقدم البنائين إلى الأبدية، كأننا
ساعيرها - بعد قليل من الموت - حكاياتي، لتسرد على العدم حينئذ
الآلي، وكأننا سيمتحن الكرد بها فقهاتهم، وهم يجذفون بمجاذيف الجليد
إلى المصبات الكبيرة للأنين الكبير .

إلهي ،
هؤلاء أكرادك إلهي .

.. والبندق يتناثر . الأجاصات تتناثر . الكمثرى يوزع الأدوار ،
والقمح يهذي ،

لتكن السنبلة مشيئة الموت ،
لكين الموت أكثر صخباً في الممرات التي يتقشر كلسها ، ويتحدث
العابرون فيها حديثهم المؤجل بهمس خفيض .
فلا تأخذني أيها الملاك بجريدة الحي ، لأنني أفسم المصائر - مثلك -
كالذراق على العابثين ، وأرمي بيدي الهاذيتين شبحي من الباب لئسري
عن الحياة بأقاصيصه .

ولا تنتظرنني ، أيضاً ، لأنني - كراكض في الأقاصيص - يحتطفني
الذي لا يروى ، وأكون النهاية حين لا يختتم الحادث سرده نهايته . فإن
رأيت أن تتبعني فارفع زائتك الطويلة ، وانتعل خفك الرياضي ، لأنك -
كراكض في الأقاصيص مثلي - سيتقاسمك المراهنون في اقتحامهم
المدبح باباً باباً ، بالحفظ التي يباركها الخوف .

ومن «مهاباة» إلى «مهاباة» تأفف قليلاً ، مثلي ، أيها الملاك ، وأنت
نفك سبور خفك ، وتخلع قميصك الترايب ، متنقلاً حتى عظامك ،
كأننا حررتك المدائح من عويلها ، وبكتك القهوة ؛

كَأَنَّمَا
فَتْنَةُ
أُخْرَى
تَسْحَلُكَ
مِنْ
سَمَاءٍ
إِلَى
أُخْرَى ،

وَيُوجِزُكَ الْأَلَمُ ، الَّذِي يَلْقَى الْهَوَاءَ كَمُعْطَفٍ إِلَى مَشْجَبِهِ .
وَمِنْ حَرِيقٍ إِلَى حَرِيقٍ فَلْيَفْتَنِمِ الْقَدَرُ مَا يَتِيحُهُ الْكَرْدُ لِلْقَدَرِ مِنْ ثَرَاةٍ
يَسْرُدُ بِهَا عَلَى الْأَرْضِ كَسَلُهُ الذَّهَبِيُّ ، قَبْلَ أَنْ يَقْتَحِمَ الرَّاكِضُونَ بِأَشْبَاحِهِمْ
سِيَاحَ غَدَمِ الْمَذْعُورِ ، وَهُمْ يَرْمُونَ قِمَصَاتِهِمْ لِيَتَدَفَّقَ الْهَوَاءُ بِهَا ، وَيَتْرَكُونَ
أَحْذِيَّتَهُمْ لِلْحَصَارِ كَيْ يَنْقُلَ الْحَصَارُ الْجَرَحَى مِنَ الْوَرْدِ إِلَى الْوَرْدِ مَا شَاءَ .

وَالرَّيْحُ؟! مَا لَهَا؟ مِنْ «مِهَابَادَ» إِلَى «مِهَابَادَ» أَيْضاً .

كُلُّهَا مِنْ «مِهَابَادَ» إِلَى «مِهَابَادَ» .

كُلُّ ضَرْبَةٍ مِنْ «مِهَابَادَ» إِلَى «مِهَابَادَ» .

كُلُّ عَوِيلٍ مِنْ «مِهَابَادَ» إِلَى «مِهَابَادَ» ،

وَالْأُمُومَةُ حَبِيرَى بِأَثْدَانِهَا الْحَجَرِيَّةِ بَيْنَ أُنْبَائِهَا :

فَإِنْ أَيْقَظَنِي اللَّهُ ، فِي الْمَدِيحِ الرُّطْبِ لِلدَّمِ ، أَحْضَرْتُ خُفْسِي ، وَإِنْ
أَيْقَظَنِي الدَّمُ أَحْضَرْتُ اللَّهَ .

لَكِنْ ، كَأَلَمْ تَتَقَدَّمُ الْأَجْنَحَةُ ؛
كَأَلَمْ يَتَقَدَّمُ الْكَرْدُ إِلَى الْحَقِيقَةِ .

كألم يسردُ الفجرُ على بناته المكانَ رحيلاً رحيلاً ؛
كألم يدخلُ النهارُ أعمى إلى «مهاباد» .
وأنا ،

رحيلاً رحيلاً - يزأنتي ذاتها ؛ بالخفقين الرياضيين ، والتصفيق
الأخرس المنسي على المئرجات ، حيث لم يصعد أحدٌ - أجففُ العرقَ
عن جبينك أيها الملاك ، وأسندُ جناحك بعظامي ، لالتقط الأرض التي
تساقط ، من خلفك ، عاصفةً عاصفةً ، وجَمَلاً جَمَلاً ، ريشاً أطلقُ
السهمَ الأخيرَ في اتجاهاتِ الدَّمِ الأخيرة .
وسأُخصي نفسي ، بعدئذٍ ،
أنيناً أنيناً ،
من «مهاباد» إلى «مهاباد» .

١ / المكان بحسب انشغالاته

أ- وصف الريح :

غَدُ يَمْضِعُ اللَّبَانَ كَصَبِي نَزَقَ ، فَاتَمَحاً أَزْزَارَ قَمِيصِهِ الْكَثْمِيرِ تَحْتَ شَجَرَةِ
الْأَكَاسِيَا . وَهُوَ - كَأَيُّ غَدٍ - نَحِيلٌ وَهَادِيٌّ ، وَفِي التَّفَاتَاتِ ، بِالنَّظَرِ الَّذِي
يَرْفَعُهُ إِلَى عَيْنِيهِ مُسْتَجِلِيًّا ، رَفَقَةً حَوْذِيٍّ يُسْرِحُ جِيَادَهُ . لَكُنْ الْقَلَمَ الْمَعْدِنِيَّ -
الَّذِي يَسْقُطُ ، فَجَاءَةً ، مِنْ بَيْنِ أَنْامِلِهِ ، إِذْ يَدُونُ كَالْمَسَاحِ فَتَوَرَّ الْمَشْهَدُ ،
وَالزَّوَايَا الْمُسْتَبْكَةُ بِالْقُبُلِ الْمُسْتَبْكَةِ - يَرْتَظِمُ بِالْأَقْدَارِ ، مُجَلَّجِلًا بِصَدْيٍ يَصِلُ
الْأَعْمَاقَ بِأَدْرَاجِهَا ، فَتَصْعَدُ الرِّيحُ .

ب - وصف الظلال :

بِيقِينٍ شَاحِبٍ تَرْفَعُ الظَّلَالُ سَرَاجَهَا الشَّاحِبَ فِي الْأَنْفَاقِ ذَاتَهَا الَّتِي
تَنْتَحِلُ الْحَيَاةَ فِيهَا أَشْكَالَ الْمُنْتَظَرِينَ ، وَالْحَقِيقَةَ تَخْتَلِسُ مِنْ خِزَائِنِ الْحَقِيقَةِ
عَصَا الْأَعْمَى وَقَفَازِي الْمَهْرَجِ . فَبَإِذَا تَعَثَّرَتِ الْأَبْدِيَّةُ بِحَقَائِبِهِ الْمُرْكُومَةِ عَلَى
الْأَدْرَاجِ فَلْتَعَثَّرْ ، لِأَنَّهُ يَنْسُجُ الْمَشْيِئَةَ عَلَى صُورَتِهَا . وَتَتَوَقَّيْتُ الْأَبْدِيَّةَ
الذَّاهِلَ ، الَّذِي تَسْدُلُنِي مِنْهُ أَثْدَاؤُهُ الثَّوْرَانِيَّةُ ، بِضَرْبِ الْمَوْعِدِ الْأَوَّلِ مَعَ
الْمَصَائِرِ ، هُنَاكَ ، تَحْتَ الشَّجَرَةِ الَّتِي يَعْصُ النَّهَارُ عَلَى حَنِينِهَا بِأَنْيَابٍ مِنَ
الْكَافُورِ .

ج - وصف الشرفة :

قَضبانٌ رقيقةٌ من المعدن - مطليةٌ دون مهارةٍ - تقطعُ الطريقَ عَرَضاً ،
لِتَسوِّرَ الأرضَ بِامتلاكٍ لا نزاعٍ فيه . وهي باردةٌ قليلاً ذلكَ النهارَ الممسكُ
بلجامِ الساعاتِ التي تَمسَحُ بالشَّحمِ عتلاتِها الإلهية ؛ وساهمةٌ في الهبوبِ
الخفيِّ لأنفاسِ الأضاليا على نعاسِ الهواء . وثُمّتْ - في اقترابِ مَرَحٍ -
عصافيرُ تطحنُ الهواءَ دَرَوَراً على ريشها ، متفتحةٌ كَتَرَفٍ يبللُ المعدنُ
النصامت . أمّا القفلُ المتدلّي من سلسلة تطوَّقُ القَضبانَ ، فالأرضُ وحدها
تُصغي إلى نبضهِ الدافئِ ، وإلى فتورهِ الذي تستعيرُ الجذورُ منه مهاراتها .

د- وصف المصعد :

للمكعَبِ الحيِّ ، في ردهةِ الإسمنتِ العمودية ، دوائِرُهُ المُجَلَّجَةُ ،
ومثلثاتُهُ التي تخمّنُ الشهوةَ القادمةَ مع الزائرين ؛ ولجدرانه نشيدها المُرْتَلُ ،
صعوداً وهبوطاً ، بأفواه من أنابيبٍ وأسلاك . وهو يتكتمُ - بحسبِ فراغه
المُتَكَتِّمِ - على قاطنيه العابرين ، تاركاً لأنفاسهم وَحْدَهُما أن تَمُردَ الحمى ،
وللعطور الشريفة أن تمُوّهَ الجِهات . لكنه يرشدُ القلقَ إلى عتباتِ الأبواب ،
بجمالِ العبثِ الذي في خَلجاتهِ الآليّة ، فيقرعُ الشَّقْلُ سكونَ الشَّقْلِ ،
ويصغي الظلامُ - من الكوى - إلى الضوء الذي يترنّحُ في سَعَالِهِ الطويل .

هـ - وصف الردهة الخارجية :

مدعستان ، ونهايةُ دَرَجٍ . أعقابُ لفافاتٍ تبغٍ قديمةٌ نَجَتْ من مكنسة
الحادم ، التي تركلُ الورقَ الساقطَ من الأصصِ بُخْفِها المثقوبين . وتمتامت
كثيرةٌ نسيها الداخلون والخارجون . تتشاحنُ بلهجاتٍ تقضمُ أظافرها ، في
انتظارِ الخطى التي ستفتحُ الباب .

و - وصف رواق البيت :

طليقة رسوم السجاد . والتصاوير ، على الجانبين ، تتصيد بشصوصها رفاهة اللون ، كأنما ناظرٌ ما ، وحيدٌ في همومٍ ترتجلُ أناقتها ، سيرفع قلبه مُحَيِّياً ، وعينه تتسلقان ستارة الأبدية .

ز - وصف البيت :

الغُرُفُ تتناظرُ . الأرواحُ تتناظرُ . الشبهاتُ القويَّةُ تحومُ حولَ أصصِ النباتِ في الزوايا . والرُفوفُ الثقيلةُ تُسهِّلُ ، خلسةً ، عبورَ الكلماتِ من كتابٍ إلى آخر . أمَّا الأصدافُ المنضدةُ ، كزينة ، قربَ الأرائك ، فهي فكرةُ الماءِ المتكثمةُ على لوعتها . وما من رمادٍ لفاقةٍ يسقطُ في منفضةٍ نحاسٍ إلاَّ يتنبَّلُ ، كأنه ينكفيء على مذهبهِ ليهيئَ التحلَّ . وثمت حقايبٌ أيضاً ، وأشباحٌ حقايبٌ تتأملُ خرائطها اللهبية ، مُفتعلةٌ جدالها لتُلفِتَ الداخلَ إلى أنْ المُمكنِ ، وحدهُ ، هو الساهرُ على فتوحِ المُمكنة .

٢ / مشيئةٌ تؤنّفُ المشهد

أ - محبرته :

أيتها الحمى الأكثرُ شروداً ؛
أيتها الحمى ذات المكايل التي يندلقُ منها الصُّعترُ ،
ضعي ساقاً على ساقٍ في مقعدك العالي ،
فالواقفُ في الحلبة ، بظُّله الذهبي ، سيَطِيلُ الوقوفَ حتى تخرجَ
الأعمدةُ عن طورها ، وتنهضَ المَدْرَجَاتُ إليه مهرولةً بالجالسين عليها .
والغبارُ سينفضُ عن قبة الغبار ، بفرشاةٍ من الألق ، سَهَرُ الأقفالِ ،
وستتماوجُ المراوحُ الأنيسةُ حيث تلتقطُ الفتنةُ من أيدي الأميراتِ زيببها ،

لينشغل الموت الخفيف بالتقاط قطنه المتناثر ، فالواقف في الحلبة يسند
الأعالي المهذومة براحته الأكثر رقة بين الراحة ، ويعذر الغد الذي يعتذر
إليه كبستاني "أعمل الحديقة .

أما التواريخ التي تتعارك قرب محبرته ، كرامة تداخلت قطعانهم ، فلا
تلبث أن تعود إلى قيلولتها .

ب- علبة تبغه :

من سيعبث بالنشيد أكثر حتى تتعثر الريح ، ويحضر الغمام أزاميله؟
من ، لفافة لفافة ، في الثقل المسك بيوقه ، يحرق الستارة ليرجع الممثلون
إلى المقاعد التي سُرقت؟

ذهب أثري يتماوج صاعداً أعلى فأعلى ،
والدخان الذي يخرج ناعساً ، بدفع خفيف من شفتين ناعستين ،
يصرف الملوك ، كأنما - في خلوة الأقحوان - يوزع الواقف التحيل إماراته .

ج- قهوته :

فليدخل النهار المزمجر برهبانه الجاحدين ؛ بدلافينه ، وبالحرمة
الحنونة لأذيال النمر . فليدخل مُشْتَتاً يحرق كرسيه النوراني ، أو مذعوراً
كغزالات يقفزن عن السياج العالي للحقيقة العالية .
فليدخل النهار مغلولاً في سلاسل البن ،
يتقدمه المغيب إلى حصار النبوءة .

د- كسله الصباحي :

كتاباً كتاباً يفتح الجدار ذو الرفوف عينيهِ ، والسنارة التي تنزاح ، في
خفقات توجعها يد كسولة ، تحرر الشجر العالي ، وتطلق سراح الأبنية .
وثمت من يلم ، بعد ذا ، ما نسيه الليل على الأرائك من مجاهل ،

وحروب ،

وحلى ،

وقوانين ،

وحبر ،

عائداً بها إلى سريرهِ الذي تناهتهُ المجاهل ،

والحروب ،

والحلى ،

والقوانين ،

وتمدّد عليه الحبر في غلالته الشفيفة .

هـ - سيرة قلبه :

تمالك ، أيها الحريق ، نفسك وأنت تنشجُ نشيجك العالي ، إذ
يجعلك الألم ممناً للآليف الذي فيك ، وللشفافة المحبوكَة بقُبَل تسهرُ
عليك سهرها الفاتن . وأتسع في هدوء ، فالمكان لك بطنافسه ، وأجره ،
ومواثيقه ، وسعاته ، وكمائنه التي تلتصع كأسنان ذهبية . ولك الهواء
المدحور في المعركة ، وتراجعُ العاشق ، والجرحى الذين يتوسلون الضربة
الأخيرة من الجرحى ؛

لك

أيها الحريق ؛

لك ،

أيها الحريق ..

حين الأبعدُ يرتجلُ فرَاساتِهِ ، مُرسلاً صقورَهُ ذاتِ الأطواقِ إلى المشهدِ ،
لِيُسَيِّرَ العائِدُونَ من القيامةِ بأناملهم هامسينَ : «يا للقيامة» .

و- نظارته :

في كلِّ ركنٍ من خزانةِ الشيايبِ نهاراً متنكِّراً . وعلى المائدة - قرب
قارورةِ الخلِّ - شُرُوحٌ وبسالاتٌ خُلفها الزائرون . وثمتَ مجاهِلُ رشيقَةٍ
تتأملُ زينتها في المرأةَ ، وسيَرُ ممتزجةً برائحةِ دهانِ البابِ ، وعناقيدُ ثومٍ
تلتقطُ فراشاتِ الطهولِ الشاردة .

وهو

إذ يتلمسُ نظارته يتلمسُها لا ليرى هذا كله ، بل ليلقي نظرةً على
شبحه الباحثِ ، فوق السريرِ ، عن قمصانه التي تُبعثرها الأناشيد .

٣/ هو، في الأكيد ذاته..

صَحْبُهُ صَحْبُ الزيزفون . جهاتهُ جهاتُ الزيزفونِ ، وخذتُهُ ما يعتذرُ
الوردُ به إلى الوردِ ، والمكانُ حجلٌ في يديه . وحيث يتكئُ بمرفقه على
الوسادة تتكئُ الفكرةُ أيضاً ، مُشدَّهةً بالرحيلِ الذي فيها . فإنَّ أسرتُ
إليه مصبَّاتُهُ بالغمامِ المجلوِّ تحتِ سيوفِ الرِّذاذِ استشرى ، دافعاً بأقواسِ قزحٍ
إلى المنابعِ ، وهو يطعمُ المدائح - المتزاحمةَ كالسَّمانى على حقلي متكبَّيه -
من أقداره .

وبانقضاضِ كالنِّعمةِ يأخذُ الممرَّاتِ إليه ،
كأنه - هو - من ستسردُهُ الحديقةُ على مواجهها ،
ومن سيرفعُ الحَقِيقَةَ الأقوى إلى الجناحِ الأقوى .

وبانقضاء كسكينة المعركة سيحرر الليل من ظنون الحقيقة ، وهو
يلف مثزرة على الخنادق ، كأن الخنادق أطفاله المستحمون .
أما الفراشات ،
التي نسو الحبر بأسلاك من يقينها ،
فهي صفقته الأخيرة .

وصخبه - بعد هذا - صخب الشعاب ينهبها المنهبون ، مسحورين
في سطوعهم على الألم الساحر . وبالذي فيه من نايات الرخام ، التي
تتقدم السكينة إلى ميراثها ، يطوق الخرائب المتألقة في غضبها . واللق
ذاته المسك بفرشاة الدهان ليرسم مأذن العشب وقباب الندى . ويدل
الشهود ، الذين يجرون الشهود من الأكثاف ، على المشهد ، ماسحاً زجاج
نظارة من ضباب المكيدة ، ليبتسم أكثر :

فالمذايح

تتأمل -

مشدوه -

حينه

الضاحك .

وما من خندق في خلجاته إلا يحمي المعجزة من فتنتها ، كأنه
سيذهب بالمكان أبعد مما يسع المكان ، وبالذوي القادم إلى كل أكيد .
وهو يشرف كنذر - من الحقيقة التي تتسلل إليها الحرائق مسكة
بمقصاتها القوية - على كمائن البعيد ، ملهماً رقباءه الفرانين أن يخلطوا
الحروف بالأرغفة ، تاركاً قلبه - الذي يلتهم البروق فاجعة فاجعة -
للكمين الأكبر ، حيث تكتم الأناشيد أنفاسها لثلاً يجفل الحبر ، ويتمزق
المساء في دروعه .

وحيثاً بعد آخرٍ ، إذ تتأملهُ الحداثق ، يُغضي ،
مُصغياً

إلى

الحياة

تحفرُ

بأناملها

المسلوخة

خندقاً لذاتها المكشوفين .

يا لشؤونه ، إذا -

يا لشؤونٍ تعبتُ بالعاصفة ،

وتداعبُ الينابيع التي تتقاذز كجراةٍ سلوقي بين متاريسه -

كم يجلسان متقابلين يرمي بترده على المنضدة وترمي بتردها ؛

كم تجلس التواريخ بينهما وهي تحفُّ بأنفاسه ذؤباتها المبلولة !

وهو إذ يميلُ في مجلسه ليداعب الفهود النائمة قرب يقينه ، ويمسحُ

بقميصه السلاسل المشدودة إلى المياه ، يلتفتُ إلى المشيئة في قفطانها

التيروزي هامساً : «عمي صباحاً» .

فلا تتأففن أيها الصباح إن زجك في الملهاة ،

لأن البطولة التي تتأبط برسيمها وخوصها ستحييك من المجازات

الأسيرة في رثيته ، ومن الشفق النازف لوعة لوعة في الأكيد العالي ، الذي

يدحرج الشهداء فوق حريره خوذة الموت المكسورة .

وهم شهداؤه ، على أية حال .

هم شهداؤه الأكثر اقتحاماً للموت بمداحل الأجر .

والبيوت التي يعبرون ساحاتها ، شاردين في حنينهم ، هي سلالمة

الكبيرة إلى المديح .

فلا تتأفّقن إنّ زجّك في الورد ، وقيد المساء على كرسيه ،
لأنه سيطلق الأمكنة من تعب الشّفيف حرّة إلى هذيانها ؛
حرّة إلى آخر الألم ،
أنيسة ،

تتماوج كأعراف الدّيكّة وهي تستعرض المغيب المتخبط كحنكليس
في شباك الفجر .

يا لهُ ؛

يا لشؤونه ؛

يا لصرخة الكرّز المكتومة في الفيء الذي يتقاسم قلبه سهلاً سهلاً ،
ومدارج مدارج ؛

يا لنا ، كم سنناديه في الحكاية التي تناديه وقد أثقلها العابرون
برمادهم العابر . كم سنقاسمه النّهب الذي يمسن بأقراطه حينه ننحني
مُقبّلين فم الحياة الأبعد ، هامسين : « جرّ رداء الخواتيم إليك ، وتلمسن
بأناملك الحرّة هذا الألم المشدود كجلد قفمة ، فرُبّما سهرت كسهرك
الخسارات ، وحاكتك المصائر فبعثرت أوزار الخنزف المنضدة على رفوف
الغيب . واستدرّ رخياً من مكانك الطليق فللبحر قربك أنينه الطليق » . يا
لنا .

إنه يجمع المغاليق في يديه كما يجمع القلقُ القرائن ، ويخطو خطواته
العنية إلى بيانه ، مُقتفياً أثر الموت الذي يجازف بنفسه حين يلقي بها في
الحقيقة . وهو لا يعبا ، في عبوره ، بالمشهد المستعاد كبرهان ، فالخروف
تُكلّل - على أية حال - بالمواثيق . وفي وسعه أن يلتفت من المُحكّم إلى

المُحَكَّم ، حيث النهارُ كَرَاءُ نَوَارِجَ ، والتمائيلُ تهيم على وجهها في شحوب
الحدائق ؛ حيث المعجزةُ تتسوّلُ أبدَها من العرقى ، والطيورُ ترقد تحت
الأقنعة .

إيه ،

في وسعه أن يتقرّى المفاتيح الكبيرة التي تذوب في الأيدي ، وأن يجرّ
الغبازَ المُخْتَشِمَ إلى لَهوٍ مُخْتَشِمٍ ، فالمعادنُ خائبةٌ ، والضياءُ المسعورُ ضياءٌ
مسعورٌ ، والجعبةُ الخلقةُ تتساقطُ منها السهامُ والأحابلُ . أما البقيةُ التي
من رجاءٍ فهي ، أيضاً ، هناك بَبْرَكَةُ الصُّرْخَةِ ، مبتلةٌ بالحليبِ المندلقِ على
اللحى ، والنبيذِ المُهْرَقِ فوق الأحذية .

وفي وسعه أن يطوقَ الساعاتِ الرطبةَ من أثرِ الأنفاسِ ، تلكَ المغزوةُ
بفحولةٍ تستقصي الشمرةَ المُهْمَلَةَ ، ويَمَسُدُ الحمى الذهبيةَ حيث الأساطيرُ
تدخلُ مرتعشةً إلى نصرها الباردِ . إيـ

يـ

يه ،

قَسَمَ المياهِ عليه ، قَسَمَ الحظوظِ عليه أن يهيئَ البعيدَ لبطشِ البعيدِ ،
متكئاً بمشاغله على الألقِ الذي يغورُ ، عميقاً ، في جَمالٍ منكوبٍ .
قَسَمَ المللُهاةِ عليه أن يوثَ الرِّيحَ التي تتقاذفُ الكَمالَ الموحشَ قلعاً
قلعاً ، كأنما - في الحنينِ الذي يتجرأ على كلِّ شيءٍ - لنحيلٍ واحدٍ ، بأزيرٍ
من السنايلِ ، أن يضلّلَ الرِّيحَ .

.. ومن كَمِثْلِهِ سيدلّلُ الفكاهةَ حتى لكانَ الجهاتِ درهمٌ يتقاذفه
الشَّحاذونُ؟ أنيسٌ في الصخبِ الأنيسِ ، ولاقترابه العيَّارِ دعابةُ السارقِ
الذي لا يأخذ من الكنوزِ إلّا توارِيخها .

وهو يُخصي

قَدْرًا

قَدْرًا ،

بالحسابِ الفاتنِ للعنب ،

وَيَعْدُ عَلَى الْأَصَابِعِ ذَاتَهَا الَّتِي تَوْقِظُ الْفُرُوقَ .

فلا تَتَبَرَّجْنَ لَهُ الْمَوَائِقُ ، لَأنَّه عَاكِفٌ عَلَى هَذِيانِ الْمَاءِ ، مَنَدَفَعًا -
بِانْسِكَابٍ لَا يُمَسُّ - بَيْنَ الْأَغَانِي ، وَمِنْ حَوْلِهِ حِمَائِمُ الْأَجَرِّ الَّتِي يَلْتَهُمُهَا
الْيَقِينُ ؛ مَنْ حَوْلَهُ الْعِظَامُ الْمُنْسِيَّةُ تَحْتَ وَسَائِدِ الْمُلُوكِ ، وَالْحَقِيقَةُ الْمُنْصَتَةُ إِلَى
صِقُورِهَا الْعَمِيَاءِ . أَمَا الْمُلْهَاءُ ، ذَاتُ الْأَوْدَاجِ الْمُتَوَرِّمَةِ مِنَ النَّفْخِ فِي الْأَبْوَاقِ ،
فَهِىَ تَقْفِزُ مِنْ مَخْبِرَتِهِ كَسَرْعُوْقَةٍ حِينَ يُخْصَى جَمْعًا
جَمْعًا ،

بالحسابِ الفاتنِ للوحدةِ ،

كَأَنَّهُ اسْتَشْنَى نَفْسَهُ حِينَ عَدَّتْهُ الْأَرْضُ عَلَى أَصَابِعِهَا الَّتِي تَوْقِظُ
الْفُرُوقَ .

كَأَنَّهُ ،

أَيْنَ؟

مَا الْهَبُوبُ الْفَيُومُ؟

إِنَّهَا الْمَسَافَةُ نَاتِيهِ مُخْتَبِلَةٌ لِنَتَقَوَّضِ فِي جَمَالِهَا .

١٩٨٩/٦/٧-٥/٤

مَا الْمَكَانُ الْأَسِيرُ

حِينَ نَأْخُذُ فِي يَدِكَ الرِّيحَ صَوْبَ مَفَاتِيحِهَا؟

ما الصدى؟ ما الحكاية ، ما نزلها؟
 ما الانين الذي يتهادى بسلطانه في هوى الحبر؟ نهب صغير
 يخبىء للورد راتحة اللين في سهر قاذ هذي الحديقة
 الى حيث يشكو الصباح
 أنه لم ينم في يدك اللتين اغتلى فيهما ذهب لم ينم ،
 فاعدت الحديقة
 الى وزدها ، وسرقت من العتبات الرقيقة
 شعاعاً له قسما الكان ، واوتخت للثرب
 بالذي اسرثك البراعم في ظلها . أي ظن
 سيلقيك في شبهات من السعف
 كي يرى من اعاليه أنك اشفقت أن تنثر الريح اكبادها في يدك
 فأوتتها ، والتجأت إليك؟
 أي ظن سيأخذ وسعك؟ يرق علي زنبق أو عسل
 بتلمس إنشاده ويغير عليك
 بشقيقاته يتهمكن مثل القبل
 فانتهب ما تشاء . المكائد من القى ، والحريق الأمين
 يميزك كئانه ،
 والهوب الذي أنت فيه هوب الستونو .

غَضُّ المكانَ أيها الحنينُ ، غَضُّ المكان .
وأنتَ ، أيها الضوءُ ، غَضُّ الهواءِ الحالمِ ، الذي يرفع «طوروس» سفحاً
سفحاً إلى أنينه الجبليّ .

غَضُّ أيها الذمُّ حديدك ، ولتغضُ الحقيقةُ من ندمٍ على كمالها
فالمكانُ ، هنا ، مكانٌ ، وأنا ذاهبٌ إلى حريقي ؛
ذاهبٌ لأقول للسَّهول أكثرَ مما يقوله الطَّيرانُ للأجنحة ،
ولأقول للأرض إنها مثلي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ على الفراغِ ، هامةٌ : «مساءً
الخير أيها الفجر» .

ذاهبٌ لأصمت أكثرَ من شُبْهةِ تَكَرَّرِ الشُّكلِ آدمياً آدمياً ، قَلْوَعَتِي
مكانٌ ، وحنيني حنينٌ الوقتِ إلى أمومةِ الجُماد . كاني - هكذا - ساعيدٌ
على الحقيقةِ سَرَدَ ظنونها ، وأخْفَنُ الشمالَ حَفَنًا كأنه حنطةٌ لم ينثرها
الحرَّاثون في الأثلام العميقة لحارثِ الله .
فيا الجُمادُ المُعافَى ؛

يا الجُمادُ الساهرُ على رحيلي كُنْ مؤانئاً ، لا كَوْنِ مُتَسِعاً أكثرَ لريحك
الأبويَّة ، وكُنْ يقظانَ كنوم يقظانَ ، يا شفيح الغواية ، حين تصرخ : «مساءً
الخير أيها الفجر» ، كأنما تُقْلِدُ الأملَ الموجعَ ، الذي يُقْلِدُ الحياةَ بصوته
الأنثويّ .

كثيرٌ هذا الذي يُهديني الموتُ لأكون مُمتناً لأنيني .
كثيرٌ هذا ، أيها الجمادُ ، لأقول الذي يُفتِنني في الضجيج الممزق هنا ،
حيث تخرج الأبدية حافيةً إلى الشرفة بعينها الباكيتين .

ذاهبٌ إلى كلِّ شيءٍ .
ذاهبٌ إلى كلِّ شيءٍ .
ذاهبٌ إلى غَرْقٍ آخرٍ للسماء .

ذاهبٌ إلى الأسواق ذاتها ، المنذورة لشمال لم ينثره الحرّاثون في
الأدلام العميقة لمخاريط الله ، خفيفاً أعمقُ من شتاء ، وأضلُّ من
الأقحوان ، حيث عواصفُ القماش في الأروقة ؛ عواصفُ الشاي في
الأروقة ؛ عواصفُ بسيطةٍ في الأروقة تُجلجلُ بطاساتها النحاسية كعباءة
«عَرْقِ السوس» البارد .

وأنا أتبع العتالين من شاحنةٍ إلى شاحنةٍ ،
ومن ظمأٍ إلى ظمأٍ ،
ومن مقاديرٍ إلى مقاديرٍ ،

خفيفاً كقضاء يجتهدُ في اختيار النهاية ، لأنني سأترجمُ الظهيراتِ
الأكثر نكبةً كما تترجمُ الديكَّةُ النهار ؛
خفيفاً أتبع العتالين إلى أخري - إليّ ، في الرواق الممهَّد بالضملالِ
النبيل للخطي النبيلة ؛
خفيفاً كأنما أوحيتُ إليّ بالعَثرة التي قدَّم الوقتُ بها جسارته إلى
الخلود السكران ؛
إليّ ،

إليّ ،
باللهات المُمسَدِ كُفروِ تحت خُطى العتالينَ ، وهم يصعدون بأكياسِ
القمح إلى المشيئة ؛
إليّ ،
فاحشاً كانقطاع الحقيقة عن ثرثراتها .

وأنا في اتجاهي إلى الشاحنات الكبيرة ، التي لم تنسني ، لا أُلْمُ
الحقول بل أذُرُّ الحقول في الهواء ، وتحت إبطي كيس الذي سأجمع فيه
المذابح متأثلاً فراشات أعمارها .
فلا تنتظرنني أيها الوقت ،

لأنني مزعج أن أتكرر في قناع الدم - شبهك ، الذي يدينُ للأساطير
بفكاهاته ، وأن أقايضَ النهارَ عظاماً عظاماً ، حاملاً مَيَادِعَ العتالين إليهم
حين يفيقون من القيلولة ، في الظهيرات التي تمحو الظلال بمحاحاتها
الصلبة ، وأنا أرشقُ الأعمار بحفنة من الشعير المنديلِ هنا وهناك ، حيث
رُفِعَتْ - من قبل - أكياسُ إلى الشاحنات ، وتركَ التعبُ جليلاً يسردُ على
سنابله القويّة رخاء المنسيين .

أهمس : «أيها العتالون - يا يقيني في الشتاء الذي لا عملَ فيه -
أيها العتالون؟» ، أهمس : صباحَ التعب ، يا صباحَ التعب؟» ، أهمس :
«أيتها الشاحنات ، يا أخواتي؟» ، مهلاً . كم يتكىءُ الحنينُ على سباج
بיתי متأثراً من نسياني . كم يُذكرني الحنينُ بي فأنسى ، لأنني هناك ،
في الشفق الأكثر طخناً بمغاليقه ؛ الأكثر سهواً وهو يُحصي الشعوبَ على
أصابعه المقطوعة .

وأنا مُعتَلِّلٌ للنسيان ، الذي يوزعُ الحريقَ قلماً قلماً ، مُصنعٌ إلى الخبرِ

الساهر بثيران من الماء على سهوله المنسية ، حيث ترفع السنابل ، مثلي ،
مَبْدَعَةُ الْأَرْضِ إِلَى الْعَتَالِينَ ؛ حيثُ أَرْتَفَعُ إِلَيَّ بِنَبْضٍ مِنْ صَحْبِ
الْحَصَادَاتِ الْأَلِيَّةِ ، وهي تَذْرُفُ الْقَشَّ عَلَى الْجَمَالِ الْمَدْحُورِ ؛
إِلَيَّ ،

بجبل يدفع الجهات من حوله ، بيديه المائستين ،
موسعاً للوحشي كي يتخذ الوحشي زينتَه الأليفة .

أأهمس : «أيها العتالون»؟ . هو الشعبُ يهمسُ كلماته المهجورة كي
يوقظني في الألق المُنميك بالحياة ، إذ تنسوقُ الحياةُ في ممراتِ الريح
الكبيرة ، كامرأةٍ قطعتْ وليدها ، ضاحكةً للعطارين ؛ ضاحكةً للنهاية التي
تعتثرُ بسلالِ الرُبيب ؛ ظالماً حكةً للضياء الجزار يكسرُ الأرضَ ، بساطوره ،
ضِلْعاً ضِلْعاً .

يا لَذَعِرِ التراب :

كلُّ مشهدٍ يقطرُ العرقُ من صدغيه .

كلُّ فجاءةٍ تهطلُ في القيلولة التي يرفعها العتالون إلى ظهيرةِ الحلم .
وأنا أهمسُ : «أيتها الشاحنات . . يا أخواتي» ، راكضاً بالحقيقة ؛
بالمكان المنتصر في خسارته ؛ بي إلى أعضائي المُشرقة من الموتِ على
عويلها .

وللقطار الوحيد أهمس ، أيضاً : «يا أخي ، أيها القطار الوحيد في
الشمال» ، حيث يتسربُ الشَّعِيرُ من شقوقِ المقطورات فيتلقَّفُه الجوعُ بيديه
السوريتين ، مُسْتَنِدّاً إلى الفضيحة التي تتلوى منها الحروب كَعُقُولِ الموز .

ما هم : همُ العتالون يرفعون الجوعَ إلى الشاحنات ، بخطى تتسلَّقُها

السلام، ويقطفون الحروب من شجرات التوت .
هي الحروب تتسلق الشاحات هاربة بالانين السوري إلى العتالين ،
ليصعدوا أفواء إلى الحروب القوية .
وأنا والشمال عاكفان على أجرنا الدامي بصباحات كازاميل رقيقة ،
ننقش بها ما ينقشه العاديون على أجرهم الدامي .

شاحات في كل مكان : هذا ما أرويه للحكاية التي تُروى بتعب
يُروى .

شاحات في كل مكان ،
ككشافات تتألق في ضجيجها ؛
كمديح الشكل لنفسه ؛
كاغتصاب يهد للظل أن يطيح بالجهات .
شاحات كقلبي ، في شمال قلبي ،
وأنا أتواطأ مع الريح إذ تعلن السهول شقاقها ،
وأنقرى بيدي المعرفة ، تلك ، النشوى بالذي يحلج السنين بين يديها ،
وهي تنظر المقادير تدخل بملاعقها التي ستغرف بها المقادير كالحساء .

ثم . وماذا في الحطام الأنيق - ثم - إلا منازل هاربة تتعثر بالقتلى؟
والسكون الضاري هو السكون الضاري : قطار من المسافة إلى الوقت ،
بمقطورات تسرق الأقاليم والظلال ، وهي تخترق الغد السوري من الدم إلى
الدم .

فلا تشهقن أمام الورد أيها التوأم ، كأنك ابتكاره المسروق ، ولا تقل
للهار فكرتك التي تعيدك ، شعاعاً بعد آخر ، إلى بلاغة المساء ،
وابق - كما أنت - وحيداً ، في الفتنة التي تجعل الليل خلودك

في الفتنة التي ترفع معطفك الممزق إلى منكبيك كلما ابردت في
الحريق .

واتبع الشاحنات ذاتها إلى كل مكان ،
إليك ؛

إلى الشقاء الأخضر ،
الذي يرسمه قلم أخضر مسروق من فكاهة العنب ،
حاملاً نينك البهلوان ؛ عنبك البهلوان ؛ قمحك الممنع في تفسيره
الذهبي ، كأنما تمهد الحقول لك بإنشاء يُكتب فتلبس لها الريح ، ويؤوك
الليل تأويله النوراني فيغمى على النهار بين يديك .

أنتاً ، بعد هذا ، قدّم النهار في رجوعك من ألقى الليل ، الذي يبهز
عينيك؟ أنتاً النهار - شريكك النائم على الرصيف الذي يعبره العتالون
من الشمال إلى الشمال؟ حيّه ، أنت ؛ حيّ الشرّ القابض على ذكراك
بيدين من ظلام وضاء ، وافتح للشهوات أن تتشمّم ، كالهرة ، إبطي المساء
وأضلاعه الرطبة . فأنت تستعيد الشمال حفنة حفنة حين تقيس الأرض
بشهواتك ، وتقيس الهواء بالقبّل ، عريقاً كفجر .

عريقاً كماء ،

كفكرة ،

كنهب ،

كفراغ ،

كطلقة تُردي ؛

لأنك تصغي إلى الشاحنات الأنيسة متهادية إلى الصيف الذي ينام

على وسادتك مُدَّ تَعَرَّفْتُ اليَقْظَةَ عَلَيْكَ فِي حُلْمِهَا .
واتبعني فراشةً فراشةً ، كضجرِ حالمٍ ؛ زاهداً ، فاجْرُكِ المِياهُ اجْرُكُ
المِياهُ .

واستعنْ بالمصادفةِ المحبوكَةِ مِنَ الْقَنْبِ ، فالغبارُ - شقيقنا - لا يتكتمُ
على الكنوزِ التي تحاصرُ الموتَ ، ولا يتكتمُ الألمُ على الشمالِ الذي يجرهُ
القطارُ من حنينٍ إلى حنينٍ ، كأنَّ مجدداً ما ينقرُّ بأنامله على المنضدةِ في
سوقِ العتالين ، وهو مستسلمٌ للقرنفلِ يلقي عليه نَعاساً كالنحيبةِ .
وليتبغني الشمالُ إلى الذي لا يُخيفُ ؛
إليّ ؛

إلى القدمِ الذي يتفكّرُ في نسيانهِ لِيَتَبَكَّرَنَا هاذِئِينَ .
ولينتشرْ في حقولِ تليقُ بشمالِ مثله ، لَاتَبِعِ الهَوَاءَ الشُّغُوفَ بتفصيلِ
قلبي على مِقياسِهِ ؛ لَاتَبِعْهُ ، بدوري ، إلى الذي لا يُخيفُ ؛
إليّ ؛

إلى المديحِ الذي يُعْلَى بأنينِ كثيرٍ .
ولتكنْ معي هذه التي أحفرُ عميقاً تحتَ قلبها ؛
عميقاً ، إلى حيثِ اليقينِ - صاعداً - يرتقُ الفراغُ ؛ نازلاً يرتقُ الفراغُ ؛
هذه التي تتقدّمُ خائضةً في الحبرِ كضوءِ سكرانٍ ،
وأنا أدلّها على اللَّهَبِ لنتسوّقَ الرعدَ الذي يُخَيِّبِ ، والمساءَ الذي
يُخَيِّبِ ، نازقينِ كالقِ نازفٍ ؛
هكذا ،

كأننا نجتهدُ أن تكونَ الشُّقَاتُ حوَارَنا المُشْتَعِلَ في احتكامنا إلى
السهولِ ، وهي ترفعُ سراجها إلى الكمالِ الأعمى الذي يتسلّى بتزديٍّ من
الضوءِ في وحدتهِ .
كأننا ، باعترافٍ واحدٍ ، نعيذُ على الرُّمَادِ المُشْرِجِ آخرَ هرطقةٍ للجفَرِ .

يا للجمهر المتبرم من قلق شراراته ؛
يا للقلق الذي يستبدُّ بساتر البيت ، ويهيئُ الصباحَ كإفطارٍ ، حين
المكان يُنقَبُ عن حضوره بمحاولَ نوراثة ؛
يا لانشغالي وأنا أوسطُ الشمالِ في شِجارِ الجهاتِ :
أما من لوعة أخرى ؟
أما من كمالٍ آخر في المناقِ الذي يضربُ ضربةَ العَصَلِ الخالدة ،
متهمكماً - كنبوءة - من الروح ؟

كلها روح :

ضرباتي هذه ،

وأنا أنظرُ الشاحنات تعبرُ - كما أعبُرُ - قوسَ الجمالِ المرفوعِ على
حديدٍ ، والعتالون يُلْقُون - من فوق عوارضها الحديدِ - تحيةَ الأقدارِ على
الفراغ .

كلها روح :

هذه الممرات التي يعبرها القلقُ العداءُ حاملاً ظلالَ الأكاسيا على
كتفيه ، كأنما يذكرني بي ، وأنا جالسٌ في كمينِ الفروقِ التي تُعَذِّبُ
الحقيقة .

فاشوقُ طويلاً أمامَ الوردِ أيها التوأمُ ، كأنَّ الوردَ تُعاسِكَ ،
وقُلْ للنهارِ فكرتكِ ليُخصي المساءُ بكِ شعاعاتٍ تائهةٍ في فكرتي ،
لأنني مؤات الآن ،
وخطاطيفي الملتئمةُ في الغبارِ هي خطاطيفُ الغبارِ يرفعُ بها الأفقَ إلى
يقيني ،

لأنني أهمسُ ، مبتسماً للنهاية المَحْضَرَّة كعجلٍ من خطمها :

الحمدُ للشُّكْلِ ؛
الحمدُ للموتِ الذي يودُّعني كي يَكْتَمِلَ في وحدته ؛
الحمدُ لِمَا لا يدوم .

أَحْيِيْ ما يمضي على جَسَارَةٍ أن يمضي ،
وأَحْيِيْ ما يبقى على جَسَارَةٍ بقائه ؟ .
أُمَهِّلُ الحياةَ كي تُعيدَ إلى حروبها غموضَها المسروق ؟ :
إنه البهاءُ يُسْرَحُ الأرضَ فتتوضَّعُ في غبارِ شاحناتها .
وأنا أُخْلِي المَكَانَ مِنِّي ،

وأُخْلِي العَبَثَ المَفْتُوحَ كَشُرْفَةٍ من القهقهات التي نسيها البَنَّاوونُ ،
مُسَلَّاً - كمكائذَ عذبة - إلى حيث الأرواحُ تَقْلُدُ الأَحْيَاءَ
بفكاهاتها ، وهي تنتظرُ ، مثلي - على الجسرِ هناك - شاحناتٍ أكثرَ صَحْباً
بأبواقها الكبيرة .

وبأبواقٍ كبيرةٍ أوقظُ السماءَ النائمةَ في سَكينةٍ تَعْبِي ، لِيَكُونُ لَهْوٌ ؛
لِتَكُونِ العَجَلَةُ ، فالهَادِثُونَ لا يعثرونَ على أَلْقٍ ، والحاذِقُونَ لا يعثرونَ .

كلُّها صِيحَةٌ ، وأنا أُخْلِي اليقينَ مِنِّي فرسخاً فرسخاً ، عائداً بِمِيزَةٍ
الريحِ إلى العَتَالَيْنِ يَفْتَوْنَ الشِمَالَ كَالخَبزِ في حساءِ العدسِ ، لَأَنجُوَ من
الموتِ الذي لا يُعْمِتُ ، بِجَسَدٍ كَالْمَذَارِي يَنْثُرُ الحَقِيقَةَ في المَهَبِّ الأشَدِّ
لكمَالنا ؛

كَأَنِّي أُسِيرُ في فَتْنَةٍ تَتَوَسَّلُنِي من حولها الأرضُ أن أَسْتَعِيدَ الأرضَ ؛
كَأَنِّي في المَهَبِّ الأشَدِّ الذي لا أَسْتَعِيدُ فيه شيئاً ، ولا يَسْتَعِيدُنِي فيه
شيءٌ :

لأنَّ الضوءَ الذي يَمِزُّ العَضَلَ ، في هديرِهِ ، يَمِزُّ المَجَازَاتِ الشَفِيفَةَ ،

فانحني عليّ عميد

يـ

يقاً

حيث الفراغ يعرضُ عليّ ذَهَبِهِ ،
ويتقلبُ الغامضُ في سريري حتى آخر الموت .

يا للموتِ ، عميد

يـ

يقاً ينحني عليّ ،

ليستعيدَ القناعَ الذي أعارني ؛

ليستعيدَ مراياه ،

ومسائكةَ الصلابة ،

وفوانيسهُ التي يهتدي بها إلى ممراته ؛

ليستعيدَ

يـ

يبدني معافى كالشُّكْلِي .

وأنا أستمعُ نفسي ، أيضاً ، في المُشْكِلِ الذي يُقْلِقُ الموتَ ،

وأستعيدُ الموتَ معافى ، لأنحني عليه باسطةً لليقينِ المذعورِ سَكِينَةً

المدبح الذي يصعدُ عميد

يـ

يـ

يقاً من الانقراضِ ،

حيث يرفع العتالون بخطاطيفهم ممالكَ الأبديةِ إلى الشاحناتِ ،

صاعدين السَّلامِ العريقةَ ذاتها ،

نازلين السلالم العريقة ذاتها ،
باللّهات الذي يتمزّق فيه ابتكارُ الله ، ويَلْتَحِمُ ابتكارُ الله .
ولربّما همستُ : إنها خطواتي الواسعة التي يُعينني بها الموتُ لأخطو
إلى الحياة بارداً كروح ،
دافئاً كجسدٍ في ملهاته .
لربّما وعدّ .

لربّما شاحناتٌ شفيفةٌ تقود الشمالُ إليّ على عجالاتٍ شفيفةٍ ،
لربّما العتالون ، أولئك ، الذين من عَرَقٍ وأنسٍ ، يعبرون قلبي إلى سَهَرِ
الحنين عليهم ، حين يجتهدُ قلبي اجتهدَ الظلّ ، ويعظُ كما يعظُ الماءُ ،
وأنا استعيدُ الموتَ فُتُستعادُ خجولاً ، كأنما استنفذَ المرافعاتِ القويّةِ في
تَهْتِكِهِ ، واستعارني كحبرٍ ليعترفَ بخساراته .

يا لنعمةِ الخساراتِ أن تدوّنَ ما سيدوم .
يا لنعمةِ الخساراتِ أن تدوّنَ ما لن يدوم .

والغدّ ، الذي يُستعادُ ، غَدّ على أحابيله :
رقيقٌ يُستنفذُ الموتَ بحبرٍ مُستنفدٍ ، في المُتَسَعِ الذي لللّهاتِ ، حيث
الجدالُ الخفيضُ كصوتِ العائِرِ ينفخُ بضمٍ رقيقٍ على السطورِ المتشاربةِ
للحياةِ ، في الورقةِ ذاتها ، المُسَطَّرَةِ على عواهنها ؛
وأنا ، على عواهنِي ، أسطرُ الغيبِ في الورقةِ التي تمتحنني حَبِيراً حَبِيراً ،
حتى أسبقَ نفسي إلى الحنينِ ، معافى كدويٍّ يقطفُ الجُسُورَ .
لكن بيني وبين الحبرِ شاحناتٌ تُوَزَعُ الطفولةُ على أبواقها القويّةِ ،
فأسمعُ الشمالُ ينثرُ الجِهاثَ على حقوله ، وينتعلُ الفجرَ راكضاً إلى هَرَجِ
الليل .

يا للفجر الذي يُهدئُ الليلَ من روعه ،
وتُعرِّي الحقونَ أئداءه التي تُرضعُ الضياءَ المُتهتكَ كالحُمى !
يا للحبر ينزفُ المصائرَ من رزقةِ الحبرِ وسطوره .
يا لابتكارِ الشمالِ الذي يعيدُ الأرضَ إلى فِتْنَتِها الذهبية :
شاحنات ،
ومواسم ،
وخطاطيفَ حديدٍ ،
وقيافينَ يتخفى منهمُ الموتُ في قناعِ المياه .

حمى مياه قلبي ،
وأنا أغسلُ النعمةَ التي تغتسلُ في النعمةِ ،
مُتَرَفّاً كعذاب ،
كشقائقٍ تتطاحنُ ،
كغَدَمٍ ملاح ،
كهاويةٍ من شباكِ ذَهَبٍ تلتقطُ الأبدَ إذ يتهاوى .
فلا يَجْفُلنَ الشمالُ أن أَسْتعيذهُ ، هكذا ، فَلِقاً كالتَّرفِ ، متصلاً كعويلٍ
يتلَقَّفُ الطحينَ النورانيَّ من رحي الله ،
لأنني أتلَقُّ نفسي هكذا ، قَلِقَةً كالتَّرفِ ، جذلي بحماقاتها
النُّورانية .
وهي هكذا - مُذْ عرفتها - نفسي ، هكذا - مُذْ عرفتهُ - الشمالُ :
أرقانٍ نَسهرُ على الليلِ إذ ينامُ معافى كَشَكْلٍ ، ونُحصى لليقينِ جَهالاتِ
اليقين .

أَكثَرُ هذا لنكونَ مُمْتَنِينَ للموتِ ؟

طيش الياقوت

تصانيفُ النَّهْبِ

بأيدِ رُخامٍ يمسُدُّ الغيبُ شهواتِهِ ،
والمكانُ يطحنُ المكانَ ،
لستولي الحقيقةَ ، نهْبًا ، على إرثها أيها الموت ،

يا الماتُ ذو الصُّحُفِ المُثْلَمَةِ كأنَّ عَصْفُها الأزلُ فأدمى الأبديةَ ، ويا
الذي أَلَمُّكَ ميزانٌ ، وَعَدْمُكَ نَزيفُ الخوخِ يتحرَّى الطبائعَ بحصافةِ المهرجِ
الذي من نباتٍ ، أيها الموت ؛
يا الحاذقُ كَوَحْشَةٍ ،

أيها الإرثُ النورانيُّ للنسيانِ النورانيِّ ، ستبغيني مُذْ ساقَكَ اليقينُ في
يأسِكَ إليَّ ، وحرُضَني الأملُ - بكلماتِ النهاية - أنْ اعتذرَ إليك عن
جُرْحِ خَصِّكَ بهِ الموتُ أيها الموت .

أكلُّما التقينا ، جاريَ أيها الموت ، في المنعطفِ الإسفلتي حييتني
ببوقِ شاحتك الصغيرة؟ أكلُّما سهوتُ عن الكلماتِ أطلقتُ سراحَ الخبرِ
ليستقصيَ الأبدى ، كأجبرٍ ، في الساحةِ هناك ، حيث نجادلُ النساءِ
اللواتي يتقاسمن سلالَ الهندباءِ مع الملائكة؟

صمْتُكَ نقي ، لكنك شريكُ ثرثارِ أيها الموت ،
وكراسيُّكَ الكثيرةُ ، التي في المهرجانِ ، مصبوغةٌ بدهانٍ يتقشرُ ،
فلا تغادرِ المكانَ . عينايا عليك .

لا تتشاءب منتحلًا نعاسَ الصباح ، لأنني سَهَرْتُ المطبقُ على الأبدِي .
وخَفَضُ من صوتك حين تحدُّثُ الغد ، لأن جيراننا على قَلْبِي ،
والحدائق على قَلْبِي ، والنهارُ الممسوسُ موشكُ أن ترتجف يداه بالكؤوسِ
الزجاج التي ينقلها إلى الغاضبين .

سألتني أيها الموت ، من قبل ، أن أريك المعاطفَ التي خَلَفَها الآباءُ
اللامعدودون في الخزانة . وجادلتنِي طويلاً في الحنين الذي يتأمل الحدائقُ
من وراء نقابه الكَثاني . ثُمَّ حملتني - أيها الموت - عَتَبَكَ من ترددي في
مفاتيح المكان بعزلة الوقت .

حين تفتعل صَحْبَكَ لا أسدُ أذني ، بل أنقر بأصابعي نقرًا خفيفًا
على خشب المنضدة ، هامسًا إليّ : ها هو القَلْبُ يلتمس التفاتًا إلى قَلْبِهِ من
الضجيرين وأيامهم .

حين تفتعل صَحْبَكَ في المرزُوي الأعمدة الذهبية - صافقًا من
حولك النوافذ والأبواب ، وأنت تُخلَعُ الستائر ، وترتطم بالكتب المنضدة
على رف من رفوف الشهوة - لا أسدُ أذني ، بل أريك طنافسَ تليقُ
بالعبث ، وثريات من النحاس تُجَلْجَلُ إن أَقْتُلْتَ ؛ أريك المرأةَ المؤطرة التي
ستمرقُ فيها لتكون هكذا ، جريحًا ، تلتمس ضربة الهول التي تُخَيِّك .

عَتَلْتُكَ تدورُ مرتكرةً - في صريرها - على الحنين ، أيها الموت .
سلاسلُكَ رطبةً ، ورهائُكَ هو التجديف حين تدور بَكَرْتِكَ بِمُسْنَنَاتِهَا
الخمسة ، ويتهدل رِاقصُكَ المكسور ، متعريًا من نشوئك النُجمي لتغدو
شريكي ، الذي يَكِيلُ معي - في الميزان ذاته - مجرَّةَ الدَّمِ ويقطينه
المُعْرُش .

ولك ، جاري أيها الموت ، إطراقتُك النبيلة التي لا تُخفى ، كَمُرْشِدٍ
يكتُمُ الأملَ ، ويبوح باستعاراته المُبْتَلَّة في قواريرها الزرقاء . لك عِلْمُكَ

الذي أطبقت عليه دَفَّتِي الحياة ذاتِ الورقِ الصقيل . وحينئذٍ؟ أي وصف
إلى حينئذٍ؟ أمهاتٌ كاللندی يدحرجن ، في المياه ، حينئذٍ إليك ، كأنك
لا تتفكر إلا في الذي يتفكر فيك ؛ كأنك تتأمل البذخ الأعم للمغيب ،
وتصغي إلى الحمد يُشَدُّك ما تملكُ النعمة ، من ارتباكها ، في إنشاده .

مضخاتُ مياه ، وبستانيون ، حولك أيها الموت . بنجارٌ وأنابيق . عضلٌ
كثير وقطن كثير . أشياء . . أشياء أيها الموت ، والطين الذي يبرجُ زجاجُ
النافذة هو الأبدية تهيب بالمسّاحين أن يُنجزوا ما تبقى من تقدير المسافة
إلى ماضيك . والمسّاحون ، ذوو القبعات القشّ ، يحصرونك - قليلاً قليلاً -
- في ثلث المشهد ، بنواظيرهم المرتكزة على سيقانها الخشبية ؛ بمقاييسهم
التي من قماشٍ مطلي بالشمع ؛ بأفلامهم الرصاص التي يستلونها من وراء
أذانهم وهم يدخنون لفافات تضيء بجمهرها الخافت أقدار المكان وموازينهُ
المكسورة .

هي الحقيقة - التي تتعافى جُرْحًا جُرْحًا في فراشك المحترق -
تعيّرك فرشاةُ الدُهّان وسطلةُ المعدني ، لتعمّم اللون كيقين ، أيها الموت .
فأنتبغني : لدينا إرثٌ من القصور التي تنتظرُ الدُهّانين . ولا تدمدمُ
دمدمتك تلك لئلا نخسر الصفقة المعقودة بيننا وبين الأزل . كن هادئاً .
كن كسولاً لأنني أراك امتلات ؛ أرى كشفك ممتلئين ، وكذلك ريلتي
ساقيك ، وأناملك التي يعروها خمولُ البطران . أي . أراك اكتنزت ،
ولشحمك ارتجاجٌ إذا مسك الريش الذي لا تراه .

كن رزيناً كما يليق بمُتَرَف أن يكون ، وأنت تقسمُ النهار حصصاً
كالذهب على التباهات . واتبعني بذاكرتك الحداد ، بالسعاة القناصين
يضيقون بين أجفانهم في مسافة الجُرف الأزلي المُشرف على الهاوية ذاتها ،
التي يقرّ ظلامها حياء حين ينقل الله القيامة فيها من لوح إلى لوح .
ولا تبتذل مظهرك : لك زهد الرماد - أراك . حياؤك إسكافي ،

وحزامك من إحليل الثور . أما تبغك الذي يتأجج قويًا فهو تبغ البنّائين ،
أولئك الذين ييسطون أمامك تخطيطهم المذوّن بحجر رطب ، وهم ينتشّقون ،
في مداولانهم الصارمة ، ضياء العبث الهندسي وأرقامه التي لها صريف
الأسنان .

ولا ترفعن عويلَ بوق شاحتك الصغيرة عاليًا ، أيها الموت ، حين
تُحيي الجماد المنتظر على قارعة الشّكل : أطفالُ جيراننا نائمون ، مبتسمين
للحلم الذي يشهد فيه أمّك الأبكم للنّاس في اعتراف اليأس بالأمل إلى
لا نهاية .

إلى لا نهاية

إلى لا نهاية

إلى لا بداية .

أنت مثلي تشهدُ ختان الفجر ، ومشاجرات الضوء ، وكذلك النّزال
الصباحي بين المكان وحماقاته . أنت - كفراغ رّصي له ثرثرات الخوخ - لا
تُريك الحياة ارتباكها ، ولا تُربّها الفضيحة أكمل في الأنين .

حزينًا تتذكّر ، أيها الموت ، طفولتك التي لبسناها كاقنعة في الأعياد ؛
حزينًا تتذكّر حنينك المجروح بأعمارنا ؛ حزينًا تتقدّم إلى نفسك ، وحيدًا ،
بارد القدمين في حذائك المشقوب . والمساء المرير ، الذي يكلمك ، ينسى
مراراته إذ يسألك : «أين تمضي ، بعد هذا ، أيها الموت؟» .

شفقة العدم عليك أيها الموت ؛ شفقة المنسيين عليك يعودون إلى
الحياة بفكاهاتهم .

شفقة الفكاهة عليك وهي ترمي بالأقدار إلى سريرك الممزق وقد تفلّع
حشوه الفطن وقضبائه النحاس . وفي توقك إلى النهاية تحتطفك النهاية
إليك ، لا إليها . فيا ابن الفراغ الذي يتقصّى بأمومته نهارك التائه ، أيها
الموت : ركّلة تفتح الباب ، ركّلة تفتح الأبدية على فجورها ؛

رَكْلَةً تَفْتَحُ بَابَ الْفِرْدَوْسِ فِي ثَغْرَةٍ مِنْ سِيَاجِكَ الْمَصْنُوعِ مِنْ قَصَبِ
الذُّرَّةِ ؛

رَكْلَةً خَفِيفَةً تَدْحَرُجُ الْكُونَ إِلَى إِعْجَازِهِ .

فاحذرْ مثلي - أيها الموت - غَدَرَ الشَّجَرَاتِ ، وَغَدَرَ الشَّرَابِ الَّذِي لَا
يَقُولُ حِكْمَةَ الذَّهَبِ . أَمَّا الْفَنَاءُ ، الَّذِي يَبْقَى جَالِسًا بَعْدَ خُرُوجِ زَائِرِيهِ ،
فَهُوَ يَتَهَكَّمُ بِلُغَةٍ لَا يُتَقَنَّهَا : إِنَّهُ فَنَاءٌ كَأَجْرٍ لَمْ يُسَدَّدْ بَعْدُ . وَالْعَدَمُ الَّذِي
كَلْفَاءُ أَوَّلَ ، أَوْ كَنِعْمَةٍ تَتَأَمَّلُ حَنِينَهَا ، لَا يَدْخُلُ الْمَكَانَ ، بَلْ يَبْقَى مُنْتَظَرًا
مَنْ يُحْضِرُ إِلَيْهِ خُفْيَهُ ، وَعَكَازَهُ النُّورَانِيَّ ، كَيْ يَحَرَّرَ الْآبِدِيَّةَ مِنْ كَهُولِهَا .

أَتَصْغِي إِلَيَّ؟ أَرَأَيْكَ سَهْوَتَ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ، وَأَنْتَ تُحْصِي كِتَابًا مِنْ أَشْبَاحِ
تُمَهِّدُ الْوَقْتَ دَفْتَرًا دَفْتَرًا الْإِنْتِصَارَ الْخَدَائِقَ ؛ - أَشْبَاحُ كُلُّوْعَةٍ تَصْعَدُ الْمَدْرَجَ إِلَى
الْحَقِيقَةِ ، ثَقِيلَةً فِي حَدِيدِهَا ، وَخَوْذَهَا ، لَتُسَلِّمَ الْبَاشِقَ إِلَى الْيَقِينِ .

أَتَصْغِي إِلَيَّ أَمْ إِلَى حَيَاةٍ تَسْهَرُ ، أَنْتَ ، عَلَى كُنُوزِهَا ، أَيُّهَا الْمَوْتُ؟ تَعَالَى
تَدْخُلُ أَسْوَاقَ الْجَزَارِينَ الَّذِينَ يَسْتَمِيلُونَ الْحِكْمَةَ إِلَى فَكَايَاهَتِهِمْ ، رَافِعِينَ
رُؤُوسَ الْأَغْنَامِ وَأَحْشَاءَهَا إِلَى الْمَوَازِينِ ؛ وَقَدْ يَقْشَرُونَ أَظْلَافَ الْمَاعِزِ ، أَوْ
يَهْوُونَ بِالسَّوَاطِيرِ عَلَى أَضْلَاعِ الشِّيرَانِ . تَعَالَى ، إِنَّهُمْ يُصَنِّفُونَ الْعِصْلَ ،
وَيَرْقُقُونَ الشَّحْمَ كَالْمَجَازَاتِ ، كَأَنَّمَا يَعْرِفُونَ أَنَّ الْمَضْغَ الَّذِي يُقْرَقُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ
فَمِ الْأَرْضِ تَمْضُغُ الْقِيَامَةَ قَبْلَ نَوْمِهَا .

وَحَسِّنْ مِطْوَاتَكَ الَّتِي كُنْهَارٍ فِي جَيْبِكَ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ، فَقَدْ يَحْتَجِزُكَ
الْحُمَقَى فِي الْأَسْوَاقِ الْمُسْتَقْفَةِ بِقُرُونِ الشِّيرَانِ ، لَيْسْتَ تَفْهَمُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا أَيُّهَا
الْمَوْتُ ، أَوْ يَسْهَرُوا مَعَكَ - فِي الْحُمَى الَّتِي تَفْتَدِي نَفْسَهَا بِالْصَّرَخَةِ
الْخَفِيفَةِ إِذْ يُخْتَنَنُ الْأَبْدُ - كَيْ يُضَلَّلُوا كَوَايِسَهُمْ . وَإِنْ جَاوَرَكَ الْمَسَاءُ
الْمَكَارِي اسْأَلْهُ الْغَدِيَّةَ الَّتِي هِيَ عِبُورُكَ ، مَثَلَمًا ، إِلَى الْإِكِيدِ .

أَهْ ، كَمْ تَتَبَرَّجُ بِالْفَكَاهَاتِ الَّتِي أَسْرَدَهَا أَيُّهَا الْمَوْتُ ؛ كَمْ تَتَبَرَّجُ بِبِقِينِكَ
وَأَنْتَ تَسْرُدُ الْفَكَاهَةَ عَلَى الْحَيَاةِ . رَسُولُكَ الْمَسَاءُ إِلَى جَنَائِنِ النَّهَارِ الْمَنْكُوبَةِ ،

وأختامك أحتامُ الأنين أيها الموت . وشهواتك؟ عُذُها : إنها تتفجّر كحبوب
الذرة في القلّة .

ما من مشهد يعبرك قلماً أيها الموت ، كأنما وحدك - في المشهد - قلَقُ
المكان تخرجُ عليه جهائهُ . ومفاتيحك؟ يا لها . تتدلّى من السلسلة الرقيقة
التي يتدلّى منها الأفقُ . وهي ، على أيّ ، سلسلة من الصنف ذاته الذي
تتدلّى منها ساعاتُ الحسبة ، ومفاتيحُ الصيّرفين ، والأقدارُ المطلية بالنيكل
على صداري البائعين ، هؤلاء ، وراء آلاتهم الحاسبة كملائكة حوصرت
في الحديد ، وهم يُخرجون الحقيقة عن طورها بابتساماتهم المُلغزة .

صفاؤك الآن ، قرب سياج البيت ، صفاء الخسارة أيها الموت . وورثاتك
الرابح وهانُ الحمى التي تشقق الثين ، في الظهيرات ، للعصافير . وأنت ،
كورّاق حصيف ، تموّ الحبر على الحروف بحروبك التي تحشد لها أحلافَ
العنب ، هنا ، حيث ثغور الفاكهة هي الشغور التي يتسلّل منها العداؤون
بأقدار الفاكهة ؛

حيث حتقُ الغبار يبلل المساء العاقل ؛

حيث اليقين الماكر ، والعصافير المرتطمة بذهول الحداثق ؛

حيث قطعة الليل بين الألم والحمى ؛

حيث المجاذيف ، والأقنعة الرحيمة كأنما فاكهة تحتال على الفاكهة ؛

حيث الأملُ يغتصبُ شقيقاته على السرير ذي القوائم التسع ؛

حيث الدهاء الذي من وردٍ يشرفُ على خسائر الحقول ؛

حيث القلائلُ الكبيرة هي قلائل الصّعتر ،

والشغبُ الكبير هو شغبُ النعناع ؛

حيث الشكُ - ضاحكاً - يلقّمُ العذوبة ، بيديه ، حساء الآلهة .

والأرقامُ أرقامُك أيها الموت ، تتراءى ، نديّة ، للممחה

العذبة في رقتها .

هذا هو نَسْجُ الليل وأنيته قرب سريرك ، أيها الموت .

تعال ، إذا ، وصل الطهارة وأنت ما تزال في حيرتك الرقيقة ذاتها ، وراء سياج يتسلقه الضوء الذي يُغْمَى عليه من تحرُّشات الورد . تعال : مُدَّتِ المائدة ، ورُصَّتِ الملاقي الكثيرة ، وفي الصُّحُفِ الواحدة تجاورت الحقيقة والبصل ، والكسَادُ المُلْعَلُ لليقين ، وخرائب النعمة ذات الصُّوع الذي للكرفس ، واليقينُ المغامرُ ، والمساءُ ذو الحراشف . فيما تنتظر الأَصْنَامُ الصغيرة ، بخزفها المحروقِ كرويا الضُّبِّ ، شعاعاتك المُخْصِبة ، ومديحك الأشقر كروح كلبة .

المرئي قُرْعَةٌ لَا تُجِدُ اسمها في حروفك . وفي كل حركة تُحْطَمُ الفجر الذي لا يسترسلُ إِلَّا غريقاً أعمى . كأنك تحتكم - بالضربة الدفينة للحقيقة ، التي ترفع أعضائك الدفينة في ظلامها - إلى خساراتك الراححة .

آه ، للموج حنينه إلى سَكينة المياه ، وللسكينة حنينها إليك إذ تمضي - أيها الموت - إلى الغَلْبة بأنصارك الصاخبين . تعال : تمايلُ المساء الكثيرة ، التي تذبذب رويداً رويداً في ظلامها ، تُرْثِكُ الغُرفَ المضاءة في فراغها ، وتُذَرِّذُ عليك ، كَرَشَاشِ الماء ، محاورات تنسى قائلينها الموتى . وترققُ بيديك الرطبتين كمحاجة أيها الموت ، فَلَا تُشَدُّ النسيانَ من قميصه إلى المائدة : يكفيك قلبك الذي من جُسُور ترتفع بأجنحة المياه ؛ يكفيك قلبك المتأه لا يهتدي منه إليك إِلَّا العَبْثُ قَابِضاً على حياته .

صواعق تتسلقُ نَفْسَهَا إليك . بروق تتسلقُ الوردَ إليك . الأبدية المُخْتَطَفَةُ من حنينها تتسلقُ الفكاهة إليك . المرعون من يقين إلى يقين - وهم يتعشرون بالقيامة في سَكْرِهِمْ - يرونك في الظلال كلها ؛ في الظلال القوية للمكروم حيث تتخاطفك ملائكة من العناقيد كَفَناءِ مُسْكِرٍ . ورفبة

الغد ، الذي عليه بعضُ غبارك ، هي رَهْبَةُ الغد في انشغاله بما ليس فيه .

أَنْتِ لَا تَنَامِ ، فَلَمْ اسْتِرَاقْكَ السَّمْعُ عَلَى النُّومِ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ؟ تَتَشَاءُ بِ
فَأَبْتَسِمُ لَكَ ابْتِسَامَةَ الْعَارِفِ : « يَا لِبَنَاتِي لَكَ الْمُضْحَكَةُ . يَا لِعَيْنَيْكَ
الْمَغْرُورَتَيْنِ بِحَبْرِ يَطْحَنُ الْمَفَاتِيحَ » . لَكِنَّكَ تَسْرِقُ خُفْيَ النُّومِ لِلَّذِينَ يَتْرَكُهُمَا
عَلَى الْعَتَبَةِ ، فِي دُخُولِهِ عَلَيْكَ ، مُسْتَأْذِنًا خُلْمَكَ الْيَقْظَانَ ، حَامِلًا
مَصَابِيحَهُ الَّتِي تَنْتَظِرُ الْوَقْتَ بِمَحَارِثِهَا .

قَطِيعُكَ قَطِيعُ الْغَضَبِ أَيُّهَا الْمَوْتُ . هَرُوبُكَ صَاحِبٌ فِي كَلَامِ نَيْسَى
أَيُّهَا الْمَوْتُ . شَفَقُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ ؛ شَفَقُ النِّعْمَةِ الَّذِي تَكْسِرُهُ شَجَرَاتُ
الْأَكَاسِيَا الْعَالِيَةِ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ . وَأَنْتِ فِي الْمُهْمَلِ ، الَّذِي تَتَعَثَّرُ الْأَرْضُ
بِجَمَالِهِ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ؛ فِي خُطْوَةِ الظَّلَامِ الْمُنْسِيَةِ عَلَى عَتَبَةِ الْفَجْرِ ؛ فِي الْفَجْرِ
الَّذِي لَمْ يَسْتَفِقْ بَعْدُ ؛ فِي الْيَقِظَةِ الْكَسُولَةِ لِلْكَمَالِ الْكَسُولِ ، هُنَاكَ ، حَيْثُ
تُلْقِي بِمِغْرَاكِ الشَّقِيلِ عَلَى الْقَارَعَةِ ، وَتَنْسَلُّ إِلَى الْكِمَائِنِ أَيُّهَا الْمَوْتُ .
وَبُسْتَانِي أَنْتِ ، غَاضِبٌ مِنْ أَجْرِكَ ، تُبَيِّحُ لِلْوَرْدِ أَنْ يَسْرِقَ مِنَ الْمَوْتَى
رِقَادَهُمْ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ . وَلَا تَحْمِلِ أَضَامِيمَ الزُّبْدِ إِلَى أَيٍّ ، وَلَا تَتَنَفَّسْ كَمَا
يَتَنَفَّسُ الْمُسَيِّمُونَ . وَتَغْمِضْ عَيْنَيْكَ حِينَ تَسْمَعُ ضَرْبَةَ الْمَعُولِ الَّتِي
تَتَقَاسَمُهَا الْحَقِيقَةُ مَعَ الْغُبَارِ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ . حُرُوبُكَ تُؤْكَلُ كَالْفَاكِهَةِ ؛
حُرُوبُكَ الْعِظَامُ وَالْعَنْبُ ؛ حُرُوبُكَ الرَّهِيْفَةُ مِنْ حِمَاكَاتِ يَنْسُجُهَا الزَّهْرُ فِي
مِرَاتِهِ أَيُّهَا الْمَوْتُ ، وَغَدُكَ غَدٌ يَسْتَأْجِرُ الْحَقِيقَةَ كَحِمَالٍ لِأَمْتَعَةِ الْغَيْبِ . أَهْ
يَبْكِي الْخَدِيدُ بَيْنَ يَدَيْكَ بَعِينِينَ مِنْ ذَهَبٍ . وَنَهَارُكَ سَاهِرٌ عَلَى شَمْسِهِ أَيُّهَا
الْمَوْتُ . يَقْظَتُكَ نَائِمَةً فِي دَفْنِهَا ، وَوَدَاعُ أَكْمَلٍ يَضِلُّ أَعْضَاءَكَ بَعْضُهَا عَنْ
بَعْضٍ ، وَتَقْسِمُ مَعَكَ ، فِي الْوَحْدَةِ ذَاتِهَا ، كَضَيْفٍ دَمَتْ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ .
يُخَسِّبُكَ الدَّرَاقُ مِنْ سَكْرِهِ ، وَالضُّوءُ مِنْ حَيْلِ الضُّوءِ أَيُّهَا الْمَوْتُ . وَأَنْتِ
بُسْحَبٍ تَعْتَنُقُ مَذَاهِبَ الْجَهَاتِ كُلِّهَا ، دَافِعًا بِالْمَجْرَآتِ كَأَسْرَى تَرْسِفُ فِي

أغلالها الأمانة ، أيها الموت . والنواعير كلها لك . النعيم المُزَكُّ لك . بروقُ الصباح المُشْبَعُ برائحة الشاي لك . ولكَ الزَّهرُ المُتَحَنُّ ، والقوافل العابرة من كردستان إلى المديح . لك خزائن الملح ، والأهراء المنتصبة على تخوم القيامة . لك الحجر الذي يغطمه الجبلُ ، وجزية النقائص . لك ممحاة الزَّنبق تمحو الرائحة في سطور السَّراقين ، والمساء المتبرِّج بأصباغ الريح . لك قلق الفجر وهو يروي الحكاية بضيائه المُتَلْعِمُ ؛ قلقُ الحكاية وهي تروي الفجر ذا الجبين المعصوب من نوبة الحمى . وتقول ، بعد هذا ، لنفْسِكَ ما تُسرُّهُ إلى نَفْسِكَ ، وللحياة ما يُشغلُها بجواميسها القوية ، وعذابها القوي كثقة .

على رَسْلِكَ ، أيها الموت ؛
 من شاق تَذَرِذُ الثَّلُوجُ نيرانها على المرايا ،
 ويجازفُ النهارُ بالليل الذي يزورُ الاختام .
 والمكانُ لعبةٌ في جدالك ؛ المكان يتسولُ من يديك الحقيقة فكاهة
 فكاهة . والرياح تتلقَّفُ كُراتك المرمرية بأيديها التي من أسْرٍ ؛ بأيدي
 ابتكارها وهي المشغولة بالذي يجعلها رياحاً تتلقَّفُ ذاتها .
 أوقْتُكَ غماماً ، أيها الموت ؟ حَسْبُكَ تطوُّقُ بكسلك المساء الذي يحلم
 حُلْمَهُ المُغْلَقَ على نهارٍ مُغْلَقَ على نهارٍ مُغْلَقَ على مساءٍ مُغْلَقَ على الضياء
 ينشجُ نشيجَ الريح إذ تضيق الريحُ دَرْعاً بالهبوب الذي هي فيه .
 وماكرٌ هذا الأجل الذي تَشَحُّذُهُ بالمبرة ، لا يُنَجِّزُ القرائن الناقصة ، ولا
 يستوفي - في مشاداته الكثيرة - شَرْطُهُ الصاحب ، كي يُبْلِلَ الحياةَ
 بأحاجيه . لكنه ماكرٌ - هذا الأجلُ أيها الموت كفكرة يتماذى أنيشتها
 لينتجِبَ الوقتُ كما تنتحبُ الحدائقُ في اعتزالها .
 تسميحٌ طويلاً أيها الموت فتنسى أنك موتٌ ينسأه الموتى . ومجازاتك

من صوف أغبر أو من قطن مبلول ، أيها الموت . مجرأتك منكوبة . اسمك منكوب . وجبرك الليلي ، الذي تدوّن به فراديس الأكيد ، يفتح الممرات - في السطور - لشموس الموتى .

يا لسريرك الذي تسمد الحروب ، بأيديها القطائفة ، ملاءتة القصيرة ؛ يا للحرروب تطرق عليك الباب في خجل ، أيها الموت ، لتُشغلك كأنثى بحديث الذكر ؛ يا لهباتك التي لا تقدّمها مرتين ؛ يا لدوي السطر المحمول على يدك وهو يمزق الكتابة !

رماد رخيّم يلهم الخناجر نداءها ،
والكمال الأخرق - وسيطنا ، يتجول بكلايه صباحاً لتنبؤ على ساق
شجرة الكينا ، أيها الموت .
يُسروّعك يُسروّع بيان . هواؤك أحذب . والحلاقون ، حولك ، يجرّون
الشفق بمقصات المياه ، أو يشذبون الحدائق كاللحي ، أيها الموت ، وهم
ينهرن - في لطف - شهوات الغامض المربوطة إلى كراسيهم إذ تهرّ
ككلاب سلوقية .

ألهذا أنت غير أكيد ، أيها الموت ؟
ألهذا أنت يائس كحديقة تنصب كمائن من ورد ، وتختزل الأرقام في
دفتر الهواء الصّيفي ؟

كل قيثارة تشدّها إليك تشدّها في الكمين ،
حيث الأغاني توزّع الأسيجة على مُعسكراتها ،
والمكسورون في أشكالهم ، هؤلاء ، الملتحمون كإسفلت مُلتحم ،
يصافحون في خيامك حاضريهم . صافحات تتكسر فيها الأنامل ،

ويتعانقون عناقاً يوجع الأرض ، ساهرين على الليل النعسان ، الذي لم يعد في مُستطاعه أن يقلّب أوراقَ النهار بين يديه .

قلْ لهم أن يُغمضوا الحياةَ على عيونهم كي ترى الحياةَ ، أيها الموت .

قلْ لدرجاتك أن تعبر صامتةً براكبيها اللاهتين . قلْ لشاحتك الصغيرة ما يقوله سائقُ لشاحتها الصغيرة أيها الموت ، وأطرق برأسك كمن يُصغي إلى غيمة الذهب ، ووشاية الحديد . لا نكبة تَمَسُّ مَنْ يشرفُ عليك بجراح عادلة ، أيها الموت . لكنني أسى لنكبة المساء المفتون باليقظانين ، يشحدون النهار كالمدى على حجر نسيه الموتُ في خلّاتك أيها الموت . وأسى لديكنا يصبح ، ضجران ، من خشوع الحديقة في خلّاتك أيها الموت . أسى إذ أرى يد الهوامِ على فتوقه من ألم ، والأبدية تتدارك التّفْ كَبِيرَ برماها .

وأسى كما تتأسى ، أيها الموت ، على نكبة العَدَمِ في اعترافِ جَمالِهِ .

لعبورك عبورُ الحيوان أيها الموت . لأنفاسك أنفاسُ الحيوان ، ولعدلك عدلُ الحيوان ، كأنما اختطفتُ في صيحة الله الأولى ، لتترعرع في الغيهبِ المقذوف إلى الجوهر المقذوف من الندم إلى المياه .

أتهذي كلما شغلتُ بك؟ نداء اللعبة أنت ، يا صرير الباب الذي افتحه صباحاً ، خارجاً إلى مساكن جسدي . أتهذي وأنت تدفعُ عرباتك الصغيرة لتتحدّرَ بأطفال الشيخوخة إلى فراغك الفتى؟ كلُّ عدم يتهادى ببغاله إلى حنينك ؛ بقطارات منسية ؛ بشجيرات اللّيف التي تتدلى منها القرى بيضاء كشرانق الحرير . وضرباتك ضربات حدادٍ في حلقة المكان إذ تدوّن أسماء النجارين يَسْحَجُون الأعمدة الثورانية للمريح بمساحيق الرمل .

ولا تَمَلُّ تَرْدُّدُ أَنْ خَدَعْتَ - أبداً - مُدَّ كَوَفَّتْ فَكُنْتَ الموتُ أيها الموت .

لا متاهة تعرض نَفْسها عليك . لا خَدَمٌ يدخلون الفناء المديد إليك وهم يزفرون ضَجْراً كما ينبغي على خَدَمٍ أن يدخلوا الملهاة بصحونهم

الآجُرِّيَّة ، الملائى برفائق الشَّحْم ، والكمأ ، أيها الموت . لا برازخ تكسر
أفصاصها الرملية على حافتك . لا قناع عليك . لا قناع يُريك النعمة
مرفوعة على أنين الشهيد . ولا غد لك ، لأنك منذور ، أبداً ، للذي تعرفه
أيها الموت .

أأمهلت فأمهلت الله ؟

ساعاتك هاربة فراشات من الوقت إلى اللون .
ودسائلك هذه ؟ أخفها قليلاً دسائلك الشجر ! دسائلك الثور
المندلَق كاحشاء حمار ، فأنت على صواب - أبداً - بأخطاء أجسادنا ، أيها
الموت .

أنت على صواب ،
والحدائق على صواب ،
والخلية ، التي تسرد عليك عظة الحقيقة ، على صواب ،
فاعذرنى إذا مضيت وأبقتيك كجد من الرمل ، وحيداً ، تطحنك
الدورة التي لا تُحصى في بقائك الزائل ، وينهرك الأشباح دُفْعاً بالمناكب ،
وهم يجتازون ممراتك الكلسية إلى حَلَبَاتهم ، في دروع لا تراها أيها الموت .
لكن ، الآن ، ابقَ جاري ، وأطلق نفير شاحتك الصغيرة محيياً كلما
مررت من الطريق الإسفلت إلى أشغالك ، ليستأنس بك اليقين المهجور ،
الذي يلجم بقصديره الذائب سياجات الحدائق المهجورة ؛ لتستأنس بك
الوحدة ذاتها ، التي ترمم بالجص عمائيل الغيب المركومة هنا ، في المسافة
الضيقة بين بيتنا وبيتك أيها الموت .

ابقَ جاري ، تتبادل التوابل ذاتها التي من عظام القرش ، وتتبادل
البروق المعبدة كخلود ؛

ابقَ جاريَ نتشارك في قناة المياه الواحدة ،
والصحيفة الواحدة ،
وعلبة التبغ الواحدة ،
والخبر الجهم ،
والرجاء الذي يؤثبه الوقت ذو الغمازتين ، أبداً ،
كطفلٍ كسرَ المبراة بأسنانه ،
ابقَ جاريَ . ما عليك .

سأدلك ، أنا المُتَرَفُّ ، بهبات تَلَزُمُك أيها الموت ، كأنما يتوسَّلُ الرجاءُ
إليَّ أن أرفعَ على كتفك سِرَاقَ اليقين ، وأؤكدُ لك قَسَمَ العظامِ السنونِةِ
كرماح تحمي البوابات .

سأدلك خائفاً عليك - أنا العارفُ أنك لن تنجو من أحدٍ أيها الموت :
كلُّ سينتشلك من الفرق بخطاطيف الموعد الماخن ؛
كلُّ سيمهلُك مهلةً لا موتَ بعدها أيها الموت ؛

كلُّ سيقودك في الممرات إلى الحمى ، حيث يستلقي على سريرك
الليلُ والنهار معاً ، مرتجفين من صرخة المُعَذِّبِ الذي يستعيد انتحار المكان
جَمَلاً بعد آخر . وستتهكَّ النبابع في مرآتك كعانات حليقة ، وهي
تسقيك عطشَ النبابع . فاكبح شاحتك الصغيرة ، الملائى بصناديق
الكرفس إذ تعبر الحُفَر في الشارع الإسفلت بصخبها المترجرج ككفلٍ .
وألقي إليَّ من نافذة بابها بالذي قايض به البرقُ عَدَمَكَ الذهبي ، أيها
الموت .

كلُّ شيء أكيدٌ ببيانك ، أيها الموت :

مدائحنا ،

والجيوشُ التي تسَلَى بالنُّزْدِ حيث المذبحةُ على أُنْمِها كَفَرَجْ ؛ حيث
الأرضُ المُوَزَّقةُ ، دون سماء ، دون نَدَم ، دون حكمةٍ أو أُنَيْنٍ ؛ - الأرضُ في
تيهها ؛ - الأرضُ الذاهلةُ أبداً في جَمالِ القرنين .

والكلُّ سَيرُكُ ، بعد هذا ، أيها الموت ، حين تَشْرُدُ - مُوَزَّقا - في
حسابِ الحقيقةِ بأقلامك الفحْمِ ، دون ممحاةٍ تُعِينُكَ على عبورِ الرُّقْمِ إذْ
يتوطدُ في الفراغِ المُزْضعِ ذي الأثداء ؛
كلُّهم سَيرُفُونُكَ ، جالسينَ على العتباتِ التَّسعِ يلهون بخَرْزِكَ المنسيِّ ،
وعاجلك المنسيِّ ، وهم يعاينون بين أيدهم جلودَ خنانيصك الشائهةِ في
غاباتِ الفردوسِ ، أيها الموت .

إِنْ تَكُنْ حَكْمَةً تَكُنْ أَنْتَ ،
إِنْ يَكُنْ هِذْيَانٌ تَكُنْ أَنْتَ ،
إِنْ يَكُنْ بَاهٌ يَنْتَرُ الطَّحِينَ تَكُنْ .
ألا لأحملنَ إليك رجاءَكَ في خطواتٍ من اليأسِ أيها الموت ،
ولاجمعنَ أَمَلَكَ المَهْشُمَ تحتَ شجراتِ الميموزا ، وأقفالكِ المَهْشَمَةَ كَأَنْ
سَطًا عليك زائروك - إذْ سَكِرْتَ - فما أبقوا من متاعك إلاَّ الجمالَ
المدعور .
لأُحْيِيَنَّكَ لأُجِدَّكَ ، ولا خَتَبِلَنَّ لننجو .

أقاليمك ثمانيةٌ بين أنيابِ الضحى ، أيها الموت . وأنا الفَقُّ لك
التاسعُ ، الذي سبِدخله الأدميُّ بجذاله الطَّاحِنِ ، يُخَيِّبُهُ ما يُخَيِّبُكَ إذْ
تُنِيرُهُ بِجَهْلِكَ المُخَيِّبِ ، وأنتما تصغيان ، معاً ، إلى صياحِ دِيكَةٍ مَاجُورَةٍ في
فجرٍ مَاجُورٍ .

ألقني إليك زاداً بما لديك؟ حَسْبُكَ أن تنتظرَ الهبةَ طاغيةَ أيها الموت .
حَسْبُكَ أن تسمع عبثي وأنا أرمي نافذتك بالباقلَاء والذرة . فهاتِ سؤالك
الخبول لأخبرك كم حرَّرتُك من جدال خاسر بينك وبين المشهد ، وكم
أخفيتُ حرَّجَكَ من القيامة بنقاب أسدلَّتهُ على أبدِكَ المُستغيث .
أطفلي أنت؟ أندائي المكتومُ في مشيئة الظاهر أنت؟ كَبُرْنَا معاً بالحنين
ذاته إلى وَخْشةٍ أنقى في أُنيتها أيها الموت ؛ معاً
في خِيلاء الغبار ،
في الممكن الجَسُور كَقَبَلٍ على عَجَلٍ ،
في ثرثرة النعمة ،
في المهجور كُلُّهُ ،
في شهوات المهجور ،
في القديمِ الصائرِ إلى قديمِ الأبدِي .

ذَكَرَ ؛ حنينُك حنينُ أنثى ،
تعبُك تعبُ أنثى ،
جرْحُك جرحُ أنثى ، أيها الموت ،
والغبارُ الداهيةُ ينيرُ لك ، بمصباح الغسلين ، شقاءَكَ المُبتَكِرَ كاثاثٍ فارِهٍ
في فسطاط المتاهات .
أحدَّثتني عنك ، من قبل ؟ أبحثُ لي أن الأرقَ ينتحبُ بين يديك ،
وانك - مثلي - تهذي كشكل أسلَمَ فراغُهُ للجماذِ النقاش ؟ لا أستدرجُك
إلى ثرثرة أيها الموت ، بل أعيرُكَ النفاثاتِ مطحونةً في جلود الأكباش ،
وأربك المُشكِلَ عارضاً صفقاتِ السديمِ عليك ، لترجُل - معاً - قبولنا
الأكملَ بالذي يخولنا أن نكون - أنا وأنت - أرقاً واحداً يرممُ المشيشاتِ
على عَجَلٍ .

كلُّ شيءٍ على عَجَلٍ :

المكانُ ،

والحظوظُ ،

والأبديةُ ؛

كلُّها على عَجَلٍ ،

وأنتَ كشافُ الله أيها الموتُ ، عَجُولاً تُشرفُ على المُنتَهَبِ ، وتشاكسُ
المَقْدُورِ .

قُتِلْتَ ،

أزعمُ أن قُتِلْتَ أيها الموتُ ،

وأكاد أسمع ما يتخلخل من قضائك كخصاريفَ ، ويدوب كالشحمِ ،
لأنك تَرْفُوةُ أب تتعقّض هَلَعًا من الأبوّة ذات الرُّثْبِ الطاهر .

ومقتضى كمالك أن يكونَ كمالاً ، أيها الخوشابُ ،

ومقتضالك أن أكونَ ، كي تذهبَ - تَسْحًا بعد آخر - في النكبةِ
المرحةِ ، تلمسُ الصلصالَ - خُتْمَكَ المكسورَ ، وزخارفَ المياه على
الأعمدةِ ، مُطَوِّقًا كرسولٍ بذئاب القرنفل وهي ترفع عَوَاءَ العِطْرِ من
حناجرها الزرقاء .

أتقدّمُ إليك بتدوينِ يَدِهِي الإخباريون في المنسكِ الأول للريح ، أيها
الموتُ ؟

أتقدّمُ ، مُطَرِّقًا ، إليك ، أم تمتحنُ ثِقَلَك الحيّ في اللُّغزِ الحيّ ؟ جيرانك
يرونك عبر سياج الحديقة المنخفِض ، ويتهايمسون ، مشيرين إلى شاحتك
الصغيرة ، همّسهم الصَّبْيَانِي .

هذا دأبهم أيها الموتُ ، وهذا دأبك أيها الموتُ ، والخلافُ - هذا

الشريك - خلاف على الحقائق والشاحنات . فاصلُح من حالِك بشكيمة
التعب الذي فيك ، وأصلح التعب كساعاتي . وامسح عرق الوقت -
مُرِيدك الأعمى وهو يُوجِّعُ القلبَ الحِجَابَ بمنفاخ الدراجات .
أعطه منفاخاً آخر أيها الموت . غَضَّه أيها الموت . كَمَّم الوقتَ
مريدك الأعمى ، وأوثقه إلى شيخوخته العمياء أيها الموت . ولا تنس : أنتَ
مدعو إلى البسيط ، بإيمانك الذي هو يأسك الأقصى ؛

بالكُلِّي كمعجزة في أمرها ،

وبعذابك عذاب الخالد ،

لأنك عريق ، وما تمسه عريق أيها الموت ؛

وعفيفُ هذا الأرق الذي نتقاسمه في حُلُم الصقر ، إذ أعرضُ عليك
أجنحة الياقوت التسعة ، والكمائن كلها حيث الأسلاف المتبكرون
يحطمون مداراتهم في غمام المشهد .

أَمُفْتَضِّح ، مَشُوف ، أنت ؟ . رُد عليك شيئاً مني لتحتجب قليلاً ،
فيأتمنك الظاهر على عذابه عذاب الخالد .

واحتمل ، بالوحدة التي تتكىء على ذراعك ، ما يحتمله العادي في
الفناء الأمين ، إذ الكون - مُوصداً بالغلبة الأبدية - يُجنبك المنفى ، أيها
الموت .

واعذر الذهول يدفع القطيع الأكبر من بهائم الثور وسباع الباطن ، كما
المجرات ، إلى الكثيف الشهواني ، بِحَمْدِ القديم العابر بتنانينه المتلاشاة
كلأفلاك ، كأنما أنا وأنت ، رقيقين ، مسحنا أسرارنا بزيوت السَّمسم ، ورققنا
الذهول شفافات ، أيها الموت .

« حَسَنًا » يهمس القرين إلى القرين ، والسلفُ القَلِقُ إلى أصنامه .

«حَسَنًا ، هَاكَ صَبَاحَاتِ الْعَدَمِ الْمَرْجَانِيَّةِ ، وَالْكُنُوزَ الَّتِي مِنْ ظِلَالٍ» يَقُولُ
الْفَانِي لِأَزَلِهِ الْمُخْتَصِرِ . وَأَنَا أَرَدُّ : «حَسَنًا» ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ، سَأَلَجِئُكَ إِلَى
حَتْنِي لِتَعْبِيرِ الْبَرْزَخِ عَارِيًا ، لَا صَوْتَ لَخَطَوَاتِكَ ، لَا صَوْتَ لَشَاحَتِكَ ، لَا
صَوْتَ لِلْيَقِينِ الْمُتَشَبِّثِ بِسِيَاحِ الْحَدِيقَةِ فِي فُضُولِ أُخْرَسَ ، لَا صَوْتَ
لَأَسْرَارِكَ ، هَذِهِ ، الَّتِي تَهَيَّأُ لِمَشَاجِرَاتِهَا الْمَعْهُودَةِ ؛

سَأَلَجِئُكَ حِينَ يُلْجِئُكَ كَمَالُكَ إِلَيَّ ؛
سَأُخْبِكَ لِأَحْيَا فِي الْكَمَالِ الْمُسَدَّدِ بِشَهَوَاتِ الْغَيْبِ ؛
سَأُرْتِّبُ بِيَدِي عَلَى كَتِفِكَ كَالْمَوْدِعِ ، مُشْفَقًا عَلَى الْوَحْدَةِ الَّتِي أَتَتْهَا ،
أَيُّهَا الْمَوْتُ ؛

سَأَتَسَلَّلُ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي لَا خُصُومَةَ فِيهَا عَلَيْكَ ، وَأَنَا أَسْتَوْدَعُكَ
الْيَاسَ كُلَّهُ ،

وَالْيَقِينَ كُلَّهُ ،

وَالْعَبَثَ كُلَّهُ ،

وَالْحَبَرَ ،

وَالْفُرُوقَ الشُّهُمَةَ ،

وَالْمَوَازِينَ ،

وَالْخَفْيُ الثَّائِتَ ،

وَالنُّبُوءَاتِ ؛

سَأَسْتَوْدَعُكَ الْمَوْتَ أَيُّهَا الْمَوْتُ ، فِي الْمَشْهَدِ الْمَسْكُ بِالْأَفَقِ - نَزْفِكَ
الصَّبَاتِ ، حَيْثُ يَسْلُخُ الْعَادِيُّ الْمَكَانَ كَالْجُرَّةِ بِسَكِّينِهِ . سَأَسْتَوْدَعُكَ مَبْنَى
الْبَلَدِيَّةِ الَّذِي يَنْتَصِبُ أَمَامَهُ الذَّنْبُ فِي هَيْشَتِهِ الْإِسْمَنْتِ (ذَنْبُ الْمَبْنَى ذِي
الْمُدَاخِلِ السَّيْعَةِ) ، وَتَرْفَعُ عَلَى جَانِبِيهِ مَقَابِضَاتُ الدَّمِ فِي كَسَلِهِ الْيُونَانِيِّ ،
هُنَا ، عَلَى الشَّاطِئِ الثَّائِتِ فِي مَرَاتِ الْبَحْرِ .

أَتَسْمَعُ رَافِعَاتِ الْحَدِيدِ مَعِيَ؟
أَتَسْمَعُ الْقَوِيَّ مُلْهِمًا بِسَخَاءِ الْمِحْنَةِ يَرْتُبُ التَّصَانِيفَ ؟

لا عليكَ ،
هَبَاتُ كُلِّهَا ،
وَالْوَحْدَةُ تَسْكُ دِرْهَمَهَا ، أَيُّهَا الْمَوْتُ .

١٩٩٢

الأقفال

(مقالة في خواص الظاهر)

مُهْشِمَةٌ أَفْرَانُ الْحَزْأَيْنِ .
مُهْشِمٌ هَذَا الْبُوقُ النُّورَانِيُّ ،
فَلَايِيَّ يَسْتَغِيثُ قَلْبُكَ بِالْأَعْمَدَةِ ،
وَعَيْنَاكَ تَسْتَغِيثَانِ بِمَنْزِلِ السَّدِيمِ وَأَبْوَابِهَا الذَّهَبِيَّةِ؟

المعاني ماثلة تؤولها تأويل الماء ، لتستقيم صاحكة في فراغها ،

والْيَأْسُ - إِسْكَافِيَّتُكَ الْحَرْدُ يَشْدُو بِخِيَطِهِ الْقَوِيُّ مِرْقَكَ الَّتِي يَتَنَاشَهُهَا
الْمَكَانُ؟

وَعَلَيْكَ مَا عَلَى الْحُمَى مِنْ نَقْشٍ ؛
عَلَيْكَ قَبْلُ النِّهَايَةِ الَّتِي غَطَّيْتَهَا بِثِيَابِكَ كَيْ تَلِدَكَ النِّهَايَةُ .
فَقِيمِ تَرْفَعُ الْيَقِينَ الْبَهْلُولَ عَلَى كَتْفِكَ تَحْتَهُ أَنْ يَرَى الْمُغْضَلَةَ هُنَاكَ ، فِي
السَّرَادِقِ الْكَبِيرِ لِلْأَلَمِ ، هَائِجَةً تَلْتَهُمْ أَحْنَاشُهَا؟

ظَلُّكَ حَزِينٌ ؛
عِظَامُكَ حَزِينَةٌ .

وَالرَّحِيلُ الْأَكْثَرُ مَدِيحًا يَمْزُقُ بَيْنَ يَدَيْكَ أَمَلَ الْكَلِمَاتِ ، مُنْشَدِهَا
بِأَصْفَاتِكَ إِلَيْكَ كَأَنَّكَ تُعَيِّنُهُ عَلَى مَدِيحٍ آخِرٍ .

وبإيماءات مقدوفة كثنوى الكرّز تعبر البهوّ ذاته ، الذي تتقافزُ التصاویرُ
من رُخامه ، حَيّةٌ ، تعبّدُ إليك الظلامُ النّاتئ ، المجلجلُ بخلاخيله الكبيرة
على صَدْرِ ثور نيسان ، ويعبّدُ الفلكيّونُ غورهم إلى الحدائقِ التي تتبادلُ
مكائدها القمریّةُ في ندائك القمری .

بإيماءات كأقدار النّاتئ تُلهِمُ التماثیلُ التي من جِصٍّ أن تفتحَ الجدارَ
لتلمحَ قلبك يُهْدِي الظلامُ إلى أَلَقِهِ ؛
الظلامُ المُتَرَفِّ ،
المُخَيِّ ،

شقيقَ الحُدعة الأكثرَ كمالاً ؛
الظلامُ ذاك ، المدقّقُ في الأرقامِ الكبيرة التي تُوحى ، مختزلةٌ ، إلى
البياضِ العاكفِ بأقلامه على لوحِ المعماريتين .
لتلمحَ الظلامُ الذي يَخْطِرُ كالمذیةِ يجرُّ فراءَ الكون .

أظنُّكَ حزينٌ ؛ أعظامُكَ حزينةٌ ؟
هَبْ أَنْكُ أغويتَ كُلَّ شَكْلٍ ،
وَلَمَمْتَ بِمَنَكاثِ النهارِ الحديديّ أعضاءَ الليلِ المبعثرةَ على سريرك ؛

هَبْ شَقَقْتَ المعاني من تلابيها ، ودفعتَ الغدَّ ، خلّسةً ، بيديك
ليتهاوى على الأدراجِ المنحدرةِ ، إلى كمائنها ؛

هَبْ جمعتَ إليك المذعورينَ لِيَقْتَسِمُوا وَثَنِيكَ اللتين من حريقٍ ،
وَطَحَنَتْ الأزلُ في أجْوانِ المجرّاتِ ، مُقْتَدِرًا باقتدارِ الحُمى ذاتها ، المنزلةِ
بدلافينها الصلصاليةِ إلى الحَبْرِ ؛ هَبْ هذا :

لَنْ تَنْظُنَّ رَجَاءَكَ إِلَّا نَسْخًا مِنْ رَقِيمِ الْفِرَاقِ الْجَابِي .
فَأَعِدْ ، أَيُّهَا الْمَطُوقُ ، مجازات الشُّكْلِ لِنَجْوِ اللَّوْنِ ،
وَمَوْءَ خَنْدَقِ الثُّورِ بِشِبَاكَ مِنْ ظِلَالِ الْقِيَافِينَ ،

ثم دحرج الخرزة ذات الحُرْزِ على لوح الهأوية ، حيث النشأتُ النائمةُ
في شِغَافَاتِ الْبَقِينِ الْكَبِيرَى حَامِلَةً بَبْرَائِنَ مَنْ نَحَاسٍ ، ففي يَأْسِكَ نَجَاةُ
الْأَكِيدِ ، وفي انشغالك عن الْأَقْدَارِ تُشْغِلُ الْأَقْدَارَ بِوَسَائِيسِهَا .

وَأَنْ تَحَيَّنْتَ صُعُودًا بِخَوْذَةِ الْمَوْتِ إِلَى الْمَادِيَةِ أَقْلْتُ مِنْ يَدِكَ حَصَى
جَمْعَتَهُ صَقِيلًا مِنْ مَتَاهَاتِ الْأَعْمَارِ ، وَزَرَزْتُ سِتْرَةَ الظَّاهِرِ الَّتِي عَلَيْكَ ، مِنْ
عَنْقِكَ حَتَّى هِيَائِكَ الْأَبَدِ الْعَارِيَةِ ، لِأَنَّكَ - الْآنَ - مُهْدَى مِنْ أُمُومَةٍ إِلَى
أُخْرَى ، فِي النِّعْمَةِ الَّتِي تَتَدَبَّرُ لِلْهَيْبَاءِ اسْتِدْلَالَهُ وَأَسَانِيدَهُ ، وَتَرْفَعُكَ فِي
الْبَزْوِغِ الدِّمَوِيِّ إِلَى عَوِيلِ الْحُصُونِ ؛
لَأَنَّكَ مُغْضِلٌ تُسْتَوْحَى بِالْخِلَافِ الَّذِي فِيكَ . إِلَيْهِ :
لَقَدْ قُدِّيتُ بِقَعْرِ كَالْمَبْرَاةِ ، وَبِهَتْكَ كَثِيرٌ .

أَبْلَهِيكَ رَحِيلٌ ، وَالرَّاحِلُونَ يَسْتَوْفُونَ الْمَقَادِيرَ بِعَلَامَاتٍ مِنْ مَلَحٍ ، أَيُّهَا
الطَّلِيْقُ ؟

يُؤْتِي لِرْثُكَ مِنْ جِهَةِ الدَّوِيِّ ؛
يُؤْتِي لِرْثُ الْغَرِيبِ مِنْ جِهَةِ الدَّوِيِّ ، أَيُّهَا الطَّلِيْقُ .
فَأَنْسَ أَنْكَ جَسَارَةً حِينَ الْجَسَارَةِ دُعُرُ يُرْمَمُ الْأَقْدَارَ ،
وَتَفَكَّرُ كَمَا يَقْظَةُ تَتَمَازَجُ فِي لِهَاتِ الْأَحْتَاثِ ، لِأَنَّ الْمِيَاءَ هَلِيعَةً ،
وَالْجَمَادُ يَنْحَتُ سَكِينَتَهُ بِأَلَاتٍ كَهَمْسِ الْمَشَاتِينِ .

ثم دحرج الخرزة ذات الوسائسِ الكريمة على اللوح :
 إنها الشهوات تنقرُ بأناملٍ رشيقة على عتلة ميزانها ؛
 إنه الحاضرُ المقرون في سلاسله المرجانية يتصيدُ جدالَ الغرقى .
 وكأضلاع الفيل تتوازي المجازرُ ، صاخبة ، تفرغُ بملاعقها الصّحافَ المليئة
 بالأرزُ ، حيث تطفو على شفقِ الرؤيا غماماتٌ من السّمنِ ، والخليقة تنفخُ
 بأفواهها الجليديّة على حساء الأبد .
 ملهم أنت ، أيها الطليق كرحيل ،
 ويؤتى غدك من الهاوية ؛
 ملهم ، يؤمى ظلّك بقبعات الرّيح ،
 وتوَلَّى أفعالَ الخطوطِ كلّها ، والمفاتيح التي من خواتيم مُقفلة .

هي :

العارفون يحملون في جيوب معاطفهم كستناء الخريق ، والحياة كي
 ترتقِ بسَيُورٍ من أحشاء الغيلَم ، لا أن تُحتَمَل .

هي :

ناموسٌ يُهدى في ثوبال الحديد ، فَسُتُولدُ عتيقًا من طالع النُشأة ،
 سهرةٌ سهرُ المكان ؛ أَلَمَكُ مُرْسَلٌ كحنينِ الملوك . وبك تجبى المُشكِـلُ
 تنقصُ المكاشفات إلى مهَبَّها .

فأعدّ الوليمة من أحلاط الزئبق ونفّاس الرمل ، كي تحضّر الوحشةُ
 مثرقةً في أصفاد الجوهـر . واخك ما تشاء من فروقِ الحفيّ فالسّاء في خير ،
 والليلُ في خير ، والفجرُ في خير ، والصباحُ ، والظهِيرة ، ومِللُ الشفقِ كلّها
 في خيرٍ يشقُ بمديته الأزل من نُدْبِيه .

أَعِدَّ الْوَلِيمَةَ كَمَا يَلِيقُ بِأَسْرَارٍ أَنْ تُعَدَّ ، وَانْثُرْ لِلْحَقِيقَةِ السَّارِحَةِ خَلْفَ
الشَّيْرَانِ بِرَسِيمِهَا ،
فَأَنْتَ مُؤَيَّنٌ فِي مَعَاوِلِ الظَّاهِرِ ، وَالْمَلِكُ الْبِاسْتَانِيُّ يَسْتَدْرِجُ الْخَدَائِقَ
إِلَيْكَ ، حَيْثُ الْخَفِيُّ يُتَمَاجِجُ ، كَعُنُقِ النُّعْمَانِ ، مِنْ فَوْقِ السُّورِ ذِي الْحَجَرِ
الْمَرْصُودِ .

وَتَكْتُمْنَ عَلَى الْمُغْلَنِ :
« لَا يَابِسَةَ تَنْتَظِرُ أَحَدًا ،
لَا هَوَاءَ يَنْتَظِرُ ، أَيُّهَا الْغَارِقُونَ » .

بِمَتَجَنِّقَاتٍ طَاهِرَةٍ يَدُكُ الْإِرْثُ قِلَاعُ الْوَقْتِ ، وَقَلِّكَأَ بَعْدَ فَلِّكَ يَنْهَدِلُ
السَّرُّ الْمَوْحِي ؛

جَحِيمًا بَعْدَ أُخْرَى تَقْضِمُ الْمَجَازَاتُ رَغِيفَهَا الْبَارِدَ ،
وَالرَّاحِلُونَ لَا يَحْزَمُونَ لِلنَّهَايَةِ إِلَّا قَرَائِنَهَا ، كَأَنَّهُمْ يَنْحَتُونَ نُصْبَ الْمَكَانِ
مِنْ مِيَاهٍ لِيَحْتَكِمُوا إِلَى الْحَرِيقِ .

لَا . لَا تَتَكْتُمْنَ عَلَى الْمُغْلَنِ :

« أَيُّهَا الرَّاحِلُونَ خَذُوا نَدَاءَ كَمْ .
أَيُّهَا الْغَرَقَى خَذُوا الْأَكِيدَ الَّذِي لَمْ تَحْتَمِلْهُ الشُّبُوءَةُ » .
بِمَتَجَنِّقَاتٍ يَدُكُ الْبِهَاءُ مَرَّسَى فَلِّكَ ،
وَبَأْيَدٍ كَحَرِيرِ الْأَغَانِي تَخْنُقُ الْمَعْجَزَةَ دَهَاقِنَتَهَا ،
فَهَلَّا تَعَاوَى الْمُغْضِلُ أَكْثَرَ لِيُهْدِيَ وَلَأَنَّهُ قِطَافَ الْحُمَى ؟ ،

هَلَّا أَتَدَبَّ الْقَنَاصُونَ عَلَى مِثَارِ الصَّبَاحَاتِ كُلِّهَا ، تَعْصُرُ ظِلَالَهُمْ
الْمَشِيشَةَ بِأَسْنَانِ أَيْلُولِ الْكَاهِنِ؟

يَا لِلْمَعَاتِبَاتِ :

كَمَا هَدَايَةِ ؛ -

كَمَا لَوْ أَنَّ الْعَاصِفَةَ هَكَذَا ؛

كَمَا مَا يُكَوِّرُ مِنْ خَزَفٍ ؛ -

يُغَرِّزُ الْأَمْلُ بِالْمَوَازِينِ ،

وَهُوَ يَطْعَمُ الْهَوْلَةَ كِبْدَهُ السُّكْرِي .

أَمَّا الْحَيَاةُ فَلَيْسَتْ لِتُحْتَمَلَ ، بَلْ تُعْصَى .

وَمَا أَنْتَ ، عَلَى آيَةٍ ، لِتُضْمِرَكَ الظَّاهِرُ؟ تَوْرِيَاتٌ تَخِيطُ جَرَمَكَ الْمُقْتَسَمَ .
هَيْكَلٌ هَكَذَا . أَبْدًا صَنِيفٌ - تَضْرِبُ حَيْثَانُ الْقَيْظِ فِيكَ شِعَابُ النُّبُوَّةِ
بِأَذْيَالِهَا . وَلَشَنْ كُشِفَتْ ، فِي امْتِنَانِ الظَّاهِرِ لِعَرْضِهِ الْمُخْيِي ، كَانَتْ السُّهُولُ
حَدِيثَكَ الْخَافَتَ ، وَالْمَغَاوِرُ ذُنَابَكَ النُّبِيلَةَ إِلَى الْحَيَاةِ . لَشَنْ بَسَطْتَ نَسِجَكَ
بَسَطْتَ لِلتَّوْرِيَّاتِ مَنَابِتَهَا فِي الرُّسُومِ مُطَرَّزَةً كَالْخَلْقِ يَشْقُهَا الثَّنِينَ الصَّلْصَالِي
هَارِبًا .

رُسُومٌ جَرِيحَةٌ كُلُّهَا ، مُؤَثَّقَةٌ بِالْيَافِ مِنْ خِيَالِ الْكَمْشَرِيِّ ، وَعُضَلِ
كَفْجُورِ التَّيْنِ ؛

رُسُومٌ صَلْبَةٌ عَلَى أَبْوَاقِ الْمِيَاهِ ؛ - الْمِيَاهُ الْغَرِيقَةُ فِي تَدَانِهَا .
فَلَا تَتَمَهَّلَنَّ ، بَعْدَ ، فِي التَّدْبِيرِ تَذَوُّمُ كَيْعَسُوبِ الْمَطْلُوقِ . فَكَّكَ الْأَلَّةَ
النُّورَانِيَّةَ ، وَافْتَحَ لِضَبَاعِ الْمَجَرَّةِ الثَّالِثَةِ بَوَابَاتِ الْهَيْكَلِ : «لَقَدْ خُدْعَ الْوَقْتُ ،
وَالْحَبْرُ يَتَجَاهَلُ اتِّحَاظَ سَطْوَرِهِ» ، قَلَّهَا ، رَيْشَمَا تَوْقُظُ بَرُوقَ الْقُنْبِ ، وَحَدَهَا ،

تحت خودة النبات ، عقاربك الفضية التي تتغذى بنقوش الدُروع .
ويلهو يبتكرُ الحاضرَ نسياناً لا يهتدي إلى مصباته ؛
بهرطقة من نورٍ فلتنصع التحية كل صباح ، وأنت تصغي إلى عراكٍ في
الريح ، وتمسحُ بشحوبٍ عمركَ كدُماتٍ على غُضَل الغيم .

لا أنت راحلٌ ،
لا الراحلون راحلون :
إنها المسافة رَصِيعٌ بعدُ ،
والتيه حاضنته الأسيّة .
لا .

ينهضُ الغبارُ بدُعاءٍ مغسولٍ أمام قلبك ، فيما تجرُّ أثاثَ الحقيقةِ خارجاً
ليعود الخلاءُ إلى يقظته . وتنزعُ التصاویرَ عن الجدران ، قاذفاً حقائبَ الغد
من الشرفة إلى ماضيه : «القيامةُ تُهْدِي بخيارٍ» تقولُ ، «والموتى لا يومنون ،
بل يُصافحون» ، كأنك مُمتَنٌّ لِهَذَرِ الحكمةِ ، وأنت ترى مُحْطَمِي أضلاعٍ
وتزقزقاتٍ يقودون العراكَ إلى اللانهاية .

يا لمعاتبات المعنى :
فَنَاءٌ يَعْوِضُ بَفَنَاءٍ ،
وصريٌّ عادلٌ ينبعث ، عاليًا ، من مصاريع البيانِ العادل ،
والسياقاتُ باردةٌ كجدالٍ ،
فلا تتمنُّ للظاهر فتكاً أكثرَ ، مُذْ عوَّلتَ على النهايةِ أن تعيدَ إليك
كَمَاتَكَ التي تختزنُ مِنِّي الرعدَ ؛

لا تتمنّ للموت جَسَارَةً أَكْثَرُ ، فالقتلى نادمون ، وهم يخرجون من
 الأغاني ضارعين إلى الحياة أن تترث في انتصاراتها الفاحشة ؛ ضارعين
 إلى الهلاك المخبي ، أبعد من غَدِ الْقَتْلِ ، لأنهم سائرون - مثلك - إلى
 المديح الذي يحزُّ بأنياهِ القويّةِ وَرِيدَهُ القوي .
 أَغْنَمُ أبهى ؟ :

بُشْرِ دُعَابَاتِ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الشَّرْقِ ؛
 مَكَانَسَ دَهَبٍ ، دَبِجَ ذَهَبٍ ،
 وَالْأَمَلَ مَعْتَكِفَ فِي مِخْرَابٍ مِنْ شَحْمِ الْوَزَلِ .

هَيْه ..

لَيْسَتْ أَذْخَرْتَ عَذَابًا أَنْقَى لِلْسِّنِينَ تَتَجَرَّدُ ، الآن ، من حظوظها ،
 ضَهَبِيَّاتٍ لَا تُرْضِعُ ، أَوْ أَكْرَمْتَ الْوَجَعَ كَأَب . حَرِيصًا عَلَى الْخِسَارَةِ تُعَيِّرُ
 الْغَيْبَ الْمَارِقَ صَحُونَكِ ، وَمَلَاعِقَكَ ، وَصَحْرَتَكَ بَعْدَ قِيلُولَةٍ كَقَفْزَةِ النَّفْسِ .
 هَيْه :

نَدَى سَاخِرٍ عَلَى الْعَشْبِ بَيْنَ حِجَارَةِ الْمَشَى ،
 وَالسَّمَاءِ مُنْكَبَّةً عَلَى نَهْشِ السُّلْجَمِ .

فَلَا يَذْرِفُنُ الْعَنْبُ حَنِينَكَ ، لِأَنَّكَ جَالِسٌ إِلَى الْمَائِدَةِ ذَاتَهَا ، الَّتِي
 تَشْهَقُ أَمَامَهَا الْعَجْزَةُ - هَذِهِ الْبَاقِلَاءُ الْمَمْلُحَةُ . لَا يَذْرِفُكَ الرَّحِيلُ مِنْ
 عَيْنِيهِ يَوَاقِيَتُ ذَائِبَةً . أَنْتَ مَا أَنْتَ ، عَنُودُ يَغْدُقُ الْيَقِينَ عَلَيْكَ بِهَاءِ الْيَأْسِ ،
 كَيْ تَعْمَمَ - بِجِهَالَةِ الْمُرْتِي - فَتَوَى السِّيْكَرَانَ .

أَسْفِيزَاجَ شَهَوَاتِكَ ؛

حريقٌ في كلِّ مُدْرِكٍ ،
والنداءُ ، الذي يرمي وسائدَ الغيبِ إلى الفردوس ، يطرقُ السطورَ
عليك ، كأنَّكَ سَيَافُ الحَبْرِ بِالْعَتَا في الأكيدِ حتى تقطعتِ الوشيعةُ شتى
بين الأشكالِ ، ومزقَ الوقتُ سراويله الكتانية .
ويطرقُ الجمادُ عليك ، أيضاً ، برازخُ الهولِ : «عِمتَ يقيناً» ، فتُهرقُ :
«لَا قَسَمَ الآنَ . هَرِمَتِ البَيعةُ ، والألمُ ليس على ما يرام» .

يا لِلألمِ - شفيعِ الحنةِ العذبةِ ؛
يا لَشَقِيقاتِهِ !
يا لِلجمالِ البهلُولِ :
سَطَّوْا يَعِيدُ الحَفِيّ إلى صوابِهِ ،
والجهالةُ تَسْتَظْهِرُ آياتِها .

فَأَوْثَقْنَا مَا يُسْتَوْثَقُ ، وَأَرْجَىءُ أَنْ تدفعَ حَيْدَ الشفقِ إلى أيدي
القِيَافِينَ : إنَّ الذي عليك سِياقُ الظاهرِ : «لن يصلَ أحدٌ إلى أحدٍ» .
والكمائنُ تَتَشَكَّى : «حِيلَةٌ بَيِّغَاءُ» . قاتلوا هذا ..

«يا المَكَانُ تَرَوْ» :
إنَّه الألمُ الهدايةُ - الميثاقُ الكَلْبِيُّ ،
الساهرُ كالعَلَلِ على النُشَاةِ الكَلْبِيَّةِ -
يعينُك ، بسراجِ الزيتِ ، أن تعبرَ بَهْوَ الغرقى وهم يصنقلون الألواحَ
البازلتيةَ ، قابضين بعضَهم الباذخةَ على المجاذيفِ .
إنَّه الألمُ ، أيُّها الطليقُ ؛ -
الألمُ المواسي ، الذي - كَنَسِيانٍ - يروِّضُ الشُّكَّ ؛ أم تَرَاكَ غَرَّرتَ

بالمشاهدة فأوَّيَّتها ، واعترفتَ : «لا طريقَ إلى مكانٍ؟»

جذورُكَ الظلالُ ، أيها الطليقُ كالتَّعبِ ،
والأرضُ حَبِيرٌ .

نيقوسيا - كانون الثاني ١٩٩٤

١

إنها البراهينُ الخمي ،
وأنتَ تطلُّها بالخبرِ من تهتكِ اليقين ،
وتوقعُ بالكلماتِ لتغفوَ البراهينُ على شجارها .

لا ديكّة هنا ،
لكنها أعرافُ النارِ المتمايلةُ كأعرافِ الديكّة ،
والوجودُ المارقُ يروّعُ السياقَ المكنونَ للظهوراتِ .
لا بلاءَ هنا إلّا من وُرد ،
لا مِزراقَ طائشٍ إلّا مِزراقُ الكونِ ؛
والبرقُ زرايةُ الليلِ بالمكان ، ثم ، والمياهُ هُزُو ،
فمالكُ تتلقفُ المشيئاتِ بشعاعِ منكوبٍ ،
وتغديقُ على الألمِ إيمانَ المساءِ ؟

٢

مرحى أيها الرّهانُ المغلولُ :
ها العَدَمُ ، نازفاً ، يتبسّمُ لأحفاده .

أَمْلُكَ أَمَلَهُ ؛

كلاهما نعتان في الدفء الذي يُمتدح .
وتُهدران فيجمعكما اليقطينُ ،
كان مجازاتكما غرور الشعاع الأكمل في سِفاحه .

٤

الطُّرُق اجاصُ على شجرات الصباح .
فإن هَرَوَلَ المكان ، مُتَرَيِّضًا ، هَرَوَلَ أيضًا :
أمامكما دراجات الأزل ،
وعلى أكتافكما أكياسهُ الفارغة .

٥

كي يَشَهَقَ التَّرفُ ؛ كي يكونَ العَدَمُ أنقى :
لهذا تنحونُ النَّورُ ،
مُصْغِيًا إلى مَشَادَاتِ الثَّغَمَى فوق أدراجها .

٦

أَعْطِهَا قُبْلَكَ ،
شَقِيَّةً لا تهتدي إلى حريقها .
أَعْطِهَا الوقتَ ، الذي ضارعا يؤكدُ ليديك أنه المَعَذِبُ .

لا تُكران ،
والحياة رَقْمَكَ المستور .

أَفَقُ هذا ؛
أَفَقُ ذاك ؛
كلاهما عانةُ الريح .

معًا :
أنت ، مُخْتَلَسًا من قرائنك الأخرى ،
والقديمُ الناصحُ في خَلِّهِ القديم .

عاد الحجامون .
الإرؤُ غاضبٌ ، والرياحُ تتخبطُ مسدودة الغلاصم ،
فلا تلبسُن في الفزعِ الأنيق ، هكذا ، تُدَحرجُ الفراغُ خصبةً خصبةً
على الجُسور ، وترمي من صدوعِ الأبديةِ خواتيمك الأبدية .

ولا يكوننْ لك عنادُ القطيعةِ !
لا يكوننْ للقطيعةِ في يديك وَبَرَ البرُوعِ :
هيَ ذي السِوفُ المفسولةُ كُلُّها بمَنِي الموتى ،
والأحقافُ التي تتكسَّرُ ، في خِفةٍ ، تحت نَفْخِ العطارين .
هيَ ذي الألسُنُ ،

الأحاليِلُ ،
الكُلَى ،
الأكبادُ ،
الرُضفاتُ القاسيةُ ،
في سياقٍ من النُورِ مثل حوافِرِ البُغْلِ ،
والأُمَمُ - مَحْلُوجَةٌ - تتناثرُ فوقَ العاناتِ الكثيفةِ لِلهولِ .

وقطارٌ واحدٌ ،
مُنْحدراً من بحيرةِ «وان» إلى الإسكندرونة ،
يحملُ في مقطورتِه الثامنة قلبَ «شمدين» الضاحكِ لكَوَجَرِ الغيمِ ،
الذي ، مَرِحاً ، يتمرُّ فوقَ أرضِ «بوطان» والبحارِ الغربيةِ .

الجهاتُ تتقوَّضُ ، صامتةٌ ، كصناديقِ البِنَجَرِ ،
والغضبُ - فَتَاكُ الضاحكُ لا يتعشَّرُ قطُ . رشيقاً ينهبُ أسواقَ
الأسلافِ بكَوُوسِ الشاي ، ويجرُّ حوانيتَ البِقَالينِ ، كماعزٍ ، إلى مسالِخِ
النُّورِ .

الشَّفَقُ رَغِيفُكَ فِي جِهَاتِ «مِوزَانٍ» ،
والغَيُومُ طَبُولٌ .

المَكَانُ طَلْقَةُ الْخَيَالِ الَّتِي تُرْدِيكَ ،
لِتَتَعَافَى خُرًّا ، حَيْثُ الْمَتَاءُ رَجَاءٌ ،
وَالْكُونُ يَغْطِي بِأَسْمَالِهِ نَوَارِجَ الْيَقِينِ ؛
حَيْثُ الْحُرُوبُ ، نَقِيَّةُ كَفَرَاءِ السَّنَجَابِ ، تَتَمَاجُ فِي الْهَبُوبِ الرَّحِيمِ
لِلجَدَلِ ، وَيَتَأَهَّبُ الْعَدَمُ - هَذَا الْجَنَاحُ الْأَقْوَى .

الْكُرْدُ هُنَاكَ ،
فِي دُيُ الْطَلْقَةِ الَّتِي تُرْدِيكَ لِتَتَعَافَى .

المجابهات؛
المواثيقُ الأجرانُ؛
التصاريُفُ، وغيرها

الْفَوْحُ (إِغْمَاءَاتُ الْكُلِيِّ)

١

لا أَلَمْ؟

قلبي غريقاً يجيرُ إيمانيَ الغريقَ .
رثائيَ تحيرانِ الهواءِ بمزقتينِ في هبوبِ أنقاضِي عليّ .

لا أَلَمْ؟

خُدعةٌ عذبةٌ كلُّ هذا ،

وصدئُ قويٍ لخوافِرِ الأرضِ على حجرِ السماءِ ،
فابقَ طفلاً حفيدي - أيها الوقتُ ، وترعرعُ ، أنتَ الشاغرُ ، على
شهواتي تكنُ أكيداً ؛ ترعرعُ على الممَرِّقِ النبيلِ ؛ على ماكنتهُ موحىً من
العارِضِ على العارِضِ ، لأنَّ تدومُ إذْ تُنتزِعُ عنوةً من الضروراتِ -
أخواتك ؛ واصعدْ معي درجاتِ القبرِ إلى أبويتي حيثُ الأبديةُ مغدورةٌ
تتعاثلُ للشقاءِ .

لا أَلَمْ أيها الوقتُ :

شروقُ قبرٍ ، وكلُّ شعاعٍ كالكَفَنِ : اصغوا إلى القَبْلِ موجعةً تتناهى
من الظلامِ النازفِ ولا تجادلوا بفمِ النبوءةِ بل بفمِ النسيانِ ، يا الذين
يستردُّكم الجِدالُ من شقاءِ الأكيدِ تتلمسون بعصيتكم كماتِ الحكمةِ ،
وتتكونون على الغدِ نازفينَ الوقتِ من جراحِ العذوبةِ ، كأنكم تحمِزون القبرَ

أن ينقذَ الخلودَ ، وأن تترقَّى المشيئاتُ بمثاقيلِ البدَدِ الحيِّ . لا أَلَمَ . قبرٌ تنزفُ
السَّماءُ من شقوقه صمغًا صلصالاً . شروخٌ رقيقةٌ في تينِ النبوءةِ الناصحِ ،
ولحمٌ يتهدَّلُ إذ تهذَّلُ الحياةُ :

(الدرَّاجون يقذفون بصحف الصباح المرزومة إلى الأبواب ،
من سطور الهواءِ الخبيرِ ، والمصادفاتُ مرزومةٌ تُرمى .
سارقو الآلاتِ الحاسبة يطرقون البابَ نادمين قليلاً ، غاضبين
من المصادفة التي وشتَ بهم إلى حنينهم الهارب .

لا تظلموا أحداً . لا تظلمنَ أحداً) .

٢

برقٌ يشيرُ اللُّعابَ . شقائقُ عمياءُ تقودُ الربيعَ أعمى إلى الجسر :
«كنتُ أباً أيتها الحقيقةُ .

بعلكِ النهايةُ يستجيرُ بالأنثوي كي يحمي الذكرَ الذي كُنْتِهِ ،
والخصى ، هذه التي بين يديكِ ، تتدلى من العَمَاءِ المُحيي ، حيثُ
الشهواتُ ترتقُ العَدَمَ المُمزَّقَ بخيطِ الخالدة» .
برقٌ يشيرُ اللُّعابَ ،

حَيَّصُ حجري ،

نفاسُ حجري :

أعطني أيها الوقتُ ، ما أخرتُهُ لي .

أعطني ما كُنْتُهُ ؛ ما رُوِّيتُ - بلهامي إياك - على ظاهرٍ ؛

أعطني الخرابَ عادلاً ؛ حواريكَ أرقاءَ كالنسيانِ ، يا وقتُ ، يا

حفيدي ، واسرُحْ أَكُنْ لَهْوَكْ تعضُ العُتَبَاتِ بِأَسْنَانِي عَضًا رَقِيقًا ، وتعاثُ
الكمالَ الطاهي .

أعطني العَرَقَ فَيْكَ ، أنني ما يُكْنَى خَلْبًا ؛ ما يُؤْخَذُ كما المكانُ هازلًا
في المتاه . هيا :

لا يُؤْتَمَنُ الجَوْهَرُ ؛

لا يُؤْتَمَنُ أزلُ يتسكَّعُ في المغيب .

٣

لا أَلَمَ ؛

ساعاتُ تعالبُ في أوكارِ الكلمات .

جمادُ طليقُ ، يا وقتُ . حذار :

إنَّه حصادُ البراعاتِ يدقُّ فيها الأملُ الأجيرُ .

حذار :

الضياءُ أذَرَدَ يعضُ رُسْعَيْكَ -

(لا عراقيلَ : مناقصاتُ لاستشجارِ الموتِ؟ يشتكي الدُرَّاجونُ

من الصباحِ محزومًا كما ورقُ ؛ محزومًا كما الحبرُ . أيُّ يشدُّ الصباحُ

الثورَ من خطمه إلى مجابهاتِ الحقلِ المُسَكِّرة؟ يشتكي الدُرَّاجونُ :

«صباحُ يُصغي إلى نسيمةِ الثور» ، ويقذفون بالصُّحُفِ مرزومةً :

«خذوها : الحروفُ صيارفةٌ ، والسطورُ أقفالٌ وخزائنُ ، وأنينُ رخامٍ

ينكمش على دهرهِ الصقيل» .

٤

عَدَمٌ مُجَرَّبٌ يكسرُ البُنْدُقَ بِأَسْنَانِهِ ، أيها الوقتُ ؛ أغطه خيالكُ ،

خيالَ مشادةِ كالرُّمَانِ ، أعطه سراويلكَ الحديقةَ . لا عصيانَ لَكَ . لا ذُرْبَةَ

في عصيان . لا يعتبريك غير ما يعتري الأفول من جاذبه الانقى . وحشوك
ما يعرض العدم من كسثناء على الجمر ، يا وقت . وأها . عرض مشمول
بالحق . عرض حق . فزوج مقدوفة إلى المرح . قلوب تنهش التعب مكتنزة
باليقين المزيّد كشدق الثور .

غصّ الضرورات ، يا وقت : تخلو إلا من غد مسترشدًا بالأكيد النائه
يؤتق المشيئة ! يؤتق آتية . مُعَادَا كهبة أنت ، تشقك مدية الكهانة فيندلق
المكان من فتوقك مُعْتَصِرًا في قبضة الثور الحسنة . أن تُرجي تُرجي
القهقهة ، فانظر الفجر الذئبة ؛ الفجر بأثدائه الستة ، مفسولاً أنشئ ، مُنتهكاً
بالمُخَصِبِ الأزلي ، يجالسك أيها المتوَعك من العافية .

ألا بعثر خلواك على المنضدة . بعثر طحينك القمري ، مُعْبِضًا ذهبك
على النقوش التي يحفرها المرئي عميقة بمخالب النسيان . ولا تتخاذلن أن
تذاهم بالعاير . يبقى لك أداف المشيئة لا ينتعظ ولا يلج . يبقى لك الهواء
مُعْتَصِرًا من خصيته الأزلية .

مرايا طائشة تعيد إليك الشكل منقسمًا على امتثاله الموحى ، وكمال
يلتهمك في وليمته الفاحشة يا وقت . وتُملئ بنقوش من الموت على
نحاس صبرف ، تُملئ على الأمل لتشقى شقاءك المُرسل ، خالصًا ، شائك
شأن العيب يرجمل الأبهى . هيئت لك ، لا يواسيتك أكيد . سيفاذك
المغاليق ، والحياة عنتك :

«قطع البصل في رفق ،

قطع الكبد النية ،

والنساء النية ،

والكلمات التي لا تدحرج قلبك إلى الفضيحة .

قطع البصل رقيقًا ،

واعذرهن نساء السفح هناك ، لا يستغفرك ،

مشغولات بدجاجاتهن .
اعذر هؤلاء القتلى يتوعدون الحياة ينكال عذب .

بصل كثير .
عزاء كالفتنة ، وقروح كالصبر .
درة تغلي في قذور الأرواح ، أيها الأبدى ، .

٥

متكئا على خرائبه المرحية يرصد الوقت نعمة الفراغ . فإن تروّج مس
البرازخ بكفل جمان ، وإن اعتدل اعتدلت الضرورة . هذر يجيى من الفراغ
إلى خرائنه ، ومعدور هو في كساد الفرض . دليل عليه عقله الطيف . دليل
عليه أن لا ألم يريني الوجوه مجلوة بالزئبق ؛ بانعكاس الفراغ على
حدقاتها . ويمس أن يمس الفناء الذهبي ، المتحدث من مشارف
الضرورات بلسان الترهة الذهبية :

«لتكن دجاجاتك مرحة ، أيتها العافية .
ليكن قلبك مرحا هذا الصباح المتكتم كئيب .
لتكن الحقول مرحة ، تدوّن الثروات خضراء .
ليدخل الرجال العرصات ،
يمضغون أعواد السنابل تحت شواربهم الكثة ،
ويرتشفون الأزل ذائبا في شراب البايوتج .
وتدخل التماثيل غضبي إلى السرداق ،
في أيديها أقفاص ، في الأقفاص ظلالها المحتقة ،
وأرقها المتشد .

عُصِي، أَيْتَهَا الْعَافِيَةُ، عَلَى أَنْأَمَلِ الْوَقْتِ طَوِيلًا كَيْ تُعِيدَنِي الْمَكَانَ إِلَى
خَنِينِهِ... عُصِي.

٦

حَتَّى هَذَا الْقَدَمُ،
وَالْقَتْلُ بَيْعَةً، يَا وَقْتُ،
وَالْأَلَوَاحُ كَمَا عَهَدْتَهَا شُرُوحُ، تُسْتَنْسَخُ فِيهَا خُرًا كَحِجَابٍ، طَلِيقًا
كَالْغَيْبِيَّةِ، فَاانْكَشَفَ عَلَيَّ مِنْ غِبَارِ مَرْقُومٍ فِي الْأَفْلَاكِ، حَيْثُ يَتَوَلَّى
شَتَاتِكَ الْجِبَاءُ الْمَذْهُولُونَ. وَالْكَ، يُنَجِّدُكَ الْأَرْقُ أَيُّهَا الْوَقْتُ؛ يُنَجِّدُكَ الْيَاسُ
الْعَارِفُ، مَدُونُ الْعَلَلِ، الصَّبُورُ كَعَذَابِ صَبُورٍ:
(يُنْدَقُ يَتَدَحْرَجُ عَلَى النَشِيدِ. شَفَقَ هُدْبِي. كَلِمَاتُ يُضَعَّقُ
فِيهَا الذَّهَبُ، يَا بَنَاتِي. التِّيُوسُ نَاحِلَةٌ مِنْ سِفَادِهَا، وَمَوْحَى إِلَى
الْأَلَمِ أَنْ يَتَضَاعَفَ حَتَّى الْإِعْيَاءِ. لَا نَجَاةَ لِلْأَمَلِ بَعْدُ إِلَّا جَرِيحًا. يَا
بَنَاتِي، فِي حَقُولِ الْبِقَاطِينَ يُعْمَلِي الْبَرْقُ عَلَى قَلْبِي سَطْرَةُ الْمَرْقُ. مَا
هَكَذَا تُخْتَطِفُ النِّهَايَةَ. مَا هَكَذَا ارْتِدَادُ الْفَنَاءِ عَنْ خِيَالِ مَوْحَشٍ.
حِذَارُ، النَّدَى يَلْفَقُ لِلصَّبَاحِ أَعْدَارُ الْوَرْدِ، وَالْمَدِيحُ يَسْهُو - فِي
الْمُفْتَرَكِ - عَنْ كَلِمَاتِهِ. يَا بَنَاتِي ابْتَسِمْنَ لِأَنْيَابِ النُّعْمَةِ وَأَضْرَاسِ
الْمَكْنُونَاتِ. جِثٌّ فِي الْغَيْمِ؛ فِرَاشَاتُ وَأَكْبَادُ. غَدُ طَلَاءُ يَتَشَقَّقُ
تَحْتَ الْعَنَانَاتِ. غَمَامٌ شَهِيدٌ يُوَارِي فِي الْوَرْدِ. أَوْلُنِ الْمَاءَ؛ أَوْلُنِ الْمَاءَ
أَوْلُنِ الظَّلَامَ الطَّاهَرَ كَمِخْنَةٍ. لَا تَقْلُنِ هَذَا عِيَاءَ الْجَوْهَرِ مُنْقَادًا لِهَذَرِهِ
الْكَثِيرِ. غَيْبٌ خَجُولٌ يَتَدَرَّبُ عَلَى أَمَلِ خَجُولٍ، يَا بَنَاتِي. الْحَرِيقُ
يُظْفَى النِّهَايَةَ الْمُشْتَعَلَةَ. يَا بَنَاتِي. الْفَرْقُ لُقْيَةً، وَالْمَلَالُكُ يَتَكْتَبُونَ
عَلَى النُّصْلِ الْأَقْوَى. أَلَيْسَ؟ عُدْنِي بِي إِلَى الْأَفْعَوَانِ الشَّرَفِ أَوْقِظْ
الْبَلَاءَ النُّعْسَانَ، وَالْبَدءَ فِلْزَةَ السَّيَّارِ مِنْ بَرْزَخٍ إِلَى بَرْزَخٍ؛ نَشَأَتُهُ

المُغِيرَةُ بِسِلَاحِ الْمُدْرَكِ وَصَلِيلِ الْجِهَاتِ . عُذْنُ بِي ؛ أَرَاهَا الْقَبَابَ
تَتَدَفَّقًا عَلَى الْمَنِيِّ مُسْتَعِرًّا بِحَرِيقِ الْغَيْبِ) .

حيّ هذا المُسْتَوْفَى عَلَى الْبَدَدِ يَا وَقْتُ ؛ زَيْدُ عَادِلٌ . وَالْكَ . تُشَقَّى
بَصَارِعِ الْعَدَائِثِ وَرُمَاهِ الْمَطَارِقِ ، وَعَلَى عَقَبَيْكَ أَهْرَامَاتُ تَذْبِجُ رَوَاقًا رَوَاقًا ،
حَجَرًا حَجَرًا ، بِمَدِيَةِ الْمَشَافِهِ - مَدِيَةِ النَّدَمِ . وَمِنْكَ الصَّرَخَةُ : «أَغِثِ الْحَقُّ
يَا فِرَاعُ ؛ أَغِثِ الرَّمَادَ الْمُغْنِيَّ» ، كَأَنَّكَ تَتَضَاعَفُ زُرَائِبُ فِي فَنَاءَاتِ اللَّوْنِ ؛
كَأَنَّكَ الْإِسْطِطِلُ يُنْزَوُ فِيهِ الْخَيْلُ الْمُحْتَرَقُ عَلَى خَيْلٍ مُحْتَرَقٍ . وَفِي خِلَالِكَ ،
يَا وَقْتُ ، لِلأَوْدِيَةِ صَرَخُ الْخَنَانِيصِ ، وَلِلْأَكْمَاتِ لَهَاتُ :

(أَوْقُذْنِ ، يَا بَنَاتِي ، حُطَبَ الْمِيمُوزَا الرُّطْبِ ، كَيْ تَخْرُجَ السَّمَاءُ
مُسْتَسْلَمَةً مِنْ وَجْهِهَا - وَكُرَّ النَّيْصِ ؛ كَيْ يَقْطَعَ الدِّخَانُ بِمَدِيَّتِهِ قَدِيدَ
الشُّقْقِ ، وَيَجْزُو وَبَرَ الْخَيْرِ . يَا لِلْخَيْرِ ؛ يَا لِمَتَاعِ الْخَيْرِ وَسَلْسِلِهِ
الذَّهَبِيَّةِ . الْحَقْنُ بِي ، يَا بَنَاتِي ، إِلَى الْحَجَرِ نَسْتَوْضِخُهُ سَهْرَ الْجُمَادِ
هَكَذَا ، مَلُولًا كَأَنَّمَا اسْتَبْطَأَ الْقَضَاءُ فَرَسَ الْبَرَاهِينِ . الْحَقْنُ بِي إِلَى
الْحَصَارِ الشَّفِيعِ ، وَنَادِيْنِ مَعِي : طَوْقِي هَامَتِكِ أَيُّهَا الْعَدَمُ بِعُصَابَةٍ مِنْ
الْقَنْبِ لَا يَصْدَعُنَا ، بَعْدَ ذَا ، هَبُوبٍ . فَهِيَ غَمُورُكَ مَرْتِيَةٌ فِي الْبُلُورِ ؛
عَجَلَاتُكَ وَلَوْحُكَ الْأَمْلَسُ كَنَفَخِ اللَّهُ ، يَا عَدَمُ ؛ وَهِيَ هَامُ قُقَا زَاكَ
عَلَى سَطْرِ الشُّقْقِ الَّذِي يَدُوُّهُ الشَّرِيدُ . وَلَا تَقْلُنْ لِي : تَمَلَّشْتَانِ
كَفَاكَ بِالْأَبَدِ ؛ قَلْبُكَ بِالْوَحْيِ الْمُغْفَلِ ؛ عَمَلُكَ يَقِينُكَ بِالْهَارِيْنِ . لَا .
يَدُلُّنِي الْفَلَكُ الْعَقْرَبُ ، السَّائِرُ فِي غَمَامَاتِ الْفَيْرُوزِ ، وَالْحَكْمَةُ
مَهْزُولَةٌ مِنْ تَزْوِهَا الْكَثِيرِ) .

قَدَّرَ كَحَوْصَةَ الدِّيكِ ، وَلِلْمَكِيدَةِ أَحْشَاؤُكَ يَا وَقْتُ . لِلنَّدَى صَرْعَكَ
بِقَشْرِ الصَّبَاحِ بِشَفَرَتِهِ كَالْقَلْفِ ، فَاتْبِعِ الْحَرْبَةَ إِلَى مَا يُخْرُقُ . اتَّبِعِ الْمَكَاشِفَةَ

التي يدحرجُ الخفيُّ بها أمومتَهُ العزلاءَ عليكَ :
إنهُ قَسَطُ الفيضِ الذي علَّمهُ علِّمُ شرعٍ ؛
إنهُ قَسَطُ المياهِ تتشققُ من فَوْوسِها الريحُ .

لا دَنَسَ :

عملاً يتوارى الظاهرُ ،
والذُّعْرَةُ ، طائرًا ، يعلمُ الشروقَ مجازفاته .

لا دَنَسَ :

بعثُ كما صفيّرُ في الحَلَباتِ ،
والمجازاتُ ، محمومةٌ ، تمزُقُ الأخيَلَةَ .

لا دَنَسَ :

هذا شُلْشَالُ الغَدِ وردَّاهُ على عظامِ التَّيسِ الميتِ - تَيسِ المشيئات .

أكلُّما استدرتُ إليكَ ، يا وقتُ ، أبصرْتُكَ لاهُنا ، تنصبُّبُ منك
الفروقُ باردةٌ ؛ تنصبُّبُ منك مَلَكَاَتُ الظاهرِ ؟ ذائِكَ السادسةُ ذاتُ البِزْرِ
مطحونةٌ في جُزْنِ النشأةِ . خلائِكَ والأملُ يشيعُ ، في حِباءِ ، تحتِ درجِ
المقدورِ :

مكانٌ حليقٌ كعانةٍ ؛

مهبلُ صليلٍ ، والأجراسُ خُصِي .

تلينُ ، يا وقتُ ، إذ تَلينُ العظامُ . أما لو زعمتُ ما يزعمُ الحَبِيرُ ، وأدْعيتُ
ما تدعي النفاقُ ، جوزيتُ تكتيلُ بشهوةٍ ، ويداكُ على صَفَاقِ الغبارِ
وكاذِبتهِ . بَيِّدَ لا ترعِفُ فيكَ عضلةُ الحريقِ ، ولا تُجاوِرُ المُدْرَكَ إلى مخيَلَةٍ
النورِ المزدحمةِ بالكثافاتِ الصَّلَفَةِ . ويحَ البهائمُ :

سِفَاحُ الْحَقِّ فِي كُلِّ إِرْثٍ .
 سِفَاحُ الْحَقِّ ،
 سِفَاحُ قِرَائِهِ ،
 أَثْمَتُهُ الَّذِينَ مِنْ نَشَاءِ أَخْضَرِ ،
 جَنُوتُهُ الْمُقَوَّى كَدَفْتِي كِتَابٍ ،
 مَسَاوَةٌ ذُو الْقِنَاعِ ،
 رُعَافُهُ ،
 أَنْثِيَاءُ الْبَارِدَتَانِ -

(أَيُّهَا الدُّوْرِيُّ الصَّامِتُ عَلَى شَجَرَةِ الْخُرُوبِ أَيْتُهَا الْمَدْخَنَةُ ،
 أَنْتَمَا تُثِيرَانِنِي) -

تَلِينُ إِذْ يَلِينُ الصُّلْبُ الْحَيُّ يَا وَقْتُ . خُصِّصْنِي بِبِئْسَ الْمَعْلُومِ
 يُشْكَلُ عَلَى إِرْثِهِ ، وَانْتَدِبْنِي عَلَى الرَّمَادِ بِإِثْمِ النَّارِ ، الَّذِي يَصُكُّ اللَّطَائِفَ
 صَمْتُ الدُّهْرِ :

(تَخْبِطُنِي أَيُّهَا الْبَحِيرَةُ :
 الْبَهْجُ يَذْبَحُ الْأَفَقَ بِأَجْنَحَتِهِ عَلَى مَائِدَةِ الشَّمْسِ) .

وَجُودٌ مَسْأَلَةٌ . نِسْبَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْحَدُوثِ الْكَثِيرِ .

(سَرَابٌ مَطْهُوٌّ كَمَا يَنْبَغِي ، يَدُوْنُ السَّحَابُ الْمَهْرَجُ ، وَالْأَكَاسِيَا
 يَشْتَقُّ قَمِيصَ الْهَوَاءِ) .

لَا تُخَصِّصَنَّ الْيَاقُوتَ بِالنَّفْيِ ،

لا تَوَكَّدَنَّ الْجَمَشَتَ يَا وَقْتُ !
 عَلَّتْكَ مَا يَجِيزُهُ الدَّلِيلُ الثَّائِتُ لِلتَّيْبِ . أَصْنَعُ :
 ضَرَبَاتُ بِالْمَنْجَلِ عَلَى مَنَاقِيرِ النُّحَامِ ،
 وَالْكَيْنَا يَتَبَاسِطُ وَالرَّيْحَ فِي تَلْفِيحِ الظِّلِّ ، حَيْثَنَ الظِّلُّ فَخَاخَ ، وَالْمَكَانُ
 طَلْقَطَاتُ عَظَامٍ فِي الْفَخَاخِ .
 أَصْنَعُ :
 مَعْدَنُ يَبْرُتُكَ مِنَ الشُّبْهَةِ : إِمَامٌ فِي الْفِضَّةِ ؛ وَلِيٌّ فِي الذَّهَبِ .

٧

(يا بناتي ،
 أيتها السنونُ النحيلةُ كظلُّ أبي ، يا بناتي . .) .

٨

أَفْتُ يَا بَرْقُ ،
 أَفْتِي أَيُّهَا الْقَطِيعَةُ :
 فَرَجَارٌ مِنْ صَعْتَرِ يُسُودُ الْأَقْوَاسَ عَلَى اللَّوْحِ ،
 وَالْعَامِضُ الشَّقِيقُ ، مُدْرَبُ الشُّكْلِ ، يَطْلُقُ حَدَاةَ الْحَقِّ وَبَارِئَةً .
 أَثَرَانِي أَهَبُ النِّظَائِمَ مَا يُنْشِئُهُ الزَّيْدُ ؟ :
 شَرَعَ مِنْ غَضَبٍ هَذَا ،
 امْتِثَالُ النِّهَايَةِ لِقَضَاءِ الْوَرْدِ ، فَأَفْتُ يَا بَرْقُ
 أَفْتُ أَيُّهَا الْجَمَادُ الْأَرَقُ -
 وَحَدَهُمُ الْغَاضِيُونَ تَهْتَدِي بِعَبُورِهِمُ الْأَقْدَارُ .

غِرَاسُ هَوَاءٍ . يُحْكِي . يُؤْرَثُ مَا يُحْكِي يَا وَقْتُ . كُفِّرَ بِمَسْكَ ، كُفِّرَ
الوردِ هذا المداهنِ ذي الإيمانِ اللّوني . بِمَسْكَ طَائِفُ الخَلْقِ جَرِيحًا بِأَرْجَاءِ
العَدَمِ الجريح . عَجَبًا :

يُوكِلُ الهَبَاءُ كَالْكُمَثَرَى ،
وَتُرْمَى إِلَيْكَ عِظَامُ الْجَازَاتِ ؛
تُرْمَى بِكَ إِلَيْكَ ، مُمَزَّقًا ، تُرَى كَدَمَاتُ الْفَنَاءِ عَلَى ثَدْيَيْكَ .
عَجَبًا :

يُنْجِدُ الْهَوْلُ الْكَلِمَاتِ فَلَا تَتَعَثَّرُ بِالْمُطْلَقِ مُغْمًى عَلَيْهِ .

فَلْيَنْقَضِ الْمُؤَوَّلُ يَا وَقْتُ :
جَلْدٌ فَلْيَتَشَقَّقْ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ .
فَلْيَجِفَّ الْكِبْدُ . فَلْيَتَجَفَّ الرُّثَّةُ ،
وَلْيَتَهَرَّأَ الْغَضَارِيفُ . فَلْيَتَنَفَّخِ الْأَحْشَاءُ ،
وَلْيَتَمَرَّقِ الْمَفَاصِلُ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ . -

(دعاء كذيل السنجاب) -

فَلْيَنْقَضِ الْمُؤَوَّلُ يَا وَقْتُ :
هَ اَنَا ، قَرِينِي قَرِينُ الْأَمَدِ يُنْقَضُ هَبَاءٌ أَوْ يَزَادُ هَبَاءٌ ،
وَأُبْعَثُ بِالَّذِي يُشْكَلُ فَيُغْوِي .
هَ اَنَا . . . يَا لَجَنَاحِي ؛
يَا لَشَغَفِ الرَّمْيِ أَنْ يَتَهَكَّ فَيُسْتَبْطِنَ خَالصًا كَالشَّفَاعَةِ ؛
يَا لِأَعْمَارٍ تَرْفَعُ فِي صِيحَافِ الْحَبْرِ إِلَى الْمَادَّةِ .

أَمَا لَوْ خُضَّ الْقَنَاءُ ، بِرَفَقٍ ، فِي الْقِرْبِ خَضُّ اللَّبَنِ فَأَزِيدَتْ
 الحضوراتُ ؛ أَوْ هُرِيقَتْ السَّمَاءُ عَلَى حَافِرِ الثَّوْرِ ، وَأَوْثِقَتْ الرِّيحُ الرِّيحَ ؛
 أَمَا لَوْ ذِيقَ الْمَاءُ فِتْنَةَ الْمُفْضِلِ ،
 وَنَقِضَتْ الْمَتَاهَاتُ مَوَاقِيهَا ، . . . :

هَيْهَ ، إِنَّهُ النَّهَارُ النَّعْمُ ، وَثَبَةٌ بَعْدَ أُخْرَى يَشْقُ الرَّمَادَ الصَّلْبَ إِلَى
 فَرِيستِهِ ، النَّهَارُ الشَّدِيدُ . النَّهَارُ عَائِدًا مِنْ جِهَاتِهِ الْهَنْدَسِيَّةِ ، مَمْتَلَأًا ، وَثَبَةٌ
 بَعْدَ أُخْرَى ، بِطَبَاعِ الْأَكِيدِ يَفْتَرَسُ الْأَكِيدَ . النَّهَارُ التَّرْدُ ، الْحَلِيمُ كَالنَّقَاطِصِ ،
 النَّاجِي مِنْ مَذْبَحَةِ الْأَمَلِ ، النَّهَارُ الْيَقْطِينُ ، الْمُكْتَنَزُ خَلَاءَاتِ وَبُرُوجًا ،
 الْمُرَاصِفُ عَصَلَةٌ عَصَلَةٌ فِي فَخِذِ الثَّوْرِ . النَّهَارُ النَّبَاحُ فِي مَا وَرَاءَ الْخِيَامِ
 الْمَرْقُوعَةِ هُنَاكَ ؛ الْعِيَارُ ، حَامِلُ السَّلَالِ الْمَمْتَلِكَةِ بِعِظَامِ الثَّوْتَيْنِ . النَّهَارُ ذَاتُهُ ،
 الْمَتَشَقِّقُ الْعَقِيبِينَ ؛ الْمُتَجَرِّزُ كَعَمَاءَ ؛ شَرِيكِي فِي إِغْدَاقِ الْأَلْقَابِ عَلَى الْحُمَى
 الْمُخْصَبَةِ ، الْمُبْذَرُ مِثْلِي ؛ جَلِيسُ الشُّكْلِ الَّذِي يَرْتَقُ الْجَوْهَرُ وَأَعْرَاضُهُ الَّتِي
 مِنْ قَبْلِي .

يَا لَشَغْفِي بِكَ أَيُّهَا النَّهَارُ الْخَلُّ ،
 يَا لَشَغْفِي بِاللَّيْلِ الْعَدَاءِ ، الصِّلْصَالِي ، ذِي النِّقُوشِ ؛ الشَّرِّهِ فِي مَادِبَةِ
 الْأَشْكَالِ ، اللَّيْلِ الْعَادِلِ ، الْمُقْلَدُ أَسْلَافَهُ الرِّوَاةَ ؛ الْمُعْدِي ، يَكْمُمُ الدَّهْرَ رَهْنًا
 كَالْمَغَالِيقِ . اللَّيْلِ الَّذِي بِحَوَافِرٍ مِنْ سَكُونٍ يَنْجَرُ الْأَفْرَ الْأَقْوَى عَلَى كِمَاتِ
 الرِّمَالِ . اللَّيْلِ الْخَلَاجُ ؛ كَاتِمُ النِّشِيدِ النَّاقِصِ . اللَّيْلِ ، ذَاكَ ، مَرْتَبًا عَلَى
 صَقَالَةِ الْخُدْعَةِ ، أَمِينًا كَالشُّبُهَاتِ ، يَبُوبُ الظَّلَالِ بِتَوَيْبِ الْوَرَاكِينِ . اللَّيْلِ
 كَمَا هُوَ ، عَلَى هَنَاتِهِ ، طَرِيحًا فَوْقَ فَرَاشِ الْخَيْرِ ، مُلْهَمًا أَنْ يَتَبَدَّلَ فِي الْمَمَرِّ
 الْأَمِينِ ، حَيْثُ الْأَفْلَاكُ تَتَحَرَّى كِمَاتِنَ اللَّهِ ، وَتَتَبَرَّجُ الْمَغَالِيقُ فِي مِرَاةِ
 الْكَلْبِيِّ .

يا لَشَغْفِي بك يا المكان المروَّع بمجابهات الجواهر ؛ المكان المُتَنَحِّلُ ،
 ربيب الكُنه المقرون بالغَلَبَةِ ، المضموم كقبضة المُخْتِنِ إذ تُجَرَّ القَلْبَةُ ؛
 الفَيْضُ ، ذو الأَقلام السبعة ، الحُرَّاتُ في الحلقات ؛ الحُرَّاتُ بِسُكِّ الهول
 في الحلقات ، الرقيقُ الَّذِي ، المُتَنَهَّرُ على أبواب النساء ؛ المكانُ السُّطُورُ
 وأشباهُها ، المتكَوِّمُ على دفينه المحترق ، الزاهدُ كظلِّ ، الهَزْأَةُ يُلْقَنُ النهايةَ
 صِيَّاحُ البابون ؛ الصَّدْعُ الأشدُّ أنينًا ، المُغْلِظُ إذا أُمْلَى ؛ المكانُ المُخْتَزَلُ على
 ميناء الساعة الذهبية ، المُتَّفِقُ عليه أن يُطوى ريحًا ريحًا ، ذو التخوم الرُّغَاءُ ،
 المُدْخَرُ كفحم الأفران ، الثُّغْرَةُ ؛ المكانُ الثُّغْرَةُ في حصن الغد ، المُسْتَنْطَقُ
 قَرَمًا بسكاكين الفجر الرهيفة ، الدخيل على أحلاف القيامة ؛ لا إليه ، لا
 لَهُ ؛ المُسْتَنَهْضُ بنفخ في العظام ؛ المكانُ الأحوالُ تُكْشِطُ كجلد الفقمة ،
 وتشذَّبُ كالعانات ؛ المؤيَّدُ بذبح حميم ؛ خَلْبُ الفتنة ، الزاهدُ كتنعين
 مُرْسَلٌ في خيال مُرْسَلٍ من الحقِّ إلى الحقِّ . يا المكانُ ، أنتَ ، الأليفُ ،
 المستولدُ من حُنْكَه الزائل الأمين ؛ يا اقتداري أن أغوي المُرتَجَى ، -
 خَلَيْتَ - ، يا اقتدارَ الشَّعْبِ النُّعِيمِ ، تُسَوِّرُكَ تُكْنَتُ مهجورةً بظلالِ
 النعمة المهجورة ؛ وَلْيُغْلَقْنِ عليك الهربَ أولاءِ القابضون ، في قسوةٍ ، على
 النَّصْلِ الدامي ، الموعودون بأجران ، ذوو السُّهر على النوم ، وهم يضربون
 الموائد بِمَدَقَاتِ السماء ؛ المُتَكَشِّون جلوسًا على النهاية ، بلا إيماءات ،
 صامتين ، يبوخُ الذهولُ بين أيديهم ويجهشُ الغبارُ بالبكاء ؛ الهادئون هدوء
 الصِّفَاتِ ، في حياءٍ يرققون المساءات كالأرغفة ؛ الحُرَّاثون في الشُّكْلِ ؛
 مالكو العَسَى وقضاةِ المياه ؛ الموصودون على متاع الظاهر ، نَهَبًا يزنون الثُّقُلَ
 الشفيع ؛ المجرِّحون جراحَ العاقبة ، أخلاءُ الدَّوِيِّ ، المحضرون على زرايبات
 اللون ، القلقون لأنهم كوفتوا ؛ قُصَّاصو أثر الأزل من حَتَجَرٍ إلى حجر .
 يا لَشَغْفِي بالمكان يُرمى - المكانُ الكُرَّةُ الحجريةُ ؛ المكانُ الأَدراجُ ،
 الماهولُ بِجَرَسِ النهايةِ ، المكانُ الفضفاضُ ، المذْبِلُ الحواشي بفراء القطرس ،

الْمُنْتَحِجُ خَفِيضًا كَيْ لَا يَوْقُظَ الْجَبَرُ؛ الْمَتَهْدِجُ كَصَوْتِ الْمُسْكُونِ؛ الْمَكَانُ
الْعَجُولُ، الْخَاتَمُ الْمَتَدَحْرَجُ عَلَى الصَّفِيحِ الْعَرِيقِ، النَّاحِلُ كَسَكُونِ مُؤَزَّقٍ؛ -
يُرمَى؛ هُوَ يُرمَى، الْمَكَانُ، مِنَ الْأَدْرَاجِ نَعْسَانُ. يَا الْمَكَانُ!!!

سَبْعُ بَقَرَاتٍ؛

سَبْعَةُ تَمَائِيلٍ مَحْمُولَةٌ عَلَى فِرَاقِ الْحَجَرِ؛

(عَجَلْ! وَاقْتُلْنِي يَا أَبِي؛

أَلْنَهَارُ الْتَكَ،

وَالْحَقِيقَةُ مَا تَصْنَعُهُ بِمَطَارِقِ الْقِيلُولَةِ.

ذَنْبٌ مَرَحُكٌ.

تَمُورٌ أَقَاصِيصُكَ فِي الْمَسَاءِ؛

عَلَّمْتَنِي أَنْ لَا أَخَافَ. بِحَقِّ يَدَيْكَ،

عَلَّمْتَنِي أَنْ أَخَافَ يَا أَبِي).

سَبْعُ بَقَرَاتٍ، وَفِرَاعٌ وَاحِدٌ؛ فِرَاعٌ فَهْدٌ يَرِثُنَ عَلَيْهِ اللُّوَاتِي بِصَرْفَنَ

التَّصَارِيفِ، وَيَدْفُقُنَ الْقُبْلَ؛ هُنَّ، مَنْ اسْتَفْرَقَتْكَ يَا الْمَكَانُ بِعِظَامِ تَهْرَسَ إِذِ

الْعِنَاقِ هَدِيرٍ. هُنَّ، عَاجِنَاتُ اللَّيْلِ فِي أَجْرَانِ الْبَلُورِ، الْمُرْتَعِشَاتُ بِشَكِيمَةِ

الْغَدِّ الْمُنْتَلَمِ، أَزْلَاتُ رَهَانٍ يَضْرِبُنَ بِالْقَسْبِ الْمَسَاكِبَ، وَيَتَلَقَّضْنَ الْمَقَادِيرَ.

سَبْعُ. تَضَاعِيْفُ كَالرُّثِيرِ. وَالْفِرَاعُ مُؤْتَمَنٌ.

إِيه، يَا الْفِرَاعُ الْمُنْسَرُّ، يَا الَّذِي يُوْكَلُ الْغَيْبُ مَرِيضًا فِي ثَرِيدِكَ، هَا

أُحْفِصِرْتَ الْأَجْرَانُ، وَالْمِرَاتِبُ الَّتِي سَطَطَحَنُ، وَالْأَكْبَادُ، وَزَيْتُ السَّمْسِمِ،

وَالرَّمَادُ الْمُسْتَظْفَرُ، وَالْمَقْصَصَاتُ الزَّرْقَاءُ الَّتِي مِنْ شِفَافَةِ الْكِيَانِ الْمُرِيدِ. يَا

فِرَاعًا يَهْوُلُ الْغَمَامُ عَلَيْهِ بِأَلَاتِهِ، - الْفِرَاعُ أَنْتَ؛ الْفِرَاعُ التَّرْقُوَةُ، وَالرَّخْصَةُ،

وَالْأَضْلَاعُ؛ الْفِرَاعُ السَّنَاجِبُ، الَّذِي تَوَزَّقُ الظَّلَامُ إِذْ تُنْسِيهِ أَنْكَ امْتِنَانَهُ

الْعَاقِلُ، وَتَخْدُشُ بِيَرَاتِيكَ - فِي لَيْلٍ - عُضْلَةَ الْمَعْلُومِ:

أصوار على الجبل .
 لا تقولوا وصل الموتى من كوستنجن وأرييل .
 لا تقولوا أحشائي هذه عليها قش من بوطان ، وإنني قُلتُ .
 لا .

اجمع خرافك بوغي بريفا ؛
 اجمعي حطام الزجاج ، دينوكا ، بمكنسة العرنج ، بعد الدوي .
 اجمعي حنطتك نزوحاً إلى مرقد آخر في الحير .

صوار على الجبل . . .
 سبّع كتاويل النعناع ، إذ التيه هرتك الأليفة ، أيها الفراغ ، وموقدك
 العنب .

١٠
 (عَرَضُ يَتِمَادِي ؛
 جوهر يَتِمَادِي :
 أمهلها قلبي ،
 أمهلِ الفناء ريثما يُستَعَادُ الشُّكْلُ إلى مآزقه) .

١١
 واللمصارع :
 أناشيد مكتوفة الأيدي ،
 ومغام تجف تحت مراوح المياه :
 ألا كل شيء وفي للحماقة - هذا البذخ الطاهر ؛
 وفي لي في اعتدالي بقسم العدم ذاته أن أعتدل ؛ العدم الثاني ،

المُخبي ، شفيح البقاءِ وبستانِيهِ الذي يشذبُ القِدَمَ بمقصهِ ، ويُلقنُ
الضروراتِ أنَّ تتمادى .

جوهرٌ يتمادى ؛

عرَضٌ يتمادى ،

والغمامُ الحصادُ ، المُتجرِّدُ من سراويله النارية ، العَوي ، الجُرْنُ تطحنُ
فيه الحقولُ مغمِسَ شهواتها ، الذَلِقُ كلسانُ الرماد ؛ الغمامُ الخَلِي ، الملقى
على قارعةِ المراتبِ يتقدَّمُ الفجورُ ، التي تتبادلُ الرحمةَ ، إلى سريره ، شفيقاً
لا يجادلُ العبثَ الغلامَ ، ولا يرمي الكثيفَ بشفَافاته ؛ الغمامُ الأوحَدُ ،
المُضَلَّلُ كنبوءة ، ذاك الذي يرتقُ الضرورة ؛ الغمامُ النُكَّالُ ، المتهوِّرُ ، ربيبُ
الكيدِ ، المجتهدُ في الأرقامِ ، الفصَّادُ ، الذي بشفرةٍ من المرحِ يحزُّ وريدَ
الكمالِ المسدودِ ؛ الغمامُ الراكدُ على شفقِ الضروراتِ ، وهو يلقنُ المستورَ
أخاديعه .

أي قَدَمٍ ، إذا ، يتخبَّطُ في الرمادِ ، متوسِّلاً إليَّ أن أفكُ وثاقَ
خنانيصه؟ هيَّه ، مصاريعُ : ساحِثُ الألمَ : صاحِ ثَمَّالَكَ نَفْسَكَ في اتِّكائِكَ
علي ، ودَّارَ عينيكِ إذا اغرورقتا . صاحِ رَمِّمِ المنازعةَ بشهواتِ تقوُّصُ ، يا
الأنيقُ ، ورَقِّه عن يقيني أركَ الكمالِ ناقماً على النشأة ؛ الكمالُ الصِّقَّارُ ،
المُعْتَلَمُ ، مُبرِّمِ العقودِ النافلةِ ، المُتَبَرِّمُ من شركائه القنَّاصين ؛ الثرثارُ ، المُبَشِّرُ
بالمُرتَجَلِ ؛ الأعرَسُ يأخذُ الجهاتِ يمينِ أعدائه .

صاحِ أركَ الضياءِ الشبيخَ ، الذي من شُرودِ وسهوه ، ذاك ، المتعشِّرُ على
صفقاتِ البنَّائين ؛ الضياءُ الزرافةُ ، طحَّانُ الإرثِ ، هاذباً يعضُ الظلالَ
كاللُّبَّانِ ، ويعتصرُ الموازين .

يا للمصاريع :

جوهر يتمادى ؛

عَرَضُ يتمادى .

أَلْمَقَادِيرُ تتضعضُ بأثقالها ،

وَيَتَذَهَّدُ الفضاءُ الخليلُ ،

فأُخْسِنُ يا قلبُ إلى الصاعقةِ ،

وهْدَى رَوْعُ أطفالها :

ها هنا عناقُ طاحنٍ ؛

ها هنا الضروراتُ تتباضعُ ، والمصادفاتُ خُصِي ،

لكأنِّي أوحشتُ الوقتَ ، وأخلَّيْتُه بالحنينِ مَنِي حتى لَيْشْفِقَنَّ عليه

خيَارُهُ أن يدومَ - هكذا - وَقْتًا لبراهينه ظمًا اليأسِ إلى اليأسِ ، ولا ثقاله

صربُ الخبِرِ .

فلا تَلْتَفِتَنَّ ، قلبي ، إلى المَلَأِ المستور : ذا الربيعِ الكلبةُ ماترى ؛ الربيعُ

العانةُ ، الحليقُ كِبَاطِي مومس ، حيث لا شهواتُ ، بل اغتصابُ من نُورٍ

إلى نُورٍ ، ومن زوالٍ إلى زوالٍ ، يبطشُ الحمى ، التي تنجو القيامةُ فيها من

غَرَقِ المحظوظين .

١٢

للندی شفراتُ ؛

للحقولِ طِبَاعُ السَّرَاقِينِ ،

فلأَعِذْ المديحُ نادبًا ، فليَعِدْ الضلالُ الأمينُ مدائحَ الغيبِ في رَقَعِ :

يا الضَّلالُ ، الذي يتممُ للحقيقة ما تتلعثمُ الحقيقةُ في إطاره ؛ يا لَكَ

ضلالًا يُسْتَنَفَدُ العريقُ في وصفك ؛ يا لَكَ ، أخني آتَمَنَكَ على هدايةِ الأكيدِ

الفاجرِ . إِيهَ ، لَأَنْتَ الضَّلالُ الْفَرَّانُ تنضجُ في قبضتك أرغفةُ الله وكسناؤُهُ .

وَأَنَا؟ فَلَا تَحْتِ الشَّفَافَةَ بِإِزْمِيلِ الْكَلْبِيِّ تَصَاوِيرَ دُرُوعٍ ، وَاسْتِغْنَاتٍ
كَرْكُضِ الْإِرْوْزِ ؛ فَلَا تَحْمَمُ الْكَثِيفَ عَلَى عَتَبَةِ النُّعْمَى ؛ فَلَا تُنْجِزُ ، هَكَذَا ، عَلَى
عَاهِنِ الشُّكْلِ خَالِصًا ، لِلضَّرُورَةِ فِي أَنْحَاثِي دَبِيبُ الْيَرْبُوعِ ، وَلِلْأَمَلِ جِلَالُ
التَّيْبِيَةِ حَنِيفًا يُؤَلِّى التَّيْبَ عَلَى الْمَوَازِينِ ، وَيُقَلِّدُ خِلَاصَ الْبَاطِلِ :

يَا الْبَاطِلُ ،

يَا ثَنَاءَ الْكَلْبِيِّ عَلَى مَصْكُوكَاتِ الثُّورِ ،

أَيُّهَا الْوَفَاءُ الَّذِي يُنْكَلُ بِالْعَدَمِ كَيْ يَعْتَرِفَ ،

لَأَنَّكَ تَزِنُ بِمِثْقَالِكَ النِّجَاةَ ذَهَبَهَا .

وَلَأَنَّكَ جَرِيحٌ بِمَا خُصِّصْتَ بِهِ مِنْ يَقِينٍ ،

تَطْنُ مِنْ حَوْلِ جِرْحِكَ ذِبَابَةُ الْفِرْدُوسِ ، وَنَحْلُ الْجَمَادِ الَّذِي يَسِيلُ

شَهْدُهُ عَلَى رُحَامِ الْفِرْدُوسِ :

« يَا الْفِرْدُوسُ الَّذِي يَتَعَثَّرُ الْوُجُودُ

بِالْعِظَامِ عَلَى عَتَبَاتِهِ ، هَاتِكَ ؛ هَاتِ

صِمَغَكَ الْقَوِيَّ نَلْحَمَ بِهِ شُرُوحَ

الْمُوحَى . وَانْتَهَرِ الْمَوَاتِيْقَ ؛ اضْرِبْهَا

بَسُوطِ النَّدَمِ ، فَانْتَ شَفَقَةُ النِّهَايَةِ

عَلَى النُّبُوءَاتِ » .

ضَلَالًا ؛

ارْزُقِ السَّمَاءَ عَلَى فَخْذَيْكَ الْقَوِيَّتَيْنِ ؛

رُجِّمًا بِاللِّهَاتِ حَتَّى تَتَفَنَّقَ مَشِيمَةُ الْبِرْزَخِ ؛

وَيَنْحَلِّ الْمَكَانُ شَهْوَةَ شَهْوَةٍ .

أَهْزُوْ ذِمْعَ إِشْفَاقًا عَلَى الْأَمْسِ فِي يَدَيْ ،

أَمْ مُطْلَقٌ يَسِيلُ مِنْ أَجَاصَاتِ الْحُمَى؟ ضِلَالًا أَلَمْ ؛
 أَرْفَعُ الرِّيحَ إِلَى ثَدْيِيكَ ،
 وَاطْرِ الْجَمَالَ الْمُتَعَصِّصَ مِنْ آيَتِهِ تُقْرَأُ بِلِسَانِ الْعَدِيدِ الْوَاحِدِ ، يَا لَكَ ،
 وَعُذُّ بِي إِلَيْكَ ، مُجَرِّجًا خَلْفِي حَفِيدِي الْوَقْتِ ، أَوْيَحُهُ إِنَّ تَلَكَّا ؛ أَوْيَحُ
 النُّشَاءَ إِنَّ تَلَكَّاتُ .
 عُدُّ بِي أَيُّهَا الضَّلَالُ ،
 سَأَذِيقُ الْفَرَاغَ جُمَانَاتِهِ الذَّائِبَةَ ،
 وَالْفَجَرَ فَتُتَّقِ الْمَغِيبَ .

١٣

لَا أَلَمْ بَعْدُ :

يُبِيرُنِي الْمَتَاءُ ؛
 يُبِيرُ الْبَقَاءُ مَلَكَةَ الرُّعَاعِ فِيهِ ،
 وَيَتَحَبُّ كَقَوِيْ .

نيقوسيا ، ١٩٩٦

لَدَانِن (الأكيد داهلا)

الفَجْر

برَاحته - راحة المُتَبَرِّمِ يَعْتَصِرُ الفَجْرُ الحَلَابُ ضَرَعَ أَنَانِهِ ؛
 الفَجْرُ العَضَلَةُ ، العِظَامُ مُتَجَاوِرَةٌ كَالْحَبِيبِ . الفَجْرُ الْمُتَكَنَّمُ عَلَى مَذْبَحِ
 الدَّرَاقِ وَرِدَّةِ البَتُولَا ؛ الصَّدْعُ يَتَشَبَّثُ بِحَوَافِهِ الْعَابِرُونَ . أَفَاوِيهِ السَّحَرِ إِلَى
 فُؤُوسِ الْأَثِيرِ . الفَجْرُ الْغَلَاصِمُ ، وَالسَّبَائِكُ ؛ الْعَتَلَةُ اللَّحْمِيَّةُ ؛ النَوَاةُ مَكْسُورَةٌ
 فِي الثَّمَرَةِ تِلْكَ ، الْمَكْتَنَزَةُ سَدِيمًا وَمَغَالِيقَ . الفَجْرُ الْحُكْمُ مُبَرِّمًا بِقِيَاسِ
 وَاحِدٍ ؛ لَا يُنْشَرُ وَلَا يُطَوَّى ؛ نَزِيفُ الْأَقْدَارِ مِنْ وَرِيدِ الْخَفِيِّ الْمَاجِنِ ، الْفَجْرُ
 الْوَلَاءُ ؛ الْمَقْبِضُ يُدَارُ فِي الْبُؤَابَاتِ بِيَدِ الظَّنِّ . مُسْتَنْزَجًا بِالشَّفَاعَةِ الْفَاكِهِةِ
 إِلَى الْغَوَايَةِ الْفَاكِهِةِ ، يَبْشُرُ الْقَضَاءُ بِنَفَازِ الضَّرُورَةِ ؛ عُثْنُونُ الثَّنِيسِ . الْفَجْرُ
 الْعُثْنُونُ ، وَاللَّبْدُ ؛ الْحَلَمَةُ وَالْبُظَارَةُ ؛ الْقَوَاطِعُ الْمَسْنُونَةُ فِي فَمِ الْخَيْلَةِ ؛ الشَّجَارُ
 مُسْتَنْفَجِلًا فِي الْمَرَاتِبِ وَعِلَامَاتِهَا . الْفَجْرُ الرَّبْلَةُ . الْفَجْرُ الصُّفْنُ ؛ نَيْصُ
 الْغِمَامَاتِ الْمُتَتَبِّعَةِ بِسَهَامِهَا ، فِي أَحْرَاشِ الذَّهَبِ ، تَيْتَلُ الرَّمَادُ الْجَرِيحِ .
 الْفَجْرُ الثُّوْلُولُ ؛ الْمُتَنَزِّعُ الْقَشْدَةُ ؛ الْفَوَاقِ صَاعِدًا مِنْ رِثَةِ الْوَعْدِ . أَعْنَهُ - هِيَهْ -
 أَعْنَهُ أَنْ يُشْرِفَ مِنَ الْمَتَاهِ الذَّكْرِ عَلَى هِيَاجِ شَقِيقَاتِهِ .

البدء

إنه البدءُ يتهدجُ كصوتِ المحرورِ ؛

البدءُ الريشةُ في سهم لا يُرمى ؛ الفتنُ ؛ الكدمةُ تحت عين البهاء .
البدءُ المسالِحُ والدُّبَّاعون ؛ الشفراتُ المجلوةُ بزئبق ؛ عنادُ المعجزةِ سكرى
تتقوسُ لسفادِ العابر ؛ البدءُ المشادةُ بين الغيبِ والصلصال ؛ الشرطُ
المنتقصُ ؛ الدُّخائلُ مُرتَّبةٌ . يُكادُ لهُ ويكيدُ . المُستَحْدَثُ مُروِّقاً كي يُمتَحَنَ
الحرائثون . البدءُ البلى ؛ الجلودُ والأحشاء ؛ القابضُ بأسنانه على العظام ؛
الأنيسُ كمنازحاتِ القتلَى . البدءُ الكُفْبِرةُ ؛ المُنتَهَشُ بمخالبِ السَّمسم ،
ذاك الذي يتقلبُ ، كالجوهر ، على جنبَيْهِ ، ويعضُ أنامله نادماً ؛ القصاصُ
الطُّحَّانُ متغافلاً عن فجورِ التصاريِفِ . البدءُ المهْدَةُ ، كِشَاءُ الخواتيمِ بمَقْصِ
الماء ؛ المتسيفُ ، أبداً ، في مخادعِ الفتنةِ ؛ الحُرْمُ مبدولاً إِرْباً لإِرْبِنا للمني
شئى ، يتداعى إلى الفروقِ نادياً إنْ تداعى . البدءُ الحريقُ ولا زفاد . البدءُ ،
هكذا ، خيالاً يُكفِّمُ الحضوراتِ بمنديلِ أرقامهِ .

المتاه

للمتاه ميثاقُ النسيان ؛
للمتاه بذلُ النهايةِ نشوى تُقسَمُ الإزثَ على الهلعين .
يا للمتاه الفتحةُ ؛ خِمَالَةُ العَلَبِ : المتاه الرجاء ، متصِفُ الخسارات ،
الذي يتكسَّبُ الغمامَ به في خيامِ السهول ؛ العُدْزَةُ الفحيح ؛ كوفتُ ، يُفرَمُ
المساء الغضُّ ككرفس على عتبتكِ النحاسِ ، ولك أعيانُ الموج وعقولُ
الريح . أتوتى يا المتاه الشَّغْفُ؟ مَرَحى ، مؤنَّةُ العبورِ الأقسى على جُسُورِ
الفجر ، لَأنتَ . المتاه الدُّسَيْسَةُ ، يا دهاءَ الشُّرجسِ وفسقِ الورد . وريثاً
يباعلُكُ الأملُ في كنوزه ، وبيوتكُ الثَّورِ خِزَانَاتِهِ . أَلْمَتَاهُ الحَتَمُ في المعارِجِ إلى
القيامة ؛ الصَّوْلَةُ الظلُّ ؛ النِّقَاءُ نيتاً كخصيةِ نيتة في صَفَنِ الأزل ؛ القِرْقَةُ ،
الرَّزْغِرَانُ ، العَصْفَرُ ، قِشْرُ الأتْرُجِ ، السَّمَاقُ ، النارجيل ، الصعتر . المتاه

الوقْبُ في جمجمة الملاك المغدور . المتأه الخلية ؛ الدَّورَةُ النُّفَاسُ ؛ الأسي
 يصعد بجراحه من الأحشاء إلى الرئات . المتأه الحضور الحضور الحضور .
 نشوء هذا .
 ميثاقُ نسيان ؛ نشوء هذا .

الخلاء

حَذَارُ مُها الكونُ ، مُغمضًا تتراشقُ والهباءُ بالإجاصات الدموية .
 حَذَارُ . الكونُ القميصُ الباردُ ؛ الدُّفْقَةُ الأكثرُ انقذاً ؛ المُنتَحَلُ في البيانِ
 المُعزَّقُ عن أئداء الجنِّ ، الدِّقْنُ المؤوَّلُ كالكَسْتَاءِ . الكونُ مُستدرَكًا بعد
 سَهْوِ الجوهرِ ؛ يُورَى بحافر الكمالِ راكضًا في خيال الحجر . الكونُ المُغْفَرُ
 تذبحُ البَذَّةُ بسكَّينِ الثَّورِ ؛ الهَبَابُ والثُّنَالُ ؛ الهَرِيقُ نجاةً فَلَاتِيهِ مِفْصَاحُ
 المكنونات . الكونُ الخَبِيرُ يَدْرُجُ به ناظمُ الأرقِ إلى العميمِ المكينِ ؛ الآلةُ في
 تمامِ الحيلةِ ، الرُّذَمُ الياقوتُ ، ماكرًا يَقلِّبُ دَرَهَمَ البقاءِ الذهبيِّ ، ويرمُمُ
 الطَّواحينَ . الكونُ أسيرًا كانهلال ، طريدًا من العَذْبِ إلى العَذْبِ . وَيَكُ ،
 الرُّنَاجاتُ تتخلَعُ ، وَيَبْرُمُ الهَبَاءُ المُنْشَى عَقْدَ الظُّهُورَاتِ . البسيطُ أنتُ ،
 هَيَّ : أُورِيتَ فاستظهرتِ المراتبَ موازينها ، وأُرِيتَ خَلاَمَكَ كَرْنًا أيها الكونُ .
 حذار ،

تُسَحَّلُ الأعالي على رمادٍ ،
 ويُطَوَّقُ الأبدِيُّ .

البسالة

أَبْسَالَةٌ تتجرَّعُ البسالةَ في قَسْطاطِ الأكيدِ العَرِمِ ؛ أَبْسَالَةُ القوسِ ،

الصُّمُغَاتُ وَالْفَوَادِنُ ، الطِّينُ الَّذِي أَثَرًا بَعْدَ أَثَرٍ يَشُقُّ الْبَذُورَ خِيَالًا لِلنَّشْأَةِ .
 أَلْبَسَالَةُ الْأَرْقُ مُحْتَضِنًا بَنَاتِهِ ؛ الطَّاهِيَةُ تَفْرُمُ اللَّيْلَ هَزِيعًا هَزِيعًا ، وَتَعْتَصِرُ
 الْكِمَانَيْنِ كَالْبَرْقُوقِ فِي أَقْدَاحِهَا . أَلْبَسَالَةُ الْعُرُوجُ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى النَّدَى ؛
 الْأُخْدَةُ تَرْفَعُ مَذْهَنَةً بِشَحْمِ الضُّبِّ إِلَى الْأَبْوَابِ . يَا لَهَا .

نَشُورُ لِلْجَمَادِ ؛ نَشُورُ لِلزُّبْدِ حَيًّا فِي شَرَاخِ الْمِيَاءِ عَلَى خَلِيجِهَا . الْبَسَالَةُ
 الْخَلِيجُ وَرَاءَ زَعْنَفَةِ التُّتَيْنِ ، حَيْثُ الْجُزُرُ حَرَّاشَفَ لَيْلٍ ، وَالْأَكْبَادُ كَمَا يُؤْكَلُ .
 يَا لَهَا الْبَسَالَةُ الْفَرْقُ ، الْبَسَالَةُ الْعَشَارُ مُحَلُولَةٌ الْيَقِينَ تُدْخِرُجُ الْأَفْلَاقَ كَالْتَّرْدِ
 عَلَى أَنْيَبِهَا ؛ الْمُقْتَطَفَةُ عُشْرًا مِنْ أَرْقَامِ اللَّهِ . هِيَ هِيَ ، مُحْتَضِنُ الْمُحْتَجَبِ -
 هَوْنِهَا ، وَتُدَاعِبُ الْبُغَاءَ الْمَغِيبَ .

إِمَانٌ قِطَاةٌ ؛ بَسَالَةٌ ، يَا لَهَا تَتَجَرَّعُ الْخُصُورَاتِ مِنْ رِقِّهَا .

الذَّبِيحُ

الْقَدَمُ طَافِعًا مِنَ الْأَجْرَانِ ،

وَالْأَزَلُ خَلِيقًا كَالْعَانَةِ ؛

ذَانِ مَا يُسَلِّكُ الْجَمْرَ فِي الْفُرُوقِ ، وَيَخِيطُ الْعَاصِفَ إِلَى الْعَاصِفِ .

أَتَنْجَشُّ الْأَقْدَارُ؟ هَاكُمُ الْمَعَانِي تَضْرِبُ بِمَلَاعِقِهَا الصُّخْفَةَ الْفَارِغَةَ ،
 وَتَتَرَاكُلُ بِأَقْدَامِ حَافِيَةٍ تَحْتَ مَنْضِدَةِ الْكَلِمَاتِ .

هَاكُمُ الْقَدَمُ خَلِيقًا كَالْعَانَةِ ،

وَالْأَزَلُ طَافِعًا مِنَ الْأَجْرَانِ ؛

هَاكُمُ الَّذِي ، بِبِشَارَةِ الثَّرْوَةِ ، يَذْبَحُ الْحَرِيرَ الْفَاتِكَ .

ها هي الأرضُ الكلبةُ تنفضُ عن قسروها بَلَلِ الانقاصِ . الأرضُ
الكلبةُ ، المتقوسةُ في كسلها المرمي . لا نجاة . الأرضُ الكلبةُ ذاتُ الثَباحِ
المُعشِبِ ، المتدلّيةُ الأعراقِ كلسانٍ ؛ ذاتها هي . لا نجاة . تُسْتَقْصَى في
الدُّويِّ الأشدِّ ، مطحونةٌ شعيراً وَعَدَسًا . الأرضُ الكَمأةُ ؛ العناقُ المُزِيدُ ؛
مشدودةٌ كَكَمَرَةِ الفَحْلِ ، كِباسِلِيْقٍ ، كَعَناءٍ مَوْتورٍ في قوسِ الكهولةِ الحاملةِ .
ذاتها هي ؛ الأرضُ الشَّهَقَةُ في أرطامِ الأَنْثِيَيْنِ بِالرَّائِقَةِ ، المتوَبِّةُ دَكَاً دَكَاً
فوق الصُّدُوعِ الأبديةِ ؛ مِبْرَاةُ النُّخْزَةِ الثانيةِ ؛ الفضولُ المقصُومُ من حوافِهِ .
الأرضُ العِطَّةُ ؛ الصَّريُّ الخافتُ للمزلاجِ الدُّمويِّ .

هي ذاتها؟

أعيدوها إلى الخالدِ الدُّمويِّ .

مأزق

ها همو :

الموتى المنازلُ ؛ الموتى الشُّرُفَاتُ ، والأزَقَةُ ، المَلُويُونُ كقَضبانِ القَصديرِ .
الموتى الصُّرُوعُ الممتلئةُ بلبِنِ السَّديمِ ، المحمولون على ظلالِ الحريقِ عَسَقًا
عَسَقًا ؛ الأدلاءُ الممهورةُ عظامهم بِخَتَمِ مشطورٍ . هُمُو هُمُو . الموتى الجُسُورُ
المرفوعةُ بِحَبَالِ النَّدَمِ إلى عَتَلَاتِ الشُّكْلِ ؛ المَقْرُوعُونَ طوَالِجَ وإشاراتٍ .
عالقينَ في الشَّبَاكِ المَزهَرَةِ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ على الكمينِ الأعظمِ . هُمُو
هُمُو . الموتى المُخْتَرَنُونَ في الشُّعْلَةِ ، تحتَ القوسِ ذاته - قوسِ الشَّدي
المُخْتَصِّ لِنَيْتَا في صَدْرِ النُّصَبِ الحجريِّ . الموتى الخُطَفَاتُ الجَمَشَتُ ،

والأزرارُ الذَّهَبُ في الأكمامِ المَمْزُقَةِ ؛ العَدَاوُونَ من شُعاعِ مكسورٍ إلى آخَرٍ ،
من قُفْلٍ إلى آخَرٍ ، من كِفَايَةٍ إلى كِفَايَةٍ . الموتى الجليدُ مُنَزَّلًا بِأَسْوَدِ البحرِ
إلى مُجَوِّنِ الجليدِ .

أه ؛ الموتى ، أولاءِ ، مَارِقُ النهاية .

المعارج

خَفَّفْ زُنْبِكَ أَيُّهَا الظِّلُّ .
بروقُ المديحِ الخضراءِ تَفْتَحُ النافذةَ على أحراشِ الفَلَكِ ،
والسَّمَاءُ تُزْرَمُ عُلْفًا في العباءاتِ .
وإني كَثِيفٌ عليّ هَوْنٌ زَنْبِقٌ ، وهلاكٌ نَسْرِينُ ؛
وأصغني بي إلى السَّرْمَدِيِّ الفاجعِ :
ذاكُمِ سَلَوْرُ الكَيْدِ يَعْبُرُ ، خَفِيفًا ، أَكْمَةُ العَدْلِ الثالثةُ ،
والرعاةُ هناكِ ؛
الزَيْدُ في قَرَبِ المشيئةِ الواحدةِ هناكِ ،
سَرَاحِيبُ البحرِ وقَوَادِو المغالبيقِ ،
والأَمِينُ الجمادُ ، الذي يَخْضُ الرُّحَمَ ، ضاحِكًا للمفاتيحِ الكَمَا ،
والضياءِ المُوَصِّدِ على الفروقِ رتاجاتِ الخاضعِ .

خَفَّفْ زُنْبِكَ أَيُّهَا الظِّلُّ ،
لأَخْذُنْ في أَعْضَائِي ما يَشْتَهِي اليَقِينُ ،
لأَخْذُنْ التَّيْبُسَ المدفوعةَ إلى الجُرْفِ ،
والمنازلَ المدفوعةَ ، والأقدارَ ، والأسيرةَ الأقفالِ ؛ الأسيرةَ الجذورِ

والأثناء ؛ الأسرّة النُحْرُ ، كَأني ساعبيُّ قُلِّلَ الليل بهذه الأحشاء المرمية
تحت ورق الموز ، ملوَّحًا للملوك - يقطينِ الضحى ، والمهرَجينِ السنابلِ
أولاءِ ، سنابلِ العَورِ الدَّامي .

ولاستوتفن :

« ما ندي إلا ليؤكل ؛

ما شفة إلا لتسارر بالهذيان » .

لنعم ما يُستذنى مُعَرِّقًا .

فتأتق أيها الننيّ التسليم - أذن دجاجاتِ الحق ، وسناجيه ، وقوله

الحديديّ ، وبازلآته .

تأتق أيها التذمّ العراف ، المشرف على طهارة الحساء في قُدور الكون
اللازوردية ، فما من غوث إلا الحيانة زرقاء جلالاً تُنصّد السماء الحراشف
على جسد الأزلّي ؛ ما من غوث إلا الضرورة يلوكها شذقُ الديمومات .

والجنبه يوشيك . أن تقتش بالخصى على خمائر الغيب . هي يا المُسرح

عريقاً في أصفاد التعمى ، للمُستغرق بكماثن التعيين يُريك الفادح من

عذاباته ؛ يُريك المقدور صدوع كراته البازلتيّة . لا رسوم تُستظهر في الجيزم

الأعمى - جرّم الصلصال المنفوش منياً وخواتيم . لاستوتفن الكثرة ربيبة

الفراغ المذنب ، ضارعا إلى المئاء - كلّيم اليقين : « حلوة ثمرات الكئيد في

يديك . ساووك الحمى يؤكلن كالجوز » . خفف زئيرك أيها الظل ؛ خففي يا

المشيئات شق هذا الدرع بالماس المسنون :

هي المعارج تبلى رويداً رويداً :

سرمانات ، دَعاسيقُ ،

يُسروع واحد تم ،

حدثت كذبلِ الكلب ،

وهواجسُ لسانٍ على بُطّارةِ الليلِ . تَبْلَى المغاليقُ ويندملُ الظاهرُ
الأمينُ ، المُحترَسُ إذ تنامُ الينابيعُ ، المُجادِلُ يَنْتَدِبُ على البراهينِ بخزافيه
الشاحبينَ . الظاهرُ المُعسَكِرُ ، ذو الحاميةِ المهيبةِ على عمّاتِ الموتِ ؛ مُستأجرِ
المغاليقِ ، الذي بالآلةِ الوَعْدِ الذهبيةِ يشدُّ المكنونَ . الظاهرُ الخفّاضُ ؛
المندملُ منذ القيامةِ الثانيةِ على الشبهةِ النبيلةِ ؛ المُصادفةُ عزباءُ ؛ مُؤدّبُ
الظهوراتِ . الظاهرُ المُتسلّلُ طمعنا إلى كَمِينِي .

هي المearجُ تَبْلَى :
خفّفْ زئيرَكَ يا ظلُّ ،
مسائي ضَعْلٌ كبركةُ ،
سمائي ضحلةٌ كَأَثَرِ أَقدامِ الذئبِ . سبعُ مشيئاتُ ؛ سبعونَ حضوراً
للكمالِ المُمزَّقِ ببرائِنِ النقوشِ تُستَوَدَعُ ، الآنَ ، خزائنَ الجلاءِ الأعمى ؛
والخفيُّ صَناجَعُ .

النَّعام

مُشْرِفٌ كَالْجَهَالَةِ مِنْ تَرْفِ الطَّيْرِ فِيهِ
عَلَى الْأَبْدِيِّ الْأَسِيرِ .
لِلتَّرَابِ جَنَاحَانِ فِي ظِلِّهِ ،
لِلْأَكِيدِ شَقِيقَاتُهُ يَتَمَرَّغْنَ فِي الرِّيشِ ،
أَوْ يَتَقَاذِفْنَ ، مِثْلَ الرُّوْى ، بِجَلَالِ الْحُضُورِ .

نَعْمَتَاتٌ هَوَاجِسُهُ ،
وَالرُّسُومُ الَّتِي أَسْرَتْ جِرْمَهُ أَعْتَقَتْ جِرْمَهُ فِي الْحَرِيرِ .

الذُّعْرَةُ

جُرَّ هَذَا الْفَلَكََا
دَائِرِيًّا ، وَانْبَتَقَ
خَالِصًا فِي فِكْرَةٍ بَعْدَ ثَمَادِيكَ عَلَى الشُّكْلِ النَّزَقِ
ثُمَّ عُدَّ مِنْ أَوَّلِ الْآيَةِ مَسْكُوكًا عَلَى نَقْشِكَ فِي الْفَضِيِّ ، فِي الثُّورِ
انْجَلَى مُتَنَهَكًا .

لَمْ هَذَا الْفَلَكََا .

الطاووس

رَوْحُ الْغَيْبِ ؛ رَوْحُ أَبَدِ اللَّوْنِ ، وَأَنْسَلِي الْأَعْرَاقَا .
يَنْحَرُّ الْمَكَانُ سَلَالِيمَ إِلَى النَّهْبِ ،
وَتَطْوِي السَّمَاءُ طَاقًا فِطَاقَا .

السنونو

تَمْرٍ يَجْرُ قَنِيصَةً الْأَزَلِ .

الهدهد

مَهْلٌ دَقًّا الْحَيَاةَ . أَرِيشَ
عَلَيْكَ؟ ضَمُّ الصَّرُوفَا
رَغَبًا وَأَنْشُدِ الرَّحِيلَ بِطَنًا نَزِيفَا .

نَسَقَ أَنْتَ ، أَحْضَرْتَ طَيِّفًا
وَنَلْتَ صَوْنًا الْيَفَا .

النَّحَام

لَا شِرَاعَ يَطُوفُهُ رَاحِلًا ،
لَا هُبُوبَ عَلَى جِزْمِهِ ؛ لَا دَلِيلَ شُعَاعَ .

أَلْتَهَارُ حَقَائِبُهُ ،
وَالْفَرَاغُ الْمَتَاعُ .

الْقَطَاة

سوف يعدو النهارُ على ساقه الهنْدَبَاءِ
قَافِزًا كَالْجُرَادَةِ فِي ظِلِّكَ الْمُنْكَسِرِ
فِي مَرَايَا الصُّوَرِ
وَيَذِيرُ النَّبَاتُ نَوَاعِيرَهُ بِبَغَالِ الْهَوَاءِ .

أَنْتِ ظِلُّ الْهَوَاءِ وَعَكَّازُهُ فِي حَقُولِ الْهَوَاءِ .

الديكُ الروميُّ

عَصَلَةٌ كَالْتِيهِ ، كَالْمَكِيدَةِ
وَعَصَبٌ مِنْ أَرْقِ الْغَمَامِ .

وَيَحْتَكِ يَا مُجَاهِلَ الْقَدِيمِ لَا تَنَامِي .

أَمْثَالُ

إِنَّهُ النَّبَأُ النَّجْمُ؛ المأمولُ غامضًا كالنَّعمة : قُمْ أَصْلِحْ هَيْئَتِي الَّتِي
طَحَنَهَا الشُّورُ وَذَرَّاهَا عَلَى لَوْحِكَ . أَصْلَحْنِي وَقَدْ انْقَصَمَتْ مَشِيئَاتُ بَيْنِ
حَصُونِكَ الزُّبْدِ وَقِلَاعِكَ الثَّيِّبِ . عَاتِيَا وَإِنِّي فِي الْمَهَبِّ ، وَأَيُّدُنِي بِالنُّكْبَةِ
الَّتِي أَقْسَمْتُ أَنْ تُطَهِّرَ الشُّسْيَانَ .

وَأَرَاكَ تَوَلَّيْتَ نَفْسَكَ بِي كَيْ أُعِينَكَ بِالْعَبَثِ عَلَى أَحْلَافِ الْمُغْضِلِ ،
وَقِسْتَ الثَّجَاةَ مِنْكَ إِلَيَّ بِحَافِرِ الْأَتَانِ . مِكْرُكَ دَوَامُ الرَّحِيلِ بِالْفِرْدَوْسِ مِنْ
الْقِيَامَةِ الْمَاجِنَةِ إِلَى أُخْتِهَا الْمَاجِنَةِ ، وَهَآ أَنَا ، بِمَكْرِكَ ذَاكَ ، أَحْيِي مَا أَشْكَلْتُهُ
مِنْ حُدُودِي - حُدُودِ الْمُسْتَأْنَسِ الْحَذِرِ - عَلَيْكَ . أَغْلِقِ السُّجْلَ :

مِرْزَاقُ الْمَوْجِ يَفْتَحُ الْأَبَدَ عَمِيقًا فِي طَعْنَتِهِ تَحْتَ ضَلْعِكَ الْعَاشِرِ - ضَلْعِ
الْبَحْرِ ،

أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءِ .

نساؤك كلهن هنا ، باسطات للأقدار تبين الخراف . نظرهن عليك أنت
المختص في قرب اللبني تغور زبدتك من بين أصابعهن المضمومة ، في
زفير ، على الشفوي . نساؤك كلهن - الحكايات ، والحروب المختمة ؛
المشارف البدع في اللون - آيتك المشرقة تحت لسان الفناء الحالم . يا
لازعاتهن إذ ينقلن السماء زريبة زريبة إلى جهاتك ، والبرازخ - الخراف
إلى جهاتك ، والعدم مفسولاً بالقبل إلى الخيال ذاك ، الذي كورته ثديين
يؤكلان إذ يتعري الذكر للكمال المرتعد شهوة ،
أيها الأب العماء .

فَجَرَّ يُؤْكَلُ تَحْتَ قَبَابِ الصَّلْصَالِ ، وَيَذَا الْمَشِيئَةِ تُهَيِّئَانِ الصُّورَ الْمَغْلُولَةَ
بِأَقْفَالٍ مِنْ خَيَالِ الْعَمَاءِ : هَا يُؤْلَدُ الذِّكْرُ الْأَوَّلُ مِنْ صَرِيرِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي
يَحْفَرُهَا اللَّهُ نَقِيَّةً فِي التِّيِّهِ الْحَافِظِ .

هَا تُؤْلَدُ الْأُنْثَى مِنْ نَفْسِهَا ؛ هَا يُؤْلَدُ الْجَمْعُ مِنَ الْهَيْثُكَ . أَقْمِنِي فِي
الْخَلْخَلَةِ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ ، الَّذِي يَتَشَرَّدُ فِي أَسْمَاءِ بَنِيهِ ، وَتَحْتَمِلُهُ بَنَاتُهُ
فِي فُرُوجِهِنَّ إِلَى أَسِيرَةِ الْعَدَمِ الْقَعْلِ .

أُمْلَاثُكَ الْأَجْرَامُ تَتَقَاذَفُ بِعَنَاقِيدِ الْبُلُورِ ، وَالْعُلُومُ الْأَصْفَادُ فِي اسْمِكَ
الْوَحْدِ لَا لَهَا إِلَّا مَفَاتِيحُ دَمٍ ؛ لَا لَهَا إِلَّا الْمَفَاتِيحُ التِّيِّهِ .

أَمْشِاطُ الْغَيْمِ تُسَرِّحُ الدَّوِيَّ كَشَعْرٍ ،
فِي انْزِلَاقِكَ عَنْ جَلِيدِ الْأَنْهَاءِ إِلَى خِزَانَتِ الْمَعْلُومِ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

الملائكُ موعودونَ بِآلاتِ الظُّمَأ . الحَيْرُ موعودٌ بالموتى يعيدون إليه قشدةَ
 خياله ، وأنا باق هنا ، مُطبّقاً بِأسنانِي على عضلة الصِّلصال التي وَهَبَتْنِيهَا
 مُقْتَطَعَةً من كَشْحِكَ الأنشوي . باق في بَرْزَخِ الكَيْدِ ؛ في النِّفِيرِ الصَّامِتِ
 للضروراتِ مُتَمَلِّقَةً يَأْسَكَ الذي ابْتَكَرَ الأَبْدِي . أنزلَ أنتَ ، بآلةِ الكمالِ
 الرهيفة ، إلّٰي مَسَالِخِ الفَلَكِ وَأَزْقَةِ البروجِ . أَحْضَرِ نَقُوشَكَ كُلَّهَا ؛ سِلَالَكَ
 الجواهرِ ؛ مَرَايَاكَ التي آلَهَمَّتِ المعنى أن يَصِفَكَ أَبَا يسرقُ العقلُ حِنِطَتَهُ من
 أَهْرَاءَاتِ الدَّمِ ،
 أَثْنَاهَا الأَبُ العَمَاء .

كَلَّم الشَّقَوَقَ بِلِسَانِ النُّكْبَةِ : نَقِيْ عِظَامٍ يَتَنَاقَرُ فَوْقَ الْأَدْرَاجِ . هَيْهَ ، يُهَيَّا
الْعَاشِقُ ؛ هَيْهَ يَا ابْنَ الصَّلَاةِ الْمُرْدُودَةِ مِنْ خَيَالِكَ إِلَيْكَ ، أَمَّا شَفَعْتَ لِلْعَمَاءِ
بِعَذْلِ مُعَذِّبٍ كَيْ يُرِيكَ الْمَاءَ سَنَنَ الْعَرَقِ وَشَرَائِعَ الْأَصْلِ الْمَارِقِ ؟ . أَبُ عَمَاءٍ
يَلْتَمُ الْجَبِينَ الَّذِي سَلَخَتْهُ النُّعْمَةُ بِشَقَرَتِهَا ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءِ .
الصُّفَارِيَّةُ يَتَمَرَّقُ حَنِينًا فِي طَيْرَانِهِ تَحْتَ دَرْعِكَ : نَقُوشُكَ الطَّيُورُ كُلُّهَا
تَتَمَرَّقُ حَنِينًا . آيَاتُكَ الْخَفِيفَةُ فِي الطَّيْرَانِ الْخَفِيفِ مِنْ بَدَاهَةِ إِلَى أُخْتِهَا .
تَحْسَبُكَ فِي عِدَادِهَا الْمَحْظُورَاتُ كَيْ يُوَوِّلَكَ النُّقْلُ مِنَ الشُّبْهَةِ إِلَى الْكَشْفِ
خَيَالًا يَتَلَقَّطُهُ الطَّيْرُ ذُرَّةً مِنْ رَاحَةِ الْمَنَاءِ .
الطَّيُورُ تَأْرُكُ أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءِ .

الطعنة الثانية - طعنة الخلود القوية بلا صخب ، هي التي ترد العبيث
إلى صوابه . هي : نَسَافَةٌ على هذيك في العبور من الخواتيم - تلك
النسب الزرقاء إلى البدء البهلول .

أبتأؤك بلا أسانيد في الطعنة الثانية ، أيها الأبُ العماء .

وجود نَمِيمَةٍ تتقاذفهُ السُّطُورُ فِي اللُّوحِ ، من أعلى إلى أسفل ، والمَقْتَلَةُ
البَريقُ تتَحَسَّنُ المَخَارِجَ ، فِي صَريِرِ الأَقْلَامِ ، إلى مَقْدُورِهَا النُّورَانِيَّ .
بأيِّ فَمٍ حَدَّثَتِ النُّورَ عَنْ خَبِيرِ الشُّكْلِ ؟ بأيِّ ضَجَرٍ سَارَرَتِ المَكْنُونُ ،
أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ ؟ .

بكثيرٍ من رمادِ شَجَرِ القَرْقَدِ تَسُدُّ الجرحَ الذي فَتَحَهُ النَّيْلُوفَرُ ، بشفرةِ
الماءِ ، في مجرى كَمالِكَ الدَّفَاقِ ، حيثُ الضَّرُورَاتُ البَسَاتِينُ تتجاوَرُ
مُتَشَابِكَةً على ضَفَافِ الغَمَرِ .

نزيفٌ قليلٌ ، بعدَ هذا ، يُبْقِيكَ شاحِبًا شحوبَ العاشقِ ، ما دمتَ في
أَثَرِ المهجورِ - القَدَمِ ، المنعكسِ بحريقهِ على ثدييكِ الحَزَفِيِّينِ ، أيُّها الأبُ
العماءُ .

ما القُدُورُ الذَّهَبُ ، هذه المحمولةُ على جَمَرِ اعتدَالِكَ يَغْلِي فيها العَدَمُ
كشَرَابِ السُّفَرِجَلِ ؟ . أَنْتَ وَهَبْتَ الحَرِيقَ وَصَفَكَ كِي يَنْضِجَ المَجَازُ
العاصي ، وَوَرَّثْتَ البُخَارَ تَوْبَةَ الطُّعْمِ .
فَعَجَرَ تَوَابِلُ . عَصَفُ مَلَحٍ . مَلَاعِقُ الحَضَمَاتِ تَتَلَمَّسُ حِسَاءَكَ فِي
الصُّخْفَةِ الأَجْرُ ، التي أَنْشَأَتْهَا عَمِيقَةُ كَخَيْلَاءِ المَنِيِّ .

طَهَّرَ بعدَ طَهْرِ عُرُوجِكَ فِي التَّدْبِيرِ ، أَيُّهَا الأبُّ العَمَاءُ .

يَقْلُمُ البستانيون بِمَقَصَّاتِ الصِّباحِ غيَومَكَ الفانضةَ عن شَجَرَةِ المِناه ،
ويَزيئون جَيِّزَ المِمراتِ إلى حَدائِقِ العَمَرِ الأوَّلِ بِنَقوشٍ من خِيالِ الهِواءِ .
مرحى لأَباريقِهِم ، لِلرَّشاشِ الفَضَّةِ يَبْلُلُ ورَقَةَ الرِّيحانِ المتسلِّقةَ إلى
وسادتك بغِوايةِ الأَجرامِ الكِبرى وافْتِتانِ المِجرُاتِ .
لَمْ تَدْلِهِمَ على جِهاَتِكَ . هُمُ يَتَهاَمِسونَ بِإِشاراتِ الكُزْبَةِ ، وتورياتِ
الكَماعِ قِربَ الهاوِيةِ التي موَهَّتها بِأَسْماءِ النِّباتِ ،
أَيُّها الأبُ العَماءُ .

خمسةُ فراسخٍ للغيبِ ، بعدها أشبارٌ من غيبوبةِ المعلومِ ، يليها القدمُ
القنطارانِ ، والفراعُ المكيالُ ذو الأرقامِ النافرةِ من حديدِ أجزائه .
ثمُ ، أيضاً ، لا نهايةَ بعدَ لا نهايةٍ تتكوّمُ وديعةً كالسُنَّاجِبِ في سِلَالِ
الظَّاهِرِ القَنَاصِ .
أيّ شَهِدِكَ الباطنُ ، بعدَ هذا ، على مَرَجِهِ في إِنْوَانِ المعنى البَهِلولِ ؟
ذئبِكَ غَمَامٌ ، والبرزخُ حَظِيرَةُ الأوديةِ الهائجةِ ،
أيها الأبُ العمَاءُ .

الشمائلُ ، التي تقضمُ على طُرقاتِ المغيبِ ثمرَ الكواكبِ ، وتُقايسُ
الكثافاتِ فلزاً بفِلزٍ ، ولوعةً بلوعةً ، شَغَفُها غَدُكُ الدُّسَيْسَةِ ، المتسلِّلُ من
مخدعِ التَّدوِيرِ الكبرى إلى الكمالِ المطحونِ .

أنتَ ، مُذْروَصَتَها بتزيفِ الحَجَرِ ، تركتَ لها شحوبَكَ قوياً على
طُرقاتِ المغيبِ ، وقسَمْتَ المغيبَ الرغيفَ على أَشْكالِها مُتَبَّلاً بالذَّمِ المشاعِ
في قارورةِ غَدِكَ - غَدِ الدُّسَيْسَةِ ، الذي يُذِيقُها لذائذَكَ العَشرَ ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

نوافيرُ رماد . جُلَسَاءُ مسحورونَ على الأرائك يرمون ثوى الزيتون إلى
طواويس الفردوس المهزولة من سفاذ لا ينتهي . غَلَمَةٌ أباريقُ ، صَبَوَاتُ تَذَارُ
عليهم يَدُ العُبارِ المؤيدِ ، وَالْفُروجُ تَتَدافعُ محمولةً على جراح الذِّكْر . هكذا
وَلَيْتَ الإِثْمَ نَقِيًّا على الظلِّ الذي يمتحنُ الظلَّ بقهقهاتِ أَقْواسِهِ .

مريدونَ صَعَتَرُ ، وَأَثْمَةٌ رِيحانُ في رُدْهَاتِكَ ؛ مُنْقَبِونَ عن شجرةِ الريح
يفتحون ثغرةً ثانيةً في خزائنِ الخلود . وَأَنْتَ والعَدَمُ ، معًا ، تضربانِ الحَجَرَ
بَسَوطِ العافية فتنهَضُ الثيرانُ ،
أَيُّهَا الأَبُ العَمَاءُ .

إِنَّهُ الْمِسْكُ مُلْتَمَعًا كَالزَّيْتِ عَلَى الْعَانَاتِ ، وَالْفِضَّةُ تَلَالُأُ ذَائِبَةٌ فِي
نُقَرَاتِ الْمَسَرَرِ . أَثْدَاءُ مَرَّاسٍ تُلْقَى فِي الشَّهْوَةِ مِنْ أَعَالِي الْيَقِينِ . طَحْنُ
شِفَاهٍ . قُلْ لِي ؛ أَنْتَ قُلْ لِي ، أَعْرِفَتْ كَيْفَ تَتَلَوُ الْحَصْنَةَ عَلَى هَبَائِكَ نَقْشَ
الصُّورِ فِي سَطُورِ مَنِيٍّ ؟ أَعْرِفَتْ مَا يُرِيْقُكَ قِدَمًا كَاللَّبَنِ عَلَى الدَّرْعِ الَّذِي
حَمَلْتَنَا مِنْ نَكَبَاتِ الثُّورِ إِلَى نَكَبَاتِ الثُّورِ ؟

لسانٌ واحدٌ يَمْرُغُ الْبَظَرَ فِي عُلُومِهِ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

من فتق واحد تتدحرج النبوءات والأقفال . الموتى يستحضرون
الأطواق ، والنهائى تقعد بكفليها المكننزين على كمره الرجاء الفحل .
شهيق صور . شهيق عرش . حجاب مهيل . لا تياسن ، سنخذل البراهين
كي نخذل الوقت الذي شرده طويلاً قبل أن يعثر علينا في شتات الخلائق .
سنخذل الموت باستشفادانه أن نبقى موتى حجاباً على مرطقات الحفاء
الفاجر - أمير الجزر في المضائق الأزلية .

هي انتشر ثانية . موه العراء الذي كنته في هذاء الجهات : شهيق
يتمم النفخ الأول ، والجماع صدك في العظام ،
أيها الأب العماء .

ما نجواكَ وأنتَ في البُحرانِ الذَّهبيّ ، تنصبُّ القيامةُ في يديكَ عَرَقًا
 من جدرانِ الموتِ؟ بواقونَ يتسلَّمونَ الوجودَ في قِربِ الشَّخْمِ ؛ نوثيَّونَ
 يحملونَ الأبدَ في قواربهم القَصَبِ إلى طواحينِ المياه . هَبَّهمُ أَنْجَزُوا الهباءَ
 رَصَفًا بالمواثيقِ إليك ، كلُّ ميثاقٍ كَبِيدٌ ؛ هَبَّهمُ رَدُّوا إلى المُشكِـلِ عافيةً
 المُشكِـلِ فأعانوكَ ، ودربوا الكمالَ على الأرقِ ، فما الذي ستُخَفِّيه أكثرَ عن
 يَقِيننا كي نضمَّ خزائنَ اللانهايةِ إلى مُلكِكَ الطَّافِي جليدًا في البُحرانِ ،
 أيُّها الأبُ العَمَاءُ؟

البقاء عاصِفاً يكلّمُ الشهود المسحورينَ على عتباتِ الرمالِ ، والجمادُ
يصعدُ إلى الألبمِ بعَتَلَةِ النارِ ، مُمْتَنِناً للظلالِ ذاتها التي تقدّمَتْهُ عَمِيَاءَ
بعكاكيزِ الثورِ إلى مَذْبَحَةِ الثورِ : لن يكونَ هنا أحدٌ آخرٌ غيرُ الخلاءِ المُترنحِ
بعافيةِ المهجورِ ، وغيرِ هذه الهضبةِ .

لا الوقتَ . لا الثَمورَ . لا المُغْضِلَةَ المُعْرِقَةَ على بابِ السّادِنِ الذهبيِّ .
لا الخاتمةَ العريقةَ . لا المجاهِلُ السَّبعةَ . لا التدبيرُ النورانيُّ لإشاراتِ
الإثمِ القدّوسِ . لا أحدٌ غيرُ المُسْكِرِ بعافيةِ المهجورِ . لا أحدٌ غيرُ الهضبةِ -
السَّفْحِ المُتَبَسِّطِ من رملٍ ومرافئٍ لِسُحْبِ الليلِ . فإلى أيِّ جوهرٍ سَتَحْمَلُ
نَقِيَّ العظامِ المُخْتَمِرِ من مَذابحكِ الرحيمةِ ؟ ها هُمْ يخاطبونك كَالسَّهْلِ ،
وَيَمْتَحِنُونَكَ كَغَدِيرٍ ، فاحْمِلْهم كَالنَّدَمِ ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

فتيان الساعات الصغيرة - ساعات البكوريةِ التائهة في حقلِ الكمأ ،
المنتدبون على أعراس لصحبها نزيفُ الكَيرِ ، يُعيدون القَيْدَ إليك مصبوغًا
بالقصدير ، نظيفًا مَعْدَنًا صُلْبًا كتأويل الدَّارس . لا مفاتيح . ساعاتٌ من
قُطنٍ مَحْلُوجٍ ؛ نَفْخٌ ؛ هدايةٌ رَطْلُ من دمٍ في ميزانِ الأعالي .

أُنْقَذُ أحفادَكَ من برائنِ النُّورِ ،
أيها الأبُ العَمَاء .

العريقُ العريقُ - قِيدُكَ هَذَا ، قِيدُ الوَثْبَةِ مِنَ اللَّانْهَائَةِ إِلَى سَرِيرِهَا ،
والهَاقِيَةُ الْقِيَامَةُ بَوْحِكَ لِلشُّكْلِ الَّذِي يُعَذِّبُ كَالْفَجْرِ : صَبْرُ إِلَيْكَ بِالْمَكِينِ
الْمُنْدَثِرُ ظَاهِرًا فِي خِلَاءِ الْمَعْنَى ، إِذْ تَسْتَيْقِظُ الْكَلِمَاتُ عَلَى شَفَتَيْكَ عَارِيَةً
فَتُثْمِرُ الْقَبْلَ عَلَى بَطُونِهَا لَثْمًا حَتَّى تَلِدَكَ أَنْتَ مِنْ شَهْوَتِهَا ، عَاقِدًا لِلْمَعْنَى
خِلَاءَهُ الشَّانِي - مَجْدَ الْضَرُورَةِ الَّتِي تَتَنَاضَرُ أَزْزَارُ قِمَصَانِهَا فِي لَهْفَتِكَ إِلَى
الْغَوَايَةِ ،
أَيُّهَا الْآبُ الْعَمَاءُ .

النهارُ الأصْفَادُ . الليلُ الأصْفَادُ . المراكبُ ذاتُ الصَّواريِ الغيوم .
الأكبَادُ مقذوفةٌ - أكْبَادُ الرُّسُلِ العُدَّائِيْنَ من سَفَكٍ إلى سَفَكٍ . هُبْ أَيُّهَا
المُجْرَدُ من الجواهرِ القَيْدِ إلى نَوْلِكَ تَنْسَجُ الصُّورَ كُلُّهَا ، المحمَّولةُ من خِيَالِ
الدَّهْرِ إلى الثُّمُورِ .

مَشْرُقُ الكلمةِ ومغيبُهَا بينَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ اقْتَطَعَ من الحَقِيقَةِ بَسَاتِينَهَا ،
والمَعْرَاتِ الظِّلِيلَةِ طَاقًا بعد طَاقٍ مُنْتَصِبٍ فَوْقَ عِرَائِشِ الكَمَالِ اللَّهْبِ .
هُبْ . نَاجِ اللَّهْبِ بِعَلَامَةِ الدِّخَانِ عَلَى أَعْضَائِكَ إِذْ أَنْشَأَهَا النُّقْشُ الهَبَاءُ ؛
النُّقْشُ الْحَيُّ ، الْجَسْمُ - بِمَشِيئَةِ الرَّسْمِ فِيهِ - أَثَرُ الْغَيْبِ فِي مَتَاهَتِهِ ، وَانْسَخِ
الْمُحَيَّرَ بِأَقْلَامِ الْعُلَيْنِ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

دَرَهُمْ صَفْوِيٌّ عَلَى رَاحَةِ الشَّفَقِ . نَقُوشٌ عَلَى النُّصْلِ : مَوْهُوَ الْأَثَرُ مِنْ وَرَاءِ الْبَغَالِ بِإِشَارَاتِ الْمَاءِ ، وَخَوْضُوا خَفِيَّتَيْنِ فِي السُّنْبُلِ ؛ فِي الْبَقُولِ الْمُتَجِدِّ ؛ فِي الْكَرَّاثِ أَزْرَقَ يَضِيءُ لِلنَّبَاتِ سَمَاءَ الْأَمْثَالِ . خَوْضُوا شُعَاعًا وَاحِدًا فِي الْأَثِيرِ الَّذِي يُمَوِّهُ الْأَثَرُ . فَالَّذِي كَوَّرَ الْعَدَمَ كَالْخَصِيَّةِ ، وَأَنْعَطَ الْخَوَاتِيمَ كَالْحُلَمَاتِ تَحْتَ لِسَانِ الْوَارِثِ ، هُوَ الْمُقْتَصِدُ فِي التَّدْبِيرِ أَنْ يُعِيدَ كَمَّ إِلَى أُمِّهِ السَّامِ أَنْقِيَاءَ مَسْكُوكَيْنِ سَكَّ الْغَرَضِ ، تَتَقَافَزُونَ حَوْلَهَا فِي غَمَامِ الضَّرُورَاتِ - قَبْلَ الْإِكْيَدِ الْمُخَادَعِ عَلَى ثَدْيَيْ مَشِيئَتِهِ .

دَرَهُمْ عَلَى رَاحَةِ الشَّفَقِ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

لا تَبْتَكِرْ إِلَّا مَا يَنْتَهِي : مُطْلَقٌ عَرَضٌ يَتَسَلَّمُ مِنَ الْكَيْنُونَاتِ مَفَاتِيحَ
الطَّيْنِ ، وَالْمَصَادِفَةُ بِعَانَتِهَا الْحَلِيقَةَ ، بِفَرْجِهَا الَّذِي مِنْ عَرَقِ الرُّثَمِ ،
بِقَشْدَتِهَا ، الْمُتَذَلِّلَةُ مُدَاهَنَةً إِلَى الْمَغَالِيقِ ؛ الْمَصَادِفَةُ السَّفَاحُ ، رَهَائِكُ - أَنْتَ
- عَلَى تَدْبِيرِ الْكَسَلِ لِلْمَشِيشَاتِ بِأَلَاتِ سَطَوَتِكَ الْبَاذِخَةِ .

مَعْذُورُونَ هُمْ الْجَبَاةُ لَا يَحْمِلُونَ الْمَذَابِجَ إِلَّا نَاقِصَةً إِلَى هَرَجِكَ الْقَيُّومِ ،
حَيْثُ تَدْخِرُ الْقَفْصَ التَّرَابِيَّ - الْقَبْرِ ، ذَا الْكُوَّةِ الَّتِي تَتَحَرَّى مِنْهَا الْحَيَاةُ ،
بِعَيْنَيْنِ دَامِيَتَيْنِ ، آخِرَ الْمَاعِظِ يَسْتَسَلِّمُ لِعِنَاءِ الْحِجَلِ .

أَلْغُبَارُ الْجَابِي ، وَحْدَهُ ، يَسْتَكْمِلُ مَا لَا يَنْتَهِي ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

لا بشيء ، لا يكون من لا ، هذه الثقلُ الذهبيةُ بأقدامِ الفهدِ من
أحراشِ الماهياتِ إلى الجلالِ الداهلِ .

لا بشيء تستولدُ للدهاءِ ملاعبَ النقشِ ومجالسَ الشكلِ . قُبرَاتُ
الزُومِ على وسائدك ، كأنَّ أنتَ قائمٌ بالغلبةِ ، بالثَّيِّهِ ، بالذاتِ المركونةِ إلى
أنفاسِ العدائينَ ، بالخفَّةِ ، بالمُحالِ مُبتَسِمًا ينقرُ بريشةِ الصَّقْرِ الميِّتِ
صلصالَ صفاتك ، أيها الأبُ العماءِ .

كم تكبَّدتَ الأسرَ مُذْ لجأتَ إلى يقيننا بأسماءِ من أسماءِ القَيْدِ
السَّتَّةِ ، تدفعك الأطيافُ الغاضبةُ في مضائقِ الرُّسُومِ ، وينتهرُكَ العاصِفُ
البَرِّمُ من تقلُّبِ الصَّيروراتِ بين يديه ، كأنَّكَ أسرُفْتَ في تغليبِ الجواهرِ
فأنسَتَ إلى طيشه ، فوافاك بالنكالِ هذا الألقُ الكتومُ ، المُبَدَّرُ كأمه
بالأحوالِ .

أَلْقَى ناظرٌ ،

ربيبُ اللُّهاتِ المُخيبي إِذْ تدورُ نواعيرُ الأجسادِ ،
أيها الأبُ العماءِ .

الفَجْرُ العَيَّارُ - تُخَفُّهُ الذُّهُولُ المُنْشَىءُ وميثاقُ الطَّنْعِ يرثُ خواتمَ
 النَّهْبِ ، التي أخرجتها لَحْمًا من حَنِينِكَ إلى المرثيِّ ، قَبْلَ أَنْ تَلِدَ الصُّورُ
 خيالَ القَدَمِ . هَبْ ، زَجْرًا فَلَقْتَ صَدَقَةَ المرثيِّ كي تَرْهَنَ الظَّلامَ للحماقاتِ ،
 وَأَلْخَفْتَ عَلَى النُّورِ أَنْ يَكُنَّى دَلالًا فِي بوحِكَ لِلْفَنَاءِ المهجورِ ، فَخَذَهُ
 سَلِيلُكَ الفَجْرُ العَيَّارُ من جَنَبَاتِ الأَهْرَاءِ العَظِيمَةِ ، حيثُ تَرْفَعُ المُمَكِّنَاتُ
 اللَّقِيطَةَ غِرْبَالَهَا فتتناثرُ النُّخَالَةُ الخَلْقُ . لا سِوَاءَ . نَخَرٌ عَلَى العَتَبَاتِ بِمَدِيَةِ
 الفَجْرِ :

طَفْرَةٌ هَذِهِ ، - قُلْ لِي ،

وَتَذَخَّرْ شُبُهَةً ،

أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .

غَرَّقَ طِبَاعٌ - كُلُّ هَذَا الْحَاصِلُ الْخَفِيفُ فِي الْوَتَرِ الَّذِي هَزَزْتَهُ بِأُثْمَلَةٍ
 الْخَيْرِ . غَرَّقَ يَلِيهِ غَرَّقَ . مَوَاجِعُ ثَمَرَاتٍ ، وَالنَّحِيبُ الْمُغْذِي بِعَسَلِهِ - عَسَلِ
 الثُّدِيِّينَ الَّذِينَ كَوَّرْتَهُمَا لِلْأُنْثَى مِنْ أَثَرِ الْهَارِبِ إِلَى حَيْثُ لَتَكَ فِي الصَّلْصَالِ ،
 يُدْفِقُ الْعَافِيَةَ فِي عَصَلَةِ الصَّيْرُورَاتِ حَتَّى لِكَأَنَّ سَتُوْخَذَ ، أَنْتَ ، نَهَبًا مِنْ
 الْجَوْهَرِ الدِّمَوِيِّ إِلَى الْعَرَضِ الدِّمَوِيِّ . غَرَّقَ يَلِيهِ غَرَّقَ . نَحِيبٌ تَذِي .
 مَوَاجِعُ :

كَمْ أُسْرِفْتَ فِي اخْتِلَاقِ النَّبَأِ عَلَى لِسَانِنَا ؛
 كَمْ وَشَيْتَ بِنَا إِلَى السَّيِّفِ الْمَقْدُورِ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

لولا تُخَزَمُ المَكَايِلُ فَتُؤْتِي غَمَامًا عَلَى غَمَامٍ ، وَيُنْشَأُ الدَّهْرُ مِنْ أَرْقِ
 الواحدِ الْمُسَدَّدِ رَقْمًا إِلَى عَبَثِ الرُّقْمِ ، لولا يُكَافَأُ التَّوَالِي المَعْدُودُ بِلَوْعَةِ
 اللَّامِ مَعْدُودٍ ؛ سَهْوٌ هُنَاكَ ؛ ثَعَالِبٌ تَتَدَحْرَجُ مَرَحًا عَلَى بِيَادِرِ الرِّيشِ ،
 وَالْفَاكِهَةُ تَمْسَحُ قُبْلَانِهَا ، بِأَكْمَامِ النَّدَى ، عَنْ فَرْجِ النِّعْمَةِ . غَيُومٌ تَتَلَامَسُنَّ .
 أَوْدِيَةٌ تَتَفَانِي فِي تَرْتِيبِ الْغَيْثِ . قُلْ لِي ، بِحَقِّ السُّفَاحِ الْخَالِدِ ، أَلْقَعْتَ
 الْعَافِيَةَ مِنْ يِ الحِظِّ الْخَائِرِ ، نَحْتَ الحِصَى نَاعِمَةً ، مِنْ جَدِيدٍ ، تَحْتَ سَيْفِ
 الْعِرْقَانِ ؟

ضَيْقٌ يُبْدِيكَ شَاسِعًا ،
 أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

طاغية هذا الخير العايب بخزائنا . رُسُلُهُ المحتَجِبُونَ في نزع الموت
يتقاذفون بأرغفة النَّشَآتِ في المَادِيَةِ ، ويركلون أباريقَ الثُّشُورِ الذَّهَبِيَّةِ . خَيْرٌ
مِنْ عِلَلِ النَّفِيسِ . خَيْرٌ مِنْ عِلَلِ النَّفِيسِ . خَيْرٌ نَذْبَةٌ تَحْتَ جَنَاحِ الْمَلَائِكَةِ :
اعْتَصِرْ ، أيها الأبُ العَمَاءُ ، مِثْلَانَةَ الْحَقِّ ؛ اعْتَصِرْ حَوْصَلَةَ الْفَنَاءِ الْمَلَايِ
بِعَدْسِكَ وَفُؤْلِكَ . مَا لَا يَعْتَرِفُ يَعْتَرِفُ الْآنَ . مَا لَا يُكْتَمُ يُكْتَمُ الْآنَ . مَذْبِجُ
نَقِيٍّ كَالضَّرُورَةِ ، أَنْيَسُ كَالطُّحْنِ ، مَفْتُوحٌ رَوَاقًا عَلَى آخِرٍ ، وَقِيَامَةٌ عَلَى قِيَامَةٍ
حَتَّى نَوَاعِيرِ الْفَرْدُوسِ الَّتِي تَعْرِفُ لِلِسَوَاقِي الْأَزَلِيَّةِ مِنْ فَرَاحٍ كَمَالِكَ -
كَمَالِ الْخَيْرِ ذِي الشُّفَرَاتِ الْعَظِيمِ ، وَالزُّعَانِفِ الشَّحُومِ .

طاغية . خَيْرٌ طَاغِيَةٌ ،
والخزائنُ تنهشمُ تحت ضَرْبَاتِهِ ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

لم يُنهَلنا الخلودُ الضريرُ أنْ نُبدِّلَ الخواتِمَ والأسفارَ بخواتِمَ وأشفارٍ .
شَقَّ مالا - يدومُ بمديته الغبارُ واستنبتنا جذورًا وبلوراتٍ ، مُحصيًا بأقلامٍ
الحسبةِ صيروراتِ المُلغزِ في تَرْقُوةِ الذَّكْرِ وَرَضْفَةِ الأنثى . الخلودُ المَجَاهِلُ ،
النَّقِي كَالثَّيَةِ . الخلودُ ذَاتِهِ ، الذي قَيَّدَ الفردوسَ الشَّوْرَ إلى نورجهِ في بَيْدَرِ
المصكوكاتِ الصِّلصاليةِ . الخلودُ المُستعرضُ اندحارَ الفراغِ المغدورِ بخناجرِ
أجناسِهِ ؛ الأيكَمُ المُترهلُ من هبوبِ الولاثِمِ على وشاحِهِ الكِتَّانِي . الخلودُ
المُعْتَفُ من أبيهِ الرُّوَالِ ، الذي أَبْقانا خالدينَ ، هنا ، في عبوركِ مطعونًا من
مَلَلٍ إلى آخِرٍ ،
أُنْهَى الأبُ العَمَاءَ .

ما الهدنة هذه ، إن لم يكن النحرُ على رسله ؟ . قَتَلَ هدايةً في هدنةِ
القَتْلِ الهدايةِ هذه ؛ هيْ اذْبَحِ اللّونَ على ثديكَ ، اذْبَحِ الشَّفَقَ على
ثديكَ . اذْبَحِ الفراديسَ الكسيرةَ ، وامْنَحِ النّسيانَ الذي يَنْكَرُ - وحده -
لغيبكَ المُتسرّبِ من شقوقِ زِيَرِكَ النّحاسِ ، اَمَلْ أن يفتديكَ بالنّسيانِ من
أَسْرِ الْعَبَثِ - نِمْرِكَ الْجَوَابِ
خرائبَ المعاني .

هو عُصيانُ في الوردِ . عصيانُ لونُ . والجمادُ المَرْوَعُ قطرةً قطرةً يَسْتَنْزِلُ
الكونَ ذائبًا في المسيلِ العريقِ إلى النّهايةِ . هبْ ، ها ترى المُستأصِلَ : بَدْخُ
طينٍ يُعْمِلُ جِراءَ السّماءِ القتيلةِ ، أيّها الأبُ العَمَاءُ .

فَمُ الْقُدْرَةِ يَتَلَمَّسُ كَمَرَةَ الْكِيَانِ الدَّاعِرِ ، هُنَا ، فِي الْمَعْلُومِ الْمُمْتَحَنِ
 بِقِيَاسِ الْمَغَالِيْقِ . عَرُّعَرُ وَسَرُّو حَجَرَيَّانِ . سَفُوحٌ مِنْ حِمَمِ الزَّوَالِ وَفَتْكَ
 عِمَادٌ : كُلُّ هَذَا مَقْدُورٌ كَالشَّهْقَةِ مِنْ فَمِ الْعَاشِقِ ؛ كَالْجَهَالَةِ - غَزَالَةِ
 الْوَجْدَانِ الْمَائِيَةِ ، فَلَا تَعْرِضُنْ بِنَاتِكَ عَلَيَّ ، شَفِيفَاتٍ يَغْزِلُنَّ حُمَى بَعْثِكَ
 فِي الْأَرْقَامِ . انْظُرْنِي : أَفِيضُ بِالْآفَةِ الْعَذْبَةِ مِنَ الزَّوَالِ الْعَذْبِ ، يَفِيضُ
 النُّقْصَانُ مِنْ كَمَالِكَ الْحَرَاتِ شَفِيفًا كِبْنَاتِكَ الْمُسْتَعْرِضَاتِ خِيَالِ الْوَحْدَةِ
 الَّذِي يَبْتَكَرُ لَكَ أُمَّهُنَّ الْمَوْلُودَةَ مِنْ خِيَالِهِنَّ . عُرُوضٌ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .
 أَصْفَادُ عُرُوضٌ ، وَالْعَانَاتُ الْمُتَلَاثِلَةُ زُرْقَاءُ فَوْقَ فُرُوجِ بِنَاتِكَ ، أَرْخَبِيلُ الْحَجَرَةِ
 الثَّلَاثَةِ فِي فَلَكِ الْمَعْلُومِ ،
 أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

عراكُ نسورٍ في الهاويةِ الأزليةِ ، والتَّيَاتِلُ شقراءَ تخرجُ من البلوراتِ إذْ
تغلي نقاءً في القدرِ العظمى . مُمكنٌ عَضُّ . وجودٌ عَضُّ . فراغٌ يتحوطُ
للأثقالِ بمذاري الرَّمادِ : هَلَا أَعْنَتَنِي أَنْ أَقْضِمَ أَجَاصَتَكَ التي تعيدُ إلى
لساني طَعْمَ الشُّكْلِ ؟ . عراكُ نسورٍ في الرثاتِ . غيابٌ حُلُجٌ ، والمراقبي إلى
الخراسةِ سطوركَ التي دوَّنتها بالعنْبِ على حنيني المُسْكِرِ إلى ما كُنْتُه ؛ إلى
المُشْكِلِ ، مُمَجِّدًا بَغِيظِكَ - غَيْظِ المَكْسورِ إذْ يَتِمَادَى في ابْتِكَارِ العِلَلِ إلى
لا نهايةٍ ،

أيها الأبُ العَماءُ .

مَتَفَتَحُ الحِطَّائِرَ ، الآن ، لألوانِكَ ، وأياثِلِكَ البُلُورِ ، وبِقَرَاتِكَ ، حاملاً
مِفْتَاحِ النَّبَاتِ إِلَى خِزَائِنِ السُّهُولِ ، كي تَتَجَرَّدَ ، كَرَّاعٍ مُسْتَوْحِشٍ ، من
سِرَاوِيلِكَ الأَرْضِيَّةِ ، وتُكْوِزَ السَّمَاءَ طِينًا بَعْدَ طِينٍ يَلِدُ الكَائِنُ فِي كَثِيفِهِ
شَفَافَةً حُضُورَكَ مُطْلَقًا كَالذُّعْرِ ،
أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .

مُؤَيَّدَةٌ أَنْتَ بِالْحِيلَةِ ؛ مُؤَيَّدٌ بِالكَفِّهِ الرَّجْرَاجِ كَشْدِي الْعَانَسِ ؛ بِالْمَسْكُونِ
مِنْ هِيَاطِ الْفَرْدُوسِ الْمَهْجُورِ . وَالْأَرْوَاحُ تَتَوَلَّأُكَ فِي اقْتِحَامِهَا الْبَرْزَخَ
فَتَكْشِفُكَ مَلُولاً ، نَزِيلَ جَمَالِ أَرْقٍ يَتَقَلَّبُ فِي الرَّمَادِ الْآدَمِيِّ . أَلَا أَيْقِظُ
شُكُوكَ - تِلْكَ الْإِوْزَةُ الرَّائِضَةُ حَوْلَ بُرْكََةِ الْأَزَلِ ، وَاعْتَسِلَ فِي الْيَقِينِ الَّذِي
لَمْ تَكُنْهُ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

صَبْرًا : يتعافى الكَيْدُ العَرِيقُ ؛ تتعافى اللُّوعَةُ في الظِّلِّ المُلْقَى من
 تماثيل الغَمَامِ على الهاوية ، والجراحُ التي آنَسَتِ الوجودَ - إذ فَتَقَتِ الوجودَ
 بَظَرًا بعدَ آخرٍ في ثَمرةِ اللَّحْمِ - رُسُلُ النَشِيدِ إلى امتدادِكَ . أَجَالٌ في
 مَعَارِجِ أَجَالٍ . صَبْرًا : ستوقظني اليدُ الأنقى من سُبَاتِ الخواتيمِ أَنَّ
 تستعرضُ لطرأند الأزلِ مخابىءَ الهيئاتِ الأزلِيَّةِ ، وتُسمِّي الأقفالَ مقابضَ
 المعاني وزلالها . متاعٌ كثيرٌ هنا ؛ متاعٌ مِنَّنٌ ، وحروبٌ مِنَّنٌ . أَجَالٌ تتعافى
 في الكَيْدِ . هَرَجُكَ المِنيُّ . قُلْ لي : أيجري عليك ما على الدَّمِ من عَقْدٍ ؟
 بلى ، أَتَيْكَ من البَدَدِ الحافظ - سَيِّدُ الثَّقَلَةِ من شَكِيمَتِي إِلَيْكَ ،
 أَتِيهَا الأبَ العَمَاءَ .

الْقَبْلُ ذَاتُهَا ؛ الْقَبْلُ ذَاتُ الْأَدْرَاجِ ، الْأَهْلَةُ بِأَشْبَاحِ الصَّيَادِينِ . الْقَبْلُ
 النَّمُورُ عَلَى أَكْمَاتِ الْجَسَدِ . الْهَبَارَاتُ مُتَدَافِعَةٌ مِنْ شَجَرِ الْمُنْتَهَى إِلَى سُدْرَةِ
 الْغِيَاظِ . الْقَبْلُ الْقَوَى صَاعِدَةٌ دَرَجَ الْعَذْلِ إِلَى النَّهْبِ . الْقَبْلُ الْأَكْمَاتُ ،
 الصَّقُورُ . الْقَبْلُ الشُّجَارُ فِي الْأَرْوَقَةِ الثَّوْرَانِيَّةِ . الْقَبْلُ الْمَقَايِضَاتُ الْمَحْسُوبَةُ
 بِأَرْقَامِ الْفَجْرِ الْخَطَّابِ . الْقَبْلُ الْغَلَاصِمُ فِي الْمَاءِ مَرْفُوعًا إِلَى شَفْتَيْكَ
 الْمُحْبِرَتَيْنِ - رُدُّهَا إِلَى فَعْمِي ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .
 تَمَرَّقُ السَّمَاءُ ، بِيْرَاتِنِ اللَّامِعُدُودِ ، غَزَالَةُ الْأَجْرِ الْمُنْتَصِبَةِ فِي هَيْكَلِكَ
 شَرْقًا ، هُنَاكَ ، تَحْتَ أَنْصَابِ الْحُظُوظِ الْكِبَرَى ، الْمَتَدَلِّيَةِ مِنْ أَعْنَاقِ الْبَجَعِ .

خُذْ تَاجَكَ مِنْ يَدِ الْمَغِيبِ الْإِسْكَافِيِّ ؛ خُذْ صَوْلَجَانَ النَّدَمِ مِنْ يَدِ
 الْمُرِيدِ الْهَارِبِ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

يُضْرَمُ الرُّوَاةُ فِي الْمَكْنُونِ الْعَاقِلِ نَارُهُ الْعَاقِلَةُ إِنَّ حَدَّثُوا . مَلْمُومِينَ
حَلَقَاتٍ زَبَدًا ، أَخْتَامًا . مَلْمُومِينَ يَأْخُذُهُمُ الطَّلَعُ مِنْ كُنْهُ الْوَاحِدِ إِلَى سِفَاحِ
الْكَثِيرِ . وَهُمْ ، كَكَثِيرٍ ، تَخْيِيرُوكَ لِحُجَى الْحُطُورَةِ إِلَى كِمَامَتِهِ - كَمَامَةُ الْفُرُوقِ
الشَّرِيدَةِ . رَوَاةٌ مَغَالِيْقُ ، حَسْبَةُ فِي تَصَارِيفِ الشُّكْلِ ، مَعْدُودُونَ يَقِينًا
سَلَالِمَ إِلَى الشُّكِّ ، كَأَنَّهُمُ النَّفْسُ الْأَوَّلُ مِنْ رَنَةِ الْهَيُولَى . إِلَيْكَ ؛ خُذْهُمْ
إِلَيْكَ يَرُؤُوا مَا أَدْخَرْتَ مِنْ سَطُورِ الْمَعْلُومِ فِي خَزَائِنِ الْغَيْبِ ذَاكَ - غَيْبِ
الْحَلَقَةِ الثَّحَاسِ عَلَى بَابِ الْعِلَلِ .

حَلَفُ عَقْلٍ يُسْرِخُ الْقَطِيعَ الذَّهَبِيَّ فِي أَرْجَاءِ غَمَامِكَ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

الثلوجُ تعتصرُ النقوشَ النافرةَ في الصخرةِ الدُمويةِ - صخرتكِ أنتَ ،
 التي عَضَضْتَ عليها بنواجذِ الرقمِ أزلًا كالتخمين . الثلوجُ الأقاليمُ ، مَهَبُ
 الأعالي على الفتنَةِ . الثلوجُ المسالِخُ ، حيثُ العروجُ من فردوسٍ إلى آخر
 بجناحِ التهلكةِ . لا إرخاء . عَصَرَ بقبضةِ الكمالِ الأبيضِ على النقشِ ،
 والأُمُ تتلوَّى خرَّساءً ؛ الأَقفالُ تتلوَّى ؛ الجمادُ والسماءُ يتلوَّيان مُختنِقَيْنِ في
 صدَفَةِ النُحاسِ الخالقي . مَيِّدُ . صخرتكِ أنتَ المُعْتَصِرَةُ في المَيِّدِ كأنما تنزفُ
 خيالكَ قطرةَ قطرةٍ من صدوعِ الخلقِ وكسُورِ المُمكن . أينكِ إنْ خُصِصَتْ
 تخصيصةُ المنهوبِ ؟ ثلوجُ علائقٍ ؛ شُبُهاتُ ؛ ظُروفُ مُرجاةٍ ؛ مقاصيرُ ؛
 أدراجُ إلى المُشكِلِ القيُّومِ . بكِ وحِذِّكَ تعتصرُ المغاليقُ شهواتِ الكَيْدِ على
 قروحها ، والثلوجُ نواجذُكَ تعضُ بها النقوشَ التي لم تكتمل ،
 أيُّها الأبُ العَمَاءُ .

سَرَّاجُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَضَائِقِ يَبْتَكَرُونَ لِلْأَلَمِ مُكُومَهُ الْأَدَمِيِّ . تَحْتَ
الْمُسْتَنْتَهَمِ حَجَرُ النَّشَادِرِ ، وَأَكْبَادُهُمْ فِي الْكَبْرِيتِ . لَا يَصِفُونَكَ إِلَّا وَصْفَ
الْحَيْلَةِ ، مُسْتَنْدِينَ إِلَى شَجَرِ الْخَرْثُوتِ فِي رَسْنَائِقِ وَاحِدٍ مِنْ زُجَاجِ الْبُحْرَانِ .
أَوْ كَلَّتْهُمْ أَنْ يَنْجُرُوا السَّرَاقَ الْمَعْدُبَ مِنْ خَشَبِ الشُّمُسَادِ ، وَيَفْتَلُوا الْحِبَالَ
بَزَيْتِ السُّنْدُرُوسِ؟ مَهْلًا ، لَتُؤَقِّدَنَّ إِلَيْكَ ، فِي الشُّرُوقِ الْأَعْمَى ، قَنَادِيلُ مِنْ
شَحْمِ النَّوْنِ ذِي الرُّعَافِ الْبَازِلْتِيَةِ فِي بَحْرِكَ الْبَازِلْتِيِ ، وَلَيُيَهِّدَنَّ الْمَغِيبُ
نَقْشًا نَقْشًا حَتَّى يَنْزِفَ الْخَلَاءُ الْكَلْبِيُّ نَسْلَكَ صِمْغًا مِنْ رَتُوقِهِ ، خَرَابًا بَعْدَ
آخِرٍ ، وَنِيهَاً بَعْدَ نِيهِ فِي النُّقَاءِ الْمَسْلُوخِ كَشَاةٍ يَقْنِينِكَ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

خُنُفَسَاءُ أَتَكَ اللَّوَاتِي دَوَّخْنَ المَعْقُولَ ، عبورًا بكراتِ الرُّوثِ الذهبِيِّ من
فكرة إلى فكرة ، تتساقطُ أرجلُهُنَّ على الأدرَجِ ، تتساقطُ قروْنُهُنَّ - قروُنُ
النَّسِيَانِ . خُنَافُسُ بَيْضٍ هُنَّ بِصُرُكِ البِيضِ المُسْتَعْرِضِ نَزْوَةَ الخُلُودِ
الْجَاهِلِ . مِخْنَةُ بِيضَاءٍ تَتَصَيَّدُ بِشَصَّهَا الخَلَائِقُ كَنَزْوِكَ الْغَارِقَةِ فِي الحِظْوِظِ
الْغَارِقَةِ ، وَالصِّفَاتُ تَسْتَنْبِجُ الصِّفَاتِ عَلَيْكَ . ادْخُلِ المَعْقُولَ بِالْحَيَوَاتِ
مَرْصُوصَةً كَالْقَصْدِيرِ . ادْخُلِ التَّعَبَ المُسْتَنْبِتَ مِنْ نَفْخِ الصُّورِ عَلَى لَهَبِ
الْأَشْكَالِ . خُنُفَسَاءُ أَتَكَ بَيْضٌ يَدْحَرِجْنَ كُرَاتِ الحَبِيرِ عَلَى الْفِرَاقِ الْمَسْطُورِ
بِقَلَمِ الشَّهْوَةِ . عُدَّهِنَّ بِأَرْقَامِ الرَّمَادِ . هَا هُنَّ خَارِجَاتٌ مِنْ صَدُوعِ اللُّوحِ وَقَدْ
أَزْيَكُنَّ أَنْ تَتَعَثَّرَ أَفْلَاكُكَ بِأَفْلَاكِ فِي احْتِدَامِ الْمُطْلَقِ . بَيْضٌ . وَأَنَا ، النَّرْجَسُ
الَّذِي أَرْفَعُهُ لَنْ تَرْفَعَهُ يَدُ أُخْرَى إِلَى بُحْرَانِكَ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

الأفلاكُ الأحدَ عشرَ . اللّوازمُ الفَناءاتُ والهيولى . الكيدُ السُّببُ .
الهباءُ الأنقى . الرُّدَّةُ الدُّهريةُ . الإنصاتُ إلى خزائنِ اللّونِ . المعادنُ أسفلَ .
المعادنُ أعلى . الطُّوقُ الرُّبْدُ . لا هويّةُ . لا قيامَ . حَشَرُ بَسِيطَ : ضُمَّ هذا إلى
غيرهِ .

طُهاةُ يرفعونَ الأبواقَ إلى فمِ اليَقينِ الحَالِمِ ، والأسلحةُ على حالِها ،
أُيُّها الأبُ العَماءُ .

أَعْطَيْتَهَا بَذْخَ نَسِيَانِكَ . لَا قَبْلُ عَلَيْهَا . كُنْتَ تَرَاهَا فِي الْمُغْضِلِ الَّذِي
أَزَقَّ الْجَاهُ فِي يَدَيْكَ ، وَهِيَ لِي ، بِالْخَسَارَةِ الْمُنْسَرِحَةِ كَالنَّعْمَةِ ، فَتِيَّةٌ
تَتَجَاسَرُ عَلَى الْكَمَالِ الْمُنْشَدِ بِالْكُهُولَاتِ . أَعْطَيْتَهَا الَّتِي لَا قَبْلُ لَكَ عَلَيْهَا
هَبَّةٌ مِنْ امْتِنَانِكَ لِي أَنْتَنِي خَيَالٌ ؛ هَبَّةٌ هِيَ الْقَدَمُ الْوَارِثُ يَجْمَعُ قَلْبِي مِنْ
جِرَارِ الْمَسُوسِينَ عَلَى حَوَافِ الْعَسَقِ . يَا لِلْمُغْضِلِ أَنْشَأَ هَذَا . كَمِينٌ .
سَأُؤْفِكَ بِالْخَاتَمَةِ الظِّلِّ ، بِهَا - تِلْكَ الْجَسَارَةُ إِذْ تَتَعَاثَى الذُّكُورَةُ فِي تَأْوِيلِهَا
نَهْبًا نَهْبًا . لَا قَبْلُ . لَا قَبْلُ . بِيَدَيْنِ تَرْتَعِشَانِ مِنْ عَصْرِ الْكَمَامَةِ النُّورَانِيَةِ عَلَى
فَرْجِهَا سَأُعِيدُكَ إِلَيَّ هَازِيًا .

عَرَفْتُهَا الْبَارِحَةَ أَنْتَاكَ - طَرِيحَةُ الْوَعْدِ الْمَائِيٍّ عَلَى فَرَاشِ الْمَكْنُونِ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

النمرُ السَّيَّاحُ ، ذو القوائِمِ الحديدِ ، يَطْوِقُ العِمَارَاتِ التَّسْعَ . شَبَكَ
قَلْبُهُ . مَدَافِيءُ عَصَبٍ . أَحْشَاءُ شُرَفَاتٍ . وَبَرَ أبيضُ حَوْلَ شَذْقِيهِ ، وَبَرُ
شَجِيرَاتِ الجِيرَانِيَوْمِ . هَادِيٌّ مُتَشَابِكٌ . مَرْتَجِفٌ مُتَشَابِكٌ ثَابِتٌ بِمَخَالِبِهِ
الْغَائِرَةِ فِي الطُّوقِ الْإِسْمَنْتِ . رَحِيمٌ فِي مَرْتَبَتِهِ كَسِيَّاجٍ . مُتَشَابِهٌ تَلْتَمَعُ
الشَّعَاعَاتُ عَلَى نَائِيهِ .

نَمْرُ سَيَّاحٍ تَتَكَيَّءُ عَلَى شِبَاكِ هَيْكَلِهِ شَقِيقَاتُ المِيمُوزَا التَّسْعُ ، وَتَتَدَلَّى
مِنْ ثَغَرَاتِ قَلْبِهِ الْحَدِيدِ خُصْمَى النُّورِ . وَمَاذَا؟ . النمرُ الشجرةُ ، ذو الحَنِينِ
الْفَانِعِ مِنْ صِغَعِ الْكَيْنَا . النمرُ المتماوِجُ عَلَى أَرْوَاحِ الْوَرَقَاتِ الْمُتَرَاصِفَةِ صَلْدَةً
لِعُبُورِ ظِلِّهِ النَّبَاتِيِّ ، عَيْنَاهُ عَلَى الطَّرَائِدِ مُتَجَاسِرَةً أَنْ تَتَمَرَّأَى فِي قِبَابِ النَّسْغِ
الصَّقِيلَةِ ، وَقَلْبُهُ يَخْفَفُ عَلَى التَّرَابِ مِنْ مَشَاجِرَاتِ الْجَذُورِ .

النمرُ الشجرةُ ، خَيَالُ ذَاتِهِ الْمُتَجِبُ مَكِيدَةُ الْحَدَائِقِ ، أَيُّهَا الْأَبُ
الْعَمَاءُ .

صَغَبَ أَنْ تَلَجَ إِلَى الْحَمَى بِلا آية . أَدْمِي خَتْمَكَ - خَتَمُ الْبَلْبَلَةِ ؛ أَدْمِي
أَرْقَكَ - أَرْقُ النُّشْأَةَ . مَوْحِشًا شَدَّدْتَ الْعَقْلَ بِشِعَاعِ نَبَاتٍ إِلَى الْكَثِيبِ
الَّذِي يَتَقَلَّبُ شَكْلًا بَعْدَ شَكْلٍ مِنْ سَفَادِ الرِّيحِ .
صَنَعَ رَاحَتَكَ فِي رَاحَةِ الزَّائِلِ ، وَتَنَشَّقِ الْخُلُودَ مِنْ حَدَائِقِ الرُّقْمِ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

أَلْمَرَاتِبُ تَتَوَازَى شِقْرَاءَ فِي التَّشِيدِ ، وَالْمِثَنَاتُ تَتَقَاطِعُ :
سَبَّكَ مِنْ آلَةِ الْعَمَاءِ ؛ سَبَّكَ نَقِيٌّ فِي الْمِحْنَةِ ، صُلْبٌ تَتَبَادَلُهُ النُّقُوشُ
عَلَى خَوَاطِمِ الْمَلَائِكَةِ الْمَدْعُورِينَ .

أَعِزَّنِي نَدَمًا ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

هنيئاً للحياة نَحِيْبُهَا الخافتُ بين يديء .

هنيئاً للموت نَحِيْبُ الخافتُ في شهواتي : عاقلان . شقيقا تبغ .
نمِمتانِ أَسْرُهُمَا العَدَمُ في يَظْطَهُ الحَيَّةِ إلى السِبروراتِ القابضة بِبِدِ الحَيَّةِ
على الأزل .

هنيئاً للذائد التي فاتها أَنْ تَمَسْنِي في صعودها من جراحك . أغلقِ
المنافذَ إليّ - منافذَ الجمادِ الرقيق ، واستَبْقِنِي مُمرَعاً في المَعْصِلِ ، عليّ
قناعَ اللأنهاياتِ البشوشة من تَعْبِهَا أَنْ تَبْقَى هكذا لانهاياتِ بشوشة تَأْكُلُ
الثقلَ على مائدة الله .

هنيئاً للعافية نَجَّوْاهَا إلى الغمرِ الأقدمِ مرفوعة من فَمِهَا الأنين : أغلقِ
عليّ العافية ذاتَ الأحشاءِ الجَمَرِ . سَوْنِي ما يشاءُ الملحُ في زفيرِ المَخْتَنِقِ
من خَبِيرِكَ - خَبِيرِ المَكْرِ . اللذائدُ تتوالى ؛ - أراها - كَيْلاً بعد آخرٍ في
القواريرِ ذاتها ، التي أَنْصَجَها اللَّهَبُ الحِرَافُ . اللذائدُ الدَّوِي - قلوغِ
الغِيَاهِبِ المُسْتَطْلَعَةِ من سُرَادِقِهَا المائي نشأة الخالد .

هَنيئاً : رَهْزٌ فُحْلٌ يَمْرُجُ المَقْدُورُ على سَرِيرِ الكَلْبِي ، والمتاهاتُ تدلُّ البَذءَ
- في الرُسُومِ الباقية من عُبُورِكَ مَعَاقِلِ اللَّوْنِ غاضباً - على المَسَالِكِ إلى
الأكِيدِ الأكِيدِ ، أيُّهَا الأبُ العَمَاءُ ،
العَمَاءُ ،
العَمَاءُ ،

المعجم

مخالِبُ نَوْزٍ ، والقَنائِصُ تَتَهاوَى مرتعِشَةً من ضَرَباتِ النُّعْمة . فلا
تَخْفُ .

أَمِنْ أَنْتَ فِي سَرِيرِي . رَخِصْ عَضْلَكَ . لَأَعْضُنْ رَمْنَكَ إِذْ تَتَّقِي فَمِي -
فَمَ الكَيْدِ العَذْبِ فِي انْبِثَاقِي مِنَ المَهْجُورِ جَائِعًا ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

غَدُّكَ أَمَامِي ، هُنَا ، مَرْتَعِدًا يَعِيدُ إِلَيَّ العِظَامَ الَّتِي نَحَتَهَا الخَيْرُ نَهْشًا
بِأَسْنَانِ التِّيهِ . غَدُ الخَيْرِ أَمَامِي ، هُنَا ، هَائِجًا فِي الحَلْبَةِ التِّيهِ . هَيِّي ، وَبِخِ
الخَيْرِ تَوْبِيخِ العَادِلِ . قُلْ : « أَنْتَ ، أَيُّهَا الخَيْرُ ، تَشْوِي السَّمَاءَ مُتَبَلِّةً بِحَرَائِقِ
الأَرْضِ » . خَيْرِ خِتَانٍ فِي مَخْدَعِ النَّدَمِ . خَيْرِ لِيَعُودُنَّ عَاقِلًا فِي اسْتِقْصَائِهِ
مَغَالِيقَ العَقْلِ ، رَاضِيًا بِقِسْمَةِ الشَّرِّ أَنْ يَشْفِقَ عَلَيْهِ مِنْ نَدَمِهِ - نَدَمِ
المُحْتَضِرِ . نَادِهِ أَيُّهَا الشَّرُّ ؛ نَادِ الخَيْرِ مِنَ النِّهَايَةِ الَّتِي بَلَإِ ارْتِ قَبْلُ ؛ بَلَإِ ارْتِ
بَعْدُ . نَقَاءَ كَجِدَالِ العِظَامِ يَمْرُغُ الأَرْضَ عَلَى صَفْنِكَ . سَمَادُكَ يُنْبِتُ الحَقُّ
أَخْضَرَ فِي حَقْلِ رَمَادِ أَخْضَرَ . بِحَقِّ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ مُعْشِبًا قُرْبَ كِمَاتِ
الْفِتْنَةِ ؛ بِحَقِّ الأَكِيدِ - غِلَامِكَ الْمُتَكَتِّمِ عَلَى شُؤُونِ الخَيْرِ الدَّاعِرِ ، قَطَعَ
الْكُونَ الجَرَجِيرَ وَالْكَرْفَسَ عَلَى المَائِدَةِ بِمَدْيَةِ المَاءِ ، وَانْتَشَرَ المَلْحَ عَلَى المَجْهُولِ
المَقْسُومِ أَغْشَارًا بَلَإِ نِهَايَةٍ . أَرَاكَ تَلْحَظُ السُّطْرَ المَرْضُوضَ فِي اللُّوْحِ : آلِهَةٌ
تَسْئَلُ شُعُوبًا ، وَشُعُوبٌ تَسْئَلُ آلِهَةً فِي عُبُورِهَا إِلَيْكَ .

قربك شيخُ المَجْهُولِ الطِّفْلِ ،

وعليك عَافِيَةُ القِدَمِ

فَاطِمَتُنْ

أمن أنت في سريري ،

مُتَكِنًا

على

وسادة

الخير النَّدَم .

قربك الزَّوْلُ النُّمْرُ في سلاسله ، وعليك عاقبةُ التَّيه ، فاطمئن .

أمن أنت ، مستأنسٌ بصليل الجُرْنِ يطحنُ الوجودُ فيه عَدَسَ الله .
ولك ما تشاء من خزائن المغاليق الأثرية . لا نور ، ياشرُ ؛ لا ظلام : الحيلةُ
نثرتهُ الخير بين يديك ؛ اعترافه أنك أشفقتَ على الحقيقة فأنستَها
بأكاذيب الثَّور يرفعها كالحلوى إلى فم العبث ، وأكاذيب الظلام يرفعها
كجُلابٍ بارد إلى فم المهجور . لَيَضْرِبَنَّ القِدَمُ بك عرشَ الماء . كنتَ ما
ليس سواكَ . أمتحنُ اللونَ . انحره في زرائب النقش السماوي ، قرب ظلال
التماثيل - الحرائق الحجرية ؛ قرب لسان التدبير الذي قِيدَتْهُ المعجزةُ
بجفاف تورياتها . آنحَرِ الذهبَ بمدية الرمل . آنحَرِ الأزلَ على ركبتيك
الفراغ بمدية الكمال المسكون . وقلْ : «ليلٌ قطيعُ زراف ، ونهارٌ برائن» . ها
شتائمُ الإيمان تصلك تباعًا من حنجرة الخير ، والخيرُ يتمرغُ في غفرانك ،
الذي تمرغَ فيه الأزلُ الأفعوانُ ، أيها الشرُّ .

لا تَمَسْ المجهولَ - نقابَ شقيقاتك ، كي لا يبصر الخيرُ ، في ضراعته
إليك ، ما أرختَ للعَدَم من موثيق الله :

(خيرٌ مأزقٌ)

أرخَ كتفك من ثقل المعقول الأبكى . إوزُك هناك ، على ضفة الهباء
الثاني - الفردوس الذي تتبول السناجبُ على كستنائته ، ويفتح العويلُ
فيه مآذبه الحجرية ، أيها الشرُّ . ها تعطيك أقدارُ الذهب ما تشاء : الخيرُ
واثقًا أنه خَدَلَ المشيشة ؛ الخيرُ النَّدَم متقلبًا على وسائد الحمى ، حيرانٌ ،

مرتجفاً ، أبكم ، ينتحب خلف حجابك نحيب الزير ، أيها الشر .
 كيف صنعت هذا كله ؟ كيف صنعت الشجرة النحاس تحك النمرور
 خواصرها على لحائها الخشن ؛ الشجرة الخير بشمراتها النحاس ؟ كيف
 صنعت الخير جسوراً هكذا - الخير الندم - تدين كخيال المعلوم ؛ الخير
 الندم ، الذبائح ، الفئك العالم ، الغوث قادمًا بسكاكين اليقين ؛ الخير
 المتردد في اعترافه أنه لها الكمال في نكاحه ؟ مروصاً كالعصيان يسرد
 عليك الخير اعترافه ، أيها الشر ، لأنك ما يمتلكه الخير من امتنانه للقيامة .
 بك ، وحدك ، تنجو القيامة من مُشكلها - مُشكل الخير بعض على عضلة
 الحكاية ذاتها ؛ الحكاية المُختلقة ، بإيجاز ركيك ، وسط ثمرات الأزل
 وشقيقاته ، أيها الشر .

أسمال من نسيج الأبد تنهراً في عبورك الغاضب إلى الملهة ، حيث
 الأقدار البهلوانات مختنقة في أزياء الأكيد المختنق . وترى ما يراه الذهاء :
 الشعب الوطيد في مجاهل الخلائق . أحصيه ؛ أحص السدنة العطارين
 في حوانيت الغيب . أحص الممزقين . كلهم ممزقون : أكباد ذائبة تنقطر من
 فم الخير . كلهم مذهبولون ، وثت بهم الحقائق الباكية بدلالها الماجن .
 كلهم حطام في جرن الخير . تقرهم ؛ هم نخالة سطور يكنسهم الخير من
 حظائره بمكانس الغفران ، ويرمي الأربعة إلى المخطوطين في الجهة الأخرى
 - جهة الكساد ، التي تنزف منها وعود الكمال الممزق جبر الرسل
 الموعودين .

مذ تبتيت الخير مرشدًا إليك ، أيها الشر ، واثمنتته على الغيب الثرار
 - سهلك المزدحم بالكراث - نراه يقلب الفراديس بالمحراث ، أسفل أعلى
 كفرج : أعلام في أرض المغاليق ، والبيذور ندم .
 أهذا شقاء سكر على لسان الخلود ، أيها الشر ، أم ثقل الخير - ببغائك
 ترميه بفستق الكمال المر ، وتدره ، كفعل القرداتي ، أن يرقص على

صاحك المَحْمَى؟ صاحكًا ، بهلوثًا ، يجمع الخيرُ ، في قُبْعته ، دراهمَ العَذَلِ
من المحسنين إلى الفكاهة بدراهم المأساة . كلبٌ واحدٌ ، أيها الشر ؛ كلبٌ
واحد يجرُّ زُحافةَ الجليد من العقل إلى العقل . والمتسوّقون في ردهات
الكلبيّ وحوانيته يدوسون على أذيالِ الأقدارِ : عويلٌ قَتَصَ في فراسخِ الخيرِ
التسعة . وحوذِيوكَ يلتقطون خزائنَ الكمالِ الملائى بدسائسِ الملائكة
الأغرار .

جروحُ

ثلوجُ ،

ورضوضٌ في العظام من سَقَطَةِ الكمالِ ثَقِيلًا على دروعِ أحفاده .

جروحُ ثلوجُ أيها الشر .

جروحُ هدايةُ .

سموات تابلٌ في الحِساءِ المسموم . ملاعقُ من عظامِ المغدورينَ على
مائدةِ الخيرِ . والأزلُ المغني يُنشدُ لَحْنَهُ المُنْتَحِلَ على رمالك ، أيها الشر ، يا
الذي كَمَأَتَكَ كَمَأَةُ السماءِ مطهوءةٌ في قِذْرِ المعلومِ الدّاهِلِ ، وسريركَ سريرُ
السماءِ . اغتَرِفْ أنك عقدتَ على الخيرِ مصاهراتِ الأقدارِ ، وحفظتَ لله
سطورَ النهاية في ذاكرتك - ذاكرةِ الندمِ .

جروو

وو

حُ هدايةُ أنت ، أيها الشر ، يا صلاحِ الظلامِ العالمِ وزيغِ النُّورِ البهلُولِ .

ها

نهارُ

غريقُ

ففي
إشكال الثور ،
مطحون قرفة
في الشريد الذي

يأكله العدم بملقة الله .

ها الليل الطاهي يحرك العوالم في قدره - قدر النهار المرفوع على أنداء
الذهب . والخير ، أجبرك المقلد ، يدهن بزيت الحمحم سواء الغيب ، الذي
يؤكل - في الفرديس - كالكمأ ، ويقلي السديم الداجن في أقفاصك ،
أيها الشهر .

شعب الليل شعب الفاكهة في بستان النهار ؛ وشعب النهار شعب
التوابل في الحساء الليل . قلب ، أيها الشر ، بالمغرفة الأبدية ، حطام الخير
القديد في الآبار الأبدية ، وتنشق الفراغ الناضج - الفراغ الكمون في
عدس المجهول ؛ الفراغ العصف متناثراً من حق المناهة على أرز الخير .

محفوظ هذا الذي يتخيّل ما لا يتخيّل الخير . وأبعد ، بعافية السر
والسحر ، يرمي شبكة الكمال الثقيلة كوبر الماموث . لا

قنائص

في متاهة

القدم ، أيها الشر .

لا تعالب .

لا ديكة .

لا حجل .

لا سمانى .

لا بط .

لا .

معقول ينزف كسلوقي أصابه القنّاصون إذ أخطأوا الطريدة .

محظوظ

و

و

ظ هذا الذي لا يُقاسمُ الخيرَ رغيْفَ النسيانِ وزيدتهُ الذائبةُ في مقلاةِ
المتناهة . محظوظٌ يعتصر لك الحمائرُ المُتكررةُ من خيرِ النسيانِ . أره حذاءُ
الخيرِ ؛ حزامهُ المحلولُ ؛ سراويلهُ ؛ أسنانهُ ؛ صفتهُ المملّحُ . أره خزانةُ الخيرِ
الملاي حروبًا كمنكاحِ البايون . أره الخيرَ قروشًا في طاسة الكمالِ الشحاذ .
ربيبُ حنينِ أنت . لصَغَبُ أنْ تَكْذِبَ مَذْ كنتَ صادقًا في خيارك الطاحنِ
- خيارِ الله أنْ يَزِنَ بكِ المقاديرَ ، أيها الشر .

أرضُ نَقَاءٍ ذاتها ؛

سماءُ فسادٍ ؛

والفناءُ المنتهيُ ينبجِبُ الفناءَ إذ يهدأُ الجِدالُ الذي أَنَهَكَ المِياهُ : «قُلْ لي
- أنا المُتَصَرِّفُ باعتذارِ الموتِ إلى الموتى - أيها الخيرُ ، أَقْسَمْتُ قَسَمَ الرمادِ
أنْ تكونَ البهلُولُ العاكفُ على تلقيقِ الأقدارِ؟ نَقِيْ عظامك الإثمُ ؛ شَرَعَكَ
الإثمُ المُعْتَنِقُ ما تعتنقُ أنت ؛ الإثمُ الذي كُوْفِيَءَ بكِ مُذْ تدبّرُ اللسانُ
لخِياله مجادلاتِ الملائكِ المنتظرينَ تكليفَ الله للقدَمِ بترويضِ غورهم . قُلْ
لي يا عَتَلَةُ الغِيهَبِ المُرْشِدِ إلى الغِيهَبِ ، بأيُّ نداءِ نوديتَ فحزمتَ البقاءَ
المُشْكَلَ بينَ متاعك؟ أذَرِ ظَهْرَكَ إليّ . صُكْ معدنًا نَقْدًا برَسَمِ آخرَ غيرِ
رَسْمِكَ تمويهاً . انهضْ لي إذا دخلتُ ، ولا تقعد بعد ذلك .

سماءُ فسادٍ ،

وأنتَ ،

أيها الشر ،

استغاثتُ اليقين ، في جلاء الأحوال عن السيفِ الحجيرِ
يقطعُ الأبدى - مندليكَ الحرير - قَطْعًا رقيقًا .
سماءُ فسادُ :

هاتها السماءُ الفسادُ في سلاسل المغاليق يتبعها المذعورون ، وهم
يستدلّون بالخير على فراسخ الخيبة العشرة بعد الأبدية ، مُصغينَ إلى
العوالم ترتدُّ عن حجرك العريق . هاتِ الخير - جارتكِ المنجبةُ أممَ النجوم
السبعة . خيرٌ أنداءُ تُرضعُ جرأ الكيد . خيرٌ أتانٌ تُذيبُها سِفادُ أفراسك
فتلدُ البغلَ الأقدم - بغلَ المشيناتِ السُحبِ في مضائق الفردوس .
يا للفردوس المقامر بالأكباد في حاناتِ الله ، يستلفُ من الخير
طواويسهُ ، وأفعواناته الكروبيّة - أفعواناتِ اللون :

هاتها المضائق بلا مياه ، أيها الشر :
سُفُنُك القدمُ وشقيقاته ملائى ، في عبورها التيه ، بجلود الآلهة
مجففةٌ دونَ الندم عليها أشعارُ القيافين .

أمنُ أنت في سريري ، وغدُك أمامي - غدُ الخير ما جئتُ يصف
بكناياته غرمولُ الهباءِ العادل . أمنُ في سريري الغمرُ ، الذي رفعَ الكمالَ
من خنادق الغيب إلى الهذيان ، مُذْ برأتِ الخير من العصيان القدوس ، أيها
الشر ، كي تُعيده داعرًا إلى العصيان .

بحقِّ

السأم

الذي

أعاركُ

الخيرَ اللَّقيطَ

كي تَسْهَر سَهْرَكَ عَلَى بَكَائِهِ -

بحقِّ

الخيال

الذي

يَدْرُبُ الْأَكِيدَةَ عَلَى رُدَّتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ شِقَاءِ الْكَلْبِيِّ ؛ -

بحقِّ الخيبة تدوّن للمغدورين ، بأفلامها الغبار ، زفير المغدورين : رَمَمَ
النُّظْمَ الخمسة ، نُظْمَ الموتِ المؤيَّدِ بحقائق الخير . أعدِ الموتَ طريقاً يَكْلُمُ
بلسانِ البسّاتين فيه بدور الضلال الخالد .

جروحُ ثلوج ، أيها الشر .

جروحُ هداية ، يا لَكَ :

نُودِيتُ بصوتِ الفاني أن تتكلم على سَأَمِ الخير ؛ أن ترضيه ، في
اختلاله بك ، بشهواتِ الريح - بهلولِكَ ، المُلْقِنِ مُنْشِدَ الشهواتِ عَزِيفَ
العَدَمِ ، إذ يَكْنُسُ العَدَمُ عن أَرْقَةِ الله غنائمَ المجهولِ وطيشَ المعلوم .
نُودِيتُ بهمسِ الخطأِ وصخبِ الصواب :

خطأُ خَلِّ ؛

صوابُ خَلِّ ،

يحفظان كَيْبَرَ الأكيد ، وَلِفْتَهُ ، وَجَزَرَهُ ، وَقِشَاءَهُ ، في قوارير الموت ،
هناك ، حيث تتبادل كاهناتُ الحظوظِ القويةِ شتائمَ الحياةِ للموتى ، وشتائمَ
الموتى للحياة .

هراءُ صوابٍ .

عبثُ صوابٍ :

أَقَمَ معي ، أيها الشر ، في الهديرِ الماجنِ للثرثاءِ تتشققُ من خيانة

الخير ، وغذّر نبوءاته . فصلّل الخير ، ثانية ، بمقصّك - مقصّ الخياط
 الفلكي ، وإبرته وكشّابته . أعدّه ناقصاً كخياله قبلَ تسرّك عليه . لَهْيَ -
 أيها الشرّ المُعَذِّبُ - فتنةٌ من حولنا تَنْتَعِظُ كقصيب الظليم ، فينحلّ إزارُ
 الكون وتفتّق سراويلُ الغراديس :

فُروُجٌ تُعيدُ الخصى إلى صوابها ؛
 خُصىٌ تُعيدُ الفروجَ إلى صوابها .

هراء صواب :

لَأُفْتَقَنَ الصَّوَابَ بِكَ فِي هُمُوجَانِ الْمَكْنَنَاتِ الْمُتَرَجَّلَةِ عَلَى بَابِ الْفَنَاءِ .
 ونازعي ، أيها الشر ، نازعُ الموعود بمآدب تنقاذفُ فيها مغاليقُ الوجود
 بصحون الوجود الملأى هباءً نيّاً ككبد الثور . بصلّك أخضرُ بَعْدُ ، عليه
 شكيمةُ التراب وأنفاسُ المُجَاهَرَةِ الذَّهْبِيَّةِ لِأَعْيَانِ الْأَعْمَاقِ . طَبَعُكَ كَثْمَانُ
 الْمَغِيبِ شُكْرُ الْمَغِيبِ لِلَّيْلِ . سَهْرُكَ عَقْلٌ . قِيَامُكَ شَيْعٌ . قَعُودُكَ شَيْعٌ .
 كُرْأَتُكَ مَا اجْتَهَدْتَ الْحَقُولُ فِي تَعْدِيلِهِ حَتَّى النِّهَايَةِ التَّائِيَةِ فِي أَمَلِهَا -
 أَمَلِ النَّبَاتِ . عِبْرُوكَ غَدٌ يُسْرِي عَنْ غَدِهِ بِكُنَايَاتِ الْعَارِفِ . يَقْلُكُ النَّهَارُ
 مُغْتَذِياً بِسَمَادِ اللَّيْلِ . قَسَمَ أَنْتَ - قَسَمَ الضَّرُورَةُ بِالنَّارِ ، بِالْقَدَمِ الْجَاهِلِ ،
 بِالْأَخْبَارِ مَتَدَحْرَجَةً عَلَى لِسَانِ الدُّعْرِ إِلَى لِسَانِ الذَّهْوِ . لَا تَعِدْ أَحَدًا إِلَّا
 بِالَّذِي فِيهِ . وَلَكَ الطَّوْبَةُ تِلْكَ .

«غَيْرَةُ الْبَطْرِ مِنَ الرَّعْدِ .

و«غَيْرَةُ الْكَمَرَةِ مِنَ الْبَرَقِ» .

أَخْلَى الْبُرُوقَ مِنْ كَمَاتِ الرَّمَادِ .

كَثَمَ الذَّهَبَ كَيْ لَا يَعْتَرِفَ الذَّهَبُ .

شَقَّ قَمِيصَ الْخَالِدِ وَجَرَابَهُ الْمُتَنَفِّخَ بِالْأَمْشَاطِ .

دَوَّخَ الْكُرُومَ بِالْعَنَاقِيدِ تَرَدَّدَ نَدَمُ النُّورِ عَلَى أَحْقَادِهِ .

نَكْلُ بِالشَّفَقِ وَالْغَسَقِ مَعًا ؛ بِالْقِدَمِ ؛ بِبِرَاهِينِ الْخَيْرِ عَلَى أَنَّ الْخَيْرَ
يَقِينُكَ إِذَا حُوصِرْتَ .

نَكْلُ بِالرَّقْمِ الْعَقْلِ ؛

بِالْمَغَالِيقِ ؛

بِالشُّحْبِ الدُّفُوفِ ؛

بِالْأَرْضِ نَافِذَةِ السَّمَاءِ - أَرْقِ السَّمَاءِ ؛

بِالْبَوَابِ ؛

بِالْأَعْمَدَةِ ؛

بِالْأَقْلَامِ ؛

بِالْأَمَلِ مُعْتَصِرًا فِي قَبْضَةِ الْخَيْرِ - تُرْجِمَانِهِ الرِّكِيكَ .

نَكْلُ بِالْأَقْدَارِ الْخَفِيضَةِ الصُّوَرِ إِذَا خُوطِبْتَ .

نَكْلُ بِالمَوَاتِيقِ ؛

بِالْعَتَبَاتِ ؛

بِالْخُمَاثِرِ ؛

بِالْفُرُوقِ تُقْفَلُ الصَّبَاحَ عَلَيْكَ بِقِفْلِ الْمَسَاءِ .

نَكْلُ بِالبَيْعَةِ الشُّجَارِ بَيْنَ الْأَلْهَةِ وَرِعَاةِ غُورِهَا ؛

بِالْجِدَالِ الْمُسْتَهْتَرِ يَتَرَفُّ الْأَدْمَى ؛

بِالْحَقَائِقِ الشُّغْبِ ؛

بِالْقِيَامَةِ ؛

بِالْكَلْبَتَانِ وَالْمَطْرَقَةِ مَعْدَنِي الْغَيْبِ الْأَوَّلِ ؛

بِالْأَفَاوِيهِ ؛

بِالْعِقَابِ الْجَرِيحِ يَتَوَسَّلُ الْعِقَابَ الْجَرِيحِ ؛

بِالْمِيزَانِ ؛

بالهندسة كلها - توريات المغلوبين على شكهم ؛
بالبسيط المُشكّل ؛
بالبهاء المُعْتَلُّ طريح فراش الأشكال .

نَدَمُ الحداثق بين يديك وهي تتحرّ الحداثق على جسور الغيب ، أيها
الشر :

أغلقِ الممرّات .

أغلقِ الجسور .

أعدِ الأنهارَ تتعرّق من جربانها . أعدِ إليها رطانة المياه ، وفصاحة الطين
العالم .

أعدِ الفكرةَ الطينَ إلى سطور الفناء المتعرّجة في الكنّاش الذهب .

أزقِ الخيرَ على فخذيك حتى يسمع الله صلصلة زهرك فيه كصلصلة
الزرد .

مازج الخيرَ بالنّورة تُعدّ به الفروج حليقة يكلم البظر الواضح البظر
الواضح بلسان الغامض .

نَحْ الجَمْرَ جانبًا في عبور الرماد النبي .

كلّ التين الذي يتخلّق من أرقِ الملوك . كلّ البندقة تلك - بُندقة
الجرح الأول ؛

أخيبة الأولى ؛

الكساد الأول ؛

الحياء الأول ؛

القَبْلُ الأولى مُمرّعة في دھول الخالد .

كلّ قرّج يتنفّس الصعداء في خيالك .

كلّ شهوة يتهدّج صوّثها امتنانًا أنك تنفّس الصعداء ، أبدًا ، إذ

تَنْفَسُ الشَّهَوَاتُ الصُّعْدَاءُ فِي خِيَالِكَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

قُدُّوزُكَ تَغْلِي . الطَّهَاءَةُ يَفْرَمُونَ ، تَحْتَ أَبْخَرَةِ الشُّومِ وَالْمُصْطَكِيِّ ، عُرُوقُ
الْخَيْرِ الرَّقِيقَةِ كَالْكَزْبَةِ ، قَارَعَيْنِ بِمَغَارِفِ الْهَبَاءِ الصَّغِيرَةِ عَلَى حَوَافِ مَوَاقِدِ
الْأَجْرُ كَيَّ يَبْعُدُوا الْأَمَلَ الشَّحَادَ - ذِبَابَةُ الْوُجُودِ مَتَنَاثِرًا قَطْرَاتٍ مِنْ شَحْمٍ
عَلَى صَدَقَةِ الْعَبَثِ الْعَرِيقِ .

عَرِيقٌ ، أَيُّهَا الشَّرُّ ، جَهْرُكَ بِمَوَاتِبِ الْخَيْرِ مَنْقُولَةً عَنِ النَّدَمِ - الطَّيْرِ .
عَرِيقٌ تَبْكِيَتُكَ الْخَيْرِ مَطْبُوعًا عَلَى النَّقْمَةِ ، يَحْمِلُ فَاكْهَةً السَّفَاحِ مِنْ
بَسَاتِينَ الْأَلْهَةِ إِلَى نَدَامَى الْمَوْتِ . عَرِيقٌ عَفُوكَ عَنِ الْخَيْرِ فِي نَفَاقِهِ ؛ فِي
غَدْرِهِ ؛ فِي تَحْصِيلِهِ مَشَافَهَاتِ الْعَابِرِينَ مِنْ إِثْمِ الْكِمَالِ الْمُغْتَلِّ إِلَى إِثْمِ
الطَّاهِرِ . عَرِيقٌ دَوَامُكَ فِي تَذْيِيلِ السَّجْلِ الصِّلصَالِيِّ بِمَوَاتِبِ الْأَكِيدِ الْفَاجِرِ .
لَا أَكِيدُ إِلَّا مَا امْتَوَقَفْتَهُ بِشَفَاعَةِ الضَّلَالِ ، وَعَفْوِ الضَّلَالِ عَنْ دَنْسِ اسْتِجَارِ
بِالْخَيْرِ فَأَجِيرُ . لَتَذْهَبَنَّ ، أَيُّهَا الْعَرِيقُ ، بِأَلَّةِ التَّيْبِ ، إِلَى الْبَسِيطِ كَفَنَاءُ ؛ إِلَى
الْمُعْضِلِ النَّبِيِّ ؛ إِلَى الْمَدَائِحِ غَاضِبَةٍ تَهْشُمُ خَزَائِنَ الشَّكْلِ وَتُطْلِقُ سُرَاحَ
الظَّلَالِ .

لَتَذْهَبَنَّ عَنَابَةُ يَتَاوَلَّهَا الرِّيحُ لِلرِّيحِ ؛ مَاكِرًا كَمَكَّرِ الثَّقُفَانِ ؛ أَلِفًا لَمْ
يُجْهِدِ الْحَقَائِقُ فِي خَزْنِ غَمْرِه الْبَازِلَتِي .

وَقُرْبِي هُنَا ، فِي سَرِيرِي - سَرِيرِ الْفُرُوقِ ، سَيَضَعُ الْمَوْفِدُونَ إِلَيْكَ مِنْ
قَضَاءِ التَّسْيَانِ عِظَامَ خَلِيلَاتِهِمِ الْمَذْبُوحَاتِ هَبَّةً لِلرَّجَاءِ الْعَاشِقِ . يَا لِلرَّجَاءِ
الَّذِي فِي سَرِيرِي - سَرِيرِ الطَّبَاعِ كُلِّهَا . خُذْهُ الرَّجَاءُ الْأَجَاصَةَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .
خُذْهُ الرَّجَاءُ الْعَجَلَةَ الْحَدِيدَ ؛ الرَّجَاءُ الضَّرْبَةَ بِرَاحَةِ يَدِكَ عَلَى فَخْدِ الْمَكْنُونِ ؛
الرَّجَاءُ الْمِيزَابِ ، الْبِغْيَاءُ الْمُرْدَدَّ شَهَقَةَ الثَّوْرِ مُعْتَلِيًا بَقَرَةَ الْهَيْوَلِ .

حَمَرُ زَرْقٍ فِي الرِّيحِ حَوْلَ سَرِيرِي - سَرِيرِ الطَّبَاعِ كُلِّهَا . فَهَوْدُ رَمَالٍ .
فَذَكَ يَجْزُرُ الْكَوْنَ إِلَى وَكْرِهِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ . أَلَا أَقْسَمْتُ لِي قَسَمَ اللَّوْنِ أَنَّ شُرُودَ
الْخَيْرِ ، فِي سَرِيرِي ، لَا يُرْضِيكَ . حَظٌّ عَائِثٌ يَرْمُمُ النَّقُوشَ ، وَالْهَوْلُ يَرُوي

للحفظ شقاء القيد الذي قيد به الخير الأوثان النبيلة إلى عتبات المذابح .
أقسم لي القسم البتدق أنك في سريري ، هنا - قرب النقوش النيران على
لوح الماء - تتبع ، مثلي ، أثار قلبك في الأليف المفقود ، والمعلوم المفقود :

قسم لون .

قسم ختان .

قسم نخاريب نخل .

قسم نزاع .

قسم معقولات جناب لتتهم الفجر كورقة الجرجير .

بأي - لا خذلت - ، أي قسم أتولى إخماد الشغب في القبل ، إذ
تتولى القبل إبرام اللثة للخير برجاجة يقينك؟ اطمئن . سأويك كما أويت
الكرز في حدائق المفقود . سأويك ممتنقا ما تعتنقه من مذاهب الطين
المبشر بالآلهة القصارين .

لا تخف : أمان

نحن

ببركة

الموحش ،

وشفاعة

العزلات . كيفما تمرغ الرجاء من حولنا تمرغ في النقاء المستوحى ،
الذي يتضرع - بلسان الصبور - إلى المخو العالم .

لا . لا خذلت :

خلاص منهنك يقرع بعكازه الرواق إلى الآلهة المنهكة ، تحت الفلك
المتدلي عناقل شاحبة . والألم الراوية ، وحده ، يوبخ البطولة بلسان
الكاهن .

لا . لا خذلت :

هَمَجِي المولود هنا ، قرب سريري - سرير المرنى ، في قيود الأفلاك ،
يتقصُّون النهايات المرتعشة لذَّة : عناقُ أعمدة تنهاوى . عناقُ أبراج
وتمائيل . شروخ . وجَع حريز . جهات تَدَكِّدُك . ما مِنْ متاع يُرْفَع . ما مِنْ
أدراج إلا الهول . استَرْقِنِي ، أيها الشرُّ ، إستراقَكَ السَّمْعُ على العريق
العريق . ولننصتْ ، معًا ، إلى خطيِّ الخير في تقدير صوابك إذ كَلَمْتَ
الانقاصَ بكلام الجَمَادِ الرسول ، والهباء العرَّاف . خُمَارَ يعتريني كما
يعترك في الفجرِ الذاهل ، أن يعبر الأحياء مُسْنِدِينَ ، بأكتافهم الأزلية ،
هيكَل الموت المهزول معتصِرًا رأسه من خُمَار الأعراس . أحياء ظلال في
ميزان الظلال . قبور ظلال في ميزان الظلال . لنطوقن الظلال ، أيها الشر ،
بنجوى الأجنحة للأجنحة ، مُنْقَبِينَ بمعاول المرنى عن السماء العرناس في
حقول المئاه الدفينة . وأنقى لنعيدن الغيب ، ناضجًا يذخر للالهة مؤنه :
غمام البحيرات المفقودة ، وملح الصيادين المفقودين في الأرخبيلات
السة ، وفطر أقبية الأبراج ، وباقلَاء المضاتي ، وأرغفة اللهب المنعش
كأنفاس الثوب .

ظلا

١
١
١

لُ في الميزان تَنَسَّمُ الأفوايح القادمة من هناك ؛ من
العراء المترامي خلف أدغال القيقب الرهيف كقلب السنجاب . اغْبِرْ بي
أدغال القيقب ، وأحراش الزيزفون الأحمر . اغْبِرْ بي مصائد العلوم الشفيفة
بين أوراق المُرَّان ، أعلى ؛ أكثر علوًا من سخرية الكنوز ، أيها الشرُّ . ها
أسفل ؛ ترى أسفل أيها الشرُّ : سرقين الأزل والابدي تنمو بخمائره
بساتين الأعالي ، وتكتنز بكيموسيه الطاهر ثمار الجرات حول الجحيم .

لا تخف . داعبِ الحِيلَ بالحِيل ، والمكائدَ بلذائذِ المكائد . ثم اسبقني
إلى فسطاط خيالك ، في السحيق الذي يلي الموت ، كي تؤثثَ لي ما أوثَّتهُ
لكَ في قسطاط خيالي ، خلف السحيق الذي يلي الموت .
أثاثُ أبديةً ، أيها الشرُّ .

أثاثُ نسيانٍ ؛

أثاثُ حُجبٍ ،

ودروعٍ ؛

شفراتٍ ؛

طبولٍ ؛

حليٍّ ،

ومجاهلٍ ؛

أكبادَ ورناتٍ ؛

أفحافٍ ؛

مدارجٍ .

أثاثُ شعوبٍ في التقويمِ الساخر ؛ تُحفَ قهقهاتُ ؛ أمكنةُ تتفَلَعُ
كوسائدِ الملوكِ الغاضبينَ .

أث

أ

أ

أ

أث .

لا غُلَواءَ إنْ دحرجنا المجهول ، معاً ، إلى معلومه ، ونَهَشنا المعلومَ بأنيابِ
المجهولِ المنكوبِ . دمويٌّ يشهدُ للدمويِّ في اللذاتِ ، أيها الشر . كمالُ
دمويٌّ يدور بالأرغفةِ على الشهودِ كلِّهم : سننلقُ السَّمَنَ من الإبريقِ

القمرى على أرغفة الشهود . سنمتصر لهم هجرات الإنسان الطاحنة ، قطرة قطرة ، كزيت الخريف ، على البصل المشوي . سنأخذ منهم اللحم الناضج في أحماض الفاكهة الفجة ، ونعطيههم سطور النبوءات مُدَخَّنة كشحم الخنزير فوق حطب القراصيا . سنعيد ترتيب أعضائهم بشقاء القياس الموافق شُبُهات القياس ، معدودين ، في خيالنا - أيها الشر - أجناساً أسديّة تتلافح بالأمل الزهلول كردف . سنأتيهم من العجالة الدموية في خاطر الحق ، مضمخين ببازهر الوعول ، وسننشرهم دُرُقاً على بذور المعجزة في أحواض النسيان الأجرية . هم زعارة الخير ؛ الشهود الخول ؛ علافو مراتب الذهبى في الخسوف . الشهود الكمان ؛ سمس الثور متساقطاً من رغيف الفردوس على صفك أيها الشر . سننحر أقدارهم - أقدار التنين مُجَرَّراً على مقابض الأبواب المنسية . فلنغرض الشهود ، أولاً ، على الكمال الدموي ، زهر النسيان المتشاغل بالتطاريز ؛ النسيان الختم ، النسيان الموائيق المتتحلة بتواطؤ الماء مع الله . فلينشروا قلوغ المياه على صواري اليابسة ، مُتَهَذِّينَ الفناء ، في أمره الثالث ، بئسرى الخلاص الدموي . شـ

هـ

هـ

و

وَدَّ صدوع في الصخرة المحمولة على كتفك ، أيها

الشر .

فلنخرجوا بهائم الروح إلى المراعي بخطوات هي أنساق الإرث المكتنز كسلاً في الإصطبل ، آمنين كبرهان يتخاطف جوزه القردة المشدوهة بالكثيب الإلهي ، حيث لا شيء ، بقُدْ ، إلا المحكم المتقوَّض كبرهان . فليريقوا على الأرض ماء المعدن المغسول أربعاً ، تحت الغمام المغسول أربعاً ،

مُتَّحِدِينَ فِي الصَّوْتِ الَّذِي يَتَكَامَلُ رَنِينُهُ بِدُخُولِ الْهَوَاءِ عَلَى أَبِيهِ الْمَوْتِ .
فَلْيَتَحَدَّرُوا مَعَ زَيْتِرِ الضَّبَابِ الْجَرِيحِ إِلَى الْغَابَاتِ ، يَعْصُ الشُّرُوقُ مِنْ حَوْلِهِمُ
الشُّرُوقُ عَصُ الْأَكَاسِيَا ظِلَالُ الْأَكَاسِيَا ، أَيُّهَا الشَّرُّ . فَلْنَدْلِهِمْ ، بِأَجْمَعِيْنِكَ
أَيُّهَا الشَّرُّ ، وَأَجْمَعِيْنِي ، عَلَى السَّمَاءِ الْمُحَاةِ تَتَهَدَّدُ سَطُورُ الْأَرْضِ الْمُتَدَاخِلَةِ
كَعُثْنُونَ الْعَدَمِ النَّبَسِ وَأَثَارُ أَظْلَافِهِ . هَا دَجَاجَاتُهُمْ - دَجَاجَاتُ الذَّهَبِ
الْغَرِيقَةِ فِي الْفَجْرِ الْمُلْفَزِ . هَا صِيَاحُ دَيْكَتِهِمُ الْغَرِيقَةِ فِي ذَهَبِ الْفَجْرِ الْمُلْفَزِ .
هَا فَجَرُهُمُ الْغَرِيقُ فِي لَوْعَةِ فَضَّتِهِ . تَعَالَى أَيُّهَا الشَّرُّ نَدْرَبِ الْفَجَرَ عَلَى
دَسَائِسِ النِّقَاءِ الْفَاجِرِ . تَعَالَى نَسْتَنْبِتِ الْفَجَرَ ، ثَانِيَةً ، كَالْهَلِيلُونَ ، مِنْ بَزُورِ
الرَّمَادِ الضَّاحِكِ ذَاتِهِ . وَلْنَدْفَعُهُ ، مَعًا ، إِلَى الْجَلِيدِ الْمُؤَزَّقِ مِنْ وَخِي لَا يَأْتِيهِ
بِأَشْعَارِ الْمَهْجُورِينَ . تَعَالَى نَدْحَرِجِ الْفَجَرَ إِلَيْهِمْ فِي غَضَبِ الشَّجَرِ ، وَغَضَبِ
الْقَصْدِيرِ ؛ فِي الْغَضَبِ الزُّبْرَجْدِ ؛ فِي السَّمَاقِ ثُبُلَتْ بِهِ الْأَكْبَادُ ؛ فِي
الْغَضَبِ الدَّيْدِيَانِ مُجَقَّفِ الْأَفَاقِ كَالزَّبِيبِ . الْمَدَافِيءُ مَنْتَعِشَةٌ أَيُّهَا الشَّرُّ .
مَنْتَعِشٌ رَقْمُ النَّارِ فِي هَذْيَانِ الْفَاكِهَةِ . أَتَرَى ؟ أَقْحَوَانُ صَنَاجِدَةٍ يُنْشِدُ
لِلضَّفَافِ الْمَعْتَوَةِ مَا نَسِيَهُ طَيْرُ الْقُوقِ . أَتَرَى ؟ تُحَفِّ صَدُوعٌ ، وَوَرَقُ حَوْرٍ
رَهِيْفٌ كَشْفَرَةِ الْعَدَمِ يَقْطَعُ الْوَرِيدَ النَّافِرَ فِي مَعْصَمِ الْمَسَاءِ . وَهَمْوُ ، الشُّهُودُ ،
يَقْطُرُونَ مِنَ الْوَرِيدِ الْمَقْطُوعِ دَيْنَنَا

دَيْنَا ؛

خَوَارِقُ ؛

طَلْسَمَاتُ ؛

نَفِيرًا مِلْءَ بَوْقِ الْكَسُوفِ ؛

تَيَّرْتَجَا ؛

أَكَارِعُ ؛

فَيْعَ خَنَازِيرَ ؛

أُكَالَةً .

همو ، أيها الشر ، رَصَدُ الخيرِ حَمَامَكَ الرَّاجِلَ حَامِلًا مَوَاتِقَ
 المعصومين إلى الضلالِ المعصوم . أَعْنِي أَدَاهِمِ النَجْمَ الثَّالِثَ ؛ الْقِدَمَ
 الثالث ؛ البوابة المنعكسة بشموسها الثلاث على درج الخير مُتَنَكِّرًا في قناع
 شَحْم . أَعْنِي أَمْرِغِ الشهودَ في شحم الملاك الذائب تحت أثقالِ النسيان ،
 وَأَحْشُدْهُمْ ، رَكْلًا بِقَدَمِ اليقينِ الحافية ، إلى المأدبة :

حروبٌ نَقِيَّةٌ . حُمُصٌ نَقِيٌّ . خَبَازٌ لِسَانٌ يَسْتَنْطِقُ مَلَحَ الذُّبَاغَيْنِ .
 حَصْرَمٌ مُسْتَنْطِقٌ . جِيوشُ زَيْتٍ مُغْتَصَرٌ مِنْ زَيْتُونِ الْمُنْحَذَرَاتِ الشَّرِيدَةِ .
 وَرَقٌ نَارِدَيْنِ لَاهِتٌ . دَقْلِي فِي النَّبِيذِ الْمَسْمُومِ . نَهَايَاتُ مُرِيَّةٌ فِي بَشَارَةِ
 اللوز . عَسَلُ دَاوُدَ . دَمُ الْأَخَوَيْنِ طَيِّبًا تَنْتَفِسُهُ الْقُدُورُ . قَشَاءُ الْحِمَارِ ،
 وَالْفَصْفَصَةِ . الذَّارِصِيْنِي الرَّمَاخُ فِي قَلْلِكَ الْأَقَاوِيهِ الثَّانِي . دَهْنُ
 الْمَرْزَاجُوشِ ، وَحَبَقُ الْبَقَرِ . الْبَقْلَةُ وَالتَّوْتُ مَسْحُوقَتَيْنِ فِي الثُّوْبَالِ .
 حَشِيْشَةُ الْعَقْرَبِ النَّابِتَةُ فِي مَقَابِرِ الْغُرُقَى . عَنَبُ الثَّعْلَبِ ، وَالْكَرَاوِيَا .
 الْمَامِيرَانُ الشَّبَقُ . أَسَدُ الْعَدَسِ . الْجَنْطِيَانُ الْجَبَلِيُّ الْمُخْتَمِرُ فِي هَوَاءِ
 السَّهُولِ . الْخَشْخَاشُ الرَّزِينُ . الْوَرَسُ مَجْفَقًا تَحْتَ سَقُوفِ الزَّرَائِبِ .
 الْقَلْقَاصُ - طَمْتُ بَسَاتِينِ الْحَمَقَى . الصَّعْتَرُ حَالِمًا . خُصَى الثَّعْلَبِ
 ذَوَاتُ الْوُرَقَاتِ الْمَهْرَجَةِ . الرَّاسَنُ الْأَصْلُ الْحَرِيفُ . السَّرْخَسُ الْبَهْلُولُ .
 شَوْكَةُ الْقَبْطِ وَشَوْكَةُ يَهُودَا . بَصْلُ الْفَارِ الْمُرْشَدُ إِلَى بَاهِ عَاقِلِ . الْمَازَزْيُونِ
 - أَسَدُ الْأَرْضِ . قُوَّةٌ وَقُوفَلٌ . لُوبِيَاءُ السُّودَانِ . الْمَلُوخِيَّةُ - قَدَرُ الصَّمْغِ
 الْخُجُولِ . الرَّبَّاسُ الْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ مَلِكِ الْبَرْخِ . سَيِّكَرَانُ الْأَسْوَارِ
 الْمُبَاعَقَةِ فِي الْمَرَايَا . الرُّعْرُورُ الْمَسْحُوقُ بِمَدَقَةِ اللَّيْلِ . سَدَّابُ السُّهُوبِ
 التَّتَرِيَّةِ . لِسَانُ الْعَصْفُورِ - الدَّارُكِيْسَةُ النَّاطِقُ بِهَجَاءِ حَدَائِقِ الْهِنْدِ . بَزْرُ
 الْكَرْفَسِ نَابِتًا فِي آثَارِ الْأَلْهَةِ الْهَارِيَةِ .
 لَا تَخَفْ .

نَوَافِجُ مِسْكِ مَمْزُقَةٍ عَلَى سَرِيرِي - سَرِيرِ الْمَلَكَاتِ الْمَذْهُولَةِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ

المُرْشِدُ بِحَصَافَةِ الْجَوْهَرِ إِلَى لَذَائِذِ الشَّكْلِ الطَّلِيقِ بِلَا نَهَايَةٍ .
لَا تَخَفْ

جَاوِرُنِي ؛ جَاوِرِ الْجَلَالَ الْأَعْمَى يَتَلَمَّسُ بَعْصَا النِّسْيَانِ كَنُوزِهِ الْمُتَنَثِّرَةِ
فِي دَهْلِيزِ الْجَوْهَرِ - لَذَائِذِ الشَّكْلِ الْأَثِيرِ بِلَا نَهَايَةٍ . قَشَّرَ الْكَوَاكِبَ هُنَاكَ ،
فِي النِّهَايَةِ الْمُقَشَّرَةِ بِمَدْيَةِ الْفَرَاغِ الطَّاهِي . وَقَسَّ الْوَسَائِطَ الْكُلِّيَّةَ بِأَشْبَارِ
النُّشْخِ ، تَحْتَ بَصَرِ الشُّهُودِ وَهُمْ يَقْسَمُونَ الْبَسِيطَ غَيْبًا غَيْبًا بِعَبُورِ جِيَادِهِمْ
الْجَرِيحَةِ مِنْ خُنَادِقِ الْفَرْدُوسِ الدِّمُوءِيِّ إِلَى الْأَبَدِ الدِّمُوءِيِّ . أَرِ الْأَحْوَالَ
نَوَاعِمِهَا . أَرِ الشُّهُودَ شَعَائِرَ الْمُعْزَقِ الْعَذْبِ ؛ شَعَائِرَ النَّدَمِ الْعَذْبِ ، وَحُمَى
النُّشْرِ فِي انْتِقَالِهِ مِنَ الْعَبَثِ الْأَلِيفِ إِلَى الْعَبَثِ الْأَلِيفِ . أَرِهِمُ الْأَرَابَ
الْحُلَاسِيِّينَ - عَقَارِبَ الْحَقِّ الْمَرِحِ فِي حَلَبَاتِ الْأَشْبَاحِ .

نَقَاءَ ذَبِيحٍ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .
سِجَالُ ذَبِيحٍ بَيْنَ طَوَائِفِ الْكَعْمَرَى .
عَقُودُ ذَبِيحٍ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّمْسَمِ .
ذَبِيحٍ فِي الْكَلِمَاتِ مُذْ تَسَلَّمَتْهَا
هَكَذَا مِنَ اللَّهِ ، وَأَعَدَّتْهَا مُتَخَبِّطَةً فِي الدَّمِ إِلَيْهِ .

يَا لِلذَّبِيحِ :

عَقَابُ ذَهَبٍ يَسْتَعْجِلُ الْعَافِيَةَ أَنْ تَتَأَهَّبَ ، بِنَايَاتِهَا وَدَفُوفِهَا - دَفُوفِ
النُّهْبِ ، لِعَبُورِ الْخَيْرِ وَأُمَمَاتِهِ النَّسْعِ اللُّوَاتِي هُنَّ غَنَائِمُ التَّيْبَةِ ذِي الْأُمَمَاتِ
النَّسْعِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ . الْقِيَامَةُ . الْقِيَامَةُ . اسْمَعُهَا فِي أُنَيْنِ الْأَغْلَالِ مُتَضَرِّعَةً
إِلَى الرِّقْمِ الْمَحْظُورِ ؛ الرِّقْمِ الشُّعْبِ مُحَاصِرًا بِمُتَجَمِّمِيهِ الرُّسُلِ - أَوْلِيَاءِ اللَّوْنِ
الْقُرْآنِ - حَقُولِ الْغَيْبِ ذِي الشُّعْبِ النَّاصِحِ فِي سَنَابِلِ مِنْ رَسُومِ الرُّحَالَيْنِ .
دُلَّ الْقِيَامَةَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ ، عَلَى شِبَاكِهَا فِي نَهْرِكَ ذِي الزُّثَيْرِ يَنْحَرُ كُلُّ مَاءٍ فِي

مائه ابتهاً إلى غابات الرُّيد ، فلربما تصيّدت القيامة فيك أحوال طمّشها :
 الحيتان ، والحبار . السمك الرُّعاد . الأخطبوط . الدلفين . الورنك . القرش .
 جراد البحر ، واسقمريّات الغواية . البحر كلّ معاصير القيامة : زيت
 للعنات . زيت للإيلاج الرُّخي من مضائق الظلموت إلى مضائق الثور ،
 أيها الشر . فأذع القبل المهجورة والجسد الشاغرة إلى ما أخطأ الخير في تأويله
 من كنايات الهباء الطحان ، واغجن الثفيس في المعجن القديم ذاته -
 معجن الشكل .

نفي

يـ

يـ

يس !

لأغسلن يديك من الثفيس البتول مُفترَعاً في إنشاد الخير للقضاء
 المُفترَع ابنة ابنة تحت خيام النورانيين - حَمَلَة النبي ، في آلات الإيمان
 الخمس ، إلى خصى الآلهة كلّها . لأنجبن لك ، بالعضلة السكرى في
 لسان الوقت ، كلمة الكمال الثالثة - كلمة الشهوات . لأعثرن بك على
 خزانة الموتان الساقطة من عقود النساء ؛ على الحقول التي تقود إليها ماعزك
 الفلكي وضأنك - وضأن الكلي العلاف ؛ على مصارع الملائك في خل
 التوت ؛ على النكبات الساهرة متأملّة لوعة الذهب في منطق الغيم ، وفي
 عناد الشكل الخالق . لأذفرن عليك ، إن وعكت ، دموع الحقائق من عيون
 الشجر ، والماء ، والرمل . خلّ عنك ، أيها الثقل الرهان ، أحمال البرزخ ، إن
 أنت إلا دورة الظل العاقل حول خيال النبات ، في خريفه المتوَعك من
 عودته ظلاً عاقلاً ، أيها الشر .

آلاً لا ينظّلن عليك الزفير الخافت للآلهة ، والشهيق الخافت

للآلهات : هُمْ مَازِقُ الْكَمَالِ فِي سَخَائِهِ الْمُتَجَلِّلِ . هُمْ مَازِقُ الْخَيْرِ . هُمْ مَازِقُ
السَّمَاءِ الْمُحْتَجِّزَةِ فِي عَقْلِ النَّدَمِ .

خَيْرٌ نَدَمَ كُلُّ هَذَا .

خَيْرٌ يَسْتَعْرِضُ الْكَمَالَ مَازِقًا مَازِقًا فِي مَرَاتِكَ . مَازِقًا مَازِقًا أَعِذُّهُ ، فِي
مَرَاتِكَ ، إِلَيْهِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

وَأَنَا ، مَتَأَذِّبًا بِإِرْثِكَ - إِرْثِ التَّدْبِيرِ اللَّامُحْتَسَبِ ، لَأَعْبِثَنَّ بِالْخَيْرِ عِبْثَ
الرَّمْلِ بِالرَّيْحِ ، وَلَأُشْغِلَنَّ دَهَاقَتَهُ بِالسَّمَاءِ الدُّوَلِ وَأَرْضِهَا الْهَيُولَى . أَمَّا أُرَانِي
أُخْلَعُ أَوْتَادَ الْقَدَمِ فِي فَنَاءِ الْقَدَمِ فَتَنْهَارُ خِيَامُ الْغَيْبِ؟ بَلَى . ثَارَ اللَّوْنِ ثَارَ
قَلْبِي مَتَى مَازِقُ الْحَقَائِقِ قَفْزَةُ الْبَهْلَوَانِ مِنْ أَسْوَارِ اللَّهِ إِلَى هَاوِيَةِ الْيَقِينِ ،
وَرَدَّدَتْ إِلَى الْخَيْرِ الْأَعْمَى عَكَازَهُ - عَكَازَ الْعَابِرِ يَغْرَاسِ الْقَتْلِ إِلَى الْحَدَاقِ ؛
مُذْ لَقَنْتُ الْجَحِيمَ مَشَافَهَةَ النَّارِ وَجَدَالَ الْخَوْفِ . بِتَرْفِ الْيَأْسِ ، لَا بَغْيِهِ ،
أَعْمِدُ نَفْسِي أَمَلًا فِي الْوُجُودِ الْمُنْتَسِي ، الْمُرْمَمِ زَخَارِفِ الرَّعْدِ ؛ الْوُجُودِ
الْعَصِيَانِ ؛ الدَّلَالِ فِي أَسْوَاقِ الْمَشْكِكِ . وَجُودٌ عَرَقٌ يَقَطُرُ مِنْ صَدْعَيْكَ ، أَيُّهَا
الشَّرُّ ، فِي إِحْصَانِكَ أَثَامَ الْخَيْرِ مَوْزَعَةً عَلَى جِيرَانِ الْآلِهَةِ . وَجُودٌ عَرَقٌ يَقَطُرُ
مِنْ صَدْعِي وَأَنَا أَكْلَمُ جِيرَانِ الْآلِهَةِ ، مُحْتَدِمًا ، كَأَنَّمَا أَثَارُوا طَيُورِي - طَيُورَ
الرَّائِي فِي أَقْفَاصِهَا النُّورَانِيَةِ ، وَأَفْزَعُوا الْكَوْنَ الثَّابِتَ تَوًّا فِي الْأَحْوَاضِ لَصَقَ
الْكُزْبَةِ وَالشُّومِ - رَوَايَةِ التَّرَابِ الْمَاجِنِ . جَفَفَ صَدْعِيكَ مِثْلِي ، أَيُّهَا الشَّرُّ ،
بِمَنْدِيلِ الْإِثْمِ الْأَزَلِيِّ ، الَّذِي سَقَطَ مِنَ اللَّهِ فِي خِمَائِرِ الصُّورِ . فَلْتُعِدْ الصُّورَ
إِلَيْهِ ؛ فَلْتُعِدْ إِلَيْهِ هِبَاتِ خِيَالِهِ - خِيَالِ الْإِثْمِ ؛ فَلْتُعِدْ إِلَيْهِ الْمَنْدِيلَ مَرْقًا فِي
عَبْرِهِ مِنَ الْإِيْدِي إِلَى الْإِيْدِي ، مَعْتَذِرِينَ إِلَى الْفَنَاءِ كَيْفَ أَهْنَاهُ بِمَدْيَحِ الْخُلُودِ
الْمُسْكَنْجِ فِي أَرْقَةِ الْخُسَارَاتِ : «أَيُّهَا الْفَنَاءُ الْجَرِيحُ ، يَا الْمُعَذَّبُ كَالْحَدَاقِ . يَا
النُّحَالَةَ مَتَنَازِعَةً حَوْلَ أَجْرَانِ الرَّجَاءِ ، أَطْبِقْ يَدَكَ عَلَى خَصِيَةِ الْغَيْبِ نَسْمَعِ
الْغَيْبِ مَتَنَحِبًا يَعْتَرِفُ بِأَبْوَةِ التَّيْهِ » . فَلْتُعِدْ إِلَى اللَّهِ خَاتَمَ الْكَمَالِ ذِي
الشَّقِيقَاتِ النَّدَابَاتِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

عريقُ فوزي بك ، لا تخف :
 غدرٌ كمالٌ يَفْصِلُ المَواثيقَ للخيرِ بِمَقْصَآتِ الباطنِ . وأنا ، بِمَقْصَ المُمكنِ
 الطراز ، أَشَقُّ سِراويلَ الخيرِ ، وأَقطعُ أَرْزَارَ قِمصانهِ في المِناهِ الجليدِ .
 ثيابُ تُرمى ،

حَقائِبُ غيب :

أَحْذِيَّةٌ مِنْ رِمالِ المِلائِكِ تُرمى مِنْ التَّوافِذِ إِلَى المِناهِ الجليدِ : «أَيُّهَا
 الجليد ، يا شَقِيقَ المَعانِي المَتَكَوِّمَةِ عَلَى نَفْسِها فِي البِياضِ الطَّعِينِ ، خُذْ
 أَرْزَارَ قَمِيصِي ، وَحِزَامِي . جِيوبِي مَلأى بِمَداعِبِ الحَقائِقِ لِلحَقائِقِ ؛
 بِالْعُلُومِ الأَبَدِيَّةِ ؛ بِقَهَقِهاَتِ النِّفائِسِ ، وَحِشْرَجَةِ الرِّقَمِ المُخْتَصِرِ بَيْنَ يَدَيَّ
 الرِّقَمِ . هَيْكُ ، أَسْمَعْنِي أُنِينَ أَمَلِكِ . أَعْطِنِي التَّوَابِلَ الحِشْنَةَ وَالْمَلْحَ الحِشْنَ ،
 لَأَتَدَبَّرَ لِلنِّهايَةِ ثَرِيدَ العِظامِ الدَّسِيمِ ، وَأَتَدَبَّرَ نَفْسِي مَطهُوَّةً فِي أَجْرَةِ الوَعْدِ
 الخالدِ » . سَمَاءٌ طَهُو . مَحَاكَاةٌ طَهُو . مَجادِلاتٌ مِنْ أنْفاسِ المَذْهولَيْنِ مَطهُوَّةٌ
 بِقَلْقِ الغارِ وَالقافَلَةِ . لَنْ أُنْتَظِرَ القَدَرَ أَنْ يَنْضِجَ أَرَقُّ اللّهِ فِيها . سَأَحْدُ الأَرَقَّ
 إِلَيْهِ مَقْطُراً مِنْ خِمارِ الفاكِهةِ الذَّابِلَةِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ . وَبالوَعولِ الثَّمانِيَةِ أوْلايَ
 - الوَعولِ الحَرْفِيَةِ سَأَدْخِلُ النِّقْشَ الحَرْفِيَّ عَلَيَّ أَعْمَدَةَ العُلُومِ كُلِّها ، مَتَضَرِّعاً
 إِلَى اللُّونِ - شَقِيقِي : «أَيُّهَا اللُّونُ ، يا ابْنَ الأَمْهاتِ التَّسْعِ يَفْرَمُنَ البَصَلَ
 عَلَى شُرْفَةِ القَدَمِ ، لا تَخْجُبْ عَنِّي أَخْتامَ العائِلَةِ ، وَرِسُومَ أرواحِها . أَرْنِي
 اللَّيْلَ فِي ثِيابِ أَخْتِكَ . أَرْنِي الحِزْنَ ، الَّتِي أَضَعْتُ فِيها - بَيْنَ الحُلِيِّ
 الحَدِيدِ لِلخِلاصِ الحَدِيدِ - مِذْنَبِي الصَّغِيرَةَ . تَتَذَكَّرُ - شَقِيقِي أَيُّهَا اللُّونُ -
 كَمْ أَطْعَمْتُ طُفولَتَكَ رِقاتِ السَّرِّ مَرْمُوعَةً فِي طَحِينِ الذُّرَّةِ ، وَسَرَدْتُ عَلَيْكَ ،
 كُلَّ مَساءٍ ، حِكايةَ قَلْبِي ذَاتِها - حِكايةَ المَفْقُودَيْنِ تُروى لِلْمَفْقُودَيْنِ . كُنْتُ
 اللُّونُ مِذْ أَقْسَمْتُ الطَّبائِعَ بِي أَنْ تَكُونَ شَقِيقِي اللُّونُ ؛ مِذْ أَقْسَمْتُ قَسَمَ
 الوَحْدَةِ أَنْكُ ابْنُ أَمْهاتِي التَّسْعِ يَفْرَمُنَ الوُجُودَ بَصْلَةً بَصْلَةً لِعِشاءِ أَبِي العائِدِ
 مِنْ حِرارَةِ السَّماءِ . جُنُّ الحِذَاقِ . جُنُّ أَنْتِ أَيْضاً فِي عِبورِكَ بِهِمِ الجَسَرِ .

سأبري الأقلامَ كلها بمبراتك التي حفظتها في خزانة الأنين . لن أدوّن شيئاً . سأبري الأقلامَ ، ثانيةً ، بمراتي . سأقضمُها بأسنان السطور المنصرفِ ، بعد التدوين ، إلى شؤونها . لن أبقى قلمًا . سأبريها بزيتاً تلو الآخر حتى يختبل الرصاصُ في غلافه الخشبيّ ، ويتهتك . مُذني صغيرة ، شقيقي أيها اللون . ما الذي حفظته في خزانتك لي غير الكتاب الممزق في صفحته العاشرة؟ شكٌ دراقٌ يَغْلِبُ مزاجي المتقلب كرهانِ الفاكهة على خسارة التوت . خبيءٌ ما تشاء . لن أكشف للموت انتقامك المعلن من الموت ، أيها اللون .

سأنتظر

القدر

أن

ينضج

فيها

أرقُ الله .

أين الطهارة ، أيها الشر؟ عَجَلُ بي . هاتِ الدارصيني وألسنة الضأن مقشرة بعد السلق . هاتِ زيت الزيتون التفل ، وتوابل العدم القوية . هاتِ المقلاة التي احترق حديدُها سبعةً من سهو الله عن النار . هاتِ مشيئة المعاني المؤدية بأداب النار . هاتِ العيث مُدَخَّنًا بالممكنات المدخنة ، أبداً ، في أفران السحيق السحيق . هاتِ النهاية مُمزقة في عرباتها السائرة على عجلاتٍ طينٍ .

صوابٌ وقتٌ .

خطأٌ مكانٌ .

صوابٌ مكانٌ .

إنها المسألة مستعصية على البهاء - علاف البغل . مستعصية رطانة
النور على الظلال المدربة على فصاحتها . والسنباب الأخير يفتح الشجر
بالمسألة المستعصية على الغاية : ثرواتي هذه ، أيها الشر ، مَذْ تَذَوَّقْتُ القُبْلَ
جريحةً بلساني ، وبكيت الأفق بكائي في كل ربح . مَذْ رأيت أخت الماء ،
العارفة بشؤون الحصى ، أبعدت وصيفتها لتخلو إلى غرق الغرقى . ناد معي
الغرقى ، أيها الشر : «صنّفوا الموت فكاهة فكاهة . صنّفوا العيب فكاهة
فكاهة . صنّفوا المواثيق فكاهة فكاهة . صنّفوا رسوم الليل على رخام
الرسوم ، والمجاهل ، والرقم الخالد فكاهة فكاهة . صنّفوا المعلوم فكاهة
فكاهة . صنّفوا الخسارة فكاهة فكاهة . صنّفوا أثر المراثي في وَحْلِ اللامرئي
فكاهة فكاهة . صنّفوا انتقام الينايع ، وطلاء النهار المنقشر عن البوابات
فكاهة فكاهة . صنّفوا أخوات القلق ، الأكباد الممزقة ، الريحان الممزق في
النوافذ ، هزل اليقطين ، فكاهة فكاهة . صنّفوا نشيج الماورد ، الحديد
الواشي ، مروق الأقلام على الأقلام ، القرابين المحففة كالتين ، خذلان
الحجر للحجر إذا استغاث ، الرماد الممتن لجلال رفعتة ، الفراغ . . . صنّفوها
فكاهة فكاهة . صنّفوا الوغد ،

النسيان ،

الصور ،

هرطقة الظلال ،

الغزلان في النشيد المنسي ،

الهدنة تلك ،

الشفاعات - دعاميص البركة الأزلية ،

زهر الميموزا المختنن ،

حشفة الحريق وبظر أخته ،
صنّفوا صمغ السندروس ، وكبريت الملوك المحمومين ، فكاهة فكاهة ،
أيها الغرقى .

رطل نبوة مجروشاً .
ثلاثون دانقاً من نحنحات الرطط الصامت - آباء الحجر .
إردب نشاراً .
أقتان من أثر الفهد في حيرته .
وسق من رماد الغد .
قسطنان نحياً .
قفيز واحد طافح بعلوم تتفصد عرقاً .
مد من السيكران :
هذه خمائر الرغبة ناضجاً في ثنونا ، أيها الشر .

سما سفاح ، ناضجة أيضاً ، فوق صفك . أرنيها السماء السفاح -
خيلتك المهجورة أيها الشر . أرنيها مهزولة في قناع الأرض السفاح . أهل
التراب على السماء بالرؤس في حفرتها - حفرة السطور الممزقة في الكتاب
الممزق فوق سريري . اذنها سبعا في الجاهل السبعة . أثبها سبعا من
الجاهل السبعة عمياء تتفقاً نجوئها - الدمامل . انثرها غباراً على ثمر
العرفج الخشن في السهول المحتضرة - سهول الأشباح مصغين ، في
انكسار ، إلى الزيزان .

سما

|||

|||

أَعْرِفْتُهَا السَّمَاءَ فِي أَكْيَاسِ الْخَيْرِ؟ وَفِيَرُ يَقُولُ الْأَعَالِي فِي حَقْلِ الْخَيْرِ
 مُتَعْتِدِيًا بِالسَّمَاءِ السَّمَادِ . وَفِيَرُ حَلِيبُ الْمُفْضَلَةِ - بَقَرَةُ الْعَمَاءِ : ضُرُوعُ فِرَاسِخُ
 مَلَأَى فِي الْفَرَاغِ الْيَقِينَ . قَرَبَ فَمَ الْخَيْرِ مِنَ الضُّرُوعِ الْفِرَاسِخِ . لَقَمَهُ الْحَلَمَةُ
 الْخَوْفَ فِي الضُّرْعِ الْأَوَّلِ ؛ الْحَلَمَةُ الْعَذَرُ فِي الضُّرْعِ الثَّانِي ؛ الْحَلَمَةُ الْأَرْقَى
 فِي الضُّرْعِ الثَّالِثِ ؛ الْحَلَمَةُ التَّرَابُ - سَيِّدَةُ حَلَمَاتِ الْأَفْلَاكِ الْإِمَاءِ . لَقَمَ
 الْخَيْرَ كَبَدَ الضُّبِّ . رَفَّقَهُ بِمَطْرَقَةِ الْفَجْرِ عَلَى سِنْدَانِ الظَّهْيَةِ . أَعْجَنَهُ
 بِالسُّمَيْدِ وَبِالْبَلَنِ . جَفَّقَهُ لَشِتَاءِ الْغُرُقَى فِي رِيَّاحِ السَّهُولِ الْمُحْتَضِرَةِ - سَهُولِ
 الْأَشْبَاحِ مُصْغِينَ ، بِسَمْعِ الْجُرُوحِ ، إِلَى الزَّيْزَانِ .
 لَا أَقْدَارَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

زَيْرَانُ .

كَهْوفُ أَفْلَاكِ .

مُضَاتِقُ .

أَصْدَاءُ مَشَاجِرَاتِ بَيْنِ الْحَسَبَةِ يُقَسِّمُونَ اللَّيْلَ كُسُورًا عَلَى أَرْقَامِ
 الْمُضَاتِقِ .

ظِلَالُ تَقْضَمِ الْجَبَلَ .

كِرُومٌ تَسْتَعِيرُ مِنَ الصُّبَارِ قَلَقَ الصَّيْفِ عَلَى الْخِرَاتِقِ .

مَعَارِكُ قُبَرَاتُ .

غَفْلٌ نَقَشَ عَلَى جُدْرَانِ الْحَلَبَاتِ يَتَأَوَّلُهُ الْأَدْمِيُّ تَأْوِيلَ اللَّهِ أَدْمِيَّةَ الْعَقْلِ
 النَّقْشَ عَلَى الْخَلَاءِ الْمَهْجُورِ .

لَا أَقْدَارَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

أَعْيَادُ إِنْكَارُ .

شَفَاعَاتُ كَالِدَبِيَّةٍ تَتْرَكَ أَثَارَهَا عَلَى ثُلُوجِ الْحَرُومَيْنِ .

شَجَرٌ يَلْقَنُ الشَّجَرَ أَدْوَارَ الثَّانِيَةِ فِي الْمَكَانِ :

«أَيُّهَا الْمَكَانُ الْمَشْدُودُ ، الْآخِرُسُ ، الْمُتَعَثِّرُ بِالْجُثَثِ ، الْأَعْمَى ، الْمُثَقُوبُ

كجيبٍ مثقوبٍ؛ أيها العَجُولُ في الرُّسْمِ بأقلامِ الخمائرِ، المرتعدُ في الرؤيا المرتعدة، الحَلَّاقُ ذو المقصِّ المكسورِ، الرطانةُ من فمِ المعلومِ الحائرِ، الكَلْبُ، اليُهَاقُ على جِلْدِ العانسِ، الرَّمَدُ، المِبرأةُ، النَّسَقُ المتأففُ، الرذاذُ؛ أيها المكانُ الزيتُ المحترقُ في مِقلَةِ الأحوالِ، الجِلْدُ مجفَّقًا قبل دِباعتهِ، الجِعةُ المهركةُ من قواريرِ المراثيِ، الصَّمْعُ؛ يا المكانُ الذي يُقْضَمُ كالآظافرِ نَدَمًا، أَلْكَ سَاخِرٌ. سَاخِرَةٌ خَرائِبُكَ. عَذَابُكَ فَحْلٌ، مَرِحٌ. تَبْذِرُكَ الحَقِيقَةُ المضحكةُ دراهمَ مضحكةٍ في أسواقِ النِّبَواتِ».

لا أقدارُ أيها الشرُّ.

سأكلُم جيرانِي - جيرانَ الماءِ.

سأكلُم جيرانِي - جيرانَ الكتابِ على رِفِّ الشُّفُقِ الثالثِ :

«نَارٌ مَقْشُورَةٌ كَحَنِينِ الهَارِبِ بَيْنَ يَدَيَّ. نَارٌ عِرْنَانُ دُرَّةٍ. نَارٌ مَوْزٌ مَقْشُورٌ. نَارٌ تَعَبٌ مَقْشُورٌ. نَارٌ كَسْتَنَّةٌ مَقْشُورَةٌ. نَارٌ كَالْتِي سَهَرْتُمْ مَعَ الْغَدِّ قُرْبَهَا، مُسْتَلْقَيْنِ عَلَى رِمَالِ الْخَلِيجِ الرَّابِعِ - خَلِيجِ الْعِرَافَيْنِ، هُنَاكَ، فِي مَنَابِتِ الْمَغِيبِ ذِي الْعُشْبِ الْخَشَنِ. سَأَهْدِيكُمُ النَّارَ الْمَقْشُورَةَ أَيُّهَا الْجِيرَانُ: لَنْ تَكُونَ لَكُمْ قُبَلَاتُ الْعَاشِقَيْنِ، بَلْ كَابَةُ الْغُفْرَانِ فِي مَهَاجِعِ الْأَلْهَةِ الْكُشِيبَةِ. وَسَيَكُونُ قَلَقُكُمُ قَلَقَ الْبَسِيطِ الْمُرْتَجِفِ مِنْ جَوْهَرِهِ الْبَسِيطِ. قُوَّةٌ كَالنَّدَمِ سَتُرَوْنَ سَطْوَكُمْ. قُوَّةٌ سَيَتَسَلَّمُهَا لِسَانٌ مِنْ آخِرٍ لَتَرْجِعَ رَكِيكَةً، بَعْدَ ذَلِكَ، كَالنَّدَمِ».

شَرُّهُمْ أَيُّهَا الشَّرُّ.

شَرُّدُ

جِيرَانُ

الْكِتَابِ

الْمُهْمَلِ

عَلَى

رف
الشفق
الثالث .

شُرِدَ الكتاب سطرًا سطرًا .
شُرِدَ الشفق .

شُرِدَ الغدُ ، الذي يتمرّع في قشّ العَدَس بدواجنِه - دواجنِ المديح .
اقرأ عليه سيرته . اخذلّه أن يتتبع سيرته .
لَقِيَ له ما سيلفّق الغدُ لغيره مبتلاً كالهرة من النبيذ ، الذي بتجرّعه
الخير من كؤوس السّير : «أيها الغدُ المنكسُ على الصارية ، يا سلح البطّ في
جداول النّفيس العريق ؛ يا الغدُ الفتقُ في صفاق الراوية ، المنقبضُ من
حظوظ الهواء ؛ الغدُ السّكرجة ، الجنّاجنُ مرضوضة من عشرات الوقت ؛
الغدُ اللّرج ، البرّم ، المحاق في اليوم الرابع ، الحسدُ مجتمعًا كالنّقرس في
العظام ؛ الغدُ القشرة على جوزنا ، الجرعة الناقصة ، عزلة النخل ووشاية
الغريب بالغريب ؛ أيها الغدُ الحماقة ؛ يا تعب القضاة في تدبير الشهود
المهمومين ؛ أيها الترقوة المهشمة من ركلة الحنين القوية ، يا نزيل الخطأ إذ لا
تجد نزلًا ، اغفنا من ندائك - نداء القناع » .
املا جيوب الغد بأنقاض أحفاده .
لَمْ الغدُ الفئات الباقي من خبز الآلهة حول صحنك ، أيها الشرّ .
انثره لدواجنِ الباطن ونعام الظاهر .
عاليا كسنين الرحيل انثر الرماد ، الذي ذرّفته الحرائق في بكائها
للآلهة .

عاليا كقهقهات الحروب إذ تغادر فجرا إلى معاصرها - معاصر الزيت ،
انثر الرماد ، الذي ذرّفته الحرائق في بكائها للإنسان .
عاليا خبيء الحاضر عن أتباع القلق المخلص كالذئبة .

بَحْرُ الْمَلَائِكَةِ الْقَلَقَ بَتِيغَ الْمَغُولِ .
دَخَرَخِ الْأَبْدِيَةَ أَشْبَارًا ، لَا أَكْثَرَ .
أَرْبِكُنِي بِمَا لَا يُرِيكَ .
وَزَجِ الْمَذَابِيحَ أَقْدَاحًا مُتَسَاوِيَةً فِي الْمَجَالِسِ الْأَلْيَفَةِ :

قَدَّمَ خِصَاءً ، أَيُّهَا الشَّرُّ .
حَتَّيْنِ خِصَاءً .

مَفْقُودُونَ مُسْتَعَادُونَ فِي أَدْوَارِهِمُ لِلْمَجَازِرِ الْمُسْتَعَادَةِ ، يَبْلُلُونَ رَغِيفَهُمْ
الْيَابِسَ بِعَرَقِ الْخَدَمِ فِي إِفْطَارِ الْخَيْرِ .
هَيْكُ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

رَتَّبَ الْخَيْرَ النَّاضِجَ مُقَطَّعًا كَشَرَائِحِ اللَّحْمِ فِي الصُّحُوفِ .
رَتَّبَ الْمَدَنَ الْخَبِزَ مُقَطَّعَةً فِي سَلَالِ الْخَبِزِ عَلَى الْخَوَانِ الْكَبِيرِ :
هَاهُمْ النَّحَاتُونَ : أَزَامِيلُ اللَّوْنِ . حَجَارَةُ اللَّوْنِ . نَحَتْ الْخَلِيَّةَ النَّائِمَةَ فِي
الْخِصَاءِ بِأَيْدِ عَشْرِ . نَحَتْ النَبْضَةَ ، الَّتِي تَرَكَّتْهَا ، أَيُّهَا الشَّرُّ ، نَحْتِ جَنَاحِنِ
اللَّوْنِ مَسْمُوعَةً كَقَلْبٍ مُرْتَدٍّ عَنْ مَذَاهِبِ الْجَسَدِ . الْمُتَالُونَ يَنْحَتُونَ الْبُشْرَى
الْحَجَرِيَّةَ فِي الْجَسَدِ بِإِزْمِيلِ اللَّوْنِ . كُلُّ جَسَدٍ هَدَايَةً مِنْ وَحْيِ اللَّوْنِ الْمُتَجَزِّ
بِالْأَزَامِيلِ الْعَشْرَةِ نَافِرًا عَلَى الشَّهَوَاتِ الْهَدَايَةِ . كُلُّ هَدَايَةٍ سَخَرِيَّةٌ لَوْ فِي
الْبُشْرَى الْمَنْحُوتَةِ بِإِزْمِيلِ الرَّمَادِ الْخَالِدِ نَافِرَةً عَلَى الْعِظَامِ . السُّحَاتُونَ يَحْمِلُونَ
مَعَهُمْ حِسَاءَ الْحَجَرِ فِي الطَّاسَاتِ الْحَجَرِ إِلَى كَهُوفِ اللَّوْنِ . يَحْمِلُونَ قِيلَوْلَةَ
الْحَجَرِ إِلَى ظَهِيرَةِ اللَّوْنِ قَبْلَ أَنْ يَنْحَتُوا السَّمَاءَ رِقَاقًا مُقَطَّعَةً كُلِّحْمٍ نَاضِجٍ
فِي أَفْرَانِ السَّحِيقِ السَّحِيقِ .

دُلُّهُمْ ،
أَيُّهَا الشَّرُّ ،
عَلَى نُصْبِكَ

كي يُحسنوا قياسَ الحجر بحقائقه .
 ووُيخ الأفرانَ قليلاً على سهوِ نارها عن رغيهِ الأزل ، الذي ستحمِله
 إلى إِفطارِ الخيرِ محترقاً . ما هم . أحملُهُ محترقاً . ستزِينُهُ بالزيتِ واللوز ؛
 بالصعترِ اليابس ؛ بحشيشةِ العقربِ ؛ بالعُجْبَرَاء ؛ بَسَافَةِ اللازوردِ ؛ ببزرِ
 الكَرْفَسِ المقدونيِّ ، وهَلِيلِجِ كَابُلْ ؛ بسمسمِ النُكاحِ الظلِّ ،
 الجماعِ المكانِ ،
 العَرْفَجَةِ ،
 المواقِعَةِ ،
 الاستِبطانِ ،
 السُّفَادِ ،
 المباضَةِ الهَلْهَلِ ،
 التوهْدِ النداءِ ،
 الرُّصَاعِ ،
 الإِبتِيَارِ ،
 الرُّطْعِ ،
 الإِفْضَاءِ ،
 الشَّقْنَتَانِ العازِفِ بالبِنَصْرِ على عودِ كُلِّ إلهٍ عازِفِ .
 المُنْحِ ،
 المُحَارَقَةِ ،
 الحَنَاءِ ،
 الوطءِ النَّزيفِ فوقِ الوسائدِ القميريةِ .

زَيْنِ الرغيهِ المحترقِ بِسُكْرِ رِغَاةِ الوعولِ في الجليلِ ، وجَذَفِ في الرمادِ
 بمجاديفِ الجُمُرِ حتى الخليجِ الرابعِ - خليجِ العُرفَيْنِ ، هناك ، قُبَالَةَ الخلاءِ

اللون - شقيقي ، ابنِ الأمهاتِ الأربعِ يفرمنَ العَدَمَ كَرَفَسًا وَقُنْبِطًا لعشاءِ
الحلائقِ ، أيها الشرُّ .

لا تخفْ . اصنعْ إلى قلبي - قلبِ المفقودينَ في المكانِ الممرُغِ سَبْعًا في
رُبِّ الحُصْرَمِ ؛ الممرُغِ سِتًّا في السُّنَمِ ؛ خَمْسًا في ذُرُورِ حَجَرِ السُّنْبَادِجِ ؛
أربعًا في النِّشَاءِ ؛ ثَلَاثًا في التورياتِ الْمُعْتَصِرَةِ بينِ سطورِ اليقينِ الْمُعْتَصِرَةِ ؛
مَرَّتَيْنِ في ذُرْقِ الهدهدِ ؛ المَمْرُغِ طويلًا في النسيانِ يهتدي به المفقودون
إلى خيالهم ، أيها الشرُّ .

رَتَّبِ المَدَنَ الحَبِيزَ مقطعةً شرائحَ في سلالِ الخبزِ . رَتَّبِ العافيةَ الدمويةَ
في قواريرِ الحَلِّ والزيتِ مَبُوءَةً بحروفِ المَلَكَاتِ الْمُنتَهَبَةِ على الحِوَانِ الكبيرِ :
ها هم الذهبيون ، المسكوكون بألَّةِ الكَيْدِ الذهبِ ، المكَلَّفون بمذاهبِ البريقِ ،
الرُّحَالَةُ في الشغلِ الذهبيِّ للخزائنِ كُلِّهَا ؛ محترفو مسارراتِ المعدنِ ،
المنقسمون بدعةً بدعةً في حروبِ النفائسِ ؛ الذهبيون كصُورٍ ؛ منتحلو
هواجسِ السُّبَيْكَةِ الأولى ؛ المَرْقُوهون كَشَقَاءٍ - تراهم أنتَ ، أيها الشرُّ : لا
يَسْأَلُونَ لا يُسْأَلُونَ . دَحْرَجْ إليهم ما يليقُ بالمآدِبِ الذهبيةِ : الحلوى المُخْتَمِرَةُ
في الصيفِ السُّكْرِيِّ - صيفِ الدمِ .

لا تخفْ :

إنه الألمُ يَرْمُمُ الموتَ في الرسومِ . الألمُ الرَّحِيمُ ؛ مدْرَبُ العظامِ على
عَرْفِهَا - عَرْفِ الفجرِ ؛ الحائِلُ حُلْمُ الكَلْبِ في الخدعِ ذاتِهِ - مَخْدَعِ المعلومِ
الكَلْبِ ؛ الكَوْنِيُّ الوازنُ ؛ المُدَقِّقُ في أخبارِ اليتامى المحظوظين ؛ سليلُ
مراتبِهِ ؛ الأبُ المُرْصَعُ ذو الشديدينِ الفلكيينِ ؛ مُجَنَّدُ الحقائقِ في الكشفِ .

لا تخفْ :

ألمُ يَرْمُمُ الموتَ نَقْشًا نَقْشًا .

رَمَمَ الموتَ ، أيها الشرُّ . أعدَّهُ طريقًا يكَلِّمُ بلسانِ البساتينِ - لسانِهِ -
بذورَ الضلالِ الخالدِ . دَحْرَجْ إليه ما يليقُ بالمآدِبِ الذهبيةِ : أَفْرَانِ الأَجَرِ ،

وسلالَ المواثيقِ الطازجةِ كورقِ الهندباءِ .

لا تخف :

فَنَاصُونَ مَاءَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَاعَاتُ الرَّمْلِ :

الماءُ السَّاعَةُ .

الرَّمْلُ السَّاعَةُ .

الشَّعَاعُ السَّاعَةُ مَنْكَسِرًا فِي انْعِكَاسِهِ عَنْ رِيَشِ الْإِرْوَزِ .

الصَّدَقَةُ السَّاعَةُ

الذِّبَابُ السَّاعَةُ .

السُّرْمَانُ الْأَصْفَرُ السَّاعَةُ فِي طَيْرَانِهِ بِالْأَجْنَحَةِ السَّبْعَةِ حَوْلَ السَّاعَةِ

الماءِ .

فَنَاصُونَ مَاءَ تَحْوُمِ حَوْلِهِمُ السَّاعَةُ الْمُتَأَخَّرَةُ فِي دُخُولِهَا عَلَى الْوَقْتِ ؛

السَّاعَةُ الْمُتَمَرِّدَةُ ، سَاعَةُ دُخُولِ الْخَيْرِ عَلَيْكَ مُتَوَسِّلًا أَنْ يَرِيكَ النَّقْشَ
المفقودَ .

أَرِهِ

النَّقْشَ

المفقودَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

ذَبْحُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْعَدَمِ .

ذَبْحُ فِي الْكَلِمَاتِ مُذْ تَسَلَّمْتَهَا هَكَذَا مِنَ اللَّهِ ، وَأَعَدَّتْهَا مُتَخَبِّطَةً فِي

الدمِ إِلَيْهِ .

من كانون الثاني ٢٠٠٣

إلى آب ٢٠٠٤

الفهرست

5	المقدمة
41	١- كل داخل سيهتف لأجلتي ، وكل خارج أيضاً
43	دينو كابريفا تعالي إلى طعنة هادئة
53	الكواكب المهرولة صوب الجبل
58	مبعوث الفراشات
63	فنصل الأطفال
69	المطالبة بجسد فراشة غريبة
75	نقابة الأنساب
77	أنا الخليفة ، لا حاشية لي
83	٢- هكذا أبعثر موسيسانا
85	اقتلوا روناشتا
95	الفصيلة المعدنية
109	٣- للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار المالك
111	البراري
127	فراشات للعواصم
161	الفريسة
159	٤- الجمهرات
	(في شؤون الدم المَرَج ، والأعمدة ، وهبوب الصلصال)
227	٥- الكراكي
229	الفصل الأول / ديلانا وديرام
281	الفصل الثاني / تعريفات

- 287 ٦- بالشبّاك ذاتها ، بالشعالب التي تقودُ الريح
 289 فهرستُ الكائن
 303 الحديد
 323 الضبّات المتّزن كسيد
 329 منزل يعبث بالممراتُ
 341 قلقُ في الذهب
 منعطفاتُ . ظهيرة من ريش . دهاقنةُ يصفونَ الليلَ .
 351 غبار مسحورٌ ، وغدٌ كالمعداء يتهيّأ لأزقةِ الغيب
 373 خزائن منهوبة
 383 إنتقام
- 385 ٧- البازيار
 387 أسرى يتقاسمون الكنوز
 403 مهاباد
 412 محمود درويش
 425 تدابير عائلية
- 439 ٨- طيش الياقوت
 441 تصانيف النهب
 461 الأقفال
 471 استطراد في سياق مختزل
- 477 ٩ - المجابهات
 511 ١٠- المئاتيل
 559 ١١- المعجم



الاعمال الشعرية

COLLECTION



منذ غزا سليم بركات المشهد الشعري العربي ، في أوائل
السبعينات ، بشرنا بشعر جديد مختلف . لم يشبه أحداً ،
وسرعان ما صارَ هذا الفتى الكرديُّ الخجولُ أباً شعرياً لأكثرَ
من شاعرٍ عربيٍّ فتتَّهَمُ صورُهُ الغريبةُ ، ولغتهُ الطازجةُ ،
وإيقاعُهُ الشَّلَّالُ .

ليست اللغةُ وسيلةً للتعبير . إنها الوسيلةُ والغايةُ .. يسوسُها كما
يسوسُ قطيعاً من ذئابٍ مروّضةٍ إلى مجهولٍ في متناولِ
الموهبةِ ، وتسوسُه إلى البحثِ القاتلِ عن معنىٍ مستترٍ وراءَ
اللامعنى ، أو عن عبثِ اللامعنى في المعنى .

لكنَّ الشعرَ يتدفقُ دائماً هناك : في ما يفعلُ باللغةِ وفي اللغةِ ،
وفي الجماعِ بين الحسيِّ والذهنيِّ ، وفي إفلاتِ خياله الجامحِ
من المألوفِ والمتوقعِ إلى المفاجئِ المدهشِ !

محمود درويش

ISBN 978-9953-36-177-0



9 789953 361772

